المدخل الى التاريخ

تأليف
الدكاتره
نور الدين حاطوم
نبيه عاقل
احمد طربين
صلاح مدني

أعضاء قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة دمشق

٦

مطبعة الانشاء بدمشق
١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م

ب) فكرة التبدل والتطور . — والتاريخ اذ يــدرس المجتمــع يدرس معه الاحوال المتعاقبة التي مر فيها ، من حركات داخلية ، واصلاح وحروب واضطهادات وفتوحات واستعمار وما الى ذلك من احداث . ولا شك في ان لهــذه الحوادث الكبرى نتائجها في تبديل المجتمع : فحادث ظهور الاسلام ، والفتح العربي ، واكتشاف امريكا والاصلاح الديني ، والانقلاب الصناعي والحرب العالمية الاولى والثانية ، ان لكل هذه الحوادث تأثيراً عظيماً في التبدل الاجتماعي خلال فترة معينة من الزمن ، ودراستنا لهذا التبدل خلال عدة عصور تمكننا من ان نرى التبدل العميق الذي مر فيه المجتمع حتى وصل الى ما وصل اليه .

ان ما يسترعي النظر بادىء بدء في تغيير المجتمع هو التبدلات المفاجئة كالثورات والانقــلابات والفتوح والحروب . غير ان هنالك تبدلات تدريجية وعميقة في حياة المجتمع ومدى تطوره ، كتبدل العادات والاخلاق ونمط العيش وحتى العقلية ، لا تقل اهمية عن الاولى ان لم تزد عليها ويجب الانتباه لها واخذها بعين الاعتبار .

وهذه الفكرة التي تتكون في ذهننا عن تبدل المجتمع تزيل منــا الاعتقاد بثبات المجتمع على حال واحدة وعدم تغيره والتكيف معــه ، والا لرضينا بشروره وتحملنا آلامه واستسلمنا له كما نستسلم لكوارث الطبيعة . وقد يؤدي هــذا الشعور عند بعض المثقفين الى اللامبالاة ، وعند بعضهم الآخر الى الاستفادة من مساوىء المجتمع والتظاهر علنا بأن مجتمعهم خير مجتمع اخرج للناس ، وان نظامهم افضل نظام عرفه المجتمع . وهذه هي « الوصولية » بعينها .

أما من يعرف ان المجتمع يتبدل ويريد ان يعمل في تبديله وتطويره فهو في حــالة نفسية مغايرة تماماً . انــه يرى ان القوانــين والنظم والسلطات وما الى ذلك في حياة المجتمع ليست كشروط الطبيعة ثابتة ،

بل هي أحكام انتقالية وتدابير وقتية قابلة للتغير دوما ، وانها وجدت بظروف خاصة ، ويستخلص من كل ذلك ان من الممكن ان تتبدل بظروف خاصة اخرى •

ومن يدرس الاحوال المتعاقبة التي مر بها شعب من الشعوب يرى خلالها ان الشعب قد بدل ، بتبدل الظروف ، نوع حياته ودينه ونظامه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي حتى بدا يختلف عما كان عليه في السابق : فالشعب العربي مثلا في العصر العباسي وفي العصور المتأخرة هو غيره في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، وهو في العصر الحاضر غيره في ظل الحكم العثماني والاستعمار الاجنبي •

ويرى أيضاً ان نظام شعب من الشعوب منوط بالظروف التي احاطت به فأقرته ، وان جوانب هذا النظام ليست سواء ، ولا تخضع للتبدل بدرجة واحدة • فمنها مايتبدل ببطء لأنه يتعلق بشروط دائمة ، ومنها ما يتبدل بسهولة • وعندما يساهم في الحياة العامة يستطيع أن يأمل فيما يتبدل بسرعة وفيما لا يتبدل الا بالتدريج ومع طول الأناة والصبر ، فيتخذ من كل ذلك قاعدة لسلوكه ونشاطه : ففي النواحي التي يتبدل فيها المجتمع ببط يحاول ان يعمل خطوة خطوة دون ان يقوم بتبدلات مفاجئه ، وثقافته التاريخية توحي اليه بالفطنة والتعقل • وفي النواحي التي تتبدل بسرعة يستعمل طرقاً سريعة ، وثقافته توحي اليه الثقة والاطمئنان لما يعمل •

وتهيء دراسة التبدلات الطرق العملية التي يستطيع بواسطتها أن يبدل المجتمع : كالاصلاح الاداري ، او التطور التدريجي ، او الثورة • فهو يرى ان النظام السائد عند شعب من الشعوب انما وضعه أناس قضوا نحبهم ، وان هذا التراث ، الـذي خلفه الاموات وتخضع له الاحياء ، قد اعتمد في بنائه على شروط حياة عصر مضى ، وان ليس

بالضروري أن تبقى الشروط نفسها في العصر الذي يليه ، وأن بعض هذه الشروط مادي وما زال مستحكما وليس في الوسع تغييره بسهولة ، وبعضها الآخر مجرد أوهام وأضاليل وعادات ومصالح ومطامع وامتيازات وأكاذيب ومن الممكن ازالتها ، واذا حصلت في جيل من الأجيال عن التربية والرأي العام والقراءة فهي تتبدل بالتربية والرأي العام والكتب ووسائل الدعاية الاخرى .

وكذلك يعلم من تقف التاريخ الطرق التي يأمل بواسطتها ان يحصل على تبدلات في المجتمع . فهو يعلم بأن تبدل العقلية ونوع الحياة والنظام لا يحدث فجأة وبدرجة واحدة عند الجمهور ، وان فكرة التجديد لا تحدث الا عند فئة مختارة من الناس وهي فئة المجددين والمصلحين ، وان كل فكرة من هذا النوع يمكن ان تلقى عناصر مقاومة وعناصر تحبيذ ، وان هؤلاء المصلحين ، اذا تركوا وحدهم ، غير قادرين على جذب الآخرين الى تبني فكرتهم ، ولذا لا بد لنجاح الاصلاح من تهيئة ونضج ودعاة ووسطاء .

ويستطيع بمعرفته هذه ان ينفي عن فكره ان التقدم يتم بصورة غريزية وعفوية في السواد والدهماء ، أو بعظيم من العظماء ممن اعتاد الناس ان يقدسوهم اصناماً ويسموهم ابطالاً . ولذا فان دراسة التبدلات تحرره من خطرين : اولهما ان الفرد غير قادر على ان يحرك ساكناً في المجتمع ، وهذا شعور بالعجز يؤدي الى التخاذل والنكوص ؛ وثانيهما ان الكتل البشرية تتطور وحدها ، وان التقدم حاصل لا محالة ، ولا حاجة بالفرد الى الاهتمام بها .

ولكن التاريخ يرينا ان بالامكان مكافحة الافكار الثابتة ، وان للمجتمع رأياً عاماً ، وان هذا الرأي لا يتبدل وحده ، وان شخصاً بمفرده غير قادر على تغييره . بيد ان تكتل عدة أفراد وتنظيم جهودهم

تجاه واحد يمكن ان يغير الرأي . وهذه المعرفة تمنحنا الشعور
وتدفعنا الى القيام بالواجب وتعين لنا الطريق التي نسلكها في
أي توجيهاً مفيداً ونافعاً . انها تهيب بنا الى التفاهم والتعاون
ا ممن اشربوا نفس النوايا الصالحة مثلنا للعمل معا في تحويل
وجيهه سواء بتربية الجيل الناشىء أم بالدعاية بين الراشدين ،
عناصر الشابة منها الذين يكونون عادة اكثر مرونة واستعدادا
فكار الجديدة .

من دراسة التاريخ ان الحوادث كثيراً ما تكون معقدة
ولفهمها يجب تحليلها وبيان جميع الشروط التي أوجدتها ؛
هنالك حوادث منعزلة ، بل سلسلة من الحوادث تتوالى
مع بعضها وتؤلف « قضايا » ؛ وان دراسة هذه القضايا تعودنا
لى كل منها تحت زاوية خاصة ، أو ضمن نطاق ضيق ، بل
كبر يستجمع كل العناصر التي تدخل في تركيب القضية .
ا نريد أن نقوم باصلاح اجتماعي مثلا ، لا بد لنا من دراسة
اهنة دراسة عميقة ، ووضع برنامج عام شامل يضع جميع
والاحتمالات ، والحلول الممكنة لكل حادث .

ان مزاولة الطريقة الخاصة بالتاريخ ، أي الطريقة الانتقادية
الوثائق والاخبار والكشف عن الحقيقة ،تنقي الفكر من
العامي وتعوده على النزاهة والنسبية والشك والحذر من
خبار وقبول ما يعرض عليه الا بعد الانتقاد والتمحيص ،
الاستاذ لويس هالفن : « التاريخ مدرسة عجيبة للحذر »[1]؛
ن الثقة العمياء بأقوال المغرضين واخبار الصحافة وتصريحات

جع : Louis Halphen, Introduction à l'Histoire, p. 9. Paris 1946.

رجال السياسة. وقدكتب بهذا الصدد مؤرخ حديث : «لكثرة ما تحاول الحكومات ، على لسان الصحافة ، أن تجعل الجمهور يصدق كثيراً من الاشياء المتناقضة ، في فترة قصيرة من الزمن ، تنتهي به الحـال الى الا يصدق شيئاً . »

وتتساءل بعد هذا هل التاريخيهيء للحياة ؟ الجواب بلى. انه عنصر ثقافي ، ومساعد تربوي يجهزنا بمعارف وافكار ، ويولد فينا عواطف وعادات تجعلنا اهلا لفهم المجتمع ، وتدفعنا الى خوضه بشجاعة والعمل فيه بارتياح . ولا نقول ان غيره من الدراسات والعلوم الاجتماعية لا تهيء مثله للحياة في المجتمع ، بل نقول ان التاريخ يري حقائق المجتمع بصورة حية وحركية ، ويدخل في اعداد المواطن الصالح ، لأنه يفهمه مجتمعه ويأمـل منه أن يساهم في خـدمته ، ويجهز المصلح الاجتماعي بتجارب ووقائع كافية مستمدة من صميم الحياة ، ويحذره الا يذهب سريعاً وبعيداً في الاعتقاد بان باستطاعته شفاء المجتمع من آلامه بما لديه من أدوية وعـلاجات . وكل ما في الأمـر انه يزوده بمعلومات غزيرة تكسبه مرونة وتجعله أكثر تفهما لروح الواقع . ومن هو رجل الدولة الذيلا يعرف التاريخ ولا يلجـأ اليه ؟ انه الطبيب الذي لم يختلف الى المستشفى ولم يدرس الحالات المرضية . ونعتقد أخيراً ان التاريخ مرجع ومشاور فني لا تخلو استشارته من فائدة . انه يدلنا دوماً على السير قدماً الى الأمام ، اذ لا مجال للعودة الى الوراء ، لأن التاريخ لا يعيد نفسه . وهو يشبه النهر الجاري الدائم الجريان الذي لا يقف عند حد ، بل يمضي في طريقه يحقق رسالته في السعي وراء الحقيقة والبحث عنها .

وهكذا يمكننا استخلاص النتائج التي تتضح فيهـا فكرة التاريخ المقررة اليوم للطريقة التاريخية والصفات الخاصة التي يجب ان يتحلى بها المؤرخ .

١ ــ التاريخ معرفة الماضي البشري المبنية على الأصـول أي المخلفات التي تركها السلف ؛ انه دراسة علمية « غنية بعصور مديدة من التجربة » ، وهو كسائر العلوم الأخرى متطور وقابل للكمال •

٢ ــ ان هدف التاريخ وسبب وجوده هو البحث عن حقيقة يعلم سلفاً انها نسبية ؛ وان النقصان الناشيء عـن الوسائل ، التي يتصرف بها المؤرخ لبلوغ هذه الحقيقة ، يجب الا يكون سبباً مثبطاً له ، بل ، على العكس ، دافعاً لمحاولة التقرب منها دوماً وابداً •

٣ ــ التاريخ علم اجتماعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بغيره من العـلوم الانسانية الأخرى التي يجب ان يبقى متصلا بها ، وان يتعاون باخاء معهـا •

٤ ــ يجب ان يـكون التاريخ شاملا لا يغرب عنـه شيء مـن ماضي الانسان ، لأن كل شيء موضوع التاريخ ، ولا توجد وقائـع « تاريخية » ووقائع « غير تاريخية » •

٥ ــ لا تاريخ بدون وثائق ، على ان تؤخذ كلمة « وثيقة » بمعناها الواسع : وثائق مكتوبة ، رمزية ، منقولة بالصوت أو بالصورة أو بأي شيء آخر •

٦ ــ لا تاريخ بدون تفقـه ، أي دون القيام بادىء بدء بنقـد للاصول اما من قبل المـؤرخ نفسه أو من قبـل مختص أو عـدة اختصاصيين • وعلى أي حال لا يرتجل المؤرخ ، اذ لا بد له ، عـدا « الموهبة » ، من اعداد منهجي •

٧ ــ يمكن تعريف الطريقة التاريخية بانها مجموعة طرق تقنيـة قابلة للتحسين دوما يضعها التعمق في البحث تحت تصرف المؤرخ •

٨ ــ النزاهـة الفـكرية والشجاعـة الخلقية صفتـان اساسيتان

للمؤرخ • « ان أول قانون يفرض عليه هو الا يجرأ على قول شيء يعلم بأنه خطأ ، والثاني هو الجرأة على قول كل ما يعتقد انه صواب » •

٩ ـــ تتضمن النزاهة الفكرية الحس الانتقادي • وعلى المؤرخ ان يكون منتبها دوما للاخطار التي تنتظره واكثرها خداعا الخطأ في تأريخ الحوادث • وعليه خاصة ان يكون مستعدا لمقاومة أحكامه الخاصة المسبقة ، وأحكام قرائه وأخيرا الأوهام التي أيدها المعاصرون انفسهم »•

١٠ ـــ النزاهة الفكرية لا تعني اللامبالاة لأن « التاريخ مغامرة فكرية تدخل فيها شخصية المؤرخ بكاملها » •

١١ ـــ وأخيراً على المؤرخ ان يكون كاتباً وفناناً وفي الوقت نفسه عالماً ، والا عد مقصراً عن هدف من أهداف التاريخ وهو احياء الأمور الميتة بقوة سرية لا تمكن المشاركة بها الا وهي قوة العطف والموهبة[1].

---

(١) راجع مقدمة كتاب L'histoire et ses Méthodes المطبوع تحت ادارة شارل ساماران عضو المعهد الفرنسي ، باريس ١٩٦١

الفصل الثاني

ما قبل التاريخ

يعرف ما قبل التاريخ بتاريخ العصور التي سبقت العصورالتاريخية، وخاصة تاريخ الانسان منذ الاصل حتى ظهور الوثائق المكتوبةالاولى. وعلى هذا فما قبل التاريخ يمتد تقريباً على كل العصر الرابع الأرضي حتى عصر المعادن أي الى نحو ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

هذا وان ميزة دراسات ما قبل التاريخ هي انها دراسات حضارة صرفة لا شأن لها بترتيبات السياسة ومآسي الحروب وقيام الدول وسقوطها ، وعدوان البشر بعضهم على بعض . فليس امامنا سوى آثار واطلال صامتة نستخرج منها معلوماتنا عن غابر الانسان بهدوء وأناة . لقد ذهب ناس ماقبل التاريخ ، ولم يبق من بعضهم الا بضع عظام ، وهي مستندات قليلة قد لا تغني ، ولكنها على الاقل شيء محسوس ينطق بما فيه .

وعلماء ما قبل التاريخ يقفون ، وجهاً لوجه ، أمام المادة التاريخية الصماء التي استخرجت بالمعول والفأس ولم توصف بالقلم ، امام الهياكل العظمية ، او بقايا الادوات والاواني ، او قطع منها ، أمام حفر مليئة بأدوات الحرب والسلم ، وكهوف وجروف تبدو مجموعاتها جلية في كل طبقة ، ورسوم بدائية ملونة ومتقنة او غير متقنة ، الى ما هنالك من مادة أصيلة صحيحة لا تعرف الزيف وجدت مطمورة في منبسط

الارض او في الكهوف ، مبعثرة في مسارب البشر من اطراف الصين الى جاوة فالهند فسورية فأفريقية الى اوروبة • وما زال العلماء يربطون بين ما وجدوه فيها بين اطلال البشر ومخلفات العصور ليرسموا على سطح هذا الكوكب خطط سلوك اجدادنا المتقادمين قبل ان ينهضوا بالحضارة ويمهدوا للعمران البشري •

وان المرء ليعجب من ضآلة الحطام الذي اقام العلماء عليه درسهم ، ويتأمل ماخرجوا به على الناس من كشف بعض أستار المجهول عبر غابر الزمان ، ومن وصف بارع للانسان الاول وهو يروح ويغدو ، يصيد او يجمع القوت ، يعمل او يعبث •• ويقف المنصف خاشعاً امام جلال البحث الدؤوب الصابر ، سعياً وراء تأريخ الناس من غير جنس ، واقوام من غير لسان ، وجماعات تفرقت احسابها في البشر اجمعين •

بين التاريخ وما قبل التاريخ • — على ان الحدودتتلاشى بين التاريخ وما قبل التاريخ • ولكن هذا القول ، الذي هو صحيح في عمومياته ، يحتاج الى شيء من التحديد والتحليل في تفاصيله ، لتوضيح الاطار العلمي والفلسفي الذي ينتظم فيه مجرى احداث التاريخ وما قبل التاريخ •

ان ما قبل التاريخ دون شك نهر تتلاطم فيه تحولات الاحداث ، ولكنه في نظر العقل حتى الآن لا يشكل جزءاً من التاريخ لأن التاريخ لا يبدأ الا في عهد الوثيقة المكتوبة ، أي حين استطاع الانسان ان يكون فكرة واضحة واعية عن نفسه وعن منشأه واتجاهاته • ومن الخطأ القول بان التاريخ يمكن ان يوجد بالضرورة في حال غياب الوثيقة المكتوبة ؛ فالتاريخ هو الماضي الذي يبدو جلياً للانسان ما امكن ، انه الاطار الذي يحيط بهذا الماضي ويدرك ما سبقه ، ومن هنا يكون ما قبل التاريخ الاساس الذي يقوم عليه المستقبل كله ، ولكنه يظل في دائرة اللاوعي •

ان رقي الانسان وتطوره في عصور ما قبل التاريخ ليس الا تشكلاً بطيئاً للكائن البشري وطبيعته العميقة • وبالمقابل ، ان رقيه التاريخي او نموه هو تفتح مكاسبه العقلية ومداركه العملية • وقد تشكلت هذه الاسس الاولى في ما قبل التاريخ خلال احقاب متقادمة عتيقة ، في حين ان التطور التاريخي يبدو كمظهر موقوت بمثله وافكاره وعقائده ومنجزاته • انه يظهر وكأنه يطفو على سطح الأعماق التي تتدافع منها احداث ما قبل التاريخ •

والحق ان وضعنا كبشر يرتكز في آن واحد على ما قبل التاريخ وعلى التاريخ • عن الأول استمد الانسان اساس طبيعته وفطرته البدائية وغرائزه ولا وعيه وصفاته الأولى • وعن الثاني اخذ تقاليده ومدركاته وعقائده الواعية ومسلكه واخلاقه وممكناته •

وعبر عصور تاريخ البشر ، هذه الفترة القصيرة ، لم يطرأ تبدل يذكر على الانسان بالنسبة لعالم الأحياء او عالم النفس الطبيعي اذ بقيت دوافعه البدائية كما كانت تقريباً ، كما يؤكد لنا ذلك التراث البيولوجي في عصر ما قبل التاريخ ، وبالعكس ربما ضاعت مكاسبنا التاريخية ومآثرنا في غمرة النكبات والاحداث ، وبقي التراث البيولوجي فقط هو الأساس البدائي •

ان المعضلة الرئيسية التي تفرض نفسها اذن على الفكر التاريخي وضميره هي معرفة كيف كانت الطبيعة البدائية للانسان في عهد ما قبل التاريخ ، لأنها المبدأ الأول ، والحالة الدائمة للبشر ، اذ في أعماق الانسان يكمن جزء أساسي من القوى الفعالة التي ترجع الى عهد تشكل الانسان ، أي ما قبل التاريخ • فلو أصبح في مستطاعنا الكشف عنه لتوفر لدينا ما يلقي الضوء على مادة الانسان نفسه ، فنعرف كيف أصبح على ما هو عليه بحسب ماتقلب عليه من أحوال وظروف •

ولكن ما قبل التاريخ لا تمكن معرفته مباشرة الا من الخارج وبقدر ما تسمح به نتائج الحفائر والأدلة الأثرية التي لا تمدنا الا بالنذر اليسير من المعارف عن الانسان الاول • أما عن النفس والفكرة والعقيدة والنشاط الروحي لانسان ما قبل التاريخ فلا نحظى منها بجواب شاف • ومن هنا رأت كثرة المؤرخين الا يزجو بأنفسهم في ازمنة الانسانية الأولى الا في حدود معينة وبخطى حذرة وئيدة •

يتضح مما سبق أن أهمية ما قبل التاريخ لا تبدو من طول عصوره المديدة فحسب، بل أيضاً من أن الانسان خلال هذا العهد المتقادم استطاع أن يصل الى معظم مخترعاته الكبرى ، والى الملاءمة مع البيئة والحياة الجماعية ، هذا فضلا عن أنه تطور جسمانياً الى السلالات البشرية الحديثة ، ومن ثم فان كلمة موجزة عن عهد ما قبل التاريخ تبدو ضرورية لأي دراسة لتاريخ الانسان المكتوب •

الارض وسكانها في عصور ما قبل التاريخ • — المراد من التاريخ تاريخ الانسان والوان نشاطه العملي والفكري • لقد كان من الجائز في الأمس القريب أن يكتب المؤرخ تاريخاً للبشر يبدو في ظاهر الأمر سديداً معقولاً دون أن يتعرض فيه للتواريخ الاخرى من تاريخ طبيعي أو علوم الفلك وطبقات الأرض ، أو ما هو أحدث منها كعلم الانسان • بيد أن تقدم المعرفة بدل وجهة نظرنا تبديلا كبيراً • فقد اتضح لنا أن هذا الكون الهيولاني السديمي ، الذي تتلألأ في لياليه الأجرام النيرة ، ظل ينمو ويتطور طوال ملايين الملايين من السنين قبل أن تولد كرتنا الارضية الضئيلة هذه ، وما ميلادها الا كحادث الامس في تاريخ الكواكب • واتضح أيضاً أن الشمس ليست الا نجماً صغيراً بين اجرام النجوم ، وأن حياة الانسان على وجه هذا الكوكب الارضي أشبه بالثواني الأخيرة في يوم طويل ، وأن الانسان لم يترك عن وعي وقصد

مدونات لأخباره الا عن جزء من خمسين جزءاً من وجوده • ولا عذر لنا اذا تصدينا لكتابة تاريخ عام للكون يتجاهل الكون نفسه ، ووضعنا مسرداً لنضال الانسان وتفاعله العميق مع الأقربين والأبعدين من جنسه ، ومع البيئة المحيطة به ، دون أن نحاول وصف المسرح الذي ظهر عليه هذا القادم الجديد ، ثم بعدها الانسان نفسه • ولـذا لا بد من وقف بعض الكلام على مسائل لا محل لها في اكثر التواريخ ومن الاستعانة بمختلف العلوم لنستطلع منهـا جواباً عن معضلات الوجود وأصـول الكون : عن الكون وعمره ومداه ؛ عن الأرض كيف وجدت ؛ عـن الحيـاة وكيف نشأت وانتشرت • عـن الانسان ومـا طـرأ عليـه من أطوار • وأخيراً عن مسلكه ودبيبه الأول على ظهر هذا الكوكب ، قبل أن يبدو من خلال مدوناته الاخبارية • على أنه بالرغم من تقدم العلوم العصرية فليس بمستطاعها الاجابة اجابة اليقين ، اذ يتعذر تحديد عمر الكون أو تصور توزيع للمادة والقوة لم يسبقه طور من أطوار النمو والارتقاء • واذا كانت الارض كوكبـاً من الكواكب المحيطة بالشمس فالبحث في حالتها السابقة للزمن الجيولوجي مستمد من علم الفلك الذي ارتقت معارفه حتى أصبح بامكان علمائه أن يدلوا برأي تقريبي في عدد السنين التي عاشها أقدم النجوم الظاهرة وهو في صورة نجم ، من خلال دراسة الكواكب والاجرام السماوية الاخرى ، فهذا العدد التقريبي هو ٢٠٠٠ مليون سنة ، وعلى هذا القياس يكون عمر الشمس بين السبعة ملايين والثمانية ملايين سنة •

والظاهر أن كل ما نعرف من نجوم جزء من سديم سحابي من الغاز الرقيق ، ولا تزال الالوف منها تشاهد متناثرة في السموات وتؤلف مرحلة من مراحل الارتقاء العالمي البطيء المطرد • وأشهر النظريات التي تفسر تكوين النجوم والكواكب هي نظرية العلامة الدكتور ٠هـ٠جينز J. H. Jeans وفيها يوضح معرفة تقلصها ودورانها وتـ وكيف

تنشأ أخيراً من كل سحابة مجموعة من النجوم • وليس السديم بغازات بل هو ذرات معدنية صلبة يرتبط بعضها ببعض بحكم الجاذبية فتتكون منها سحابة سماوية أو غبار سماوي يخضع لقوانين الطبيعة كأنما هو جسم واحد ، فهل تولدت الكواكب السيارة كالكوكب الارضي مثلاً على هذا النحو ؟

لقد ظل هذا الرأي سائداً حينا من الدهر • ولكن نظرية جينز أتت تقول ان النجم يستحدث لنفسه أسرة من الكواكب ، لا على نحو بطيء محتوم ، بل في الارجح نتيجة لحادث فجائي نادر الوقوع ، وذلك باقتراب جرم سماوي آخر يجذب بقوة جاذبيته الكواكب فيخرجها من كتلتها الاصلية ، وقد وقعت هذه الكارثة للشمس ذات يوم ؛ وربما منذ ٢٠٠٠ مليون سنة في حساب ما يقتضيه النشاط الاشعاعي بعد تجمد قشرة الأرض •

واننا لنتمثل أمامنا الأرض وغيرها من الكواكب السيارة وهي تبرد ثم تستحيل سراعاً سائلاً مائعاً ، ثم تجمد أخيراً ، وتولد التوابع في السنوات الاولى من وجود السيارات ، وتظهر الارض أول الأمر كرة سائلة أو مرنة ويدور حولها القمر تابعها الوحيد • وقد انصهر الجزء الخارجي منها ثم تصلب بالبرودة الناتجة عن الاشعاع • ومن المادة المصهورة التي تصلبت تكونت القشرة الارضية من صخور صلبة تحجرت تضاريس سطحها وصارت أثراً باقياً مسجلاً لما طرأ عليه من أحداث ، كما تكثفت الأبخرة سائلاً فتكونت منها البحار • وقد أحاطت بالارض في حالتها الاولى أبخرة وغازات ؛ فالغازات الاكثر دواماً هي وحدها التي بقيت متكثفة ، ومنها تألف الجو ، وبالتالي حدث التبخر والتكثف ، وتهطال الامطار وهبوب العواصف ، وانتظام الانهار وتشعبها • وحينما تعرض سطح الارض الى عوامل الحت والتعرية

والرسوب ، أصبح المسرح مهيأ للفصل الثاني العظيم من مسرحية الكون ، ونعني به ظهور الحياة .

ظهور الحياة على وجه الارض . ـــ ان عمر الارض ، اذا ما قيس الى عمر الشمس ، كان كطول اللبنة الاخيرة من البيت الاخير في طرف شارع يربو امتداده على نصف ميل . ويمكننا أن نتتبع تدرج تطور الحياة منذ ظهورها على وجه الارض . أما كيفية ظهورها فمعضلة لا يزال امرها من الظنون. والزمن الجيولوجي قديم جداً يقصر العقل البشري عن الاحاطة بقدمه . والحديث عنه يتطلب منا ان نجرد عقولنا قبل كل شيء من القيد الذي نفرضه عليها بمقارنة كل شيء بعدد محدود من السنين ، ولا بد أن ندرك أن عوامل الطبيعة المختلفة ما كانت لتحدث ما أحدثته من الظواهر على وجه الارض لولا طول الزمن الذي تعمل فيه . وقد تم انقسام الارض قبل بداية التاريخ الجيولوجي الى هذه الطبقات الست : اللب الداخلي الغازي ، الطبقة الفلزية ، الغلاف الثقيل ، ما تحت القشرة ، القشرة ، الغلاف الغازي الجوي . والعمر الجيولوجي لأي طبقة من الطبقات يجب أن يقدر بالنسبة الى الطبقات الاخرى . واذا كان التاريخ الجيولوجي سلسلة متصلة من الحوادث تعتمد كل واحدة منها على ما سبقها وتمهد السبيل لما يعقبها فان دراسة هذا التاريخ تتطلب للسهولة تقسيم الزمن الجيولوجي الى اقسام يمتاز كل منها بصفات وحوادث معينة . وقد قسم التاريخ الجيولوجي الى اربعة اقسام كبيرة هي العصور ، وهذه تنقسم الى احقاب ، والاحقاب تنقسم الى عهود . ومن بين العصور الاربعة تتميز العصور الثلاثة الاخيرة منها بما سكن الارض خلالها من انواع الكائنات الحية .

ان اقدم هذه العصور هو عصر الحياة القديمة Palaeozoic وقد تكونت فيه طبقات من الصخور تحتوي حفريات حيوانات ونباتات تختلف كل الاختلاف عن انواع الحياة المعروفة الآن .

ثم يليه عصر الحياة الوسطى Mesozoic وقد تكونت فيه طبقات من الصخور تحتوي انواعاً من النباتات والحيوانات تعتبر حلقة بين القديم والحديث • ثم عصر الحياة الحديثة Cainozoic حيث بدأ ظهور انواع من الحياة على وجه الارض تشبه كثيراً الانواع التي تسكنها الآن • وجاء ظهور الحيوانات الفقرية في عصر الحياة الاولى الأقدم Pampalaeozoic أو فجر الحياة • وفي الوقت الذي كانت فيه الانواع تتكاثر وتنمو ثم تفنى وتستحيل الى ضروب شتى اكثر تعقيداً ، كانت العمليات العظمى في بناء الارض ماضية في سبيلها ، فكانت قشرتها تنكمش وتنطوي ، والجبال ترتفع سلاسل عظيمة ثم لا تلبث أن يبسطها الماء والريح والجليد ، وتهبط مناطق كبيرة تحت منسوب البحر وتظهر القارات ثم تنخسف • ولا شك ان هذه الحركات الارضية الشاملة وما احدثته من تغيير في وجه الارض كانت السبب ، الى حد ما ، في التغيير البين الذي تعرضت له انواع الحياة في العصور المتعاقبة • ولو ان الانسان أو أي نوع غيره من انواع الحيوان والنباتات العليا قد دفع به الى عالم لم تكن فيه من قبل حياة ما ، لوجد العيش في هذا العالم مستحيلا • ذلك أن طعامه الضروري وتربة الارض التي يحتاج اليها يتطلبان عملا طويلا متصلا تقوم به كائنات كثيرة أدنى منه ومنها • وقد يتعذر علينا معرفة كيفية بدء الحياة على الارض للمرة الاولى ، وكيفية تطورها بعد ذلك ، لأن الشواهد الدالة على تلك البداية وذلك التطور ربما تكون قد اندثرت وانعدمت تماماً •

وتضم طبقات صخور العصر الاول أقدم الحفريات وتتألف هذه من الاشكال المحاربة الرخوة الدنيا ، وهي ذات درع حجرية تعتصم بها من أعدائها المفترسة آكلة اللحوم • ثم تليها القشريات ذات الغلاف القرني وذات الفصوص الثلاثة ويتلوها صعداً في مراقي الحياة السمك ذو العمود الفقري والهيكل العظمي الداخلي • ومن هذه الكائنات

فريق اضطره تقلص البحيرات في زمن طال فيه الجفاف ، ان يتطور الى حيوانات قوازب (برمائية) عمرت الغابات الفحمية الكبرى (وقـد دفنت هذه الغابات منذ عهد بعيد وبقيت الى الآن على صورة طبقـات من الفحم بسبب هبوط الارض) • ويبدو ان التغير ، الذي أصاب المخ فعفى على النباتات الكثيفة في هذه الغابات ، كان في الارجح حافزاً دفع بعض الحيوانات القوازب الى أن تخطو الخطوة الخطيرة فتقطع صلتها بالماء كليـاً أو جزئياً • ومنها نشأت الزواحف التي كان لها شأن عظيم في عصر الحياة الوسطى ، حين كانت الحيوانات المخيفة صاحبة الغلبة والسيادة على كل عنصر بـلا منازع • ثم انـدثرت الزواحف وتلاشت مع مطلع الفجر في عصر الحياة الحديثة حين بلغت الثدييات أقصى حدود الكمال وتفوقت على باقي انواع الحياة جميعاً ، كمـا انتشرت الحشرات بكثرة نتيجة انتشارات النباتات المزدهرة التي كان منها في اوربا انواع معروفة الآن في المناطق الحارة كالنخيل والكافور وغيرها • فاذا انتصف العصر تغيرت الحال وظهرت انواع البلوط وما يشبهها من نباتات المناطق المعتدلة ، وفي ذلك دليل على التغيرات المناخية التي انتهت الى عصر الجليد الذي سبق العصر الحالي في اوربا •

وأخذت معالم وجه الارض تظهر بالمظهر الذي نعهـده ، فتشكلت حدود القارات الراهنة • ولقد كان من شأن مشابهتها للحال الحاضرة الحديثة أن اطلقنا على عهود هذا العصر ما أطلقناه من أسماء ، فنحن نسميها بحسب ترتيبها من الأقدم الى الاحدث : الايوسين Eocene أي عهد الفجر الحديث للحيـاة ؛ الاوليغوسين Oligocene ؛ (عهـد الضحى الحديث) ، الميوسين Miocène (العهد الحديث الاوسط) ؛ البليوسين Pliocene (العهـد الحديث المتأخر) • ويأتي بعد ذلـك البليستوسين Pleistocene (العهد الأحدث) • ويرى المتخصصون في عالم الانسان أن هذا العهد هو العهد الاول من عهد جـديد يقال له

الرابع ، ونحن اليوم في العهـد الثاني منه ، ويسمونه الهـولوسين Holocène أي العهد الحديث كل الحداثة . ويمتاز عهد البليستوسين ببرودة الجو المتناهية في اوربا واميركا الشمالية ، ومن ثم سمي بعهـد الجليد ، لأنمناخه كان أشبه بمناخ المنطقة القطبية في الوقتالحاضر .

اسلاف الجنس البشري . — وفي العهد الحديث المتأخر للحيـاة (البليوسين) ظهرت طائفة من المخلوقات الصغيرة نشأت عنها انـواع القردة الحديثة من أشباه البشر Anthropoids ونشأ الانسان نفسه . ولدينا الآن بقايا من جماجم وعظام أفخاذ واسنان ترجع جميعها الى أواخر العهد الحديث المتأخر والى اوائل العهد الاحدث ، وهي بقايـا مخلوقات كانت تمشي على اثنتين معتدلة ، وسعة أدمغتها اكبر منها في أي قرد معروف . بيد أنه من المشكوك فيه ان يكون النوع الانساني الذي يعرف بالانسان العاقل Homo sapiens متحدراً من تلك الاجناس الاولى مباشرة ، فضلا عن ان العظام التي قيل انها انسانية لم تتوافر فيها كل خواص عظـام الانسان ، وقد تكون لنوع راق من القردة تشبه الانسان في بعض صفاته . أما متى وأين ظهر الانسان لاول مرة ، فيتعذر علينا الاجابة عليه أو تحديد بداية له ، ومن المحتمل أن يكون اسلاف القردة الحديثة من أشباه البشر ، واسلاف الانسان انفصل بعضهم عن بعض في عهد الميوسين . ويعتقد أن أقـدم بقايا الهياكل العظمية التي يمكن التسليم بأنها بشرية انما ترجع الى البليستوسين حين أصبح الانسان قادراً على أن يصنع أول أدواته الحجرية تلبية لظروف الحيـاة .

وأما مكان نشأة الانسان ، فلا يزال هذا الموضوع مسألة تخمين محض . ويؤدي توزيع القردة الحديثة العليا الحية الى الظن بأن تسلسل الانسان من الجذع الآدمي انما حدث في مـكان ما في المنطقة التي تضم غرب اوربا والنصف الشمالي من افريقيا وجنوب آسيا ، ولكن

ليس ثمة دليل قاطع على هذا الظن • وما زلنا نشك في تحديد الزمان والمكان الذي بدأ فيه ظهور الانسان على الارض حتى تكشف آثار لا يشوبها شك او غموض •

وقد ظهرت في الوجود جماعة لاحقة من المخلوقات ، دخل موضوع الانواع بظهورها في دور اهم • فثمة دهور ودهور بين ما عثرنا عليه من العظام الاولى وبين عصر الانسان الاول الذي كان يسكن الكهوف ، وقد وصلت بقاياه الينا محفوظة مصونة موفورة العدد • وهذه الدهور التي انقضت بين هذين النوعين من العظام تتمثل في طبقات الارض ، وهي تكشف لنا في بطونها عن أدوات من الصوان صنعها ساذج بدائي لتقوم باغراض بسيطة كالصيد والدفاع عن النفس وقطع الاشجار وما الى ذلك • ويبدو ان الانسان الذي خلف هذه الادوات كان يدأب دوما على تحسينها كلما ارتقى في سلم المدنية ، وكان يساعده على ذلك نموه العقلي المتزايد فكانت الآلات الحجرية تزداد اتقاناً مع مضي الزمن حتى صارت آلات نافعة رشيقة • ولم يكن سكان الكهوف ، لحسن حظ المؤرخ ، ممن يعنون بالنظافة ؛ فلم يكنسوا قط أرض هذه الكهوف ، ولذا تكدست تحت أقدامهم فضلات ولائمهم ورماد نارهم والمهجور منمواقدهم والمطروح من أدواتهم وحليهم ، وتتألف منها طبقات يصل سمكها احيانا حتى الثلاثين قدما ، ويمثل كل منها سجلا تاريخيا عتيقا •

استغرق عصر الكهوف مرحلة طويلة من مراحل الزمان • فقد وجد الأثريون من الشواهد ما يدل على حدوث تغيرات في المناخ • وكان في ميسورهم أن يميزوا بين طبقة واخرى من طبقات ارض الكهف بما يحتوي عليه من انواع الحجارة القديمة ، ومن هنا اتضح لهم أنه لم يكن هناك عصر حجري قديم واحد ، وانما كانت هناك عصور حجرية

قديمة متعاقبة ومتميزة عما سبقها وعما تلاها حسب النمط الذي صنعت به الادوات الحجرية القديمة . ثم وجدوا بالموازنة بين بعض الكهوف وبعضها الآخر ، ان تتابع الانماط والثقافات والصناعات كان واحداً على الدوام . وحين تتناول ناس الكهوف بالبحث انما تتناول مخلوقات لا شك في آدميتها وفي ان مداركها لا محالة من طبقة عالية جداً . على ان هناك قولاً بانهم كانوا فرعاً جانبياً من الجذع الآدمي ثم اندثروا ، وان هذا النوع نوع منفصل قائم بذاته يعرف بانسان النياندرتال Homo Neanderthalensis نسبة الى وادي نياندر بالقرب من مدينة دوسلدورف الالمانية حيث عثر للمرة الاولى على بقاياه . وتاريخ هذا الانسان السابق للتاريخ فيما يظهر هو سنة ٤٠,٠٠٠ ق.م. وهو نوع عثر عليه باختلافات كثيرة في رقعة تمتد من غرب اوربا حتى فلسطين . ويظن ان هذا الانسان كان من ساكني الجروف في الفترة الدافئة التي تخللت العصر الجليدي الذي لم يكن ظاهرة متجانسة ، وما لبث ان أخذ يقاوم الشتاء بالاعتصام في الكهوف وايقاد النار في رجعة الجليد التالية ، ثم انتشر في اوروبا على حواشي الجليد ، وتأقلم فيما يظهر عليها واعتاد على البرد . وغني عن البيان ان هذه التقلبات في البيئة المناخية قد اصابت مادة صالحة تؤثر فيها ، فلم يكن بين الثدييات من حفزته التقلبات المناخية الى هذا المدى من الرقي غير الانسان ، اذ اتخذ منذ قرون عدة من الحجارة سلاحا ، وتمت له المقدرة على النطق .

ولن نتمكن من تحديد فترة التأنس ، اي دخول المخلوقات في المرحلة الانسانية اذا ما لجأنا الى دراسة تشريحية للبقايا المتحجرة ، بل علينا ان نستند على اساس آخر للحكم . ولنردد ما قاله برغسون مراراً : الى اي تاريخ نرجع ظهور الانسان ؟ الى الزمن الذي صنعت فيه الأسلحة الأولى والأدوات الاولى . وان ظاهرة التأنس ، بالنسبة لعلماء الحفريات ولمؤرخي ما قبل التاريخ ، تربط بظهور « فترة الاداة »

في تاريخ الحياة • وقد عرف الحيوان الاداة ايضا ، الا ان هذه تكون جزءاً من جسده لا يمكن تغييره وتحويره ، اما الاداة بالنسبة للانسان فلا تربط بجسده ويمكن تغييرها وتحويرها • وهكذا تتعارض الاداتان ؛ فأداة الانسان اصطناعية ، واداة الحيوان طبيعية • وكان من حسن الطالع ، من وجهة نظر المؤرخ ، ان الانسان بكر غاية التبكير في صنع ادواته واسلحته من الاحجار ؛ ذلك اننا استطعنا ان تقتفي أثره الى بداية العهد الاحدث (البليستوسين) ، فيما خلف من ادواته الحجرية • أما المتحجر من عظام صانعيها فقلما نجد منه شيئاً • وعلى الرغم مما قام به العلماء من بحث وتنقيب في طول أودية الأنهار القديمة الأوربية خلال نصف القرن الأخير ، فلم يعثروا الا على بعض بقايا مخلوقات بشرية كبقايا انسان هيدلبرغ وهي عظمة الفك الاسفل وجدت عام (١٩٠٧) والفك انساني خشيب قوي ضخم لا يوجد له في هذه الصفات شبيه بين الاجناس البشرية المعروفة والحاضرة ، والاسنان ، وان كانت كبيرة الحجم ، تكاد تكون مجموعة منتظمة ، والناب الذي يبرز في أفواه القردة البشرية سلاحاً خطراً ، قد أصبح لدى انسان هيدلبرغ في مستوى السن التي تجاوره •

والنوع الثاني البشري الذي سكن اوربا عثرنا على بقاياه في مقاطعة اسكس بانكلترة (١٩١١) قرب أرض بلتدون ، تحت رواسب يعتقد بأنها أقدم من الرواسب التي كانت تغطي فك هيدلبرغ • واعتبرت جمجمة بلتدون مرحلة من مراحل تاريخ الانسان وصل فيها المخ او كاد يصل الى مستوى مخ الانسان الحديث ، بينما يظل الوجه من ناحية الحجم والشكل خليطاً بين القردة والانسان • ومما عرفناه عن الحقائق المتصلة بمخ انسان بلتدون انه كان انسانا في فعله وانفعاله ، والادوات الحجرية التي صنعت في عصره تدل على ما يقنع بأن الانسان بعد فجر العهد الاحدث بأمد وجيز ، كان سائراً في طريق الانسانية المحققة من

حيث الصورة والفكر والعقل .

وفي جاوة عثر على مثل انساني دفن وطمر في أواخر العهد الحديث المتأخر وكان شبيهاً بالقردة فيجمجمته، بدائيا فيمخه ، وانسانياً في اعتدال قامته وتدور التخمينات عنه حول عظم الجمجمة وعظام الفخذ التي وجدت في جاوة سنة ١٨٩١ .

على أن أقدم البقايا التي لا شك في انها بشرية وجدت في نياندرتال بالقرب من دوسلدورف بالمانيا (١٨٥٧) وتاريخها فيما يظهر هو ٤٠,٠٠٠ ق.م . وهي تمثل نوعاً غريباً من البشر قد يكون مختلفاً في نوعه عن الانسان الحديث . فان صندوق الدماغ لدى انسان نياندرتال يشبه في اتساعه ما لكثيرين من الاوروبيين اليوم ، فثمة عارض عظمي نافر كبير الحجمفوق عينيه بدلا منعظمي الحاجبين. أما جبهته فمتراجعة وعظام وجهه كبيرة وليس له ذقن ، ورأسه كان مركباً على عموده الفقري بحيث يميل الى الأمام ، وتركيب رجليه وقدميه لا يسمح له الا بمشية متثاقلة . وفي ذلك كله ما ينطبق على وصف الانساني البدائي .

ويعتقد الكثيرون من الثقات ان انسان نياندرتال يمثل نوعاً خاصاً من البشر متكيفاً مع الحياة في احوال قطبية ، وأن هذا النوع قد انقرض عندما زالت هذه الاحوال . ومهما يكن من وضع انسان نياندرتال البيولوجي ، ووضع سائر معاصريه من اواسط العصرالحجري القديم ، فيجب أن نذكر فضله على الحضارة البشرية . ولم تلبث هذه الانـواع بما فيها النياندرتالي والبلتدوني والهيدلبرغي ان انقرضت وحلت محلها انواع بشرية حديثة هي ما يعرف بالانسان الحديث ، حيث تبدل الانسان نفسه من حيث التكوين الجسمي ؛ فقد أصبحت جبهته مرتفعة وضمر عرف حاجبيه الشعري وتكورت جمجمته من أسفل الخلف وأخذت ذقنه وجميع سمات مظهره الخارجي تشابه مثيلاتها فينا . ولا

نستطيع ان نبين اين افترق جد الأجناس البشرية الحـديثة المنقرضة التي سلف ذكرها ، ولكن الانسان من النوع الحديث (الانسان العاقل) يظهر في نفس الوقت تقريباً ليس في اوربا فحسب ، وانما في شمالي وشرقي افريقيا ايضا وفي فلسطين وحتى في الصين (كهف تشوكوتين)٠

ويبرز الانسان الحديث وقدتفرع الى عدة أنواع وأجناس متباينة ٠ وفي أوربا نفسها يفرق علمـاء التشريح بـين الجنس المعروف باسم غريمالدي[1] Grimaldi ذي السمات الزنجية ، وبين النوع المعروف باسم كرومانيون Cro-Magnon ذي القامة الطويلة ، وأنواع أخرى يشبه بعضها الانسان النياندرتالي ٠

وتعرف فصيلة « كرومانيون » كما تعرف فصيلة « نياندرتال » باسم سكان الكهوف نظراً لوجود آثارهم في الكهوف ، ولكن ليس ثمة دليل على ان الكهوف هي كل مالديهم من المساكن ، وربما لم يجد علماء الحفريات من آثار هؤلاء الناس الا آثار من سكنوا الكهوف ولاقوا فيها مناياهم ٠ وثمة نظرية علمية تذهب الى أن هذه الفصيلة البشرية العظيمة انما جاءت من آسيا الوسطى مارة بافريقيا حتى بلغت اوربا ، وانها شقت طريقها فوق جسور من اليابسة كانت تربط افريقيا بايطاليا واسبانيا ، وربما لبثت فصيلة كرومانيون قروناً طوالاً تقاتل فصيلة النياندرتال حتى حلت محلها على ظهر الأرض ، وأصبح انسان كرومانيون السلف الأساسي الذي عمر اوروبا ووضع أساس المدنية الأوربية ، ولكن كثرة العلماء لا تقبل بأن آسيا الوسطى هي مهـد الانسان ٠

ثقافات عصور ما قبل التاريخ : ــ لقد دلت الدراسة الأثرية للبقايا

---

(١) وجد في كهوف غريمالدي المشهورة قرب مانتون بفرنسا .

المادية لانسان ما قبل التاريخ أن انواعاً مختلفة من الثقافات والحضارات ازدهرت في أجزاء متباينة من العالـم في أوقات مختلفة . ولتيسير الدراسة جمع الباحثون هذه الحضارات في سلسلة مـن الحضارات الكبرى صنفت على أساس نوع المادة الرئيسية التي استخدمت في صناعة الآلات (هل هي من حجر أو من معدن) ، وأحيانا على أساس الطريقة التي اتبعت في صناعة تلك الآلات (التشظية أو الصقل) . واتصفت اقـدم الحضارات في العالم باستعمال الحجر المشظى في صناعـة الأدوات وسميت حضـارة العصر الحجري (الباليوليتيك) Paleolithic . واتسمت حضارة العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) باستخدام الحجر المصقول . وامتاز عصر البرونز باستعمال الادوات البرونزية وهكذا . ولعدم وجود تواريخ ثابتة وجد من المناسب ان تدل هذه المصطلحات على معادن توقيتية ، ومن ثم تقسم عصور ما قبل التاريخ بادائه من الأقدم الى :

١) الحجري القديم ويتصف بالآلات الحجرية المشظاة . ٢) والحجري المتوسط وهو مرحلة انتقالية . ٣) والحجري الحديث ويتصف بآلاته الحجرية المصقولة . ٤) والحجري النحاسي ويتصف بالمحاولات الاولى لاستخدام الآلات النحاسية . ٥) وعصر البرونز ، وتتطور فيه الآلات النحاسية والبرونزية حتى يحـل محلها الحديد . ٦) عصر الحـديد بأدواته الحديدية .

ويظهر الانسان الحديث في الوثائق الاثريـة من أواخـر العصر الحجري القديم مجهزاً تجهيزاً أحسن بكثير من اي جماعة رأيناها في اوائل العصر الحجري القديم وأواسطه . والجهاز الجديد يبدو منذ البداية متنوعا بحكم تقاليد مختلفة ، وهو بلا شك ، استجابة لبيئات متباينة حتى أنه اصبح بامكان الباحث الأثري التفريق بين حضارات

نستطيع ان نبين اين افترق جد الأجناس البشرية الحديثة المنقرضة التي سلف ذكرها ، ولكن الانسان من النوع الحديث (الانسان العاقل) يظهر في نفس الوقت تقريباً ليس في اوربا فحسب ، وانما في شمالي وشرقي افريقيا ايضا وفي فلسطين وحتى في الصين (كهف تشوكوتين).

ويبرز الانسان الحديث وقدتفرع الى عدة أنواع وأجناس متباينة . وفي أوربا نفسها يفرق علماء التشريح بين الجنس المعروف باسم غريمالدي[1] Grimaldi ذي السمات الزنجية ، وبين النوع المعروف باسم كرومانيون Cro-Magnon ذي القامة الطويلة ، وأنواع أخرى يشبه بعضها الانسان النياندرتالي .

وتعرف فصيلة « كرومانيون » كما تعرف فصيلة « نياندرتال » باسم سكان الكهوف نظراً لوجود آثارهم في الكهوف ، ولكن ليس ثمة دليل على ان الكهوف هي كل مالديهم من المساكن ، وربما لم يجد علماء الحفريات من آثار هؤلاء الناس الا آثار من سكنوا الكهوف ولاقوا فيها مناياهم . وثمة نظرية علمية تذهب الى أن هذه الفصيلة البشرية العظيمة انما جاءت من آسيا الوسطى مارة بافريقيا حتى بلغت اوربا ، وانها شقت طريقها فوق جسور من اليابسة كانت تربط افريقيا بايطاليا واسبانيا ، وربما لبثت فصيلة كرومانيون قروناً طوالاً تقاتل فصيلة النياندرتال حتى حلت محلها على ظهر الأرض ، وأصبح انسان كرومانيون السلف الأساسي الذي عمر اوروبا ووضع أساس المدنية الأوربية ، ولكن كثرة العلماء لا تقبل بأن آسيا الوسطى هي مهد الانسان .

ثقافات عصور ما قبل التاريخ : ــ لقد دلت الدراسة الأثرية للبقايا

---

(١) وجد في كهوف غريمالدي المشهورة قرب مانتون بفرنسا .

المادية لانسان ما قبل التاريخ أن انواعاً مختلفة من الثقافات والحضارات ازدهرت في أجزاء متباينة من العالــم في أوقات مختلفة • ولتيسير الدراسة جمع الباحثون هذه الحضارات في سلسلة مــن الحضارات الكبرى صنفت على أساس نوع المادة الرئيسية التي استخدمت في صناعة الآلات (هل هي من حجر أو من معدن) ، وأحيانا على أساس الطريقة التي اتبعت في صناعة تلك الآلات (التشظية أو الصقل) • واتصفت اقــدم الحضارات في العالم باستعمال الحجر المشظى في صناعــة الأدوات وسميت حضــارة العصر الحجري (الباليوليتيك) Paleolithic • واتسمت حضارة العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) باستخدام الحجر المصقول • وامتاز عصر البرونز باستعمال الادوات البرونزية وهكذا • ولعدم وجود تواريخ ثابتة وجد من المناسب ان تدل هذه المصطلحات على معادن توقيتية ، ومن ثم تقسم عصور ما قبل التاريخ بادائه من الأقدم الى :

١) الحجري القديم ويتصف بالآلات الحجرية المشظاة • ٢) والحجري المتوسط وهو مرحلة انتقالية • ٣) والحجري الحديث ويتصف بآلاته الحجرية المصقولة • ٤) والحجري النحاسي ويتصف بالمحاولات الاولى لاستخدام الآلات النحاسية • ٥) وعصر البرونز ، وتتطور فيه الآلات النحاسية والبرونزية حتى يحــل محلها الحديد • ٦) عصر الحــديد بأدواته الحديدية •

ويظهر الانسان الحديث في الوثائق الاثريــة من أواخــر العصر الحجري القديم مجهزاً تجهيزاً أحسن بكثير من اي جماعة رأيناها في اوائل العصر الحجري القديم وأواسطه • والجهاز الجديد يبدو منذ البداية متنوعا بحكم تقاليد مختلفة ، وهو بلا شك ، استجابة لبيئات متباينة حتى أنه اصبح بامكان الباحث الأثري التفريق بين حضارات

أو ثقافات او صناعات متعددة تتفق مع مجتمعات متعددة • وبهـذا أدرك العلماء انه لم يكن هناك عصر حجري قديم واحد ، وانما عـدة عصور حجرية قديمة متتابعة ومتميزة عما سبقها وعمـا تلاها حسب النمط الذي صنعت به الأدوات الحجرية القديمة • ثم وجدوا بالموازنة بين بعض الكهوف وبعضها الآخر أن تتابـع الأنماط أو الثقافات كان واحداً على الدوام •

و (الثقافات) المعروفة اكثر من سواها في مدارج عصور ما قبل التاريخ تقع في عدة أقسام رئيسية تختلف باختـلاف المواضع التي وجدنا فيها أقدم الآثار وأهمها في فرنسا ، وكلها جميعاً تتميز باستخدام آلات غير مصقولة ، والأقسام الثلاثة الأولى منها قد تم لها التكوين في الفترة المضطربة التي توسطت العصرين الجليديـين الثالث والرابع وفيها استمتعت اوربا بمناخ ادفأ من مناخها اليوم • وهذه الثقافات هـي :

١ ــ الثقافة (او الصناعة) السابقة للعهد الشيلي(١)

تعرف بأن مخلفاتها توجد في الطبقات المعميقة ، في الدرجة المرتفعة ١٠٠ قدم من اودية نهر التيمز • وترجع بنا مخلفات هذا العهد المبكر الى ما يطلق عليه علماء طبقاتالأرض اسم العهد الأحدث (البليستوسين) ولهذا العهد أهميته الكبرى لدى علماء الانسان ؛ ففي فجره اكتسبت حيوانات العالم الحية اشكالها الحالية ومن حقنا ان نفترض ان الانسان قد اشترك في حركة التطور التي ظهرت في ذلك الزمان ، وبدأ يكتسب سمات نسله الحالي • ويرجع عهد هذه الثقافة الى ما قبل سنة ١٢٥,٠٠٠

---

(١) اطلقت اسماء المدن والمقاطعات التي عثر فيها على قطع الصوان والآلات الحجرية القـديمة لتمييز حضارات العصر الحجري المختلفة ، ومعظم هذه الاسماء لمدن في جنوب فرنسا وشمالها .

ق٠م ومعظم الأحجار الصوانية التي وجدت لا تدل دلالة قوية على ان أهل ذلك العصر قد صنعوها بأيديهم ، بل الظاهر انهم قد استخدموها كما وجدوها في الطبيعة ٠ لكن وجود احجار كثيرة بعضها لها مقبض يلائم قبضة اليد ، ولها مايشبه الحد والظروف ، يدلنا على ان انسان هذا العهد ابتدع اول أداة استخدمها الاوربيون وهي المدية الحجرية ٠

٢ ـ **الثقافة الشيلية** Chellean ـ ويرجع تاريخها الى حوالي ١٠٠,٠٠٠ق٠م٠ وقد تحسنت فيها الفأس اليدوية بارهاف جانبيها ارهافاً يقرب من الغلظة وبتدبيبها بحيث تتخذ شكل اللوزة ، ثم بتهيئتها تهيئة تمكّن من أن تقبض عليها اليد البشرية ٠

٣ ـ **الثقافة الاشولية**(١) Acheulean ٠ ـ ويقع تاريخها حوالي ٧٥٠٠٠ ق٠م ويظن بأن عصرها طويل يساوي جميع الفترات الثقافية المتعاقبة من بداية الفترة الموستيرية الى الوقت الحاضر ٠ ويقدر هذا العصر مبدئيا بـ ٤٠,٠٠٠ سنة ، وفيه صنع الانسان واستعمل شكلا معينا من أشكال الفؤوس اليدوية يعرف أحياناً باسم « قبضة اليد » ، واصلح المدية الحجرية فجعلها اكثر تناسقا وارهف طرفا ٠ وانتج انواعا من الأدوات كالمطارق والسندانات والكاشطات ورؤس السهام وسنان الرماح ، كما استعمل عظام الحيوانات المجترة كدعائم ، واتخذ من بعض تشعبات قرن الوعل ادوات كالخناجر ٠

٤ ـ **الثقافة الموستيرية** Mousterian ٠ ـ وتوجد آثارها في القارات كلها مرتبطة ارتباطاً ملحوظاً ببقايا انسان نياندرتال وبقايا الماموت ووعل البلاد الباردة (الرنة) ، وتعود الى حوالي ٤٠,٠٠٠ق٠م وقد عرفت هذه الثقافة اولا في كهف عند ليموستيه Le Moustier

---

(١) نسبة الى Saint Acheul في فرنسا حيث وجدت بكثرة كمية من الادوات المصنوعة على شكل القلب والمشحوذة من الوجهين ٠

في بلجيكا ، وادواتها متميزة وذات طابـع خاص يظهر في المدببـات والمكاشط المصنوعة من حجر الصوان • وهذه الادوات الجديدة قـوام الواحدة منها رقيقة من الصخر اخف من المدية السابقة وزناً وارهف حداً وأحسن شكلاً •

ويعرف عصر الثقافة الموستيرية احيانا باسم الحجري القديم المتوسط ، وما قبله الحجري القديم الاسفل ، اما الحجري القديم الأعلى فيضم مرحلة قصيرة نسبياً تتفق مع الجزء الاخير من العصر الجليدي ، وتمتاز بظهور صناعات صوانية جديدة وبظهور الانسان الحديث • وتضم ثلاث ثقافات او حضارات رئيسية وهي من الاقدم الى الاحدث :

٥ ـ **الثقافة الاورنياسية** Aurignacian • ـ [١] وتقع حوالي عام ٢٥٠٠٠ ق•م وهي اولى المراحل الصناعية بعـد أعصر الجليد ، واولى الثقافات المعروفة لانسان كرومانيون فيما يعتقد • وفي هـذه المرحلة اضيفت الى آلات الحجـر آلات من العظم ـ مشابك وسنـدانات وصلقلات الخ ـ وكانت رؤوس بعض الادوات تضاهي بدقتها اجمل ما صنع من حجر الصوان • وقد ظهرت الابرة ذات الثقب منحوتة على الصخر ، او في رسوم جدارية ساذجة بارزة اغلبها لنساء عاريات • وبدأ ظهور الآلات الصغيرة جداً والآلات العظيمة والحلي المصنوعـة من العظام والمحار • وتوجد البقايا الاورنياسية منتشرة على نطاق واسع في اوربا الوسطى والغربية وفي منطقة البحر المتوسط ، واصحابهـا من الصيادين الرحل الذين عاشوا في معسكرات خلوية او في الكهوف•

٦ ـ **الثقافة السولترية** Solutrean ـ [٢] ظهرت حـوالي عـام

---

(١) نسبة الى كهف بقرية ارنياك في الغارون الاعلى •

(٢) نسبة الى Solutré بفرنسا حيث وجـد موطن مشهور للانسان القـديم •

٣٠,٠٠٠ ـــ ١٥٠٠٠ ق٠م) وانتشرت من اوربا الشرقية والوسطى غرباً نحو فرنسا ، وهي دخيلة على الاورنياسية ولكن الصناعة فيها وصلت الى قمة كمالها في النصال والمدببات التي تـكون عـلى شكل ورقـة الصفصاف أو ورقة الغار، وفي الآبر الدقيقة الحادةمن العظم،كما قدمت آلات كثيرة من قرن الوعل ٠ وعاش السولتريون في معسكرات خلوية أو في مآو صخرية ، وكانوا صيادي خيول ٠ وتعتبر الحضارة السولترية والحضارة المجدلية التي تليها اكثر حضارات العصر الحجري القديم كمالا في اوربا ٠

٧ ـ **الثقافة المجدلية Magdalinean** [١] ٠ ـــ وهـي احـدث حضارات العصر الحجري القديم الاعلى وأروعها ، وقـد ازدهرت في اوربا الشمالية والوسطى وفي جنوب فرنسا حوالي (١٥٠٠٠ ـــ ٨٠٠٠ ق٠م) وهي تتميز في الصناعة بمجموعة راقية منوعة من رقيق الآنيـة المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وهي تبلغ حد الكمال في المشابك والابر المتقنة ٠ وعاش المجدليون في معظم الاحوال في الكهوف حيث تركوا نقشاً ونحتاً على الصخور يمثل الحيوان والانسان ، لعل اروعـه رسوم « التاميرا » في شمال اسبانيا ٠

لقد وضع انسان ما قبل التاريخ في هذه الثقافات التي شهدهاالعصر الحجري القديم ، اسس الصناعات ، التي كتب لها ان تبقى جزءاً مـن التراث الاوربي حتى الثورة الصناعية ، وسهل نقلها انتشار صناعة العصر الحجري القديم الى المدينة الكلاسيكية والمدينة الحديثة ٠ ولسنا نعلم علم اليقين اي نوع من انواع البشر كانت له الزعامة في هـذا التطور الحضاري ، فهل هو انسان كرومانيـون الجسيم الوسيم ، او انسان

---

(١) نسبة الى مدينة المجدلية في فلسطين على شاطىء بحيرة طبرية او نسبة الى كهف لامادلين بفرنسا .

غريمالدي الضئيل الجسم الذي لا يبعد ان يكون زنجياً • او غير هذا وذاك من سلالات بني الانسان التي اخذت تظهر في ذلك الوقت ؟ ذلك مالم يقطع فيه براي في الوقت الحاضر •

وفي الشرق الادنى وجدت آثار من العصر الحجري القديم في الكرمل منذ فترة الثقافة الشيلية حتى العصر الحجري الوسيط • كذلك وجد الانسان النياندرتالي في الطابغة قرب بحيرة طبرية • وكان غذاؤه جذور النبات ولحوم الحيوانات ولباسه من جلودها • ولا نجد هنا الفترات الثلاث التي وجدت في اوربة في الدور الثاني للعصر الحجري القديم لأن الاحوال الجوية غدت مختلفة ؛ ففي الشرق استمر الجفاف بينما في اوربا استمر البرد وتوفرت المستنقعات • وفي الشرق هجر الناس مناطق الجفاف الى وديان الانهار حيث نشأت اولى الحضارات البشرية واصبح التطور هنا اسرع منه في اوربا •

وفي سورية وفلسطين تتصل نهاية العصر الحجري القديم بالعصر الحجري المتوسط (الميزوليتيك) وبالعصر الحجري الحديث (النيوليتيك) بواسطة دور يسمى القفصي او الكبسي Capsian وهو دور انتقال بين العصر الحجري القديم والحديث في بـلاد شرقي البحر المتوسط • والتسمية نسبة الى قفصة في تونس Capsa • وقد وجدت في كهف انطلياس شمالي بيروت عظام بشرية من هذا الدور • وحيث وجدت كهوف جبلية امكن كشف بعض الرسوم والأدوات الكبسية •

وقبل أن ننتقل الى الحديث عن ما بعد العصر الحجري القديم ، نذكر كلمة عن أساليب صنع الادوات الحجرية لدى مجتمعات اواخر هذا العصر القديم لتقريب الفكرة الى ذهن القارىء ولتعريفه بما طرأ على الصناعة الحجرية خلال عصور ما قبل التاريخ •

تشترك جميع هذه المجتمعات في اتباع تقاليد خاصة في صنـع

الحجر الصواني وفي استعمال العظم والعاج في ادواتها ، فالاحجار ثقيلة ولكن يمكن حملها وهي في متناول يد الانسان ، ومبذولة خاصة على ضفاف الانهار والمجاري المائية حيث تتوفر بشتى الاشكال الطبيعية ومنها الصالحة لمختلف الاغراض اليومية الصناعية • فأنواع الصخور الرملية ، بما فيها من الصوان وحجر العقيق اليماني واليشب والعقيق الابيض خاصة ، تصلح كلها لصناعة الادوات لأنها قابلة للتشقق والكسر ، كما أن حافات هذه الاحجار واطرافها حادة • ويمكن ان تصنع من هذه الاحجار ادوات بطرق متعددة :

١) الاولى ضرب لب الصوان بحجر آخر (سندان) ، فينتج عن ذلك انفصال شظية سميكة او عريضة او كبيرة ان كان المقصود هو استخدام الشظية كأداة •

٢) الثانية استخدام هراوة خشبية او حجر آخر لتحطيم اللب ، وتمتاز هذه الطريقة بانها اقرب الى ضبط حجم الشظية المرغوب في فصلها •

٣) الثالثة استخدام قطعة أخرى من الخشب او من حجر مناسب ، ثم يثبت الحجر على النقطة المراد نزع الشظية منها وتوجه اليها قوة المطرقة الضاربة • وهذه الطريقة تتحكم في نزع الشظية وقدها وقد استعملت هذه الطريقة في العهد الموستري •

٤) الرابعة وهي طريقة أخرى ظهرت في اخريات العصر الحجري القديم وهي نزع الشظايا بواسطة الضغط ، وهذه طريقة مهذبة ترمي الى شحذ حافة او اتمام ادارة رقيقة • وتحتاج هذه الطريقة الى تطبيق عملية الضغط التي تستخدم فيها عادة اداة خشبية (سندان) بطول حافة الاداة فتتطاير الشظايا الضئيلة ، فينفصل الجزء الطويل من القشرة الحجرية من الجانب الأسفل للاداة الخشبية • ومن امثلة هذه الطريقة

نصلا ورقة الغار الجميل والصفصاف السولتريين السالفي الذكر •

عصور ما بعد الحجري القديم . — لجأ علمـاء الآثار الى تقسيم الزمن من نهاية العصر الحجري القديم حتى اليوم الى الفترات الرئيسية التالية : العصر الحجري المتوسط ، العصر الحجري الحديث ، العصر الحجري النحاسي ، عصر البرونز ، عصر الحديد ، ثم العصر الحديث • ولهذه التسمية مساوئها ؛ اذ ان الاسماء تدل فعلا على مراحل حضارية اكثر مما تدل عصور زمنية ، وقد استخدمت الالفاظ اولا في وصف الثقافات والحضارات كما عرفت اوربة ، وليس نظام التتابع واحدا دوما في القارات الاخرى • فمثلا عندما تتوغل جنوبا في اسبانية وايطالية وشمال افريقية لا نعثر فيها على شيء يحمل خصائص بقايا الثقافات المميزة المعروفة في فرنسة وشمال اسبانية ، اذ كان طراز الحيـاة في الجنوب مختلفا ، كما كان هناك طعام ومعدات مختلفة •

وتحقق العلامة اوبر ماير المدريدي انه بينما عم أناس وعل الرنـة فرنسة وشمال اسبانية ، كان الناس يضربون في الأرض في معظم اجزاء اسبانية وافريقية الشمالية ذوي ثقافة مخالفة سماها بالثقافة الكبسية • ولم تترسم للمرحـلة الكبسية خطا المراحـل الاورينياسية والسولترية والمجدلية في فرنسة بل كانت معاصرة لها ، وكانت تختلف عنها ، ونلمس فيها ما ينم عن احوال اجتماعية اكثر تقدما ، ولذا فانه يتعذر علينا ان نحدد التواريخ التقديرية لفترات ثقافات العصر الحجري القديم السالفة الذكر • على ان التقسيم المسلسل يمثل التقدم العام للحضارة على الاقل في العالم القديم ، ويتضح ان الخط الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ لا يحتل مكانا خاصا في هذه السلسلة •

العصر الحجري المتوسط (الميزوليتيك) . — ان دراسة مراحـل حفريات ما قبل التاريخ تكشف لنا عن وجود فاصل مجهول يقع بـين

طبقة الثقافة المجدلية وبين طبقات العصر الحجري الحديث (النيوليتيك)، مما يدل على ان فترة من الزمن قد انقضت بين نوعي الحضارتين المختلفتين كلياً . وقد أدهش هذا الانقطاع علماء ما قبل التاريخ ، حتى اعتقد كثير منهم أنه أتى على اوربا حين من الدهر خلت فيه من السكان. حتى اذا اكتشفت كهف آزيل على مجرى نهر الغارون بفرنسا ، وجدت فيه حفريات وادوات تسد الانقطاع بين الفترة المجدلية ، والعصر الحجري الحديث ، مما يدل على وجود مرحلة انتقال اطلق عليها العلامة مورغان اسم الميزوليتيك Mesolithic او الحجري المتوسط . ذلك أن اختفاء الغطاء الجليدي الاخير الذي حدد نهاية عصر البليستوسين ومعه نهاية العصر الحجري القديم ، قد ادى الى قيام ما يدعي بثقافة العصر الحجري القديم ، وكانت اقتصادية تقوم على جمع الغذاء الوفير الذي اتاحته الاحوال الجليدية ، بزوال عصر الجليد . وعندما ذابت الجمديات طغت الغابات على الطوندرة والسهوب وهاجرت قطعان الماموت ووعل الرنة والثيران البرية او انقرضت ، واختفت حيوانات البليستوسين الكبيرة التي اعتمد عليها صيادو العصر الحجري القديم ، الى حد كبير ، في الحصول على غذائهم ، اختفت من كل مكان تقريبا الا في اجزاء من افريقية ، وحلت محلها الحياة الحيوانية الحاضرة ، وبزوالها ذبلت حضارات المجتمعات التي كانت تعيش عليها . وفي دور الهولوسين — وهو حاضرنا الجيولوجي — وفي الحجري المتوسط ، نجد بدلا من سكان الكهوف المجدليين جماعات صغيرة منتشرة في الغابة الواسعة وعلى شواطىء البحر او المستنقعات أو الانهار ، يصطادون ويترقبون حيوانات الغابة وطيورها ، والاسماك في الانهار والبحار . وبذلك فتحت مناطق جديدة للاستقرار البشري مع تراجع الجليد .

وعلى الرغم من ان مجتمعات العصر الحجري الوسيط ، التي سكنت السهول المشجرة والممتدة من سلسلة بنين في انكلترة الى الاورال ،

كانت لا تزال تصنع ادواتها الحجرية بالشظية في هذا العصر ، فانها كانت اول من ابتكر ما يساعد على الاشغال في اخشاب الغابة ، لأن الغابة كانت أهم ما يميز بيئة دور الهولوسين عن بيئـة دور البليستوسين ، وأوجدت في النهاية مجموعة من الفؤوس والمطارق والأزاميل .

ونجد في كل مكان صناعة حجرية دقيقة ذات أشكال هندسية في الغالب ، وكان بعض انواعها واسع الانتشار في آسيا وافريقية واوربة مما يدل على وجود صلات حضارية خاصة ، وعلى حـركات حقيقية للسكان ربما كانت مرتبطة الى حد ما بجفاف الصحراء ومناطق آسيا الوسطى .

وتبدو مجتمعات العصر الحجري الوسيط في غاية الفقر ، بالنسبة لمن سبقها ، ولكنها تتمتع بميزة واحدة وهي وجـود الكلاب ، التي اكتشفت عظامها لاول مرة في مواقع العصر الحجري الوسيط بالبرتغال وفرنسا ومنطقة البلطيق والقرم ، لان الكلاب كانت تلازم الانسان في البحث عن الطعام وتنال مكافأة من الغنيمة .

أما أناس هذا العصر فيظهرون في آسيا وافريقيا على شاكلة نـوع انسان كرومانيون الاورنياسي في اوربا ، ويعتبر بدء العصر الحجري المتوسطة عادة (على الاقل في شمال اوربة) في حوالي الالف الثامنة ق. م. وقد استمرت ثقافاته وحضاراته بضعة آلاف من السنين ، حتى حل محلها ، في ازمنة تختلف باختـلاف الجهات ، اقتصاديات انتاج الغذاء التي اعتمـد عليها الناس في العصر الحجري الحديث . وفي فلسطين استمر الدور الكبسي في العصر الحجري المتوسط ، وظهر نموذج جـديد من الثقافة يعرف بالنطوفي Natufian نسبة الى وادي النطوف شمالي غربي القدس ، ويتمثل بنصال صوانية معوجة تشبه

مثيلاتها في مصر وشمال افريقية من الدور السبيلي[1] الكبسي ، ويرجع الدور النطوفي الى حوالي الالف السادسة ق٠ م٠ ولعل أشهر ما يرجع الى العصر الحجري المتوسط هو « فضلات المطبخ » كما عرفت في الدانمرك وغيرها حيث عثر على اكداس هائلة منها ، وتتألف من قواقع المحار وبلح البحر وحلزون البحر ومن عظام كثير من الحيوانات البرية والبحرية ، ومن آلات وأسلحة صنعت من العظم والقرن والحجر غـير المصقول ، ومن بقايا ارضية مثل الفحم والرماد والخزف المكسور ٠

العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) ٠ ـــ تحدد المرحلة الثالثة للتطور وهي العصر الحجري الحديث ، اختراع أربعة مظاهر جديدة واستخدامها في كل جهات العالم وهي :

١ ـــ الزراعـــة ٠

٢ ـــ استئناس الحيوان ٠

٣ ـــ الفخـــار ٠

٤ ـــ الآلات الحجرية المصقولة (بدلا من المشظاة) ٠ ولقد احدثت هذه التغييرات وما ترتب عليها من نتائج ، انقلابات ضخمة ٠ ويمكن القول ان التاريخ الانساني ، بمعنى من معانيه ، يدور حول انقلابين : الانقلاب الذي حدث في العصر الحجري الحديث فنقل الانسان مـــن الصيد الى الزراعة ، والانقلاب الذي حدث أخيراً ونقله من الزراعـــة الى الصناعة ؛ اذا لم يعد الانسان دائم الترحال والانتقال بحثاً عن مورد غذائه ، بل اصبح مستقراً ، يقيم ويزرع غذاءه فيما حوله من الارض ٠ واصبح لديه مخزون غذائي يستعين به في الفصل العجف ، وأدى هذا الى تزايد السكان في معظم الجهات المعمورة ، وفتح مناطق جديدة

---

(١) نسبة الى مركز السبيل قرب اسوان .

للاستيطان في آسية واوربة • وترتب على الظروف الجديدة التي خطتها الثورة في العصر الحجري الحديث ان اصبح من السهل زيادة الممتلكات، وخلق مطالب جديدة والتمتع بها ، واصبح ممكنا وجود فراغ زمني للابتكار والتأمل والتقدم ونمو المجتمعات الكبيرة والمدن ، وقيام نظم اجتماعية اكثر تعقيدا • بل وحددت هذه الاشياء كل التقدم الذي بدأ فعلا منذ ذلك الحين •

ولم تنشأ هذه الخصائص الاربع المميزة للعصر الحجري الحديث في نفس الوقت وفي ذات المكان • وربما وجدت مرحلة سابقة نشا فيها فلح الارض البدائي على يد النسله اللواتي كن — في اغلب الظن — يجمعن ضمن الأشياء الصالحة للأكل بذور الحشائش البرية التي اورثتنا القمح والشعير ، وتلا ذلك غرس تلك البذور في أرض صالحة • وربما عاش الخنزير كحيوان مستأنس قبل حلول العصر الحجري الحديث الكامل بثيرانه وضأنه وزراعة المحراث[1] •

بيد أن هنالك مايدعو الى الاعتقاد بأن خصائص هذا العصر في جملتها انما تطورت في منطقة واحدة ثم انتشرت منها فيموجات متتابعة الى أطراف آسية وافريقية واوربة • وربما كانت هذه المنطقة الأصلية في آسية الغربية، لأن الفصائل البرية من النبات والانواع الوحشية من الحيوان القريبة من تلك ، التي استؤنست في أول الأمر ، كانت مواطنها في تلك المنطقة التي تطورت فيها الحضارة الراقية بفضل مخترعات العصر الحجري الحديث • وأقدم ما عثر عليه من مخلفات هذا العصر انما وجد في بلاد الرافدين وسورية وفلسطين ومصر ،

---

(١) حصل الانقلاب الزراعي في العصر الحجري الحديث في بلاد الشرق الادنى بين ٨٠٠٠ — ٦٠٠٠ ق.م ، ولم يحدث في اوربا الا حوالي ٥٠٠٠ ق.م وفي الصين ٣٠٠٠ ق.م وفي اميركا نحو ١٠٠٠ ق.م.

وترجع الى حــوالي الالف الرابعة ق٠م٠ وقــد ثبت ان النطوفيــين Natufians ســكان الكهوف المكتشفة في جبل الكرمل وغــيره من فلسطين ، كانوا يصطادون بأسلحة مصنوعة من حجر الصوان ، بيد انهم استعملوا حجراً ، عليه عظام من الضلوع ، كانوا يستخدمونه كمنجل لقطع الحشائش والقش ، ولكن لم نقف على نوع الحشائش التي كانت تقطع بهذه الحجارة ، ولا نعرف ما اذا كانت الحشائش برية أو مزروعة٠

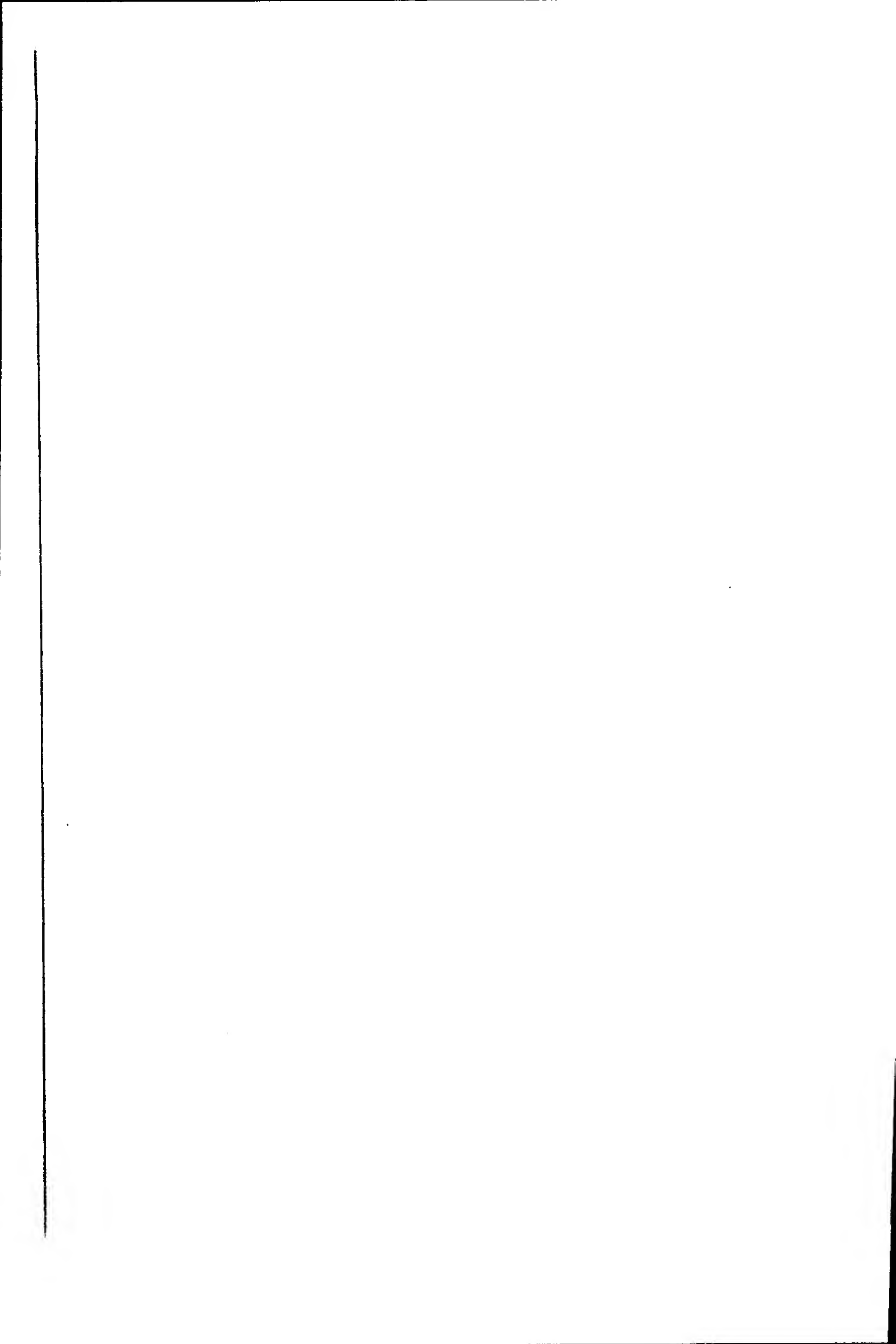
ومهما يكن ، فان جماعات العصر الحجري الحديث استطاعت أن تستأنس أنواعا من الحيوانات الصالحة للأكل ، وقد حدث في هــذه المنطقة من آسية الغربية ، حيث تنبت تلقائيا البذور التي سبقت بذور القمح والشعير ، ان عاشت في الوقت نفسه قطعــان الماشية والضأن والماعز والخنازير ، واصبح من السهــل على الصيادين الذين تشتغل زوجاتهم بالزراعة ان يجدوا طعاما يقدمونه لبعض ما يصطادون مــن حيوان ، كالجذور التي تبقى في الارض بعد الحصاد ، أو ما يغلف الحبوب نفسها ٠ ودفعت الصحارى الحيوانات الى التجمع حــول الواحات ، فاستطاع الناس أن يستأنسوها بعد معرفة عاداتها ، بــدلا من قتلها فوراً كسالف الايام ٠ وكان تقشف هؤلاء الزراع القدامى وتدبرهم لعواقب الكواسر سببا في تــكاثر قطعان الماشية ٠ ودلتهم الملاحظات ، التي جمعوها عن هذه الحيوانات ، على أنها صالحة لتكون صيداً أليفاً ومستقراً للطعام والجلود ، واستغلال ألبانها ومنتجاتها ، وصوفها ، كالخروف ، واستخدامها للنقل كالجمل والحصان ٠

وأغنى مصدر لمعلوماتنا عن الحياة في العصر الحجري الحديث هو سويسرا ؛ ففي عام ١٩٥٤ بلغ الشتاء درجة من الجفاف خارقة للمألوف فهبط مستوى الماء في البحيرات السويسرية فانكشف الحجاب عــن اكوام مصفوفة على نحو يبين ان قد شيدت فوقها قرى صغيرة ، ظلت

مكانها تحت الماء زمنا يتراوح بين ثلاثـين وسبعين قرنا حسب بعض التقديرات • وبين هذه الخرائب الباقية وجدت آلات من العظم والحجر المصقول الذي أصبح في رأي علماء الآثار ، علامة مميزة للعصرالحجري الحديث • وتدل الآثار على ان « سكان البحـيرات » كانوا يأكلون القمح والذرة والشعير والشوفان فضلا عن انواع الفاكهة والبندق • ولم نجد في هذه الآثار محراثا ، وربما كانت علة ذلك ان سنان المحاريث كانت تصنع من خشب ، فيدق جذع شجرة الى فرع بمسمار من حجر الصوان ؛ ولكن نقشاً محفوراً على الصخر من العص الحجري الحديث يدل دلالة قاطعة على انها صورة فلاح يدفـع محراثاً يشده ثوران • وأخذ المخترعون في هذا العصر يحسنون آلاتهم واسلحتهم ، وقد وجد بين مخلفاتهم بكرات ورافعات ومرهفات ومغارز ومـلاقط وفؤوساً ومعازيق وسلالم وازاميل ومغازل ومناسج ومناجل ومناشير وأشصاص السمك وابرا ومشابك صدر ودبابيس • ولم يعد الانسان يستر جسمه بفراء الحيوان وجلوده بل أخذ ينسج من صوف خرافه والياف النبات أردية • ثم أخذت الالياف تتهذب تدريجياً حتى أصبحت خيطاً ؛ وبفضل المغزل استطاعت المرأة ان تحـل أنواعاً من الالياف الصلبة كالصوف والكتان ثم القطن والحرير الى خيوط نسجتها بالنول فأصبحت اقمشة • وعندئذ اصبحت الحياكة من أهم الفنون عند المرأة • فالمغازل التي بين آثار العصر الحجري الحديث تكشف عن أصل من أصول الصناعـة الانسانية الأساسية ، وهكذا اصبح كل شيء معداً للمدنية • وفضلا عن ذلك فقد اوجد انسان هذا العصر مواد جـديدة لم تكن مبذولة في الطبيعة من قبل ؛ فان زوجة المزارع كان بمستطاعها عن طريق تسخير الخزف اللين ان تحدث تغييراً كيماوياً يؤدي الى الفخار ، وربما لعبت المصادفة دوراً في ذلك كأن تلقى قطعة من الطين الى جانب نار موقدة فتجف ، فتوحي بجفافها هذا الى الانسان بالفكرة ، وتكشف له عما

يمكنه استغلاله من هذه المادة الوفيرة • ولا شك ان الانسان لبث طويلا يحفظ طعامه وشرابه في آنية طبيعية كهذه ، الى جانب كؤوس القرع وجوز الهند وقواقع البحر • ثم صنع لنفسه اقداحاً ومغارف من الخشب او الحجر . كما صنع السلال المطلية من داخلها بالطين من الحلفاء والقش ، وها هو ذا أخيراً ، وقد صنع آنية خزفية أدوم بقاء من الطين المجفف فوصل به الى مخترع يعد من أعظم الصناعات التي عرفها الانسان • وصنع الخزافون من طينهم الطري اشكالا جديدة مستوحاة من أوان قديمة مصنوعة من الخشب أو الحجر الاملس أو النبات . فكانت ذات جمال ونفع في آنٍ معاً • وزخرف الانسان الآنية برسوم ساذجة ، ولم يقف بصناعة الخزف عند هذا الحد بل جعل منها فناً •

ثم ان ماوفق اليه الناس من القدرة الجديدة على التصرف بالخشب زاد في قدرتهم على اتخاذ المقابض والعتل ؛ وصنع ادوات الحفر ذات الحد الحجري واليد الخشبية ؛ ومكنهم من بناء المساكن واقامة الاسوار من الاوتاد عند منابت الحبوب • وكثر استيطان الجماعات البشرية في هذه الاراضي ودام زمنا طويلا ليقوموا على غلاتها ولينعموا بالمسكن يأوون اليه ، وليعتصموا بالسور الخشبي المضروب حولهم • ويحق لنا القول على وجه اليقين بان مساكن كثيرة قد اجتمعت في صعيد واحد بقصد الدفاع المشترك • وعائلات العصر الحجري الحديث كانت تعيش عموما في اكواخ من الطين والقصب او الاخشاب أو الحجارة أو الاغصان المكسوة بالطين • فقد كان « سكان البحيرة » نجارين مهرة يربطون اعمدة الخشب الى اساس البناء ، وكانت ارضية الغرفة عندهم من الطين . وجدرانها من الغصون المجدولة مغطاة بطبقة من الطين ، والسقف من اللحاء والقش والحلفاء والغاب • على ان اكواخ القصب او الطين المزدحمة كانت تتلف على مر الزمن ، وحين تطول اقامة القوم



الفصل الأول

العصور التاريخية

اتفق معظم المؤرخين على بداية العصور التاريخية بفتراة اختراع الانسان الكتابة ، وهي فترة قصيرة وغير عريقة في القدم اذا ما قيست بالحقب التي عاشها الانسان في عصور ما قبل التاريخ. وقد تحدد مطلع العصور التاريخية بخمسة آلاف سنة قبل عصرنا الحاضر . على ان هناك مؤرخين يبدأون بالعصور التاريخية منذ الالف الرابعة قبل الميلاد ويصلون بها الى ستة آلاف سنة . وقامت حجة الفريق الأول على أن لختراع الكتابة أدخل تطوراً جذرياً و عميقا في حياة الانسان لأن هذا الأخير أخذ يتفاهم مع بني جنسه بالتعبير عن أفكاره بيده وتدوين اخباره الخاصة لمن سيأتي بعده من بني الانسان . بينما يرى مؤرخون آخرون أن العصور التاريخية تبدأ باستقرار الشعوب القديمة في بعض مناطق الشرق الأدنى وأوربة عقب هجراتها في فترات عصور المعادن ، النحاس والبرونز والحديد . ويرى هؤلاء المؤرخون أن عصر المعادن بالنسبة لبعض شعوب منطقة الشرق الادنى كالكلدانيين والمصريين القدماء ، يدخل في نطاق العصور التاريخية . أما عصر المعادن بالنسبة لبعض الشعوب الآسيوية الأخرى والشعوب المستقرة في حوض نهر الدانوب في أوربا الوسطى فيدخل في عصور ما قبل التاريخ .

استمرار الهجرات البشرية وظهور حضارات العصور التاريخية . ـ لقد توالت الهجرات البشرية في العصور التاريخية لا سيما وأن وفرة

ثروات الشعوب ، التي أخذت بقسط وافر من الحضارة ، أخذت تغري العناصر البربرية ففكرت بالاستيلاء على هذه الثروات • وقد استمر تدفق شعوب جديدة على أقطار آسيا وأوربا طوال أربعة آلاف السنة التي سبقت ظهور المسيح مباشرة • وكانت الشعوب المهاجرة الجديـدة تحاول القضاء على الامبراطوريات الموجودة • لكنها كثيرا ما هزمت من قبل جيوش هـذه الامبراطوريات وردت على اعقابها ، أو سمح للعناصر المهاجرة الجديدة بالاستقرار في بعض مناطق خاضعة لحكم هذه الدول العظمى ، مما أدى الى انصهارها وذوبانها في بوتقة سكان هذه الدول • وعقب التمازج ، الذي حصل بين العناصر المهاجرةالجديدة والعناصر القديمة ، غدت العناصر الجديدة شبيهة بالعناصر القديمة • واستطاعت في بعض الأحايين العناصر المهاجرة الجديدة أن تنجح في تأسيس الامبراطوريات في المناطق التي اتخذتها مستقراً لها • وعلى الرغم من وفرة عدد تلك الهجرات ، التي قامت بها العناصر الجديدة في العصور القديمة ، فان علماء التاريـخ لم يقفوا الا على حوادث الشعوب التي أمكن حل رموز كتابتها حتى وقتنا الحاضر •

لقد ظهرت الحضارات في مناطق كثيرة من العالم منذ بداية العصور التاريخية كحضارات جزر ايجة وخاصة جزيرة كريت والحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط عامة التي ارجع علماء الحضارات مطالعها الى حوالي بداية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وحضارات بعض مناطق اوربة وحضارة النهر الأصفر هوانغ هو في الصين، وحضارتي البيروو المكسيك في امريكا الوسطى ، ومع ذلك فقد أجمعت كلمة المؤرخين والآثاريين على اعتبار منطقة الشرق الادنى والمناطق المتاخمة لها والممتدة الى حوض نهر السند مهداً للحضارة البشرية ، حيث ازدهرت بعض الحضارات ، ونخص بالذكر منها حضارات مصر القديمة وبابل وآشور وسواها• ويمكن أن نرد أهمالنا لحضارات الشرق الاقصى وأمريكا الوسطى الى

عاملين اثنين : أولهما أن معلوماتنا عنها ضئيلة لا تصلح لان تـكون مادة للدراسة ، وثانيهما أن هذه الحضارات القديمة كانت منعزلة عـن باقي المراكز الحضارية في العصور القديمـة ، مما افقدها أثرها في الحضارات التي اشرنا اليها •

وساعد على ازدهار حضارات الشرق الادنى وحضارة نهر السند في شمال غربي الهند ، ما حدث في مناطقها من تقلبات مناخية حديثة كان لها أبين الاثر في التكوين الجغرافي لهذه المناطق وتوزع أمطارهـا • وقد ساعدت هذه البيئة ، بما فيها من مناطق معشبة ، على حياة الترحال والرعي انتجاعا للماء والكلأ ، وساعـدت احواض أنهارها العظيمة ، كالنيل ودجلة والفرات والسند ، التي تنتشر السهول الخصبة عـلى ضفافها ، عـلى استقرار حياة عمادها الزراعة والبناء • والملاحظ ان الحضارات الزراعية التي ظهرت في احواض الانهار الآنفة الذكر كانت أقدم من الحضارات التي قامت في المناطق الثانية التي يعتبر النظـام البدوي فيها ، وهو القائم على حياة التنقل والرعي ، الصفة البارزة لحضاراتها • وقد واتت الظروف الطبيعية في أحواض هذه الانهار ، التي اوردنا ذكرها ، توطيد حياة مستقرة مكنت الانسان من التجمع مع بني جنسه ومن الاستقرار وساعدته على معرفة الزراعة وتشييد القرى والمدن الكبيرة •

وأهم المناطق التي سادها النظام البدوي القائم على حياة التنقـل والرعي شبه جزيرة العرب التي كانت لا تني عن مد منطقتين من مهاد الحضارات القديمة وهما منطقتا مصر وما بين النهرين ، بالاضافة الى مدها بلاد الشام كذلك ، بكثير من العناصر العربية بعد أن داهمهـا الجفـاف •

ويمتاز تاريخ هذه المناطق ، التي اعتبرت مهاداً للحضارات الأولى ،

والتي احتلت فيها بلاد ما بين النهرين ومصر وسورية مركز الصدارة ، بأنه تاريخ مستمر لم تنقطع حلقاته منذ عصوره القديمة ٠ ومع ان معلوماتنا عن حضارة جزر بجرايجة وكريت ضئيلة فلا يرقى الشك الى ان تاريخها امتاز كذلك بالاستمرار ٠ ونظراً لمواتاة الظروف الطبيعية في هذه المناطق لمعيشة الانسان لم ينقطع سيل الهجرات البشرية عنها ٠ بل كثيراً ما اجتاحتها هجرات كان اهمها تلك التي خرجت من شبه الجزيرة العربية على شكل موجات كهجرات الآكاديين والكنعانيين والعموريين والآشوريين والعبرانيين والآراميين وسواها ، وأدت الى نشوب حروب طاحنة كثيرة بين الشعوب المتجاورة في ربوع هذه المناطق ٠

وعلاوة عن كل ما ذكر فان الشعوب الاغريقية والفارسية والرومانية، أخذت تجتاح فيما بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر قبل الميلاد مناطق آسيا الصغرى وأوربة الجنوبية لتستقر فيها ٠ وكان من بين العناصر المهاجرة : الآخيون والدوريون ، وهم اجداد الاغريق القدماء ، والايطاليون ٠ وقد أقام الاغريق في العصور اللاحقة حضارتهم على انقاض حضارتي بحر ايجه وكريت ٠ ونجح الفرس ، الذين انحدروا في الفترة ذاتها من هضبة ايران ، في تأسيس دولتهم ، التي اجتاحت آنذاك سائر ربوع الشرق الأدنى ما بين مناطق الآشوريين في بلاد ما بين النهرين ومصر ٠ كما غزوا بلاد الاغريق حيث دحرهم هؤلاء وردوهم على أعقابهم ٠ وما عتم الإغريق أن هاجموا الفرس في عقر دارهم مستولين على جميع مناطق الشرق الادنى التي كانت تتألف منها امبراطورية الفرس ، وذلك في عهد القائد الاغريقي الاسكندر المكدوني٠ ثم أدت وفاة الاسكندر المبكرة الى تقسيم امبراطوريته بين قواده ، مما سهل على الرومان ابتلاعها جميعاً منطقة اثر منطقة ، وآلت اليهم السيادة والسيطرة على حوض البحر الابيض المتوسط حيث أسسوا

امبراطورية من أكبر الامبراطوريات التي عرفها التاريخ وقد انتهت هذه الامبراطورية باستيلاء البرابرة على عاصمتها روما في أواخر القرن الخامس الميلادي •

العصور التاريخية • — من الثابت أنه ليس بالامكان دراسة تاريخ البشرية دراسة وافية طوال فترة خمسة آلاف أو ستة آلاف السنة التي دعاها المؤرخون بالعصور التاريخية ، والتي اخترعت الكتابة في مطلعها • ونظراً لملاحظة العلماء وجود فوارق رئيسية او مميزات عامة اختصت بها العصور وتميزت بها عن العصور التي سبقتها وعن العصور التي أعقبتها ، ولملاحظة هؤلاء العلماء مرور تاريخ الانسان في معظم المناطق التي سكنها بمراحل حاسمة غيرت وجه هذا التاريخ ، رأى المؤرخون وجوب تقسيم العصور التاريخية الى أقسام ثلاثة دعوها : العصور القديمة ، والعصور الوسطى ، والعصور الحديثة ، مع العلم أن الانتقال من أحد هذه الأقسام الثلاثة الى القسم الذي يليه لم يتم بصورة فجائية وتامة لأن التاريخ كل متصل مستمر الحلقات ، لا انقطاع في حوادثه ، وكل ما يحدث هو اندثار معالم الاتجاهات القديمة التي كانت تميز قسما من هذه الاقسام الثلاثة لتظهر على مسرح الوجود اتجاهات جديدة تميز لقسم التالي • هذا مع الاشارة الى أنه لا بد من ظهور مرحلة انتقالية أو تمهيدية تهيىء وتمهد الى انتقال تاريخ البشرية من العصور القديمة الىالعصور الوسطى وأخيرا الى العصور الحديثة •

وقد حدد العلماء نقطة بداية او فترة زمنية بدؤوا بها كلاً من هذه الأقسام الثلاثة ، كما عينوا حادثاً تنتهي عنده تلك العصور علماً بأن هذه النقاط أو الفترات التي بدؤوا بها وانهوا عندها كل قسم من هذه الأقسام هي اعتبارية وتختلف من منطقة لأخرى ومن قارة لأخرى ومن أمة لأخرى • ولا يرقى الشك الى ان مطالع العصور القديمة والوسطى

والحديثة بالنسبة لشعوب أوربة تختلف تماما عن مطالع تلك العصور بالنسبة لتاريخ الامة العربية أو بالنسبة لتاريخ شعوب الشرق الأقصى أو بالنسبة لتاريخ العالم الجديد • وهذا ما يحملنا على القول بأن السنين التي درج المؤرخون على اثباتها في بطون التاريخ والتي أنهوا عندها العصور القديمة وبدؤوا بها العصور الوسطى ، أو السنين التي ختموا بها العصور الوسطى واستهلوا بها العصور الحديثة هي سنون تتعلق بتاريخ أوربة بصورة عامة وتاريخ اوربة الغربية والوسطى بصورة خاصة • ولا بد من الاشارة الى أنه من الصعب تحديد فترات ثابتة ننهي عندها أي قسم من هذه الأقسام ونبدأ بها القسم الذي يليه بالنسبة للتاريخ العالمي • وسندرس بايجاز الصفات العامة لكل من هذه الأقسام الثلاثة :

العصور القديمة • — لقد أجمع المؤرخون على بداية العصور القديمة بمطلع الألف الثالثة قبل الميلاد غير أنهم في الوقت نفسه اختلفوا في تحديد آخر فترة من فترات هذه العصور • فثمة من يقول بأن العصور القديمة تنتهي سنة ٣٩٥ م وهي السنة التي توفى فيها الامبراطور الروماني الشهير تيؤدوس موصياً بتقسيم الامبراطورية الرومانية العظيمة بين ولديه آركاديوس وهونوريوس مما كانت نتيجته انفصال الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية عن القسم الغربي • ولم تلبث الامبراطورية البيزنطية أن ولدت واستقلت بشؤونها • وكثيراً ما حاول أباطرتها استرداد الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية التي خرجت فعلا من ايديهم • وهناك مؤرخون ينهون العصور القديمة بعام ٤٧٦ م أي عندما قضى اودواكر ، أحد زعماء بعض القبائل الجرمانية ، على الامبراطورية الرومانية التي كانت تمثل فكرة الدولة العالمية •

وسواء أأنهينا العصور القديمة في آخر القرن الرابع الميلادي أم

في نهاية القرن الخامس ، فما لا ريب فيه أن أهم ما تميزت به هـذه العصور من تاريخ العالم هو ظهور الامبراطوريات أي الدول العالمية التي لم تقتصر رقعتها على قطر واحد بل خضعت لحكمها مناطق متعددة من بقاع العالم القديم . وأول هذه الامبراطوريات الامبراطورية المصرية في عهد فراعنة الدولة الحديثة ونخص بالذكر رعمسيس الثاني وحفدته الذين بسطوا سلطانهم على الأجزاء الجنوبية من وادي النيل كما أوغلت جحافلهم في الاناضول وأعالي بلاد الشام .

ومما تجدر الاشارة اليه أن معظم هذه الدول العالمية ، التي سنورد ذكرها ، كانت ذات طابع ديني ، فالفراعنة كانوا معتبرين بنظر رعاياهم أبناء للآلهة ، بينما كان اباطرة الدول الاخرى كهنة للآلهة . أما في الامبراطورية الرومانية فبعد أن كان الاباطرة يعبدون وبعد أن كانوا حماة للوثنية غدوا حماةللديانة المسيحية منذ نهاية القرن الرابعالميلادي.

ومن أهم الامبراطوريات أو الدول العالمية التي ظهرت في ربوع الشرق الادنى الامبراطورية الآشورية التي امتدت رقعتها ما بين حدود ايران شرقاً ومصر غرباً والاناضول شمالا وشبه الجزيرة العربيةجنوباً . وثمة دول عالمية اخرى أقل اهمية من هاتين الدولتين كامبراطورية الفينيقيين ودولتي الكنعانيين والآراميين وغيرها .

وهناك امبراطوريةالفرسالتيتجاوزترقعتها البلاد التيكانتخاضعة للمصريين وللآشوريين وبلغت في مدها شبه جزيرة البلقان ، بيد أنها اجبرت على التراجع اثر تغلب دول الاغريق عليها بزعامة أثينا ، مما أدى الى انحسار نفوذ الفرس عن جنوب شرقي اوروبا مكتفين حوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بحكم ايران والعراق وسورية ومصر .

ثم ظهرت امبراطورية من اعظم الامبراطوريات في التاريخ القديم

وهي امبراطورية الاسكندر الكبير المكـدوني • وبعد أن اتم فيليب والد الاسكندر توحيـد بلاد الاغريق بزعامته اخذت جيوش ابنـه الاسكندر تنساح شرقاً وغرباً حتى أسس اكبر لمبراطورية عرفها التاريخ القديم بلغت حدودها حوض نهر السند شرقا واوروبة الجنوبية غربا وأسوان وحدود شبه الجزيرة العربية الشمالية جنوبا ونهر الدانوب وجبال القوقاز شمالا • ولكن موت مؤسس هذه الامبراطورية المبـكر في مطلع الثلث الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد اضطر قادته الثلاثة الى تقسيم هذه الامبراطورية بينهم ، وقامت على انقاضها ثلاث دول كبرى وهي دولة السلوقيين في سورية ، ودولة البطالمة في مصر ، بينما قامت الثالثة في بلاد الاغريق نفسها •

واخيراً ظهرت الامبراطورية الرومانية التي كانت حدودها الشرقية اقل امتدادا من حدود امبراطورية الاسكندر ، ولم تتجاوز في معظم ايامها حوض نهر الفرات بينما اخضعت الامبراطورية الرومانية لحكمها أوربا الغربية وشمالي افريقية وحوض المتوسط بكامله •

ومن الجدير بالذكر ان الديانة المسيحية ظهرت في فترة خضـوع الارض المقدسة فلسطين لحكم الرومان•وعلى الرغم من اضطهاد اباطرة الرومان لمعتنقي المسيحية في اول الامر ، فان هذه الديانة لم تلبث ان انتشرت في البلاد الخاضعة لحكمهم انتشارا اضطر الامبراطور قسطنطين في سنة ٣١٣ م الى اصدار مرسوم ميلان ، الذي عرف باسم مرسوم التسامح العام ، والذي جعل الديانة المسيحية الناشئة ديانة مسموحاً بها الى جانب الديانات الوثنية الاخرى المنتشرة آنـذاك في اراضي الامبراطورية الرومانية • ويجب الا يغرب عن البال ان مرسوم ميلان الآنف الذكر لم يجعل المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية بل اقتصر على الغـاء القوانين المجحفة التي اضطهد المسيحيون بموجبها

في ظل الأباطرة الذين تولوا حكم الامبراطورية قبل قسطنطين • وقد ذهب كثير من المؤرخين الى أن الغاية ، التي توخاها قسطنطين من مرسومه ، هي توطيد حكمه وليست للتدليل على مسيحيته •

وعلى اثر ذلك انتشر النزاع بين الديانات الأخرى ، التي كان الرومان يعترفون بها ، ولا سيما الديانة الوثنية ، وبين المسيحية الناشئة • وكانت نتيجة هذا الصراع العنيف ظفراً مؤزراً أحرزته المسيحية كديانة قائمة على التوحيد وعلى مبادىء حديثة سماوية علوية • ولم يشرف القرن الرابع الميلادي على نهايته حتى كسبت المسيحية الجولة وغدت الديانة الرسمية الوحيدة للامبراطورية الرومانية • ولكن ذلك لم يتم دون صراع دام •

ويرجح ان الحافز الذي دفع الامبراطور قسطنطين الى اقرار هذه الخطوة الجريئة لم يكن مجرد التقى والورع فحسب ، بل ثمة عوامل اخرى حملته على اصدار مرسومه ، وهي أنه كان يرمي من ورائه الى ان يسيطر على شؤون المسيحية وان يسخر رجال الدين لأغراضه السياسية• فمن ذلك تدخله بصورة حاسمة في الأزمة الدينية الكبرى التي ظهرت في القرن الرابع ، وتناولت البحث في طبيعة المسيح وألوهيته ومساواته بالله بصورة تامة ، وأدت الى انقسام الكنيسة في القرن الرابع الى قسمين • وبيان ذلك أن رجلين من كبار الدين المسيحي هما القسيس آثناسيوس والقسيس اريوس اختلفا في طبيعة المسيح وأزليته ومساواته بالله•رأى أولهما آثناسيوس ، وهو مؤسس المذهب الملكاني ــ واتباعه هم الكاثوليك ــ أن طبيعة المسيح قديمة وأزلية وأنها مساوية مساواة تامة لطبيعة الله ، بينما لم يعتقد آريوس وهو واضع المذهب اليعقوبي او الارثوذكسي بذلك •

وقد اضطر الامبراطور قسطنطين الى التدخل لحسم هذا النزاع

فدعا في العام ٣٢٥ الى عقد المجمع المسكوني العالمي في مدينة نيقية الواقعة قبالة القسطنطينية على الشاطىء الأسيوي لمضيق البوسفور وتدعى الآن آسنيك • وقد أجمع رأي رجال الدين في هذا المجمع على أن أقوال آريوس هرطقة أي أقوال كفرية ، وأن الصواب هو الرأي الذي أدلى به آثناسيوس واتخذ مجمع نيقية قرارا بذلك دعي بالمذهب النيقي الذي نما على اساسه المذهب الكاثوليكي •

وفي سنة ٣٩٤ صدر قانون عن مجلس الشيوخ اعلنت المسيحية بموجبه الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية ، مع ملاحظة ان المسيحية التي اعترف بها بموجب هذا القانون هي المذهب الآثناسيوسي الكاثوليكي • كما صدرت قوانين عديدة اخرى حرمت بموجبها العبادة وفق الطقوس الوثنية ، واهوى المسيحيون على المعابد الوثنية في سائر بقاع الدولة فدكوا معالمها ودمروها وجعلوها ركاماً من انقاض بعد استيلائهم على ما كانت تضمه من ثروات وتحف فنية زينوا بها الكنائس المسيحية • ووقف المسيحيون الذين ازداد نفوذهم منذ ذاك الموقف نفسه من التراث الفكري الاغريقي والروماني القديم فحجبوه عن رواد العلم بحجة انه تراث وثني • وقد بقي هذا التراث محجوبا طيلة العصور الوسطى حتى بداية عصر النهضة واحياء العلوم منذ القرن الثالث عشر •

وصفوة القول ان اهم ما تميزت به العصور القديمة ان الدول فيها كانت عالمية أي امبراطوريات استعمارية كبرى • وهذه الامبراطوريات الى حد ما ذات صبغة دينية سواء أكانت وثنية ، كما هي حال امبراطوريات فراعنة مصر والآشوريين والفرس ، حيث كان الغالبون يفرضون عبادة آلهتهم على الاجزاء التي فتحوها واخضعوها لحكمهم ، ام مسيحية كما هي الحال في الامبراطورية الرومانية منذ نهاية القرن الرابع الميلادي •

وثمة ملاحظة أخيرة وهي ان مؤرخي العرب والاسلام درجوا على اعتبار ميلاد الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل ٥٧١ م خاتمة لتاريخ العصور القديمة للعرب وبداية لتاريخهم في العصور الوسطى الذي صار منذ ظهور الاسلام تاريخ انتشار الاسلام في مختلف بقاع العالم القديم • ولذلك فان المؤرخين الذين ادخلوا تاريخ العرب في حساب تقسيمهم يعتبرون نهاية العصور القديمة ما بين القرن الخامس والسابع الميلاديين •

العصور الوسطى • ـ تمتد هذه العصور ما بين مطلع القرن السادس ونهاية القرن الخامس عشر الميلاديين أو بصورة ادق ما بين سنة ٤٧٦ ، وفيها سقطت روما بيد البرابرة ، وسنة ١٤٩٢ التي اكتشفت فيها أمريكا وتبدلت على اثر ذلك معالم الحياة في اوربة والعالم •

وبالرغم من ان العصور الوسطى امتدت الى مطلع القرن السادس عشر الميلادي فان بوادر انتهاء هذه العصور ظهرت منذ نهاية القرن الثالث عشر • ورأى بعض المؤرخين ان يبدؤوا تلك النهاية منذ انتشار الاسلام في جميع بقاع حوض البحر الابيض المتوسط • ومهما يكن فثمة خلاف بين الصفات العامة للعصور الوسطى في قسمي اوروبا الشرقي والغربي•

العصور الوسطى في اوربة الشرقية • ـ عاشت الامبراطورية البيزنطية فترة طويلة أربت على عشرة القرون ، بين ظهورها لدن وفاة الامبراطور تيؤدوس سنة ٣٩٥ والقضاء عليها وتصفيتها على يد السلطان محمد الفاتح العثماني سنة ١٤٥٣ م• وتدين هذه الامبراطورية ببقائها تلك الفترة الطويلة الى عوامل نخص بالذكر منها عاملين اثنين اعتبرا أهم تلك العوامل :

أولهما هو اتجاه غارات الشعوب الجرمانية ، منذ القرن الخامس ، بعد اجتيازها لنهر الطونة ، نحو روما وبقاع غربي أوربة ، حتى ان

بعض شعوب الجرمان كالفاندال انحدروا الى شمالي افريقية ، وثانيهما هو مناعة أسوار القسطنطينية وعدم استعداد الجرمان المغيرين الاستعداد الكافي الذي يؤهلهم لفتح هـذه المدينة المنيعة التي يتطلب فتحـا استعدادا بريا وبحريا قويين مما لم يكن قد أتيح لشعوب الجرمـان البربريـة •

ونظراً لاطمئنان أباطـرة بيزنطـة في عاصمتهم القسطنطينية ذات الاسوار المنيعة من جهـة غارات عناصر الهـون والشعوب الشمالية الجرمانية فقد استمروا يعتقدون أنهم سادة العالم الروملني أي المناطق التي كانت الامبراطورية الرومانية تتألف منها في نهلية العصور القديمة لا سيما وان امراء الشعوب البربرية التي استقرت قبائلهم في ولايـات الامبراطورية الرومانية الغربية قد اعتنقوا طيلة فترة طويلة ولو بصورة نظرية الفكرة ذاتها من حيث اعترافهم بسيادة الامبراطورية البيزنطية على ما بأيديهم من ولايات الامبراطورية الرومانية الغربية • فعندما تخلصت العناصر الجرمانية المستقرة في ايطاليا من آخر أباطـرة روما الملقب باوغسطوس الصغير وذبحت اباه أوريستوس سنة ٤٧٦م لم يعلن أودواكر زعيم الجرمان نفسه ملكا مستقلا على ايطاليا انما ارسل سفارة من عنده لامبراطور القسم الشرقي ، بيزنطة ، ليحيطه علما بان ايطاليا لم تعد بحاجة الى امبراطور وأنه يعلن نفسه ملكا تابعا للدولة الرومانية ويعترف بسيادتها عليه ويريد منها ان تنعم عليه بلقب نائب الامبراطور في ايطاليا •

وعلى الرغم من انه قضي على الدولة الرومانية في الغرب فان هذه الـدولة بقيت بقاء قانونيا اي بصورة نظريـة في عاصمتها الثانيـة القسطنطينية واستمر أباطـرة القسم الشرقي يعتبرون انفسهم ورثـة الامبراطورية الرومانية بقسميها ، كما حاول بعضهم استرداد ما فقدتـه الدولة الرومانية على يد قبائل الجرمان • بيد ان هذه المحاولات كانت

من قبيل المحاولات بعد فوات الأوان ممـا جعلها مستحيلة استحالة مادية ، وان صادفها بعض النجاح الزائف في اول الامر ٠ ولذلك لم يكن أباطرة بيزنطة يستشعرون بقوتهـم ليحنوا لماضي امبراطوريتهم المجيد ولم يفكروا بصورة جدية باسترداد ما استولى عليه الجرمان من ولايات الامبراطورية في الجزء الغربي ٠ ويمكن ان نعدّ من قبيل ذلك ماقام به الامبراطور جستنيان في القرن السادس حيث استرد افريقية الشمالية وايطالية وقسماً من اسبانية ٠

لكن الامبراطور البيزنطي ، الـذي كان في نفس الوقت وريثا للقياصرة اي لاباطرة روما الغربية ومترسما خطـوات ملوك المشرق المستبدين ، كان يدين بالمسيحية وكان يحكم دولة تحتل المسائل الدينية فيها مكانا مرموقا وهاما للغاية ٠ وعندما لم يعد بوسع اباطرة بيزنطة السيطرة على الغرب الاوربي اختلف رجال الدين فيها مع البابويةوحصل الانقسام بين الكنيسة الشرقية والغربية ٠ وقد مهد لهـذه الحركة الانفصالية منذ أمد بعيد وتمت بصورة فعلية في منتصف القرن التاسع ٠

وقد تمتعت الديانة طيلة الفترة الطويلة التي عاشتها الامبراطورية البيزنطية بمنزلة سلمية وكان لها اثر حاسم في توجيه الجيوش لقتال اعداء الامبراطورية وكان الفرس الساسانيون عباد النار اعداء البيزنطيين على حدودهم الشرقية ٠ وكان النصر في هذا الصراع بين قوات هاتين الامبراطوريتين بجانب البيزنطيين ولكنهم لم ينعموا بالنصر المؤزر على عدوهم فسرعان مافاجأ الامبراطوريتين العرب عندما انطلقوا من الجزيرة وفتحوا الامبراطورية الساسانية وقضوا عليها في فترة لم تتجاوز ربع القرن ٠ أما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية فقد اعلن العرب المسلمون عليها حربا شعواء تمكنوا بواسطتها من احتلال معظم ولاياتها الشرقية كسورية ومصر وآسية الصغرى ، كما استولى المسلمون على شمالي

افريقية ولم تنج العاصمة البيزنطية نفسها من المـدّ العربي الاسلامي الا لعدم استعداد الفاتحين المسلمين الاستعداد البحري القمين بالاستيلاء على عاصمة منيعة كالقسطنطينية .

وكان بوسع البيزنطيين ان يجدوا مساعدة فعالة ضد الفرس ثم العرب المسلمين لدى الامارات المسيحية الغربية . ولكن الخلاف المذهبي، الذي أخـذ يفصل بين مسيحيي المشرق والمغرب ، والذي وصل الى درجة الحقد والكراهية بينهم جعل معونة مسيحيي الغرب للامبراطورية البيزنطية قليلة الاهمية . ولذلـك لم يفد البيزنطيون من الحمـلات الصليبية التي شنها مسيحيو الغرب على بلاد الشام بدعوى خلاص الاماكن المقدسة من ايـدي المسلمين سوى فائدة محدودة . ثم ان الصليبيين انفسهم ناصبوا البيزنطيين العداء وطردوا اباطرة بيزنطة من حاضرتهم مقيمين فيها امارة صليبية لاتينية أي كاثوليكية المذهب قرابة ستين عاما ١٢٠٤ ــ ١٢٦١ م وعندما استرد البيزنطيون عاصمتهم لم يتمكنوا من الاتفاق مع اعدائهم من مسيحيي الغرب .

وعندما احتدم النزاع بين البيزنطيين والفرس الساسانيين اولا ، ثم بين البيزنطيين والعرب المسلمين ، ذلك النزاع ، الذي استغرقت فصوله عشرة قرون وكانت معاركه تـدور في الجزء الآسيوي مـن الامبراطورية البيزنطية ، كان على البيزنطيين انفسهم أن يخوضوا في اوروبا غمار حرب شعواء لا هوادة فيها ضد العناصر السلافية والمجرية دون ان يتاح لهم ايقاف اجتياح او تسلل العناصر البربرية من حـوض الدانوب الى شبه جزيرة البلقان ، تلك الاجتياحات التي كثيراً ما وصلت الى شبه جزيرة البيليبونيز في اقصى جنوبي البلقان. لكن اباطرة بيزنطة كثيراً ماعوضوا ضعف دولتهم العسكري الذي جعلها عاجزة عن صد غارات هذه العناصر بنشاطهم السياسي القائم على المكر ومحاولة بذر بذور التفرقة بين العناصر البربرية وتأريث الفتن وتسعير الحروب بينها

ومحاولة استمالة بعض هذه العناصر الى جانبهم واخضاعها الى نفوذهم. وقد دأب المبشرون على جعل قبائل عديدة من هذه العناصر تعتنق الديانة المسيحية وفق المذهب الأرثوذكسي الذي غدا المذهب الرسمي للامبراطورية البيزنطية . وهكذا كان المبشرون الأرثوذكس يقومون بنشر مذهبهم في بقاع عديدة لم تخضع ابدا في تاريخها للنفوذ البيزنطي، كما كانوا ينشرون بعض مظاهر الحضارة البيزنطية .

كان ضعف الامبراطورية البيزنطية يسير بصورة مطّردة وعندما استولى الاتراك على عاصمتها القسطنطينية لم يكن قد بقي للبيزنطيين سوى العاصمة نفسها . وهكذا توارى بسقوط القسطنطينية آخر مظهر من مظاهر أهمية وعظمة الامبراطورية الرومانية في جزئها الشرقي البيزنطي . ومع ذلك فان العرب المسلمين ، الذين استولوا على الممتلكات الآسيوية والافريقية لبيزنطة ، قد اقتبسوا أشياء كثيرة عن الحضارة البيزنطية . اما في اوروبا الشرقية فقد استطاع البيزنطيون ، قبل قضاء الاتراك العثمانيين على امبراطوريتهم ، أن يجعلوا العناصر ، التي استقرت حديثاً في البلقان وفي سهول روسيا ، تعتنق المسيحية على المذهب الارثوذكسي . وعندما احتل الاتراك العاصمة البيزنطية والبلقان فرّ كثيرون من اقطاب رجال الفكر الى الغرب ناقلين اليه التراث الفكري الاغريقي .

العصور الوسطى في اوروبة الغربية . ـــ تعرضت اوروبة الغربية منذ بداية القرن الخامس لغارات البرابرة التي بدأت منذ الربع الاول من ذلك القرن بغارات قبائل الهون الآسيوية التي وصلت حوض نهر الدينيبر . ثم قامت القبائل البربرية التي استقرت في جرمانيا بغاراتها على الولايات الغربية للامبراطورية الرومانية . ووصل المغيرون الفاندال الى افريقية الشمالية بينما انتهى المطاف بعناصر الانكلوساكسون في الجزيرة البريطانية .

وقد اعتنقت القبائل المغيرة المسيحية وفق المذهب الآريوسي الارثوذكسي علماً بأن قبائل الفرنجة المقيمة في فرنسا اعتنقت المسيحية وفق المذهب الآتناسيوسي الكاثوليكي . وقد ادى الخلاف المذهبي بين العناصر المغيرة والسكان الاصليين في المناطق الآنفة الذكر ، وكانوا من الكاثوليك ، الى تردّي العلاقات بين الحاكمين والمحكومين مما نتج عنه اضطهاد الحاكمين كولاة للامبراطورية الرومانية لرعاياهم من سكان البلاد الاصليين . وحيثما بقي الجرمان معتنقين للمذهب الآريوسي لم يقم تعاون وثيق بينهم وبين السكان ولم يتمكنوا تبعاً لذلك من توطيد حكمهم وترسيخ جذوره في البلاد التي استقروا فيها ، ولم يتمكن الفيزيقوط من الاحتفاظ باسبانيا الا بعد تحولهم عن المذهب الآريوسي الى الكاثوليكي . اما قبائل الفرنجة التي استقرت في فرنسا فانها اعتنقت منذ البداية المذهب الكاثوليكي مما ادى الى حصولها على تأييد البابوية ذلك التأييد الذي نجم عنه قيام تعاون وثيق بينها ، كعناصر حاكمة لولاية غاليا الرومانية ، وبين السكان الاصليين الذين كانوا كذلك من الكاثوليك . وهكذا فان تأييد الكنيسة الكاثوليكية ورئيسها البابا للفرنجة اكسب حكم هذه القبائل في فرنسا الاستقرار والديمومة .

وقد حاول رؤساء القبائل الجرمانية ، الذين اوسد لهم اباطرة الرومان حكم الولايات الامبراطورية الرومانية الغربية الاستقلال عن السلطة المركزية وتوجيه ضربات قوية اليها زاد من اثرها ان الامبراطورية الرومانية ــ بشقيها الشرقي والغربي ــ كانت تتعرض في الوقت نفسه لانتشار الاسلام في حوض البحر الابيض المتوسط وتحرير العرب المسلمين للولايات العربية الآسيوية والافريقية التي كانت خاضعة للحكم الروماني . وقد زاد خطر العرب المسلمين على الامبراطورية الرومانية بعد أن تعرضت له الولايات الرومانية الاخرى ، كما كانت الحال في آسيا الصغرى ، وبعد أن تكرر حصار العرب المسلمين للقسطنطينية

نفسها ، وشمال افريقيا واسبانيا التي وصل منها المد العربي الاسلامي حتى الاجزاء الشمالية من غاليا عندما خاض العرب المسلمون معركتي تور وبواتييه •

رغبة البابوية في ممارسة السلطة الزمنية • — لقد عمت الفوضى العالم الروماني الغربي من جراء حدوث غارات الجرمان على الولايات الغربية للامبراطورية الرومانية ، مما كانت نتيجته المباشرة التمهيد لانفصال أجزاء كثيرة عن جسم الامبراطورية• لكن الكنيسة الكاثوليكية برئاسة البابا بقيت تمثل فكرة استمرار الدولة وفق مفهومها القديم القائم على ممارسة السلطة المركزية مراقبة خاصة ناجعة وفعالة على حكم الولايات ، وذلك لأن هذا المفهوم ينسجم وقواعد هذه الكنيسة • وافادت قبائل الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية من اتفاق مصالحهما الذي نتج عن اتحادهما الوثيق وتساندهما ودعم ومؤازرة احدهما للآخر • واعتبر المؤرخون الغربيون هذه الفوائد المتبادلة التي جناها كل فريق من الآخر أهم حوادث التاريخ الغربي في مطالع العصور للوسطى • واعتبروا ان المعنى السياسي لاقامة البابا حفلة تعميد ملك الفرنجة كلوفيس Clovis ، ولاقامته الحفلة المقدسة لتنصيب بيبين القصير ملكا ، ولتتويج شرلمان امبراطورا ، يفسر رغبة البابوية في ممارسة السلطة الزمنية •

النظام الاقطاعي • — لقد ظهر النظام الاقطاعي في سائر بقاع أوروبا ، الغربية والوسطى • وقام هذا النظام على تجزئة السيادة التي كان يمارسها الامبراطور الروماني ، كرئيس أعلى للسلطة المركزية في روما ، وعلى انفصال واستقلال جميع الولايات التي كانت خاضعة للامبراطورية• وغدا تملك الارض في ظل هذا النظام مظهر الثراء الوحيد لأسياد المقاطعات والمصدر الوحيد لقوتهم • وظهرت في ظل هذا النظام علاقة

تبعية بين أصحاب الاراضي ، وهم الامراء أو الاشراف أصحاب المقاطعات ومستثمريها • وصـــار الأوصال Vassaux ، وهم مستثمرو أراضي الامـــراء ، خاضعين للامراء أصحابهـــا • ولم يكن من رباط أو علاقة اجتماعية بين الاسياد مالكي الاراضي وأوصالهم مستثمريها سوى هذا الرباط القائم على تبعية الاوصال للاسياد • وقد أدى هذا النظام الى القضاء على سيطرة السلطة المركزية التي كانت تمارس في ظل النظام الامبراطوري • وشمل نظام الاقطاع النظام الكنسي نفسه وذلك لأن رجال الدين في المقاطعات كانوا في نفس الوقت مستولين على الممتلكات الكنسية وهي اراضي الاوقاف والهبات ويعتبرون تبعاً لذلك كالاسياد أو الامراء العلمانيين من ملاك أراضي المقاطعات لا تربطهم بأصحاب تلك الممتلكات الكنسية سوى الرابطة الناجمة عن تكليفهم من قبـــل السلطة الكنسية العليا باستثمار تلك الاراضي ، ورابطة الولاء لتلك السلطة الكنسية العليا التي منحتهم حق استثمار ممتلكاتها في المقاطعات•

ويجب ألا نتوهم ان الاوصال في اقطاعاتهم كانوا صادقي الخضوع والولاء لأسيادهم المباشرين الامراء أصحاب الاراضي • وقد ظهرت في ظل ذلك النظام الاجتماعي وهو الاقطاع ثلاث طبقات اجتماعية : الامراء أصحاب الاقطاعات اي الاراضي ، والاوصال الذين يمارسون استثمارها مقابل تبعيتهم وولائهم للامراء والاشتراك في الحروب الى جانبهم ، والأقنان او الفلاحون رقيق الارض اي العاملون على الارض • ولم يكن خضوع افراد طبقة الاوصال للامراء تاماً الا اذا كان للامراء من القوة ما يجبر الأوصال على الخضوع لهم•وكان الامير صاحب الاقطاع يمارس في اقطاعه نفس السلطات التي يمارسها الملوك في ممالكهم • وعندما لا يكون الامير خاضعا لسلطة مركزية فانه يسهر على استتباب الامن والهدوء ولو بصورة نسبية مما يجعل الافراد الذين يعيشون في هذا الاقطاع يمارسون نشاطهم وفعالياتهم حتى في مضمار الحياة العقلية•

ولكن النظام الاقطاعي حيثما وجد كان على العموم مثاراً للفوضى وباعثاً للاضطراب ومنمياً للحس الفردي وللقوة غير المحدودة للشدة المتناهية ، مما يجعلنا نحكم على هذا النظام أنه تقهقر وتأخر عما كانت عليه الحال أيام حكم شرلمان مؤسس الامبراطورية الكارولنجية الذي ظهر الاقطاع في ظل حفدته .

النزاع بين البابوية والامبراطورية . ــ كانت الكنيسة الكاثوليكية التي احتفظت بمظاهر الحضارة الرومانية وغدت الحامية الطبيعية للضعفاء وللفقراء تتمنى اعادة النظام الامبراطوري أو الملكي على الاقل . وكانت تمارس نفوذا معنوياً قوياً على الافراد فكرت في استثماره الى ابعد مدى . وقد عولت السلطات الكنسية العليا أي البابوية على أن تقيم في ربوع اوروبة الغربية نظام حكم مركزي يذكر بنظام الحكم الذي كان يمارس في ظل الامبراطورية الرومانية . وان يكون هذا الحكم المركزي الجديد قائماً على النظام والعدالة والسلام لذلك فان تأسيس الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة في نهاية القرن العاشر أرضى أعز أمنية لعصر كان في قراراته وجوهره ديني النزعة كما أرضى البابا ، وهو الرئيس الذي غـدا يمارس السلطة الروحية العليا في ظل نظام الحكم الجديد ، كمـا أرضى تأسيس الامبراطورية الامبراطور الذي صار الرئيس الاعلى للسلطة الزمنية في الامبراطورية .

لكن الوئام لم يستمر طويلا بين هاتين السلطتين : الزمنية ، ممثلة بشخص الامبراطور الجديد ، والدينية ، ممثلة بشخص البابا . وذلك لأن البابا ، كرئيس روحي في الامبراطورية ، اعتبر نفسه أعلى شأنا من الامبراطور نفسه ، وانه يحق له تبعاً لذلك ان يخضع الاعمال التي يقوم بها الامبراطور لتقديره . بينما اعتبر الامبراطور ، الذي كان الرئيس الزمني في الامبراطورية ، لنفسه الحق في التصرف بالممتلكات الكنسية

المنتشرة في سائر بقاع الامبراطورية واخضاعها لسلطته المباشرة . ولذا قام النزاع بين البابا والامبراطور ، او حسب التعبير المعاصر بين وكيلي او نائبي الله في هذا العالم وكان كلاهما يمني نفسه بالسيطرة العالمية .

فعوضا عن أن يتمتع العالم المسيحي في ظل الامبراطورية الجديدة بالسلام والوحدة لم يكن ثمة سوى الشقاق والحروب . وقد اكتوت كل من المانيا وايطاليا بصورة خاصة بنار تلك الحروب الطويلة . وعندما وضعت هذه الحروب أوزارها في القرن الثالث عشر خضعت كلتاهما لفوضى النظام الاقطاعي الذي كانت مساوئه فيهما أشــد وأدهى من المساوىء التي ظهرت في اية بقعة أخرى سادها النظام نفسه .

وظهر اباطرة عظام في الامبراطورية العالمية الجديدة كانوا يحاولون ارجاع مجد الامبراطورية الرومانية القديمة والقوانين الرومانية وذلك طيلة فترة القرنين التي دام خلالها النزاع بين البابوية والامبراطورية . لكن هؤلاء الاباطرة ، مهما سمت أفكارهم ،ومهما بلغت منزلتهم ، لم يكونوا يمارسون أية سلطة فعلية على العالم المسيحي بل كان الباباوات ينهضون بأعباء قيادة هذا العالم حتى فيما يتعلق ببعض شؤونه الدنيوية. وتبعا لذلك دعا الباباوات الى الحروب الصليبية في الارلضي المقدسة لحرب المسلمين واستخلاص هذه الارلضي من ايديهم ، وحتى في فترات الهدوء الموقت التي كانت تنعم بها كل من ايطاليا والمانيا فان الكنيسة كانت تتدخل لتحد من انتشار الحروب الاهلية أو لتحول دون نشوبها ، ولطالما قاومت وحشية وقسوة الامراء الاقطاعيين ضد رعاياهم مبينة لهؤلاء الاسياد وجوب استهدافهم لمثــل اعلى يسعون الى تحقيقه في حياتهم كما انها كانت تحمي الملوك والامراء الذين اسهمت في تنصيبهم وذلك على غرار ما كانت تقوم به في فرنسا من حيث حمايتها لملوك هذه الدولة . وساعدت الكنيسة بكل ما لديهـا من نفوذ وقوة على

مقاومة عوامل الانحلال والفوضى • هـذا فضلا عن رعايتهـا لتطور الحضارة الغربية والتعليم الجامعي وبناء وزخرفة تلك الكنائس العظيمة والوفيرة العدد والرائعة في البنيان التي تدين بهـا الحضارة الغربية للعصور الوسطى • وكان القرن الثالث عشر ، الذي يعتبر عصر انتصار البابوية ، العصر الذهبي للحضارة الغربية في العصور الوسطى •• ثم بدا ضعف البابوية في القرنين التاليين كما لوحظ انهيار النظام الاقطاعي مما كانت نتيجته الحتمية انهيار سلطة الامراء ونمو سلطة الملوك وازدهار الطبقة المتوسطة ، الامر الذي فتح امام اوربة آفاقاً جديدة بشرت بالعصر الحديث •

العصور الوسطى بالنسبة للتاريخ العربي الاسلامي • ـــ اشرنا آنفاً الى ان ميلاد الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم وظهور الاسلام يعتبران بداية العصور الوسطى الاسلامية • وكمـا امتدت العصور الوسطى في اوروبة مدة عشرة قرون من مطلع القرن الخامس الى منتصف القرن الخامس عشر فان العصور الوسطى بالنسبة لتـاريخ العـرب والاسلام امتدت فترة تقرب من عشرة القرون ما بين مطلع القرن الاول والعاشر الهجريين •

وثمة خلاف بين التاريخ العربي والاسلامي في هذه العصور الوسطى والتاريخ الغربي في العصور نفسها • وكنا استعرضنا الخطوط العـامة لتاريخ كل من اوروبة الشرقية والغربية طيلة هذه العصور • اما بالنسبة لتاريخ العرب والاسلام فان التاريخ العربي الاسلامي السياسي مر خلالها بعصره الذهبي • كما بلغت الحضارة العربية الاسلامية اعتبارا من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أوجهـا • ثم اعقبت ذلك عصور الانحطاط السياسي بالنسبة لتاريخ الدول العربية والاسلامية الى ان تم خضوع العالم العربي الاسلامي لحكم الاتراك العثمانيين منذ مطلع

القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي • ويعتبر خضوع العالم العربي للحكم العثماني بداية التاريخ العربي الحديث •

العصور الحديثة • ــ ذكرنا من قبل ان ثمة فئة من المؤرخين تبدأ العصور الحديثة بسقوط العاصمة البيزنطية بيــد الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ وهنالك فئة ثانية من المؤرخين حددت مطلع العصور الحديثة بانتهاء حرب مائة العام التي دارت رحاها بين انكلترا وفرنسا وقد وضعت هذه الحرب أوزارها في العام نفسه ، أي : ١٤٥٣ • وهنالك فئة ثالثة من المؤرخين بدأت هذه العصور الحديثة بابتداء طبع يوحنا غوتنبرغ الكتاب المقدس في العام نفسه ولا شك ان اختراع الطباعة مهّد لازدهار النهضة الفكرية في اوربة ويستحق أكثر من الحادثين السابقين ان نبدأ به العصور الحديثة • وأخيرا فان ثمة جماعة رابعة من المؤرخين ترى وجوب بداية العصور الحديثة بسنة ١٤٩٢ وهي السنة التي تم فيها اكتشاف امريكا وكانت فاتحة لانقلاب عظيم في اوربه والعالم • وصفوة القول انه مهما اختلفت أقوال المؤرخين في تحديد السنة التي بدؤوا بها العصور الحديثة فلا مشاحة في أن هذه السنين كلها هامة وحاسمة • وهي كلها تقع كما لاحظنا في النصف الثاني من القــرن الخامس عشر الميلادي • وهذا ما حدا بالمؤرخين الى اعتبار فترة نصف القرن هذه مليئة بالاحداث الجسام التي غيرت وجه التاريخ وتستحق ان تتخذ نقطة بداية للعصور الحديثة •

أما نهــاية العصور الحديثة ففي ايامنا هــذه • على ان فريقا من المؤرخين توخياً منهم لتسهيل دراسة هذه الحقبة ، رأوا تقسيمها الى فترتين : الاولى ، فترة التاريخ الحديث ، وتبدأ من مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر ، والثانية ، فترة التاريخ المعاصر وتمتد بين مطلع القرن التاسع عشر الى أيامنا هذه •

النصف الثاني من القرن الخامس عشر فجر العصور الحديثة . ــ بدات تتضح منذ منتصف القرن الخامس عشر ميول واتجاهات جـديدة في مختلف الفعاليات البشرية • ففي مجالات السياسة والديانة والافكار والآداب والفنون بدأت الاوضاع السائدة في العصور الوسطى تتغير منذ نهـاية القرن الثالث عشر فقـد اختفت فكرة الدولة العالمية أي الامبراطورية لتحل محلها فكرة الدول المحلية او الاقليمية القائمة على أساس قومي • ونظرا لاهتمام المفكرين منذ القرن الرابع عشر بصورة جدية ومستمرة باحياء التراث الادبي والفني والعلمي لاقطاب الفكر في العصور القديمة فقد تفتحت قرائح مفكري الغرب منذ هذه الفترة عن أفكار ومشاريع لم تبد لاعين أسلافهم •

وتجلى اهتمام مفكري اواخر العصر الوسيط باحياء التراث الفكري القديم كمرحلة انتقالية مهدت للعصور الحديثة وابتدأت بظهور ثورة فكرية لوحظت بوادرها الاولى منذ حقب بعيدة وغيرت بصورة جذرية الفكر الاوروبي ، وكان تتاجها ظهور شخصيات عظيمة مثل مارتن لوثر وكريستوف كولومب وكوبرنيك•ويرمز هؤلاء الثلاثة الى ظهور مرحلة جديدة في تاريخ تطور الفكر البشري هـذه المرحلة التي اتفق على تسميتها بنهاية العصور الوسطى وبزوغ فجر العصور الحديثة •

ولعل أهم احداث التاريخ البشري في نهاية القرن الخامس عشر وطيلة القرن الذي تلاه هي انهيار النظام الاقطاعي ، وحركة الاصلاح الديني ، والتقدم الذي حققته بعض فروع العـلوم ، ونشاط الملاحة واقامة علاقات تجارية بين شعوب أوروبا الغربية وشعوب الشواطىء النائية في الشرق الاقصى ، واكتشاف العالم الجديد ولكل من هـذه الاحداث اهميته •

ان اهم النقاط التي ميزت تاريخ اوروبه الغـربية عند بزوغ فجر العصور الحديثة هي :

١ ـ توحيد أقاليم دول اوروبة الغربية وزوال فكرة وحـدة العالم المسيحي • ـ ان للتغييرات السياسية التي غـدت اوروبه المسيحية مسرحا لها أهمية قصوى من ناحيتين : الاولى من ناحية نظام الحكم نفسه ، والثانية من ناحية طريقة الحكم التي يعمل بها في الدول الحديثة • لقد طرأ تحول جذري عميق منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر على البلدان التي غلب على حضارتها الطابع الروماني القديم وظهرت في مناطق عديدة صفات جـديدة للحكم تختلف بصورة جوهرية عن صفات الحكم السابق في ظل العصر الوسيط • وكانت نتيجة النظام الاقطاعي تجزئة مناطق الدول القديمة واقامة وحدات سياسية في كل منها وذلك لأن الاقطاع في حد ذاته لم يكن في الواقع سوى وحـدة اقليمية وسياسية ، أي كان بمثابة دولة صغرى في اطار الدولة الكبرى وهي الامبراطورية أو الملكية • فقد تمكن عواهل أوروبه بصـورة تدريجية من اضعاف سلطـات اوصالهم امراء الاقطاعات اي حكام الاقاليم في دولهم • كمـا قام اولئك الملوك بتوسيع ممتلكاتهم على حساب اقطاعات امراء الاقاليـم • وبهذه الصورة تمكن ملوك فرنسا واسبانيا وانكلترا من ان يجعلوا دولهم تختلف بصورة كلية عما كانت عليه حالها من قبل في ظل النظام الاقطاعي ، وغدا الحكم في هذه الدول ملكياً مستبداً يمارس من قبل سلطة مركزية • وعلى العموم تحولت هذه الدول الثلاث الى دول حديثة اهم ما يميزها اختـلاف علاقات رئيسها برعاياه وبالدول الاخرى • ولم يعد اي عاهل من عواهل هذه الدول يسترشد في علائقه بالدول الاخرى ، القريبة والبعيدة ، بمصلحة المسيحيين عامة بل ان كل عاهل أخذ يعمل بوحي من مصالحه الخاصة • وقد تم بذلك القضاء على وحدة العالم المسيحي التي اتصفت بها دول اوروبه طيلة العصور الوسطى ، تلك الوحدة التي كانت تنشد اقامة دولة مسيحية عالمية تضم مختلف الدول المسيحية ويمـارس السلطة

الدينية العليا فيها البابا في روما ، بينما يمارس السلطة السياسية فيها امبراطور المانيا •

٢ ــ **ضعف سلطة البابا والامبراطور** • ــ كما ضعفت سلطة البابا والامبراطور في كل من اوروبه الوسطى وشبه جزيرة ايطاليا • ففي اقاليـم اوروبه الوسطى لم يكن نفوذ الامبراطور ليتعدّى نفوذ باقي الامراء حكام الولايات كحكام النمسا مثـلا • وايطاليا نفسها كانت مقسمة الى عدد من الدول تختلف اهميتها من دولة لأخرى • وقد أدت وفرة عدد دويلات ايطاليا واطماع بعض رؤسائها التوسعية الى ظهور الاضطراب والفوضى بين ربوعهـا حتى بالقرب من روما نفسها مقر الرئيس الديني • وكثيراً ما أخفق البـابا في ان يكون مطاع الرأي مسموع الكلمة • ولذلك تبخرت الاحـلام القديمة القـاضية باقامة جمهورية مسيحية عالمية تلك الفكرة التي طالما راودت مخيلات باباوات العصور الوسطى •

٣ ــ **النزعة القومية** • ــ ظهرت هذه النزعة بأن أخذت كل دولة تكيف علائقها بجاراتها وفق مصالحها الخاصة • وأخذ كل شعب يشعر بكيانه الخاص ويميز نفسه عن باقي الشعوب كما استقطبت مصالحه الخاصة تفكيره •

٤ ــ **نمو الحكم المطلق** • ــ لم يعـد الملوك في الـدول الحديثة يأبهون برغبات افراد شعبهم ، فكان العاهل يعلن الحرب ويقرر نهايتها • وصار الملك بنتيجة حفلة تنصيبه يمثل في شخصه مصالح افراد شعبه ويتكلم باسمهم جميعاً • واخذت السلطات التي يمارسها الملوك تزداد وتقوى حتى تجاوزت ما كانت عليه بموجب التشريع الروماني القديم ، كما كانت ارادتهم وأوامرهم تعتبر بمقتضى ذلك التشريع نفسه قوانين• وبقدر ما كان نفوذ امراء الاقطاع يسير نحو الضعف كانت سلطات

الملوك تزداد بعد ان اكثروا من ممتلكاتهم على حساب امراء الاقطاع ، مما أدّى الى تحويل سلطات الملوك الى سلطات مطلقة ساعد في تدعيمها مشرعو هـذه الحقبة . ومنذ هذه الفترة صار الحكم الملكي يمارس بصورة مستبدة ومطلقة في انكلترا وفرنسا واسبانيا .

٥ ـ **ضعف النظام الديني** . ـ وبينما كان النظام الملكي يسير حثيثاً نحو التمكين لنفسه وتوطيد دعائمه ، كانت قوة الكنيسة وفكرتهـا القديمة الرامية الى توحيد اوروبا المسيحية سياسيا بزعامة كل من البابا والامبراطور ، سائرتين نحو الضعف وقد بدأت الهزات العنيفة تهدد كيان الكنيسة الكاثوليكية منذ القرن التاسع .

ثم ان انصراف الباباوات عن الاهتمام بشؤون الكنيسة أدى الـى نتائج أهمها :

أ ـ اختفاء الفكرة القديمة القائلة بحق البابوية في ممارسة نوع من السلطة السياسية على الدول المسيحية المختلفة .

ب ـ ضعف السلطة التي يمارسها البابا نفسه على رجال الـدين في هذه الدول المسيحية المختلفة . وقد لاحظ المفكرون المعـاصرون ضعف سلطة البابوية على الدول المسيحية في المجالين السياسي والديني .

٦ ـ **نمو الطبقة الوسطى** ـ . لقد كان المجتمع في العصور الوسطى اقطاعيا في جوهره ويضم طبقتين ، الاولى طبقة النبلاء الذين يمارسون الحرب ، ورجال الدين . والثانية طبقة الاشخاص العاديين الـذين يعملون من أجل الطبقة الاولى . لكن هذا الوضع الاجتماعي ما لبث أن تغير بظهور طبقة اجتماعية ثالثة ، تدعى بالطبقة الوسطى ، بـين الطبقتين الآنفتي الذكر او الطبقة البورجوازية حسب التعبير المعاصر . وكان أفراد هذه الطبقة في الاصل من أبناء الشعب العاديين ، ولكنهم بفضل كدّهم وعملهم في المهن الحرة ، ولا سيما التجارة ، أثروا وأخذوا

يتكتلون حول الملوك وغدوا أثمن اداة في أيدي هؤلاء فأفادوا منها في مقاومة أرستقراطية العصور الوسطى أي طبقة نبلاء الاراضي وهم السادة الاقطاعيون • وقد اتخذ ملوك نهاية العصور الوسطى ومطلع الحديثة أهم موظفيهم ومستشاريهم من أفراد هذه الطبقة الوسطى البورجوازية •

هذا ويجب ان نشير الى ان افراد هذه الطبقة الجديدة كانوا تواقين الى زيادة أهميتهم في المجتمع على حساب أفراد طبقة العمال في المدن وطبقة الفلاحين في الريف •

٧ ـ **الحركة الانسانية** • ـ ويراد بها الاهتمام بدراسة الآداب القديمة الاغريقية والرومانية • والانسانيون هم المشتغلون بهذه الآداب وبنشرها وترجمتها الى اللغات القومية • ولم يكتف هؤلاء باحياء التراث الادبي القديم واحياء أنماط وطرق معيشة رجال الفكر القدماء بل انهم مضوا بعيداً في دراسة أقطاب الفكر القدامى وتعدوا ذلك الى مناقشة آرائهم ، مما مكنهم من ادخال الفكر التحليلي النقدي الى مضمار الدراسة • كما ساعد تعلم الانسانيين للغة العبرية على الوقوف على المسائل الدينية القديمة وعلى دراسة الكتب المقدسة •

واهتم الانسانيون الايطاليون بانتقاد أخلاق وعادات رجال الدين وأعلنوا ان الوثائق القديمة التي تدعي البابوية بموجبها ان لها الحق في السيادة الزمنية هي وثائق مزورة • وبينوا ان البابوية كانت تفيد من هذه الوثائق للتأثير بواسطتها على عقول رجال الاكليروس والسذج من الناس ليكونوا أدوات في يد البابوية تمكنها من ان يعترف لها بحقها في السيادة الزمنية •

وقد انصرف الانسانيون الالمان الى توجيه النقد العلمي للنصوص القديمة وأدى بهم ذلك الى انتقاد اخلاق رجال السلك الكهنوتي

في بلادهم ورجال الدين الذين يقومون بتدريس تلك النصوص القديمة في الجامعات الالمانية والى انتقاد ثقافة رجال الدين السطحية ، مما أدى الى قيام خصام بين رجال الدين وبين الانسانيين الالمان . كما أدى تسرب هذه الروح الانتقادية الجديدة الى اخضاع الكتاب المقدس الى النقد العلمي ، مما يعتبر في الواقع نذير قيام ثورة فكرية ودينية .

٨ — **بوادر النهضة الاوربية** . — لقد أفادت أوروبة الغربية من الحروب الصليبية فوائد كثيرة في ميدان الحياة الفكرية واطلع كثيرون ، من رجال الدين وممن رافقوا الحملات الصليبية الى بلاد الشام ومصر ، على الحضارة المزدهرة في البلاد العربية الاسلامية . وأخذت أوروبة الغربية الشيء الكثير من علوم الاغريق وفلسفتهم عن العرب . لذلك يرى كثيرون من علماء الغرب ان من بين مظاهر فضل الحضارة العربية الاسلامية على الحضارة الغربية ان علماء العرب والمسلمين صانوا العلم الاغريقي والفلسفة الاغريقية من الضياع بنقلها الى اللغة العربية . وقد أخذها مفكرو الغرب اما من بلاد الشام ابان الحروب الصليبية أو من جامعات الاندلس أو من جزيرة صقلية سواء في فترة خضوعها للعرب المسلمين أم في عهد روجر النورماندي ، وبعض جامعات المغرب العربي . وأخيرا أدى سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ الى نقل علماء الاغريق الشيء الكثير من التراث الفكري الاغريقي الى ايطاليا . وأتيح لافراد الطبقة المثقفة في ايطاليا ان يقرأوا التآليف الادبية الاغريقية عندما نقلت مخطوطات هذه الروائع القديمة الى ايطاليا . ولم يكن هدف الذين نقلوا ذلك التراث الفكري من مناطق جنوب شرقي اوروبة ، التي سقطت بيد العثمانيين أن ينشروه في الجامعات ، التي كانت تعنى بالعلوم الدينية فحسب ، بل كان هدفهم الاسمى نشر الثقافة في الاوساط الشعبية وعدم قصرها على رجال الدين وحدهم .

لقد استهلت العصور الحديثة ، كما رأينا ، بنهضةفكرية وفنيـة في ايطاليا ما لبثت ان امتدت الى سائر البلاد الاوروبية • ولعل أهم ما امتازت به العصور الحديثة هو ثقافتها الدنيوية وفردية الانسان التي تحررت من قيود العصور الوسطى•فقد أصبح للطبيب النطاسي الشهير وللتاجر الثري النشيط وللعالم المخترع وللفنان العبقري وللاديب اللامع مكانته التي يستحقها بمواهبه وجهده وثروته •

هذا فضلا عن ان المجتمع في العصور الحديثة انتقل من مجتمع زراعي الى مجتمع تجاري وصناعي تسوده الحياة المدنية • ونتج عن ذلك تطور المدن بسرعة نحو الازدهار • واعتبرت الطبقة الوسطى عماد المجتمع المدني •

ومن الجدير بالذكر ان الانتقال من العصور الوسطى الى الحديثة لم يتم بصورة فجائية بل تطلب ذلك ثلاثة قرون : من القرن الثالث عشر حتى السادس عشر ، مع ملاحظة ان نقطة البداية في عصر النهضة لم تكن واحدة بالنسبة لسائر دول اوربة الغربية انما كانت أسبقها الى ذلك ايطاليا لتوفر شروط النمو فيها أكثر من غيرها ولذلك بدأ عصر النهضة في ايطاليا مبكرا ، منذ القرن الثالث عشر وبلغ فترته الذهبية في القرن الخامس عشر • اما بقية دول اوروبة الغربية كفرنسا وانكلترا واسبانيا وهولندا والمانيا فقد ظهر فيها عصر النهضة متأخرا حيث بدأ أواخر القرن الخامس عشر • وكان القرن السادس عشر فترة ازدهـار عصر النهضة بالنسبة لهـذه الدول أي في الوقت الـذي آذنت فيه شمس النهضة في ايطاليا بالغروب •

وقصارى القول ان النهضة بمفهومها التاريخي الضيّق ، أي باطلاقها على فترة تاريخية معينة ، ليست في الواقع الا العناية بالتراثين الاغريقي والروماني القديمين فيما يتعلق بالفنون والمعارف والآداب • وتمكن

مفكرو عصر النهضة تبعا لذلك ان يضعوا للحياة قيما جديدة لم يألفها مفكرو العصور الوسطى ، ولذلك فان تلك القيم والافكار والاتجاهات الجديدة ، التي لوحظت في عصر النهضة ، هي التي مكنت من توجيه النقد الى حياة العصور الوسطى مما حدا بالمفكرين الى اعتبار عصر النهضة في جوهره حركة تقدمية حملت الافراد على خلق نمط جديد للحياة وليس مجرد حركة احياء التراث الادبي والفني القديم •

وكنتيجة لتقدم المعرفة في عصر النهضة قامت منذ نهاية القرن الخامس عشر حركة اكتشافات جغرافية واسعة النطاق أدّت الى اكتشاف طريق جديدة للهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما أدت الى اكتشاف امريكا على يد كريستوف كولومبس ، مما كانت نتيجته قيام ماجلان برحلته الشهيرة حول الارض بالاتجاه غربا بعد الابحار من البرتغال مما لم يدع مجالا لاي ريب حول كروية الاوض • وكانت بعض الاختراعات ونخص بالذكر منها اختراع الطباعة وصناعة الورق والبوصلة والبارود ، قد مهدت لهذه الاكتشافات الجغرافية •

واتسعت في العصور الحديثة آفاق المعرفة البشرية في شتى الميادين وذلك كنتيجة حتمية لاكتشاف عالم جديد وظهور عقلية جديدة مما جعل مركز الجاذبية في العالم ينتقل من بلدان حوض البحر الابيض المتوسط الى حوض المحيط الاطلسي فغدت التجارة العالمية محيطية أي تتم عبر المحيطات • وظهرت حركة استعمارية واسعة النطاق بعد ان ازدهرت الصناعة في مختلف بلدان اوروبة الغربية ، وكانت اسبق الدول الغربية في هذا المجال اسبانيا والبرتغال ثم هولندة وبريطانيا وفرنسا •

ومن مميزات العصور الحديثة ان العقول فيها بدأت تتحرر وتفتحت القرائح العبقرية عن روائع الآثار العلمية والادبية ، وغدت الملاحظة والتجربة وتحكيم العقل أساسا للبحث العلمي •

وبعد ظهور الدول القومية غربي اوروبة اخذت هذه الدول تستكمل وحداتها القومية وتطورها • ولكن الصفة الغالبة للحكم فيها أنه كان حكما ملكيا مستبدا أي أنه حكم مطلق • هذا باستثناء انكلترا التي ما لبث الحكم المطلق فيها ان تحول الى حكم دستوري ، بينما استمرت الملكية في فرنسا مستبدة وحكمها مطلقا الى قيام الثورة الفرنسية الكبرى في نهاية القرن الثامن عشر • وقد حذت باقي الشعوب حذو الشعب الفرنسي فاخذت بعد عودة الحكم الملكي المستبد الى ربوع اوروبة الغربية غداة مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ تطالب بالحكم الدستوري ونما الحكم الديموقراطي حتى غدا شعار الحضارة •

وقامت في القرن التاسع عشر حركات قومية طالبت في ظلها العناصر المنتمية الى قومية واحدة والتي كانت خاضعة لحكم دخيل ان تتوحد في ظل دولة قومية ، وكانت هذه الحركات أبرز ما تكون في اوروبة الوسطى والجنوبية والجنوبية الشرقية في المانيا وايطاليا والبلقان •

ونلخص ختاما لما ذكرناه عن العصور الحديثة الصفات الرئيسية لهذه العصور • ولعل أهم ما يميزها تقدم الفكر البشري واتساع آفاقه ووفرة انتاجه في شتى المجالات من علمية وادبية وفنية • كما شهدت هذه العصور تحقيق فكرة تأليف دول قومية • ولوحظ طيلة العصور الحديثة تطور نظم الحكم في الدول الحديثة من النظام الملكي المستبد المطلق الى النظام البرلماني والمساواة وتخفيف الفروق الاجتماعية بازدهار الصناعة اثر حدوث الانقلاب الصناعي في بعض دول اوروبة الغربية التي أخذت تبحث عن مستعمرات تؤمن لها المواد الاولية وتساعد على تصريف الفائض من انتاجها الصناعي ؛ الامر الذي أدى الى التنافس الدولي والحروب • وتضخم الانتاج الاقتصادي بصورة عامة وزادت العلائق الاقتصادية بين مختلف القارات توطدا بعد تقدم وسائل النقل

وطرق المواصلات . كما امتازت هذه العصور بتمتع الافراد بالحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، والتقدم العلمي وتنوع المدارس الادبية والفنيـة وتحرر الشعوب المستعمرة وغزو الفضاء والطاقة الذريـة واستعمالها في الاغراض السلمية والحربية .

* * *

التاريخ في العصور القديمة

الفصل الثاني

التاريخ والمؤرخون في العصور القديمة

تستعمل كلمة «تاريخ» لأداء معنيين متقاربين ، فهي اما أن تعني سجل الحوادث ، أو الحوادث نفسها . والاساس في الصناعة التاريخية ، كما هو معروف ، ان تكون مقصورة على البحث عن الحقائق وتقريرها بعد الحصول عليها . ولكن هذا المفهوم لم يأخذ شكله النهائي الا في القرون الحديثة ، وقد شابته في الماضي شوائب كثيرة فرضتها الظروف التي مرت بها الحقائق التاريخية وما واكبها من خرافات وأساطير جعلتها بعيدة عن أن تسمى تاريخا . ويقترح ر.ج. كولنجوود في كتابه « فكرة التاريخ » (ص ، ٥١) أن تسمى المدوّنات القديمة التي استعملت فيما بعد في التأليف التاريخي الحديث « بشبه التاريخ » لانها ، فيما تسوقه من بيانات عن الماضي ، تشبه التاريخ ولكنها ليست تاريخا بالمعنى الحديث للكلمة . وقد كان المفهوم القديم للتاريخ أنه سجل لما يفعله الملوك والرؤساء ، فالملوك أو الرؤساء يقومون بالاعمال والتاريخ يسجل هذه الاعمال . فكأن التاريخ بهذا الشكل مرآة تعكس أفعال « صنّاع التاريخ » ، في حين أن التاريخ بمعناه الواسع هو كل ما حدث في الماضي القريب أو البعيد سواء أكان من صنع الملوك أو الرؤساء أم من صنع الناس العاديين . وبكلمات أخرى ان هدف التاريخ هو معرفة النشاط الانساني في كافة الحقول والمجالات وفي كل العصور اذا استطعنا الى ذلك سبيلا .

ان أقدم الكتابات التاريخية المدوّنة ، كما هو معروف ، هـي النقوش . والنقوش القديمة هي الثمرة الهامة الاولى من ثمرات اختراع الكتابة ، اذ اننا تمكنا بواسطتها من ان نطلع على الكثير من اخبـار الماضي الذي تفصلنا عنه آلاف السنين . ولم يكن هدف الذين وضعوا هذه النقوش ايصالها الينا لندوّن من خلالها تاريخهم ، بل كان هدفهم تمجيد سيد من اسيادهم أو تخليد عمل من أعمال ملوكهم وقوادهم . أو كما هو الحال بالنسبة للكثير من النقوش أداء وظيفة دينية تتعلق بمعبوداتهم وطقوس دياناتهم . وقد تمكنا نحن عن هذا الطريق غـير المباشر ان نستقرىء هذه النقوش وأن نصل لرسم صورة تقريبية عـن الماضي الذي ليس له تاريخ مدوّن . ومعلوم ان الاعتماد على النقوش في تدوين التاريخ أمر محفوف بالمصاعب والعقبات . وأهم هذه المصاعب هي أن بقاء نقش من النقوش ووصوله الينا مرتبط الى حد بعيد بنوعية المادة التي نقش عليها وقوة احتمالها لعوامل الطقس وعاديات الزمن . فاذا كانت المادة الاولية التي حفر عليها النقش مادة غير صلبة ولا تتحمل العيش الطويل ضاعت المعلومات التي تضمنها النقش . كما ان الاستفادة من نقش من النقوش رهينة بمعرفتنا للغة التي كتب بها ، وهذا أمر لا يتوفر الا لقلة قليلة من العلماء ، ويبقى صعبا أو مستحيلا بالنسبة للكثيرين . لذلك يظل العديد من النقوش سرا مبهما ينتظر العالم الخبير الذي يعرف كيف يفك رموزه ويستخلص ما فيه من معلومات .

والمصدر الثاني الذي حفظ لنا بعض المعلومات التاريخية هو الروايات الشفهية التي انتقلت عـن طريق التواتر عبر القرون وحفظت لنا بعض الاخبار عن الماضي . وبرغم ما في الروايات الشفهية من مجالات للدس والتحوير والتزوير ، فانها أسهل استعمالا بالنسبة للمؤرخ من النقوش لانها حفظت بلغات مفهومة ومتداولة . لذلك شاع الاعتماد عليها عند أكثر المؤرخين القدماء الذين ابتعدوا عن استعمال النقوش في تآليفهم

التاريخية بسبب جهلهم باللغات التي كتبت بها هذه النقوش • وقد أدى اعتماد المؤرخين القدماء على هذه الروايات الشفهية التي وصلت اليهم الى تشويه الكثير من الحقائق التاريخية مما اضطر المؤرخين المحدثين الى اعادة النظر في هذه الحقائق وبحثها من جديد على ضوء ما توفر من معلومات بنتيجة الحفريات والمكتشفات الاثرية المختلفة • وحين توفرت مادة أوراق البردي في وادي النيل ودخلت الى حيز الاستعمال داخل مصر وخارجها أضيف مصدر جديد من مصادر التاريخ • ولكن ما قلناه عن العقبات والمصاعب التي تكتنف استعمال النقوش من مصادر معلوماتنا التاريخية يصح على أوراق البردي هذه ، ولعل مثال ورقة تورين البردية خير مثال على هذه المصاعب •

وقد كان لاختراع الورق الاثر الكبير على تطور التدوين اذ انه سهل هذه العملية الى حد بعيد وشجع على تدوين الحوادث وأدى الى ظهور الحوليات التاريخية التي هي أقدم كتب تاريخية بالمعنى الحديث للكلمة • ان أقدم الحوليات هي الحوليات المحفوظة في المعابد ، وهي عدة أنواع : فمنها الحوليات الدينية العادية ، ومنها ما هو من نوع القوائم النذرية التي تسجل المعجزات والخوارق التي تحققت في معبد من المعابد ، ومنها القوائم التي تعدد أسماء كهان وكاهنات المعبد ، ومنها سجلات بالصدقات والنذور التي تقدم للمعبد والعجائب التي تمت على أيدي كهنته • وكان بعض كهان المعابد يحتفظون بسجلات لتدوين الاحداث السياسية الهامة التي تمر في أيامهم ، الى جانب احتفاظهم بسجلات لتسجيل الحوادث الدينية ، وكان أحد الكهنة الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد يستعمل ألواحا خشبية لتدوين الاحداث السياسية والدينية التي عاصرها ، لعدم توفر مادة أخرى يسجل عليها هذه الاحداث •

ان اقدم مؤرخين ظهروا في العالم هم الناثرون الذين ظهروا في

المدن الايونية القديمة . وقد نهج هؤلاء الناثرون في تحريهم عن الحقيقة التاريخية منهجا جعلهم لا يكتفون بالوثيقة المكتوبة والرواية الشفهية المتداولة ، بل درسوا العالم الذي حولهم وما قام فيه من احداث ليصلوا عن طريق هذه الدراسة لتدوين تاريخي أقرب الى الواقع . وسنستعرض فيما يلي نشأة الحركة التاريخية وصفاتها عند اليونان والرومان بشكل عام لنخلص من ذلك لدراسة أشهر المؤرخين في هاتين الفترتين باعتبارهم أقدم مؤرخين وصلتنا مؤلفاتهم مباشرة أو عن طريق من نقلوا عنها من المتأخرين .

كان الناثرون الايونيون الذين اعتبرناهم أقدم المؤرخين الذين جمعوا أقوالهم من أشخاص عاصروا الحوادث ، أو وعوا في ذاكرتهم الروايات الشفهية التي تناقلها الناس . وقد اهتموا بشكل خاص بتاريخ فارس وعلاقة هذه الامبراطورية مع المدن اليونانية . ويعتبر هؤلاء المؤرخون الاول الاجداد الذين انحدر من سلالتهم هيرودوت الملقب بأبي التاريخ وغيره من مؤرخي اليونان . وعلى الرغم من كل ما قد يوجهه الباحثون المحدثون من نقد لطريقة هيرودوت ومن تلوه ونوعية مادتهم فانه لا بد لنا من الاعتراف بأن مادتهم التاريخية كانت قريبة من الحقيقة وواسعة المدى وتشمل مواضيع مختلفة وبلدانا عديدة .

وكان أبرز ما يميز هيرودوت أنه كان يتمتع بروح علمية وحسٍ فني ساعده على عرض معلوماته بطريقة أدبية شيّقة . ولما جاء المؤرخ توسيديدس أصبحت الكتابة التاريخية أكثر دقة وأقرب الى الروح العلمية من أيام هيرودوت . لقد كان توسيديدس يحتقر القصّاصين « الذين يسعون لارضاء الاذن على حساب قول الحقيقة » . وذلك لان الذين سبقوه كان يمزجون التاريخ بالادب ويعرضون أحداثه بأسلوب أدبي قصصي يفقد الحقائق التاريخية روعتها وصدقها في بعض الاحيان . وليس يعني هذا ان توسيديدس كان ركيك الاسلوب ،

ولكنه كان في صوغه للحقائق التاريخية يحافظ على صحتها ولا يضحي بها من أجل جمال القافية أو انسجام الوزن • كانت العادة عند من سبقوه مثلا ان يعيدوا صياغة كلمات الوثائق والنصوص لتكون منسجمة مع لهجة القصة التاريخية التي يروون • اما هو فكان يحافظ بقدر الامكان على النصوص الاصلية كما وصلت اليه برغم ما قد يبدو من تنافر في أسلوبها مع بقية الاحداث التي يعرضها • وهكذا فقد كان أقرب من سابقيه الى الدقة العلمية التي هي صفة أساسية من صفات المؤرخ الحق • وكان لا يقبل الاخبار والروايات التي تصل اليه على علاتها • بل يخضعها لمقاييس النقد والموازنة ويستخلص منها ما يعتقد انه أقرب الى الصدق من غيره • وقد استعمل هذه الطريقة النقدية في جميع ما كتب فجاءت كتاباته ، ومنها بحثه عن حروب البيلوبونيز ، أقرب ما تكون الى الطريقة الحديثة في التأليف التاريخي بعكس اسلافه الذين كانوا أدباء أكثر منهم مؤرخين •

وقد سار كزينوفون على نهج توسيديدس من حيث الدقة في استقصاء الاخبار والامانة في نقل كلمات الوثائق والنصوص والخطب والرسائل التي يستعملها في كتاباته التاريخية ، ومن حيث نقد الاخبار وتمحيص الروايات المختلفة التي تروي الحادث الواحد وتفضيل مايعتقد انه أقرب الى الصدق من غيره • كما أنه لم يعتبر التاريخ جزءا من الادب يجوز أن يضحي بحقائقه في سبيل الاسلوب الجميل والوزن المتناسق • أما من أتوا بعد توسيديدس وكزينوفون ولا سيما ثيوبومبوس وايفوروس فقد عادوا ليضفوا على التاريخ صبغة أدبية حرمته الكثير من الميزات العلمية التي حصل عليها في العصر السابق ، ولكن هذه النكسة الادبية لم تطل اذ حاول تيميوس الصقلي في نهاية القرن الرابع الميلادي احياء الطريقة العلمية في تحري واستقصاء الحقائق• وكان تيميوس يهاجم أسلافه من المؤرخين وينعي عليهم جهلهم بأصول

الكتابة التاريخيــة ؛ ولكنــه لم يسلم هو نفسه مــن هجوم المؤرخ بوليبيوس الذي اعتبره فاقدا لروح النقد وغير منزّه عن الأهواء ٠ وقد أسهب المؤرخ بوليبيوس في نقده لتيميوس الصقلي حتى اعتبر نقده هذا بحثا أساسيا في أصول الكتابة التاريخية ٠ يقول بوليبيوس : « ان التاريخ يجب أن ينزّه عن الاغراض التي تشوه الحقائق ، واذا ما وقف الانسان موقف المؤرخ فعليه ان يتخلى رأسا عن جميع الاعتبارات كحب الانسان لصديقه وكرهه لعدوه ٠٠٠ وعليه في بعض الاحيــان ألا يتورع عن مدح أعدائه وذم أصدقائه ٠ وكما أن الانسان يفقــد كل قيمته فيما اذا انتزعت منه عيناه ، كذلك التاريخ يفقد كل أهميتــه اذا ما انتزعت منه الحقيقة ولا يبقى منه الا قصة لا قيمة لها » ٠ وطبيعي ان يكون اسلوب بوليبيوس أسلوبا علميا خاليا من الصناعة اللفظية ويميل لان يكون جافا ومعقدا وبعيدا كل البعد عن أسلوب جمــاعة البلاغة اللفظية من المؤرخين الادباء كايزوقراط مثلا ٠ وقــد بلغ مــن تعقيد أسلوبه واهتمامه بالدقة والامانة في نقل المعلومات أن المؤرخين المحدثين لم يفهموا بعض مــا ورد في تــاريخه الا بعد مقارنته ببعض النقوش الاصلية التي تبحث نفس الحوادث ٠

وقد انتقل الاسلوب الادبي في الكتابة التاريخية من اليونان الــى الرومان ، فكان المؤرخ ديونيزيوس يكتب بأسلوب ادبي ولكنه يولي المصادر التي يستقي منها معلوماته عناية خاصة ٠ اما شيشرون فبرغم اعترافه بأن أهم واجبات المؤرخ عدم اخفاء الحقائق وعدم كتابة أي شيء مزور فانه كان حين يكتب التاريخ لا يتورع عن تشويه الحقائق وتوجيهها وجهة توافق أهوائه وأغراضه ؛ فقد كان التاريخ بالنسبة اليه المعين الذي يستمد منه مادة خطبه وآرائه في التربية ولذلك كان يسمح لنفسه بأن يحرّف ما يروي ليوافق آراءه ونظرياته ٠ وقد استعمل المؤرخون الرومان ، ما عدا من كان منهم من أصل يوناني ويسكن روما ، فــي

كتاباتهم التاريخية اسلوب الحوليات • وقد ظلوا يستعملون هذا الاسلوب حتى النصف الاول من القرن الاول الميلادي ، اما بعد ذلك فقد ادخلت على الكتابة التاريخية الصناعة اللفظية واهتم كتاب التواريخ بتنميق جملهم وصياغة كلماتهم صياغة بديعية ولو أدى بهم ذلك الى تعديل النصوص الاصلية للوثائق أو الخطب أو الاخبار • وكان أول مؤرخ روماني يرتفع بالتأليف التاريخي الى مستوى الطريقة العلمية هو المؤرخ سالوست تلميذ المؤرخ اليوناني توسيديدس • وفي عصر اغسطس نبغ المؤرّخ المشهور ليفي الذي كان يتمتع بشعبية واسعة وتتسم تآليفه بالدقة العلمية كما تتسم بالبلاغة اللغوية • وقد مرت فترة من الركود في التأليف التاريخي في روما حتى ظهر المؤرخ تاسيتوس الذي كان من أبرز صفاته دراسة الرواة الذين ينقل عنهم دراسة نقدية للتحقق من صدقهم كما انه كان يولي الصفات الاخلاقية عناية فائقة • وقد اتهم برغم هذا بالتحيز وقيل ان أخلاقيته ما هي الا ستار يغلف به أهواءه وميوله • وقد تدهورت الكتابة التاريخية عند الرومان بعد تاسيتوس ، ويشبّه الباحثون الكتابات التاريخية التي ظهرت بعده وحتى زمن المؤرخ اميانوس مارسيلينوس بانها أقرب الى الكتابة الصحفية في أيامنا هذه • وبرغم هذا التدهور فقد ظلت طريقة المؤرخين الرومان في أواخر أيام الامبراطورية المثل الذي احتذاه المؤرخون البيزنطيون حتى بروكوبيوس في القرن السادس ، وهذا ما سنعرض له في حديثنا عن المؤرخين البيزنطيين في الفصل القادم •

المؤرخون اليونان

هيرودت (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق٠م) • ــ ولد هيرودوت الذي لقب باسم « أبي التاريخ » في هاليكارناسوس في آسيا الصغرى التي كانت تتبع آنذاك دولة فارس ، وذلك سنة ٤٨٤ ق٠م • وهكذا

فقد ولد هيرودوت فارسي الجنسية واستمر كذلك حتى بلغ الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره . وقد كانت هاليكارناسوس حين ولد هيرودوت تحت حكم الملكة ارتميزيا (أو أرتميس) حليفة خشايارشا الملك الفارسي ابن داريوس في معركة سلامين ضد اليونان . وعائلة هيرودوت عريقة في نسبها واسم ابيه ليكسس واسم أمه ريو اودريو . وقد كانت لاسرته شهرة في ميدان العمل السياسي ، وورث عنها هذا الميل وشاركها كرهها للحكم الفارسي لبلاده فنفي من هاليكارناسوس . وشغف هيرودوت بالدراسة والتعلّم منذ صغره فانكبّ على مطالعة ما وقعت عليه يداه وقرأ كثيرا حتى أصبح من أكثر أهل زمانه معرفة وسعة اطلاع . وكان أدب اليونان في هذه الفترة غنيا جدا بالشعر والنثر . وقد وعاه هيرودوت كله بما فيه الالياذة والاوديسة وغيرهما من مشهور الادب حتى زمانه ولا سيما شعر الملاحم وكتابات هزيود وأولين وموزيوس وسافو وصولون وغيرهم من الكتاب والشعراء . وكان في كتاباته ينقل عن هؤلاء الشعراء والكتاب وينقدهم ويشير الى مؤلفاتهم العديدة التي عرفها عن قرب . وقد قاده ولعه بالعلم الى الارتحال وزيارة البلدان المختلفة داخل اليونان وخارجها ، فزار مدن آسيا الصغرى وتجوّل في الجزء الاوروبي من اليونان أكثر من مرة ، كما زار جزر الارخبيل اليوناني كرودوس وقبرص وديلوس وباروس وتاسوس وكريت وساموس وغيرها . وقام برحلة طويلة ومضنية من سارديس الى سوزه عاصمة الفرس زار أثناءها بلاد بابل والشواطىء الغربية للبحر الاسود حتى الدنيبر وبلاد الشرق الاوسط القديمة كالشواطىء السورية ولا سيما صور والثغور الفلسطينية وغزة حتى وصل الى مصر حيث أقام لفترة طويلة . وحين كان يصل الى موقع له قيمة تاريخية أو أثرية كان يحط عصا الترحال ويقيم لفترة من الزمن يصرفها في التعرف عليه وعلى آثاره وأشهر معالمه ويأخذ أوصافها كما

يتصل بالسكان ويستوضح أخبارهم في القديم والحديث ويسجل كل ما يقع عليه من معلومات . ويبدو انه حين قام بهذه الرحلات كان قد حدد هدفه من ورائها وهو جمع المعلومات لكتابة تاريخه المشهور . لذلك كان يحاول استقصاء المعلومات ولا يهتم بالوقت أو الجهد أو المال الذي يكلفه حصوله عليها . كما كان يسعى جهده لان يتحقق من صدق ما يحصل عليه من معلومات . وقد قضى في هذه الرحلات ما يقارب السبعة عشر عاما اذ انه بدأها وهو في العشرين من عمره ولم ينته منها الا وهو في السابعة والثلاثين ، وكان ذلك بين سنتي ٤٦٤ — ٤٤٧ ق٠م .

عاد هيرودوت من رحلاته هذه ليستقر لمدة سبع أو ثماني سنين في جزيرة ساموس ، ولكن تطور الاحداث في مسقط رأسه هاليكارناسوس دعاه لان يغادر ساموس وأن يتوجه لها ليكارناسوس التي كان يحكمها ليغدامس حفيد الملكة ارتميزيا والذي كان مشهورا بطغيانه وظلمه . وكانت العلاقات بين أسرة هيرودوت وليغدامس علاقات سيئة اذ ان هذا الاخير كان قد أعدم ابن عم لهيرودوت حين شك باشتراكه في مؤامرة ضده . لهذا كله وحين زادت النقمة على ليغدامس ، عاد هيرودوت الى هاليكارناسوس واشترك في الثورة التي قامت ضده وقضت عليه ، وهكذا عادت هاليكارناسوس الى اليونان واصبحت من جديد عضوا في الاتحاد اليوناني .

وحين تحررت هاليكارناسوس من الحكم الفارسي اتخذها هيرودوت مقرا لسكناه من جديد وتمتع بلقب مواطن حر نظرا لجهوده في تحريرها . ولكنه ما لبث طويلا ان غادرها الى اثينا وذلك لاسباب سياسية على حد زعم بعض الروايات ، أو لضيق أفقها الادبي على حد قول روايات أخرى .

كانت هجرته الى اثينا في أواخر عام ٤٤٧ ق.م ، وفي عام ٤٤٥ ق.م قرر شعب أثينا منحه مبلغا كبيرا من المال كمكافأة له على أعماله وكتاباته التاريخية والادبية . ولكنه رغم ما منحته اثينا من تكريم مادي لم يستطع ان يحصل على لقب مواطن اثيني وذلك بسبب صعوبة الحصول على هذا اللقب بالنسبة لغير الاثينيين ، فأبحر في ربيع سنة ٤٤٥ ق.م مع فريق من المستعمرين خرجوا من أثينا وذهبوا لتأسيس مستعمرة توري ، وأصبح أحد مواطني هذه المستعمرة أو المدينة الجديدة .

وتنقطع عنا أخبار هيرودوت وتفاصيل حياته بعد بلوغه الاربعين من عمره . ويبدو انه قام في هذه الفترة ببعض الاسفار في العالم الهلليني وانه زار اثينا مرة ثانية حوالي سنة ٤٣٠ ق.م . وأغلب الظن انه صرف الجزء الاخير من حياته في توسيع كتابه في التاريخ العام كما يشهد بذلك المؤرخ بليني ، كما انه من الممكن انه انصرف في هذه الفترة الاخيرة من حياته لتأليف كتابه عن الآشوريين الذي يحدثنا عنه ارسطو طاليس . وتوفي حوالي سنة ٤٢٤ ق.م في مدينة توري ودفن هناك .

ان عظمة هيرودوت وشهرته بالنسبة الينا مبنية على كتابه في التاريخ الذي وضع له المتأخرون عدة عناوين كـ : « التاريخ العام » أو « تاريخ الحروب بين اليونان والفرس » ، أو « تاريخ الحروب بين اليونان والبرابرة » وغير ذلك . وهذه العناوين على ما يبدو ليست العنوان الاصلي للكتاب . فلا يمكننا مثلا ان نقبل تسميته « بالتاريخ العام » وقد أغفل بحث كل ما يتعلق بفينيقية وقرطاجة واتروريا وهي دول كبرى ثلاث كانت تعاصره . كما ان فكرة تأليف تواريخ عامة لم تكن معروفة زمن هيرودوت بل تعود للعصور التي تلته . كذلك تسميته بتاريخ الحروب بين اليونان والبرابرة فهي أيضا لا تنطبق على مادة الكتاب لانه رغم بحثه لبعض الحروب التي وقعت بين اليونان والبرابرة

فانه لا يستكمل هذه الحروب ويترك حروبا كثيرة يمكن وضعها تحت هذا العنوان دون ان يتطرق اليها بالرغم من أنه كان يعرفها مما يدل على انه لم يقصد ان يكون كتابه تاريخا لهذه الحروب بالمعنى الشامل للكلمة • وتصح هذه الملاحظة على تسمية الكتاب « بتاريخ الحروب بين اليونان وفارس » لانه لم يقصد ايضا ان يكون كتابه سجلا لهـذه الحروب بكاملها بل قصد ان يعرض فقط لناحية واحدة من هذه الحروب وهي مرحلة الغزو الفارسي لاراضي اليونان ، لذلك لا يصح لنـا ان نعتبره تاريخا كاملا لكل الحروب بين اليونان والفرس وبالتالي وضع عنوان كهذا العنوان له • ان ما قصده هيرودوت من كتابه معالجة ناحية واحدة من الموضوع وقد وفاها حقها وحشد لها كل مـا وقع تحت يده من معلومات حولها • ولما كان كل تاريخ يبحث موضوعـا جزئيا يحتاج الى مقدمة تشرح للقارىء بقية زوايا الموضوع وتهيؤه لفهم الحادث الاساسي الذي هو موضوع الكتاب فقد كتب هيرودوت مقدمة لكتابه شرح فيها للقارىء ماضي الامتين الفارسية واليونانية من جميـع النواحي وعلاقاتهما بغيرهما من الامم والشعوب ، كما شرح في هـذه المقدمة جغرافية البلدين وعادات اهلهما واخلاقهم وكل ما يتعلق بهم • فالموضوع الاساسي لكتاب هيرودوت اذن الغزو الفارسي لاراضـي اليونان • وفي سبيل ذلك قدم للموضوع بمقدمة شرح فيها قيـام فارس منذ ان كانت مملكة صغيرة حتى اصبحت امبراطورية كبيرة ، كما درس تاريخ وجغرافية ليديا وميديا وآشور وبابل ومصر وسكيثيا ، وما يسكن هذه البلاد من شعوب وما تنتجه من محصولات وما فيها من أوابد ومخلفات أثرية وغير ذلك مما يهم الدارس • ومن الناحية الاخرى فقد استعمل نفس الخطة بالنسبة لليونان فدرس تاريخ الشعب اليوناني وهجراته والمستعمرات التي أسسها وأعماله التجارية ومنجزاته فـي حقول الفن والدين والتشريع ، هذا فضلا عن الحروب التي خاضهـا

هذا الشعب والثورات التي قام بها وتاريخ كفاحه الداخلي وكل ما يتعلق به • وبعد أن انتهى من هذه المقدمة عالج موضوع بحثه ألا وهو الغزو الفارسي لبلا داليونان بدقة المؤلف الذي يستهين بكل جهد في سبيل الحقيقة • وقد وقف في بحثه عند موقعة ميكيل واحتلال سستوس سنة ٤٧٩ ق•م •

وكان هيرودوت رشيق الاسلوب في كل ما كتب يعرف كيف يعرض اخباره وحوادثه بترتيب ودقة دونما استطراد أو تداخل في المعلومات • وقد حازت كتاباته التاريخية اعجاب معاصريه ومن أتوا بعده من كبار رجال الفكر والادب • وقد كتب أحد معاصريه يقول : « آه لو تمكنت من مشابهة هيرودوت في بعض فضائله لا فيها كلها لان ذلك أمر غير ممكن ؛ كأن يكون لي جمال اسلوبه وتناسق الفاظه ، أو عمق تفكيره أو سعة اطلاعه ••• » • كما كان شيشرون يتحدث عنه باعجاب ويدعو أسلوبه بالاسلوب الرصين المصقول وقد اعتبره الكثيرون ، ومنهم ديونيزيوس ، أفضل من توسيديدس كمؤرخ ووصفوا أسلوبه في الكتابة التاريخية بالدقة والعلمية • وقد اهتم الناس منذ القديم بتاريخ هيرودوت وظهرت له طبعات كثيرة منذ سنة ١٤٥٠ م باللغة اليونانية واللغة اللاتينية • كما ظهرت له طبعات حديثة بعد ذلك بهاتين اللغتين وباللغات الاخرى التي ترجم اليها • وكان كتابه موضوع دراسة الباحثين الجدية منذ مطلع القرن التاسع عشر فصدر الكثير من الدراسات حوله وحول الموضوعات التي يتناولها بالبحث ، وما تزال هذه الدراسات مستمرة حتى يومنا هذا لانه معين من المعرفة لا ينضب ولا سيما في دراسة تاريخ الفرس والجزء المتأخر من التاريخ المصري القديم •

٢ ـ **توسيديدس** • ـ من اشهر المؤرخين اليونان ، وتقوم شهرته على كتابه « تاريخ الحروب البلوبونيزية » • وهناك رأيان حول الموعد

الذي ولد فيه : رأي قديم يقول انه ولد حوالي سنة ٤٧١ ق٠م ، ورأي حديث وهو الاصح ويقول انه ولد سنة ٤٦٠ ق٠م تقريبا ٠ وكان ابوه اورلوس مواطنا اثينيا من اسرة غنية تدين بثروتها الى ما كانت تملكه من مناجم الذهب في شواطيء تراقية مقابـل تاسوس ٠ ولسنا نملك معلومات نهائية واكيدة حول مكان وتاريخ وفاته واغلب الظن أنه توفي سنة ٣٩٩ ق٠م في مدينة أثينا ٠

ولسنا نملك معلومات واضحة ومحدودة عن دراسته وثقافته ، وكل ما نعرفه بشكل أكيد أنه عاش طفولته في أثينا التي كانت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تعيش فترة ذهبية من تاريخها ٠ ففي هذه الفترة تم توسع أثينا وتكاملت قوتها ، واستخدمت مـواردها لاغناء الحياة فيها واضفاء البهاء عليها ٠ ونحـن وان كنا لا نستطيع تحديد الاجـواء الادبية والفنية والاجتماعية التي خلقت شخصية توسيديدس المفكر والمؤرخ فانا نستطيع القول بأن ثراء مدينته أثينا الفني والفكري وغناها بكل المعطيات الحضارية خلقا منه انسانا واسع الثقافة عميق الاطلاع اذا ما قيس بمقاييس عصره ٠ ورغم ان توسيديدس عاش في عصر غني بالمنجزات الفنية والفكرية فهو لا يشـ في كتاباته الى هذه المنجزات الا بقدر ما لها من صلات مع موضوع بحثه ٠ فهو مثلا يتحدث عن البارتينون ليقول انه كان مقر خزانة الدولة ، ويتحدث عن تمثال أثينا بارتينوس الذي كان موجوداً في البارتينون ليقول ان الذهب الموجود في هذا التمثال يمكن أن يستعمل عند الحاجة لسد نفقات الدولة اذا ماوقعت في عجز ؛ وكذلك حديثه عن بقية المنجزات العمرانية التي تمت زمن بريكلس فان المقصود منه وليس وصف هذه الآثـار الخالدة بل انتقاد الدولة لأنها صرفت رصيدها على اقامة هذه الابنية وتركت خزانتها فارغة ليس فيها ما يكفي لنفقات العمليات الحربية ٠ وهو لا يشير في كتـاباته اطلاقا الى عظماء أثينا في عصره أو فيمـا

سلف من عصور كأخيلوس وسوفوكلس وأريستوفانس وفيدياس وأبقراط وسقراط وغيرهم . ويعلق الباحثون المحدثون على اغفال توسيديدس لهذه النواحي بقولهم انه لو كان هيرودوت هو الذي يعالج هذه الفترة من تاريخ اليونان لما أهمل هذه المواضيع والأسماء بل لأولاها عناية شديدة واغتنم كل الفرص للحديث عن كل ما يتعلق بالفنون والآداب . والجواب على هذا هو أن توسيديدس كان يكتب عن حوادث وأشياء وقعت في عصره ويعرفها الناس الذين يعيشون من حوله فلم يجد مبرراً لشرح أشياء يعرفها الناس في حين أن هيرودوت يكتب عن حرب وقعت قبل زمانه بثلاثين عاما ويقدم لها بمقدمة تسبق زمنه وزمن الناس الذين عاصروه بأمد طويل لذلك لم يجد حرجاً في التعرض لجميع النواحي الحضارية والثقافية والفكرية المتعلقة بتلك العصور ، ومن هنا جاء الفرق بين اسلوبه واسلوب توسيديدس في التدوين التاريخي . وليس هذا هو الفارق الوحيد فقد كان توسيديدس جزل الاسلوب يميل لاستعمال الالفاظ الشعرية في كتاباته . وكان اسلوبه معقدا في بعض الاحيان ويصفه البعض بالغموض ، ولكن هذا الغموض ناتج عن صعوبة الافكار التي كان يعرضها بالنسبة لعصره ومحاولته شرحها بأسلوب زادها صعوبة . وكأنه كان يعيش فيما يكتب صراعا بين الافكار واللغة ، فهو لا يضحي بالافكار في سبيل اللغة . بل كان يضحي باللغة في سبيل أفكاره . ولعل هذا الصراع كان نتيجة للجانب الفلسفي في فكر توسيديدس الذي لم يكن مؤرخا فحسب بل فيلسوفا له نظراته الثاقبة . وقد اعتبره بعض المؤلفين القدماء تلميذاً للفيلسوف أناكسا غوراس واماما من أئمة الفلسفة اليونانية .

ولما كان تاريخ ولادته غير متفق عليه بين الذين أرخوا حياته فقد غدا من العسير علينا ان نرسم صورة واضحة للفترة الاولى من حياته . ولسنا نعرف كيف امضى طفولته وشبابه ، ولعله عاش اول الامر في

تراقية حيث كانت اسرته تملك مناجم ذهب كما ذكرنا آنفا . وفي ربيع سنة ٤٣٠ ق.م قدم توسيديدس الى اثينا وصادف قدومه اليها انتشار موجة من الطاعون فيها ، وقد تعرض هو بنتيجة هذه الموجة للاصابة بهذا المرض الخطير وقارب الهلاك ولكن الله نجاه . وفي سنة ٤٢٤ ق.م حدث تحول هام في حياته اذ انه عين احد قائدين عهد اليهما بقيادة منطقة تراقية والشواطىء الممتدة من مكدونية باتجاه الشرق . وكان زميله في القيادة اوكلس الذي توجه الى أمفيبوليس التي كانت تعتبر معقل قوة أثينا في الشمال الغربي . كانت الاخطار تهدد أمفيبولس لذلك توجه أوكلس للدفاع عنها ضد براسيداس أمهر قواد اسبارطة الذي كان قد احتل شبه جزيرة كالسيديك وبدأ سيره باتجاه أمفيبوليس. كان توسيديدس أثناء ذلك في جزيرة تاسوس وتحت امرته سبع سفن حربية ، فوصلته أخبار ظهور براسيداس وجيشه أمام أمفيبوليس فسار مسرعاً بسفنه لنجدة زميله أوكلس . ولكن تشاء الظروف أن يتأخر عن اللحاق بزميله مما أدى الى سقوط أمفيبوليس بيد الاسبارطيين . وقد أدى هذا الى نقمة الاثينين على توسيديدس فقرروا معاقبته بطرده من وظيفته ونفيه من اثينا بعد خدمته القصيرة في جيشها .

وقد عاش توسيديدس الفترة بين سنتي ٤٢٣ — ٤٠٤ ق.م في تراقية وصرف جزءاً كبيراً من وقته في التنقل والسفر . وقد أتاح له نفيه الابتعاد عن أجواء أثينا السياسية وبالتالي هيأ له فرصة أفضل للتفرغ لدراسة الاحداث التاريخية التي كانت تجري في عصره والتي دونها لنا فيما بعد . كما أتاح له الفرصة لزيارة الاماكن التي كانت تجري فيها الحروب والاحداث التي يدونها والتعرف على جغرافيتها . فقد زار سيراكوزه بعد أن رفع الحصار ، ويدلنا على قيامه بهذه الزيارة دقة معلوماته الطوبوغرافية واستقاؤه معلومات عن اثينا من السجناء الأثينيين الذين وقعوا بيد أهالي سيراكوزا أثناء الحصار . وقد كان توسيديدس

حياديا ونزيها الى أبعد حدود الحياد والنزاهة في نقل المعلومات عن الحوادث التي عاصرها وكتب عنها ، وساعده على تحقيق ذلك هـذه الرحلات الاستطلاعية التي قام بها أثناء فترة نفيه من أثينا .

ويؤخذ مما كتبه توسيديدس نفسه أنه عاد الى أثينا سنة ٤٠٤ ق.م وبقي فيها فترة من الزمن لا نعلم كم طالت . وعلى أي حال ورغم عدم وجود تاريخ أكيد لوفاته فان أغلب الآراء الحديثة تتجه الى الاعتقاد بأنه توفي في تراقية حوالي سنة ٣٩٩ ق.م. وكان موته فجائيا بدليل أنه مات ولم يكمل كتابة مؤلفه ، وقـد تولت ذلك ابنته من بعده بمساعدة المؤرخ كزينوفون على حد زعم بعض الروايات الضعيفة .

بعد هذه اللمحة المقتضية عن حياة هذا المؤرخ لا بد لنا من أن نقف لاستعراض كتابه التاريخي المشهور « تاريخ الحروب البلوبونيزية » . يحدد توسيديدس في مقدمة كتابه غرضه من تأليف هـذا الكتاب والمبادىء التي اتبعها في تأليفه . لقد كان غرضه تدوين حادث اعتبره أهم حادث مر في تاريخ الشعب اليوناني حتى عصره . فقد كان الطرفان المتنازعان، أثينا واسبارطة ، علىدرجة عاليةمنالقوةوالاستعداد الحربي. وكانالعالم اليونانيبكامله بما فيذلك المستعمراتاليونانية خارج حدود الوطن الام منقسما الى قسمين : قسم مع اسبارطة ضد أثينا ، وقسم مع أثينا ضد اسبارطة . ولم يقتصر أثر هذه الحروب على العالم اليوناني وحده بل تعداه ليشمل عـالم « البرابرة » ايضا كتراقية ومكدونيـة وابيروس وصقلية وحتى مملـكة فارس نفسها . وكان توسيديدس لا يهدف الى تسجيل حوادث هذه الحروب فحسب بل يبغي أن يكون كتابه مصدرا أساسيا لكل من يعمل في السياسة في المستقبل . وكان يأمل كما يقول ، ان يكون تاريخه مفيـدا « لأولئك الذين يريدون معلومات دقيقة عن الماضي لتكون دليـلا لهم بالنسبة للمستقبل لأن المستقبل يعيد الماضي أو يشابهه . ان قصدي من تأليف هذا الكتاب ان

يكون ذخرا نافعا في كل العصور • لا فوزاً أحققه اليوم او في هـذه الساعة فقط • » فهو بهذا يريد ان يكون لكتابه قيمة دائمة لا أهمية عابرة تنسى مع مرور الأيام •

ولما كانت هذه هي الروح التي املت عليه طريقته في تأليف تاريخه فانه من المفيد أن نتعرف على الأسلوب الذي اتبعه في هذا المجال • كان توسيديدس يعتقد انه يمكن تقسيم المؤرخين الاغريق الذين سبقوه الى طبقتين متمايزتين في طريقتهم في تدوين الاحداث : الطبقة الاولى كانت طبقة شعراء الملاحم وعلى رأسهم هوميروس ، وكانت طريقـة هؤلاء تعتمد على تضخيم الحادث والمبالغة فيه حتى يضفوا البهـاء والعظمة على أحداث الماضي • والطبقة الثانية في نظر توسيديدس هي طبقة الناثرين الايونيين ، أو الحوليين كما يسميهم هـو ، الذين كان هدفهم نشر المعلومات الخرافية المحفوظة عن طريق التواتر الشفهي أو الوثائق المكتوبة (كانت اغلب هذه الوثائق قوائم بأسماء بعض الحكام أو الرجالات الرسميين) وتدوينها كما هي دونما نقد أو تمحيص • ويدعو توسيديدس عمل هؤلاء بأنه تجميع آلي للمعلومات لا أثر للنقد فيه ، في حين يسمى عمله تأليفاً تاريخياً بالمعنى الرفيع للكلمة • ان آفـة الحوليين في نظره هي اهتمامهم بما يرضي الشعب واهمالهم للحقيقة التاريخية ؛ ونقده لجماعة الناثرين الايونيين يشمل هيرودوت وطريقتـه كما يشمل الاخرين • وحتى لا يأتي عمله كأعمال اسلافه فقد أخضع مادة كتابه لأشد أنواع النقد والتمحيص ، فهو يقول في ذلـك : « ••• أما بالنسبة للوقائع والأحداث التي جرت أثناء الحروب ، فاني لم آخذ لنفسي حرية تدوينها كما سمعتها من الذين حدثوني بها ، بل دونت ماكنت اعرفه معرفة شخصية أو ما تحققت منـه وتأكدت من صحته بعد فحص دقيق • لقد كان البحث عن الحقيقة في هذه الحروب شاقا لأن الذين شاهدوها أعطوني أخبـارا متناقضة بسبب أغراضهم

الشخصية أو بسبب ضعف ذاكرتهم » .

وفي تاريخ توسيديدس عدد كبير من الخطب التي قيلت بمناسبة الحروب البيلوبونيزية أو أثنائها . وتشكل هذه الخطب ربع مادة الكتاب تقريبا . وكانت عادة هيرودوت أن يدون الخطب باللهجة العامية الدارجة التي كان يتحدث بها الناس ، أما توسيديدس فانه يقول : « أما فيما يتعلق بالخطب التي ألقيت قبيل قيام الحرب او أثنائها ، فقد وجدت من العسير على تذكر نصوص كلماتها كما سمعتها حين القيت او كما نقلها الى الذين سمعوها . لذلك دونت نصوص هذه الخطب بروحها لا بكلماتها وبما يناسب المقام الذي قيلت فيه . وقد حافظت بقدر الامكان على الافكار الرئيسية التي وردت في هذه الخطب وان كنت قد بدلت بعض كلماتها[1] » . ويعترف توسيديدس ان لغة هذه الخطب هي من صوغه وليست من صوغ الذين قالوها . وتجدر الملاحظة هنا ان عادة تضمين كتب التاريخ الخطب والمناقشات التي كانت تجري بمناسبة الاحداث السياسية في بلاد اليونان لم تكن من اختراع توسيديدس بل كانت عادة من سبقه من المؤرخين أيضا وستستمر عند الذين تلوه لأنها كانت تروي ظمأ القاريء اليوناني لمعرفة كل الظروف التي احاطت بالحادث وتطلعه على رأي الناس المعاصرين فيما كان يجري في بلادهم من أحداث .

وتاريخ توسيديدس كما وصلنا مقسم الى ثمانية كتب يبحث كل منها في مرحلة من مراحل الحروب البيلوبونيزية التي هي موضوع الكتاب . فالكتاب الاول يبدأ بمقدمة عامة ، وينتهي منها لبحث اسباب الحروب البيلوبونيزية . واما الكتاب الثاني والثالث والرابع فتبحث في أحداث ثلاث سنوات . ويأتي بعد ذلك الكتاب الخامس ليبحث أحداث السنة العاشرة وفترة السلم المؤقت التي أعقبت هذه السنة . اما الكتابان السادس والسابع فقد خصصهما المؤلف لأخبار الحملة الصقلية ،

وينتهي تاريخ توسيديدس بالكتاب الثامن الـذي يبحث في الصفحات الاخيرة من الحروب البيلوبونيزية التي تعرف باسم الحـرب الايونية التي تنتهي سنة ٤١١ ق٠م٠ ولسنا نعلم ما اذا كان هذا التقسيم الى ثمانية كتب من صنع توسيديدس نفسه أم من صنع المتـأخرين الذين أعادوا تبويب هذا التاريخ • ويميل الكثيرون اليوم الى هذا الرأي الاخير لاسباب عدة اهمها انه توجد مخطوطات قديمة من هذا الكتاب تقسمه الى ثلاثة عشر كتابا عوضا عن ثمانية كتب • ويتجه الرأي الى أن تقسيم الكتاب الى ثمانية أجزاء أو كتب قد جرى في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد في الاسكندرية من قبل بعض الذين وقع في يدهم المخطوط الاصلي واضطروا تسهيلا لاستعماله لتقسيمه الى كتب أو أجـزاء حسب الموضوعات • ويبدو أن النسخة الاصلية التي كتبهـا توسيديدس كانت كلا أو وحدة لا تقسيم فيها سوى تقسيم الحروب الى فترات صيف وشتاء ، باعتبار ان العمليات الحربية كانت تتوقف في الشتاء توقفا تاما وتعود من جديد في الصيف • وكان الصيف أو فصل الحروب يبدأ بشهر نيسان وينتهي بنهاية شهر تشرين الاول حين تتوقف الحروب حتى غاية آذار لتبدأ من جديد في مطلع شهر نيسان وهكذا •

وقد بلغ من شهرة تاريخ توسيديدس في القديم أن الخطيب اليوناني المشهور ديموستين نسخه ثماني مرات وحفظه عن ظهر قلب • وقد انتقلت شهرته الى الاسكندرية حيث أحله النقاد والعلماء الاسكندريون أرفع المنـازل • وفي العصر الروماني أطنب الكثير من الادباء والمفـكرين والفلاسفة والمؤرخين بكتاب توسيديدس وامتدحوا أسلوبه وطريقته وصـدق معلوماته • ومن بين هؤلاء المؤرخ سـالوست وشيشرون وكوينتليان وغيرهم ، كما الف المؤرخ ديونيزيوس ثلاثة كتب لدراسة تاريخ توسيديدس واظهار طريقته وأهمية الابحاث التي عالجها • وبين

يدينـــا اليوم عدة مخطوطات لهذا المؤلف الضخم موزعة في مختلف المكاتب الكبرى في العالم ، كما أن الكتاب بكامله مطبوع عدة طبعات وهناك طبعات لأجزاء منه فقط • وقد جرت دراسات كثيرة حديثة حول الكتاب ومؤلفه •

٣ ــ **كزينوفون** • ــ مؤرخ وفليسوف يوناني ولـــد حوالي عام ٤٣٠ ق•م في أثينا • واسرته كانت تعيش في اركيـــا وكانت مشهورة بالفروسية • وقد اشترك في عدة حروب في شبابه وخاض عدة معارك ، وتأثر بسقراط وتتلمذ عليه • وفي سنة ٤٠١ ق•م دعي للاشتراك في حملة قادها سيروس ضد اخيه ارتاكسركس الثاني ملك فارس (بين سنتي ٤٠٥ ــ ٣٥٩ ق•م) فقبــل طمعاً فيما قد يحققه له اشتراكه من ثروة وشرف لن يحصل على مثلهما في اثينا الديمقراطية التي ما كانت لتأبه كثيراً بأمثاله من الفرسان • وقد نصحه سقراط أن يتوجه قبل سفره لمعبد دلفي ليستشير الآلهة بهذا العمل ، ولكنه لم يستمع لنصيحة معلمه وسار الى ساردیس حيث كان مقرراً أن يلتقي ببقية زملائه الذين يودون الاشتراك في الحملة • وقد حدثنا كزينوفون عن أخبار هذه الحملة في كتابه التاريخي « اناباسيس » أو « حملة الى الداخل » •

كانت أشهر معارك هـــذه الحملة معركة كوناكسا التي جرت سنة ٤٠١ ق•م وقتل فيها سيروس والقواد اليونان الذين كانوا يحاربون في صفه ضد أخيه وجيشه الفارسي • وقد أصبح جيش سيروس بعد مقتل قواده وحيداً في أرض عدوة مجهولة تبعد عن بلاده ما يزيد على الف ميل•وقد اتفق الجنود على السير شمالا عبر وادي دجلة باتجاه شواطىء المستعمرات اليونانية ، كما اتفقوا على تولية كزينوفون قائداً عليهم في تراجعهم نحو بلادهم • وقد قطعوا قفار كردستان حيث هاجمتهم بعض القبائل الجبلية المتوحشة ، ومن ثم اجتازوا مقاطعة ارمينيا وجورجيا •

وبعد مسير خمسة أشهر وصلوا في شباط سنة ٤٠٠ ق٠م الى طرابزون ومنها توجهوا الى كريزوبوليس على البوسفور مقابل المستعمرة اليونانية بيزانتيوم حيث بقوا لفترة قصيرة ، ومن ثم توجهوا مع جيش يوناني آخر الى آسيا الصغرى للاشتراك في المعارك التي قد تقوم هناك ضد الفرس ٠ وقد اشترك كزينوفون في معارك آسيا الصغرى هذه وتمكن من أسر أحد النبلاء الفرس الاغنياء مع عائلته قرب برغاموم ٠ وقد دفع هذا النبيل الفارسي فدية كبيرة لكزينوفون جعلته غنياً وضمنت له الرفاه المادي ما تبقى من حياته ٠

وقد عاد كزينوفون بعد هذه المعارك الى اليونان ودخل في خدمة ملك اسبارطة التي كانت أكبر قوة في العالم اليوناني آنذاك ٠ ولم تكن علاقات كزينوفون بأثينا مسقط رأسه علاقات طيبة لذلك خاض في سنة ٣٩٤ ق٠م معركة كورونيا الى جانب الاسبارطيين ضد الاثينيين ، فغضبت عليه اثينا وأسقطت عنه صفة المواطنة فما كان من اسبارطة الا أن كرمته ومنحته بيتاً في ايليس على بعد ميلين من اوليميا ٠ وقد أقام كزينوفون في بيته الجديد وانصرف الى اشباع هواياته الرياضية ودراساته الأدبية ، وقد حدث أن كسرت اسبارطة عام ٣٧١ ق٠م أمام أثينا فما كان من سكان ايليس الا أن طردوه من منزله ٠ وقد عقدت اسبارطة وأثينا بعد ذلك صلحاً وتحالفتا فأصدرت أثينا قرارا بالعفو عن كزينوفون وسمحت له بالعودة اليها اذا اراد ٠ ولكن كزينوفون لم يعد لسكن أثينا رغم صدور العفو عنه واتخذ من مدينة كورينثيا مقرا له ولسنا نعرف تاريخ وفاته بالضبط ويبدو أنه توفي بعيد سنة ٣٥٥ ق٠م وهي السنة التي انهى كتابة مؤلفه حول « موارد اثينا » ٠

وقد ألف كزينوفون العديد من المؤلفات التي تناولت مواضيع التاريخ والفلسفة والادب وغير ذلك٠ومن أشهر مؤلفاته كتابه التاريخي المعروف باسم « انا باسيس » أو « حملة الى الداخل » ٠ وقد ألف هذا

الكتاب في الفترة بين سنتي ٣٧٩ — ٣٧١ ق٠م وضمنه أخبار حملة سيروس ضد أخيه أرتاكسركس الثاني ، وهي الحملة التي اشترك فيها كزينوفون كجندي مرتزق ولاقى أثناءها من الاهوال ما اشرنا اليه أثناء حديثنا عن حياته • ووصف كزينوفون لأخبار الحملة والاماكن التي مرت بها وصف دقيق فيه الكثير من للصحة التي أثبتتها تحريات المؤرخين المحدثين ، وقد وضع كزينوفون اسماً مستعاراً عوضاً عن اسمه كمؤلف للكتاب ولكن بلوتارك وديوجينيس يؤكدان بما يقطع الشك ان هذا الكتاب من تأليف كزينوفون •

ولكزينوفون كتاب آخر اسمه كيروبيديا ، وهو كتاب تاريخي فلسفي يصف فيه المؤلف طفولة كورش مؤسس الامبراطورية الفارسية ووالد الملك الفارسي الشهير قمبيز • وينتقل بعد ذلك للحديث عن نشأة الامبراطورية الفارسية وفترة حكم كورش بكاملها • ويضمن كزينوفون حديثه عن طفولة كورش آرائه في التربية والتعليم المستمدة من آراء استاذه سقراط ومن تأثره بالتربية الاسبارطية • ويقال ان كزينوفون كتب الـ « كيروبيديا » ليعارض فيها ما ورد من آراء في « جمهورية أفلاطون » •وقد أراد كزينوفون من وراء كتابة هذا الكتاب أن يستعمل الحقائق التاريخية لاظهار بعض النواحي الاخلاقية التي تهمه ، فضحى بصدق الوقائع ليخدم اغراضه الاخلاقية فأتت بعض اخباره غير صحيحة ومتناقضة مع ما هو معروف • وكمثال على هذا يمكننا أن نذكر ان ما يرويه عن موت كورش متناقض مع الحقيقة التي يذكرها هيرودوت • فكورش لم يمت على فراشه كما زعم كزينوفون ولكن في احدى المعارك الحربية كما يذكر هيرودوت وغيره من المؤلفين• ومن كتب كزينوفون كتاب اسمه « هيللينيكا » وقد كتبه بعد سنة ٣٦٢ ق٠م وهو عبارة عن مؤلف في قسمين : قسم اول يحتوي على الجزأين الاول والثاني من الكتاب وهو عبارة عن تكملة لتاريخ

توسيديدس حتى سقوط الثلاثين ، وقسم ثاني يتألف من الاجزاء ٣ ــ ٧ وهو عبارة عن تاريخ للفترة الواقعة بين سنتي ٤٠١ ــ ٤٦٢ ق٠م٠ ولم يكن القسمان منفصلين عن بعضهما بل كانا يشكلان كلا متماسكا ٠ وكزينوفون في مؤلفه هــذا لا يظهر بمظهر المؤرخ المحايد بل يشوب كتابته الكثير من التحيز وعدم الحياد بسبب ميوله السياسية وعواطف المحبة والاعجاب التي كان يكنها لأسبارطة وملكها ٠ ورغم هذا فان الـ « هيللينيكا » مؤلف مهم بالنسبة لتاريخ هذه الفترة لأن كزينوفون كان الشاهد الوحيد الذي أرخ أحداثها ٠

وكتابه « خواطر عن سقراط » أو « ميمورابيليا » هو عبارة عن مؤلف في أربعة أجزاء كتبه كزينوفون ليدافع عن سقراط وما اتهم به من الحاد وافساد لأفكار الشبيبة ٠ ولم يكن كزينوفون موفقاً في كتابه هذا ، فدفاعه عن سقراط دفاع ضعيف والصورة التي يرسمها له صورة مشوهة ينقصها الوضوح ووحدة الموضوع ٠ والكتاب على كل حــال يصف حيــاة سقراط ويعرض جانبا من آرائه وأفكاره ٠ وقد اهتــم كزينوفون بوصف الجانب الاخلاقي والعملي من فلسفة سقراط وتعاليمه وأهمل الجانب الميتافيزيائي الذي كان بعيداً عن ذوقه واهتمامه ٠ وقد يكون التشويه الذي نجده في كتاب كزينوفون هذا نتيجة لكونه مختصرا للكتاب الاصلي الذي لم يصلنا ٠

ولكزينوفون أبحاث وكتب أخرى حول الحياة العائلية عند اليونان وعلاقات الزوج بزوجته وواجبات كل منهما تجاه الآخر ٠ كما أن له أبحاثاً تتعلق بالصيد والفروسية التي كان يعشقها ويعتبر احد أبطالها ٠ وفي ابحاثه عن الفروسية يتحدث عن واجبات الضابط الخيال وصفاته الاخلاقية وطريقة تدريبه واعداده الديني والعسكري معاً بشكل عام وهناك ابحاث اخرى كتبها وتناول فيها مواضيع متفرقة كمسألة الدستور السياسي لاسبارطة ونظام حكمها وأخبار بعض رؤسائها ، كما بحث في

موارد أثينا وأنواعها والطرق التي تصرف بها ونفقات المعابد وغير ذلك من الامور ٠

وأغلب آثار كزينوفون مطبوعة منذ امد بعيد ولها الآن عدة طبعات ولا سيما كتابه « أناباسيس » ٠ وقد اعتمد المتأخرون كثيراً على كتابات كزينوفون واستقوا منها الكثير من اخبارهم عن اليونان وفارس ٠

٤ ــ **بوليبيوس** ٠ ــ مؤرخ يوناني ولد حوالي سنة ٢٠١ ق٠م في ميغالوبوليس من اعمال أركاديا٠وكان ابوه ليكورتاس صديق فيلوبومين زعيم العصبة الآخية (العصبة الآخية والعصبة الايتولية عصبتان تشكلتا من بعض المدن اليونانية للوقوف في وجه خطر مكدونيا ولم تشترك في هاتين العصبتين لا أثينا ولا اسبارطة ، ولم يتجاوز نفوذهما شبه جزيرة اليونان نفسها وما لبثتا فيما بعد ان وقعتا تحت نفوذ روما) وخليفته في رئاستها ٠ وليس هناك تواريخ أكيدة لولادته ووفاته ، وقد امكن تحديد هذه التواريخ بشكل تقريبي بالاعتماد على بعض الاشارات التي يوردها هو أو من كتبوا عنه ٠ من هذه الاشارات مثلا قوله هو انه عين سنة ١٨١ ق٠م عضوا في سفارة لبلاده الى مصر وكان حينذاك دون السن الشرعي الذي هو سن الثلاثين بالنسبة للعرف اليوناني ؛ وهذا يجعلنا نعتبر سنة ٢٠١ ق٠م تقريبا كسنة لمولده ٠ اما بالنسبة لوفاته فيقول أحد الذين كتبوا عنه انه توفي بسبب سقوطه من على ظهر جواده وكان له من العمر آنذاك اثنان وثمانون عاما ، وهذا بالاضافة الى اشارات اخرى يجعلنا نحدد وفاته بسنة ١٢٠ ق٠م تقريبا ٠

وبما انه كان ابن ليكورتاس فقد كان من الطبيعي أن يكون على صلات طيبة مع رؤساء العصبة الآخية وان يكون صديقا أيضا لفيلوبومين زعيم هذه العصبة ٠ ولما توفي فيلوبومين سنة ١٨٤ ق٠م في ميسينيا وحرقت جثته ، عهد الى بوليبيوس بشرف حمل القارورة التي تحوي

رماد جثة فيلوبومين الى مدينته الأم . وفي سنة ١٨١ ق.م ، ورغم حداثة سنه كما ذكرنا آنفا ، عين عضواً في السفارة التي كان مقرراً أن تزور ملك مصر بطليموس ابيفانس للتفاوض معه.ولكن موت بطليموس المفاجيء عرقل المهمة قبل انجازها . ويظهر بوليبيوس على مسرح الحوادث من جديد سنة ١٦٩ ق.م بعد انقطاع دام مدة اثني عشر عاما. ففي هذه السنة برز اسمه كزعيم من زعماء العصبة الآخية وسيد من ساداتها وذلك حين وقعت في أزمة تحتاج الى حل وانقسم زعماء العصبة في الرأي حول طريقة الحل . ففي سنة ١٧١ ق.م قامت الحرب بين روما والملك المكدوني برسوس ، فانقسم زعماء العصبة الآخية (المعادية لمكدونيا كما اشرنا سابقا) الى قسمين : فريق يرى الوقوف على الحياد من هذا النزاع رغم العداء مع مكدونيا ، وفريق يرى مساعدة روما ضد مكدونيا . وتزعم بوليبيوس الفريق القائل بالوقوف في صف روما ، وكتب لرأيه ان يفوز وهكذا قررت العصبة ان ترسل قوة آخية لمساعدة مارسيوس القنصل الروماني وان يكون بوليبيوس على رأس فرقة المشاة في هذه القوة . وأرسل بوليبيوس مع عدد من المفاوضين الآخيين ليتشاوروا مع القنصل الروماني من أجل المساعدة المقترحة ، وتعثرت المفاوضات بين الجانبين وتمكن في هذه الفترة الرومان من الانتصار على برسوس ملك مكدونيا وذلك في موقعة بيندا سنة ١٦٨ ق.م وهكذا ألقى الرومان القبض على بوليبيوس مع ألف آخرين من الزعماء الآخيين وحملوا جميعا الى روما بتهمة التباطؤ في مساعدة روما ضد المكدونيين.

وقد فرضت الاقامة الاجبارية على الزعماء الآخيين الالف في مختلف المدن الايطالية ، اما بوليبيوس فقد تمكن بواسطة صداقته لفابيوس وسيبيون من أن يبقى في روما . وقد تمتنت صداقته مع سيبيون أثناء اقامته في روما وبفضل هذه الصداقة تمكن من أن يستصدر في سنة ١٥١ ق.م عفواً عن الرهائن الآخيين وان تسمح السلطات الرومانية لهم

نقرأ التاريخ ، وانما يخدم هذا الهدف الحقائق البسيطة التي لا يشوهها تزويق أو بهرجة أو تحوير • ان ما يهمه هو الحقائق المجردة التي يقبلها عقل الانسان السوي ويفيد منها • ولما كان التاريخ « ذريعة » للوصول الى هدف هو « العبرة » ، فان هذه « الذريعة » يجب أن تكون سليمة من كل غش حتى يكون الوصول الى الهدف مأموناً سليم النتائج •

وهذه « الذرائعية » هي الصفة التي تطبع تاريخه وتوحي اليه بالطريقة العلمية الدقيقة في تحري الحوادث وصدقها ، لذلك نراه حين ينقد فيلاركوس وطريقته في تدوين التاريخ يقول : « لما كان هدف فيلاركوس استثارة القارىء وايقاظ عواطف الشفقة فيه فانه يحشو أخباره بالصور التي تستثير الشفقة والرحمة ، فيصور له بؤس الرجال وهم يودعون زوجاتهم ودموع الزوجات ونحيبهن وصراخ الاطفال وتأوه الرجال المسنين وتفجع الآباء والامهات • هذه هي طريقته في كل كتاباته التاريخية التي يشحنها بصور مبالغ بها للبؤس والشقاء • ان هذه الطريقة خاطئة وعلينا ان نسعى في كتابتنا التاريخية وراء ما هو مفيد • ان واجب المؤرخ ليس اثارة دهشة القارىء بما يقدمه من مبالغات وأساطير ، فهذا من اختصاص كتاب المأساة (التراجيديا) ، ان المؤرخ الحق هو الذي يقدم الحقائق الخالصة مهما كان نوعها أو مضمونها كما حدثت تماما دونما تحريف أو تزوير أو مبالغة لأن هدف التاريخ مختلف تماماً عن هدف التراجيديا ومعاكس له • فالتراجيديا تهدف الى استثارة الجمهور استثارة مؤقتة في حين ان التاريخ يهدف الى ابراز الحقائق والاحداث الصحيحة ليتعلم الانسان ويكتسب المعرفة على مر العصور • ان كاتب التراجيديا يرضيه ان يصفق له جمهوره ، ولو كان هذا التصفيق كذباً وزوراً ، في حين أن المؤرخ لا تقنعه الا الحقائق لأنه يروم نشر الفائدة بين تلاميذه » •

ويتضح مفهوم بوليبيوس من كلمة « التاريخ الذرائعي » من

تعليقاته على الذين كتبوا حول موضوع عبورها نيبال جبال الألب •
يقول بوليبيوس : « لقد أراد الذين كتبوا حول هذا الموضوع أن يبهروا قراءهم فقدموا لهم أوصافاً منمقة مبالغاً بها ، فوقعوا بنتيجة ذلك في خطيئتين هما أبعد ما يكون عن التاريخ • الخطيئة الاولى اضطرارهم لتزوير الحقائق ، والثانية مناقضة أنفسهم • فهم من جهة يصورون هانيبال كقائد لا يجارى في الشجاعة والحكمة ، ومن جهة اخرى يظهرونه في مواقف اخرى جباناً وغير قادر على اتخاذ قرار في بعض الامور البسيطة التي تتطلب وعياً وحكمة » • فهم بذلك اقرب الى كتاب المأساة أو التراجيديا منهم الى المؤرخين الذرائعيين الذين لا يرضون عن الحقيقة بديلا في سبيل الوصول الى الهدف الاسمى من التاريخ وهو الدرس والمثل والموعظة المبنية على الحقيقة •

ويصر بوليبيوس حين بحث حادث من الحوادث على وجوب التفريق بين أسبابه البعيدة وأسبابه المباشرة ، كما يصر على اعتبار التاريخ وحدة تتصارع فيها أو ضمن اطارها مصالح الامم المختلفة • فهو يرى أنه « في الماضي كان المؤرخون ينظرون الى الاحداث التي تجري في البقاع المختلفة من العالم وكأنها احداث متفرقة لا رابط بينها ، أما الآن (أي في زمنه) فانه يجب النظر الى الاحداث التاريخية على اساس انها جسد واحد ، فأحداث افريقيا وايطاليا متداخلة بأحداث آسيا واليونان وتنتهي كلها الى نهاية واحدة • » • وعلى هذا الاساس من وحدة التاريخ العالمي وترابط الاحداث في مختلف البقاع كتب تاريخه وقدم له بمقدمة تناول فيها تاريخ روما القديم وتاريخ العالم المعاصر لها لأن ما كان يجري في روما متصل في رأيه بما كان يجري في بقاع العالم التي عاصرتها وقد اعتمد بوليبيوس في جمع معلوماته التاريخية على مصادر شتى • فقد كان هو نفسه أحد المشتغلين بالقضايا العامة وساهم في الاحداث الضخمة التي قامت في زمنه فتعرف عليها عن قرب • كما انه كان محاربا

ممتازا وعالما بالتكتيك العسكري في زمنه وقد كتب كتاباً حول هـذا الموضوع • اما فيما يتعلق بمعلوماته الجغرافية فقد اتيح له أن يتعرف على الكثير من البلدان وذلك خلال مرافقته لسيبيون في الحروب التي خاضها في البلدان المختلفة • ويقول عن نفسه انه ما قام بهذه الرحلات مع سيبيون الى افريقيا واسبانيا وبلاد الغال والبحر الخارجي(الاطلسي) والجزر المختلفة الا في سبيل التعرف على البـلاد ووصفها لمواطنيه الاغريق •-ويقول لنا أثناء وصفه للطريق التي سلكها هانيبال عبر جبال الألب انه خبر هذه المناطق بنفسه وتجول فيها وقطع الألب كي يتعرف عليها ويجمع المعلومات المتعلقة بها •-وفي حقل التشريع والقوانين فانه يظهر معرفة واسعة تدل على دراسته للتشريع الروماني وتعليقاته حوله التي يضمنها كتابه الرابع•وأخيرا فانه لم يهمل ما تقدمه الوثائق المختلفة والاوابد والابنية الاثرية من معلومات تاريخية قيمة بل استعملها كلها في جمع مادة كتبه التاريخية•وكمثال على استعماله لهذا النوع من الوثائق يقول لنا انه أخذ عدد جنود جيش هانيبال من وثيقة دونها هانيبال بنفسه وهي عبارة عن صحيفة برونزية دون عليها هانيبال عدد جنوده ووجدت فيما بعد في لاكينيوم • كما حصل على نصوص المعاهدة التي وقعت بنهاية الحرب البونية من الوثيقة الاصلية لهذه المعاهدة •

وهكذا فان مفهوم بوليبيوس من التاريخ وطريقته العلمية الدقيقة فيجمع معلوماته التاريخية تؤهلانه لأن يحتلمكاناً مرموقاً بين المؤرخين القدماء • وقد خلا ما كتبه الباحثون عن بوليبيوس من أي شك في نزاهته وأمانته اللتين تظهران في كل ما كتب وحتى في كتابته عن بلاده أو القضايا أو الافراد الذين كانت تربطه بهم روابط الود أو القرابة فانه كان نزيهاً وحيادياً ودقيقاً • فهناك ، على حد تعبيره ، « أخطاء تاريخية كثيرة متداولة سببها الجهل والاهمال فهل نضيف اليهـا أخطاء اخرى نتيجة لتزويرنا للحقائق حتى ولو كان الامر يتعلق ببلادنا أو أصدقائنا

أو مصالحنا ؟؟! وهل اذا قمنا بعمل من هذا النوع نكون أفضل من أولئك الذين يتكسبون عيشهم من وراء تزوير الحقائق ؟؟ » • ولعل النقد الوحيد الذي وجهه القدماء لبوليبيوس هو اهماله للزخرف اللغوي في كتاباته واستعماله أسلوباً جافاً ينفر القارىء • ولكن هـذا النقد لا ينقص من قدره كمؤرخ محقق ، بل على العكس قد يزيده •

وكما قلنا آنفاً فان الكتب الخمسة الاولى من مؤلفات بوليبيوس التاريخية قد وصلتنا سليمة وهي مطبوعة عدة طبعات ومتداولة ، أما بقية كتبه فقد وصلتنا تنف منهـا ضمن مجموعات تاريخية أخرى ، أو في ثنايا بعض الكتب الاخرى التي نقلت عنها •

وهناك مؤرخون يونان آخرون غير هؤلاء الذين ذكرنا ، وهم على كثرتهم لا يخرجون في اسلوب تأليفهم التاريخي عن الخط الذي تعرفنا عليه من خلال دراستنا لحياة وأعمال هؤلاء الاربعة الكبار : هيرودوت ، توسيديدس ، كزينوفون ، وبوليبيوس ، ولذلك فسنكتفي بدراستنا لهؤلاء وسننتقل فيما يلي للتعرف على بعض المؤرخين الرومان ومؤلفاتهم وطريقتهم في البحث •

المؤرخـون الرومـان

١ ــ **سالوست** • ــ أحد المؤرخين الرومان الذين عاشوا في القرن الاول قبل الميلاد بين سنتي ٨٦ ــ ٣٤ ق•م • وهو من أسرة عريقة ولد في أميترنوم وأمضى طفولته هناك ، وبعد ذلك أخذ نجمه يلمع فانتخب سنة ٥٢ ق•م قاضياً للشعب • وقد تمتنت أواصر الصداقة بينه وبين قيصر فانتخب عضواً في مجلس الشيوخ ، ولكن خصومه تمكنوا من ابعاده عن هذا المنصب سنة ٥٠ ق•م• ولم يطل بعده عن مجلس الشيوخ أكثر من سنة ، فعاد سنة ٤٩ ق•م ليحتل مقعده من جديد في هـذا

المجلس وليشغل في نفس الوقت منصباً اداريا كبيراً • وظل سالوست يتقلب في المناصب الادارية الرفيعة حتى كانت سنة ٤٦ ق•م حين رافق قيصر في حملاته الافريقية التي انتهت بهزيمة بقايا حزب بومبي هزيمة منكرة في معركة تابسوس • وقد عين بعد ذلك حاكما لمقاطعة نوميديا ، وكان هذا المنصب آخر منصب عام يتسلمه اذ أنه ما لبث بعد هذا أن عاد لروما لينهي حياته العامة ويشتغل بالتأليف والبحث ، وقد اشترى بعد عودته لروما أرضاً واسعة أقام عليها الحدائق المشهورة المنسوبة اليه والمسماة « هورتي سالوستياني » •

وقد ألف سالوست العديد من الكتب التاريخية أشهرها وأهمها كتابه في التاريخ الذي هو عبارة عن سجل لتاريخ روما في الفترة بين سنتي ٧٨ — ٦٧ ق•م ولم يصلنا هذا الكتاب كاملا بل وصلتنا بعض أجزائه • أما مؤلفاته التي وصلتنا كاملة فأهمها : مؤامرة كاتيلينا ، وهو كتاب يشرح فيه سالوست المؤامرة التي دبرها كاتيلينا أحد النبلاء الرومان (عاش بين ١٠٩ — ٦١ ق•م) ضد مجلس الشيوخ الروماني والتي فضحها شيشرون • وفي هذا الكتاب يشرح سالوست ظروف المؤامرة وأهدافها ويصور كاتيلينا كعدو من أعداء القانون والاخلاق • والكتاب بمجمله غامض في كثير من الاحيان وفيه الحاح على الجانب الاخلاقي أكثر من الجانب التاريخي • أما الكتاب الآخر من كتب سالوست التي وصلتنا كاملة فهي كتابه عن الحرب مع جوغورتا • وجوغورتا هو ملك نوميديا (مقاطعة رومانية في شمال افريقيا تضم ما يعرف اليوم بتونس وجزء من الجزائر) الذي ثار ضد روما وتمكن القائد الروماني ماريوس من القضاء عليه في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد • وهذا الكتاب رغم ما فيه من معلومات قيمة عن هذه الفترة فانه لا يفي بالغرض الذي ألف من أجله • وسالوست في هذا الكتاب لا يشرح مراحل الحرب بقدر ما يقف عند ضعف مجلس الشيوخ

الروماني وتفسخ الارستقراطية الرومانية • وحين يبحث العمليات العسكرية فانا نلاحظ ضعف معلوماته الجغرافية واهماله لتواريخ بعض الاحداث • ولكنه من ناحية الضبط والتدقيق حريص اشد الحرص ، وذلك بشهادة المؤرخين المعاصرين له والذين أتوا من بعده • ويظهر ضبطه وتدقيقه في كتابه في التاريخ الذي قلنا انه لم يصلنا كاملا والذي يظهر مواهبه كسياسي يكره الديكتاتورية ويدرك ردود الفعل الشعبية ضدها • وقد نسبت بعض الكتب والرسائل خطأً لسالوست وقد أثبت البحث العلمي الحديث انها لمؤلفين من القرن الاول الميلادي • ومن هذه الرسائل المنسوبة خطأ اليه رسالة في الهجوم على شيشرون •

وقد طبع الموجود من كتب سالوست طبعات عديدة وترجم الى اللغات المختلفة • وقد اكتشف عام ١٨٨٦ عدد كبير من الاجزاء المفقودة من تاريخه وطبعت عدة طبعات ، وتدرس كتبه ولا سيما مؤامرة كاتيلينا والحرب مع جوغورتا في كثير من مدارس العالم اليوم •

٢ ـ **تيت ليف** • ـ ويعرف باسم تيتوس ليفيوس او ليفي ، وهو من أشهر المؤرخين الرومان في الفترة بين نهاية القرون ما قبل الميلادية ومطلع القرون الميلادية • ولد تيت ليف سنة ٥٩ ق•م في باتافيوم قرب البندقية وأمضى طفولته في مسقط رأسه ومن ثم غادرها يافعاً الى روما حيث تعرف على اوغسطس وأصبح صديقاً حميماً له • ولم يؤثر في صداقة تيت ليف لأوغسطس ما عرف عنه من مديح لبومبي ، حتى ان أوغسطس كان يدعوه « احد افراد العصبة البومبية » • ولسنا نعرف عن علاقاته العائلية الشيء الكثير ، وكل ما يمكننا قوله في هذا المجال انه كان أبا لابن اشتغل بالتاريخ أيضا ونقل عنه بليني بعض اخباره كما كانت له بنت • وقد توفي سنة ١٧ م في باتافيوم (أي بادوا) مسقط رأسه التي كان من أكبر مفاخرها نسبة هذا المؤرخ الشهير اليها•

الاشارات الى آراء تيت ليف في الثقافة وما يجب ان يتعلمه مثقفاً ، وقد وردت هذه الاشارات في رسالة وجهها : « اقرأ كتابات ديموستين وشيشرون ، وكتابات الذين يقاربون في نهجهم نهج ديموستين . واقرأ أبوك تيتوس ليفيوس لأن في كتاباته تاريخاً وفلسفة فيها فلسفة خالصة » . ورغم ان تيت ليف يشير الى في الفلسفة فان عمله الأهم والاعظم يظل التاريخ .

ليف كمؤرخ تقوم على مؤلفه الضخم « تاريخ روما » في ١٤١ جزءا وبحث فيه تاريخ روما منذ وصول اينياس[1] سوس الأخ الاصغر للامبراطور تيبريوس سنة ٩ م . على ان تيت ليف قد ألف هذا الكتاب على عدة مراحل ، في الجزء الاول لكتابه بمقدمة عامة تتناول الموضوع بأكمله ، يعود في بقية الاجزاء فيقدم لهـا بمقدمة أقل بعض الاشياء التي قالها في مقدمته المطولة الاولى مما كتبه سابقا . ورغم أن التقسيم الى فترات أو مراحل التاريخ حتى القرن الخامس الميلادي فان في « تاريخ بذور هذا النوع من التقسيم .

من الاجزاء الـ ١٤٢ التي يتألف منها هذا الكتاب الا ٣٥ الاجزاء الباقية فمفقودة أو موجودة بشكل ناقص أو هناك المعلومات الواردة فيهـا في الكتب المتأخرة . وقد

---

(١) طروادي جعله فيرجيل بطلا لملحمته « اينيد » ، قاتل خلال حصار طروادة وبعد أن سقطت المدينة بأيديهم فر في اللاسيوم . ومن هنـا يدعي الرومان أن فيهم دما الى ايطاليا مرتبط في اذهان الرومان بقيام دولتهم .

اكتشفت بعض الاجزاء المفقودة في مكتبة الفاتيكان سنة ١٧٧٢ • على أن بعض المعلومات الواردة في بعض الاجزاء المفقودة يمكن تداركها من ملخص عمل للكتاب في القرن الرابع الميلادي كما يمكن تداركها من المصادر المتأخرة التي نقلت عنه فيما بعد •

وحتى نفهم آراء وأفكار تيت ليف في التأليف التاريخي لا بد لنا من العودة الى المقدمة العامة التي صدر بها الجزء الاول من مؤلفه الذي نحن بصدد الحديث عنه • يقول تيت ليف في هذه المقدمة : « لست أعلم ما اذا كنت سأقوم بعمل جدير بالاحترام في محاولتي كتابة تاريخ الشعب الروماني منذ نشأة مدينة روما ، فالموضوع قديم وشائك والكاتب المحدث يظن نفسه قادرا على اضافة بعض الوضوح للحقائق المتداولة وتخليص بعض الاحداث من الغموض الذي يكتنفها • وأيا كان فاني أشعر بالسعادة لأني أؤدي واجبي تجاه الافعال الرائعة التي قام بها الشعب السيد الاول في العالم • ان المهمة التي أخذتها على عاتقي مهمة شاقة ، اذ هي تقتضي أن أبحث في تاريخ امبراطورية تعود أصولها لسبعمئة سنة خلت حين كانت في نشأتها الاولى ، ومازالت تتدرج في القوة والاتساع حتى أضحت أضخم قوة في زمننا • ولست أشك ان قصة نشأة هذه الامبراطورية وأيامها الاولى لن تسر غالبية قرائي ، وسيتطلعون بلهفة لقراءة قصة أيام مجد روما وعظمتها • ان الاخبار التي تتعلق بالفترة التي سبقت تأسيس روما وأخبار فترة تأسيسها أخبار ملونة بالاساطير والخرافات وغير مبنية على الشواهد التاريخية ولذلك فاني لن ارفضها أو أثبتها • ان الاخبار القديمة مسموح فيها بخلط ما هو انساني وصبغه بصباغ مقدس حتى يكون لنشأة المدن لونا زاهيا وقدسيا معا على أني لن أقف طويلا عند هذه الامور وسأصرف جهدي للامور التالية : كيف كانت حياة الرومان وكيف كانت طبعائهم، ما هي الوسائل ومن هم الرجال الذين بنيت على سواعدهم هذه

الامبراطورية الواسعة ، وكيف أدى فقد الانضباط عند الرومان الى ضعف امبراطوريتهم وتدهورها حتى وصلنا الى هذا الزمن الذي نبحث فيه عن الدواء لعلاج هذه المشاكل فلا نجده . وهنا نصل الى الشيء الايجابي والمثمر في دراسة التاريخ : ما علينا أن نتعرف عليه من أعمال ومنجزات الامم في الماضي التي أدت الى عظمتها وبالتالي الاستفادة منه لنحقق الخير والعظمة لانفسنا وأوطاننا ، كما يجب علينا أن نتعرف على ما هو سيء وغير مفيد لنا ولاوطاننا حتى نتجنبه » .

وهكذا فقد كان لتيت ليف هدفان من كتابة التاريخ : ١ ــ تسجيل الاعمال العظيمة التي حققها الشعب الروماني ، ٢ ــ وضع حقائق التاريخ أمام القارىء ليقلد ما هو صالح منها وليتجنب ما هو سيء . وهذا الهدف الثاني هو الهدف الاهم في نظره . ويتضح من هذا أن تيت ليف في هدفه الاول من كتابة التاريخ متفق مع هيرودوت الذي كتب قصة الماضي حتى لا يفوِّت على الاجيال اللاحقة معرفة ما قام به الاغريق من أعمال جليلة في مختلف الحقول فهو بذلك يدون التاريخ التاريخ لا لشيء آخر . اما في هدفه الثاني فانه يذكرنا بتوسيديدس الذي كان يعتقد بأن التاريخ يعيد نفسه فهو يكتب التاريخ ليكون صورة صادقة عن الماضي الذي لا بد لنا من معرفته من أجل التخطيط المستقبل . والفرق الوحيد بين توسيديدس وتيت ليف ان هدف تيت ليف من تدوين التاريخ أخلاقي أكثر منه سياسي . كما يذكرنا هذا بهدف التاريخ عند المؤرخ بوليبيوس الذي كان يعتقد أن معرفة التاريخ هي أصدق ثقافة واحسنها لمن يريد العمل في السياسة ، والتاريخ عنده المعلم الذي لا يرقى اليه الشك بالنسبة لكل متعلم ، ولا سيما رجال السياسة .

أما عن المصادر التي اعتمد عليها تيت ليف في تدوين تاريخه

فهناك جدل طويل بين الباحثين حولها . والسبب في قيام هذا الجـدل هو أن تيت ليف لا يشير الى المصادر التي اعتمد عليها بشكل واضح الا في القليل النادر ، أما في أغلب الاحيان فان اشاراته الى مصادره يكتنفها الغموض أو عدم الاكتراث وكمثال على هذا الغموض أو عدم الاكتراث قوله في كثير من الاحيان « ... واذا كنا سنقبل ما يقولـه فاليريوس فان ...» أو قوله : « ... لقد أخذت معلوماتي مـن فابيوس ... » دون أن يذكر لنا من هو فاليريوس أو فابيوس أو غيرهما من الاشخاص الذين أخذ عنهم معلوماته . وهذا هو ما نقصد حين تنعت مصادره بالغموض وعدم الاكتراث . وهو في بعض الاحيان يذكر ان هناك أكثر من رواية حول الموضوع الواحد دون ان يرجح واحدة على أخرى . كما انه في مناسبات كثيرة يهمل أمر ذكر المصدر الذي أخذ عنه معلوماته . ويمكننا ان نصنف مصادره حسب الفترات التاريخية التي كتب عنها : فبالنسبة للفترات الاولى اعتمد على كتّاب الحوليات القدماء وأخذ بعد ذلك يعتمد على الاشخاص الذين عاصروا الحوادث التي يكتب عنها ويستعمل الثقات منهم . وكان مبدؤه الذي يسير عليه انه يعتمد على ما كتبه بوليبيوس من أجل أخبار اليونـان وبلاد الشرق ، وأن يستعمل المؤرخين الرومان من أجل أخبار ايطاليا واوربا الغربية بشكل عام .

وقد عرف تيت ليف بين المؤرخين القدماء بنزاهته وحياده التـام ولم يتهمه أي مؤرخ أو ناقد بتزوير الحقائق او تشويهها لهدف أو غرض شخصي وقد وصفه ماكولي في بحثه عن التاريخ بقوله : « لا نعرف مؤرخا أخلص من تيت ليف للحقيقة » . ولكن يأخذ عليه بعض الناقدين المحدثين استعماله للمصادر الادبية دون نقد لرواياتها المتناقضة ، وانه يذكر في بعض الاحيان أكثر من رواية حول الموضوع الواحد دون ان يفضل رواية على رواية ، وأنه أخطأ أحيانا أخرى في فهم نصوص

بعض الروايات التي استعملها في تدوين كتابه • وهذا النقد ان صح على القلة من رواياته فانه لا يصح اطلاقا على مجموعها ، فتيت ليف ، مؤلف مدقق يهمل دوما الرواية الشفهية اذا عثر على الرواية المكتوبة ويستعمل الوثائق والمخلفات الاثرية ما استطاع الى ذلك سبيلا • كما انه كان يملك ملكة لم يملكها الكثيرون ممن اشتغلوا في التأليف التاريخي في القديم والحديث وهي ملكة تصور الماضي تصورا دقيقا يجعله يشعر وكأنه يعيش هذا الماضي ويشارك في صنعه • واذا أضيف الى هذه الملكة الاسلوب الرائع الذي يصفه ما كولي بقوله : « انـه أسلوب عذب حلو دائم الصفاء » ، لوجدنا في تيت ليف لا المؤرخ الموضوعي الصادق فحسب بل الاديب الذي تلذ قراءته ولا تمل صحبته•

وهناك طبعات كثيرة لكل جزء من أجزاء كتابه كما ان هناك طبعات للاجزاء الباقية من تاريخه بكاملها • والكتاب مترجم الى عدة لغات وهو معين لا ينضب بالنسبة لكل دارس للتاريخ الروماني •

٣ – **اميانوس مارسيلينوس** : مؤرخ رومـاني متـأخر ولـد بين سنتي ٣٢٥ – ٣٣٠ م في انطاكية وتوفي حوالي سنة ٣٩١ م • وهـو من اصل يوناني وسليل بيت نبيل ، وقد دخل الجيش في مطلع حياته وعين حاكما عسكريا على احدى المقاطعات • وظل في منصبه هـذا حتى استدعاه كونستانتيوس الثاني ليشترك في أحد الحروب ضـد فارس وكاد أن يقضي نحبه في المعركة التي جرت قرب أميدا (ديـار بكر الحالية) بين الروم والملك الفارسي سابور الثاني • وقد ساءت العلاقات بينه وبين الامبراطور كونستانتيوس الثاني في الفترة الاخيرة من حكم هذا الامبراطور ، ولما اعتلى جوليان عرش الامبراطورية عاد نجم أميانوس كقائد عسكري للتألق ثانية واشترك في المعارك التـي خاضها هذا الامبراطور ضد الفرس • وبعد وفاة جوليان عاد الـى

انطاكية وسكنها ثانية سنة ٣٧١ م • ولم يطل مكثه في انطاكيـة بل غادرها بعد ذلك الى روما حيث استقر به المقام وبدأ المرحلة العلميـة الهامة من حياته اذ أنه انكب في هذه الفترة على كتابة مؤلف باللاتينية يبحث فيه تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ اعتلاء الامبراطور نرفـا العرش (نرفا امبراطور روما بـين سنتي ٩٦ ـ ٩٨ م) حتى وفـاة الامبراطور فالانس • أي الفترة الواقعة بين سنتي ٩٦ ـ ٣٧٨ م •

وتاريخ أميانوس مارسيلينوس هو تكملة للتاريخ الذي كتبـه تاسيتوس ويقع في ٣١ جزءا ضاع منها الاجزاء الثلاثة عشر الاولى وبقي ثمانية عشر جزءا تبحث في تاريخ روما بين سنتي ٣٥٣ ـ ٣٧٨ م • ويمكننا وصف المعلومات الواردة في الاجزاء التي وصلتنا من الكتاب بأنها معلومات واضحة ، دقيقة ، ونزيهة يكتبها انسان عاصر الحوادث وخبرها بنفسه فعرضها بصدق وأمانة • والاسلوب الذي استعملـه أميانوس في تدوين هـذه الحوادث أسلوب لا يهتم بالبهرج اللفظي والبلاغة الادبية ، بل يميل الى القسوة والغموض والتعقيد • ولعل السبب في ذلك أن مؤلفنا لم يكن يملك زمام اللغة اللاتينية التي كتب بها فهو غريب عن انطاكية ، كما أنه كان يمتهن الجندية والقسوة جزء لا يتجزأ من طبعه • وبرغم أن أميانوس مارسيلينوس رجل عسكري أمضى الشطر الاكبر من حياته يخوض المعارك ويقود الجنود فـانا نراه في كتابه التاريخي هذا يهتم بسرد الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للفترة التي يعالجها ويسهب في شرح هذه القضايا • كما أنه في عرضه لاخبار الشعوب غير الرومانية التي كانت تتبع روما يظهر فهما وسعة أفق أكثر بكثير من كل من تيت ليف وتاسيتوس • وهو في كل ما كتب يستقصي العوامل البعيدة التي أدت في النهاية الى انهيار الامبراطورية الرومانية أمام القوط • فهو مثلا يبحث في النظام الضرائبي ومساوئه وما كان يجره من ويلات على الطبقات المحرومة ، كما يبحث في وضع

الطبقة الوسطى ويصف تدهورها المادي ، ويولي انخفاض المعنويات في الجيش عناية خاصة ويظهر أن انخفاض المعنويات ولد حتما ضعف سلطة الامبراطورية وبالتالي عدم مقدرتها على الوقوف في وجه خصومها . وهكذا يمكننا القول أن أميانوس مارسيلينوس قد تنبأ بما سيحل بروما أمام القوط قبل أن يحل بعشرين سنة .

والاجزاء الموجودة من تاريخ أميانوس مارسيلينوس مطبوعة عدة طبعات ومتداولة بين أيدي جميع المهتمين بالفترة المتأخرة من تاريخ روما . وأهمية هذا المؤرخ تأتي من كونه يمثل الجيل المخضرم من المؤرخين الذي عاصروا نهاية روما وولادة بيزنطة ، وهكذا يسهل لنا عملية الانتقال لدراسة التاريخ والمؤرخين زمن الامبراطورية البنزنطية .



التاريخ في العصور الوسطى



الفصل الثالث

التاريخ والمؤرخون العرب والمسلمون

لقد وجّه العرب والمسلمون عناية فائقة الى تاريخهم منذ فترةمبكرة فبدؤوا بتدوين أخباره منذ منتصف القرن الثاني للهجرة • ولكن هـذه العناية الزائدة انصبت على التاريخ العربي منذ ظهور الاسلام ، وأهمل المؤرخون بعض نواحي تاريخ الامة العـربية في الفترة التي سبقت ميلاد الرسول الاعظم محمد (ص) وهي الفترة التي درج المؤرخون على دعوتها بالجاهلية أو تاريخ العرب قبل الاسلام • وقلّما عـالج مؤرخونا حوادث تاريخ أمتنا لما قبل الاسلام بنفس العناية التي بذلوها لمعالجة مواضيعه منذ اعتناق الغالبية العظمى من أفراد أمتنا هذا الدين السماوي الجديد • ولم نعدم مع ذلك وجود طائفة من رواة الأخبـار عاشوا في صدر الاسلام واستمروا يعنون برواية أخبار العرب فـي جاهليتهم ولا سيما أخبار عرب الجنوب • وكان على رأس هذه الفئـة من الاخباريين وهب بن منبه وسواه ممن سيتناولهم البحث •

ولنشر الى أن مؤرخينا لم يكونوا أول من كتب التاريخ ، فثمـة مؤرخون من أمم أخرى كالهند والفرس والاغريق والرومـان سبقوا مؤرخينا الى تدوين تواريخ أممهم • بيد ان ما يجدر التنويه به هو ان مؤرخينا لم يتأثروا بطرق بحث المؤرخين السابقين الا بقدر ضئيل جدا • ولئن اقتبس العلماء العرب والمسلمون أشياء كثيرة من حضارات الامم الاخرى ، ولئن ترجموا ومهروا في علوم الهنود والفرس والاغريق

والرومان فانهم لم يهتموا بتاريخ هذه الشعوب الا بنسبة قليلة أي بنسبة افادتهم منه • ولنذكر كذلك أن رواد تأليف التاريخ عندنا لم يعالجوا من التاريخ العام أي تواريخ الشعوب المجاورة والمعاصرة لهم من هنود وفرس وقبط وبيزنطيين واغريق الا ما له علاقة بتاريخ العرب والاسلام ، بمعنى أنهم لم يدرسوا تواريخ هذه الامم الا من زاويـــة علائقها بتاريخنا • ولئن وجدنا بعض مؤرخينا القدامى أوردوا فـــي تآليفهم أخبارا تتعلق بالبيزنطيين والفرس وقبط مصر فقلما وجدنـــا أحد مؤرخينا يبحث تاريخ هجرات قبائل الجرمن أو غيرهم من الشعوب التي لم يكن لها علاقة وثيقة بتاريخنا • ومع ذلك فقد كان لهذه القاعدة العامة بعض الشواذ حيث وجدنا ثلاث فئات من مؤرخينا يهتم أفرادها بتواريخ الامم الاخرى : فثمة أولا المؤرخون الرحالـــة وعلى رأسهم المسعودي الذي عاش في القرنين الثالث والرابع الهجريين وجاب أقطارا كثيرة فأوجز في كتبه أخبـــار الشعوب التي أمّ ديارها • أما مؤرخو الفئة الثانية وعلى رأسهم اليعقوبي وأبو حنيفة الدينوري والطبري ، فهؤلاء لم ينسوا أصلهم غير العربي وكثيرا ما أوردوا في كتبهم أخبارا تعود لتاريخ الفرس (بني جنسهم) قبل الاسلام وبعده مع ملاحظة أن مؤرخي هذه الفئة الثانية لم يكونوا أبدا من الشعوبية • وهنـــاك أخيرا مؤرخو الفئة الثـــالثة الذين كانوا من الشعوبية فكان هؤلاء لا ينقطعون عن الاشادة بمآثر أجدادهم وبيان فضائلهم والاشارة الى ان حضارتهم أهم من حضارة العرب • لا بل كان مؤرخو هذه الفئـــة لا ينقطعون عن النيل من العرب وانتقاص شأنهم وامتهان حضارتهم وغير ذلك •

فاقت عناية العرب بتاريخهم بعد الاسلام عنايتهم بتاريخهم فـــي الجاهلية وسنستعرض الاسباب التي أدت الى اهمال تاريخ العرب في جاهليتهم والى اهتمامهم الزائد بتاريخهم بعد اعتناقهم الاسلام •

تاريخ العرب قبل الاسلام . — اننا نمسك عن التعرض لأخبار العرب البائدة كعاد وطسم وجديس والعمالقة مشيرين الى انه ليس لدينا منها سوى الشيء القليل المحفوظ في بطون الكتب المقدسة وبعض القديمة . وسيقتصر بحثنا على اخبار العرب العاربة وهم الذين استقروا في اليمن ودعوا تبعا لذلك بعرب الجنوب ، وعلى أخبار العرب المستعربة الذين كان مستقرهم شمالي شبه الجزيرة العربية ولا سيما في الحجاز ونجد وماجاورهمامن مناطق شبه الجزيرة، وقد دعي هؤلاء بعرب الشمال.

لقد نقش عرب اليمن الكثير من أخبار ملوكهم ودولهم وخاصة أخبار بعض الحوادث التاريخية التي وقعت بين القرنين الثاني عشر قبل الميلاد والسادس الميلادي على جدران قصورهم ومبانيهم التي شادوها في محافدهم المختلفة . وقد أوردوا في هذه النقوش التي كتبت بالخط المسند الشيء الكثير من أخبار دولهم وملوكهم وعلائقهم الخارجية وأحوالهم العامة . وتمكن العلماء بعد قراءتهم لهذه النقوش أن يعرفوا أنه تعاقب على حكم بلاد عرب الجنوب طيلة ثمانية عشر قرنا أربع دول(هي المعينية والسبئية والقتبانية والحميرية بدولتيها الاولى والثانية) تشابه تطور نظام الحكم فيها فبدأ بنظام المكارب الذين كانوا عبارة عن الأمراء الكهّان الذين كانت سلطاتهم روحية دينية وسياسية زمنية في نفس الوقت ، بمعنى أن نظام الحكم كان في عهد المكارب ثيوقراطيا. وما عتم هذا الحكم أن تحول الى حكم دنيوي أوسد الى بعض الملوك المنحدرين من بعض أسر الامراء الاقطاعيين أصحاب المحافد (الاقاليم) أو من بعض أسر المحاربين .

وفضلا عن هذه النقوش عثر على كثير من الكتابات العائدة لدول عرب الجنوب . وقد أمكن ارجاع هذه الكتابات الى الفترة الواقعة ما بين القرنين الثامن قبل الميلاد والسابع بعد الميلاد . وتضمنت هذه الكتابات وثائق ملكية وسجلات دولتي حمير الاولى والثانية والانساب

المدوّنة التي كانوا يقولون عنهـا الزبر ، وهي لغة الكتب انما يراد بها الانساب المدونة في وثائق ، التي كانت تحفظها بعض الأسر اليمنية بشكل سجلات أو وثائق •

ولوحظ أن هذه النقوش وتلك الكتابات والوثائق والسجلات تعرضت لمختلف مجالات النشاط البشري وفعالياته فوردت فيها اخبار الدول او الملوك وحملاتهم العسكرية وانتصاراتهم على أعدائهم الذين أجبروا على دفع الجزية كما اشارت الى النواحي العمرانية سواء ذات الطابع الاقتصادي كبناء سدود الري ، أم ذت الطابع العسكري كتشييد الأسوار والقلاع ، هذا علاوة عن تعرض هذه الوثائق والنقوش الى أعمال البر والتقوى •

وقد اعترضت سبيل العلماء في محاولتهم تحديد فترات زمنية لهذه النصوص الثمينة صعاب جمّة ، لانه لم يتبع في تدوينها تقويم تاريخي ثابت بالنسبة لسائر بقاع اليمن ، فكان كل نص يشير الى السنة التي كتب فيها من حكم الملك الذي تخضع البلاد لسلطته وأدى ذلك الـى أن المعلومات التي استقيت من هذه النصوص بقيت مفككة مشوشة • ولم يبدأ اليمنيون باتخاذ تقويم تاريخي ثابت الا منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد أي سنة ١١٥ ق•م فصاروا يؤرخون بقيام دولة حمـير الاولى ، وقد استمرت قرابة اربعة القرون • واستدل العلماء على وضوح الفكرة التاريخية لدى اليمنيين باتخاذهم لهذا التقويم التاريخي الثابت•

ويرد اهتمام عرب اليمن بتدوين أخبارهم الى أن الاميّة لم تكن متفشّية بينهم تفشيها بين عرب الشمال ، وذلك بنتيجة انتقال عـرب اليمن من طور حياة البداوة الى حياة الاستقرار في حواضر الجزيرة وخاصة في مدن اليمن والحيرة • وأهم ما بلغنا من اخبارهم قبـل الاسلام اخبار سد مأرب وتصدعه وانهياره في حادث سيل العرم

وهجرة كثير من القبائل اليمنية عقب ذلك الى الحجاز وتهامة ونجد ومشارف كل من العراق والشام ، وأخبار بلقيس ملكة سبأ وعلاقتها بسليمان ، واستيلاء أبي كرب تبان اسعد على اليمن وحكم يوسف ذي نواس أحد ملوك دولة حمير الثانية واضطهاده لنصارى مدينةنجران واحراقهم في الأخدود وفتح الحبشة لليمن على يد القائد أرياط . وبناء أبرهة الحبشي خليفته في حكم اليمن كنيسة القليس في صنعاء ، وحملة هذا الاخير على مكة عام الفيل (٥٧١م) ، وحروب سيف بن ذي يزن الحميري مع الأحباش وطردهم من بلاده بمعونة الفرس .

وغلب الطابع الأسطوري على ما وصلنا من هذه الأخبار . ورد المؤرخون ذلك الى تعصّب الأخباريّين اليمنيين الذين عاشوا في القرن الاول للهجرة لبلادهم وحرصهم على أن يظهروا قبائل عرب الجنوب متفوقة في مضمار الحضارة على عرب الشمال لا سيما بعد ان أخذ الشماليون يستعلون على اليمنيين بظهور عدد من الانبياء من بينهم وخاصة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم . وهكذا أوقعت أخبار عرب الجنوب التي حاول المؤرخون نقلها عن الأخباريّينهؤلاء المؤرخين في الحيرة والارتباك لصعوبة تحقيقها وتمحيصها فبقي الطابع الاسطوري يسودها . ولذلك وجدنا المؤرخ اليمني الهمداني وهو من مؤرخي القرن الرابع الهجري ينتقد في كتابه « الاكليل » الاخبار المتعلقةبتاريخ اليمن قائلا : « فوجدت أكثر الناس يخبط خبط عشواء ويعمه في حندس طخياء » وقد أشار الى أن عدم تمحيص هذه الأخبار يساعد على هذا الارتباك .

وقد غلب على أسلوب الاخبار التي وصلتنا عن تاريخ اليمن القديم الاسلوب القصصي الذي كان سائدا في رواية عرب الشمال لأخبار أيامهم أي حروبهم . لذلك لم يعتبر المؤرخون هذه الأخبار ذات قيمة تاريخية . وقد تحدث الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه « نشأة علم

التاريخ عند العرب»[1] عن أسلوب وأهمية هذه الأخبار وحرص الأخباريّين على المغالاة فيها لدرجة ان الروايات اليمانية التي أمكن العثور عليها هي بمجموعها ذات طابع اسطوري .. ، وان القصّاص ، وهم رواة هذه الاخبار الأوّلون ، كانوا أقرب الى القصّاص منهم الى المؤرخين.

ان أهم وأول الأخباريّين الذين رووا تاريخ اليمن القديم بشكل قصص اقتبسها مؤرخونا ونقلوا الشيء الكثير منها الى كتبهم ثلاثة هم : كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبيد بن شرية الجرهمي . وكان هؤلاء الثلاثة شديدي التعصب لعرب الجنوب فبالغوا في اخبارهم لدرجة جعلت الطابع الأسطوري يسود أخبار دول اليمن التي انتقلت الينا بطريقتهم . وكان ممكنا الاستغناء عن دراسة هؤلاء الثلاثة لولا الأثر البيّن الذي تركوه في جمهرة مؤرخينا الذين بحثوا تاريخ صدر الاسلام واضطروا الى التمهيد لبحوثهم بعرض موجز لتاريخ العرب قبل الاسلام فهذا القسم المتعلق بتاريخ الجاهلية هو الذي نقله مؤرخونا عن أخباريّي اليمن الآنفي الذكر .

وتعرض الكثيرون من مؤرخينا القدامى ولا سيما من عنوا بالتراجم والطبقات كابن سعد وابن خلكان وياقوت الحموي والذهبي وغيرهم لأولئك الأخباريّين ، كما درسهم المستشرقون ومؤرخونا المحدثون ونخص بالذكر منهم الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه الآنف الذكر.

وعلى الرغم مما غلب على روايات هؤلاء الأخباريّين الثلاثة عن تاريخ العرب في الجاهلية من مبالغات فلقد جنى التاريخ العربي الاسلامي منهم فائدتين هامتين : تتعلق أولاهما بالحاجة الماسة التي شعر بها العلماء المسلمون الذين أخذوا منذ القرن الأول للهجرة يحرصون على فهم

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص : ١٤ ــ ١٥ بيروت .

وايضاح ما ورد في آي الذكر الحكيم من اشـارات الى من سبقهم من الامم ، وشذرات تتعلق بالعرب البائدة والانبياء السابقين ، وكـان قد اعتنق الاسلام كثيرون من أحبار اليهود والنصارى فوجد المسلمون فيهم ضالتهم المنشودة وكانوا عونا لتفصيل مدلول تلـك الاشارات وشرح أصولها كما وردت في التوراة والتلمود ، فضم المسلمون هذه الأخبار الى تفسير القرآن الكريم والتاريخ • وعرفت تلك الشروح منذ ذاك باسم « الاسرائيليات » التي كان اثنان من ثلاثة الأخباريّين اليمنيين الآنفي الذكر من أعلامها وهما : كعب الأحبار ووهب بن منبه •

أما الفائدةالثانية فهي أنه كان لا غنى في المرحلة الاولى لتدوين اخبار العرب في جاهليتهم وأخبار الامم المجاورة ، هذه المرحلة التي كانتفيصدر العصر الأموي ، أي في القرن الأول للهجرة ، من الاعتماد على ما كان ينقله بعض المعمَّرين المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام من أخبار وكان أهم هؤلاء المعمَّرين عبيد بن شرية الجرهمي الذي ذكر ياقوت الجموي [١] في ترجمته نقلا عن ابن عساكر أنه عاش ثلاثمائة سنة « وقال بعضهم : مائتين وعشرين سنة » وقد أدرك عبيد هذا خلافة عبد الملك بن مروان وتوفي سنة ٧٠ هـ• اذن أفاد التاريخ العربي لمـا قبل الاسلام في هذه المحاولة الأولى لتدوينه بنقل أخباره عن هؤلاء المعمِّرين لكنه كان عبارة عن التاريخ المأثور بالسماع فحسب أي الذي نقله هؤلاء الأخباريّون •وتعرضت هـذه المحاولة لتدوين تاريخ العرب في الجاهلية الى انتقاد شديد من قبل بعض المستشرقـين وخاصة المستشرق البريطاني المعاصر جب Gibb الذي بيَّن في مقـاله عن التاريخ في دائرة المعارف الاسلامية [٢] نقائص هذه المحاولة بقوله :

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ؛ ج ١٢ ، ص ٧٢ ــ ٧٨ •

(٢) دائرة المعارف الاسلامية؛ المجلد٤، فقال عن علم التاريخلجب Gibb ص ٤٨٣ ــ ٥١٦ •

« ... وفي خلال القرن الاول للهجرة أفسح الخيال المجال للتاريخ المأثور بالسماع حتى تألفت مجموعة من الأقاصيص والأساطير زعم أصحابها أنها تاريخ واف لبلاد العرب في العصور القديمة اقترنت به أسماء رجال من طراز وهب بن منبه وعبيد بن شرية . وما صنفه الاثنان في هذا الموضوع دليل واف على أن العرب الأقدمين كان ينقصهم في تدوين التاريخ قوة الابداع والنفوذ الى الحقائق حتى في أخصّ ما يتصل منها بحوادث عصرهم ، ومع ذلك فقد قبلت الأجيال التالية رواياتهم في مجموعها وأدمجها المؤرخون وكتاب آخرون في مؤلفاتهم . وقد كان ابن اسحاق أحد الرواة عن عبيد .... ، نعم ان ابن خلدون أشار الى ما في بعض تلك القصص اليمانية من السخف والخرافة الا أنه لم يتوان عن ايراد هذه القصص بعينها لتحلية نظرياته والترغيب فيها ، ولهذا بقيت في مجموع التاريخ العربي عنصرا ينافي بداهة العقل ويتعارض مع نموّ ملكة النقد وتفهّم التاريخ القديم تفهماً صائباً سديداً » .

فعلى الرغم من قوة نقد جب لأسلوب هؤلاء الأخباريّين أو بالأحرى لهذه المحاولة الاولى لتدوين تاريخ العرب قبل الاسلام فانه لم يشر الى صعوبة الكتابة التاريخية ، وأنه لم يكن سهلا أن يسابق أخباريّونا أو مؤرخونا هؤلاء عجلة الزمن من حيث أن المؤرخين الكبار في كل أمة لا يظهرون الا في فترات النضج الحضاري .

كعب الأحبار . ــ ذكر ابن سعد في طبقاته [1] ، أنه توفي سنة ٣٢ هـ. في خلافة عثمان بن عفان ، بينما ذكر آخرون أنه توفي سنة٣٤هـ. وكان كعب هذا يهوديا من اليمن من آل ذي رعين من حمير ، وقد أسلم بعد وفاة النبي (ص) . وذكر المؤرخ الذهبي [2] أنه « قدم المدينة

---

(١) محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٧ ، ص ٤٤٥ ــ ٤٤٦ .
(٢) الذهبي : سير اعلام النبلاء ، ج ٣ ص ، ٣٢٢ ــ ٣٢٥ .

من اليمن ايام عمر رضي الله عنه . فجالس أصحاب محمد (ص) . فكان يحدثهم عن الكتب الاسرائيلية ويحفظ عجائب ، ويأخذ السنن عن الصحابة . وكان حسن الاسلام ، متين الديانة من نبلاء العلماء ... » .

وذكر ابن سعد في طبقاته أن كعباً قصد الشام بعدمقامه في المدينة وقصد مدينة حمص حيث كانت فيها وفاته . وروى كعب أحاديث الرسول عن عدد من كبار الصحابة ومن بينهم عمر وصهيب . وقد عُدَّ من خيار التابعين الذين يلون في العادة الصحابة من حيث منزلتهم في رواية الحديث . لكن المؤرخ الذهبي ذكر أن كعبا يعتبر من النادرين الذين روى عنهم بعض الصحابة كأبي هريرة ومعاوية وابن عباس فقال : « حدَّث عنه : أبو هريرة ، ومعاوية ، وابن عباس ، وذلك من قبل رواية الصحابي عن التابعي ، وهو نادر عزيز ...

« وكان خبيرا بكتب اليهود ؛ له ذوق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة وقع له رواية في سنن أبي داود والترمذي والنسائي .

« سكن بالشام بأخرة ، وكان يغزو مع الصحابة .. توفي كعب بحمص ذاهبا للغزو في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه ، فلقد كان من أوعية العلم .. » .

وقد روى ابن سعد حديثا جرى بين ابن عباس وكعب عن سبب تأخر كعب في اسلامه ، كما أورد ابن سعد شهادة المحدث أبي الدرداء في كعب والتي جاء فيها : « ان عند ابن الحميرية لعلماً كثيراً » .

ومع أن الكثيرين من جهابذة مؤرخي التراجم أوردوا سيرة كعب فلم يشر أي واحد منهم الى أن كعباً ألف بل كان كل ما روي عنه شفوياً ، وان كان ينهض دليلا على سعة اطلاعه على الثقافة اليهودية وأساطيرها . ولاحظ الباحثون أن بعض ثقات مؤرخينا ، كابن قتيبة والنووي ، لم

يرووا عنه اطلاقا ، بينما روى عنه الطبري قليلا • لكن غير هؤلاء كالثعالبي والكسائي ينقل عنه كثيرا في قصص الانبياء •

وهب بن مُنَبِّه ٣٤ ــ ١١٤ هـ• ــ هو أبو عبدالله اليماني وكان أبوه منبه من مدينة هراة بخراسان كما كان جده الأكبر يلقب بالأسوار• وذكروا أن وهبا ولد في مدينة ذمار بجوار صنعاء وهو من « الأبناء » أي أبناء أفراد الجيش الفارسي الذي بعث به كسرى أنوشروان نجدة للأمير الحميري سيف بن ذي يزن لاخراج الأحباش من اليمن •

وثمة خلاف بين المؤرخين حول اسلام وهب فيرى الواقدي خطأً انه اعتنق الاسلام سنة ١٠ هـ • وهذا القول لا يمكن الركون اليه •

ويقول المستشرق الالمـاني يوسف هوروفيتس Josef Horovitz بصدد ذلك [١] : « •• وكان جد وهب الأكبر يلقب بالأسوار،وقداعتنق وهب الاسلام عام ١٠ هـ ، بناءعلىقولواضح الخطاللواقدي ، ومعناهأنه ولد قبل الهجرة • ولا يمكن كذلك أن نثق بقول عبد الله بن سلام الذي نقله ابن النديم في « الفهرست » : ان وهباً من اهل الكتاب الذين اسلموا • والأكثر احتمالاً أنه ولد مسلماً ، ولعل قول الواقدي لا يعني اسلام وهب نفسه ، وانما يعني اسلام والده مُنَبِّه ، الذي يحتمل أنه دخل في الاسلام عام ١٠ هـ • وليس لدينا ما يدعو الى الشك في القول بأن وهباً ولد عام ٣٤ هـ ، ذلك القول الذي يلائم ما نعرفه من الاخبـار الأخرى عن حياته » •

وقد اعتبر وهب من خيار طبقة التابعين ومن ثقاتهم وكان واسع

---

(١) يوسف هوروفيتس : المغازي الاولى ومؤلفوها ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، ص ٢٧ ــ ٢٨ •

الاطلاع على الكتب القديمــة ولا سيما تلــك التي كانت تعــرف بالاسرائيليات وكان قدرياً اي من المعتزلة • وذكروا أنه ألّف كتاباً في القدر ثم ندم على تصنيفه • وقال ياقوت الحموي [١] بصدد ذلكمانصه:
« كان من خيار التابعين ثقة صدوقاً ، كثير النقل من الكتب القديمــة المعروفة بالاسرائيليات • وقال ابن قتيبة في كتابه المعارف ، (وراجع كذلك ابن خلكان[٢]) : « كان وهب بن منبه يقول : قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتابا • صنف كتاب القدر ثم ندم على تصنيفه ••

« وروى حماد بن سلمة عن أبي سنان قال : سمعت وهب بن منبّه يقول : كنت اقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلها من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقدكفر فتركتقولي••»

كان وهب يعرف بعض اللغات القديمة ومن قبيل ذلك ماذكروه من عثور الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ اثناء بنائه للمسجد الأموي في دمشق على حجر عليه نقوش غير عربية • فأرسله الى وهب لقراءته • وقد تولى وهب القضاء في صنعاء في خلافة عمر بن عبدالعزيز لعدة سنين وحج سنة ١٠٠ هـ حيث اجتمع في مكة بفئة من أقطاب علم الفقه المشهورين • وذكر ابن خلكان أن وهباً كان يروي الحديث عن أبي هريرة كما ذكر سواه أنه روى الحديث عن ابن عباس وعن جابر ابن مسعود • ورووا أنه ساءت العلاقة بين وهب وبين والي اليمن من قبل هشام بن عبد الملك وهو يوسف بن عمر الثقفي الذي استمر يلي اليمن بين سنتي ١٠٦ ــ ١٢٠ هـ فزجّ الوالي بوهب في السجن كما ضربه سنة ١١٠ ضرباً مبرّحاً لدرجة أشفى وهب معها على الموت دون

---

(١) ياقوت الحموي : المرجع المذكور ؛ ج ١٩ ؛ ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠ •

(٢) ابن خلكان ؛ وفيات الاعيان •••• ج ٥ ، ص ٨٨ •

أن يشير المؤرخ الذهبي الذي روى هذا الخبر الى سبب نقمة هـذا الوالي على وهب •

وذكر أن وهباً زهد في آخر حياته • ويغلب على الظن ان مردّ هذا النسك والزهد الى وفرة ما قرأه من الكتب المقدسة وكتب اهل الكتاب القديمة وسير النبيّين والرسل الذين بعثهم الله قبل محمد (ص) • وقال الدكتور الدوري (ص ١٠٥ ــ ١٠٦) : « ويلاحظ من الروايات المنسوبة اليه ان وهباً روى قطعاً من العهد القديم منقولة بصورة حسنة ومقتبسة في تفسير الطبري ، وقطعاً من المزامير ، وتدل بعض أخباره على معرفة بالتلمود ويبين هورفتس انه روى اسماء سفر التكوين واشخاصه طبقاً للنص العبري مع ملاحظة تحريفات الترجمة السريانية • وهناك اشارات تدل على معرفة وهب بالعبرية وربما بالسريانية • ويبدو انه أخذ من الانجيل والكتب المسيحية معلومات عن ميلاد المسيح وحياته •• » •

وقد ألّف وهب عدة كتب في مواضيع شتى فله اولاً كتاب : الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم • وذكر ابن خلكان انه رأى هذا الكتاب الذي يتناول اخبار هؤلاء الملوك وقصصهم وقبورهم وأشعارهم وهو في مجلد واحد وهو من الكتب المفيدة • ويرى المستشرق هوروفيتس أن وهبا كان واسع الثقافة « وأنه يعنى عناية خاصة بأحاديث أهل الكتاب » ، وبعد أن استبعد هذا المستشرق أن يكون وهب قد قرأ اثنين وسبعين كتابا من الكتب المقدسة كما ذكر وهب نفسه ذلك ، تابع كلامه عن تأليف هـذا الرائد الأخباري (ص ٣٠ ــ ٣١) قائلا : « ••• واذا كانت مثل هذه الدعاوى لا تستحق التصديق كما تبين قوائم الكتب المقدسة المشار اليها ، فاننا جدّ موقنين أن وهباً عرف ما تحويه كتب اليهود والمسيحيين المقدسة ، عن طريق صلاته باليمنيين من أهل الكتاب ، الذين كثر عديدهم في جنوب بلاد العرب ، ويوافق

كثير من أقوال وهب مافي المصادر اليهودية والمسيحية تمام الموافقة وتخالفها في بعض الأحيان • وتشمل أخباره جميع ميدان « أحاديث الأنبياء والعُبّاد وأحاديث بني اسرائيل » كما يقول ابن سعد ، وقد نمت وكثرت بما زاد فيها تلاميذه ، الذين كان من بينهم بعض أعضاء أسرته ، وجدير منهم بالذكر حفيده عبد المنعم ، لحفظه المادة التي جمعها وهب ، و « كتاب المبتدإ » لوهب ، الذي استغله الثعلبي في كتابه « عرائس المجالس » من رواية عبد المنعم عن وهب ، وهو ينسب اليه على أنه مؤلفه • وأما العنوان « المبتدأ » فيشير الى مبتدإ الخلق ؛ ولكن الرسالة لا تصور تاريخ أصل الجنس البشري طبقاً لأخبار أهل الكتاب فحسب ، بل قصص الأنبياء أيضا ، أي تاريخ الرسالات القديمة •

« ويعتبر وهب من الثقات المعتمدين في قصص الأنبياء خاصة ، ولكنه تناول كذلك تاريخ العُبّاد ، أي الأولياء الذين لم يصلوا الى مرتبة النبُوة ، كما يقول ابن سعد ، وحين ينسب حاجي خليفة الى وهب أيضاً رسالة في قصص الأخيار فاننا قد نظنّ أن هؤلاء الأخيار هم عبّاد ابن سعد » •

وبالرغم من ابتعاد وهب عن التأليف في مغازي الرسول (ص) فان المؤرخين ولا سيما المستشرقين اعتبروا وهباً ممهداً لكتابة المغازي ، وأورد هوروفيتس حول ذلك [1] ما نصه : « وتبتعد جميع كتابات وهب التي ذكرناها حتى الآن عن المغازي ، التي نناقشها في هذا المقال ، ولكننا اذا فهمنا لفظة المغازي بمعناها العام ، كما ينبغي ، طبقا لاستعمال اللغة في الأيام الأولى من الاسلام ، وتوسعنا فيها لتشمل حياة النبي جميعها ، فان كتابات وهب هذه تدخل في نطاق بحثنا ، لأنها مدخل الى سيرة النبي ، كما ترتبط بالرسالات قبل محمد •

---

(١) هوروفتس : المرجع المذكور : ص ٣٤ ــ ٣٦ •

« وتبين لنا قطعة هيدلبرج[1] أن وهباً لم يتناول المغازي بالمعنى الخاص ، فهي تحتوي على تاريخ العقبة الكبرى ، وحديث قريش في دار الندوة ، والاستعداد للهجرة ، والهجرة نفسها ، ووصول النبي الى المدينة ، وغزوة بني خيثمة • واذا كنا قلما نجد في قطعة هيدلبرج شيئا جديدا لم نجده في كتب السيرة والمغازي التي وصلت الينا كاملة، فانها تهمنا لأسباب ، منها أنها تؤيد ما يقال من أن سيرة النبي كانت تروى في عام ١٠٠ هـ ، أو قبل ذلك بقليل ، كما في الكتب المتأخرة بالضبط ، وأن وهباً لا يذكر رواته ، وان كان يلتزمهم ، وأنه يقطع القصة النثرية بادخال قصائـد ينسبها للمشتركين في الحـوادث او لمعاصريهم ، كما كانت عادة قصّاص العرب منذ قديم الزمن » •

ومع أن جمهرة المؤرخين تعتبر وهباً في زمرة الأخباريّين الذين عنوا برواية تاريخ العرب قبل الاسلام ورواية أخبار غير العرب التي استقوها من الكتب المقدسة وسواها فها نحن أولاء نرى أنه اعتبر فضلا عن ذلك رائداً من رواد تدوين مغازي الرسول (ص) • أما فيما عدا ذلك فان معظم ماوصل الينا من الاخبار التي نقلت عنه مقتبس عن القصص الديني عند أهل الكتاب •• هذا مع الاشارة الى أن ثمـة خلافاً لاحظه ابن قتيبة الدينوري في كتابه المعارف بين ما أورده وهب من أخبار وبين ما ذكر في الكتب المقدسة • ولوحظ هذا الفرق خاصة فيما يتعلق برواية وهب عن بدء الخليفة وبين ما ورد بصدد ذلك في سفر التكوين • وقد فسّر المؤرخون هذا الفرق بأن وهباً أضاف مادة جديدة الى ما نقله عن العهد القديم والنصوص القديمة • واستندت هذه الاضافة الى شرحه آي الذكر الحكيم ، والى الاسرائيليات والى

---

(١) هذه القطعة هي عبارة عن الورقة البردية التي وجدها المستشرق بيكر بين مجموعة من الاوراق مجلدة في هيلدبرج .

تأملاته في كتب أهل الكتاب •

كان وهب كما مر بنا غزير الانتاج لكنه لم يصلنا أي كتاب من كتبه ، كاملا واقتصر الأمر على المقتبسات التي نقلها عنه كل من ابن اسحاق والطبري ، سواء في تفسيره أم في تاريخه ، وابن قتيبة وسواهم •

ومهما ازدادت أهمية وثقافة وهب فان مايعنينا هنا هو أنه كان من أعظم الأخباريين الذين نقل مؤرخونا عنهم أخبار بعض العرب البائدة كعاد وعاصمتهم ارم ، كما تعرض في كتابه المشار اليه آنفاً وهو التيجان ، الذي رواه عنه حفيده لابنته عبد المنعم بن ادريس المتوفى سنة ٢٢٨ هـ، الى دخول الوثنية الى شبه الجزيرة العربية • ونلاحظ أن ابن قتيبة اقتبس في كتابه المعارف ماذكره وهب عن ابراهيم عليه السلام والنمرود وهجرة ابراهيم وقصة اسماعيل وقصص كل من أصحاب الكهف وشعيب ومدين • وبالاضافة الى كل ذلك القصص الديني فان وهباً اهتم في كتابه الثاني المذكور آنفا ، الملوك المتوّجه من حمير ••• ، ذلك الكتاب الذي رآه ابن خلكان وأشار اليه ياقوت ، بأخبار ملوك اليمن وقصصهم وقبورهم وأشعارهم • ويعتقد بعض المؤرخين الحديثين أن كتاب الملوك المتوّجة هذا هو أساس كتاب التيجان الذي نسبه بعضهم الى وهب بطريق حفيده لابنته • وقد تعرض هذا الكتاب الثاني الى تاريخ عرب اليمن وأفاض في ذكر ماضيهم وأمجادهم وهجراتهم • وغلبت على أسلوب وهب في هذا الكتاب المبالغة والاطناب في الاشادة بمآثر عرب اليمن وتمجيدهم أو كما قالوا عنه « أسطورة يمانية شعبية مجيدة هدفها كما يبدو أن تعطي صورة رائعة لعرب الجنوب تجابه التفوّق العام لعرب الشمال ، وتعكس صورة للتفاخر بين الاثنين • فالكتاب يظهر « حمير في الأرض كالسراج المضيء في الليلة الظلماء ••• » •

عَبيدُ بن شَرية الجرهمي المتوفى سنة ٧٠ ــ هـ ــ هو من كبار المعمرّين اليمنيين المخضرمين الـذين عاشوا في الجاهلية والاسلام . وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن عبيد بن شرية عاش ثلاثمائةسنة، كما ذكر آخرون أنه عاش مائتين وعشرين سنة . أدرك عبيد ظهـور الرسول (ص) ولكنه لم يفد عليه ولم يسمع منه . وقد اعتنق الاسلام ووفد على معاوية الذي قرّبه وجعله سميراً له يقص عليه أخبار المتقدمين وملوك العرب والعجم ؛ وهناك من يقول ان معاوية هو الذي استدعاه من صنعاء ، وقد أعجب معاويةبحديث هذا الشيخ الحكيم الذي حنّكته التجارب والسنون فقرّبه اليه وجعله من سمّاره ليفيـد من حكمته وليأخذ عظة من أخبار ملوك العرب والعجم المتقدمين التي كان معاوية كلفاً بسماعها وتدوينها حيث جعل كما يقول المسعودي غلماناً يسجلون ويعيدون عليه ما كان روي له من أخبار هؤلاء [1] . ونجد في ترجمة عبيد في معجم الأدباء لياقوت شيئاً من الطرف والأخبار التي كان عبيد يتحف بها معاوية . وأوعز هذا الخليفة كما روى ابن النديم فيالفهرست

---

(١) حدث المسعودي (مروج الذهب : ج ــ ٣ ؛ ص ٣٩ ــ ٤١ . . .) عن اخلاق معاوية وسياسته وعن الاعمال التي كان يقوم بها في كل يوم ، وها نحن نورد ما كان يقوم به منذ ادائه صلاة العشاء : « . . . ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادي بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلي ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية . فيؤامره الوزراء فيما ارادوا صدراً من ليلتهم ، ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب وايامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والآثار ، وانواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم . » .

بتدوين أخبار عبيد ونسبتها اليه وهذا ما أورده ابن النديم[1] بصدد ذلك : « ووفد (عبيد) على معاوية بن أبي سفيان فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه الى ما أمر فأمر معاوية أن يدوّن وينسب الى عبيد بن شرية ٠٠٠»

عاش عبيد حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث وافته منيته سنة ٧٠ هـ ٠ ولعبيد كتابان هما : كتاب الأمثال ، الذي ذكر ابن النديم أنه رآه وأنه يتألف من خمسين ورقة ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين الذي قال ابن النديم عنه ان عبيداً روى أخباره في هذا الكتاب عن الكيس النمري اللسين الجرهمي الذي كان في أيام يزيد بن معاوية وكان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها وهو أحد من أخذت عنه المآثر ٠ » ويرى بعض النقاد أن الكتاب الثاني هو أقرب الى كتب المسامرات منه الى كتب التاريخ ، لابل ادعى بعضهم أن الشك تناول وجود ذلك الكتاب ومؤلفه نفسه ٠

هذه طائفة من أخبار روّاد القصص التاريخي عندنا وهم كما رأينا يمنيون ٠ وقد لاحظ النقاد الحديثون أنه غلب على أسلوبهم التعصب لعرب اليمن ٠ ولاحظنا من قبل أن كتاب التيجان لوهب بن منبه استهدف واضعه اظهار قومه حمير« كالسراج المضيءفي الليلة الظلماء »؛ كما ذكر أن عرب الجنوب عرفوا التوحيد قبل الناس ، وأن أحد ملوكهم وهو الصعب ذو القرنين ، الذي كان نبي الله الخضر عليه السلام يرشده في فتوحاته ، كان يدعو في حروبه « الى السيف أو الايمان » ، وان اليمنيين كانوا يقدسون الكعبة التي حج بعض ملوكهم اليها ، وان هؤلاء الملوك قاموا بفتوحات عظيمة في أرجاء الأرض (وصلت فتوح

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٣٨ .

بعض ملوكهم ، كما ذكر وهب في كتابه الآنف الذكر ، الى بابل وأرمينية والشام ووادي النيل ، وانهم بنوا مصر ، كما وصل آخرون منهم الى الحبشة ومصر ووصلوا في المغرب الى المحيط والأندلس • أما في المشرق فقد وصل الصعب ذو القرنين الى أرمينية وسمرقند وباب الأبواب ويأجوج ومأجوج ، وبنى السدّ بينهم وبين الناس ، وفتح الهند والصين) • كما أدعى بأن اليمنيّين كانوا أسبق من عرب الشمال الى استعمال الخط العربي ونظم الشعر بالعربية وعنهم أخذ عرب الشمال بعدئذ ويؤكد على معرفتهم الحكمة وعلى مهارتهم وتفوقهم في الصنعة وعلى أن الناس تعلموها منهم •

وصفوة القول أن هؤلاء الأخباريين الثلاثة ومن تأثر بأسلوبهم اهتموا بتمجيد عرب اليمن والمبالغة في مآثرهم فادعوا بأنهم سبقوا عرب الشمال في المجالات المختلفة من توحيد وفتوحات ولغة وأدب وحكمة وصنعة•وعلى الرغم من اهتمام هؤلاء الأخباريّين بسيرة الرسول ومغازيه وان وهباً اعتبر من روّاد المغازي فان تأثيرهم في هذا القسم من التاريخ العربي الاسلامي بقي محدودا ولم يتعدّ ميل مؤرخي المغازي الذين أتوا بعدهم الى المبالغة والخيال في بعض ما يروونه من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه • وهذا ما حدثنا عنه الدكتور الدوري[1] في كتابه المشار اليه سابقا •

واحتفظت بعض القبائل اليمنية التي هاجرت من ربوعها واستقرت في مشارف الشام والعراق بحرصها على التعصب ليمنيتها وحفظها لأخبارها وأنسابها ومآثرها • ومن قبيل ذلك ما رووه عن المناذرة الذين سكنوا الحيرة جنوبي العراق عقب هجرتهم من اليمن والذين دوّنت لهم كتب ضمنوها أخبارهم وأنسابهم وسير أمرائهم • وقد احتفظ بتلك

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري ، المرجع المذكور ؛ ص ١١٣ .

الكتب في أديرة الحيرة ، كدير هند الكبرى ودير هند الصغرى ؛ فضلا عن معرفة المناذرة بالشيء الكثير من أخبـار الفرس الذين كانت تربط المناذرة بهم علاقة تبعية . وكانت هذه الكتب منهـلا استقى منه بعض المؤرخين الشيء الكثير من مادة تآليفهم التاريخية عن أخبـار كل من عرب الحيرة والفرس . وعلى الرغم من ذلك لم يكن لعرب الحيرة فكرة تاريخية واضحة .

تاريخ عرب الشمال . — اقتصر اهتمام عرب الشمال بتاريخهم لفترة ما قبل الاسلام على الروايات الشفوية حيث كانت الأميّة متفشّية بينهم بنسبة أكبر من تفشّيها بين عرب الجنوب . وقد تعرضت هذه الروايات لأخبار آلهتهم وحياتهم الاجتماعية وأمجادهم . هـذا فضلا عن أخبار الحروب التي ستعرت بين مختلف قبائلهم والانتصارات المؤزّرة التي أحرزوها في تلك الغزوات التي كانت تدعى بأيام العرب والتي خلدها الشعراء في قصائدهم . كما اهتم عرب الشمال ، كاخوتهم عرب الجنوب، بحفظ أنسابهم ، لكنهم قلما دونوها في الوثائق والسجلات . كما تتصل هذه الروايات الشفهية بأمجاد عرب الشمـال ومثلهم العليـا كالمروءة والشجاعة والكرم والنجدة والشمم والاباء . وكانت هـذه الروايات تسرد في منتدى القبيلة مع استعانة من يروون تلك القصص نثرا ببعض القصائد الشعرية التي قيلت لتخليدها . وكان لتلك القصائد التي نظمت تخليدا لمآثر القبيلة دور رئيسي في منح تلك الروايات الشفوية الحيوية وأن يكون تأثيرها عميقاً في نفوس سامعيها . ثمت زادت أهمية دور الشعر فأضحى كما يقولون ديوان العرب ، حفظت به الأنساب وعرضت المـآثر ومنه تعلّمت اللغة .

ومن الأخبار المتعلقة بتاريخ عرب الشمال قبل الاسلام والتي حفظها لنا هؤلاء تاريخ الكعبة منذ بنائها الى أيام قصي بن كلاب أحد أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم ، واجلاء خزاعة لجرهم عن مكة وردم بئر

زمزم من قبل آخر أمير جرهمي قبيل مغادرته هذه المدينة ، واستقرار قبيلة خزاعة فيها ، وادخال عمرو بن لحيٍّ الخزاعيٍّ أول صنم الى مكة وانتشار عبادة الاصنام منذ ذاك ، واستمرار أمراء خزاعة يلون حكم مكة الى أن طردهم منها قصي بن كلاب الذي تولى منذ ذلك هو وأولاده وحفدته شؤون الحكم ، وايراد أخبار حلفي المطيِّبين والفضول وغير ذلك من أخبار مكة في الجاهلية .

وبنتيجة وصول قوافل مكة التجارية في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام مباشرة الى كل من بلاد الشام واليمن والحبشة والعراق فقد أدى أحتكاك تجار قريش بسكان هذا المناطق الخاضعة للحكمين البيزنطي والفارسي الى وقوفهم على الكثير من أخبارهم . وحفظ بعض الأفراد قصصاً نقلوها عن الفرس فقال المرحوم الاستاذ أحمد أمين بصدد ذلك ما معناه : « وقد عرفت العرب في الجاهلية قصصاً كثيرة عن الفرس ، وكانوا يروونها ويتسامرون بها . جاء في سيرة ابن هشام أن النضر ابن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس ، واحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكَّر بالله ، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه اذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلمَّ اليَّ ؟ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم ، واسفنديار ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟ قال ابن هشام : وهو الذي قال ــ فيما بلغني ــ : « سأنزل مثل ما أنزل الله » .

هذه أول محاولة قامت منذ منتصف القرن الاول للهجرة لتدوين أخبار العرب في جاهليتهم ولا سيما أخبار عرب الجنوب واخبار ايام العرب بصورة عامة . وقد اقتبس مؤرخونا منذ منتصف القرن الثاني

أشياء كثيرة من هـذه الاخبار التي كانت في معظمها شفوية فأوردوا ما وجدوه فيها متعلقا بأخبـار العرب قبل الاسلام ليمهّدوا به لكتبهم التي ألّفوها في تاريخ الأمة العربية منذ ظهور الاسـلام : وبالرغم من نقائص هذه الأخبار وأنها كانت بحاجة الى التآلف والسبك والفكرة التاريخية فقد كانت تحوي بعض الحقائق التاريخية . ونختتم حديثنا عن هذه الفترة بما أورده الدكتور الدوري [1] عن أثر أسلوب قصص أيام العرب على بداية علم التاريخ ولا سيما في العراق فقال : « وكانت قصص الأيام مجموعة روايات شفوية قبلية جماعية ، وهي ملك مشترك للقبيلة ، وبقيت كذلك حتى القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، حين جمعت هذه الروايات وصنّفت ولكننا يلزمنا ان نلاحظ ان فترة صدر الاسـلام ، بتياراتها السياسية والاجتمـاعية أثّرت أثرها في أدب « الأيام » كما أن روايات « الأيام » مرتبكة من ناحية التوقيت وهي على العموم لا تخلو من عصبية وتمثل جانباً واحدا . ثم انها ينقصها التآلف والسبك وليست فيها فكرة تاريخية . ومع ذلك فانها تحوي بعض الحقائق التاريخية . وأهميتها الأساسية هي في أنها استمرت في صدر الاسلام وقد أثّر أسلوبها على بداية علم التـاريخ وخاصة في العـراق .

صارت « الأيام » جزءاً من الأخبار التاريخية ، كما أن ورود الشعر فيها جعلها موضع اهتمام اللغويين والنسّابين والمؤرخين (مثل أبي عبيدة وابن قتيبة ، والمدائني والأغاني وابن عبد ربه) . وقد حاول ابن الاثير أن يورد أخبـار الأيام في تسلسل تاريخي . ويرى حاجي خليفة أن تكون « الأيام » فرعا من التاريخ اذ يقول « علم أيام العرب وهو علم يبحث فيه عن الوقائع العظيمة والأهوال الشديدة بين قبائل العرب ..

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري ، المرجع المذكور ، ص ١٦ ــ ١٨ .

والعلم المذكور ينبغي أن يجعل فرعا من فروع التواريخ » .

« ان أهمية روايات « الأيام » هي في استمرارها في صدر الاسلام وفي أسلوبها . فأسلوب قصص الأيام مباشر يفيض بالحيوية ، وواقعي يختلط فيه النثر بالشعر . وهذا الأسلوب له أثره في بداية علم التاريخ عند العرب وخاصة في الأوساط القبلية ...

« ولم تترك الفترة الجاهلية أدباً مكتوباً ، فهي فترة ثقافيةشفوية . ومع أن تراثها على العموم أدّى الى استمرار الاهتمام بالأيام والأنساب، والى بقاء أسلوب في الرواية وهو الأسلوب القصصي شبه التاريخي ، الا أنه يخلو من أية نظرة تاريخية .. » .

تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام : ـ بدأ العرب والمسلمون غداة موجتي الفتوحات اللتين كانتا في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية يستقصون أخبار هذه الفتوح ويثبتون حوادثها . وكان التابعون ، (وهو اللقب الذي يطلق عادة على المسلمين الذين أتوا بعد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من العرب ومعتنقو الاسلام الجدد من غير العرب لا ينفكون عن سؤال الذين تشرفوا بصحبة الرسول واشتركوا الى جانبه في الغزوات وسؤال الذين بعث بهم الخليفة ابو بكر لقتال المرتدّين من العرب عن حياة الرسول وأخباره وغزواته ونجاح دعوته وتوحيده الجزيرة العربية في ظل الاسلام وغير ذلك من أخبار صدر الاسلام فيقص الذين وعوا تلك الحوادث أخبارها على سائليهم . فنشأ التاريخ الاسلامي نشأة طبيعية وكانت له فروع متعددة لعل أقدمها وأهمها ما له علاقة بسيرة الرسول الأعظم بجميع نواحيها الدينية والسياسية . وقد سمي هذا الفرع تجاوزا بمغاري الرسول أو بالمغازي فحسب . واقتصرت رواية سيرة الرسول أول الامر على الرواية الشفهية . وكان رواة السيرة يسردون أخبارها كالحديث بذكر السند ، الرواة أو

الراوي ، الذي نقلوها عنه • لكن بعض رواة السيرة لم يلبثوا ان اهتموا بتدوين أخبارها • وكان رائد تدوين أخبار السيرة أبان ابن الخليفة الثاني عثمان بن عفان ثمت طبع آخرون على غراره ونسجوا على منواله الى ان ظهر في نهاية القرن الاول ومطلع الثاني عميد مؤرخي السيرة محمد بن اسحاق •

تحدث الاستاذ مصطفى السقا في مقدمته على كتاب « المغازي الأولى ومؤلفوها للمستشرق الالماني يوسف هوروفيتس Josef Horovitz [1] عن نشأة السيرة وروّاد التأليف فيها •

كما ظهرت بعد هذا الفرع الرئيسي فروع أخرى للتاريخ اهتمت بدراسة الطبقات ، من محدّثين وصحابة وفقهاء وشعراء وأطباء والخ ••، والفتوح • كما اهتمت طائفة من المؤرخين بتدوين تواريخ الأقاليم والأمصار الاسلامية وهم مؤرخو البلدان • وثمة كذلك مؤرخو التراجم الذين اهتموا بتدوين حياة الأعلام في نواح مختلفة • وهناك أخيراً أصحاب التواريخ العامة وعميدهم محمد بن جرير الطبري • وقبل أن نسترسل في الحديث عن هذه الفروع وأعلامها نرى لزاما علينا أن نذكر أسباب تأخر حركة تدوين التاريخ الى صدر الدولة العباسية • لأن من الثابت أو أول كتب المغازي أو السيرة التي بقيت بعد تشذيبها الى أيامنا هذه ، وهي سيرة محمد بن اسحاق ، قد وضع بناء على تكليف الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور (١٣٦ـ١٥٨ هـ) لمؤلفه بوضع كتاب في التاريخ لولي عهده المهدي منذ خلق الله آدم عليه السلام الى زمنه • وقد وجد العلماء أن من بين أسباب هذا التأخير : ١ ـ انتشار استخدام الورق وصناعته فكان المسلمون قد حصلوا على هذه المادة الأولية الضرورية من بلدان الشرق الأوسط فأخذوا يستعملونها منذ

---

(١) يوسف هوروفيتس ، المرجع المذكور ، المقدمة ، ص هـ و .

النوبة والسواحل الشرقية لافريقية جنوبا ، وتأسيس امبراطورية عربية اسلامية كبرى ساوت رقعتها رقعة أكبر امبراطوريتين عرفتهما الانسانية في عصورها القديمة ، وهما امبراطورية الاسكندر المكدوني والامبراطورية الرومانية ، مع فارق جوهري في كيان رعايا هذه الامبراطورية الجديدة عن كيان سابقيهم رعايا المكدونيين والرومان من حيث أن جميع الأفراد المواطنين في امبراطورية الاسلام اخوة متساوون شريطة اعتناقهم الاسلام .

ولم تخف هذه الصفة البارزة في تاريخنا عن علماء الغرب . وقد اعترف بها منصفوهم كالمستشرق البريطاني مرغليوث D. s. Margoliouth الذي تحدث عنها [1] قائلا : « حقاً يضم الأدب الاغريقي نظراء ــ ربما ــ لجميع فروع التاريخ التي عددناها . فكان لدى الاغريق التواريخ العامة ، وتواريخ الأقطار والمدن وتراجم الاشخاص والطبقات ، والمنتجات والسجلات ، التي تشبه في خصائصها ما تطور عنه الأدب العربي . وبرغم ذلك يبدو أنه لا يوجد أثر لأي ترجمة من مؤرخ اغريقي الى اللغة العربية : ولم يفهم المفهرسون العرب تلك التواريخ التي تعد في أوربا نماذج الكتابة التاريخية . بل يبدو أنهم أهملوا أيضا المؤرخين السريانيين ، الذي كانت آثارهم تثير اهتمام أولئك المشتغلين بالدراسات القديمة . ربما أفادوا من المؤرخين الفرس ، مثل أولئك الذين يبدو أنهم وجدوا في العهود المسيحية ، ولكن هذه الافادة لا تتضح في العصور السابقة على ذلك ويظهر أن التاريخ العربي مستقل عن هذه الكتب وقد نما أمام أعيننا وليس هو استمرار للتواريخ القديمة لأسباب ستشغلنا بعد ، وانما هو نمو طبيعي ، جاءت به الى الوجود حاجات المجتمع وتتجلى فيه خصائص خاصة به » .

---

(١) مرغليوث ، المرجع المذكور . ص ٢٣ ــ ٢٥

٢ ــ **توجيه معظم المؤرخين منذ القرن الثاني للهجرة عنايتهم الكلية الى التاريخ العربي منذ ظهور الاسلام** ــ ولم ينل تاريخ العرب قبل الاسلام حظاً وفيراً من العناية في تآليف أعلام مؤرخينا • ويبدو أن اهمال مؤرخينا لتاريخ العرب في جاهليتهم من حيث أنهم لم يولوه العناية الكافية راجع الى عدة أسباب سنوجزها فيما يلي :

آ : ــ **صعوبة معالجة مواضيع تاريخ العرب في الجاهلية** : اذ لم تتوفر لديهم المادة الكافية التي تمكّن من افراد كتب تاريخية خاصة ببحث تاريخ العرب في الجاهلية • وهكذا لاحظنا أنه ندر أن انصرف أحد مؤرخينا الى التأليف في موضوع تاريخنا الجاهلي فحسب ، بل اقتصر الأمر على جمع المؤرخين أخبار العرب في جاهليتهم في مقدمات استهلوا بها تآليفهم عن تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام • هذا في حالة مؤرخينا المسلمين غير العرب •

لا بل فان مؤرخينا العرب الذين اعتنقوا الاسلام ، لنشر أننا نعني بهؤلاء المؤرخين من وضعوا تآليف تاريخية سواء أبقيت الى أيامنا هذه أم عفّى عليها الزمن وفقدت ، واعتبروا من أقطاب حركة التأليف التاريخي في القرنين الثالث والرابع ، كأبي الفرج الأصبهاني والمسعودي والهمذاني ، لاحظوا أن تاريخ أمتنا في الجاهلية لا تسوده الوحدة انما هو تاريخ قبليّ ، أو كان على الأقل مقسماً الى قسمين : يتعلق أولهما بتاريخ عرب الجنوب ، الذي جمع الأخباريون اليمنيون السابقو الذكر أخباره ورووها بشكل قصص تاريخي ذي أسلوب قريب من الأساطير بينما يتناول ثانيهما أخبار عرب الشمال • وكان العداء مستحكما بين هذين القسمين من العرب وكان أخباريو كل منهما يتعصّبون لقومهم • فالاسلام بمحاربته العصبية القبلية (ليس منا من دعا الى عصبية) وباحلاله وحدة الصف والاخاء مكانها صرف المؤرخين المسلمين العرب

وغير العرب عن توجيه قسط كبير من عنايتهم الى التاريخ الجاهلي صارفين جهودهم الى العناية بتاريخ أمتنا منذ ظهور الاسلام ، لا سيما وفيه مادة غزيرة حاسمة ودسمة وأنه طافح بالأمجاد وأنه في هذه الناحية ملبٍّ للرغبة الأكيدة التي يشعر بها كل مؤرخ في اظهار مآثر قومه ومفاخرهم .

ب ـ ادراك المؤرخين العرب أن تاريخهم دخل منذ ولادة الرسول (ص) في مرحلة حاسمة تستحق ان تتخذ منطلقا لبحوثهم ـ شعر المؤرخون العرب بصورة عميقة وواضحة بكل الفوائد التي أفادها الاسلام والقومية العربية من بعضهما وذلك بفضل تآزرهما وتساندهما وخدمة كل منهما الأهداف السامية التي كانت لأخيه . لقد أدركوا تلك الفوائد المتبادلة التي جناها الاسلام والعروبة من تعاونهما ولعل أهم هذه الفوائد أنه لئن أعزَّ الاسلام العرب ، وأخرجهم من الظلمات الى النور ، وهداهم بهديه ، واعترف بهم خير أمة أخرجت للناس ما تمسكوا بأوامره وتجنبوا نواهيه ، ولئن وحّدهم في جزيرتهم وحرّر قبائل اخوتهم في اليمن والشام والعراق ومصر من نير الاستعمارين البيزنطي والساساني ، ولئن قضى على خلافاتهم وجعلهم بنعمة الله اخوة متساوين ، فان العرب بمقابل ذلك أسهموا في نشر هذا الدين الجديد فكانوا جنود دعوته وقد تفانوا في نشرها بحماس منقطع النظير في مشارق الأرض ومغاربها ووطّدوا دعائم حكم الاسلام ، الذي غدا منذ هجرة الرسول (ص) الى المدينة دينا ودولة ، في البقاع التي وصلتها جحافلهم . ومن المحتمل أنه لولا العرب لم ينتشر الاسلام في الهند ومشارف الصين وجنوب شرقي آسيا وايران والتركستان والقوقاز وغربي أوربا وفي شمال أفريقيا بنفس السرعة ، ولكان ممكنا أن يقتصر انتشار هذا الدين السماوي الجديد على مهده في الجزيرة العربية فحسب ، ولما تمَّ انتشاره في المناطق الآنفة الذكر في فترة لم تزد على القرن فحسب .

ج ــ ان جمهرة أعلام مؤرخينا منذ القرن الثاني كانوا من طبقةالموالي ــ بمعنى أنهم ليسوا عربا بأصلهم انما استعربوا بالولاء ، وبدخول بلادهم الأصلية تحت الحكم العربي الاسلامي ،وباعتناقهم الاسلام . وبتعلمهم اللغة العربية . ولم يكن ثمة رباط قوي يشدُّ هؤلاء المؤرخين الى التاريخ العربي سوى الاسلام . وهكذا وجدناهم يكتفون بالتأليف في تاريخنا العربي منذ الاسلام . خاصة وقد غدا باستعرابهم تاريخهم من حيث أن الاسلام دينهم الجديد ساواهم بالعرب ، (لا فضل لعربيعلى عجمي الا بالتقوى) .

د ــ ان النشأة الدينية لطائفة كبيرة من مؤرخينا المسلمين ، جعلت هؤلاء يشعرون أن اهتمامهم بتاريخ العرب منذ الاسلام هو تلبية لشعورهم الديني العميق ومتمم للعلوم الدينية التي مهروا فيها : فقد كانت الغالبية العظمى من مؤرخينا علماء في شؤون الدين . فمنهم القضاة ، ومنهم المفتون ومنهم الفقهاء ، ومنهم المحدِّثون ، ومنهم المفسِّرون ، ومنهم واضعو بعض المذاهب الاسلامية . فبحكم طول باع كل هؤلاء في شؤون الدين اكتفوا بأن يكون اهتمامهم بتاريخ العرب منذ ظهور الاسلام بينهم . لا سيما وقد توفرت للمفسِّرين وللمحدِّثينوالفقهاءمنهم مادة تاريخية دسمة أثناء تعمقهم في دراسات الفقه وتفسير القرآن والحديث ، فأفادوا من هذه المادة بوضع تآليفهم التاريخية . أضف الى ذلك أن الكثيرين منهم صاروا يعتقدون أنهم سينالون المثوبة من الله تعالى جزاء اهتمامهم بالتاريخ .

تعرض الاستاذ محمد عبد الغني حسن[1] لهذه الناحية فقال : « كان الغرض الأول من تدوين العلوم في الاسلام هو حفظ الشريعة . فكل علم يخدم ذلك الغرض فهو واجب الدراسة ، حتى يكون الاشتغال

---

(١) محمد عبد الغني حسن : علم التاريخ عند العرب : ص ١٦ ــ ١٩ .

به وسيلة الى مقصد سام ومن هنا كان الاشتغال بعلم المغازي والسِّير مكملا لعلم الفقهاء ...

« وكان علم الطبقات وتراجم الرجال ــ وهو من ضرورات المؤرخ موضع العناية عند المشتغلين بعلوم الفقه والتشريع .

« ولم نذهب بعيدا ، وقد جمع كثير من فقهاء المسلمين وأئمتهم بين الفقه والتاريخ . ونستطيع أن نعدّ من هؤلاء : الامام الطبري ، فقد جمع بين المفسر والمؤرخ ، ولا يزال كتاباه في التفسير والتاريخ من أوثق مصادرنا وأقدمها في هذين الفنّين . ومنهم ابن كثير الدمشقي ، ...

« ومن هؤلاء الأئمة كذلك الحافظ الذهبي المؤرخ من رجال القرن الثامن الهجري فقد كان فقيها ، وحافظا ومؤرخا ... ، وممن اشتهر كذلك بالجمع بين الفقه وحفظ الحديث والاشتغال بالتاريخ ، الحافظ المؤرخ شمس الدين السخاوي المتوفي سنة ٩٠٢ هـ ، ...

« وقد كان الحافظ المؤرخ السخاوي شديد الايمان بعلم التاريخ وضرورته وأهميته لعلم الشريعة حتى لا يكاد هذا يستغني عنه . وفي مقدمته لكتابه المشهور : « التبر المسبوك » يشير الى ذلك قائلا : « علم التاريخ فن من فنون الحديث النبوي ، وزين تقرّ به العيون ، حيث سلك فيه المنهج القويم المستوي ، بل وقعه من الدين عظيم ، ونفعه يتعين في الشرع .

« ونرى أكثر علماء التاريخ المسلمين يرون ضرورة الاشتغال به ، لا كعلم في ذاته ، ولا لاكتساب براعة في معرفة القصص والأخبار ، بل لخدمة الغرض الديني ، وحتى يكون علم التاريخ مطيّة لفهم الفقه والشريعة على أكمل وجوههما . فهو من هذه الناحية « أداة » لخدمة الدين ووسيلة اليه .. » .

٢ ـ قلَّ أن كان مؤرخونا رسميّين سخَّروا أقلامهم لتدوين ما يحملهم الأمراء والدول على تدوينه ـ لم تكن الغالبية العظمى من مؤرخينا من المؤرخين الرسميين الذين دوّنوا التاريخ بناء على ايعاز من خليفة أو أمير مما جعل لتآليفهم قيمة علمية . فمهما تأثر بعضهم فيما كتبه ببيئته وبعقيدته المذهبية وبنزعته السياسية فان من المؤكد أن حظ جمهرة مؤرخينا من التجرد والنزاهة لايجحد .

انه لمن الثابت أن بعض خلفائنا وأمرائنا شجّعوا المؤرخين وبذلوا لهم نوالهم ليضعوا لهم كتبا في التاريخ لكن من الغني عن البيان أن قيمة كتب التاريخ التي توضع بناء على طلب خليفة أو أمير مشكوك فيها الا ان كان المؤرخ قوي الشخصية لا يتقيد فيما يكتبه بالتوجيهات التي يرسمها له الخليفة أو الأمير . ولم يكن مؤرخو هذه الفئة يحظون بتقدير النّقدة . وعلى الرغم مما لكتب المؤرخين الرسميين من القيمة العلمية لكنها تعتبر على العموم فقيرة ولا تبعث الثقة في نفوس القرّاء وذلك لاقتصادر مادتها على ما يرغب الحاكم في تدوينه .

ويجب ألا تفوتنا الاشارة ونحن في معرض الحديث عن هذه الكتب أن مؤلفيها كانوا يدركون وزر عملهم ويعترفون أن مادة كتبهم هي كما اعترف به أحد هؤلاء المؤرخين الرسميين ، وهو ابراهيم الصابىء ، أثناء تأليفه التاريخ الرسمي لبني بويه من قبل عضد الدولة لأحد زواره الذي سأله عما يفعل فأجابه : « أباطيل أُنمّقها وأكاذيب أُلفّقها » .

وعلى الرغم من هذه النقيصة في كتب المؤرخين الرسميين فلا يسعنا سوى الاعتراف أنه لم يكن بوسع المؤرخين الذين كُلّفوا من قبل بعض الخلفاء أو الأمراء بوضع كتب في التاريخ لهم أن يعصوا أوامرهم لاسيما ان كان المكلّفون معروفين بالشدة والقسوة . فكيف يكون بوسع محمد بن اسحاق أن يرفض ما أمره به أبو جعفر المنصور من وضع

كتاب في التاريخ لولي عهده ابنه المهدي دون أن يتعرض لنقمة هذا الخليفة ؟ أو كيف يكون بوسع مؤرخ كابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ ﻫ ، ألا يطيع أكبر زعماء اليمن وهو خالد بن عبد الله القسري، الذي كان كثيرون من خلفاء الأمويين يرهبون جانبه ، عندما طلب من هذا المؤرخ ألا يذكر شيئاً من سيرة علي بن ابي طالب الا ما يمكّن من تنقّص هذا الخليفة والنيل منه ؟

لكن تبرير رضوخ هؤلاء المؤرخين لرغبات الخلفاء والأمراء في التشفّي من أعدائهم لا يرفع في أعيننا قيمة هــذه الكتب ولا يسمو بمؤلفيها • وبقي رضوخ بعض المؤرخين لرغبة الأمير أو الخليفة المكلّف وصمة عار في جبين هؤلاء المؤرخين الذين انصاعوا لأوامر من كلفوهم • وهذا ماحمل النقدة على النيل من المؤرخين الرسميين مع اعترافهم بسعة اطلاعهم وتبحّرهم في العلم • وقد لاحظنا ذلك في الشهادة التي أدلى بها عالم يقال له مكحول بحق الزهري فقال عنه : « أيُّ الرجــل الزهريُّ لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك » •

وثمة كتب تاريخية كثيرة ألفت بايعاز من أحد الخلفاء أو الأمراء فهناك أولا سيرة ابن اسحاق التي أمر الخليفة العباسي المنصور مؤلفها بكتابتها • وقد أخذ النقاد عليه فيها محاباته للعباسيين عند تعرضه لذكر جدهم العباس بن عبد المطلب واشتراكه الى جانب قريش في غزوة بدر • لطّف ابن اسحاق موقف العباس في هذه الغزوة قائلا انه خرج مع قريش مكرها واحتج بحديث رواه عن ابن عباس عن الرسول (ص) ، أنــه قال : « من لقي العباس بن عبــد المطلب فلا يقتله ، فانمــا خــرج مستكرها » وعلماء الحديث يعتبرون أن هذا الحديث ضعيف •

وهناك كذلك كتاب الأغاني الذي أمر الخليفة المهدي بجمعه ، والرسائل التي أمر الخليفة القادر العباسي بتدوينها عن المذاهب الأربعة •

ومن كتب التاريخ الرسمية كتاب التاجي الذي حمل لقب عضد الدولة من آل بويه وهو تاج الملة • وهناك أيضا كتاب اليميني للعتبي ويتضمن أخبار يمين الدولة في الهند ومن زمرة هذه الكتب كتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي ، وهو من مؤرخي القرن السابع الهجري ، وقد كتبه لأمير الموصل في أيامه عز الدين عيسى بن ابراهيم •

وبجانب هؤلاء المؤرخين المحابين زخر تاريخنا بمؤرخين أباة حرصوا على الامتناع عن التزلف الى ذوي الجاه والسلطان ، كما امتنع بعض مؤرخينا عن قبض صلات الأمراء لئلا تكون لهؤلاء منّة في أعناقهم فيضطروا الى محاباتهم • وقد أوردوا في هذه الزمرة من المؤرخين الأباة ثلاثة هم ابو جعفر الطبري ومسكويه وابو الريحان البيروني • أما الأول فقد عرف أنه كان يعيش من ريع ضيعة خلفها له أبوه في اقليم طبرستان فلم يعرف عنه أنه وقف بأبواب الخلفاء أو الأمراء لا بل كان على العكس من ذلك يردّ نوالهم بأدب جمّ ان حاولوا أن يغدقوا عليه عطاياهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة • وروي أن محمد بن عبد الله الوزير بعث ذات مرة بدرة فيها عشرة آلاف درهم وبعث مع حامل البدرة رقعة كتب فيها للطبري أن يقبل المال وقال للذي حمل البدرة : « ان قبلها والا فسلوه أن يفرقها في أصحابه ممن يستحق » • فلما قابله الرسول وسلمه الرقعة امتنع عن قبول الدراهم ، وعندما قال له الرسول : « فرّقها في أصحابك على من يحتاج اليها ولا تردّها » أجابه الطبري « هو أعرف مني اذا أراد ذلك » • وبلغت عفة نفس هذا المؤرخ أنه كان اذا أهديت اليه هدية فان كانت مما يمكنه المكافأة عليه قبلها وكافأ مهديها والا ردّها واعتذر الى مهديها ، وقصته مع أحد الأعيان من أصدقائه وقد قال له دعنا في الرمّان عندما حاول صديقه أن يهديه شيئاً أكثر من الرمان معروفة •

وعلينا ألا نغفل الاشادة بمآثر مؤرخ ثان هو مسكويه ، صاحب كتاب تجارب الأمم ، الذي على الرغم من أنه عاش في بلاط آل بويه فانه لم يتزلّف الى سلاطينهم ولم يحابهم بل ذكر ما انتبه اليه من نقائص بعض أمرائهم . وقد أعجب المستشرق مرغليوث بموقف هذا المؤرخ وقرّظه بقوله [1] « وقد كتب المؤرخون في أغلب الأحيان لتعليم مواطنيهم ، وبرغم تأثرهم أحيانا بهوى ديني أو وطني ، يعتبر حيادهم العام سمة مدهشة في كتبهم . ولا نستطيع أن نجد مثالا لهذا أحسن من تاريخ مسكويه . فقد كان حياته كلها في خدمة وزراء السلاطين البويهيين : المهلبي وزير معز الدولة وابن العميد وزير ركن الدولة ، ثم في خدمة عضد الدولة نفسه وابنه بهاء الدولة مباشرة : وربما كنا نتوقع منه أن يكبح جماح نقده لأفعال هؤلاء السلاطين ، مادام شرف العائلة كان يرتكز على أعمال أوائلها ، بالرغم من المعارك العنيفة التي نشبت في الجيل الثاني. ولكن ليس من أثر لمثل هذا التحيّز في كتابه مسكويه . والأشخاص الذين منحهم مدائحه التي ربما كانت تميل الى المبالغة هم الوزيران المهلبي وابن العميد ، اللذان كانا قد ماتا منذ زمن طويل حين أظهر كتابه ، وروبت أخبار مؤسس دولة البويهيين دون أية محاولة لاخفاء جرائمهم ، ووصمهم باتّهام فظيع في حالة معز الدولة . وكان تقديره لعضد الدولة له ما يبرره : فهو يلفت الأنظار الى محاسن ادارته ، التي يظن أنها ترجع الى تعليم ابن العميد الأول ، ويؤمل أن تتكافأ الخدمات التي أداها للدولة مع الجرائم التي ارتكبها . ونسب الى ركن الدولة فضائل معينة ، يبدو أن هذا السلطان كان يتحلى بها ولكنه اتهم ركن الدولة بالتضحية بشؤون رعاياه في سبيل شعور أحمق (كيشوتي) بالاخلاص لأصدقائه . وجعل

---

(1) مرغليوث ، المرجع المذكور ، ص ٢٦ — ٢٧ .

من أبي الهيجاء ما يشبه البطل ، وهو من بني حمدان الذين كانوا على عداء دائم للبويهيين ... » .

أما أبو الريحان البيروني ، وهو من علماء ومؤرخي القرنين الرابع والخامس ٣٥١ - ٤٤٠ هـ ، فقد روي في دائرة المعارف الاسلامية أنه أهدى كتابه في الفلك واسمه القانون المسعودي الى السلطان مسعود ابن محمود بن سبكتكين فأراد السلطان أن يكافئه على عمله فحمل اليه ثلاثة أجمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة فردها أبو الريحان اليه قائلا : أنه انما يخدم العلم للعلم .

٤ - استعمال التقويم الهجري منذ أيام عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ . والدقة في تسجيل الحوادث التاريخية وتحديد الفترات الزمنية التي وقعت فيها - رأينا من قبل أنه لم يكن للعرب قبل الاسلام تقويم تاريخي ثابت . وكان عرب اليمن يؤرخون بالأحداث الجسام التي كانت بلادهم مسرحا لها أو بمدة حكم بعض ملوكهم الهامين . واستمرت الحال على هذا المنوال الى الاتفاق على تاريخ موحّد لدى تأسيس الدولة الحميرية الأولى سنة ١١٥ ق.م. أما عرب الشمال فقد أرّخوا منذ ولادة الرسول (ص) بعام الفيل (٥٧١ م) . وذكر بعضهم أن المسلمين بدؤوا يؤرّخون حوادثهم منذ مقدم الرسول (ص) الى المدينة . بينما أورد آخرون أن المسلمين بدؤوا باستعمال التاريخ في السنة السابعة عشرة للهجرة أي بعد مضي أربع سنين على بداية خلافة عمر بن الخطاب. وقد ذكر السخاوي [1] الروايات التي قيلت بهذا الصدد . أنه نقل أولا ما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أنس قال : « كان التاريخ من مقدم رسول الله (ص) المدينة وكذا قال الأصمعي انما أرخوا من ربيع الأول شهر الهجرة . وروى الحاكم في الاكليل من طريق ابن جريج

---

(١) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٧٨ - ٨٢ .

عن أبي سلمة عن ابن شهاب الزهري أن رسول الله (ص) لما قدم المدينة أمر بالتاريخ فكتب في ربيع الأول . وهذا معضل والمحفوظ كما قال ابن عساكر أن الأمر به في زمن عمر وكذا صححه الجمهور بل هو الصحيح المشهور أنه كان في خلافة عمر وأنه ابتدأه بالهجرة النبوية وبالمحرم منها ... »

ثم اتفق كبار الصحابة على جعل بداية العام الهجري في شهر المحرم وأورد السخاوي حول هذه المسألة ما نصه : « وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة فقد كانت القضايا التي اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربع مولده ومبعثه وهجرته ووفاته فرجح عندهم جعلها من الهجرة لان المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين سنته وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما يوقع تذكره من الأسف عليه فانحصر في الهجرة وانما أخروه من ربيع الأول الى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم اذ البيعة (ويقصد بها بيعة العقبة الثانية) في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ قال شيخنا وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم ... »

ونفى مرغليوث ان تكون كلمة التاريخ بمعنى التوقيت مشتقة من اللغة السريانية من الكلمة التي معناها الشهر . وذكر أنه على الرغم من خلوّ عربية الشمال من هذه الكلمة فانه يوجد لها مثيل في لغة عرب الجنوب فهي مصاغة من « وارخ » التي اشتق منها « توريخ » . ثم استأنف كلامه قائلا [1] : « واذا كانت الكلمة العربية تعني حقا « التوقيت » فكونها وليدة الصيغة العربية القديمة « وارّخ » أرجح من كونها سريانية ، وقلب الواو همزة فليس أمرا شاذا . ولكن قد يظهر

---

(١) مرغليوث ، المرجع المذكور ، ص ٣٠ .

أن الكلمة أجنبية ومعناها « السنين » أو « الحوليات » ·

وعدّ المؤرخون الغربيون أن من مبتكرات المؤرخين العرب تأريخ الأحداث وتحديدها بالسنة والشهر وذلك نشدانا للصحة في تسجيل الحوادث على حين لم يعرف مؤرخو أوربا ذلك كما صرّح بذلك بكل Buckle الا في نهاية القرن السادس عشر الميلادي في ١٥٩٧ م فحسب· وكان روّاد ذلك المؤرخ الهيثم بن عديّ وهو من مؤرخي القرن الثاني للهجرة الذي وضع تاريخا مرتبا حسب السنين ، وقد تحدث مرغليوث عن ذلك [١] ·

ثم قارن هذا المستشرق التقويم الهجري بغيره من التقاويم فقال[٢]: « ومن الطبيعي أن لم يحتفظ المؤرخون الاغريق ولا الرومانيون ، ولا كتّاب الانجيل بالتواريخ احتفاظا واضحا : وكان لدى الرومانيين تقويم ثابت أقل فسادا من نظام الاغريق · ومن الواضح أن التقويم الاسلامي ، وان كان لا يفي بأغراض الادارة ، وكان وحده الذي تناسب مع تسجيل الأحداث ··· »

٥ ـ حرص المؤرخين العرب على ذكر المصادر التي استقوا منها الأخبار التي يوردونها وهذا هو استعمال الأسانيد : ـ

مضى مؤرخونا على سنن المحدّثين في ايثارهم الرواية المنقولة بالسماع على الرواية المدونة في الصحف · ولم يعتمد المؤرّخون سوى الروايات المنقولة بواسطة رواة صادقين على اعتبار أن الصادق لا يقول الا صدقا· وللوثوق من أمانة الرواة لجؤوا الى نفس الوسائل التي لجأ اليها علماء الحديث في تجريح وتعديل رواة أحاديث الرسول · وصار المؤرخون

---

(١) مرغليوث : المرجع المذكور ، ص ٢٩ ·

(٢) المصدر عينه : ص ٣٠ ·

يثبتون أسماء الرواة المتسلسلين الذين نقلوا عنهم الخبر • وكما في علم الحديث دعي هذا الثبت المتضمن أسماء رواة الخبر حتى الراوي الاول بالسند • وقد يثبت المؤرخون أسانيدهم كاملة بذكرهم أسماء رواة الأخبار التي ينقلونها فيكون سندهم مرسلا ، كما يجوز لهم ألا يوردوا سوى اسم آخر راوٍ للخبر الذي أوردوه فيكون سندهم مقطوعا • وتقابل طريقة اثبات السند في صدر كل رواية ما يطلب من مؤرخي العصر الحديث من ذكر للمصادر التي نقلوا عنها مادة كتبهم التاريخية • لذلك يرى العلماء أن طريقة مؤرخينا العرب في ذكر الأسانيد أوفى للأمانة خاصة ولم يكن مؤرخونا يعتمدون سوى الرواة الموثوقين الذين لا يخامر أحدا شك في أمانتهم • فان عرف أحدهم بالكذب أو التملّق أو المحاباة والمدالسة لم يكن المؤرخون يثقون بروايته ويتجنبون ايراد الأخبار المنقولة بطريقه •

لم يجد مؤرخونا الأوائل صعوبة في الأخذ بطريقة ايراد الأسانيد قبل رواية الحادث ار يخي حيث كانوا ألفوا هذه الطريقة لأن معظمهم كانوا محدّثين في الأصل فابن اسحاق والواقدي وابن سعد وغيرهم كانوا من علماء الحديث قبل أن يصيروا مؤرخين ، لا بل فان فرع التاريخ الذي بدؤوا بالتأليف فيه هو المغازي (سيرة الرسول) الوثيق الصلة بعلم الحديث ، لذلك كان الأخباري ، وهو اللقب الذي صار من بعد يطلق على المؤرخ ، أول الأمر ، أي طيلة القرن الأول الهجري وفي صدر القرن الثاني ، يتمتع بنفس المنزلة الاجتماعية التي يتمتع بها المحدث نفسه • ثمت تدنت منزلة الأخباري عن زميله المحدث منذ أن طرق مواضيع لاتمت لسيرة الرسول بصلة •

تحدث المستشرق مرغليوث عن انفصال التاريخ عن علم الحديث وعن تدنيٍّ منزلة المؤرخ في المجتمع عن منزلة المحدّث وعن اتباع

المؤرخين طريقة ايراد الأسانيد فقال [1] : « ... كذلك تفرعت دراسة التاريخ بالطريقة نفسها من دراسة الحديث : فقد كان دارسو الفرعية أولاهم هم (وردت هكذا في النص ويرجح أن صوابه الفرعين عوضا عن الفرعية) : ثم صار التاريخ فرعا متميزا تدريجيا ، وصار الأخباري شخصا غير المحدّث ، ونضيف الى ذلك أنه كان أقل منه مرتبة . وبرغم ذلك استمرت فكرة وجوب تتبع كل رواية ، كي تكون جديرة بالثقة ، في مجموعة معروفة من الرواة الى مصدرها سائدة على التأليف التاريخي حتى عصر متأخر ... »

ونالت طريقة اثبات الأسانيد والوثوق من رواة الأخبار اعجاب وتقدير مؤرخي الغرب المنصفين . وعلى الرغم من اعتراف هؤلاء المؤرخين بثلمات ونقائص هذه الطريقة فانهم أقروا بأن مؤرخينا العرب بذّوا مؤرخي جميع الأمم القديمة في توخّيهم الصدق فيما يثبتونه في كتبهم وأن كتبهم وصلت الى مرتبة سامية من الصحة . وهذا ما أورده المستشرق نفسه بهذا الصدد [2] : « ... ولكن بالرغم من أن نظرية الاسناد سببت متاعب لا نهاية لها أحيانا ، بسبب الأبحاث التي ينبغي القيام بها لتوثيق كل راوٍ ، والفهم وضع الأحاديث ، وتقليدها أحيانا في سهولة ، لا يمكن الشك في قيمتها في ضمان الصحة ، والمسلمون على حق في فخرهم بعلم الحديث وفي السجلات القديمة الأخرى ، (أي في كتب التاريخ القديمة غير العربية) نضطر الى الأخذ بما يروى لنا على مسؤولية المؤلف : فمن النادر أن يخبرنا المؤرخ الاغريقي أو الروماني بمصدر معلوماته ، وقد أكثر البحاثة الألمان خاصة من الكتابة عن « نقد المراجع » ، محاولين تتبع روايات الكـتّاب الانجيليين وغيرهم

---

(١) مرغليوث : المرجع المذكور ، ص ٣١ .

(٢) مرغليوث : المرجع المذكور ، ص ـ ٣١ ـ ٣٣ .

الى المصادر التي حصلوا على موادهم منها وحيثما لا توجد هذه المواد لا تعطينا هذه المحاولات في أحسن حالاتها الا فروضا ترجيحية • أما في آثار الطبري ، والبلاذري ، والتنوخي ، فيوفر علينا الكتّاب أنفسهم هذا الجهد • أما هؤلاء المهتمون بالأخبار أكثر من اهتمامهم بمصادرها فيغفلون عادة الاسناد •

« ونعترف بأن عدة أسباب اجتمعت لعرقلة جهود هؤلاء الذين حاولوا أن يضمنوا الصحة عن هذا الطريق • وأولها عدم جدارة الذاكرة البشرية بالثقة ، ونجد أمثلة ذلك حتى بين من اشتهروا بقوة حافظتهم • وثانيا الصعوبة التي واجهها كثيرون في ملاحظة الحقائق وبنات الخيال ملاحظة دقيقة ، والتمييز بينها ••• وثالثا أثرت الفكرة التي تمسكوا بها وتذهب الى وقوع شيء ما فعلا لأن الراوي ذهب الى وقوعه ، أثرت تلك الفكرة في صدق كثير من سجلات الأحداث • وغالبا ما تبنى اعادة بناء التاريخ القديم ، حتى في أيامنا وفي أوربا الناقدة ، على هذا الأساس • ورابعا وجد بين المحدّثين الذين لا يحصى عددهم جماعة من الأشخاص المستهترين ، الذين شوهوا أو كذبوا عمدا • وبرغم ذلك كله ، تبلغ صحة أشهر المؤرخين العرب مرتبة سامية ، وتجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية » •

أسباب تدوين التاريخ منذ ظهور الاسلام ــ اهتم المسلمون غداة استقرار دولتهم بعيد انتهاء موجتي الفتوحات العربية الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين باستقصاء أخبار الفتوح وتدوين حوادثها فنشأ التاريخ العربي الاسلامي نشأة طبيعية كانت بصورة أكيدة استجابة لحاجة المجتمع العربي الاسلامي • وقد تمّ تدوين تاريخنا بنتيجة ظهور عوامل أو أسباب حفزت على تدوينه : كالاهتمام بالوقوف على أسباب التنزيل ، ورواية الحديث ، والوقوف على أخبار الفتوحات التي أنجزت في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين والأمويين

والعباسيين ، ولبحث علائق العرب السياسية بمن جاورهم من الأمم ولمعرفة أخبار الفتن الداخلية التي كرثت بلاد المسلمين ، وقيام كل من خلافتي الأمويين والعباسيين وبعض الدول الأخرى ، ولدراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية • وزادت المعلومات التي أمكن الحصول عليها في هذه النواحي من ثروة المادة التاريخية بعد الشروع بتدوين التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة • هذا مع استمرار الرواية الشفوية للاخبار ، على النحو المشار اليه آنفا ، سائدة طيلة حقبة من الزمن • أما الأسباب التي زادت في ثراء المادة التاريخية فهي التالية :

١ ــ حرص الأفراد على معرفة تاريخ أمتهم وأمجادها وسير أبطالها والوقوف على أخبارها : ــ وقد اشترك في هذا الحرص بعض سراة العرب وبعض الخلفاء وكنا أشرنا من قبل الى تعلق معاوية ابن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية بالاستماع كل ليلة الى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة وذلك نشداناً للحصول على العظات والعبر التي تساعده على ادارة دفة الحكم • ولم يقل حرص الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور في هذه الناحية عن حرص معاوية • فكثيراً ما استشار هذا الخليفة أصحاب العقول الراجحة ، من مستشاريه قبل اقدامه على عمل خطير فيروون له بعض القصص التاريخية التي أفادته في تكييف وتحديد موقفه بازاء العقبات الكأداء •

٢ ــ تفسير القرآن ودراسة حديث الرسول (ص) : دفع اهتمام المسلمين بتفسير آي الذكر الحكيم وبدراسة أحاديث الرسول الى الحرص على الوقوف على أسباب التنزيل • ووجد المسلمون في كتابهم الشرائع والأحكام والأخبار فحرصوا على تلاوته ووعي أحكامه التي استلهموا منها قواعد لسلوكهم الدنيوي • كما أعدهم القرآن للحياة الأخرى ، ووجدوا فيها الاحكام التي تساند السلطة وتشد

أزر الخلافة • ولما استعصى عليهم فهم بعض أحكامه لجؤوا الى أحاديث الرسول يستوضحونها ما غمض وأشكل عليهم • وكنا ذكرنا من قبل استعانة المسلمين ببعض أحبار اليهود والنصارى على فهم ما ورد في آي الذكر الحكيم من اشارات الى الأمم السابقة ، والعرب البائدة ، والأنبياء السابقين فشرح هؤلاء الأحبار الذين أسلموا تلك الاشارات وفق ما وردت في التوراة والتلمود • ثم ضم المسلمون هذه الشروح الى التفسير والتاريخ ، ودعيت هذه الشروح بالاسرائيليات التي كنا ذكرنا من قبل أن من أهم المشتغلين بها كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وقد تحدثنا عنهما في القسم الاول من هذا الفصل •

وقد أشرنا أعلاه الى لجوء المفسرين عندما كان يشكل عليهم فهم بعض أحكام القرآن الى أحاديث الرسول (ص) لفهم ما التبس عليهم، مما حمل على الاهتمام بجمع الأحاديث ممن سمعها أو رواها عن أحد سامعيها بالاسناد المتسلسل ولملاحظتهم التناقض في بعض الروايات ميزوا بين صحيحها وزائفها فأدى بهم ذلك الى دراسة طبقات المُحدِّثين وتصنيف الأحاديث وتقسيمها الى صحيحة وحسنة وضعيفة • وظهر بذلك كله تأثير شخصية محمد (ص) في التدوين • فلاعتبار العرب محمداً باعث نهضتهم وموحّد كلمتهم كان طبيعياً أن تستقطب حياته جلّ عنايتهم فعنوا بالوقوف على أخباره وجمع أحاديثه • وهكذا فان تفسير القرآن وجمع الحديث كانا عونا على كتابة مغازي الرسول أي سيرته التي يعتبرها العرب قاطبة جزءاً أساسياً من تاريخهم • وبديهي أن تصبح سيرة الرسول أول موضوع للتاريخ العربي الاسلامي في عصر التدوين • ثم تلاها في الأهمية سيرة أصحابه (الصحابة) الذين حاربوا تحت لوائه ، وأبلوا بلاء حسنا في نشر وتوطيد دعوته ، وأزالوا أكأد العقبات من طريقها ، واستشهد الكثيرون منهم في سبيل ذلك •

٣ ـ **النظامـان المالي والقضائي في الاسلام** ـ ساعد النظام المالي ، ديوانا العطاء والخراج ، الذي وضعه عمر بن الخطاب علـى تنشيط الحركة التاريخية ، وذلك لأن تقدير عطاء الجنود كان يتبع سابقتهم في الاسلام • وكان العطاء الذي خُصِّصَ لكل مسلم متناسباً مـع حسن بلائه وذوده عن الاسلام ونشره • هذا فضلاً عن حرص الدولة على معرفة البلاد التي فتحت صلحاً أو تلك التي أخذت عنوةً لما يتبع ذلك من حالات وأوضاع من حيث فرض الجزية وتقدير وتوزيـع الخراج • ومن المؤكد أن الخراج المفروض على البلاد التي فتحهـا المسلمون كان يختلف في أحوال فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد كمـا يتغير مقدار الخراج تبعاً للأحداث السياسية والاجتماعية التي لازمت الفتح • فأدى كل ذلك الى الاهتمام ببحث تاريخ الفتوح فدوّون مؤرخو المسلمون أخبار فتوح البلدان • ولعل أهم نماذج كتب الفتوح عندنا : كتاب فتوح الشام للواقدي المتوفى ٢٠٧ هـ• وكتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح البلدان للبلاذري المتوفى ٢٧٩ هـ •

٤ ـ **تشجيع الخلفاء والأمراء على تـدوين الحوادث التـاريخية :**

شجع كثيرون من خلفاء وأمراء العرب والمسلمين عامة على تـدوين الحوادث التاريخية وكان أسبقهم في هذا المضمار معاوية بن أبي سفيان وأبا جعفر المنصور • وروت المصادر أن أول محاولة لجمع وتـدوين الأخبار المتناثرة التي كان يسردها الرواة الأخباريون قد تمَّت في عهد معاوية ، وان لم يتعدَّ الأمر الرسائل الموجزة • لكن قيمة كتب التاريخ التي توضع بناء على طلب خليفة او أمير مشكوك فيها ، الا ان كان المؤرخ المكلف قوي الشخصية لا يتقيد فيما يكتبه بالتوجيهات التـي يرسمها له الخليفة أو الأمير • ولم يكن مؤرخو هذه الفئة يحظون بتقدير النَّقدة • وقـد تحدثنا من قبـل عن عـدد منهم كمحمد بن شهاب

الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ [١] ، ومحمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥٢هـ، وابن الطقطقي من مؤرخي القرن السابع • كما تحدثنا عن بعض المؤرخين الآخرين الذين رفضوا توجيهات وهبات الأمراء لئلا يسخِّروا أقلامهم لخدمة أغراض وأطماع ذوي الجاه والسلطان ، وان من أهم مؤرخي هذه الفئة الثانية : الطبري وأبا الريحان البيروني ومسكويه •

٥ ــ **النزاع السياسي على اختلاف مظاهره •** ــ لم يعالج بعض مؤرخينا حوادث الانقسام السياسي والفتنة التي ذرَّت قرنها بين صفوف المسلمين وأدت الى مقتل كل من الخليفتين عثمان وعلي ، وانتقال الخلافة الى الأمويين بكثير من النزاهة والتجرد وقد سجل هؤلاء المؤرخون المتحيِّزون حوادث هذه الفترة بوحي من نزعتهم السياسية ، أو بناء على ايعاز من أولياء الأمور الذين كثيرا ما كانوا يوجِّهون هؤلاء المؤرخين ويأمرونهم بالنيل من خصومهم • وكمثال على ذلك نورد ما رواه صاحب الأغاني من حديث دار بين محمد بن شهاب الزهري والزعيم اليمني الذي عاش في خلافة الأمويين وهو خالد بن عبد الله القسري • وكان خالد هذا قد طلب من الزهري أن يكتب له نسب العرب والسيرة • قال هذا الاخير كما نقل صاحب الأغاني : « قال لي خالد بن عبد الله

---

(١) أورد الذهبي (تاريخ الاسلا م وطبقات المشاهير والاعلام : ج ٥ ، ص ١٣٦ ــ ١٥٢) الشيء الكثير عن اخبار الزهري واتصاله بالخلفاء الأمويين ، ولعل رأي الخليفة عمر بن عبد العزيز في هـذا المؤرخ العـالم بالحديث هام جدا (ورد ص ١٤٤) فبسبب اتصاله بالأمويين لم يوثّقه عمر بن عبد العزيز انما شهد بأمانته في الحفظ فقال : « وروى الأوزاعي عن سليمان بن حبيب المحاربي قال : قال لي عمر بن عبد العزيز ما اتاك به الزهري عن غيره فشد يديك به وما اتاك به عن رأيه فانبذه » . راجع كذلك اخبار الزهري في دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد العاشر : ص ٤٥٥ ــ ٤٥٨ . مقال للمستشرق هوروفيتس Horovitz وتعليق أحمد محمد شاكر (ص : ٤٥٨ ــ ٤٥٩) عليه .

القسري : اكتب لي النسب ، فبدأت بنسب مضر (أي عرب الشمال) وما أتممته ، فقال أقطعه قطعه الله مع أصولهم ، واكتب لي السيرة ، فقلت له : فانه يمر بي الشيء من سيرة علي بن أبي طالب فأذكره ؟ فقال : لا ، الا أن تراه في قعر الجحيم » •

لكن المؤرخين أصحاب الميول العلوية لم يقفوا مكتوفي الأيدي بل نالوا من الأمويين بادىء الأمـر ، ثم من العباسيين فيما بعـد ، مظهرين مثالبهم وأنهم مغتصبون لحق آل علي في الخلافة • ومن بين المؤرخين المتعصبين لآل علي : أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيـد بن مخنف بن سليم الأزدي المتوفى سنة ١٥٧ هـ ، وبنتيجة تشيع هذا المؤرخ لم يوثق به ، ومن المتعصبين للعلويين سيف بن عمر الاسدي التميمي المتوفى حوالي ١٧٠ هـ وأبو الفرج الاصبهاني من مؤرخي القرنين الثالث والرابع ، وابن الطقطقي من مؤرخي القرن السابع •

وقد عالج معظم مؤرخينا موضوع الخلاف بين العرب والموالي • ولا سيما من كانوا من الفرس أصلا ، ذلك الخلاف الذي بدأ يتوضّح منذ مصرع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، ملتزمـين الحياد التـام والنزاهة • وأدى هذا الصراع بين الجانبين الى ظهور الحركة الشعوبية التي تفضّل الفرس على العرب وتعتبرهم أعرق حضارة • ولوحظ أن الحركة الشعوبية هذه اعتبرت من قبل الكثيرين كرد فعل لما عاناه الموالي الفرس خاصة من اضطهاد العرب لهم منذ اغتيال أحدهم وهو أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب (وكان العرب يقرون الى خلافة عمر بمـا نص عليه الاسلام من مساواة تامة بين جميع معتنقيه) وبعد قيام دولة الأمويين الذين ساءتهم ملاحظة تعصب الموالي الفرس الذين اعتنقوا الاسلام للعلويين • وهكذا سكت خلفاء بني أمية عن اضطهاد العرب للموالي الفرس • وانبرت طائفة من مؤرخي الشعوبية للتعريض فـي كتبهم بمثالب العرب وبيان فضل العجم عليهم مما عرف بالحركـة

الشعوبية ، وكان أهم مؤرخي هذه الفئة وأشدهم تعصباً على العرب في نهاية القرن الثاني ومطلع الثالث : علاَّن الشعوبي الذي ذكر ابن النديم أنه فارسي الأصل وأنه كان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمنافرات منقطعاً الى البرامكة • وكان عمله النسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة وقد وضع علّان هذا كتاب الميدان في المثالب وهتك فيه العرب وأظهر مثالبها • ومن مؤرخي الشعوبية كذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ ــ ٢٠٩ هـ) وذكروا أن له مائة تصنيف هي عبارة عن رسائل وجد بينها ما له علاقة بتاريخ عرب الشمال قبل الاسلام ، وقد التزم أبو عبيدة جانب الدفاع عن الموالي ، وكان من أصل يهودي فاعتنق الاسلام وغدا من موالي قبيلة تميم ، وعدَّ من أساطين الشعوبية •

٦ ــ **الادب العربي** ــ درج شعراؤنا العرب في الجاهلية على أن يُضَمِّنوا قصائدهم الشيء الكثير من أخبار قبائل العرب ، كما عني بعض شعراء المعلقات بايراد مفاخر قبائلهم وأيامها • وما أكثر أخبار المجتمع الجاهلي في المعلقات •

ولدن اهتمام الرواة بجمع شعر العرب وحكمهم وتدوين معاني كلمات لغتهم انساقوا الى تدوين جميع الأخبار المتعلقة بكل ذلك فأوردوا الروايات التاريخية التي تضمنت تلك الاخبار • وكنا تحدثنا في القسم الاول من هذا الفصل عن ظهور هذا القصص التاريخي على يد بعض الأخباريّين الذين عنوا بالأخبار ذات الطابع التاريخي الصرف• ونحن نضيف الآن أن الرواة الذين اهتموا بارتياد البادية لدراسة اللغة العربية ورواية معظم منثوره ومنظوم شعرائها وخطبائها قدموا للتاريخ فائدة جلى وذلك لما أفاده التاريخ من تلك القصائد والخطب حيث وقف المؤرخون على ما تضمنته من أخبار • وعمّت الفائدة لأن الرواة

جمعوا شتات هذه المجموعة من المواد التاريخية وعنوا بترتيبها وتنسيقها بعد تمييزها بعضها عن بعض •

وأهم الذين أسهموا في زيادة ثروة التاريخ من المشتغلين بشؤون الادب : أبو عبيدة معمر بن المثنى الذي تحدثنا عنه ، وهشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ الذي عني كذلك بجمع الروايات التاريخية من معينها الأصلي ووجه ابن الكلبي عنايته لأخبار مدينة الحيرة وأمرائها • وقد انفرد هذا الأخباري بميزة قل أن سبق اليها في تاريخنا وهي اعتماده على الوثائق المدونة التي حفظها مناذرة الحيرة في بعض أديرتهم • واعتبر العلماء اعتماد ابن الكلبي على هذه الوثائق المدونة خطوة هامة نحو التأليف التاريخي القائم على أساس العلم فذكروا بصدد ذلك ما نصه : « ••• ومع أنه لم ينته الينا من ذلك المصنف (كتاب ابن الكلبي) سوى مقتبسات محدودة العدد فقد أثبتت التحقيقات الحديثة صحة روايته في مجموعه ، ويقال عن هشام أنه نهج هذا النهج في مصنفاته الاخرى باعتماده على الكتابات والمواد المكتوبة التي كانت تحت يده » •

وتظهر لنا الصلة المتينة بين كتب الأدب العربي القديمة والتاريخ على أتم وجه في بعض أمهات كتب الأدب العربي كالأغاني لأبي الفرج الاصبهاني ، وكالعقد الفريد لابن عبد ربه ، وكيتيمة الدهر للثعالبي ، وكالكامل في اللغة للمبرد •

٧ ـ **الرغبة العلمية** ـ أوردنا عند بحثنا لصفات تاريخنا العربي الاسلامي أن الصفة الغالبة على مؤرخينا هي الاستقلال فقل وجود المؤرخين الرسميين بينهم • لذلك كان أكثر مؤرخينا مدفوعين الى تدوين التاريخ تحدوهم غاية علمية نبيلة ، هي نفس الغاية التي تحدث عنها أبو الريحان البيروني بقوله : « انما يخدم العلم للعلم » • وذلك أن

ازدهار كثير من العلوم وتقدمها منذ القرن الثاني شجع الكثيرين من علمائنا على كتابة التاريخ وبذلك كان التاريخ أحد العلوم التي برّز فيها هؤلاء • وكان مؤرخونا بصورة عامة موفوري النزاهة حيـاديين لم يكتبوا التاريخ ارضاء للخلفاء والامراء • وقد حفزهم الى الكتابة ميلهم الى البحوث التاريخية وحرصهم على خدمة المجتمع الاسلامي بصورة عامة • ولم تخف هذه الحقيقة على بعض العلماء ، فلاحظهـا مثلا المستشرق جب Jibb في مقاله في دائرة المعارف الاسلامية والذي كنا أشرنا اليه فقال حول هذه الملاحظة بعـد دراسته لتآليف بعض المؤرخين كأبي حنيفة الدينوري ، واليعقوبي ، وحمزة الاصفهاني ، والمسعودي ما نصه : « ويتضح جليا من مثل هذه المؤلفات أن مـادة عقلية جديدة قد دخلت على التأريخ العربي ، وفي وسعنا أن نقول ان هذه المادة هي الرغبة في المعرفة لذاتها ، ومما له دلالته بأن كتّابا مثل اليعقوبي والمسعودي لم يكونوا مؤرخين فحسب ، بل كانوا مـن الجغرافيين أيضا ، وقد حصّلوا معارفهم الجغرافية من الرحـلات البعيدة بوجه خاص ، ولا مراء في أننا واجدون في هذا التطور أثر ذلك التراث من الثقافة اليونانية التي تغلغلت في جميع مناحي النشاط العقلي في الاسلام خلال القرنين الثاني والثالث • وقد كان لهذه الثقافة أثر أبعد من هذا بقليل في كتابة التأريخ •• » •

التدوين في العصر الاموي • — بدأ تدوين التاريخ في العصـر الاموي بمحاولة بسيطة لجمع وتدوين أخبار العرب فـي جاهليتهم وتدوين أخبار الامم المجاورة • وقد أوردنا من قبل سيرة روّاد هـذا القصص التـاريخي • وفضلا عن أولئك الأخباريين الذين مرت بنـا أسماؤهم فثمة بعض الأخباريين من عرب الشمال الذين عزيت اليهم بعض الكتب • وعلى الرغم من ضياع كتب هؤلاء الأخباريين الشماليين فقد ورد ذكرها في كتب التراجم • ومن بين هؤلاء الروّاد زياد بن أبيه

المتــوفى سنة ٥٣ هـ الــذي أثبت في الفهرست[1] رواية اسحــاق عن الكتاب الذي ألَّفه زياد وقد ورد في هذه الرواية ما نصه : « قرأت بخط أبي الحسن بن الكوفي أول من ألَّف في المثالب (مثالب العرب) كتابا زياد بن أبيه فانه لما ظفر عليه وعلى نسبه عمل ذلك ودفعه الى ولده وقال استظهروا به على العرب فانهم يكفّون عنكم » •

ومنهم أيضا دغفل النسّابة واسمه الحجر بن الحارث الكنــاني وقالوا ان لدغفل هــذا كتاب التظافر والتناصر وعدّوه كتاب أسمار شائقة وأحاديث طلية •

ومن هؤلاء الروّاد المحدّث والمفسّر عبد الله بن عبــاس المتوفى حوالي سنة ٧٠ هـ ، ورووا أنه كان واسع الاطلاع على الشعر والأنساب وأيام العرب • وقد ذكر ابن سعد في طبقاته[2] رواية عن ابن جريج ورد فيها : « قال عطاء كان ناس يأتون ابن عباس للشعر وناس للأنساب وناس لأيام العرب ووقائعها ، فما منهم من صنف الا يقبل عليــه بما يشاء » • كما ذكر ابن سعد[3] عن شيخه الواقدي رواية عن جــده عبيد الله بن عباس قالت فيها : « رأيت عبد الله بن عباس معه ألواح يكتب عليها عن أبي رافع شيئا من فعل رسول الله (ص) » • وأورد ابن سعد أيضا رواية عن موسى بن عقبة أن كريب بن أبي مسلم مولى عبد الله بن عباس وضع عنده حمل بعير من كتب ابن عباس •

فهذه المحاولة الأولى لتدوين التــاريخ في منتصف القرن الأول كانت ساذجة لم تتضح لنا فيها شخصية المؤلف الذي اقتصر عمله على

---

(١) ابن النديم ؛ المرجع المذكور ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن سعد ؛ المرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣) المصدر عينه ؛ ج ٢ ، ص ٣٧١ .

الجمع فحسب ، هـذا فضلا عن أن ما دوّن في العصر الأموي ضاع معظمه .

تابع تدوين التاريخ تطوره قدما خاصة بعد اعتناق كثيرين من الروم والفرس الاسلام فنهضوا بقسم كبير من هذا العبء . وقـد تحدث المرحوم الاستاذ أحمد أمين عن كتابة التاريخ في العصر الأموي بقوله ما يلي : « ... التدوين لم ينشأ في العصر العباسي كما يزعم بعضهم ، ولكنه كان قبل ذلك ، ويظهر مما عثرنا عليه أن التدوين بدأ بتقييد العلم من غير أن تظهر فيه للمؤلف شخصية ما ، وليس له الا الجمـع ، وكانت الكتب عبارة عن صحف يكتب عليها وقد تكون صحفا مفرقة مبعثرة ، فلما دخل الفرس والروم في الاسلام ، وكانوا ذوي حضارة قديمة وكتب مؤلفة من قبل ، أدخلوا على اللغة العربية بعد أن تعلموها نظام تأليف الكتب بالمعنى الذي نفهمه الآن من جمع ما يتعلق بالموضوع الواحد في كتاب واحد .

« ولكن ما كتب في عصر الأمويين لم يصل الى أيدينا منه الا القليل، وأغلب هذه الكتب أخذت عن العلماء من طريق الرواية ، وأدمجت في كتب العباسيين التي كانت أتمّ نظاما ، وأرقى في فن التأليف ، وبعض هـذه الكتب الأموية موجودة في العصر العباسي وما بعده ، فابن النـديم يقول انه رأى صفحات أبي الأسود الدؤلي في النحو ، وأنه رأى كتاب عبيد بن شرية في الأمثال ، وابن خلكان يقول انه رأى كتاب وهب بن منبه في تاريخ اليمن ، ولكن في عهدنا هذا لم يصلنا شيء يصح أن يوثق به الا قليلا » .

ولم تعتّم هذه المحاولة الساذجة للتأليف التاريخي باللغة العـربية أن أفسحت المجال الى محاولة ثانية أو مرحلة ثانية اتصف التأليف فيها بأنه تأليف علمي تناول دراسة سيرة الرسول (ص) ومغازيه .

١ ـ **السيرة والمغازي** : ــ أدى الاهتمام بجمع أحاديث الرسول(ص) منذ نهاية القرن الاول للهجرة الى توفر مادة تاريخية غنية جدا تتعلق بسيرة الرسول والغزوات التي اشترك فيها والسرايا التي بعث بها ، وقد استخلص بعض الذين عنوا بجمع هذه الأحاديث تاريخ الرسول منذ ولادته حتى انتقاله الى الرفيق الأعلى من تلك الأحاديث التاريخية التي رويت عن الرسول (ص) في بعض المناسبات • وذلك لانه عليه السلام كثيرا ما أشار في أحاديثه الى ولادته وطفولته ونشأته والى الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية في مكة وسواها من مـدن العرب • هـذا فضلا عمـا أورده الرسول باسهـاب في أحاديثه عن بعثته ومقاومة قريش الشديدة لها وهجرتي المسلمين الى الحبشة ويثرب ومغازيه وانتشار الاسلام في جزيرة العرب وغير ذلك من الاخبار التي تناولت جميع نواحي حياته منذ ولادته الى وفاته • ولم يجد من حاولوا استخلاص تاريخ أو سيرة الرسول من أحاديثه كبير عناء في تقسيم سيرة الرسول الى مراحل ثلاث صنفوا في أولاها جميع الأحاديث التي تعرضت لحياته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته الى مبعثه • وجعلوا في الثانية الأخبـار ، المستقاة من الأحاديث ، المتعلقة بحياة الرسول في مكة بين بعثته وهجرته الى يثرب بعد أن يئس من استجابة قريش لدعوته وبعد أن أمعن رؤساء قريش في اضطهاد المستضعفين من المسلمين ونكّلوا بهم نكالاً أليماً • أما المرحلة الثالثة فقد اقتصرت الأحاديث التي جمعت فيها على أخبار حياة الرسول منذ هجرته الى يثرب واستقراره فيها وتأسيسه للدولة العربية الاسلامية التي لم تعتّم أن شملت في حياته جميع مناطق شبه الجزيرة العربية بعد أن انتشر الاسلام في ربوعها ، وانتهت أخبار هذه المرحلة الثالثة بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم •

ولم يجد المؤرخون المحدّثون ، وهو اللقب الـذي نرى وجوب اطلاقه على علماء الحديث الذين اهتموا باستخلاص سيرة الرسـول

ومغازيه من أحاديثه وهم الذين ندعوهم حالياً مؤرخي السيرة والمغازي، كبير عنـاء في قصر اهتمامهم على الأحاديث المتعلقة بسيرة الرسول ومغازيه وذلك لأن علماء الحديث كانوا مهّدوا الطريق أمامهم وعبّدوها أثناء قيامهم بدراسة أحاديث الرسول وتبويبها وتنسيقها وتصنيفها ، لا بل فان هؤلاء العلمـاء انتقوا طائفة من الأحاديث جمعوها في باب واحد دعوه باب المغازي والسير أدمجوا فيه جميع الأحاديث الموثوق بصحتها والتي يمكن للمؤرخ الاعتماد عليها في دراسته لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم والأحداث التي تمّت في عهده . هذا ويجب ألا تفوتنا الاشارة الى أن هذه الاحاديث التاريخية بعد أن جمعت وأخذ المؤرخون المحدِّثون أي مؤرخو السيرة والمغازي يهتمون بها ، لم تهمل من قبل علماء الحديث في الفترات التالية بل والى هؤلاء عنايتهم بهـا بدليل أننا نجد أن علماء الحديث في القرن الثالث الهجري قد احتفظوا بهذه الأحاديث التاريخية في كتبهم التي وضعوها . ونذكر على سبيل المثال « كتاب المغازي » ، وكتاب هنا بمعنى باب مستقل ، في مسند الامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، و « كتاب المغازي » في صحيح البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، و « كتاب الجهاد والسِّيَر » في صحيح مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ . وهي بصورة أكيدة شاملة الأحاديث التاريخية المتعلقة بحياة النبي .

وثمة ملاحظة جديرة بالتنويه بها وهي أن أولئك المؤرخين المحدِّثين، وهم مؤرخو السيرة والمغازي ؛ لم يبدؤوا التآليف التي وضعوها عن سيرة الرسول ومغازيه بميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم انما استهلوا كتبهم بعرض نبذة موجزة عن أخبار العرب في جاهليتهم أي قبـل الاسلام . هذا فضلا عن أن بعض هؤلاء المؤرخين لم يقتصروا في هذه التوطئات أو المقدمات التي وضعوها لكتبهم على أخبـار العرب في الجاهلية بل تناولوا بايجاز تاريخ البشرية والأنبياء منذ خلق الله آدم

عليه السلام الى ولادة محمد عليه السلام ؛ كما تعرضوا في مقدمات كتبهم هذه الى شذرات من أخبار الأمم والشعوب المجاورة وتلك حال علم من أعلام مؤرخي السيرة والمغازي في الاسـلام وهو محمد بن اسحاق المتوفي سنة ١٥٢ هـ • وقد اقتبس مؤرخو السيرة أخبار العرب في جاهليتهم وأخبار الأنبياء والأمم المجاورة عن الأخباريّين الذين كنا تحدثنا عنم آنفاً في القسم الاول من هذا الفصل ونخصّ بالذكر منهم كعب الأحبار ووهب بن منبه ، أو عن بعض المعمَّرين من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام ولا سيما عبيد بن شرية الجرهمي • وكان جل اعتماد ابن اسحاق فيالقسم الاول من كتابه عن سيرة الرسول على وهب بن منبه • هذا الى جانب ما نقله مؤرخو السيرة والمغازي في هذا القسم الاول من كتبهم عن أحبار اليهود والنصارى سواء من اعتنق منهم الاسلام أم الذين بقوا على دينهم الاول ، كمـا نقل بعضهم عن الكتب القديمة ، من دينية سمـاوية أو غيرها ، مباشرة • وقد غلب أسلوب الأخباريّين ، وهو أسلوب القصص التاريخي الذي تحدثنا عنه من قبل ، على ما ذكره مؤرخو السيرة والمغازي في مقدمات كتبهم وهو نفس الأسلوب الذي كان شائعا لرواية أيام العـرب في الجاهلية • وقصارى القول أن هذا القسم الأول الذي استهلّ به مؤرخو السيرة والمغازي تآليفهم عن حياة الرسول مشوش مفكك لا رابطة تجمعه • ولم يلجأ هؤلاء المؤرخون الى تنقيح أخبار هـذا القسم وتمحيصها ونقدها وتجريحها لمعرفة صحيحها من مدسوسها كفعل علماء الحديث أثناء دراستهم وتصنيفهم لأحاديث الرسول عامة بما فيهـا الاحاديث التاريخية التي تعنينا هنا •

وكانت النتيجة المباشرة لعدم قيام مؤرخي السيرة والمغازي بنقد ما وصل اليهم من أخبار ما قبل الاسلام المتعلقة بعرب الشمال وبالعرب العاربة والبائدة والأخبار المتعلقة بالأمم الأخرى أن تدنّت منزلة مؤرخ

السيرة والمغازي في المجتمع فصار كالأخباري لا يتمتع بالتقدير والاحترام اللذين يتمتع بهما كل من المحدّث والفقيه • ولعل ما ذكره ابن النديم[1] بصدد كلامه عن محمد بن اسحاق يعطينا فكرة جلية عن أسباب مطاعن بعض رجال الحديث في هذا العلم من أعلام تاريخ السيرة والمغازي مما لا يخرج في معظمه عن اهمال مؤرخي السيرة أن ينقدوا الأخبار التي ضمّنوها القسم الأول من الكتب التي وضعوها • وقد قال ابن النديم في ذلك ما نصه : « ••• ويقال كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ويسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل فضمّن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعّفونه ويتّهمونه ••• » •

ويمكن أن نستنتج من الحوار الذي جرى بين الامام أبي حنيفة وتلميذه أبي يوسف قاضي قضاة الرشيد ، والذي كنا أوردناه من قبل نقلاً عن ابن خلكان أن المجتمع الاسلامي في القرنين الثاني والثالث لم يكن يحبّذ لجوء عالم الفقه الذي يقتصر عمله عادة على استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة الى تكريس وقته وجهوده لطلب الاخبار • فرأينا أن أبا حنيفة قال لتلميذه أبي يوسف ، بعد انقطاع هذا الاخير فترة عن درس أستاذه لأنه مضى ليستمع الى المغازي من ابن اسحاق « بلهجة يشوبها شيء من التفريغ واللوم : « يا أبا يوسف » من كان صاحب راية جالوت ؟•• »

وقد ذكرنا أن سبب تدنّي منزلة مؤرخي السيرة والمغازي في المجتمع الاسلامي في المدينة وغيرها من أمهات المدن الاسلامية عن منزلة المحدّثين والفقهاء هو اهمالهم نقد ما ذكروه في مقدمات كتبهم عن السيرة من أخبار

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤٢ .

الجاهلية وغيرها أما عندما كانت رواياتهم للاخبار لا تتعدى حياة الرسول فقد كانوا يتمتعون بتقدير سام في ندوات سراة المسلمين في المدينة .
ومن قبيل ذلك ما أورده المستشرق الألماني يوسف هوروفيتس[1] أثناء كلامه عن محدث وفقيه المدنية المشهور في القرن الاول سعيد بن المسيّب ابن زوجة المحدّث الشهير أبي هريرة حيث قال : « لأن سعيداً يستحق الوقوف عنده قليلا في هذا المقام ، اذ ينبغي أن نشكره لقوله القيم بأن المغازي كانت موضوعا محببا للحديث في مجتمع أشراف المدينة ، فهو يقول كما في الطبري : « بينما نحن عند مروان بن الحكم ، وقد علّق هذا المستشرق على ذلك بقوله : ومن الواضح أن ذلك كان زمن ولاية مروان على المدينة ، وربما كان عام ٥٥ هـ ، اذ دخل حاجبه ، فقال : هذا أبو خالد حكيم بن حزام قال : ائذن له . فلما دخل حكيم بن حزام ، قال : مرحبا بك ، يا أبا خالد ، ادنُ ، فحال له مروان عن صدر المجلس ، حتى كان بينه وبين الوسادة ثم استقبله مروان ، فقال حدّثنا حديث بدر . قال : خرجنا ... » وكذلك فعل عبد الملك بن مروان بعد أن صارت اليه الخلافة ، فكان يسأل كبار التابعين عن أخبار بدر » .

جرت عادة العلماء الذين درسوا مؤرخي السيرة والمغازي الذين عاشوا الى منتصف القرن الثالث الهجري أن يصنفوهم في طبقات ثلاث جاعلين روّاد مؤرخي السيرة والمغازي في الطبقة الأولى وأهم هؤلاء الروّاد أربعة هم : أبان بن عثمــان بن عفان ، المتوفى سنة ١٠٥ هـ ، وعروة بن الزبير بن العوام ، المتوفى حوالي سنة ٩٢ هـ ، وشرحبيل بن سعد ، المتوفى سنة ١٢٣ هـ ، ووهب بن منبّه ، المتوفى سنة ١١٠ هـ .

وقد أشاروا أيضا الى مؤرخي الطبقة الثانية من مؤرخي السيرة وقد بلغ عددهم ثلاثة ، هم : عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، المتوفى سنة ١٣٥هـ

---

(١) يوسف هوروفيتس J. Horovitz المرجع المذكور ، ص ٨ .

وعاصم بن عمـــر بن قتادة ، المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، ومحمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ ٠

وشملت الطبقة الثالثة سبعة من المؤرخين ، هم : موسى بن عقبه المتوفى سنة ١٤١ هـ ، ومعمَّر بن راشد المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ومحمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥٢ هـ الذي روى عنه اثنان هما : زياد البـــكائي المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ٠ ومن بين مؤرخي هذه الطبقة الثالثة من مؤرخي هذه الطبقة الثالثة من مؤرخي السيرة : محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ٠

ولم يتبع يوسف هوروفيتس في كتابه الآنف الذكر عن المغازي الأولى ومؤلفيها ، الذي ترجمة الدكتور حسين نصار عن الالمانية سنة ١٩٤٩ ، نفس هذا التصنيف انما قسم الحديث عن مؤرخي السيرة المذكورين في الطبقات الثلاث الى فصول أربعة لا تخرج في جوهرها عن التصنيف السابق الى ثلاث طبقات ٠

هذا ومما تجدر الاشارة اليه قبل الانتقال الى دراسة بعض مؤرخي السيرة والمغازي أن جميع روّاد التأليف في السيرة والمغازي كانوا من الموالي غير العرب أصلا لكنهم لم يقتبسوا في هذا الفرع من فروع التاريخ الاسلامي أي شيىء من تواريخ شعوبهم الأصلية فنشأ علم السيرة والمغازي علما عربيا أصيلا لم تدخله أية مؤثرات أجنبية فكان كما ذكر عنه المستشرق البريطاني جب « بلا شك من وحي العرب » ٠

وتجنبا للتطويل سيقتصر بحثنا على مؤرخي السيرة الذين لا زالت كتبهم بين أيدينا وهم : محمد بن اسحاق ومهذب سيرته عبد الملك بن هشام الحميري المعروف بابن هشام ، ومحمد بن عمر الواقدي وتلميذه وحافظ علمه من الضياع محمد بن سعد ٠

وثمة مؤرخان آخران من مؤرخي السيرة عاش أحدهما في القرنين السابع والثامن الهجريين ، وهو المعروف بابن سيد الناس ، بينما عاش الثاني في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين وقد غلب عليه لقب الحلبي ، وضعا كتابين في سيرة الرسول لم تفقدهما خزانة الكتب العربية في عداد ما فقدته من الكتب القيّمة .

محمد بن اسحاق ٨٥ – ١٥٢ هـ : لقي محمد بن اسحاق الذي يعتبر عميد مؤرخي السيرة والمغازي عناية كبيرة من العلماء المسلمين ومن المستشرقين أمثال الالماني يوحنا فيك Johann Fück الذي ألّف عنه كتابا ونشره سنة ١٩٢٥ في مدينة فرنكفورت ، على نهر المين ، . كما دوّن ترجمته المستشرق بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية[١] ، هذا فضلا عن الدراسة القيّمة التي كتبها لنا عنه الألماني يوسف هوروفيتس[٢] في كتابه الشهير : المغازي الاولى ومؤلفيها . وهناك مستشرقون كثيرون درسوا مغازي ابن اسحاق كأوغست فيشر A. Fischer ، وتهذيب عبد الملك بن هشام لها مما لا داعي لذكره هنا . ويرجّح أن السبب في هذه العناية الزائدة التي لقيها ابن اسحاق من علمائنا العرب والمسلمين ومن المستشرقين أنه كان أعظم التلاميذ الذين تخرجوا على يد شيخ مؤرخي السيرة في القرن الاول وهو محمد بن شهاب الزهري ، وأن كتابه المغازي ، المعروف عادة باسم سيرة ابن اسحاق ، هو أول وأقدم ما وصل الينا كاملا من تآليف مؤرخي نهاية القرن الاول ومطلع الثاني ، هذا على الرغم من نقص سيرة ابن اسحاق التي بين أيدينا ، والتي ليست في الواقع سوى تهذيب ابن هشام لهذه السيرة ، عما تضمنته السيرة الأصلية التي أنجزها ابن اسحاق وقدّمها الى الخليفة العباسي

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : المجلد – ١ ؛ ص ٨٨ – ٩٠ .

(٢) يوسف هوروفيتس : المرجع المذكور ، ص ٧٥ – ٩٦ .

الثاني أبي جعفر المنصور لتكون أساسا لثقافة ولي عهده المهدي التاريخية لا سيما وأن المنصور طلب من ابن اسحاق أن يشمل الكتاب الذي سيضعه أخبار العالم منذ خلق الله آدم الى أيامه •

ابن اسحاق هو أبو عبد الله محمد بن يسار • وكان جده يسار على أصح الاقوال من نصارى العراق الذين وقعوا في أسر المسلمين في عين التمر في العراق سنة ١٢ هـ• وكان يسار من بين الأسرى الذين أحضروا الى المدينة في هذا العام فغدا رقيقا لبني قيس بن مخرمة بن المطّلب • وذكروا أن هذا السبي هو أول سبي أرسل من العراق الى المدينة في الاسلام • ثمة أعتق يسار بعد اعتناقه الاسلام فغدا من طبقة الموالي • ورزق يسار جدّ مؤرخنا ثلاثة من الأولاد الذكور تزوج أحدهم وهو اسحاق بابنة مولى آخر اسمه صبيح فأنجبت له سنة ٨٥ هـ مولودا ذكرا أسماه محمدا سهر أبوه على تزويده بالثقافة السائدة في أيامه وهي دراسة الحديث والفقه لا سيما وكان الأب نفسه معنياً برواية أحاديث رسول الله (ص) التي كثيراما رواها ابنه عنه • ولم يتتلمذ ابن اسحاق على أبيه فحسب بل اشتغل برواية الحديث منذ حداثته عن جهابذة وأقطاب هذا العلم الموجودين في المدينة كعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم ومحمد بن شهاب الزهري ، لا بل فانه عُدّ من أنجب التلاميذ الذين تخرجوا على يد شيخ ذلك الجيل وهو الزهري • وما أكثر الروايات التي نقلها ابن اسحاق في مغازيه عن شيوخه الثلاثة هؤلاء • ولنشر أيضا الى أن ظمأ ابن اسحاق الى العلم لم يرو بمجرد أخذه عن هؤلاء الأقطاب فقد تعداهم الى سواهم من شيوخ الحديث في المدينة • وأحصي الرواة المدنيون الذين أخذ عنهم في المدينة وحدها فبلغوا ما يقرب من مائة راوٍ •

وقد غادر ابن اسحاق المدينة الى مصر في مستهل القرن الثاني

حيث وفد على الاسكندرية سنة ١١٥ هـ ليروي عن شيخ محدثيها يزيد بن أبي حبيب ثمّت عاد أدراجه الى مسقط رأسه المدينة • وبدأت شهرة ابن اسحاق تذيع لدن عودته من مصر فقد رووا أن شيخه الزهري أبرزه للحاضرين سنة ١٢٣ • كما اتصل ابن اسحاق سنة ١٣٢ بعلم من أعلام المدينة هو سفيان بن عيينة • وقد شهد شيخه الزهري وسفيان هذا وسواهما من جهابذة العلم في المدينة وغيرها بكفاءته في الحديث ووثّقوه • ونحن ننقل ما أورده ابن خلكان [1] من آراء من وثّقوا ابن اسحاق حيث قال : « وكان محمد المذكور ثبتا في الحديث عند أكثر العلماء ، وأما في المغازي والسّير فلا تجهل امامته ، قال ابن شهاب الزهري : من أراد المغازي فعليه بابن اسحاق ، وذكره البخاري في تاريخه ، وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : من أراد أن يتبحّر في المغازي فهو عيال على ابن اسحاق ، وقال سفيان بن عيينة : ما أدركت أحدا يتهم ابن اسحاق في حديثه ، وقال شعبة بن الحجاج : محمد بن اسحاق أمير المؤمنين ، يعني في الحديث ، ويحكى عن الزهري أنه خرج الى قرية له فاتّبعه طلاب الحديث فقال لهم : أين أنتم من الغلام الأحول ، يعني ابن اسحاق ، وذكر الساجي أن أصحاب الزهري كانوا يلجؤون الى محمد بن اسحاق فيما شكّوا فيه من حديث الزهري ، ثقة منهم بحفظه ، وحكي عن يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان أنهم وثّقوا محمد بن اسحاق واحتجّوا بحديثه ، وانما لم يخرج البخاري عنه وقد وثّقه وكذلك مسلم بن الحجاج لم يخرج عنه الا حديثا واحدا في الرجم من أجل طعن مالك بن أنس فيه ••• »

ولم يلبث العداء أن استشرى بين ابن اسحاق وبين قطبين من أقطاب الحديث في المدينة هما مالك بن أنس وهشام بن عروة بن الزبير فطعنا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ؛ ج ـ ٣ ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

في علم ابن اسحاق . وقد روى ابن قتيبة في المعارف وابن النديم [1] في الفهرست وابن خلكان في الوفيات [2] سبب الخلاف الذي استعر بين هشام بن عروة بن الزبير وابن اسحاق « وكان يروي عن فاطمة بنت المنذر بن الزبير ، وهي الرأة هشام بن عروة بن الزبير ، فبلغ ذلك هشاما فأنكره وقال : أهو كان يدخل على امرأتي ؟ » بمعنى أنه أنكر ذلك . بيد أن النقدة لم يجدوا غضاضة في نقل ابن اسحاق عن فاطمة بنت المنذر لان رواية الحديث عن نساء الصحابة كانت أمرا مألوفا، وهذا ما ذكره هوروفتس[3] حول ذلك : « والحادثة في ذاتها قليلة الأهمية ، فقد سمعنا عن أخذ جامعي الأحاديث عن النساء . ورأينا آنفا عبد الله بن أبي بكر ، الذي كان من أشراف المدينة مثل عروة ، لا يعترض أي اعتراض على رواية زوجه عمرة الأحاديث لتلميذه . ولم يكن هذا التلميذ سوى ابن اسحاق .ومن المحتمل أن هشاما أيضا لم يعترض أي اعتراض على زوجه ، التي كانت أكبر كثيرا من زوجها وأكبر من ابن اسحاق بما يقرب من ٣٠ أو ٤٠ عاما لروايتها الاحاديث له ؛ بل لم يكن هشام عارفا بأية زيارة من ابن اسحاق لبيته أخذ فيها الاحاديث عن فاطمة ، ولذلك شك في صحة أقوال ابن اسحاق » . ولم ير الامام ابن حنبل غضاضة في رواية ابن اسحاق عن زوج هشام فقال : « وما ينكر هشام ؟ لعله جاء فاستأذن عليها فأذنت له ، وهو لم يعلم » . ولم يكن غريبا أن يروي رجال ذلك العصر عن النساء ، وكان الرسول قد أجاز أن يأخذ المسلمون دينهم عن عائشة ، ومع ذلك فان أخذنا برواية جاءت في معجم الأدباء لياقوت الحموي [4] فاننا

---

(١) الفهرست لابن النديم : ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلكان : المرجع المذكور : ج — ٣ ، ص ٤٠٥ — ٤٠٦

(٣) يوسف هوروفينس : المرجع المذكور ، ص ٧٨ — ٧٩ .

(٤) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج — ١٨ ، ص ٧ .

نرجّح أن هشاما بن عروة لم يرق له أن يدّعي ابن اسحاق الرواية عن زوجته لا سيما وأن القصة التي سننقلها عن ياقوت تظهر بأن ابن اسحاق كان برغم حول عينه الذي أشار اليه الزهري حسن الصورة ، وأنه اتهم بمغازلة النساء مما سبب ضربه من قبل والي المدينة . وقد أثبت ياقوت رواية عن الشاذكاني ورد فيها : « وحدّث فيما أسنده الى الواقدي قال : كان محمد بن اسحاق يجلس قريبا من النساء في مؤخر المسجد فيروى عنه أنه كان يسامر النساء ، فرفع الى هشام وهو أمير المدينة وكانت له شعرة حسنة فرقّق رأسه وضربه أسواطا ونهاه عن الجلوس هنالك وكان حسن الوجه » . فلعل هذه الوصمة التي وصم بها ابن أسحاق هي التي جعلت هشاما بن عروة بن الزبير ينفي أن يكون ابن أسحاق رأى زوجته أو روى عنها .

ولربما ردّ سبب عداء بعض علماء المدينة لابن اسحاق وتجريحهم اياه أنه كان قدريا (أي من المعتزلة) وأنه كان متشيعا وأنه كان لا يتورع عن رواية ما يطلب منه الزعيم العلوي عبد الله بن حسن بن حسن ، ونرجح أنه عبد الله المحض والد محمد ذي النفس الزكية الذي كان يعيش في هذه الفترة ، روايته . وقد أشار ياقوت في نفس الموضع المشا راليه في معجمه الى ذلك بقوله : « وقال الشاذكاني : كان محمد ابن اسحاق بن يساو يتشيّع ، وكان قدريا . وقال أحمد بن يونس : أصحاب المغازي يتشيّعون كابن اسحاق وأبي معشر (السدّي) ويحيى ابن سعيد الأموي وغيرهم . وأصحاب التفسير السدّي والكلبي وغيرهما ، وكان له انقطاع الى عبد الله بن حسن بن حسن ، وكان يأتيه بالشيء فيقول له : أثبت هذا في علمك فيثبته ويرويه عنه » .

وردّ بعض العلماء سبب كراهية مالك بن أنس لابن اسحاق الى تمسك هذا الاخير بمذهب القدرية . وقد نقل هوروفيتس رأيي كل من ابن قتيبة في كتابه المعارف وابن حجر العسقلاني في كتابه

التهذيب [1] فجاء فيهما : « أما خصومة مالك بن أنس مؤلف «الموطّأ» المشهور ، فلها أسباب أخرى . فقد قيل عدة مرات ان ابن اسحاق كان يتمسك بمذهب القدر ويقرر أبو زرعة أن دحيما المتوفى عام ١٤٥ ه صرح له بأن سبب خصومة مالك لابن اسحاق آراؤه في القدر » .

كما أوردوا سببا آخر لتلك الخصومة التي تأججت بين هذين العالمين وهو أن ابن اسحاق طعن بعلم مالك ومقدرته . وهذا ما رواه أحد تلاميذ ابن اسحاق ، وهو عبد الله بن ادريس ، بهذا الشأن تنقله عن معجم ياقوت[2] وقد ورد فيه : « وحدّث عبد الله بن ادريس قال : كنت عند مالك بن أنس فقال له رجل : ان محمد بن اسحاق يقول : اعرضوا عليّ علم مالك بن أنس فاني أنا بيطاره . فقال مالك : انظروا الى دجّال من الدجاجلة يقول : اعرضوا عليّ علم مالك ... » .

وهنالك مؤرخون آخرون ردّوا سبب عداء مالك لابن اسحاق أن الثاني كان يطعن في نسب مالك ذاكرا أنه وأهله من موالي تيم بن مرّة.

وهكذا وجدنا العلماء بين مادح وقادح لابن اسحاق وقد رددت المراجع أصداء هذا الخلاف حول مكانة هذا المؤرخ فلئن قرّظه معظمهم فان ما ذكره ابن النديم عنه فيه ميل الى القدح والذم وجحود منزلة هذا الشيخ من شيوخ مؤرخي السيرة ، لا بل كان شيخهم غير منازع .

ونظرا لتردّي العلاقة بين ابن اسحاق ومالك بن أنس قطب أئمة الحديث والفقه في المدينة ، ولكثرة أتباع ومريدي هذا الاخير في مدينة الرسول فان ابن اسحاق آثر الرحيل عن مسقط رأسه . لكنه

---

(١) يوسف هوروفيتس ؛ المرجع المذكور ؛ ص ٧٩ .

(٢) ياقوت الحموي ؛ المرجع المذكور ؛ ج ١٨ ؛ ص ٧ — ٨ .

لم تكن لابن اسحاق نفس الصلات التي كانت لشيخه الزهري بخلفاء الأمويين والتي جعلت الزهري يشدُّ رحاله اليهم فلم يجد ابن اسحاق مندوحة عن الهجرة من المدينة والعودة الى العراق مهد أجداده • وقد رأى بعضهم أن سقوط الدولة الاموية سنة ١٣٢ وانتقال الخلافة الى العباسيين هو الذي حفزه على مغادرة المدينة الى العراق ذالك القطر الذي استهواه المقام فيه • وهكذا غادر ابن اسحاق المدينة الى الكوفة ثم الى الجزيرة في أعالي العراق والى الريّ ثم انتهى به المطاف في بغداد سنة ١٤٦ حيث استقر فيها الى وفاته سنة ١٥١ أو سنة ١٥٢ هـ ، وقد دفن كما ذكر ياقوت في مقبرة الخيزران أم الرشيد عند قبر الامام أبي حنيفة •

كتاب السيرة لابن اسحاق واهميتهـ قصد ابن اسحاق الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور سنة ١٤٦ عندما كان هذا الاخير في مدينة الحيرة قبل تحوّله الى مدينة بغداد للمرة الأولى • وقد حدثنا الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد[1] عن مقابلة المنصور العباسي لابن اسحاق وتكليفه هذا الاخير بوضع كتاب السيرة مع ملاحظة ما رواه هذا المؤرخ عن الحسن بن محمد المؤدب من أن المقابلة ، وبالتالي التكليف بوضع كتاب السيرة ، قد تمت بين ابن اسحاق ، والخليفة المهدي ، لكن المؤلف عاد وأشار في نهاية هذا الخبر الى ترجيح ان تكون المقابلة قد جرت بين المنصور وابن اسحاق ، وهذه هي الرواية السائدة • وجاء في كتاب الخطيب بصدد ذلك ما نصه : « ••• دخل محمد ابن اسحاق على المهدي وبين يديه ابنه فقال له : أتعرف هذا يا ابن اسحاق ؟ قال : نعم ! هذا ابن أمير المؤمنين • قال : اذهب فصنّف

---

(١) الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي الخطيب) . تاريخ بغداد (منذ تأسيسها الى وفاة المؤلف سنة ٤٦٣ هـ) وهو كتاب يقع في ١٤ جزءا ، وفيه بحث هام عن محمد ابن اسحاق ج ١ ؛ ص ٢١٤ ــ ٢٣٤ .

له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) الى يومك هذا • قال : فذهب فصنف له هذا الكتاب • فقال له : طوّلته يا ابن اسحلق فاختصره • قال فذهب فاختصره فهو هذا الكتاب المختصر وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين • قال الحسن (هو الحسن بن محمد المؤدب راوي هذا الخبر) وسمعت أبا الهيثم يقول : صنف محمد ابن اسحاق هذا الكتاب في القراطيس ثم صيّر القراطيس لسلمة — يعني ابن الفضل — فكانت تفضل رواية سلمة على رواية غيره لحال تلك القراطيس •

« قال الشيخ أبو بكر (انه مؤلف الكتاب أي الخطيب البغدادي)، هكذا قال هذا الرواي دخل ابن اسحاق على المهدي وبين يديه ابنه وفي ذلك عندي نظر ، ولعله أراد أن يقول دخل على المنصور وبين يديه المهدي ابنه لان ذلك أشبه بالصواب والله أعلم » •

وأدى هذا التكليف من قبل الخليفة العباسي الى طعن الكثيرين من النقدة في هذا الكتاب وأن مؤلفه حابى العباسيين وتزلف اليهم بتلطيف موقف جدهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول (ص) في غزوة بدر لكن ثبت بعد التحقق من مادة الكتاب أن هذه المادة جمعت من الاحاديث التي حفظها ابن اسحاق في المدينة وفي مصر كذلك بمعنى أنه حفظها قبل أن يتم اتصاله بالخليفة العباسي الآنف الذكر ؛ ومصداق ذلك أن تلميذ ابن اسحاق المدني وهو ابراهيم ابن سعد روى هذه الأحاديث عن شيخه قبل هجرة هذا الاخير الى العراق ومقامه في بغداد • وهذا ما حمل المنصفين من علمائنا ومن المستشرقين على تخفيف حدة الانتقادات التي وجهت لهذا المؤرخ فقال المستشرق يوسف هوروفيتس بصدد كل ذلك ما معناه [1] : « ولا تعني هذه الرواية (أي تكليف المنصور

---

(1) يوسف هوروفيتس ، المرجع السابق ؛ ص ٨٠ — ٨١ •

ابن اسحاق بتدوين كتابه) أنه كتب المغازي للخليفة بعهد منه • اذ تبيّن قائمة الرواة الذين ذكرهم أنه ألّف مادته على أساس الأحاديث التي جمعها في المدينة خاصة ، وعلى أساس الاحاديث التي جمعها في مصر أيضا ، ومن جهة أخرى لا يذكر أسماء رواة من العراق في أي مكان • ومن الواضح أن الكتاب تم حين غادر ابن اسحاق أخيرا مدينة آبائه ، ونعرف أيضا مدنيا روى كتاب ابن اسحاق ، وهو ابراهيم بن سعد (المتوفى عام ١٨٤ هـ) ومع ذلك قد يُظنّ أن ابن اسحاق أجرى بعض التغييرات الاضافية في كتابه ، لارضاء الخليفة ، أو أنه اختصر الفقرات التي خاف ألا ترضيه • ومع ذلك نستطيع أن نؤكد من جهة أخرى ، أن ابن اسحاق عالج في كتابه حادثا لا يمكن أن يُرضِيَ الخليفةَ تَذكّرُه : ذلك هو الدور الذي قام به جده العباس في وقعة بدر الى جانب خصوم النبي المكيين ، ويؤكد ابن اسحاق ذلك الدور بوضوح ، ويذكر العباس بين أسرى بدر ومن الحق أن الدور الذي قام به العباس لطفه أنه حارب النبي بغير رضاه ، كما تقول رواية قبلها ابن اسحاق وتُرفع الى ابن عباس ، وأنه هو وزوجه ناصرا الاسلام منذ فترة طويلة ، وان لم يعتنقاه جهرةً الى اليوم ، كما تقول رواية أخرى ترجع الى مولى للعباس • وليس من المحتمل أن ابن اسحاق أدخل هذه الأقوال الملطّفة للمرة الأولى بتأثير العباسيين ، لأن تلميذه المدني المذكور سابقا ابراهيم بن سعد ، روى القول بأن العباس اعترف بنبوة ابن أخيه بعد أسره • وحتى اذا كانت أقوال ابن اسحاق هذه أدخلت للمرة الأولى في زمن مغادرته لبلدته ، فانه لم يذهب بعيدا الى حدّ الموافقة على اختصار الدور الذي قام به العباس في بدر ، كما فعل ابن هشام والواقدي فيما بعد » •

وقد روى ابن اسحاق معظم مادة كتابه في السيرة عن شيخه الزهري • ونرى بوضوح من خلال رواياته عن شيخه أنه كان وثيق

العربية وانتشار عبادة الاصنام فيما بينها • أما الفصل الرابع فتناول ابن اسحاق فيه أخبار أجداد النبي المباشرين والديانات التي كانت سائدة في مكة • وقد لوحظت ندرة الاسانيد في هذا القسم من كتاب ابن اسحاق وهي غالبا ما تذكر في الفصل الاول من هذا القسم •

أما القسمان الثاني والثالث وهما : المبعث والمغازي فقد تحدث عنهما هوروفيتس قائلا [1] : « **المبعث** ويشمل حياة النبي في مكة والهجرة، وربما شمل العام الاول من نشاطه في المدينة أيضا • ويزداد في هذا الجزء عدد الاسانيد ، ويعتمد ابن اسحاق خاصة على روايات أساتذته المدنيين ، التي يبرزها في نظام سنوي ، وهو يقدّم للأخبار الفردية بموجز حاوٍ لمحتوياتها في الغالب • وفي هذا الجزء ، الى جانب القصص التي يجلبها باسناد أو بغيره ، وثيقة دوّنها ابن اسحاق وحده ، ولم يدوّنها أحد من جامعي المغازي الأولين ، تلك الوثيقة هي معاهدة النبي المشهورة مع القبائل المدنية المسماة « نظام مجتمع المدينة » ، وكذلك مجموعات كاملة من القوائم : قائمة بالمؤمنين الاولين ، وقائمة بالمسلمين الذين هاجروا الى الحبشة ، وقائمة بأول من أسلم من الانصار ، وقائمة بالمشتركين في بيعتي العقبة ، وقائمة بالمهاجرين والانصار الذين تلقّوهم في المدينة ، وقائمة بالمهاجرين والانصار الذين آخى بينهم النبي (ص) •

« **المغازي** وهو تاريخ النبي في المدينة منذ أول صيحة للحرب مع القبائل المشركة الى أن توفي النبي • وتنتشر الغزوات الفعلية في جميع أنحاء الجزء ، فلا يعالج بتفصيل غير مرض النبي الاخير ووفاته • والقاعدة هنا وجود الاسناد ، ورواة ابن اسحاق أساتيذه المدنيون ، وأهمهم الزهري ، وعاصم بن عمر ، وعبد الله بن أبي بكر ، الذي يدين له بالنظام السنوي ، ومع ذلك زاد ابن اسحاق المادة المجموعة منهم ومن

---

(١) هوروفيتس ، المرجع المذكور : ص ٨٥ ـ ٨٧ .

غيرهم زيادة ملحوظة ، بالاخبار التي أضافها من الرواة الآخرين ، وخاصة الاقوال التي أخذها عن أقارب الرجال والنساء الذين اشتركوا في الحوادث . ويستخدم ابن اسحاق منهجا محددا لعرض الغزوات الفعلية ؛ يقدم ملخصا حاويا للمحتويات في المقدمة ، ويتبعه خبراً جماعياً مؤلفاً من أقوال أوثق أساتيذه ، ثم يكمل هذا الخبر الرئيس بالأخبار الفردية التي جمعها من المراجع الاخرى . والقوائم كثيرة في المغازي أيضا ، فهو يدوّن قائمة بأولئك الذين حاربوا في بدر ؛ وأخرى بالقتلى والأسرى ؛ وثالثة بقتلى أحد ، وكذلك قتلى الخندق ، وخيبر ، ومؤتة ، والطائف ، والمهاجرين الذين رجعوا من الحبشة » .

وقد انقسم النّقدة القديمون والحديثون بصدد ابن اسحاق وسيرته الى مادح وقادح وان يكن الحديثون منهم أقرب الى التقريظ والمديح منهم الى اللوم والتجريح . ولعل من الممكن ردّ الكثير من الانتقادات التي وجهت الى عميد مؤرخي السيرة الى الخلاف الذي استعر بين ابن اسحاق وبين اثنين من أقطاب مفكري ورجال الحديث في المدينة وهما مالك بن أنس وهشام بن عروة بن الزبير ذلك الخلاف الذي كنا أشرنا اليه في حينه . ونظرا لما كان لهذين القطبين من نفوذ وأشياع في بيئة المدينة العلمية فان الكثيرين من علماء المدينة ومن تأثّر بهم من علماء الأمصار الاسلامية الأخرى مالوا الى النّيل من ابن اسحاق . هذا بينما انبرت طائفة أخرى من علماء القرون الثلاثة الاولى للدفاع عنه وتوثيقه واعتباره من قبل بعضهم أمير المؤمنين في الحديث . وسوف نحجم عن ايراد أقوال الطاعنين في علم ومقدرة وأمانة ابن اسحاق موجزين أسباب انتقاداتهم وهي : لنقله عن الصحف المدونة مع أن المحدّثين لا يعتمدون سوى الرواية المنقولة بالسماع ، وأنه في حالة اختلاف الأسانيد والمتون في الأحاديث كان يكتفي بايراد اختلاف الأسانيد مع ذكر المتن واحداً ، وأنه أكثر من الاستشهاد

بالقصائد الشعرية أثناء عرضه لتاريخ العرب في الجاهلية ولتاريخ محمد (ص) منذ ولادته حتى وفاته ، علما أن قصائد كثيرة من تلك القصائد التي رواها مشكوك بصحتها ، كما نقدوه لنقله عن أحبار اليهود والنصارى . وكان أشد النقاد قسوة على ابن اسحاق فيما يتعلق بمسألة هذه القصائد ابن سلاّم الجمحي في كتابه طبقات الشعراء . وقد أوجز هذا النقد ابن النديم في كتابه الفهرست [1] حيث أورد ما يلي : « ... ويقال كان له يعمل له الاشعار ويؤتى بها ويسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل فضمّن كتابه من الاشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الاول وأصحاب الحديث يضعّفونه ويتهمونه ... » .

هذا بينما قدر العلماء الحديثون ومن بينهم المستشرقون ابن اسحاق . ونحن نكتفي بما ذكره عنه كل من المستشرق البريطاني جب في مقاله عن علم التاريخ في دائرة المعارف الاسلامية [2] والمستشرق الالماني هوروفيتس [3] الذي تحدث عن أهمية كتاب وطريقة ابن اسحاق في كتابه الآنف الذكر .

قال جب في معرض كلامه عن مؤرخي السيرة الاوائل وكتبهم مايلي: « أما الكتاب الثالث وهو السيرة المشهورة التي ألّفها محمد بن اسحاق ابن يسار المتوفى سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) فقد كان ثمرة تفكير أبعد أفقا وأوسع نطاقا من تفكير سابقيه ومعاصريه ، لانه نزع فيه لا الى تدوين

---

(١) ابن النديم : المرجع المذكور : ص ١٤٢ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة العربية ، المجلد ٤ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ .

(٣) يوسف هوروفيتس : المرجع المذكور : ص ٩٢ - ٩٦ .

تاريخ النبي فحسب بل الى تاريخ النبوة بذاتها • وكان في هذا الاسلوب المبتكر يشمل أقساما ثلاثة « المبتدأ » وهو تاريخ العصر الجاهلي منذ الخليقة ، وقد استمد أكثره من وهب بن منبه ومن المصادر العبرية ثم « المبعث » وهو تاريخ حياة النبي حتى السنة الاولى للهجرة ثم « المغازي » وتناول هذا التاريخ الى وفاة النبي وقد غدا هذا الكتاب المرجع الرئيسي لتاريخ العصر الجاهلي والصدر الأول من الاسلام وذلك على الرغم من أنه كان هدفا للنقد الصارم بما تطرق اليه من الاحاديث والمقتبسات الشعرية التي لا وزن لها لاصطباغها بصبغة الكذب والافتراء ، وقد عرف أن هناك أحاديث دخل عليها كما هو معروف بعض التحوير والتعديل •• » •

وبعد أن أورد هوروفيتس نقد ابن سلاّم الجمحي لابن اسحاق قال ما نصه : « والآن كيف نحكم على ادخال مثل هذه القصائد ؟ وهل يستحق ابن اسحاق نقد الجمحي »[1] ؟

« لا يوجد ما يدعو الى الشك في صحة كثير من القصائد التي ذكرها ابن اسحاق ، وخاصة التي تتصل بحوادث المدينة ، وكثير منها كان معروفا بصحته في عهد ابن هشام (مهذب سيرة ابن اسحاق) لدى علماء الشعر • ولم يكن ابن اسحاق يتمسك بصحة كثير من الباقي على

---

(١) ورد في نقد محمد بن سلام الجمحي صاحب كتاب طبقات الشعراء فيما يتعلق بابن اسحاق ما نصه : « وكان ممن هجّن الشعر وافسده وحمل منه كل غثاء ممحد بن اسحاق وكان من علماء الناس بالسير فقبل عنه الناس الاشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر انما أوتى به فاحمله ولم يكن ذلك له عذر ؛ فكتب في السير من اشعار الرجال الذين م يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن اشعار الرجال ، ثم جاوز لك الى عاد وثمود . افلا يرجع الى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر من اداه منذ الوف من السنين ؟ » .

الاطلاق ، ولكنه لم يقم بأبحاث خاصة في صحتها لم يعتد العلماء المحترفون القيام بها ، ولا تمسّه مسألة صحتها مسّاً خاصاً . فهو استشهد بهذه الاشعار ، على قدر ظهورها له جديرة بالاستشهاد لانها تنفع في تزيين القصة ، ولأن ادخال القصائد في الأخبار النثرية كان من الامور المتبعة في الفن للمأثور عن القُصّاص العرب ؛ ... ويكشف ابن اسحاق عن نزاهة غير عادية في ادخال القصائد ؛ حتى ليسمح لخصوم النبي بادخال الأشعار التي نظموها دون تحرّج ، وفي بعض الاحوال يرى ابن هشام (مهذب سيرة ابن اسحاق) أن من الضروري التلطيف من حدة بعض عبارات هؤلاء الشعراء ويجدر بنا أن نؤكد أن هذه القصائد ليست لها طبيعة قصصية على الاطلاق ، وان كانت تحتوي في الغالب على اشارات للحوادث المروية في الاخبار النثرية ولا ينطبق هذا بدون تكلف على القصائد التي ذكرها ابن اسحاق وحده ، بل على القصائد الموجودة عند المؤرخين والقُصّاص الآخرين في الزمن المتقدم ... وربما كان ابن اسحاق ، في بعض الحوادث التي توافر له فيها قدر من الاقوال الشعرية ، أول من وضع كل هذه الاشعار معاً في نهاية الفصل المعالج على حين يقطع هو ، في المواضيع الاخرى ، والقصّاص الآخرون الخبر النثري بالمقتبسات الشعرية .

« وجمع ابن اسحاق المادة التي رواها له أساتيذه في روايات وزادها بالاقوال الكثيرة التي جمعها بنفسه ، في عرض حسن التنظيم لحياة النبي . وقد أدخل في هذا العرض قوائم ووثائق ، وأشعارا أخذ جزءا منها من أساتيذه ، والجزء الآخر جمعه بنفسه . وجمع هذه المادة وترتيبها جهد كبير ، وان كان سبقه في ذلك أناس ولكنه ربما لا يكون أول من عرض جميع فترات حياة النبي باتساق في كتابه فحسب ، بل وسع أيضا تلك الترجمة بجعلها تاريخا للرسالة عامة ، أدخل

فيها حياة الانبياء المتقدمين أيضا •

« وعندما نتكلم عن ترتيب المادة نقول : ان ابن اسحاق بذل جهدا خاصاً في ربط الروايات الفردية احداها بالأخرى ، بعبارات موجزة تلخص محتوياتها ، وأنه كان يكوّن في كثير من الأحيان خبراً عاماً موحّداً من عدة أخبار من رواته المختلفين ، يصدّره بأسمائهم، وخاصّة في المغازي بالمعنى الخاص ، كما فعل أستاذه الزهري من قبل في أحوال كثيرة •

« ومهما اختلف الرأي في صحة قدر كبير من الاخبار التي جمعها ابن اسحاق ، وكان يعبر عن شكه في الغالب بملاحظات معترضة مثل « فيما يزعمون ، والله أعلم » فان كتابه كجهد أدبي يرتفع الى مرتبة عالية ، وتزداد قيمته لدينا لانه يمثل أقدم الكتب النثرية العربية التي وصلت الينا جميعا •••• » •

لا جرم أن للنقد الذي وجهه ابن سلام الجمحي لابن اسحاق وجاهته وقوته ومع ذلك فان قصائد كثيرة من التي استشهد بها ابن اسحاق لم تكن زائفة ، وأن قسما كبيرا منها لا يتطرق الشك الى صحته ، وأن مؤرخنا لم يورد تلك القصائد الا من قبيل التشويق والترغيب وتهيئة الجو المناسب لرواية القصة ، خاصة وقد جرت عادة العرب في قصصهم وأخبارهم المروية وأخبار أيامهم ، وفي روايتهم لغزوات الرسول أن يرفقوا بها القصائد والمقطوعات الشعرية التي قيلت بمناسبتها • وكان أن تأثر ابن اسحاق بهذه الطريقة التي لم يسرف ابن هشام عند تهذيبه سيرة ابن اسحاق ونقلها في استعمالها ولم يثبت منها الا القصائد المقطوع بصحتها • وكان ابن هشام يضيف الى القصائد غير الأكيدة التي نقلها عن ابن اسحاق تعليقاً يذكر فيه : « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة » ؛ كما تنقد ابن اسحاق لانه ندر ان ذكر أسماء الذين أمدوه بتلك القصائد •

ولعل من المحتمل أن ابن هشام حذف الكثير من القصائد التي أوردها ابن اسحاق لأنه لاحظ الحملة التي شنّت على هذا الأخير من قبل خصومه ، وكانوا كما مر بنا كثيرين ، ولم يجد هؤلاء الخصوم لابن اسحاق سوى سيرته ليوسعوها نقدا ، فتجنب ابن هشام ايراد القصائد التي لم يعترف نقّاد ابن اسحاق بصحتها . وهكذا فكما تجنب محمد بن سعد كاتب الواقدي في طبقاته المطاعن التي وجهت لشيخه الواقدي لينال رضاء رجال الحديث عن كتابه ، فان ابن هشام كان قبله قد تجنب المطاعن التي وجهت لابن اسحاق ، لا بل من المحتمل أيضا أنه طعن في بعض القصائد التي رواها هذا الأخير ليمهّد السبيل الى رضاء المحدّثين عن تهذيبه لسيرة ابن اسحاق فلا يحاربونه كما حاربوا مؤلف السيرة نفسه من قبل .

ولابن اسحاق فيما عدا كتابه في السيرة كتاب الخلفاء الذي تحدث عنه ابن النديم في الفهرست . وقد اقتبس الطبري الشيء الكثير من رواياته عن الخلفاء الراشدين عن هذا الكتاب الثاني الذي فقد ولم يبق منه سوى شذرات نجدها في تاريخ الطبري لكنها غير كافية لنحكم على هذا الكتاب لذلك اكتفينا بالسِّفر الذي رفع ابن اسحاق الى الأوج وهو سيرته المارّة الذّكر .

وبذلك نكون قد أنهينا حديثنا عن هذا العلم الرائد من أعلامنا وروّادنا في تأليف التاريخ وسنتحدث الآن عن علم آخر من أعلام مؤرخي السيرة وهو محمد بن عمر الواقدي .

محمد بن عمر الواقدي ١٣٠ ــ ٢٠٧ هـ : هو أبو عبد الله محمد ابن عمر بن واقد وقد عرف بالواقدي المدني ، كما لقب أيضا بالأسلمي وذلك لانتمائه بالولاء لعبد الله بن بُرَيدة من بني أسلم المدنيين ، كما ذكر كذلك أنه ينتمي بالولاء الى الهاشميين .

وكانت ولادة هذا المؤرخ المُحدِّث في المدينة سنة ١٣٠ هـ في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد ، أما وفاته فقد حدثت سنة ٢٠٧ هـ بعد بلوغه الثامنة والسبعين ، ودفن في مقابر الخيزران ببغداد . وكان الخليفة الرشيد قد ولَّى الواقدي قضاء الجانب الشرقي من بغداد بعد مقدم هذا الاخير الى عاصمة العباسيين سنة ١٨٠ هـ بينما كان الواقدي عند وفاة الرشيد يلي قضاء الجانب الغربي منها ذلك المنصب الذي أوسده اليه الخليفة المأمون . وذكروا أن أم الواقدي من أحفاد سائب خاثر الفارسي الذي كان أول من غنَّى قصائد عربية في المدينة .

سلخ الواقدي خمسين عاما من عمره في المدينة منكبا على دراسة الحديث فسمع عن أهم شيوخ الحديث في مدينة الرسول . وقد ذكر الخطيب البغدادي أحد عشر من أئمة الحديث الذين أخـذ الواقدي عنهم[1] كما ذكر ثمانية من تلاميذه . والى جانب انصراف الواقدي الى طلب العـلم فانه كان يمارس تجارة الحبوب في المدينة لكنه لم يكن موفقا في تجارته فقد مني بالافلاس وأضاع الاموال التي كانت مودوعة لديه وركبه دين كبير فشخص الى العراق حيث اتصل بيحيى بن خالد البرمكي فنال من صلاته الشيء الكثير ثم قفل راجعا الى المدينة مسقط رأسه . وكان هذا المؤرخ كريما جدا ووفيا ومؤثرا لأصدقائه جدا على نفسه . وروى الخطيب قولا للواقدي ورد فيه ما نصه : « صار الي من السلطان ستمائة ألف درهم ما وجبت علي فيها الزكاة » (بمعنى أنه كان يوزِّع هذه الأموال فلم يبق عنده شيء منها ليحول عليه الحول فتجب عليه فيه الزكاة) كما روى الخطيب نفسه وابن خلكان[2] وياقوت

---

(١) الخطيب البغدادي ، المرجع المذكور ، ج٣ ، ص٣ ، . وبلغ ما كتبه هذا المؤرخ عنه ثماني عشرة صفحة .

(٢) ابن خلكان ، المرجع المذكور ، ج ٣ ، ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

الحموي [1] وسواهم قصة رائعة عن كرم الواقدي ، تظهره أنه كان ممن يؤثرون أصدقاءهم على نفوسهم ولو كانت بهم فاقة وحاجة [2] .

اتصاله بالعباسيين : تألّق نجم الواقدي في المدينة وصار معدوداً في زمرة علمائها الأعلام الذين جمعوا بين الفقه والحديث والتاريخ . ولئن فاقه بن اسحاق في اهتمامه بجمع أخبار العرب في الجاهلية وأخبار الانبياء الذين بعثهم الله قبل محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان الواقدي بشهادة كبار النقدة أشدَّ عنايةً بجمع أخبار الرسول ولا سيما منذ

---

(١) ياقوت الحموي ، المرجع المذكور ، ج ١٨ ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٢) اننا نثبت هنا نص هـذه القصة كما وجدناه في تاريخ بغداد مع ملاحظة فروق بسيطة بين مختلف الروايات التي اوردها كل من المسعودي وياقوت الحموي وابن خلكان لهذه القصة . اما ما ذكره الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد (ج٣ ، ص ١٩ ــ ٢٠) بصددها فهو ما يلي :

« قال ــ الواقدي نفسه ــ اضقت مرة من المرار وانا مع يحيى بن خالد البرمكي ، وحضر عيد فجاءتني جارية فقالت قد حضر العيد وليس عندنا من النفقة شيء . فمضيت الى صديق لي من التجار فعرفته حاجتي الى القرض ، فأخرج كيسا مختوما فيه الف ومائتا درهم ، فأخذته وانصرفت الى منزلي ، فما استقررت فيه حتى جاءني صديق هاشمي فشكا اليَّ تأخر غلته وحاجته الى القرض ، فدخلت الى زوجتي فأخبرتها ، فقالت على اي شيء عزمت ؟ قلت : على ان اقاسمه الكيس . قالت : ما صنعت شيئاً أتيت رجلاً سوقةً فأعطاك الفا ومائتي درهم ، وجاءك رجل له من رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم ماسة تعطيه نصف ما اعطاك السوقة ، ما هذا شيئا ، أعطه الكيس كله فأخرجت الكيس كله فدفعته اليه ، ومضى صديقي التاجر الى الهاشمي وكان له صديقا فسأله القرض ، فأخرج الهاشمي اليه الكيس . فلما راى خاتمه عرفه ، وانصرف اليَّ فخبَّرني بالأمر ، وجاءني رسول يحيى بن خالد يقول : انما تأخر رسولي عنك لشغلي بحاجات امير المؤمنين ، فركبت اليه فأخبرته بخبر الكيس . فقال : يا غلام هات تلك الدنانير فجاءه بعشرة آلاف دينار فقال : خذ الفي دينار لك ، والفين لصديقك ، والفين للهاشمي ، واربعة آلاف لزوجتك فانها اكرمكم » .

هجرته الى المدينة ، ولو أنه غلبت على الاخبار التي جمعها الصفة التشريعية الفقهية • ولذلك اعتبر كتابه المغازي أقرب الى كتب الحديث الشهيرة منه الى كتاب في التاريخ • بيد أن توجيه الواقدي عنايته الزائدة الى الاخبار المتعلقة بتاريخ العرب منذ ظهور الاسلام جعل مصادره أوثق فنتج عن ذلك أن كتابه المغازي صار موثوقا به من علماء الحديث • بالرغم من أن بعض المُحدّثين لم يثقوا بالواقدي كمحدّث • ولذا فان أهمية هذا المؤرخ لم يجحد بها أحد • ولقد تحدث هوروفيتس عن أهمية كتاب المغازي هذا وترجيح علماء المدنية هذا الكتاب على سيرة ابن اسحاق فقال[1] : « وكتاب المغازي أغنى في أخبار الفترة المدنية من كتاب ابن اسحاق ، وان كان لا ينطوي قسط من هذه الأحاديث تحت التاريخ ، وانما تحت الحديث الفقهي • فيقترب كتاب الواقدي من هذه الناحية من مجموعات الحديث • والواقدي يربط الحديث بالآخر ببساطة دون أن يحاول ربطها بالاضافات أو النظرات الخاصّة ، كما يفعل ابن اسحاق في عامة الأمر ••• » •

« وعلى حين يرفض المحدّثون الواقدي ، فانه يوثق به في السيرة والمغازي ، والفتوح ، والفقه • ولكن عنايته الحقيقية بالتاريخ لا تبدأ الا بظهور الاسلام فهو بخلاف ابن اسحاق لا يوجّه كبير عناية الى الفترة الوثنية السابقة عليه ، وأقل من ذلك أيضا عنايته بتاريخ الرسالات قبل الاسلام كما يبدو ••• » ثم استشهد هذا المستشرق برأي ابراهيم الحربي في هذه الناحية من علم الواقدي ، ونحن ننقل هنا هذا الرأي كما وجدناه في تاريخ بغداد [2] بسند مرفوع الى رجل سمع ابراهيم الحربي هذا يقول عن الواقدي : « ••• كان الواقدي أعلم الناس بأمر

---

(١) يوسف هوروفيتس : المرجع المذكور ؛ ص ١٢١ ـ ١٢٢ و ١٢٣ ـ ١٢٤ •

(٢) الخطيب البغدادي ؛ المرجع المذكور ؛ ج ٣ ، ص ٥ •

الاسلام، فأما الجاهلية فلم يعلم فيها شيئا(وردت في النص يعمل وصوابها يعلم وقد صححها هوروفيتس في النص الذي رواه عن ابن حجر) » .

وقد انفرد الواقدي بميزة لم تكن لسواه من مؤرخي السيرة والمغازي ، علما أن ما ندعوه نحن الآن ميزة كان من بين الأسباب التي حملت المحدثين على تجريحه . فالمحدثون لا يرون الاعتماد الا على النقل بالسماع فحسب بينما اهتم الواقدي بمعاينة وفحص المواضع التي جرت فيها غزوات الرسول وغيرها من الحوادث التاريخية . وكان لا يني عن سؤال أبناء صحابة رسول الله عن الأمكنة التي استشهد فيها آباؤهم فيذهب لفحص هذه الامكنة . وقد أورد الخطيب البغدادي عن هذه الناحية [1] رواية عن عالم سمع الواقدي نفسه يقول : « ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة ، وأبناء الشهداء ، ولا مولى لهم الا وسألته ، هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فاذا أعلمني مضيت الى الموضع فأعاينه ، ولقد مضيت الى المريسيع فنظرت اليها ، وما علمت غزاة الا ومضيت الى الموضع حتى أعاينه ، أو نحو هذا الكلام . قال فحدثني ابن منيع قال سمعت هارون القروي يقول : رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة ، فقلت : أين تريد ؟ فقال : أريد أن أمضي الى حنين حتى أرى الموضع والوقعة » .

فذيوع صيت الواقدي في أنه محقق ودقيق أكسبه شهرة زائدة لا سيما وكان يدرس كتابه المغازي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة [2] .

---

(1) الخطيب البغدادي ، ج ٣ ، ص ٦ .

(2) روى الخطيب البغدادي (ج ٣ ، ص ٧) خبر عن أحد معاصري الواقدي قال فيه :
« راينا الواقدي يوما جالسا الى اسطوانة في مسجد المدينة وهو يدرس . فقلنا اي شيء تدرس ؟ فقال : جزءا من المغازي » .

وقد نال كتاب المغازي للواقدي تقدير النقدة الحديثين فاعتبروه فتحا جديدا في تأليف التاريخ . وقد قال المستشرق جب عنه ما يلي[1]:

« وألّف محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ ٧٤٧ ـ ٨٢٣ م) الذي خلف ابن اسحاق كتابا لم يقتصر فيه على غزوات النبي بل تناول كثيرا من وقائع تاريخ العهود الاسلامية التالية كما ألف تاريخا جامعا تناول فيه الكلام الى عهد خلافة هارون الرشيد وبذا اقترب علم التاريخ القائم على الحديث من المادة التاريخية التي جمعها فقهاء اللغة مع الاحتفاظ بأسلوبه الخاص في ايراد الاحاديث.وتاريخ المغازي للواقدي هو وحده الذي حفظ كيانه بوضعه الاصلي .. » .

وصدف أن الرشيد حج سنة ١٧٠ هـ وبصحبته وزيره يحيى بن خالد البرمكي فطلب الخليفة من وزيره أن يسأل عن عالم خبير بالمواضع التي تذكّر بتاريخ الرسول ليزورها تبركاً . وقد أثبت محمد بن سعد في طبقاته[2] رواية شيخه الواقدي عن هذا الاتصال الذي تم سنة ١٧٠ ، عندما كان شيخه في الاربعين ، والذي مهّد له سبيل المجد . وقد قال ابن سعد ما نصه : « وكان قد تحول من المدينة فنزل بغداد وولي القضاء لعبد الله بن هارون (وهو المأمون) أمير المؤمنين بعسكر المهدي (الرصافة) أربع سنين . وكان عالما بالمغازي والسيرة والفتوح وباختلاف الناس في الحديث والاحكام واجتماعهم على ما اجتمعوا عليه ، وقد فسر ذلك في كتب استخرجها ووضعها وحدث بها .

« وحدثني أحمد بن مسبح قال : حدثني عبد الله بن عبيد الله قال : قال لي الواقدي : حج أمير المؤمنين هارون الرشيد فورد المدينة فقال

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ؛ ج٤ ، ص ٤٨٧ .

(٢) محمد بن سعد : الطبقات الكبرى : ج ٥ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ .

ليحيى بن خالد : أرتادُ لي [1] رجلاً عارفاً بالمدينة والمشاهد ، وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أي وجه كان يأتيه ، وقبور الشهداء . فسأل يحيى بن خالد ، فكلٌّ دلّه عليَّ ، فبعث اليَّ فأتيته وذلك بعد العصر فقال لي : ياشيخ ان أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن تصلي عشاء الآخرة في المسجد وتمضي معنا الى هذه المشاهد فتوقفنا عليها والموضع الذي يأتي جبريل عليه السلام، وكن بالقرب ، فلما صليت عشاء الآخرة اذا أنا بالشموع قد خرجت واذا أنا برجلين على حمارين ، فقال يحيى : أين الرجل ؟ فقلت : ها أنذا. فأتيت به الى دور المسجد فقلت : هذا الموضع الذي كان جبريل يأتيه. فنزلا عن حماريهما فصليا ركعتين ودعوا الله ساعة ثم ركبا وأنا بين أيديهما ، فلم أدع موضعا من المواضع ولا مشهدا من المشاهد الا مررتُ بهما عليه ، فجعلا يصليان ويجتهدان في الدعاء ، فلم نزل كذلك حتى وافينا المسجد وقد طلع الفجر وأذّن المؤذن . فلما صارا الى القصر قال لي يحيى بن خالد : أيها الشيخ لا تبرح . فصليت الغداة في المسجد ، وهو على الرّحلة الى مكة ، فأذن لي يحيى بن خالد عليه بعد أن أصبحت ، فأدنى مجلسي وقال لي : ان أمير المؤمنين أعزه الله لم يزل باكيا ، وقد أعجبه ما دللته عليه ، وقد أمر لك بعشرة آلاف درهم . فاذا بَدْرة قد دفعت الي ، وقال لي : يا شيخ خذها مبارك لك فيها ، ونحن على الرحلة اليوم ،ولا عليك أن تلقانا حيث كنا واستقرت بنا الدار ان شاء الله . ورحل أمير المؤمنين وأتيت منزلي ومعي ذلك المال ، فقضينا منه دينا كان علينا ، وزوجت بعض الولد واتسعنا . ثم ان الدهر أعضنا فقالت لي أم عبد الله : يا أبا عبد الله ما قعودك وهذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أن تصير اليه حيث استقرت به

---

(1) وردت ارتاد في النص ولعله خطأ مطبعي،ولنشر الي‌ان‌هورو فيتس صححها فرواها : ارتدلي .

الدار فرحلت من المدينة •• » •

وكانت هذه الرحلة من المدينة الى العراق سنة ١٨٠ أي عندما بلغ الواقدي الخمسين من عمره وكان قد استكمل أسباب ثقافته الواسعة فغدا علما كبيرا من أعلام الحديث والفقه والمغازي • وعلى الرغم من طول باعه في هذه العلوم وسواها فانه كان ضعيف الذاكرة فلم يكن يحفظ القرآن غيبا كفعل الغالبية العظمى من علماء عصره لا بل روى بعضهم أنه صلّى خلفه الجمعة ذات مرة فأخطأ في تلاوة الآية الكريمة « ان هذا لفي الصّحف الاولى صحف ابراهيم وموسى » فقرأها « ان هذا لفي الصحف الاولى صحف عيسى وموسى »[1] •

وقد اهتم الخليفة المأمون في أن يحفظ الواقدي ولو بعض سور القرآن الكريم ليصلي الجمعة بالمسلمين لأنه أوسد اليه القضاء ، لاسيما وكان المأمون يجلّ الواقدي ويحبه حبّاً جمّاً ، وقال ذات مرة عن كتبه : « ما قدمت بغداد الا لأكتب كتب الواقدي »[2] ، لكن جهود المأمون ذهبت عبثا فقال عن قاضيه : « هـذا رجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل » • وروى الخطيب البغدادي خبر حرص المأمون على حفظ الواقدي سورة الجمعة على الأقل وكيف أنه باء بالفشل فقال بصدد ذلك ما نصه : « قال المأمون للواقدي أريد أن تصلي الجمعة غدا بالناس قال : فأمتنعَ • قال : لا بد من ذلك فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما أحفظ سورة الجمعة • قال : فأنا أحفّظك ، قال فافعل • فجعل المأمون يلقّنه سورة الجمعة حتى يبلغ النصف منها ، فاذا حفظه ابتدأ بالنصف

---

(١) الخطيب البغدادي ، المرجع المذكور ، ج٣ ، ص ٨ •

(٢) المصدر عينه : ج ٣ ، ص ٥ . وكان المأمون منذ تولى اخوه الامين الخلافة مقيما في خراسان وقد استمر فيها حتى بعد مقتل أخيه وبيعته بالخلافة ولم يحضر الى بغداد الا في مطلع سنة ٢٠٣ هـ .

الثاني فاذا حفظ النصف الثـاني نسي الاول فأتعب المأمون ونعس • فقال لعلي بن صالح : يا علي حفّظه أنت قال علي : ففعلت ونام المأمون، فجعلت أحفّظه النصف الاول فيحفظه ، فاذا حفظته النصف الثاني نسي الاول ، واذا حفظته النصف الاول نسي الثاني ، واذا حفظته الثاني نسي الاول ، فاستيقظ المأمون فقال لي : ما فعلت ؟ فأخبرته • فقال : هذا رجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل ، اذهب فصلِّ بهم واقرأ أي سورة شئت » •

اتهامه بالتشيع ــ انفرد ابن النديم[1] من دون سائر كتاب التراجم الذين رووا حياة الواقدي برميه بالتشيع حيث قال : « وكان يتشيع حسن المذهب يلزم التقية وهو الذي روى أن عليا عليه السلام كان من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم كالعصا لموسى عليه السلام واحياء الموتى لعيسى بن مريم عليه السلام وغير ذلك من الاخبار ••• » لكن تشيع الواقدي لم يثبت وقد ناقش المستشرق هوروفيتس هذا الرأي وردّه بحجة أن مؤرخي الشيعة لا يشيرون الى ذلك ، لا بل فان الواقدي لم يظهر فيما كتبه أي تحيّز لجانب علي لأنه فيما يتعلق بالاخبار المتعلقة برابع الخلفاء الراشدين التزم مؤرخنا هذا جانب الحياد بذكره الاقوال التي في جانب علي والتي عليه »[2] •

طريقته في البحث : ــ وقد أدى حضور الواقدي حلقات ومجالس أساطين علماء الحديث في المدينة ، وأخذه عنهم الى جعله علما من أعلام الحديث والتـاريخ في مدينة الرسول ، وغدا مرجعا لا يحجم أقطاب العلم في المدينة كمالك بن أنس عن سؤاله والأخذ برأيه • ومن قبيل

---

(١) ابن النديم ، المرجع المذكور ، ص ١٥٠ •

(٢) راجع تفصيل ذلك في كتـاب هوروفيتس المشار اليـه آنفا ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ •

ذلك ما رواه الخطيب البغدادي بأسناد مختلفة [1] من شهادة كبار علماء المدينة بسعة اطلاعه ووفرة علمه . كقوله : « .. ذكر لنا أن مالكا سئل عن قتل الساحرة . فقال : انظروا هل عند الواقدي من هذا شيئا ؟ فذاكروه ذلك فذكر شيئا عن الضحاك بن عثمان ، فذكروا أن مالكا قنع به » ثم قوله : « سئل مالك بن أنس عن المرأة التي سمّت النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ما فعل بها ؟ فقال : ليس عندي بها علم ، وسأسأل أهل العلم . فقال فلقي الواقدي فقال : يا أبا عبد الله ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بالمرأة التي سمّته بخيبر ؟ فقال : الذي عندنا أنه قتلها . فقال مالك : قد سألت أهل العلم فأخبروني أنه قتلها . » كما روى أيضا ما ذكره محمد بن أحمد الذهبي وقد ذُكر الواقدي عنده فقال : « والله لولا أنه عندي ثقة ما حدث عنه أربعة أئمة : أبو بكر بن أبي شيبة وأبو عبيد وأحسبه ذكر أبا خيثمة ورجلا آخر » . وذكر كذلك شهادة الدراوردي في الواقدي حينما سأله عمر الناقد عنه فأجاب : « تسألني عن الواقدي ! سل الواقدي عني . وقال الدراوردي نفسه عنه أيضا : « ذاك أمير المؤمنين في الحديث » . وسئل أبو عامر العقدي عنه فقال : « انما يسأل الواقدي عنا » . وحدث الواقدي عن الشهرة التي كان يتمتع بها في المدينة بقوله : « لقد كانت ألواحي تضيع فأوتى بها من شهرتها بالمدينة يقال هذه ألواح ابن واقد » . وقال عنه مصعب بن الزبير : « والله ما رأينا مثله قط » . وقال عنه ابن المبارك : « كنت أقدم المدينة فما يفيدني ولا يدلني على الشيوخ الا الواقدي » .

ولطالما امتحنه كثيرون في المدينة بسؤاله عن أحاديث عن رسول الله لم يروها سوى راوٍ واحد فوجدوه واقفا عليها حافظا لها . وقد سئل

---

(1) الخطيب البغدادي : المرجع المذكور ، ج ٣ ، ص ٨ — ١٢ .

حنيفة) ثلاثة قماطر (القمطر ماتصان به الكتب) فقلت له : كان ينظر فيها قال كان ربما نظر فيها ، وكان أكثر نظره في كتب الواقدي » كما أورد رواية عن ابراهيم الحربي جاء فيها : « لم يزل أحمد بن حنبل يوجّه في كل جمعة لحنبل بن اسحاق الى محمد بن سعد كاتب الواقدي، فيأخذ له جزأين جزأين من حديث الواقدي فينظر فيها ثم يردّها » .

ومع أن بعض المحدّثين طعنوا في رواية الواقدي للأحاديث فانهم أجمعوا على توثيقه فيما يتعلق بمعرفته لأخبار الناس أي للتاريخ . وقد ذكر ياقوت الحموي [1] حول ذلك ما نصه : « وهو مع ذلك ضعّفه طائفة من المحدّثين كأبي معين وأبي حاتم والنسائي وابن عدي وابن راهويه والدارقطني ، أما في أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون فهو ثقة باجماع » .

موقفه من طريقة رجال الحديث ومآخذهم عليه . — وبعد أن أوردنا طائفة من شهادات مؤيدي وخصوم الواقدي لا بد وأن نفصّل مآخذ رجال الحديث عليه . ان المأخذ الرئيسي لرجال الحديث على الواقدي هو جمعه الأسانيد وذكره متناً واحداً وهو نفس المأخذ الذي وجّهه المحدّثون من قبل للزهري ولابن اسحاق وقد سئل ابراهيم الحربي : « عما أنكره أحمد بن حنبل عن الواقدي ، فذكر أن مما أنكره عليه جمعه الأسانيد ومجيئه بالمتن واحداً . قال ابراهيم الحربي : وليس هذا عيباً ، قد فعل هذا الزهري وابن اسحاق » . كما روى ابراهيم هذا أنه سمع ابن حنبل يقول ما يلي وقد ذكر عنده الواقدي : « ليس أنكر عليه شيئاً الا جمعه الأسانيد ، ومجيئه بمتن واحد على سياقة واحدة ، عن جماعة وربما اختلفوا قال ابراهيم : ولم ؟ وقد فعل هذا ابن اسحاق ، كان يقول حدثنا عاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر

---

(1) ياقوت الحموي ؛ المرجع المذكور ، ج ١٨ ، ص ٢٧٩ .

مجاهد بن موسى عنه فقال : « ما كتبت عن أحد أحفظ منه » واعتبره جمهرة محدّثي المدينة ثقةً مأموناً .

وعلى الرغم من وفرة تقريظ كبار المحدّثين له وتوثيقهم له فثمة فئة أخرى من المحدّثين جرّحته ولم تعتدّ بروايته ولم توثّقه وذكرت أنه دسّ على الرسول عشرين ألف حديث.وهذا ما رواه الخطيب البغدادي نفسه[1] عن عبد الله بن علي المديني.وأكد هذا الادعاء الحسن بن محمد المؤدب . كما روى عبد الله بن علي المديني أن مالكا قال عن الواقدي من أنه « يُركِّبُ الأسانيد » . وذكر الخطيب أن يحيى بن معين قال : والواقدي ليس بشيء وأن سواه سمع أحمد بن حنبل يقول عنه « هو كذاب » ، ورووا أن الامام الشافعي قال : « كتب الواقدي كذب » . وذكروا أن بندار بن بشار قال عنه : « ما رأيت أكذب شفتين من الواقدي » . وقد قيل أن محمد بن اسماعيل البخاري قال عنه : « محمد بن عمر الواقدي قاضي بغداد متروك الحديث » (هذا بعد أن قصد الواقدي العراق حيث استقر في بغداد على النحو الذي سيأتي بيانه) .

وبعد أن استقر المقام بالواقدي في بغداد بولاية قضاء شرقيها للرشيد وغربيها للمأمون ساءت العلاقة بينه وبين عميد رجال الحديث في بغداد الامام أحمد بن حنبل . وبالرغم من وفرة مطاعن هذا الامام بالواقدي فانه لم يكن ينقطع عن دراسة كتبه ، وهذا ما ذكره عبد الله ابن أحمد بن حنبل وسواه وأورده الخطيب في دراسته للواقدي فقال رواية عن ابراهيم بن جابر جاء فيها : « حدثني عبد الله بن أحمد ابن حنبل . قال : كتب أبي عن أبي يوسف ومحمد (تلميذي أبي

---

(1) راجع اقوال الجرح في الواقدي في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ج ٣ ، ص ١٢ ـ ١٨ .

وفلان وفلان . والزهري أيضا قد فعل هذا . قال وسمعت ابراهيم يقول قال بور (بن أصرم) : رآني الواقدي أمشي مع أحمد بن حنبل. قال ثم لقيني بعد فقال لي : رأيتك تمشي مع انسان ربما تكلّم في الناس . قيل لابراهيم لعله بلغه عنه شيء ؟ قال نعم ، بلغني أن أحمد أنكر عليه جمعه الرجال والأسانيد في متن واحد .

« قال ابراهيم : وهذا قد كان يفعله حماد بن سلمة ، وابن اسحاق، ومحمد بن شهاب الر ي » .

وقد أدرك تلاميذ الواقدي هذا النقد الذي وجهه بعض أئمة المحدّثين لشيخهم فسألوه أن يتقيد بأسلوب المحدثين لئلا يترك لهم حجة للنيل منه فأفهمهم أن الامر سيطول بهم ، وبرهن لهم على ذلك بصورة أكيدة اذ كتب لهم غزوة أحد في عشرين جزءاً فوجدوا أن حفظ كل ذلك شاق عسير عليهم ورجوه أن يعود بهم الى طريقته الاولى . وقد ذكر الخطيب البغدادي[1] هذه الرواية عن ابراهيم الحربي وورد فيها ما نصه « قال ابراهيم الحربي : وسمعت السمتي يقول قلنا للواقدي : هذا الذي يجمع الرجال يقول حدثنا فلان وفلان وحيث لا يميز واحد له ، حدّثنا بحديث كل رجل على حدة . قال : يطول . قلنا له : قد رضينا . قال فغاب عنا جمعة ثم جاءنا بغزوة أحد عشرين جلداً . وفي حديث البرمكي مائة جلد . فقلنا له : ردّنا الى الأمر الأول ..

ولعل مردّ طعن أحمد بن حنبل في الواقدي الى حظوة هذا الاخير عند المأمون خصم ابن حنبل الذي حاول الخليفة اجباره على القول بخلق القرآن . فنظراً لأن الواقدي لم يدافع عن ابن حنبل لدى المأمون مع ما كان له من دالّة عليه ساد الجفاء علائق ابن حنبل بالواقدي فأخذ

---

(١) الخطيب البغدادي : المرجع المذكور : ج ٣ ، ص ٧ .

يطعن فيه . هذا علماً أننا نذكر ذلك من باب الاستنتاج لأننا لم نجد أحداً من المؤرخين الذين رجعنا اليهم يشير الى ذلك .

ومن مطاعن المحدثين على الواقدي محاباته العباسيين وحرصه على رضائهم عنه ولا سيما وكان لا يني عن ذكر أيادي يحيى بن خالد البرمكي عليه ، حتى بعد نكبة البرامكة ووفاة يحيى ، ولا ينقطع عن تمجيد العباسيين وتلطيف موقف جدهم العباس في غزوة بدر ، وذكره أن عمر بن الخطاب جعل العباس زعيماً للهاشميين عندما حدد عطاء كل مسلم في بيت المال . وهذا ما رواه المستشرق هوروفيتس[1] بهذا الصدد نقلا عن محمد بن سعد : « وقد عاش الواقدي ، كما رأينا ، في رضا الخلفاء العباسيين . ومن الواضح أن احترام البيت الحاكم هو سبب حذفه اسم العباس من قائمة خصوم النبي المأسورين في بدر ، ووضعه « فلان » بدلا من اسم العباس في قائمة الذين أمدوا جيش قريش بالمؤن (المطعمين) . وكذلك ذكر الواقدي الرواية القائلة بأن العباس كان في صدر قائمة العطاء التي كتبها عمر ، ارضاء للبيت الحاكم .

كان الخليفتان العباسيان اللذان اتصل بهما الواقدي وأوسدا اليه منصب القضاء في بغداد هما الرشيد والمأمون وكانا لا يكفان عن اغداق صلاتهما الوفيرة عليه . وقد حدثنا ياقوت الحموي[2] عن فرط اكرام المأمون له بقوله : « ... ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي (أي الرصافة شرقي بغداد) وكان يكرم جانبه ويبالغ في رعايته ، وكتب الواقدي الى المأمون مرة يشكو ضائقة ركبه بسببها دين وعيّن مقداره، فوقّع المأمون على قضيته بخطه : فيك خلتان : سخاء وحياء ، فالسخاء

---

(١) يوسف هوروفيتس : المرجع المذكور ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) ياقوت الحموي : المرجع المذكور ، ج ١٨ ، ص ٢٧٠ .

أطلق يديك بتبذير ما ملكت ، والحياء حملك على أن ذكرت لنا بعض دَينك ، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت ، وان كنـا قصّرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك ، وان كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك ، فان خزائن الله مفتوحة ، ويده بالخير مبسوطة ، وأنت حدثتني حين كنت على قضاء الرشيد : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير : يا زبير ، ان مفاتيح الرزق بازاء العرش ، ينزل الله سبحانه وتعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن كثَّر كثِّر له ، ومن قلّل قـلّل عليه » . قال الواقدي : نسيت الحديث ، وكان تذكيره لي به أعجب من صلته » .

وقد علق الخطيب على هذا الحادث[1] برواية عن هارون عن عبد الله القاضي الزهري (وهو أحد قضاة مصر) جاء فيها : « بلغني أن الجائزة كانت مائة ألف درهم ، فكان الحديث أحب اليه من المائة ألف » .

ومن مآخذ المحدثين على الواقدي نقله عن سيرة ابن اسحق دون أن يعترف بذلك وهذا مطعن مزدوج لأن المحدّثين طعنوا من جهة بسيرة ابن اسحاق ، ولأن الواقدي لم يعترف بما نقله عن هذه السيرة حرصا منه على ألا يغضب المحدّثين فجاءت النتيجة على عكس ما كان يشتهي لأنه عد مخلا بالأمانة . وقد تحدث هوروفيتس عن الرواة الذين نقل عنهم الواقدي في كتابه المغازي وحرصه على ألا يبوح باسم ابن اسحاق ما نصه[2] : « ... ويبرز من بين هؤلاء الرواة المباشرين وغيرالمباشرين مؤلفو المغازي الذين ذكرناهم آنفاً : الزهري ، ومعمر ، وأبو معشر ، وكذلك موسى بن عقبة ، وان كان أقل منهم ؛ أما ابن اسحاق فلا يذكره أبدا . وتستحق هذه الظاهرة عناية خاصة ، لأن الواقدي في الترجمة الموجودة في الطبري ، يصرح باعجابه العظيـم بابن اسحاق ، يقول :

---

(١) الخطيب البغدادي : المرجع المذكور ، ج ٣ ، ص ١٩ .

(٢) يوسف هوروفيتس : المرجع المذكور ، ص ١٢١ .

« وكان من أهل العلم بالمغازي ــ مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وبأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم ، راوية لأشعارهم ، كثير الحديث ، غزير العلم ، طلاّبة له ، مقدماً في العلم بكل ذلك ثقة » . ولا يمكن الشك في أن الواقدي استخدم كتاب ابن اسحاق (ذكر المؤلف في الحاشية : توجد الادلة عند ولهوزن ــ وهو المستشرق الالماني يوليوس ولهوزن ــ) ; ولعله أخذ منه أكثر من أي شخص آخر ممن تقدمه ، ومن الممكن أن يكون ذلك سبب عدم ذكره ، لأنه لم يرغب في جعل ما أخذه واضحاً بارزاً بالاكثار من ذكر اسمه ، وأرضى نفسه بضمّه الى تلك المراجع غير المذكورة التي يقول عنها في نهاية قائمته : « وغيرهم قد حدثني أيضا » .

ومن بين مطاعن المحدّثين في الواقدي اكثاره من الاستشهاد بالقصائد الشعرية في كتابه المغازي ومع ذلك فانه لم يبالغ في اثبات هذه القصائد في كتبه مبالغة ابن اسحق[1] .

ومن مآخذ المحدّثين عليه نقله في بعض الحالات عن الصحف المدوّنة ، علماً أنهم يؤثرون النقل بالسماع ، فالصحف والوثائق المدوّنة هي في زعمهم عرضة للتزوير . وهذا النقد هو نفس النقد الذي كان المحدّثون وجهوه من قبل لابن اسحاق . لكن هذا النقد عدّه المستشرق هوروفيتس ميزة من ميزات الواقدي فقال عنه[2] ما نصه : « ويستخدم الواقدي الى جانب كتابات من تقدمه (ذكر المستشرق هنا في الحاشية مثالين لمراجعة الواقدي كتاب أبي بكر بن عبد الرحمن بن المسور وكتاب أبي موسى بن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيميّ) ، المراجع الاصلية أيضا ، متابعا النصوص التي ذكرها المتقدمون أحياناً ، والاصول التي

---

(١) يوسف هوروفيتس ، المرجع المذكور ، ص ١٢٢ .

(٢) المصدر عينه .. ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .

اختبرها بنفسه أحيانا أخرى • فيدوّن الواقدي في كتاب المغازي بعض أوامر النبي ومعاهداته ، ويعتمد الفصل الذي خصصه ابن سعد لرسائل النبي أكثر اعتماده على مجموعة الوثائق التي جمعهـا الواقدي على أساس جهود من تقدمه •

« ويتبع الواقدي خطة ثابتة في عرضه المغازي : فيبدأ بذكر عام خروج الغزوة ورجوعها ، ويتبعه بأخبار الغزوة ــ ويتألف العرض في الفصول الطويلة من خبر رئيس واحـد مكوّن من كثير من الروايات الفردية التي يضيف اليها أخباره الخاصة ــ ويذكر في النهاية ، في غالب الأحيان ، نائب النبي على المدينة في غيابه ، وبعض الأشعار والآيات التي تحتوي على اشارات للحادث الذي يعالجه وقوائم •• الخ » •

وعلى الرغم من وفرة مآخذ المحدّثين على الواقدي لانه لم يكن كما أرادوا أي مجرد جامع للاخبار يذكرها مع ذكر أسانيدها (رواتها) دونما تحليل أو نقد ، فان المؤرخين الحديثين أعجبوا أيما اعجاب بأسلوبه فهو وان حاول فيه التقيد بأسلوب المحدثين من حيث بقاؤه مسلوب الشخصية ومجرد جامع ناقل للمادة التاريخية التي يرويها لـه الآخرون ، لكن الواقدي لم يمض بعيداً في تقيده بهذا الأسلوب من حيث أنه جعل كتابه في المغازي ليس مجرد تكرار للحقائق المعروفة من قبل انما نتيجة بحث مستقل ظهرت فيه شخصيته الفذّة كرائد من روّاد التأليف التاريخي الحديث • وقد حدثنا هوروفيتس عن هذا الاسلوب الرائع مستشهدا بقول زميله المستشرق ولهوزن ، بما يلي [1] : ولا يتكلم الواقدي عن نفسه في كتابه الا نادرا ، اللهم الا في الاسناد «وحدّثت كذا وكذا» • ومع ذلك ، ليس الواقدي جامعا ومنظما من الـدرجة الاولى للمادة التي يرويها له الآخرون فحسب ، فهو يفوق من تقدمـه

---

(١) يوسف هوروفيتس : المرجع المذكور ، ص ١٢٣ .

في تحديد تواريخ الحوادث ، وليس تاريخه مجرد تكرار لحقائق معروفة من قبل ، وانما ثمرة بحث مستقل . أضف الى ذلك أن الواقدي دوّن ملاحظاته الخاصة على أصول الأحاديث ، وقد حفظ ابن سعد مقالا طويلا شاملا من الواقدي ، يقرر فيه رأيه دون أن يثير أي راوٍ مهما كان ، ولا يستثنى من ذلك في النادر الا الكاتب الذي قلما يروي أخباراً مفصلة ، دون أن يذكر الاسناد الصحيح . وذلك بالطبع بغضّ النظر عن تفاصيل الترجمة الاصلية المذكورة سابقا » .

حرص الواقدي على جمع سائر المعارف المنتشرة في عصره وكتبه وأهميتها : ـ تمكن الواقدي بحكم نشأته الدينية من الوقوف على جميع العلوم الدينية في عصره من فقه وحديث وتفسير ، واهتم كذلك بعلوم القرآن ولم يهمل الأدب فقد ألّف فيه كتاباً ثم قصر اهتمامه على التأليف في التاريخ فبلغ ما ألفه في هذا العلم اثنين وعشرين كتابا وكان حريصا على الوقوف على جميع معارف عصره ولا سيما الدينية والتاريخية فزخرت مكتبته الخاصة بروائع التأليف . وقد روى ياقوت الحموي [1] أنه : « لما تحول الواقدي من الجانب الغربي يقال : انه حمل كتبه على عشرين ومائة وقرٍ » (والوقر : الحمل الثقيل) كما ذكر ابن النديم [2] ، وياقوت أنه خلف ستمائة قِمَطْر كتب (والقمطر ما تصان به الكتب) . وهذه الكتب هي من نسخ غلامين مملوكين له كانا يكتبان وينسخان بين يديه الليل والنهار ، وقبل ذلك كانت قد بيعت كتب له بألفي دينار .

وقد تحدث الخطيب البغدادي عن أهمية كتبه وحرص الخليفة المأمون على نسخها وعن وفرة تلك الكتب وأن حفظه أكثر من كتبه فقال بصدد

---

(١) ياقوت الحموي ، المرجع المذكور ، ج ١٨ ، ص ٢٨١ .

(٢) ابن النديم ، المرجع المذكور ، ص ١٥٠ .

كل ذلك [1] ما نصه : « ... قال سمعت ابراهيم بن سعيد يقول سمعت المأمون يقول : ماقدمت بغداد الا لأكتب كتب الواقدي » ... (وبعد ايراد المؤلف لسند طويل قال) « يحكى عن أبي حذافة قال : كان للواقدي ستمائة قمطر كتب » ومع هذه الكثرة من الكتب فان الواقدي كان يزهو بنفسه من أن حفظه أكثر من كتبه حيث روى الخطيب عن ابن سعد كاتب الواقدي قوله : « كان الواقدي يقول : ما من أحد الا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظي ، أكثر من كتبي » .

وقد أحصينا كتبه التي ألّفها والتي أورد كل من ياقوت الحموي وابن النديم ثبتاً بها فاذا بها ثمانية وعشرون كتابا ذكرها ياقوت بينما ذكر ابن النديم له سبعة وعشرين كتابا [2] . أما المستشرق هوروفيتس فقد تحدث عن حرص الواقدي على الوقوف على معارف عصره ، وصنّف كتبه في مجموعتين ضمّت أولاهما ، وتتعلق بالفقه والقرآن والحديث والادب ، سبعة كتب ، على حين شملت الثانية ، وهي تقتصر على الكتب التاريخية فحسب ، واحدا وعشرين كتابا . ثم ذكر أهمية هذه الكتب وحلّل طريقة وأهمية تآليف الواقدي [3] فقال بصدد كل ذلك ما نصه : « وكان الواقدي مشغوفا بجمع المعارف المنتشرة في عصره ، فنسخ جميع الكتب التي أمكنه الحصو لعليها ... وكانت هذه الكتب أساس نشاطه الادبي الخاص ، الذي شمـل ميادين مختلفة.. وهاك أسماء هذه الكتب :

---

(١) الخطيب البغدادي ، المرجع المذكور ، ج ٣ ، ص ٥ — ٦ .

(٢) راجع من أجل كتبه الفهرست لابن النديم ، ص ١٥٠ — ١٥١ ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ج ١٨ ، ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٣) يوسف هوروفيتس ، المرجع المذكور ، ص ١١٤ — ١٢٠ .

« آ ـ كتب في الفقه . والقرآن ، والحديث ... الخ » .

١ ـ كتاب الاختلاف : اختلاف آراء فقهاء المدينة والكوفة في الشُفعة ، الصدقة ، والرُقبى ، والأبواب الأخرى من الفقه .

٢ ـ كتاب غلط الحديث ، ٣ ـ كتاب السنة والجماعة وذمّ الهوى ،

٤ ـ كتاب ذكر القرآن ، ٥ ـ كتاب الادب ، ٦ ـ كتاب الترغيب في علم القرآن .

ب ـ الكتب التاريخية :

٧ ـ التاريخ الكبير ، ٨ ـ التاريخ والمغازي والبعث ، ٩ ـ أخبار مكة ، ١٠ ـ أزواج النبي (ص) ، ١١ ـ وفاة النبي (ص) ، ١٢ ـ السقيفة وبيعة أبي بكر ، ١٣ ـ سيرة أبي بكر ووفاته ، ١٤ ـ الردّة والدار ، ١٥ ـ السِّيرة ، ١٦ ـ أمر الحبشة والفيل ، ١٧ ـ حرب الأوس والخزرج ، ١٨ ـ المناكح ، ١٩ ـ يوم الجمل ، ٢٠ ـ صِفّين ، ٢١ ـ مولد الحسن والحسين ، ١١ ـ مقتل الحسين ، ٢٣ ـ فتوح الشام ، ٢٤ ـ فتوح العراق ، ٢٥ ـ ضرب الدنانير والدراهم ، ٢٦ ـ مراعي قريش والأنصار في القطائع ووضع عمر الدواوين ، ٢٧ ـ الطبقات ، ٢٨ ـ تاريخ الفقهاء .

« ويذكر ابن سعد أيضا ، بالاضافة الى الكتب المسماة في هذه القائمة ، « كتاب طُعَم النبي » ومن الواضح أنه يتناول الدخل المفروض لأزواج النبي وأشخاص آخرين من أرض خيبر ، وربما لايكون غير فصل من « المراعي » ولهذا السبب لم يذكر في الفهرست ولا عند ياقوت . ويعالج كتابان من الكتب التاريخية (السادس عشر والسابع عشر ، وربما التاسع أيضا) موضوعات من التاريخ الجاهلي لمكة والمدينة ، وتتناول أربعة (٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٥) تاريخ النبي أو نواحي خاصة منه ، أما الكتب الباقية فتتناول أجزاء من تاريخ الاسلام بعد

وفاة النبي • وقد حفظت مقتطفات من كثير من هذه الكتب عند مؤرخين مختلفين •••» •

« ومن الواضح أن التاريخ الكبير » كان كتابا حصرت فيه جميع أحداث التاريخ الاسلامي الهامة على حسب سني وقوعها ، ووصل فيه الى عام ١٧٩ على الأقل ، وقد حفظ الطبري قطعا عديدة من التاريخ الذي يبدو أن الواقدي أتمه قبل اقامته في بغداد •

« ويزودنا « كتاب الطبقات » للواقدي ــ وكان أول من ألف مثل هذا الكتاب بعد الهيثم بن عدي ــ بأساس كتاب تلميذه ابن سعد المماثل ، ويظهر من الأخير أن الواقدي وجه أكثر عنايته الى طبقات الصحابة وسلالاتهم في المدينة ، والى طبقات محدثي الكوفة والبصرة وان كان ينقصه بعض النظام وهكذا يمكننا أن ننظر الى كتاب الطبقات » للواقدي على أنه تكملة لكتبه الأخرى المخصصة لحياة النبي ••• » •

وبعد أن عدد هوروفيتس ما اقتبسه ابن سعد من كتب أستاذه الواقدي تابع كلامه قائلا : « ولم يبق لنا من جميع كتابات الواقدي كتاب هام كامل غير « كتاب المغازي » •••

« ويذكر الواقدي في بداية « كتاب المغازي » قائمة بمن أكثر عنهم الرواية ، تتألف من خمسة وعشرين اسما ، ويذكر تلميذه ابن سعد أيضا أحد عشر منهم بأنهم رواة الواقدي الرئيسيون في المغازي • ويبدو من هذه القائمة التي علق عليها سخاو Sachau بالتفصيل أن الواقدي لا بد أنه شرع بجمع مادته في زمن مبكر ، لان بعض هؤلاء الرواة المباشرين مات بعد عام ١٥٠ هـ • بزمن قليل ، أي حين كان الواقدي في الخامسة والعشرين أو أصغر ؛ وجميع هؤلاء الرواة تقريبا من أهل المدينة أو عاشوا هناك ؛ ولذلك يمكن اعتبار الواقدي ممثلا للمدرسة المدنية • ولكن القائمة المذكورة في بداية الكتاب لا تشمل

جميع من روى عنهم الواقدي مباشرة ، وانما تعتمد عليهم روايتـه الرئيسية فقط ٠٠ » ٠

محمد بن سعد: ــ ١٦٨ ــ ٢٣٠ هـ : هو محمد بن سعد بن منيع البصري المولود في البصرة سنة ١٦٨ ٠ وقد ذكر معظم مترجمي سيرته أنه كان من موالي الهاشميين ، فكان ولاؤه للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ٠ غير أن المستشرق هوروفيتس[1] ، وهو أحد المستشرقين الذين حققوا كتاب الطبقات لابن سعد ودرسوا حياة هذا المؤرخ [2] ، رجّح أن يكون والد ابن سعد أو جده كـان مولى لذلك الهاشمي وليس ابن سعد نفسه ، وذلك لان الحسين بن عبد الله المار الذكر كان قد توفي في عام ١٤٠ أو ١٤١ هـ أي قبل مولد ابن سعد ٠ ومهما يكن فان ابن سعد تحرر من ولائـه لهذا الفرع الهاشمي ولم يعد يشعر نحوه بأية صلة تبعية أو ارتباط خاصة وأن هوروفيتس استند الى قول ابن سعد نفسه في حكمه هذا حيث قال : « ويتضح من قول ابن سعد أن ذلك الفرع من البيت العباسي انتهى بالحسين ، أن ابن سعد نفسه لم يعد يرتبط بأي نوع من الارتباط بذلك الفرع ٠٠٠»٠

ويجب ألا تفوتنا الاشارة في معرض حديثنا عن نسب ابن سعد

---

(١) يوسف هوروفيتس ، المرجع المذكور ، ص ١٢٦ ٠

(٢) راجع من اجل اسماء هؤلاء المستشرقين كتاب كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي ، ج ٣ ، ص ١٩ ــ ٢٠ (طبعة القاهرة ١٩٦٢) وقد ذكر أن جماعة من المستشرقين اسهموا فيما بين ١٩٠٤ ــ ١٩٢٨ في نشر كتاب طبقات ابن سعد في ليدن ٠ وهؤلاء المستشرقون : بروكلمان وهوروفيتس وليبرت ومايسنر وميتفوخ وشفلي وزترستين ٠ كما ذكر هوروفيتس في كتابه المذكور آنفا أن المستشرق أوتو لوث Otto Loth وضع رسالة عن ابن سعد في عام ١٨٦٩ م ٠

أن ثمة فئة من مؤرخي التراجم وعلى رأسهم ابن خلكان [1] حددت ولاء ابن سعد الى بني زهرة القرشيين . لكن رأي الغالبية مجمع على أن ولاء أسرة ابن سعد هو للهاشميين .

اعتبر هذا المؤرخ آخر طبقة المهتمين بجمع أخبار مغازي الرسول (ص) . وعلى الرغم من ملازمته لشيخه الواقدي وأخذه عنه لدرجة أنه كثيرا ما غلب عليه لقب « كاتب الواقدي » فقد قام مؤرخنا هذا برحلات الى المدينة والكوفة وبغداد . فبعد أن قصد ابن سعد بغداد منقطعا الى شيخه الواقدي سافر وهو في حوالي العشرين من عمره الى المدينة ليأخذ عن أساطين علم الحديث فيها . وقد ذكروا أنه كان في المدينة سنة ١٨٩ هـ حيث استمع الى بعض شيوخها في هذا العام . فضلا عن أن جمهرة من أخذ عنهم ابن سعد من شيوخ المدينة كانت وفاتهم قبل مستهل القرن الثالث الهجري بمعنى اقتباس ابن سعد منهم قبل سنة ٢٠٠ هـ .

كما رحل ابن سعد الى الكوفة ، ولكنه عاد أخيرا الى بغداد حيث استقر فيها وذاع صيته وعد من كبار فقهائها لا بل عد أحد كبار فقهائها السبعة الذين طلب الخليفة العباسي المأمون سنة ٢١٧ هـ ، وكان عامئذٍ في الرقّة ، الى نائبه وعامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم الخزاعي ابن عم طاهر بن الحسين الخزاعي أن يشخصهم اليه الى الرقة ليمتحنهم في قضية خلق القرآن .

وحدثنا عن هذا الخبر ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة [2]

---

(١) ابن خلكان ، المرجع المذكور ، ج ٣ ، ص ٤٧٣ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابي المحاسن يوسف ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، أخبار سنة ٢١٧ هـ .

فقال ما نصه : « ... ثم كتب المأمون بمثل ذلك الى سائر عمّاله والى نائبه على بغداد اسحاق بن ابراهيم الخزاعي ابن عم طاهر بن الحسين أن يرسل اليه سبعة نفر ، وهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي ، ويحيى بن معين ، وأبو خيثمة ، وأبو مسلم مستملي يزيد ابن هارون ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد ابن ابراهيم الدّورقي ، فأُشخصوا اليه ، فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه فردّهم من الرقّة الى بغداد ، وكانوا توقفوا أولا ثم أجابوه خوفا من العقوبة . ثم كتب المأمون أيضا الى اسحاق بن ابراهيم المذكور بأن يحضر الفقهاء ومشايخ الحديث ويخبرهم بما أجاب به هؤلاء السبعة ، ففعل ذلك ، فأجابه طائفة وامتنع آخرون ... » فلئن دل هذا النص على شيء فانما يدل على ما كان يتمتع به ابن سعد من منزلة سامية بين فقهاء بغداد بدليل أن المأمون انتخبه ليكون مثلا يحتذى به من قبل غيره من الفقهاء ورجال الحديث .

اقتبس ابن سعد ، وقد ذكر أنه كان حافظ علم شيخه الواقدي من الضياع ، علمي الحديث والفقه والأخبار عن جهابذة علماء عصره من مدنيين وغيرهم كما روى عنه كثيرون . وحدثنا الخطيب البغدادي[1] عن شيوخ وتلامذة ابن سعد فقال ما نصه : « ... وهو كاتب الواقدي . سمع سفيان بن عيينة ، واسماعيل بن علية ، ومحمد بن أبي فديك ، وأبا حمزة أنس بن عياض ، ومعن بن عيسى ، والوليد بن مسلم ، ومن بعدهم . وكان من أهل الفضل والعلم ، وصنف كتابا كبيرا في طبقات الصحابة والتابعين ، والخالفين (أي الذين أتوا بعد التابعين) الى وقته ، فأجاد فيه وأحسن . روى عنه الحارث بن أبي أسامة ، والحسين بن فهم وأبو بكر بن أبي أسامة ، والحسين بن فهم

---

(١) الخطيب البغدادي : المرجع المذكور ، ج ٥ ، ص ٣٢١ .

وأبو بكر بن أبي الدنيا . أنبأنا ابراهيم بن مخلد حدثنا أحمد بن كامل القاضي قال قال لي محمد ن موسى : الذين اجتمعت عندهم كتب الواقدي أربعة أنفس : محمد بن سعد الكاتب أولهم ... » .

أما الاستاذ احسان عباس فقد قال عن شيوخ ابن سعد في مقدمته على كتاب الطبقات الكبرى [1] ما نصه : « ونستطيع أن تقول ان محمد بن سعد كان على اتصال بأكبر رجال الحديث في عصره ، سواء أكانوا شيوخا أم تلامذة . ومن يطلع على الطبقات يجد له شيوخا كثيرن منهم سفيان بن عيينة وأبو الوليد الطيالسي ومحمد بن سعد ان الضرير ووكيع بن الجراح وسليمان بن حرب وهشيم والفضل بن دكين والوليد بن مسلم ومعن بن عيسى وعشرات غيرهم ، ولو راجع القارىء تراجم هؤلاء الشيوخ في كتب الرجال ، لوجد معظمهم ممن لا يشك في عدالته . وهذا ما يجعلنا نعتقد أن المادة التي نقلها ابن سعد قد وجهت بالنقد الضمني لانه تحرى قبل نقلها أن تكون في الاكثر مأخوذة عن العدول الثقات . وهذا الموقف هو الذي كسب لابن سعد تقدير معاصريه ومن بعدهم ، فكلهم وثقة تقريبا وأثنى عليه .. » .

وعندما بلغ ابن سعد الثانية والستين من العمر وافته منيته ببغداد على أرجح الأقوال وذلك كما أورد ابن خلكان وغيره من مؤرخي التراجم : « وتوفي يوم الأحد لاربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ببغداد . ودفن في مقبرة باب الشام وهو ابن اثنتين وستين سنة ، رحمه الله تعالى » .

منزلتـه العلمية : ـــ تكاد كلمة مؤرخي التراجم تجمع على أن ابن

---

(١) الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ج ١ ، ص ٦ ــ ٧ . مقدمة احسان عباس على طبعة بيروت لهذا الكتاب .

سعد كان ثقةً صدوقاً . فقد ذكر ابن النديم [1] أنه « ... كان ثقةً مستورا عالما بأخبار الصحابة والتابعين » . أما ابن خلكان [2] فقد وثّقه في معرض كلامه عن كتابيه فقال : « ... وله طبقات أخرى صغرى ، وكان صدوقا ثقة ... » والسخاوي[3] تحدث عنه بعد كلامه عن كتابيه في الطبقات قائلا : « .. والطبقات الصغرى والكبرى لمحمد ابن سعد كاتب الواقدي وهو ثقة وان كان شيخه الواقدي ضعيفا .. ».

وعلى الرغم من ايراد الخطيب البغدادي [4] رأي يحيى بن معين الذي لم يعتبر ابن سعد ثقة صدوقاً فان هذا المؤرخ وثّقه مستنداً الى آراء الكثيرين من النقّاد فقال بصدد كل ذلك ما نصه : « ... أخبرنا الحسن بن أبي بكر أخبرنا أحمد بن كامل القاضي قال سمعت الحسين ابن فهم يقول : كنت عند مصعب الزبيري فمر بنا يحيى ن معين فقال له مصعب : يا أبا زكريا حدثنا محمد بن سعد الكاتب بكذا وكذا — وذكر حديثا — فقال له يحيى : كذب » .

ثم تابع الخطيب كلامه قائلا : ومحمد بن سعد عندنا من أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه فانه يتحرى في كثير من رواياته ، ولعل مصعبا الزبيري ذكر ليحيى عنه حديثا من المناكير التي يرويها الواقدي فنسبه الى الكذب . وقد قال ابن أبي حاتم الرازي : سألت أبي عن محمد بن سعد فقال : يصدق . جاء الى القواريري وسأله عن أحاديث فحدثه . أخبرنا أبو القاسم الازهري أخبرنا محمد بن العباس

---

(١) ابن النديم : المرجع المذكور ، ص ١٥١ .

(٢) ابن خلكان : المرجع المذكور ، ج ٣ ، ص ٤٧٣ .

(٣) السخاوي : المرجع المذكور ، ص ١١٧ .

(٤) الخطيب البغدادي : المرجع المذكور ، ج ٥ ، ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

أخبرنا أبو أيوب سليمان بن اسحاق بن الخليل قال سمعت ابراهيم الحربي يقول : كان أحمد بن حنبل يوجّه في كل جمعة بحنبل بن اسحاق الى ابن سعد ، يأخذ منه جزأين من حديث الواقدي ، ينظر فيهما الى الجمعة الاخرى ، ثم يردهما ويأخذ غيرهما ، قال ابراهيم : ولو ذهب سمعهما ، كان خيرا له ... » .

ولم تقتصر ثقافة ابن سعد على الحديث ورواية الاخبار والسير فحسب انما حذق معظم العلوم الدينية الرائجة في عصره ولا سيما الفقه والقراءات لا بل ذكر الخطيب أنه « كان كثير العلم كثير الحديث والرواية وكثير الطلب ، وكثير الكتب ، كتب الحديث وغيره من كتب الغريب والفقه » [1] .

ولم يهمل الاستاذ احسان عباس الحديث عن تعدد نواحي ثقافة ابن سعد فقال [2] نقلا عن مصادر مختلفة ما نصه : « ولم تقتصر ثقافة ابن سعد على الحديث والأخبار والسِّير بل انه كتب الغريب والفقه ، وربما دلت صلته بالنحويين واللغويين مثل أبي زيد الانصاري على استكماله للنواحي اللغوية والنحوية ، على نحو واسع . أما صلته بمحمد ابن سعد ان الضرير وهو من مشهوري القراء فتدل على اهتمامه بالقراءات ، وقد صرح ابن الجزري بأن ابن سعد روى الحروف عن محمد بن عمر الواقدي ثم رواها عنه الحارث بن أبي أسامة . وكان توفره على كتابة تراجم الرجال سبباً في اطلاعه الواسع على علم الأنساب ، ويبدو من الطبقات أنه أحكم هذا الفرع احكاماً جيداً بحيث تمكن فيه من المناقشة والترجيح ، وعمدته في ذلك رواية أستاذه الواقدي ، ورواية

---

(١) الخطيب البغدادي : المرجع المذكور ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ .

(٢) الطبقات الكبرى ، ج ١ ، المقدمة ، ص ٩ .

ابن اسحاق ، ورواية ابن عمارة الأنصاري في نسب الأنصار ، ورواية هشام بن محمد السائب الكلبي ، وعن هذا الأخير روى ابن سعد كتابه « جمهرة الأنساب » . وكنا رأينا من قبل طول باعه في الفقه في بغداد لدرجة أنه عدّ من أساطين هذا العلم وأن المأمون طلب اشخاصه سنة ٢١٧ اليه الى الرقّة ليحمله على القول بخلق القرآن ليكون مثلا يطبع باقي فقهاء بغداد على غراره .

كتاب الطبقات الكبرى ــ لاحظ ابن سعد ماوجّه لشيخه الواقدي من انتقادات المتقيّدين بأسلوب مدرسة الحديث في تدوين التاريخ ، تلك الانتقادات التي أوشكت أن تؤدي الى ضياع علمه واندثار معالم كتبه فتجنب كل ما من شأنه أن يثير أقطاب هذه المدرسة ضده خاصة وكان أكبر أعلامها وهو أحمد بن حنبل معاصرا لابن سعد . لا بل على العكس كانت صلات أحدهما بصاحبه ودية . وهكذا وجدنا محمد ابن سعد يتقيد بأسلوب مدرسة الحديث في تدوين التاريخ في كتابيه الطبقات الكبرى والصغرى من حيث اثبات الأسانيد المختلفة للمتون المختلفة ، ومن حيث ايثار الرواية المنقولة بالسماع على الرواية المنقولة عن الصحف المدوّنة ، وغير ذلك من تعاليم مدرسة الحديث مما كنا درسناه في حينه . فلكل ذلك لم يناصب شيوخ الحديث ابن سعد العداء . لكن تقيّد هذا المؤرخ بأسلوب المحدّثين في طبقاته أفقد كتابه ، على الرغم من أهميته العلمية ، قسما كبيرا من أهميته اذا قورن أسلوبه بأسلوبنا الحديث في تدوين التاريخ .

ولعل أهم نتائج تقيد ابن سعد بأسلوب رجال الحديث أن غدا في كتابه الآنف الذكر مسلوب الشخصية مجرد جامع للأخبار . ومما يدل على أن ابن سعد اضطر مكرها الى مجاراة رجال الحديث في أسلوبهم أنه كانت تظهر في الكتاب بعض الاشارات التي تنمّ عن فكر نقديّ

سليم رزقه ابن سعد لكنه قلّ أن وجد الفرصة سانحة والسبيل ممهدة لاطلاق العنان لهـذه الملكة الانتقادية ، بل اضطر الى الاهتمام بايراد مختلف الاسانيد والمتون . وقد أورد الاستاذ احسان عباس أمثلة عديدة للروح الانتقادية التي عالج بهـا ابن سعد كثيراً من القضايـا التاريخية[1] ، كما ذكر تقيُّد هذا المؤرخ بايراد السند لدرجة غدا معها مسلوب الشخصية فقال[2] : وقد اختفت شخصية ابن سعد أو كادت وراء السند ، بل انه لا يضيرنا كثيرا أن نعتبر كتاب الطبقات روايةً نقلها تلميذ ابن سعد « الحارث بن أبي أسامة » ، بل اننا نجد في بعض المواطن هـذه العبارة « حدثنا محمد بن سعد » أي أن الذي يروي النصّ تلميذه لا هو ؛ وقد كفل هـذا للكتاب قسطاً وافراً جدا من الموضوعية ، كما هي الحال في أكثر نواحي الثقافة الاسلامية المعتمدة على الاسانيد . وليس لابن سعد في هذا الكتاب تعليقات كثيرة ولكن ما يوجد منها يدل على قدرة نقدية طيبة . فمن ذلك قوله في التعليق على اختلاف العلماء في نسب معدّ : ولم أر بينهم اختلافاأن معدّاً من ولد قيذر بن اسماعيل ، وهـذا الاختلاف في نسبته يدل على أنه لم يحفظ وانما أخذ ذلك من أهل الكتاب وترجموه لهم فاختلفوا فيه ، ولو صح ذلك لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلم النـاس به **فالأمر عندنا على الانتهاء الى معدّ بن عدنان ثم الامساك عما وراء ذلـك الى اسماعيل بن ابراهيم »** . عني ابن سعد بدراسة حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم في القسم الأول من كتابه وقد كانت دراسته لهـا بافاضة جعلت هذا القسم من كتابه الطبقات مساوياً في رأي المستشرق هوروفيتس [3] لسيرة ابن اسحاق ، كما وجد هذا المستشرق أن ابن

---

(1) الطبقات الكبرى : ج ١ ، المقدمة ، ص ١٣ ــ ١٤ .

(2) المصدر عينه : ج ١ ، المقدمة ، ص ١٣ .

(3) هوروفيتس : المرجع المذكور ، ص ١٢٨ .

اسعد أكثر عناية في بعض النواحي من حياة الرسول من ابن اسحاق نفسه ، وذكر حول هذه المسألة ما نصه : « ويعد ابن سعد أول مؤلف بعد ابن اسحاق ، وصلت الينا منه ترجمة كاملة للنبي ، ما دمنا لا نملك غير مغازي الواقدي كتاباً مستقلا كاملا . ويعطينا ابن سعد في بعض المواضيع تفاصيل أوفى من ابن اسحاق ، كما في الفصول الخاصة بأخلاق النبي وعاداته ، والخاصة برسائله وسفاراته ، والخاصة بمرضه ووفاته ؛ على حين يمرّ مرّ الكرام على الأمور الأخرى ، التي تشغل مساحة كبيرة عند ابن اسحاق ، مثل ماضي بلاد العرب الجاهلي الذي لا يتصل بأجداد النبي المباشرين . وعُني ابن سعد أحيانا بالتنظيم المنهجي لموادّه ؛ ويبدو أنه أول من جمع « علامات النبوّة » معاً ، ذلك العمل الذي اتبعته فيما بعد الكتب المتأخرة عن « دلائل النبوة ، كما كان فصله عن « صفة أخلاق رسول الله » سبب وجود أدب « الشمائل » فيما بعد » .

استعان ابن سعد بالمادة الغنية جدا التي جمعها شيخه الواقدي عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لا سيما فيما يتعلق بالفترة المكيّة من حياته صلى الله عليه وسلم لأن الروايات المأخوذة عن الواقدي تشكل المادة الرئيسية في الموضوع . وهذا ما حمل بعض مؤرخي التراجم كابن النديم [١] على الادعاء بأن ابن سعد « ألّف كتبه من تصنيفات الواقدي » . أما فيما عدا أخبار النبي فقد اعتمد ابن سعد على عدد من الرواة أورد ذكرهم في أقسام كثيرة من طبقاته وتحدث عنهم هوروفيتس قائلا[٢] : « وتعتمد أخبار النبي » لابن سعد اعتماداً شديدا على المادة التي جمعها أستاذه الواقدي . ومن الحق أنه لا يذكره

---

(١) ابن النديم ، المرجع المذكور ، ص ١٥١ .

(٢) هوروفيتس ، المرجع المذكور ، ص ١٢٨ — ١٣٠ .

في تاريخ أهل الكتاب الا نادرا ؛ أما راويته الرئيسي في ذلك فهو هشام ابن محمد بن السائب الكلبي • أما الواقدي فهو راويته الرئيسي في تاريخ الفترة المكية من حياة النبي ، وان كان ابن سعد يوسّع قصصه في الغالب بالروايات التي يأخذها عن الرواة الآخرين وكذلك الواقدي هو راويته الرئيسي في الفصول الخاصة بأنواع نشاط النبي في المدينة ، وابن سعد يكمل رواياته هنا بالروايات الاخرى •

« ومن جهة أخرى يبرز ابن سعد على الواقدي في فصوله عن صفة أخلاق النبي ، ولا يذكره الا نادرا • ويصدّر ابن سعد أخباره عن المغازي الفعلية بقائمة تحوي أهم رواته ، ويذكر الواقدي على أنه راويته المباشر ، وزعيم بن يزيد ، الذي روى له أخبار ابن اسحاق ، وحسين بن محمد ، الذي روى له أخبار أبي معشر ، واسماعيل بن عبد الله ، الذي روى له أخبار موسى بن عقبة • اذن فابن سعد يقودنا الى آثار أعلم من تقدمه ، ويعتمد وصفه للمغازي الفعلية عليهم بصفة رئيسية ، وان كانت مقابلته بنص« مغازي » الواقدي ترينا أن ابن سعد اعتمد على الواقدي أكثر من غيره ؛ وعلى ابن اسحاق ، وأبي معشر ، وموسى بن عقبة ، بدرجة أقلّ كثيراً • ويمدّنا ابن سعد في كل من هذه الغزوات بوصف رئيس دون أية اشارة الى مرجع ، ما دام قد ذكر الرواة مرّة واحدة في بداية المغازي ، ثم يوسّع هذا الوصف الرئيس بالروايات الفردية الكثيرة جدا في كثير من الغزوات ، ويقدم كل رواية منها باسناد خاص • وهكذا يقف ابن سعد من الواقدي في المغازي موقف الواقدي من ابن اسحاق • ولكن على حين لا يذكر الواقدي ابن اسحاق أبدا ، نجد ابن سعد لا يخفي ان كتاب الواقدي أساس كتابه الخاص • وعلينا ان نعرف مقدما أن ابن سعد ليضمن نقاء عرضه ، لا يقطع وصفه الرئيس أو قصته الأساسية أبداً بالاضافات التي جمعها بنفسه ، كما يفعل الواقدي ، ولكنه يضع هذه المادة المضافة في نهاية القصة الأساسية في

كل حالة . وكمّل ابن سعد أخبار الواقدي منهجيا في احدى الخواص ، وهي اجابته في كل غزوة عن الاسئلة التالية :

« من الذي تركه النبي حاكما على المدينة في أثناء غيابه ؟ ومن حمل اللواء ؟...

« حقا ان الواقدي وجّه عناية الى تلك الاسئلة ، ولكنه لم يجب عنها في كل حالة . وقد تعب ابن سعد تعبا شديدا في جمع الاخبار الخاصة بمرض النبي الاخير ووفاته ؛ ويظهر الواقدي راويته هنا أيضا في أغلب الاحيان ، ومن الواضح أن ابن سعد استخدم « كتاب وفاة النبي » للواقدي ، ولكنه وسّعه توسيعا عظيما جدا . ولم يأت ابن سعد في كتابه بملاحظات شخصية قط ، وقلما يوجد قول دون الاشارة الى المرجع الذي أخذ عنه ... » .

وطرق ابن سعد بعد انتهائه من ايراد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم موضوع من قام بالافتاء في حياة الرسول ثم اهتم بدراسة حياة الصحابة والتابعين مما استوفى باقي أجزاء الكتاب ما عدا الجزء الثامن الذي خصّصه هذا المؤرخ لشهيرات النساء في صدر الاسلام . وقد صنّف طبقات الصحابة والتابعين مراعيا عنصري الزمان والمكان . أما من حيث عنصر الزمان فكان جلّ الاعتماد في تصنيف الصحابيّ أو التابع على سابقته في الاسلام . وهكذا كان أول من ترجم لهم من صحابة الرسول من هاجروا الى الحبشة ثم من هاجروا الى المدينة ثم من حضروا غزوة بدر وسواها ، ثم من حضروا فتح مكة وهكذا دواليك . ولوحظ أنه بدأ على العموم بعد مهاجري الحبشة بالمهاجرين البدريين ثم بالأنصار البدريين . وقد راعى ابن سعد في هذا التقسيم نفس الأسس التي عمل بها عمر بن الخطاب عند تدوينه الدواوين (أي حسب السابقة في الاسلام) .

أما الاهتمام بالناحية المكانية فقد كانت الدراسة هنا موجهة الى الامصار الاسلامية التي أقام بها الصحابة والتابعون . وهكذا وجدناه يعنى بالترجمة للصحابة وتابعيهم من كان منهم في المدينة ومن كان في مكة والطائف واليمن واليمامة ؛ ومن نزل منهم الكوفة والبصرة وبلاد الشام ومصر وغير هذه البلاد . ووجّه ابن سعد عناية فائقة الى دراسته حياة الطبقات الاولى من الصحابة التي كان هذا المؤرخ كلفا بالتعمق في دراسة حياة أفرادها ، وعلى العكس من ذلك أوجز في دراسة حياة معاصريه . وقد قال الاستاذ احسان عباس[1] حول هذه القضية ما يلي: « وهناك مظهر آخر لهذا التقسيم نتج من الاعتماد الكلي على الرواية وذلك هو أننا كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى التي تهمّ ابن سعد الرواية عنها من جميع النواحي ، أخذت الترجمة تتضاءل وتقل قيمتها ، وبدلا من أن يكتب ابن سعد ترجمات مستفيضة لمن عاصرهم ، نجده اكتفى في هذا بقولة موجزة وأفاض كثيرا في تراجم الصحابة وكبار التابعين وبلغ من الدقة حدا يجعل من كتابه وثيقة بالغة القيمة » .

وعلى الرغم من اعتبار كتاب الطبقات هذا المرجع الاول والرئيسي لدراسة تاريخ الصحابة فثمة بعض مؤرخي الصحابة أهملوا الاعتماد عليه كابن الاثير في كتابه « أسد الغابة » . وقال المؤرخ نفسه عن أهمية طبقات ابن سعد ما نصه : « ويجب أن نذكر أن كتاب الطبقات من أوائل ما ألّف في هذا الموضوع ، وأننا لا نعلم كتابا سبقه الا طبقات الواقدي . وتذكّر هذه الحقيقة يجعلنا ندرك قيمة الكتاب من حيث هو مصدر قديم ومن حيث هو أحد النماذج الاولى في موضوع « الرجال » . حقا ان التأليف في هذه الناحية كثر من بعده ، وربما انقسم التأليف في الطبقات بعده قسمين ، قسم خاص بالصحابة وقسم

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ، المقدمة ، ص ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ ؛

خاص بسائر رجال الحديث من بعدهم ، ولكن أثر كتاب ابن سعد ، سواء ذكر اسمه أو لم يذكر ، قد ظهر في التواليف التي جاءت من بعد ... » ثم ذكر المؤرخ المؤلفين الذين اعتمدوا على ابن سعد والذين أهملوا كتابه فقال : « غير أن طبقات ابن سعد ، مع ذلك كله ، مصدر **تاريخ دمشق ، ومصدر هام** عند ابن عساكر في تاريخ **الاسلام للذهبي ، وفي تجريد اسماء الصحابة وسير أعلام النبلاء ، ومعتمد في الاصابة وتهذيب التهذيب** لابن حجر وينقل عنه ابن كثير في تاريخه ويصرح ابن تغري بردي بقوله : « ونقلنا عنه في هذا الكتاب » ـ أي كتاب النجوم الزاهرة ـ وكذلك كان مرجعا لمن كتبوا في السيرة من المتأخرين كالمقريزي في « امتاع الاسماع » ، ولكثير من الكتب في الرجال »[1] .

ومن الذين ألفوا في السيرة والمغازي من مؤرخي القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) الحافظ ابن سيد الناس ونور الدين الحلبي من مؤرخي القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) .

ابن سيد الناس ٦٧١ ـ ٧٣٤ هـ ـ (١٢٧٣ ـ ١٣٣٤) ـ

هو فتح الدين أبوالفتح محمد بن أبي بكر محمد اليعمري الاندلسي ، وهو من مواليد القاهرة . وقد اختلف في مولده فمن المؤرخين من جعل ولادته سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) ومنهم من جعلها ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وهو الأرجح . درس ابن سيد الناس العلوم الدينية ولا سيما الحديث في القاهرة ودمشق وغدا مدرسا للحديث في المدرسة الظاهرية في القاهرة ولوفرة اطلاع هذا المحدث على ما ألفه مؤرخو السيرة والمغازي

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ١ ، ص ٢٠١ مقال عن ابن سيد الناس .

في القرون السابقة اهتم بوضع كتاب مختصر مفيد عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يقع في جزأين وسماه : « عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير » .

وقد أشارت دائرة المعارف الاسلامية[1] الى هذه السيرة واعتبرها المستشرقون على الرغم من صغر حجمها « سيرة وافية للنبي » كما أشار اليها المستشرق بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي . ونشرت هذه السيرة في القاهرة مكتبة حسام الدين القدسي . وذكر أن هذه السيرة تمتاز باعتمادها على أصح ما ورد في المغازي والسير ، وأن مؤلفها متخصص في علم السير ، وأنه قلَّ من يوازنه في نقد ذلك العلم بين المتقدمين فضلا عن المتأخرين ، وأنه خبير باستخلاص الحق الصريح : لا من كتب الصحاح فقط بل من كتب المغازي والسير التي لا تخلو من أسانيد مقطوعة وأخبار ليس ورودها على درجة واحدة .

ثم أشار ناشر هذه السيرة الى أهمية ابن سيد الناس بين مؤرخي السيرة بقوله : « وليس كل قارىء يستطيع أن يعرف دخائل ما يروى في السير من الكتب المؤلفة فيها الا بارشاد مثل هذا الحافظ (وهو لقب ابن سيد الناس اشارة الى حفظه القرآن) الفذ . وقد استصفى الموثوق به من كتب الأقدمين كمؤلفات الواقدي وكتاب المغازي لموسى ابن عقبة وطبقات ابن سعد وسيرة ابن اسحاق وكتاب المغازي لمحمد ابن عائذ القرشي وأبي بشر الدولابي والغيلانيات وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر وكتاب الانساب للرشاطي وغيرها ... » .

وكان ابن سيد الناس شاعرا نظم عدة قصائد في مدح الرسول

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ١ ص ٢٠١ . مقال عن ابن سيد الناس .

صلى الله عليه وسلم أشير اليها في دائرة المعارف الاسلامية[1] حيث قيل بصددها ما يلي « ••• ونظم ابن سيد الناس عدة قصائد يمدح بها الرسول عنوانها « بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب » طبع احداها كوسيغارتن Kosegarten (ستر السند ١٨١٥) وباسيه Basset (لوفان ١٨٨٦) • » •

نور الدين الحلبي ٩٧٥ ـ ١٠٤٤ هـ (١٥٦٧ ـ ١٦٢٤) • ـ هو صاحب السيرة المعروفة بالسيرة الحلبية التي تقع في أربعة مجلدات • وهذا المؤرخ عاصر القرن الاول من الفتح العثماني لكل من بلاد الشام ومصر واسمه نور الدين بن برهان الدين علي بن ابراهيم بن أحمد ابن علي بن عمر القاهري الشافعي • وكانت ولادته في القاهرة • انكب على دراسة العلوم الدينية وعين مدرسا في المدرسة الصلاحية • وكانت وفاة هذا المؤرخ في القاهرة في ٣٠ شعبان ١٠٤٤ هـ (١٧ شباط ١٦٣٤ م) • وقد حدثنا المستشرق بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية[2] عن أهمية هذا المؤرخ وكتبه ولا سيما سيرته المعروفة بالسيرة الحلبية قائلا ما معناه : « ••• وأشهر ما نعرفه من مؤلفاته الكثيرة سيرة النبي وعنوانها « انسان العيون في سيرة الأمين المأمون » وهي تعرف عادة بالسيرة الحلبية ، استقاها من السيرة الشامية لشمس الدين الصالحي الشامي المتوفي عام ٩٤٢ هـ (١٥٣٦ م) وقد اضيفت على سيرة الحلبي زيادات عدة ثم تمت في عام ١٠٤٣ هـ (١٦٣٣ م) وطبعت بالقاهرة في عامي ١٢٨٠ و ١٣٠٨ هـ ؛ وما تزال بين أيدينا من تواليفه الرسالة الصوفية التي عنوانها « النصيحة العلوية في بيان حسن طريقة السادة الاحمدية » و « عقد المرجان فيما يتعلق بالجان » وهو خلاصة لخلاصة السيوطي

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : المجلد ١ ، ص ٢٠١ .

(٢) المصدر عينه . المجلد ٨ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(من مؤرخي وعلماء القرنين التاسع والعاشر الهجريين) لكتاب شبلي الذي فصّل نولدكه Nöldeke الكلام عليه ... ولم يبق من الشروح وشروح الشروح التي كتبها على المتون (أي الكتب) التي كانت ذائعة في عهده الا ذلك الشرح الذي كتبه على شرح الأنصاري لمنهاج الطالبين للنووي .. » .

مؤرخو الطبقات . ـ جرت عادة المؤرخين أن يلحقوا مؤلفي الطبقات بمؤلفي أو مؤرخي السيرة والمغازي لا سيما وأن رائدي التأليف في الطبقات وهما محمد بن عمر الواقدي وتلميذه محمد بن سعد يعتبران عادة من مؤرخي السيرة والمغازي وكنا في هذا الفصل درسناهما بعد الانتهاء من عميد مؤرخي السيرة محمد بن اسحاق وبيان ذلك أن مؤرخي الطبقات كانوا أصلا من المحدّثين فاضطروا الى رواية أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصحابة والتابعين ، ثمت أدى انصرافهم الى العناية بالسيرة والمغازي الى الاهتمام بالاحاديث التاريخية . وبنتيجة كون مؤرخي الطبقات من المحدّثين أصلا اضطروا الى تصنيف رواة الحديث في طبقات فصنّفوا كما مر بنا خلال دراستنا لابن سعد رواة الاحاديث من الصحابة والتابعين حسب أهميتهم العلمية ثم حسب المدن التي استقروا فيها . وهكذا لم يجد علماء التاريخ المسلمين في أول الامر أي فرق بين مؤرخي الطبقات والمؤرخين عامة الا من حيث اهتمام المؤرخين بالحوادث التاريخية فقط بينما أولى مؤرخو الطبقات حياة رواة الحديث والاخبار القسط الاوفر من عنايتهم . وقد ذكر السخاوي في كتابه الآنف الذكر رأياً للعز بن جماعة شرح فيه هذا الفرق الطفيف بين مؤرخي هاتين الفئتين فقال ما يلي[1] : « ... قال العز بن جماعة ومما يشكل ويحتاج اليه معرفة التفرقة بين علم التاريخ

---

(١) السخاوي : المرجع المذكور ، ص ٤٦ .

وعلم الطبقات ومعرفة الافتراق بين موضوعهما وغايتهما قال والحق عندي أنهما بحسب الذات يرجعان الى شيء واحد وبحسب الاعتبار يتحقق ما بينهما من التغاير قلت بينهما عموم وخصوص وجهي فيجتمعان في التعريف بالرواة وينفرد التاريخ بالحوادث والطبقات بما اذا كان في البدريين مثلا من تأخــرت وفاته عمن لم يشهدها لاستلزامه تقديم المتأخر الوفاة هذا هو الأصل وان خرج غالب من صنف بعد المتقدمين طبقات الشافعية مثلا عنه لمراعاتهم في الطبقة قرب الوفيات وربما يكون الواحد من طبقة تلي المذكور فيها لقدم موته وان كان دونهم في الاخذ. وقد فرق بينهما بعض المتأخرين بأن التاريخ ينظر فيه بالذات الى المواليد والوفيات وبالعرض الى الأحوال . والطبقات ينظر فيهـا بالذات الى الأحوال وبالعرض الى المواليد والوفيات ولكن الأول أشبه » . وسرعان ما تحول مؤرخو الطبقات عن تصنيف الصحابة والتابعين ممن كانت لهم صلة وثيقة بعلم الحديث الى تصنيف أقطاب كل علم وفن وجمعهم في طبقات وأورد السخاوي [1] ثبتاً كبيراً بأمهات الكتب التي وضعت في مختلف الطبقات الى زمنه (مطلع القــرن العاشر الهجري فقد توفي سنة ٩٠٢ هـ أي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي) فجاء هــذا الثبت في خمس وعشرين صفحة مما لا نجد مجالا لايراده في هــذا الفصل .

ومن أهم مؤرخي الطبقات محمد بن ســلاّم الجمحي الذي عاش في القرن الثالث ووضع كتابا في طبقات الشعراء ، ومنهم كذلك ابن أبي أصيبعة الذي عاش في القرن السابع وألف كتابا في طبقات الاطباء ذكر السخاوي [2] « أنه كتاب حافل رتبه على المعجم النجم بن فهد ».

---

(١) السخاوي : المرجع المذكور ؛ ص ٨٤ ـ ١٠٦

(٢) المصدر عينه ؛ ص : ١٠٦ .

ابن أبي أصيبعة ٦٠٠ ـ ٦٦٨ هـ : ـ هو من أسرة اشتهرت بممارسة الطب فكان أبوه وعمه من بين أطباء الدولة الأيوبية . أما اسم ابن أبي أصيبعة فهو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي . وقد عني المستشرق الألماني ماكس ميرهوف Max Meyerhof بدراسة حياة وتراث هذا المؤرخ الطبيب في دائرة المعارف الاسلامية[1] كما درسه سواه من المستشرقين والمؤرخين العرب والأجانب ومن بينهم الدكتور أحمد عيسى بك في كتابه « تاريخ البيمارستانات في الاسلام » . ولاحظ ميرهوف أنه من الصعب دراسة حياة هذا المؤرخ الطبيب الا من ثنايا الاشارات القصيرة التي أوردها هو نفسه في كتابه الشهير « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » . وقد استخلص من هذه الاشارات أن جد هذا الطبيب المؤرخ كان يدعى خليفة بن يونس الخزرجي وأنه كان في عام ٥٦٢ هـ من بين أتباع صلاح الدين الأيوبي عندما كان هذا الأخير يعمل في كنف وخدمة عمه أسد الدين شيركوه . وحدثنا ميرهوف عن نشأة ابن أبي أصيبعة وعن أبيه فوجدنا أن خليفة بن يونس الخزرجي (وهو جد ابن أبي أصيبعة) رزق ابنه الأكبر وهد سديد الدين القاسم في القاهرة عام ٥٧٥ هـ وولد ابنه الاصغر رشيد الدين علي في حلب عام ٥٧٩ هـ وأصبح الاثنان من الأطباء المبرّزين . وكانت دراسة الطب مزدهرة بنوع خاص في مصر والشام ، حيث أسس حكام قادرون (أمثال نور الدين بن زنكي وصلاح الدين) البيمارستانات في دمشق والقاهرة ، وشجعوا دراسة الطب ورجاله بكل الوسائل الممكنة . وكان من بين العلماء الأعلام الذين وفدوا من بغداد الى دمشق والقاهرة « عبد اللطيف بن يوسف » الذي أصبح صديقاً حميماً لخليفة بن يونس الخزرجي ، والذي درّس لولديه اللذين كانا يطلبان العلم كذلك على

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ؛ المجلد ١ ، ص ٦٩ ـ ٧١ الهوامش .

الفيلسوف الطبيب اليهودي موسى بن ميمون . وقد درس القاسم طب العيون ، وكان يدعى الكحالة ، على أبي حجاج يوسف السبتي في البيمارستان الناصري بالقاهرة وغدا نطاسياً مبرّزاً في هذا العلم . كما نجح القاسم هذا في شفاء الملك العادل سيف الدين الايوبي من رمد شديد أصاب عينيه مما جعله مقرّبا من هذا الأمير الأيوبي فالتحق ببلاط سلاطين الأيوبيين في الشام وصار رئيساً للكحّالين . وكانت وفاة القاسم سنة ٦٤٩ هـ في القاهرة بعد أن كان رزق ولداً سمي أحمد حوالي سنة ٥٩٥ هـ . وحمل أحمد لقب جدّه فدعي ابن أبي أصيبعة .

نشأ ابن أبي أصيبعة في بيئة علمية ساعدت على تنمية مواهبه لأنه كان شاباً موهوباً وقد درس الطبّ بصورة علمية ونظرية في بيمارستان نور الدين زنكي في دمشق وكان أساتذته : رضي الدين الرحبي وشمس الدين الكلّي (وقد لقب هذا الاخير بالكلّي لأنه كان يحفظ كتاب الكليات لابن سينا عن ظهر قلب) ، وابن البيطار (مؤلف كتاب المفردات في النبات) ، ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار المتوفى سنة ٦٢٨ هـ وكان من أساطين وجها بذة الطبّ في عصره ، وقد تلقى هذا العلم عنه عدد كبير من الأطباء في عصره ، ومن أساتذة ابن أبي أصيبعة الطبيب اليهودي عمران بن صدقة وكان زميلا لابن الدخوار في البيمارستان . وكان لعمران بن صدقة مكتبة غنية بالتآليف الطبية التي لم يأل ابن أبي أصيبعة جهداً في مراجعتها والافادة منها . لذلك كانت سني تلقّي ابن أبي أصيبعة الطبّ على يد هذين الطبيبين أحب سنيّ الدراسة الى نفسه لأثرها في زيادة ثقافته النظرية والعملية . ومن المرجح أن هذا الطبيب استعان بمكتبة أستاذه ابن صدقة في تأليف كتابه .

كما مارس ابن أبي أصيبعة الكحالة في البيمارستان الناصري في القاهرة حيث أتيحت له الافادة من دروس طبيب نطاسي وعالم

بالأقراباذين (فن تركيب الادوية) هو السديد بن أبي البيان الاسرائيلي الذي ألف كتـابا في الصيـدلة (وكانت تدعى الأقراباذين) دعي : الدستور البيمارستاني • وهكذا فان ممارسة ابن أبي أصيبعة مهنـة الكحالة في البيمارستانين الآنفي الذكر أفادته في التمكّن من مهنة الطبّ وحذقها من الناحية العملية كما مكنته من انجاز كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » وذلك حوالي سنة ٦٤٠ هـ • ولم ين ابن أبي أصيبعة عن اضافة تراجم جديدة لأطباء آخرين حتى انتهى به الأمر الى ترجمة أطباء سنة ٦٦٧ أي قبل عام واحد فقط من وفاته •

ولم يحجم النقدة عن توجيه النقد الشديد لهذا الطبيب فنقدوه على أسلوبه في الكتابة وعدم عمقه في النقد ووفرة ما أورد في الكتاب من الشعر • لكن هذه الهنات لم تكن لتنال من المنزلة السامية التي تمتع بها ابن أبي أصيبعة كمـا لم تكن لتحجب الفضل الذي هو أهل له • وقد أورد الدكتور ماكس ميرهوف بصدد ذلك ما معناه : « ••• على أن لابن أبي أصيبعة فضلاً عظيماً بما جمعه من أخبار فاق فيها غيره في التاريخ الطبي والعلمي للقرون الوسطى في الشرق (ولا يستثنى من ذلك ابن النديم وابن القفطي)•وفوق ذلك فقد أمدّنا بشيء عن الطبّ الهندي واليوناني لم يكن ليصل الينا بدونه ، كما أمدّنا بتفاصيل وافية عن الحياة الاجتماعية والعلمية في العـالم الاسلامي • لذلك أصبح كتابه مصدراً عظيم الأهمية مكملاً لما كتبه عظماء المؤرخين المسلمين في التواريخ العامة • ويحتوي كتابه على نبذٍ كثيرة أخذت من كتب أخرى فقدت منذ أمـد بعيد ، مثال ذلك : نبذ من كتب جالينوس الطبيب اليوناني المشهور ، وحنين النصراني وابنه اسحاق ، وعبيد الله بن جبرائيل ابن بختيشوع • ومن المسلمين ابن جلجل والمبشر بن فائق ، والدخوار وكثيرون غيرهم » •

وقد اعتبر النّقدة الترجمات للأطباء الأربعمائة الذين ذكرهم ابن أبي

أصيبعة في كتابه الآنف الذكر دقيقة للغاية ، وأن الكتب التي أثبتت أسماؤها وثقت من قبل ذوي الاختصاص . وتابع ميرهوف حديثه عن أهمية هـذا الطبيب قائلا ما معناه : « ... وأن ما اثبته من الكتب الوفيرة التي أثبتها في آخر كل ترجمة من الاربعمائة ترجمة التي كتبها عن رجال الطب في العالم الاسلامي تعطينا فكرة صحيحة عن هـذا الانتاج العلمي العظيم لكثير من هؤلاء العلماء وما وصلوا اليه في بعض الأحيان من المعرفة الشاملة العجيبة . وقد اعتمد الكتابان الموثوق بهما اللذان كتبا عن الطبّ الاسلامي باللغات الأوروبية ، وهماكتاب فستنفلد Wüstenfeld بالألمانية وكتاب لكلرك Lerclerc بالفرنسية ؛ كـل الاعتماد على مصنَّف ابن أبي أصيبعة « عيون الأنباء ... » ثم ذكر هذا المستشرق أسماء المستشرقين الذين حاولوا ترجمة هـذا الكتاب عن اللغة العربية .

ولم يكن كتاب عيون الأنبـاء والذي أهدي للوزير أبي الحسن ابن غزال السامري الكتاب الوحيد لابن أبي أصيبعة فقد ذكر أنه وضع ثلاثة كتب أخرى لكنها فقدت ولم يعثر عليها حتى الآن . أما أسماء هذه الكتب الثلاثة فهي : « كتاب حكايات الأطباءفي علاجات الأدواء » وكتاب اصابات المنجّمين » و « كتاب التجارب والفوائد » الذي ذكر أنه لم ينجز تأليفه بصورة تامة ويغلب على الظنّ أن هذه الكتب احتوت سجلا طريفاً لقصصطبي أو مشاهداتهامة قام بها ودوّنها هو وأساتذته في البيمارستان .

وبعد ممارسة ابن أبي أصيبعة الكحالة في البيمارستان الناصري في القاهرة في سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) عاد في السنة القادمة الى سورية حيث التحق بخدمة أمير صرخد عز الدين أيدمر كطبيب خـاص له . وكانت وفاة هذا الطبيب في صرخد نفسها سنة ٦٦٨ هـ ١٢٧٠ م . وقد نشر المستشرق الألماني أوغست مولر August Müller كتـاب عيـون

الأنباء في القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م. وآخر طبعات هذا الكتاب المؤلف من أربعة أجزاء هي طبعة مدينة بيروت .

مؤرخو فتوح البلدان ــ عاش روّاد مؤرخي فتوح البلدان في القرن الثالث الهجري (التاسع ومطلع العاشر الميلاديين) ، وقد أفادوا كثيراً من المادة التاريخية الدسمة والضخمة ، وهي عبارة عن الروايات التاريخية ، التي جمعها ودوّنها مؤرخو القرن الثاني وخاصة مؤرخو السيرة والمغازي الذين قمنا بدراستهم آنفا . كما مضى مؤرخو القرن الثالث على سنن أهل الحديث في « الرحلة في طلب العلم » . وكان جامعو ودارسو الحديث قد جابوا مختلف الأمصار الاسلامية نشداناً لجمع وتصنيف أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واتصلوا بمحدّثي مختلف تلك الأمصار . وأخذ مؤرخو الفتوح يجوبون بدورهم مختلف البلدان متصلين بمن رووا عمن عاصر فتوحها من قبل جحافل المسلمين. وكانت نتيجة هـذه الاتصالات بين مؤرخي هذا القرن تأثر بعضهم بالآخرين فيما يتعلق بالأسلوب والنظرة التاريخية ، كما زادت طريقة استعمال الأسانيد رسوخاً . كما بدأنا نلاحظ تباشير تكوُّن الرأي لدى المؤرخين الذين درسوا تواليف مؤرخي القـرنين السابقين ونقدوها وأشاروا الى درجة الوثوق بأصحابها مما كانت نتيجته المباشرة أن مهمة مؤرخي القرن الثالث في جمع الروايات ونقدها غدت أشد دقة ويسراً من مهمة المؤرخين السابقين .

اعتبر النقدة كتب الفتوح التي بدأ التأليف في بابها منذ القرن الثالث استمراراً وتطوراً للعناية التي بذلها مؤرخو القرن الثـاني في تدوين مغازي الرسول (ص) . وقد اهتم مؤرخو الفتوح باستقصاء أخبار موجة الفتوحات العربية الاسلامية التي أعقبت غزوات الرسول وجمعوها في كتب جديدة دعوها بكتب فتوح البلدان . وكانت تحدوهم في

ذلك رغبة الاطلاع على موقف الشرع الحنيف من سكان البلاد التي فتحت صلحاً أم عنوةً ، لما يتبع ذلك من اختلاف موقف الشرع من أولئك السكان ونوع الفتح ـ هذا فضلا عن أن اهتمام بعض مؤرخي الفتوح بايراد أخبارها كان عصبية منهم لقبائلهم لأن تلك الفتوح تخلّد مآثر هذه القبائل .

تحدث المرحوم الاستاذ أحمد أمين[1] عن بعض أسباب اهتمام المؤرخين بالفتوح والحوادث الاسلامية فقال ما نصه : « وهناك ناحية ثانية اتّجه اليها المؤرخون بجانب اتّجاههم الى السيرة ، وهي تاريخ الحوادث الاسلامية من حروب بين بعض المسلمين وبعض ، كوقعة الجمل ، ووقعة صِفّين ، ومن حروب المسلمين مع الأمم الأخرى من فرس وروم وهنود وغيرهم وما تبع ذلك من فتوح وأحداث ؛ ويظهر لي أن الذي دعاهم الى تقييد هذه الحوادث أمور :

« ١ ـ أنها مادة من مواد التشريع وأصل من أصوله ، فأعمال عمر بن الخطاب وسيرته في البلاد المفتوحة اتخذت أساساً ونبراساً لمن جاء بعده من أئمة الفقهاء ، من شؤون الجهاد ومعاملة أهل الذمّة ، والخراج العشر وما الى ذلك ؛ كذلك كانوا مضطرين الى أن يتتبعوا شؤون الفتح ليعرفوا أي البلاد فتح صلحاً ، وأيها فتح عنوةً ، لما يترتب على ذلك من اختلاف في الجزية ، والخراج ونحوهما ، وهذا ما دعا مؤرخي البلدان أن يعقدوا الفصول الطويلة في أول كتبهم يبيّنون فيها حال البلد في الفتح : هل فتحت صلحاً أو عنوةً ؟ كالذي نرى في المقريزي نقلاً عن المؤرخين الأولين ، وكالذي نرى في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ؛ وهذا بعينه هو الذي دعا البلاذُريّ أن يفرد في ذلك كتابه المشهور « فتوح البلدان » ، ومصداق ذلك أنا نرى قسما

---

(١) احمد امين ؛ ضحى الاسلام ، ج٢ ص ٣٣٩ ـ ٣٤١ .

كبيراً من أقسام الحديث يشمل الأمور التاريخية ، والحديث لا شك في أنه مصدر من مصادر التشريع ، ففي كتب الحديث فصول وأبواب في أحكام القتال والغزو وفي الأمان والهدنة ، وفي الجزية وأحكامها ، وفي الغنائم والفيء الخ .. » .

ثم بعد تحدّث هذا المؤرخ عن أسباب العناية بذكر حوادث الخلاف بين المسلمين والى حديثه قائلا : « ٣ — وسبب ثالث دعا الى رواية أخبار الفتوح والحرص عليها ، وهو أن هذه الفتوح كان يسودها العصبية القبلية بجانب العصبية الدينية ، فكانوا في القتال ينحازون الى قبائل ، كل قبيلة لها مكانها في القتال ، ولها لواؤها تقاتل عنه كما تقاتل عن الاسلام ، وتفتخر كل قبيلة بنصرتها في بعض أيامها ، فتميم أبلت بلاء حسنا في يوم كذا ، وغيرها أبلى بلاء حسنا في يوم كذا ، مما يعد مفخرة للقبيلة كأيامها في جاهليتها ، وحرصت كل قبيلة أن تروي وقائعها وتتزيّد فيها أحيانا ، ويسلمها السّلف الى الخلف ، فكان ذلك باعثاً على حفظ الأخبار من طريق الرواية ومن طريق الأشعار ؛ فالشعراء أيضا أخذوا مفاخر قبائلهم ونظموها في قصائدهم ، وفخروا بها على خصومهم وضمنوها نقائضهم .

« ولما تحولت العصبية القبلية الى عصبية بلدية تبعتها رواية الأخبار ، ففخرت البصرة على الكوفة والكوفة على البصرة بالأحداث التاريخية ، وفخرت تميم البصرة على تميم الكوفة ، وفَضّلت قبائل البصرة من غير تميم الكوفة ، وان كانوا من دمها .. » .

وثمّة نوعان لكتب فتوح البلدان ؛ **فمنها العام** ويتناول دراسة سائر الفتوحات الاسلامية الى زمن المؤرخ ككتاب البلاذريّ (المتوفى ٢٧٩ هـ) : **فتوح البلدان ، ومنها الخاص** ويدرس فيه المؤرخ فتح اقليم من الأقاليم كفتوح الشام للواقدي هذا المؤرخ الذي سبقت دراسته

بين مؤرخي السيرة والمغازي ؛ وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) وسنكتفي في هذا الباب بدراسة البلاذري وابن عبد الحكم فحسب •

البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ : — هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود البلاذري • وذكر ياقوت[1] أنه كان يكنى بأبي الحسن أو بأبي بكر وهو من مؤرخي بغداد في القرن الثالث • وقد عاصر الخليفة المتوكل وعدّه الصولي من بين ندماء هذا الخليفة ولم يشر مترجموه الى تاريخ ولادته ، هذا فضلا عن اختلافهم في تاريخ وفاته فقال ياقوت : «••مات في أيام المعتمد على الله في أواخرها ، وما أبعد أن يكون أدرك أول أيام المعتضد » هذا بينما جعل المستشرق مرغليوث وفاته سنة ٢٧٩ هـ (دراسات عن المؤرخين العرب ؛ ص ١٣٠ — ١٣٣ ترجمة الدكتور حسين نصار) وقد أخذ الدكتور عبد العزيز الدوري (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ؛ ص ١٢٩) بهذا الرأي أي أن وفاته سنة ٢٧٩ هـ — ٨٩٢ م •

وكان جابر ، جد هذا المؤرخ ، يكتب للخصيب والي مصر في خلافة هارون الرشيد • وقد غلب لقب البلاذري على هذا المؤرخ لأن جده جابر أو هو نفسه شرب عصير البلاذر[2] فاختلط عقله وسجن في البيمارستان في آخر أيامه وكانت وفاته فيه • وهذا ما ذكره

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ، ج ٥ ، ص ٨٩ — ١٠٢ . وفيه ترجمة وافية للبلاذري كما ترجم له ابن النديم (الفهرست ص ١٧٠) . والجهشياري (تاريخ الوزراء والكتاب ص ٢٥٦) ، وابن شاكر الكتبي (فوات الوفيات ، ج ١ ص ١١ — ١٢) وغيرهم .

(٢) البلاذر نبات من الفصيلة البطمية خاص بالهند وثمره شبيه بنوى التمر ولبه مثل لب الجوز ، وقيل يقوئي الحفظ ولكن الاكثار منه يؤدي الى الجنون . راجع من اجل ذلك دائرة المعارف وقاموس محيط المحيط .

ياقوت الحموي حول هذا الموضوع : « ... وكان شاعراً ، راويةً ، ووَسوَس (أي اختلط عقله وجُنّ) آخر أيامه فشُدّ بالمارستان ومات فيه ، وكان سبب وسوسته ، أنه شرب ثمر البلاذر على غير معرفة، فلحقه ما لحقه ، وقال الجهشياري في كتاب الوزراء : جابر بن داوود البلاذريّ ، كان يكتب للخصيب بمصر ، هكذا ذكر (بمعنى أن لقب البلاذريّ ، أي مختلط العقل ، كان قد أطلق على جد مؤرخنا أحمد الذي نقوم الآن بدراسته) . ولا أدري أيهما شرب البلاذر ؟ أحمد بن يحيى أو جابر بن داوود ؟ الا أن ما ذكره الجهيشاري ، يدل على أن الذي شرب البلاذرَ ، هو جده ، لأنه قال جابر بن داوود ، ولعل ابن ابنه ، لم يكن حينئذ موجودا ، والله أعلم .. » وعلى الرغم من نشأة هذا المؤرخ في بغداد فانه كان كثير الأسفار والرّحلات في طلب العلم . فقد زار عدة مدن من مدن الشام وسمع من جهابذة علمائها ثم عاد الى بغداد . وأورد ابن عساكر ، صاحب تاريخ دمشق ، ذكره بين الأعلام الذين ولدوا في سورية أو الذين قصدوها طلباً للعلم . كما ذكر ياقوت معظم شيوخ البلاذري السوريين والعراقيين فقال عنهم ما يلي نقلا عن ابن عساكر : « .. وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ، فقال : سمع بدمشق هشام بن عمار ، وأبا حفص عمر بن سعيد ، وبحمص محمد بن مصفى ، وبأنطاكية محمد بن عبدالرحمن بن سهم ، واحمد بن مُرْدٍ الأنطاكي، وبالعراق عفّان بن مسلم ، وعبد الأعلى ابن حماد ، وعلي بن المديني ، وعبد الله بن صالح العجلي ، ومصعبا الزبيري ، وأبا عبد القاسم بن سلاّم ، وعثمان بن أبي شيبة » وأبا الحسن علي بن محمد المدائني ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ، وذكر جماعة ... ».

وبعد أن سرد ياقوت أسماء شيوخ البلاذري ذكر أسماء من رووا عنه وهم : يحيى بن النديم ، وأحمد بن عبد الله بن عمار ، وأبو يوسف.

يعقوب بن نعيم قرقارة الأزرني •

ولم يكن البلاذري مؤرخاً فحسب بل كان شاعراً لكنه كان يهتم بالمديح والهجاء أكثر من اهتمامه ببقية أبواب الشعر •

وهكذا فمع اعتراف ياقوت بفضل وعلم البلاذري فانه أشار الى كثرة هجائه الناس في عصره وبذاءة لسانه فقال : « وكان أحمد بن يحيى بن جابر ، عالماً فاضلاً ، شاعراً ، راوية نسابة ، متقناً • وكان مع ذلك ، كثير الهجاء ، بذيء اللسان ، أخذ الأعراض ، وتناول وهب بن سليمان بن وهب لما ضرط فمزقه ••• » •

وكان سراة القوم يخشون لسانه مما كان يضطرهم الى قضاء حاجاته • الى أن نصحه أحد أصدقائه ألا يقول من الشعر الا ما يبقى ذكره ويزول عنه اثمه فنظم قصيدته التي مطلعها :

استعدي يا نفس للموت واسعي لنجاة فالحازم المستعد

أما ابن عساكر فقد ذكر عن مدائحه ما يلي : « وبلغني ان البلاذري كان أديباً ، راوية ، له كتب جياد ، ومدح المأمون بمدائح ، وجالس المتوكل ومات في أيام المعتمد » •

وأشار ابن شاكر الكتبي الى جودة شعر البلاذري في المديح بايراد رواية عن البلاذري نفسه جاء فيها : « قال : كنت من جلساء المستعين بالله وقد قصده الشعراء فقال : ليس أقبل الا الذي يقول مثل قول البحتري في المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى اليك المنبر

فرجعت الى داري ، وأتيته ، وقلت : قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري في المتوكل ، فقال : هات ، فأنشدته :

ولو أن بُرْدَ المصطفى اذ لبستة يَظُنُّ لظنَّ البردُ أنك صاحبه

وقال وقد أعطيتَهُ ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه

فقال لي ارجع الى منزلك فافعل ما آمرك به ، فرجعت ، فبعث اليَّ سبعة آلاف دينار ، وقال : ادّخر هذه للحوادث بعدي ، ولك علي الجراية والكفاية ما دمت حيا » •

وكان البلاذريُّ كثيراً ما يبذل ماء وجهه ويسأل الأمراء وعلية القوم احسانهم والويل لمن التمس هذا الشاعر نواله فلم يصبه ؛ وهكذا وجدناه مثلا يهجو أبا الصقر اسماعيل بن بلبل بعد أن امتدحه ولم يحظ بجائزته • وعلى العموم لم يكن البلاذري كثير النظم •

هذا ولا بد من الاشارة الى أن مؤرخنا وشاعرنا البلاذري كان دقيق الملاحظة يتسقّط عيوب ذوي الحظوة لدى الأمراء حسداً منه لهم ، وقصة نقده للكتاب الذي كتبه الأديب المؤرخ أبو العباس الصوليُّ المقرّب من الخليفة العباسي المتوكل معروفة •

أما نقد البلاذريّ للصولي فلأنه أرّخ الشهرَ الروميَّ بالليالي ، وأيام الروم قبل لياليها ، فهي لا تؤرّخُ بالليالي ، وانما يؤرخ بالليالي الأشهر العربية ، لأن لياليها قبل أيامها بسبب الأهِلة ، فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، هذا ما لا علم لي به ، ولا أدّعي فيه ما يدّعي • قال : فغيّر تاريخه •

تآليفه التاريخية ولا سيما فتوح البدان : كان البلاذري أحد النَقَلة عن اللغة الفارسية وهذا ما حدا بالكثيرين الى اعتباره من أصل فارسي وان يكن استعرب بطلبه العلم في أمهات المدن العربية الاسلامية المشار اليها آنفا • ومن بين شيوخ البلاذري من المقيمين في العراق محمد بن سعد كاتب الواقدي • وقد وثّق المؤرخون روايته الى حد

ما ، وذلك لأن صلته بعدد من الخلفاء العباسيين جعلته يتّهم بمحاباة خلفاء هـذه الدولة التي لم يكن يني عن وصفها في كتـابه بالدولة المباركة أو الميمونة ووصف الدولة الأموية بنعوت مناقضة • ومهما يكن فانّه بالرغم من بعض الهنات الصغيرة فان كتابه فتوح البلدان من الأسفار القيّمة التي زخرت بها خزانة الكتب العربية • وقد نشر المستشرق دهغوى De Goeje هذا الكتاب في ليدن سنة ١٨٦٦ ، كما نشر الكتاب نفسه في القاهرة سنة ١٣١٨ هـ ونشر في هذه المدينة مؤخرا بتعليق الدكتور صلاح الدين المنجد • وآخر طبعات الكتاب صدرت عن بيروت سنـة ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ بعد تقسيم الكتاب الى خمسة أجزاء صغيرة ، وثمـة طبعات مصرية أخرى للكتاب كطبعة المطبعة التجارية المحققة من قبل رضوان محمد رضوان • واستهلّ البلاذريّ كتابه بدراسة المعارك التي دارت بين المسلمين واليهود في عهد الرسول ، ثم تعرض لفتـح مكة والطائف ولغزوات الرسول الأخرى ولحروب الردّة وفتح الشام والجزيرة وأرمينية ومصر والمغرب ، وأنهى المؤلف بحثـه بايراد أخبار فتـح العراق وفارس •

ويجب أن نذكر أن البلاذريّ لا يكتفي بالتعرّض لأخبـار الفتح فحسب بل يتعرض لتاريخ الحضارة والنّظم الاجتماعية ، ومن قبيل ذلك ما وجدناه في « فتوحه » من ذكر لتعريب الدواوين والخلاف مع الروم من أجل القراطيس أيام بني أمية ؛ كما لا حظناه يبحث في مسائل الخراج واستعمال الخاتم وأمر السكة وتداولها وتاريخ الخط العربي • وهكذا اعتبر فتوح البلدان للبـلاذري من أعظم المصادر التي عالجت قضايا الفتوحات العربية الاسلامية •

تحدث المستشرق مرغليوث[1] عن أهمية هذا الكتاب قائلا ما يلي :

---

(١) مرغليوث ، المرجع المذكور (ترجمة الدكتور حسين نصار) ، ص ١٣١ ــ ١٣٢ •

« ... أما « فتوح البلدان » فسجلٌ للفتوحات الاسلامية ، ويورد كل فصل منه عادة بعض تفاصيل تاريخ البلد المفتوح بعد فتحه . ويخبرنا أن التفاصيل مجموعة" غالباً من علماء كل أقليم : فقد زار الأماكن وتعرف على الأفكار الشائعة فيها ، المتعلقة باسم الفاتح ، وطريقة الفتح ، وما تلاه من أحداث هامة . وتضمُ هذه التفاصيل غالباً توزيع الاقاليم على القبائل ، وانتقال السكان من مكان الى آخر ، وانشاء الآثار العامة أو المرافق واتمامها ، ومصدر الأسماء الخاصة والأمور الأخرى التي كان تخليدها هاماً . واستخدم ، بالاضافة على حصوله على هذه المعلومات المحلية ، التي كانت جديرة بالثقة الى مدى بعيد ولا شك ، استخدم آثار البحاثة السابقين ، كالواقدي عن طريق محمد بن سعد ، كاتبه ومؤلف الطبقات . وواضح أن بعض الشك يحوم أحيانا حول مسائل لها أهميتها ، وأن قدراً لا بأس من الخطأ وقع في التواريخ ؛ نتيجة الاعتماد على الرواية الشفهية . وبرغم ذلك يجب الاعتراف بأن قدر هذه المآخذ أقلّ مما كنا نتوقع . وأينما روى البلاذريُ روايات متعارضةً عن الحوادث الواحدة ، كما هي الحال غالباً ، لم يكن الاختلاف كبيراً عادةً . وينطبق ذلك على المواضع التي يورد فيها روايات مختلفة من المعاهدة الواحدة . فالمعاني واحدة على وجه التقريب ، وان اختلفت العبارة ، وترتيب الجمل وبعض التفاصيل أحيانا نتيجة لنزوات ذاكرة الرواة » .

وقد أعجب عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر بكتاب فتوح البلدان فقال عن البلاذري : « وهو صاحب كتاب البلدان ، صنفه وأحسن تصنيفه » وعبيد الله هذا من أعلام نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع .

وللبلاذريّ كتاب تاريخيُ آخر هو أنساب الأشراف . ويقتصر لقب الأشراف غالباً على المنحدرين من آل بيت الرسول (ص) ، ولو أن

الاستاذ المرحوم أحمد تيمور ذكر أن هذا اللقب لم يكن مقتصرا على آل بيت الرسول فحسب انما شاركهم فيه من رجعوا بنسبهم الى عمر بن الخطاب وسواه من السابقين الى الاسلام من سراة قريش وغيرهم [١]، أو أشراف عرب الشمال بصورة عامة . وكان المستشرق الالماني ألوارت Ahlwardt قد عثر على مجلد مخطوط في برلين من هذا الكتاب ونشره سنة ١٨٨٣ . لكن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية صوّر النسخة الخطيّة من هذا الكتاب وهي التي عثر عليها في مدينة استانبول وباشر بنشر هذا السّفر القيّم فصدر الجزء الأول منه عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ . أما موضوعات الكتاب وطريقته فنحن تنقلها عما قيل بصددها في الكتاب الآنف الذكر [٢] تحت عنوان : « موضوعات الكتاب وطريقته » وجاء فيها ما يلي : « بدأ الكتاب بذكر نسب نوح عليه السلام ، ثم تكلم عن العرب ونزل الى عدنان الذي هو رأس عمود نسب الرسول وظل ينزل الى أجداد النبي واحداً واحداً ، ذكراً ما يتصل بكل جدّ على حدة ذاكراً أبناءه باختصار حتى وصل الى مولد الرسول في ص ٤١ المجلد الأول ، واستغرقت الصفحات في سيرته ٢٣٧ صفحة ، ثم تكلم عن أمر السقيفة ، وبدأ بعد ذلك يصعد في نسب الرسول مرة أخرى ، فتناول أبناء الجدّ الأول عبد المطلب واحداً واحداً فبنيهم وبني أبنائهم ومن نزل ، مستوفياً ما شاء من الأخبار والروايات ، ثم صعد الى أبناء الجد الثاني هاشم ، ونجده ينتهي من بني هاشم ابن عبد مناف في المجلد الرابع ويبدأ ببني عبد شمس بن عبد مناف .

---

(١) راجع من أجل ذلك مقدمة الاستاذ عبد الستار فراج على الجزء الأول من كتاب انساب الأشراف الذي أصدره معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، ص ٢١ ـ ٢٢ . وقد حقق هذا الجزء الدكتور محمد حميد الله .

(٢) البلاذري ، أنساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٢٥ ـ ٢٨ .

« وهكذا يظل متتبعا عمود النسب حتى يصل الى النّضر الـذي يسمى قريشا فينتهي من نسب قريش في المجلد العاشر فيقول : انقضى نسب قريش ...

« وأنساب الأشراف ككل الكتب ذات الأسانيد يذكر الخبر برواياته المختلفة ويعقد تراجم مطوّلة لبعض الأعلام الذين اشتهروا من حكام وعلماء وأدباء . فقد ترجم مثلا لأبي بكر في ٢٠ صفحة ، ولعمر في ٧٢ صفحة ، ولعلي وبنيه في أكثر من ٣٠٠ صفحة ، وترجم لجرير في ١٥ صفحة ، وللفرزدق في ٢٠ وللحجاج بن يوسف الثقفي في ٤١ ..»

وللبلاذريّ كتب" أخرى ذكرها كلّ من ابن النديم في الفهرست (ص ١٧٠) وياقوت الحموي في معجم أدبائه (ج ٥ ، ص ٩٩ — ١٠٠)، وهذه الكتب هي : « كتاب البلدان الصغير ، كتاب البلدان الكبير لم يتم (والمقصود به فتوح البلدان) . كتاب جمل نسب الأشراف ، وهو كتابه المعروف المشهور ، كتاب عهد أزدشير ترجمه بشعر . قال وكـان أحد النقلة من الفارسي الى العربي » فالى هنا اتفق كلام المؤرخين على أسماء هذه الكتب لكن ياقوت أضاف اليها « كتاب الفتوح » وهـذا الكتاب هو مما لا ريب فيه نفس كتاب البلدان أو فتوح البلدان .

وتحدّث الدكتور عبدالعزيز الدوري[1] عن أهمية طريقة البلاذريّ خلال حديثه عن أقطاب مؤرخي القرن الثالث الهجري فقال ما نصه : « جاء مؤرخو القرن الثالث الهجري — البلاذري (ت ٨٩٢/٢٧٩) واليعقوبي (ت ٨٩٧/٢٨٤) والدينوري (ت ٨٩٨/٢٨٢) وابن قتيبة (ت ٨٨٢/٢٧٠ م) والطبري (ت ٩٢٣/٣١٠) فكتبوا تواريخ متصلة للأمة الاسلامية ، تختلف عن الكتب السابقة. وسنكتفي ببعض الملاحظات العامة هنا .

---

(٢) الدكتور عبد العزيز الدوري ، المرجع المذكور ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .

« كانت الأفكار التاريخية وراء كتاباتهم هي وحـدة خبرة الأمة واتصالها ، والنظرة العالمية للتاريخ . ويمثل البلاذري الفكرة الأولى بينما يمثل بقية المؤرخين الفكرة الثانية . وقد اختلفت دوافعهم لكتابة التاريخ . فالبلاذري كتب تاريخه (أنساب الاشراف) ونسجه حول الأرستقراطية العربية وبذلك دلّ على مركز الثقل في نظره ، كما أنه أكّد بذلك نظرةً اجتماعيةً عربيةً . ثم ان « فتوح البلدان » يعبر عن رسالة الأمة الأساسية أي الجهـاد ويسدّ بعض الحـاجات الفقهية والاداريـة ... » .

وبعد أن تحدّث المؤلف عن أسلوب كل من اليعقوبي وابن قتيبة والطبري تابع كلامه عن مؤرخي القرن الثالث فبين أهميتهم ، ومؤرخنا البلاذري واحد من بينهم ، في ترسيخ علم التاريخ على أسس ودعائم قوية فقال ما يلي : « وقد قام هؤلاء المؤرخون بدراسات خاصة واسعة في التاريخ والجغرافية والأدب وأضافوا انتاجهم الى ما خلّفه الأخباريون واستعملوا الكتب (بعد قراءتها على شيخ) جنب الروايات الشفوية ، ورجعوا أحيانا الى الوثائق والسجلات . وقد جمعوا في تواريخهم بين وجهات النسّابين والأخباريين واللغويين واستفادوا كثيراً من مدرسة المدينة (أي مدرسة أهل الحديث في تدوين التاريخ) .

« ان ظهور هؤلاء المؤرخين يعني انتهاء مرحلة الأخباريين اذ وضعوا خطوط علم التاريخ عند العرب ، وركّزوا الآراء والافكار التاريخية » .

ابن عبد الحكم المتوفى ٢٥٧ هـ : هو أبـو القاسم بن عبـد الله بن عبد الحكم بن أعين ، وهو أوّل من اشتغل بكتابة التـاريخ في مصر بعد خضوعها للحكم الاسلامي وكان أبوه فقيها ومحدثا ورئيسا لطائفة المالكية فيها . وقد اضطهدت أسرته في خلافة الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ) لرفضها القول بخلق القرآن .

ويعرف مؤرخنا عبد الرحمن هذا بابن عبد الحكم وقد توفي في الفسطاط وعني بجمع الأحاديث التي رواها محدثو مصر ، وكان أبوه واحدا من بينهم ، وأهم كتبه : **فتوح مصر والمغرب** ويتألف من سبعة أجزاء تناول في الاول منها تاريخ مصر القديم وفي الثاني الفتح الاسلامي لها ، أما الثالث فيتعلق بخطط الفسطاط والجيزة والاسكندرية . ويتعرض الجزء الرابع لنظام مصر وادارتها في عهد عمرو بن العاص وامتداد الفتح الاسلامي جنوبي مصر وغربها ، وفي الجزء الخامس فتح شمال افريقية بعد وفاة عمرو ، وغزو الأندلس . ودرس المؤلف في الجزء السادس قضاة مصر الى سنة ٢٤٦ هـ بينما اقتصر في الجزء السابع من كتابه على رواية الأحاديث التي رواها الصحابة الذين قدموا الى مصر .

وقد شهد المستشرق توري Torrey بأهمية ذلك الكتاب ومؤلفه ووجه له النقد فقال له : « وتولنا طريقة جمع هذا الكتاب على أن مؤلفه كان بارعاً في جمع الأخبار ، ولكنه لم يهتم بنقدها . وقد عني عناية خاصة ببعض الصحابة والتابعين ، ولذلك تجده يسهب في كلامه عن المتقدمين من القضاة ، بينما يوجز في الكلام عنهم كلما قارب عصره . كذلك نجده في كلامه الهام عن الخطط يجمع كل ما يصل اليه من الأخبار ، على حين أنه أحل الروايات الموثوق بها محلاً ثانوياً . وقد استفاد مؤرخو مصر المتقدمون الى حد بعيد من كتاب ابن عبد الحكم ، واعتمدت عليه المؤلفات المتأخرة كذلك ، فأكثر كتاب حسن المحاضرة للسيوطي مأخوذ من كتاب ابن عبد الحكم ، كما أخذ منه المقريزي كثيرا من فصول كتابه ، ولكن ما نقلاه لم يكن في روعة كلام ابن عبدالحكم نفسه . ونقل ياقوت كذلك معظم ماكتبه عن وصف مصر نقلا حرفيا عن هذا الكتاب » .

أما الدكتور حسن ابراهيم حسن فقد تعرض لمن نقل عن تاريخ ابن عبدالحكم من المؤرخين قائلا : « وقد روى عن ابن الحكم من جاء بعده من مؤرخي مصر الاسلامية نخص بالذكر منهم الكِندي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وابن زولاق المتوفى سنة ٣٥٧ والقضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ والمقريزي المتوفى سنة ٨٥٤ هـ ، وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ • والسيوطي المتوفى سنة ٩١٠ هـ وابن اياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ حتى أصبحوا عالة عليه يأخذون منه من غير نقد أو تعليق » •

تلك هي طريقة مؤرخي السيرة والمغازي والطبقات وفتوح البلدان • وأهم الكتب التي ألفها أولئك المؤرخون الذين يعتبرون بحق **روادا للتأليف التاريخي العلمي** • وكان موطن مؤرخي السيرة بصورة عامة المدينة ولم يؤلف أحد في السيرة والمغازي قبل القرن الثاني ، أما طريقتهم فهي علمية صحيحة لا تشوبها أية شائبة أو هي على الأقل حسب تعبير المستشرق (جب) « بداية تأليف التاريخ العلمي باللغة العربية » ، ونظرا لعلاقة تلك الكتب بحياة الرسول اضطر واضعوها الى الرجوع الى مجموعة الأحاديث النبوية ولا سيما ما اتصل منها بغزوات الرسول (مما أدى الى استعمال اصطلاح المغازي) • كما لاحظ (جب) أن ذلك الارتباط بين الحديث والتاريخ ترك أثرا لا يمحي في أسلوب التأليف التاريخي بالاعتماد على الاسناد مما يفسر التغيير البالغ الذي ظهر منذ ذلك الحين في الصفات المميزة لرواية حوادث التاريخ وتمحيصها عند العرب • ثم أضاف المستشرق الى ذلك قوله : « وانا لنشعر أول وهلة أنا نستند الى أساس علمي وثيق ••• »

وبعد أن ذكر الاستاذ أحمد أمين أن معظم كتّاب السيرة والمغازي كانوا من المدينة أضاف الى ذلك قائلا : « كانت السيرة والمغازي جزءا من الحديث يرويه الصحابة كما يروون أحاديث الصلاة والصيام ، وكان

من بعدهم يرويها عنهم كما يروون أحاديث العبادات والمعاملات ويصل بعضها ببعض ، وعني بعض العلماء بهذه الناحية التارخية كما عني غيرهم بأحاديث الاحكام ، ثم أفردت بالتأليف وضم الى الحديث غيره من أخبار الجاهلية ، وما في يد الناس من شعر .

« سلك المؤلفون الأولون في سيرة مسلك المحدّثين الأولين ، فمنهم من كان يعنى بالاسناد ، ومنهم من لم يعن به ، واضطر ابن اسحاق والواقدي وأمثالهما ـ مراعاة لسير الحوادث وأخذ بعضها برقاب بعض ـ أن يجمعوا الأسانيد ، ويجمعوا بعد ذلك المتن ، من غير أن يعزّزوا كلّ جزء من المتن بسنده ، فهاجمهم المحدّثون من أجل ذلك ، ولكن عذر المؤرخين عنايتهم بعرض الحادثة كاملة في ايجاز تسهيلا على الكتّاب والقرّاء ... » .

وختاما للبحث عن كتب السيرة والمغازي نرى أنها أقرب الى كتب التاريخ الصحيح من تآليف الأخباريين والنسّابين وذلك لاعتمادها على أحاديث الرسول التي يتحرى في جمعها الصحة وتلتزم الدقة . وقد ساهمت هذه الكتب في النهوض بمستوى التأليف التاريخي .

تورايخ البلدان والتراجم : عني كثيرون من مؤرخي المسلمين بتأليف كتب تناولوا فيها تاريخ قطر من الأقطار العربية الاسلامية أو تاريخ بلاد أخرى أو الترجمة لبعض مشاهير الرجال أو الدول . ويغلب على الظنّ أن اهتمام أولئك المؤرخين بقطر واحد أو بمدينة واحدة كان نتيجة أنهم من أبناء ذلك القطر أو تلك المدينة . وقد اهتم مؤرخو ذلك الفرع بكتابة سيرة الشخصيات الفذّة التي نشأت في القطر أو في المدينة التي عنوا بكتابة تاريخهما . ومؤرخو البلدان كثيرون يمكن أن نوجز أخبار بعضهم ، ومن بينهم :

الخطيب البغدادي ٣٩٢ ـ ٤٦٣ هـ : هو أبو بكر أحمد بن علي بن

ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت البغدادي وقد شهر بلقب الخطيب • كما لقب بالحافظ لأنه كان من حفظة القرآن المتقنين • كما كان فقيهاً تلقى الفقه عن عدد من الفقهاء أشهرهم أبو الحسن المحاملي والقاضي أبو الطيب الطبري • ومن العلماء من قال انه صنف مائة كتاب ومنهم من ذكر أن كتبه أربت على الستين • وعلى الرغم من تبحّر الخطيب البغدادي في علوم شتى فقد غلب عليه الحديث والتاريخ لدرجة حملت ابن خلكان على القول بأنه : « لو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه فانه يدلّ على اطلاع عظيم » • وكان يعتبر في وقته حافظ المشرق ، وقد ذكر عنه محب الدين بن النجار في تاريخ بغداد « وكان قد انتهى اليه علم الحديث وحفظه في وقته » وقد توفي ولم يُعقّب • ولما شعر بدنو أجله تصدق بجميع ماله ولم يكن يملك سوى مائتي دينار فرقها على أرباب الحديث والفقهاء • وأوصى كذلك بأن يُتَصَدَّق عنه بجميع ما عليه من الثياب ووقف جميع كتبه على المسلمين • ومن تلاميذ الخطيب البغدادي الذين انتفعوا بعلمه كثيرا أبو اسحاق الشيرازي وكان كما ذكر ابن خلكان « من جملة من حمل نعشه ، لا انتفع به كثيرا ، وكان يراجعه في تصانيفه » •

ان أهم كتب الخطيب البغدادي التي يعنينا أمرها هو كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، وهو من أمهات المراجع التي لا غنى عنها في دراسة تاريخ الدولة العباسية في فترة نيّفت على ثلاثة القرون وذلك بين شروع الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ببناء بغداد سنة ١٤٥ هـ ووفاة الخطيب البغدادي ٤٦٣ هـ • ويشمل هذا الكتاب وصفا مستفيضا لعاصمة العباسيين كما يطلعنا على سير من تعاقب عليها من خلفاء ومن عاش فيها من الامراء والوزراء أو أمّها أو غادرها من أولي الفضل والعلم • أما أجزاء الكتاب فهي أربعة عشر جزءا لا بد أن يطلع عليها من يرغب في دراسة ثلاثة القرون الاولى للدولة العباسية منذ نشأتها

الى ما بعد وصول طغرل بك السلجوقي الى حكمها ٤٤٧ هـ • وهي الفترة التي تضم أزهى العصور العباسية •

ابن عساكر ٤٩٩ – ٥٧١ هـ : هو علي بن الحسن بن هبة الله أبوالقاسم ثقة الدين الشافعي • ولد في دمشق وتلقى العلم ببغداد في المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك وزير أرسلان وملكشاه السلجوقيين ، وفي المدن الكبرى في فارس ثم عاد الى مسقط رأسه حيث عين معلما في مدرسة نور الدين زنكي • وقد اعتبر في حياته في طليعة فقهاء الشافعية وكانت وفاته بدمشق وقد سار السلطان صلاح الدين الايوبي وراء نعشه •

أن أهم تآليف ابن عساكر كتابه عن تاريخ دمشق الذي جمع فيه تراجم كل الرجال الذين كانت لهم صلة بتلك المدينة مقتديا في ذلك بطريقة الخطيب البغدادي في كتابه المار الذكر • وكتاب ابن عساكر كبير بلغ الثمانين مجلدا • ولم يبق من ذلك السّفر القيّم سوى الجزأين الأول والثاني اللذين طبعا في دمشق وأجزاء أخرى تحدث عنها المستشرق بروكلمان • ولابن عساكر كتاب المعجم درس فيه مشاهير الرجال ولا سيما الشافعية ، وله كتاب الأمالي • ويعتبر المستشرق (جب) أن تاريخ دمشق لابن عساكر هو أكمل المؤلفات العربية الجامعة التي من نوعه •

ابن زولاق ٣٠٦ – ٣٧٨ هـ : هو أبو محمد الحسن بن ابراهيم ابن الحسين بن الحسن بن خالد بن راشد بن عبد الله بن زولاق الليثي وهو عربي من قبيلة ليث بن كنانة ولو أن ابن يونس المصري قال بأنه ليثي بالولاء • عاش ذلك المؤرخ في مصر وكان معاصرا للاخشيديين وامتدت به الحياة أكثر من ثلاثين سنة بعد أن انتقلت الدولة الفاطمية الى مصر • وهو من أهم مؤرخي مصر ويتناول كتابه : « فضائل مصر

وأخبارها وخواصها » دراسة تاريخ مصر منذ عصورها الأولى•ويعتبره المؤرخون حجة في القسم الاول من تاريخ الفاطميين • وله **كتاب خطط مصر وأخبار قضاة مصر** وقد جعل الثاني ذيلا على كتاب محمد بن يوسف الكندي وقد توقف فيه الكندي سنة ٢٤٦ ﻫ فكمله ابن زولاق مبتدئا بسيرة القاضي بكار بن قتيبة ومختتما بذكر القاضي محمد بن النعمان • وكان ابن زولاق من بيت علم وأدب فجده الحسن ابن علي كان من مشاهير علماء مصر •

ابن اياس : وقد ولد ١٤٤٨ م وعاش في كنف الدولة المملوكية ، له مؤلفات عديدة أهمها تاريخه المفصل عن مصر واسمه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) ويتناول فيه دراسة تاريخ مصر القديم الى نهاية عصر الايوبيين كما كتب عن الدولة المملوكية وعن آخر سلاطينها الغوري وعاصر الفتح العثماني لمصر وكتب عنه وكانت وفاته سنة ٩٣٠ ﻫ • ولكتابه أهمية من حيث أنه المرجع العربي الوحيد للقرن العاشر الهجري • والمؤلف قدير في النقد وان كان قاسيا في نقده وأحكامه ، فقد انتقد دولة المماليك بذكره أن فساد الادارة المالية واهمال المدفعية هما من أسباب اضمحلال الدولة • وقد ألقى تبعة سوء الحالة المالية على السلطان الغوري ليبرر هزيمته أمام جيش السلطان سليم العثماني • ولابن اياس كتب أخرى أقل قيمة من بدائع الزهور فله مرج الزهور في وقائع الدهور وهو تاريخ عام عن الرسل والأنبياء • وله نزهة الأمم في العجائب والحكم وهو في التاريخ أيضا •

المقريزي ١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م : هو تقي الدين أحمد المقريزي المنحدر من أسرة أصلها من بعلبك في سورية من حي المقارزة في تلك المدينة ، وان يكن هذا المؤرخ قد ولد وشب وترعرع في القاهرة التي تلقى علمه فيها وكان من معاصري ابن خلدون • وبعد أن ظهرت على المقريزي

مخايل النجابة ألحق بدواوين القضاء فوضع تحت اشراف القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العمري وتولى منصب الحسبة غير مرة كما عهد اليه بعدة مناصب دينية •

كان هذا العالم حنفي المذهب فتحول الى الشافعية وقد تحيّز لمذهبه الجديد ضد الحنفية مما استوجب له لوم معاصريه ، ونظرا لسعة اطلاعه ولميله المفرط الى العزلة نجح ذلك المؤرخ في كتابة عدة كتب فقدنا معظمها ، وكان كثير النشاط أزمع أن يكتب تاريخا عاما في ثمانين مجلدا مرتبًا بحسب الحروف الأبجدية وشاملاً لسير جميع ملوك مصر وسير رجالاتهم المشهورين وسائر من أقاموا بها أو زاروها من أعاظم الرجال ؛ ولم ينجز ذلك العمل الجبار ، وهناك مجلد واحد من ذلك المعجم الموسوعي في المكتبة الوطنية بباريز وهو بخط المقريزي نفسه •

خلّف هذا المؤرخ كتابين هامين هما كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك وفيه أخبار سلاطين المماليك وقد قام بترجمته الى الفرنسية المستشرق كاترمير ، وقد حقق الجزأين الاول والثاني من أجزاء هذا الكتاب الاربعة الدكتور محمد مصطفى زيادة وأصدرت دار الكتب الاهلية هذين الجزأين في عدة مجلدات وهذه الطبعة هي أجود طبعات هذا الكتاب باللغة العربية ، وحبذا لو أنجز هذا الاستاذ المحقق الجزأين الآخرين •

وللمقريزي كذلك كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ويعدُ من أهم المراجع في تاريخ مصر الديني والسياسي والاداري والتجاري ؛ وله أيضا كتاب اتعاظ الحنفا في سيرة الأئمة الفاطميين الخلفا وقد حققه الدكتور جمال الدين الشيال في مصر • ولهذا المؤرخ كتب أخرى أقل أهمية من كتبه التي أوردنا ذكرها •

وهناك مؤرخون عديدون بحثوا في تاريخ أقطار أو مدن شرقية ومن

بينهم الأزرقي المتوفى سنة ٢٤٤ هـ واسمه محمد بن عبد الله بن أحمد ابن محمد بن الوليد بن عقبة بن الازرق . وقد ذكر ابن النـديم أنه أحـد الأخباريّين وأصحاب السير وله من الكتب كتـاب تاريخ مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها وهو كتاب كبير قيم . وهناك كذلك الفاكهي المتوفى حوالي ٢٧٢ هـ وكتب أيضا عن تاريخ مكة . ولدينا النرشخي الذي كتب تاريخ طبرستان . أما أهم من بحث تاريخ الأندلس والمغرب فهما المقري وابن عذاري .

المقري ٩٩٠ ـ ١٠٤١ هـ :أحمد بن محمد المقـّري من احدى قرى تلمسان وتقع على الحدود بين الجزائر ومراكش . نشأ في بيت علم وأدب وتلقى العلم على عمه أبي عثمان سعيد بن أحمد المقـّري في بلدته ؛ وقد قضى شبابه الى أن قارب الثلاثين متنقلا ما بين مسقط رأسه ومـدينة فاس التي استقر بها وتولى الامامة والخطابة . ونظرا لحدوث اضطرابات سياسية في تلك المدينة سنة ١٠٢٧ هـ اثر وفاة ملكها أحمد المنصور واستشراء الفتنة بين أولاد هذا الاخير قرر المقري مغادرة فاس وترك منصبه والرحيل الى المشرق والحج الى بيت الله الحرام . وبعد رحلة شاقة في البحر وصل مصر وقصد القاهرة وذهب الى الحجاز حاجـّـاً في نهاية ١٠٢٨ هـ ثم عاد الى مصر وتزوج فيها . لكن المقام لم يطب له بأرض الكنانة فغادرها الى بيت المقدس وحج مرة ثانية ثم عـاد الى مصر ورحل عنها أخيرا سنة ١٠٣٧ الى القدس حيث درّس في المسجد الاقصى . وقد بارح المدينة الى دمشق فطاب له فيها المقام وأحـاطه علماؤها وعلى رأسهم أحمد بن شاهين بالاجلال والاحترام وكان فيهـا جالية من المغاربة أنسوا به وأحاطوه بما هو أهل له من رفعة . وأدى ذلك الترحاب الذي لقيه المقـّري من علماء دمشق الى استيطانه مدينتهم فأملى بها صحيح البخاري في المسجد الأموي . ونال المقـّري من أهل دمشق وعلمائها حظوة لم يصل اليها غيره من العلماء الوافدين على تلك

المدينة فأقبل الناس على دروسه وجرت بينه وبين علماء دمشق مطارحات كثيرة وقف العلماء خلالها على غزارة معلومات ذلك العالم المغربي • وكان من أشدّ علمــاء وأدباء دمشق تعليقاً بالمقّري أحمد بن شاهين مما ترك أثراً طيّباً في نفس ذلك العالم الذي أفرد في كتابه نفح الطيب فصلا عن الشام وأهلها ، وله في مدحها شعر كثير تغنى فيه بجمال دمشق ومحاسنها •

وبعد رحلتين بين دمشق ومصر توفي هذا العالم المؤرخ في مصر سنة ١٠١٤ هـ وكان كثير الانتاج • لكن من الثابت أن الكتاب الذي سما به الى الأوج هو نفح الطيب • ولتأليف هذا الكتاب قصّة لا بد من ايراد موجز لها • وبيان ذلك أن المقّري كان كثيراً ما حدّث علماء وأدباء دمشق ، طيلة مقامه بين ظهرانيهم ، عن علماء وبلغاء الأندلس وعلى رأسهم الوزير المعروف لسان الــدين بن الخطيب وصــاروا يروون أقــواله ممــا كــانوا سمعوه من المقّري الى أن طلب أحمــد بن شاهــين من صديقــه المقّري أن يضــع لهم كتاباً خاصّاً عن ابن الخطيب يتضمن سيرته وعلمه وأدبه ووقائعه مع ملوك عصره[1] ونظمه

---

(١) كان ابن الخطيب من علماء ووزراء القرن (٨) هـ في غرناطة وقد استوزره السلطان ابو الحجاج يوسف الاول كما وزر لابنه محمد الخامس ولما خلع هذا الاخير نفي ابن الخطيب معه الى مراكش في عهد دولة بني مرين ولما عاد ذلك السلطان الى غرناطة عاد معه ابن الخطيب الى الوزارة لكنه فرّ بنتيجة دسائس اعدائه الذين اتهموه بالزندقة الى تلمسان وقد قتله اعداؤه في سجن تلمسان . وقد بلغت تآليفه الستين ومعظمها في التاريخ وتخطيط البلدان والشعر والادب . . . لم يبق منها سوى ثلثها . راجع من اجل لسان الدين بن الخطيب دائرة المعارف الاسلامية . ج ١ ص ١٥٠ — ١٥٢ .

ونثره وتآليفه الرائعة . وبعد تردّد وعد المقّري صديقه بانجاز ذلك العمل غداة وصوله الى القاهرة (كان مزمعا مغادرة دمشق الى القاهرة) وهذا ما قام به فعلاً . ولما تمّ له جمع أخبار لسان الدين بن الخطيب رغب أن يذكر اخباراً عن الأندلس ومفاخر ذلك القطر ومآثر أهله ومزاياهم وخصائصهم . ومما سهل مهمته أنه كان عني بجمع أخبار الأندلسيين منذ كان في المغرب . وهكذا كانت مادة قسمي كتابه أخبار الأندلس والأندلسيين وأخبار الوزير لسان الدين بن الخطيب .

تعتبر طريقة المقّري في التأليف التاريخي طريقة فذّة فهو يجمع عن الشخصية المترجم لها الأخبار الكثيرة والمعلومات المستفيضة ويتخذ تلك الشخصية محورا يدور حوله الموضوع فيؤلف بين شوارده ويضمّ أجزاءه . ويسعى المقرّي الى فهم الشخص المترجم عن طريق فهم عصره، واستقصاء معارف زمنه ، والاحاطة بالظروف التاريخية التي مهدت له السبيل ، واستفتحت له المغلق وقربت له البعيد . وقد تفيد المقّري بذلك الأسلوب في كتابه « أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » فاتخذ من ذلك القاضي مركزاً جمع حوله المعلومات الأدبية والتاريخية غير مكتف بأخبار عصره وبلده بل استوعب أخبار الاجيال السابقة لجيله .

أما كتابه نفح الطيب فكان اسمه في الأصل « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » عندما كان يفكر أن يقتصر الكتاب على أخبار ذلك الوزير فحسب ، لكنه عدّل ذلك الاسم بعد أن ألحق به أخبار الأندلس يجعلها القسم الأول من الكتاب وصار اسم الكتاب : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » . والكتاب بقسميه جامع لأحسن الوثائق الأدبية وأهم المصادر في تاريخ الأندلس بوجه عام ، وهو يشمل مجموعة ممتازةً من المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والادبية اقتبسها المؤلف

من مصادر مختلفة معظمها مفقود الآن . لذلك فان لكتاب نفح الطيب أهمية قصوى تجعله يحتل مركز الصدارة في مراجعنا عن تاريخ اسبانيا الاسلامية منذ الفتح الى استردادها من قبل الاسبان . لا بل فان ذلك الكتاب يعتبر المرجع الوحيد بالنسبة لتاريخ الفترة الاخيرة .

يتناول القسم الأول من نفح الطيب أخبار الأندلس وشملت ثمانية أبواب يتعلق أولها بوصف الأندلس من حيث حسن الهواء ووفرة الخيرات والمنافع والمحاسن وتناول الباب الثاني دراسة الفتح على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد . أما الباب الثالث فتعرض فيه لأهمية الدين في الأندلس وجهاد أهل ذلك القطر . وفي الباب الرابع ذكر لقرطبة مقرّ الخلافة الأموية وجامعها ذي البدائع الباهرة مع الاشارة الى الزهراء الناصرية والعامرية ، ووصف جملة من متنزهات تلك الاقطار ومصانعها . ويورد الباب الخامس ذكر من هاجر من الأندلسيين الى بلاد المشرق والتعريف بهم كما يورد الباب السادس ذكر بعض من أمّ الأندلس من أهل المشرق والتعريف بهم . ويقتصر الباب السابع على ايراد نبذة مما امتاز به الأندلسيون من توقد الأذهان والذكاء والألمعية . وأخيراً درس الباب الثامن نجاح العدو في التغلب على الجزيرة بعد أن وجّه كيده اليها وفرّق بين ملوكها ورؤسائها بمكره حتى تمّ له الاستيلاء عليها .

ويقتصر البحث في القسم الثاني من الكتاب على التعريف بلسان الدين بن الخطيب : أوليته وأسلافه ونشأته وتسلمه الوزارة وكيد الدهر له وقصوره وأمواله الى وفاته ثم ذكر رسائله مع الملوك والامراء وايراد جملة من نثره ونظمه والاشارة الى مصنفاته سواء ما انتهى من تأليفه أو ما لم يتح له الموت اتمامه ؛ بعض تلاميذه والآخذين عنه ثم أولاده ووصيته لهم .

وعلاوة عن أن المقّري مؤلف قدير صبور على الجمع قــدير على التنسيق والتأليف فانه شاعر مجيد قد لا يسمو الى مصافّ كبــار الشعراء لكنه لا ينزل الى حضيض ما يسمى بشعر العلماء الذي تغلب عليه الغثاثة والركاكة والجفاف والذي يبدو فيه ضعف الخيال ونضوب الاحساس • أما نثر المقري فيمتاز بصفاء الديباجة ومتانة المبنى والقدرة على التصرّف في استعمال اللفظ • ولا تقوم المكانة الأدبية التي يحتلها على نفح الطيب وحده فكتبه الأخرى كثيرة منوعة ومنها : أزهــار الرياض في أخبار القاضي عياض ، وله تآليف كثيرة وانتاج عظيم وذلك لأنه كان واسع الثقافة متعدد جوانبها دائم التحصيل ونحن مدينون له لكثرة ما كتب وألف وبذل من جهد مثمر مُجندٍ نافع •

ابن عذاري المراكشي : (ويقال كذلك ابن عذارى) ، هو أبو عبد الله محمد المراكشي ، ونحن نجهل تاريخي ميلاده ووفاته واقتصرت معلوماتنا في هذا الصدد على أن نشأته كانت في نهاية القرن السابع للهجرة (١٣ م) • وقد اختتم تاريخه عن المغرب بحوادث سنة ٦٠٢ هـ• أما اسم كتابه فهو البيان المغرب في أخبار المغرب • وقد نشر المستشرق دوزي هذا الكتاب في مجلدين في ليدن ودعاه بالفرنسية تاريخ افريقيا واسبانيا • وكان ابن عذاري المراكشي قد وضع كتابه في جزأين : الاول ، ويشمل أخبار المغرب ، وقد اختلطت به قطع من نظم الجمــان لابن القطان وقد طبع هذا القسم في ليدن ١٨٤٨ م ، والثاني ويضم أخبار الاندلس وقد اختلطت به قطع من تاريخ عريب وقد أنجز دوزي طبعه في ليدن ١٨٤٩ • ووضع هذا المستشرق مقدمة للكتاب بالفرنسية أشار فيها الى التواريخ التيوضعت عنالمغرب والأندلس وقدبحثها بحث الناقد الواسع الاطلاع وأشار الى ما فيها من تملق لذوي الجاه والسلطان الذين وضعت تلك الكتب في أيامهم ، ومن تشويه لبعض الحقائق • ولم يوفق دوزي الى شيء يتعلق بحياة ابن عذاريّ فلا نعرف عنه الا

أنه عاش في القرن (٧) ه أي الثالث عشر الميلادي •

يعتبر البيان المغرب من أهم الكتب التـي تشمل حوادث المغرب والأندلس السياسية والاجتماعية والادارية ، كما تعرض مؤلف الكتاب الى الحروب التي استعرت بين العرب والفرنجة أو بين العرب أنفسهم • ولم يتعدَّ ابن عذاريّ سنة ٦٠٢ ه في ايراده لحوادث تاريخ المغرب • أما فيما يتعلق بأخبار الأندلس فقد توقف المؤلف عند أخبار سنة ٣٨٧ ه بعد أن ذكر الأمراء والولاة الذين تولوا افريقية للأمويين ، كما ذكـر غزوات المنصور ابن أبي عامر مؤسس الدولة العامرية في الأندلس •• وآخر طبعة للكتاب بالعربية هي طبعة مكتبة صادر في بيروت ١٩٥٠ •

كتب التراجم : وهي ليست في الواقع سوى معاجم تراجم العلمـاء ومشاهير الرجال سواء الذين نشؤوا في مدينة واحـدة أم في اقليم واحد ، أو دون الاهتمام بالبلد الذي ينتمي اليه المترجم له • لكن مما تجب الاشارة اليه أن مشاهير رجالنا في شتى مجالات النشـاط (من فكري وسياسي والخ •••) كانوا زاهدين في الترجمة لانفسهم• وقد اعتنت كتب التراجم بصورة عامة بطريقة الأسناد كمـا أرَّخت الحوادث وخاصة تاريخ الوفاة وسائر ما يتعلق بحياة المترجم له ، مـع الاشارة الى الكتب التي ألَّفها المترجم له ان كان هذا الاخير مؤلِّفـا ، والى مقتطفات ولو بايجاز من شعره ان كان شاعرا • ولنشر أيضا الى أن مؤلفي التراجم لم يراعوا في ترتيب مادة كتبهم التاريخ أو الموضوع فأتت المعلومات التي تضمنتها كتبهم مفككة مضطربة • لكن تلـك المساوىء لا تحجب عن ناظرنا أن هذا الفرع من فروع التأليفالتاريخي يعتبر مكمِّلا قيِّما لنوع آخر من التأليف التاريخي هو كتب الحوليات السياسية التي تناولت التاريخ العام ، ومصحِّحا لما ورد فيها من أخطاء وذلك بنتيجة الصلة الوثيقة التي لكتب التراجم بحياة الناس •

ذلك التساند بين التاريخ والتراجم بدأ منذ فترة مبكّرة تعود الى نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث على يد مؤرخ هام هو ابن عبدوس الجهيشاري المتوفى ٣٣١ هـ وهو صاحب كتاب تاريخ الوزراء والكُتّاب . وهناك أيضا هلال الصابىء المتوفى ٤٤٨ هـ وعلي بن منجب الصيرفي المتوفى ٥٤٢ هـ الذي كتب تاريخ وزراء الدولة الفاطمية . كما تضم خزانة كتب التاريخ العربية كتاب محمد بن يوسف الكِندي المتوفى ٣٥٠ هـ عن قضاة مصر ، وكتاب محمد بن الحارث الخشني المتوفى ٣٦٠ هـ عن قضاة قرطبة . أما الصولي المتوفى ٣٣٥ هـ فقد جمع في كتابه الاوراق (وهو في تاريخ العباسيين) التراجم السياسية الى التراجم الادبية . بيد أن بدء اهتمام المؤرخين بالترجمة للبيوت الحاكمة (الدول) كان خطوة بالغة الضرر . وذلك لان الحكام أخذوا يتدخّلون في كتابة تاريخ عصرهم . وبدؤوا يتحكّمون بكتابة التواريخ ويشرفون عليها مستهدفين ستر نقائصهم واظهار محاسنهم ، وبذلك أضحى التاريخ كما يقول العلماء عملا يسوده التلفيق . وأول من كتب التاريخ متأثرا بنزعة ورغبة ذوي السلطان ابراهيم الصابىء المتوفى سنة ٣٨٤ هـ فقد دوّن كتابه التاجي في تاريخ آل بويه وقد مرّ بنا آنفاً ما قاله لأحد زوّاره عندما سأله عن عمله في هذا الكتاب فأجابه : « أباطيل أُنمّقها وأكاذيب أُلفّقها » . وثمة كتب أخرى في هذا الباب ، ككتاب اليميني الذي هو عبارة عن تاريخ سبكتكين ومحمود الغزنوي .

وقد اهتمت كتب التراجم عامّة بتدوين أخبار حياة مشاهير الأعلام وأهم ما قاموا به من أعمال دون أن تتعرض لطبقاتهم . أما مؤرخو هاذ الباب فقد حذقوا التبويب والترتيب وكانوا على العموم في عصر النضج العلمي فوضعوا كتب التراجم وتناولوا فيها دراسة سير العلماء والادباء والخلفاء وسواهم مستقين أشياء كثيرة من مادة كتبهم من كتب

الطبقات • وقد رتّبوا كتبهم على حروف المعجم وأهمُّ من ألّف في هذا الباب من مؤرخي المشارقة ابن خلكان صاحب وفيّات الأعيان وياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء • أما تراجم مشاهير رجال الأندلس فقد كتبها ابن بشكوال ثم من كمل كتابه •

ابن خلكان ٦٠٨ ــ ٦٨١ هـ : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الأربلي الشافعي • وكان قاضياً للقضاة وولد ببلدة اربل وكان شافعي المذهب • وقد بدأ دراسته العليا في الثالثة عشرة بسماعه صحيح البخاري من الشيخ أبي جعفر محمد بن مكرم ثم تابع دراسته في حلب سنة ٦٢٦ هـ فدرس على الجواليقي وأخذ فيها عن القاضي بهاء الدين بن شداد كما قرأ النحو على أبي البقاء يعيش ابن علي النحوي ثم درس في دمشق وأخذ عن ابن الصلاح وذهب الى مصر وسكنها وناب في القضاء عن القاضي بدر الدين السخاوي ثم أصبح نائبا لقاضي القضاة يوسف بن الحسن السنجاري وعين قاضي قضاة دمشق سنة ٦٥٩ مقرراً بالأمر ثم أقيم معه قضاة المذاهب الثلاثة الاخرى (مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل) ثم عزل من منصبه مدة خمس سنوات واشتغل بالتدريس سبع سنين في المدرسة الفخرية بالقاهرة • وقد أعيد ابن خلكان الى قضاء الشام وعزل عنه للمرة الثانية ٦٨٠ وعند وفاته سنة ٦٨١ كان مُدَرِّساً بالمدرسة الأمينية • وذكروا عنه أنه كان قد جمع حسن الصورة الى فصاحة المنطق وغزارة الفضل وثبات الجأش ونزاهة النفس ، كما قالوا عنه انه كان اماما فاضلا بارعا متفننا ، عارفا بالمذهب ، حسن الفتاوى ، جيد القريحة ، بصيرا بالعربية ، علامة في الادب والشعر وأيام الناس ، كثير الاطلاع ، حلو المذاكرة ، وافر الحرمة ، من سراة الناس ، كريما جوادا ممدوحا •

وقد اشتهر أنه من حفدة البرامكة لكن أهل دمشق لم يقرُّوه على

ذلك النسب فردّ بأنه لو كان يريد أن يدّعي لنفسه نسباً ليس له لكان من الخير له أن ينتسب الى العباس بن عبـد المطلب جد الخلفـاء العباسيين ، أو الى علي بن أبي طالب جدّ العلويين من الفاطميين وغيرهم، فان لم يكن الى أحد هذين فالى واحد من عامّة الصحابة ، لأنه يشرف بهذا النسب ، فأما أن يجيء الى قوم ذهبوا من الارض ولم يبق من آثارهم شيء ــ وهم فوق ذلك قوم مجوس الاصل ــ فما من فائدة تعود عليه في الانتساب اليهم ، وهي حجة دامغة .

شرع ابن خلكان بكتابة تاريخه الكبير : « وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » عندما كان في القاهرة سنة ٦٥٤ لكنه ترك العمل عندما ولي القضاء في دمشق ثم عاد لاستئنافه وأنجزه في سنة ٦٧٢ . ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي . أما منهاجه في البحث فيمكن تلخيصه فيما يلي :

أولاً : ــ جمع معلوماته التي ضمنها كتابه من ثلاثة مصادر : أولها ما عثر عليه فيما كان صنّف قبله من الكتب وكان كلفا بمراجعتهـا والافادة منها ، ثانيها ما اقتبسه من مشايخه من أهل الثقة الذين كـان تلقى العلم عليهم . أما ثالثها فما شاهده بنفسه من حوادث مما دفعه الى تسمية كتابه : « وفيّات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان » .

ولا يقتصر هذا المؤرخ عند نقله عن الكتب المؤلفة على النقل فحسب ملقياً المسؤولية على عاتق المؤلف شأن كثير من المصنّفين قبله ولكنه ينتقد الرواية ويزن الكلام وينخله ، فان شك فيه ولم يقبله علق عليه قائلا : « وفي النفس من هذا الكلام شيء أنا أذكره » فان لم يكن الكلام ظاهر البطلان وكانت ثمة رواية أخرى وازن بين الروايتين وصحح كلام أوثقهما وأحفظهما .

ثانياً : — امتنع عن ذكر تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء ذاكرا أن الكتب المصنفة في تراجم الصحابة وفي كتب الطبقات وفي التاريخ العام فيها الكفاية عنهم وان يكن قد ذكر بعضهم .

ثالثاً : — لم يترجم الا اللذين وقف على سنيّ وفاتهم وذلك لأن معظم العلماء لم تعرف سنو ولادتهم فلما نبه ذكرهم وصاروا علماء قلّما جهل أحد تاريخ وفياتهم .

رابعاً : — رتّب أسماء الأعلام الذين ترجم لهم على حروف الهجاء فقدم من أول اسمه همزة على من أول اسمه باء وهكذا دواليك :

وفيما عدا طبعة وفيّات الأعيان على الحجر في طهران فان ذلك السفر القيم طبع سبع طبعات أولها في باريز ١٨٣٨ م وقد حققها البارون دوسلان . ومع ما يظهر فيها من عناية فائقة بالتصحيح والمراجعة فان تلك الطبعة كثيرة السقط اذا قورنت بالطبعة الثانية التي أنجزت في مطبعة بولاق (القاهرة) منذ قرن من الزمان وقد حققها الشيخ محمد عبد الرحمن المعروف بقطة العدوي وهي أكمل طبعات هذا الكتاب تصحيحا وأدقها تحقيقا وأوفاها عبارة .

أما الطبعة الثالثة ففي مطبعة بولاق أيضا وبهامشها كتاب الشقائق النعمانية . وأنجزت الطبعة الرابعة في القاهرة قبل سبعين عاما وعلى هوامشها كتابا الشقائق النعمانية والعقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم . وقد صحح الطبعة الخامسة الشيخ محمد النجار وقد طبعت على نسخة طبعة بولاق الاولى .

وكانت الطبعة السادسة التي لم تتم تلك التي حققها في مصر الاستاذ أحمد يوسف نجاتي المدرس في كلية دار العلوم وكلية اللغة العربية سابقا . أما آخر طبعات هذا الكتاب فهي التي أنجزت سنة ١٩٤٨

في مصر أيضا وقد حققها وعلق عليها ووضع فهارسها الاستاذ محمد محي الدين عبد الحميد مفتش العلوم الدينية والعربية بالجامع الازهر والمعاهد الدينية وهي أحسن الطبعات وتقع في ستة أجزاء .

وقد كمّل بعض مؤرخي التراجم وفيّات الأعيان كمحمد بن شاكر الكتبي الذي وضع كتابا في جزأين دعاه : فوات الوفيات .

ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦ هـ : ولقد لقبه بعضهم بالمؤرخ الجامع . هو رومي الجنس وكان يلقب شهاب الدين وكانت نشأته غير عادية ، حيث أسر من بلاده صغيراً فحرم عطف الأبوين وعانى قسوة النّخاسة. وقد اشتراه تاجر من بغداد اسمه عسكر بن أبي نصر لا يحسن الكتابة فأراد الانتفاع من ذلك الغلام الرومي في ضبط تجارته وقيد حساباته . ثم استعان هذا التاجر بياقوت في أسفاره حيث كان ينتقل ما بين عمان وسائر نواحي الخليج العربي وبلاد الشام مما أتاح لياقوت أن يدرس الجغرافية بصورة عملية وكان قد تعلم شيئا من النحو واللغة . ثم نشب خلاف بين ياقوت وسيّده وكان الاول حاد الطبع وظهرت عنده عقد نفسية نتيجة طفولته القاسية البائسة فانفصل عن سيده وأخذ ينسخ الكتب بالأجرة فأفاد من مطالعتها وبدأ يبحث ويدرس ويستقصي معتمداً على نفسه دون أن نعرف له شيخاً تتلمذ عليه سوى نسخ الكتب وقراءتها والاشتغال ببيعها . ثم عاد الوئام بينه وبين سيده الذي طعن في السن فأفده في تجارة له . ولما عاد ياقوت وجد سيده توفي فأعطى أولاده وزوجته قسماً من المال واحتفظ بشيء منه جعله رأس مال له واشتغل بتجارة الكتب وبسواها . لكن ذلك لم يمنعه عن موالاة البحث والمثابرة على التحصيل والدرس . ثم سافر ياقوت الى دمشق واحتدم النقاش بينه وبين بعض المعجبين بعلي بن أبي طالب ، وكان ياقوت قد تأثر بآراء الخوارج فأخذ يذكر علياً بما لا يليق بمقامه مما أثار الناس فهمّوا

بقتله . لكنه تمكّن من النجاة وفرّ من والي دمشق الذي أرسل في طلبه ليعاقبه ، وذهب ياقوت الى حلب متخفياً ثم الى الموصل فخراسان .

لم ينقطع ياقوت في خراسان عن الدراسة ومراجعة الكتب وجمع المعلومات وتحصيل الفوائد . ومع تنقله بين أكثر بلاد خراسان للتجارة فقد استقر بعض الوقت في مرو وخوارزم وسواهما . ثم جدّ ما اضطره لمغادرة خراسان ، وذلك لمهاجمة المغول للدولة الخوارزمية ، والعودة الى العراق حيث وصل بعد رحلة مضنية شاقة محفوفة بالاخطار الى الموصل . وقد ذكر ياقوت أنه في تلك الرحلة تقطّعت به الأسباب ، وأعوزه دنيء المآكل وخشن الثياب ، انه وصف تلك الرحلة الشاقة في احدى رسائله الى أبي الحسن القفطي . وبعد مقام طويل في الموصل غادرها ياقوت الى سنجار ومنها الى حلب حيث أقام بظاهرها . ولما وصل حلب دخل على القفطي في حالة يشق منظرها وقال له : « اني قد ألقيت عصاي ببابك ، وخيّم أملي بجانب جنابك » فأكرم وفادته . ثم سار ياقوت الى مصر في احدى تجاراته وعاد الى حلب حيث كانت فيها وفاته سنة ٦٢٦ هـ .

ومما يجدر التنويه به أن ذلك المؤرخ والجغرافي الذي لم يعرف الاستقرار والذي كانت عيشته قلقة مضطربة ألّف عدداً من الكتب بينها اثنان يعدّان من أهم الكتب التي تزخر بها المكتبة العربية ، وهما معجم الأدباء الذي دعاه مؤلفه : « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » ومعجم البلدان . اما أولهما فجمع فيه ياقوت ما وصل اليه من أخبار النحويين واللغويين والنسّابين والقرّاء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والورّاقين والكتّاب المعروفين وأصحاب الرسائل وكل من صنّف في الأدب تصنيفاً ، أو ألّف فيه تأليفاً ، وذكر في مقدمة كتابه أنه فضّل الاختصار والايجاز ولم يفرّط في اثبات الوفيّات وذكر المواليد

وذكر تصانيف الذين ترجم لهم وأهم أخبارهم والمختـــار من شعرهم والمستجاد من نثرهم مع زهد في ذكر الاسانيد الا فيما ندر لأنه تعمّد صغر الحجم • لكنه مع ذلك أشار الى المواضع التي نقل عنها وما أخذه وقد برّر عمله فقال في مقدمته : « هذه أخبار قوم أخذ عنهم علم القرآن المجيد والحديث المفيد ، وبصناعتهم تنال الامارة ؛ وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعـرف الحلال من الحرام » والكتاب هو بصورة عامة مرجع هـــام لدارسي الادب والتاريخ •

كما أفاد ياقوت من الرحلات التي قام بها في ايران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر وخراسان ، ممـــا مكّنه من جمع المواد اللازمة لكتابه الآخر القيم النــادر وهو كتاب معجم البـلدان • وقد اعتبر ذلك المؤرخ جامعاً بارعاً ، ناقداً واسع الاطلاع كثير التحصيل ، وان لم يكن من اصحاب النظرات الكاشفة والافكار العميقة ، والخواطر الملهمة • واعتبر في طليعة جامعي المعارف والمعلومات ، ومنسّقي الاخبار والروايات وناظمي أشتات الفــرائد والفوائد ، ومن أقدرهم على ترتيبها وتنظيمها وتيسير الافادة منها •

ابن بشكوال ٤٩٤ ـ ٥٧٨ هـ : هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن مسعود بن موسى بن بشكوال بن يوسف بن داحة بن داكه بن نصر ابن عبد الكريم بن واقد الانصاري • وأسرته من قرية بقرب بلنسية أما ولادته ففي مدينة قرطبة • انكب ابن بشكوال على دراسة الحديث في قرطبة وفي اشبيلية كما اهتم بالوقوف على تاريخ وطنه وكان ينوب عن القاضي أبي بكر بن العربي في أحد أحياء اشبيلية لفترة من الزمن وكانت وفاته في قرطبة سنة ٥٧٨ هـ •

وأهم الاساتذة الذين أخذ عنهم ابن بشكوال أبو محمد بن عتّاب

وأبو الوليد بن رشد وأبو بكر ن العربي • أما أهم تلاميذه — ومن الغريب أنهم توفوا في حياته — فأبو بكر بن خير وأبو القاسم القنطري وغيرهمـا •

ولذلك المؤرخ شهرة خاصة انفرد بها من دون سائر مصنّفي السيرة من العرب ، وقد قال عنه ابن الأبار : « ان ابن بشكوال كان آخر حجة في الحديث بقرطبة ، ولم يكن له نظير في معرفة تاريخ الاندلس » ، وكتب هذا المؤرخ خمسين كتابا لا نعرف منها سوى كتابين :

١ — كتاب الصّلة في تاريخ أئمة الاندلس •• ، والكتاب عبارة عن معجم ذكرت فيه سير علماء الاندلس ، وقد أنجزه سنة ٥٣٤ هـ ويرى النقدة أنه يعتبر تكملة لمعجم ابن الفرضي في السِّيَر •

٢ — كتاب الغوامض والمبهمات من الاسماء ويحتوي على سير رواة الحديث وذوي الاسماء العسيرة التهجية أو التي كثيرا ما تختلط بغيرها من الاسماء •

التواريخ العامة : بدأ المؤرخون بكتابة هذا النوع من كتب التاريخ منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، وقد ضمنوا كتبهم تاريخ العرب وغير العرب • وقام عملهم على التوفيق بين ما استمدُّوه من كتب السيرة والتآليف التاريخية المشاراليها الى الآن والمصـادر الاخرى ثم سعوا لادماج كل ذلك في رواية تاريخية متماسكة • وكتب أولئك المؤرخون بايجاز أو باسهاب تاريخ العـالم بادئين به منذ الخليقة وجاعلين ذلك الملخص مقدمة للتاريخ الاسلامي • غير أن مما تجدر الاشارة اليه أن ما كتبه أولئك المؤرخون عن تاريخ العالم (كمقدمة للتاريخ الاسلامي) ليس تاريخا بالمعنى الذي يدل عليه المفهوم الحديث لذلك العلم لأنه ما ان يبدأ المؤرخ بتدوين الحوادث التي تعود لتاريخ الاسلام حتى يهمل كل شيء سواه يتعلق بتاريخ الأمم الأخرى • ثم أدّت محاولة

المؤرخين الوقوف على تواريخ الأمم الأخرى الى ضرورة الاعتماد على ما نقل عن تاريخ الفرس ككتاب الملوك (خداي نامه) أو سير ملوك الفرس الذي ترجمه ابن المقفع (المتوفى ١٣٩ هـ) أو ما نقل عن القصص اليهودي والمسيحي القديم • لكن ذلك النقل عن التاريخ الاجنبي جعل بعض الخرافات تتسرب من جديد الى التاريخ وصار من الصعب أن يميز الانسان بين العناصر الخرافية وغير الخرافية في القضايا المتعلقة بتاريخ غير العرب المسلمين ، وهذا ما لاحظه المستشرق جب الذي شرح ذلك بقوله : « ولكن لم يكد التاريخ يجاوز الميدان الاسلامي حتى عادت الصعوبة القديمة في التمييز بين العناصر الخرافية ، وشبه الخرافية ، والتأريخية ، الى الظهور ، يصاحبها الميل الى تصديق كل موضوع في متناول الخاطر وهذا الميل قد أذكاه طابع المصادر التي استمد منها المصنّفون العرب موادهم لتدوين التاريخ القديم لفارس وغيرها من البلدان بل ان « خداي نامه » ذاتها كانت تشتمل في أقدم أجزائها على قصص تتناول أشخاصا خيالية وعلى تأملات كهنوتية ••• وكثيرا ما كانت النزعة القصصية والبلاغية تطغى على الرواية الصحيحة في الحديث عن ملوك آل ساسان » • ثم رجع المؤرخون الى كتب تاريخية باللغة السريانية (ككتاب مغارة الكنز) للوقوف على تاريخ اليونان وغيرهم •

لكننا اذا استثنينا نقيصة ذلك القسم الاول من كتب التاريخ العامة (الذي اعتمد فيه على المصادر الأجنبية والذي لم تكن معلوماته قيّمة) فمن المؤكد أن تعلّق المؤرخين بالوقوف على تواريخ الامم القديمة والمعاصرة للعرب أدخل مادة عقلية على التاريخ العربي وهي الرغبة في المعرفة لذاتها • ثم بدا أثر الثقافة الفارسية والاغريقية واضحا في كتب التاريخ الجديدة ، وكان أوضح ما يكون فيما اقتبسه مؤرخ كأبي حنيفة الدينوري (المتوفي سنة ٢٨٢ هـ) في كتابه الاخبار الطوال من

تلك المصادر أو فيما ضمنه ابن واضح اليعقوبي (المتوفي سنة ٢٨٤ هـ) كتابه عن سكان الشمال وأهل الصين بحيث غدا كتـابه برأي علماء التاريخ أقرب الى موسوعة في التاريخ منه الى كتاب في التاريخ العام. لا بل فهذا المؤرخ والمسعودي (المتوفى سنة ٣٤٥ هـ والمعتبر من أكبر مؤرخينا) لم يكونا مؤرخين فحسب بل كانا جغرافيين قاما برحلات بعيدة مكنتهما من الحصول على معارفهما الجغرافية . ويمكن القول بأن ذلك العنصر العقلي الذي دخل في طريقة التأليف التاريخي والذي دعوناه بالرغبة في المعرفة لذاتها كان نتيجة للثقافة اليونانية التي سلكت سبيلها الى شتى مجالات النشاط الفكري في الاسـلام طيلة القرنين الثاني والثالث . ومنذ أن بحثت كتب التاريخ التاريخ العام استقل علم التاريخ عن العلوم الاخرى (كالحديث والتفسير والفقه والخ ..) وأخذ ينمو ، وزادت كتب التاريخ بين القرنين الثالث والسادس الهجريين زيادة لا يمكن أن تحصى في هـذه العجالة وقد أشـار حاجي خليفة (المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ) في كتابه « كشف الظنون » الى ألف وثلاثمائة كتاب في التاريخ .

وتقسم كتب التاريخ العام الى قسمين : أولهما يسلسل الحوادث حسب تعاقب السنين وهو ما يدعى عادة بكتب الحوليات ، أما الثاني فيعرض فيه المؤرخ تاريخ السلالات الحاكمة أو تاريخ الملوك أو الدول. وصار بعض مؤرخي الحوليات يهتمون على الغالب ببداية التاريخ العام ببدء ظهور الاسلام ولو أن بعض مؤرخي الحوليات الآخرين استمروا يبدؤون كتبهم بسرد معلومات عن تاريخ العالم قبل الاسـلام دونما تحقيق لتاريخ تلك القرون الاولى .

وثمّة ظاهرة جديدة في كتب الحوليات وهي جمع مؤلّفيها بين الحوليات السياسية (أي تدوين الأخبار السياسية الهامّة سنة فسنة) والحوليات القائمة على التراجم . ويرى المستشرقون أن أكثر مؤرخي

الحوليات نجاحاً في هذه الطريقة هو ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) لأنه كما ذكروا حاول سرد التاريخ بأسلوب يجعله أقرب الى الحياة منه الى الجمود ، فقد حشد الحوادث في روايات وأدخلها جميعا في اطار من الحوليات • وأهم مؤرخي الحوليات (حسب مراعاة التسلسل الزمني) أبو حنيفة الدينوري وابن واضح اليعقوبي وابن قتيبة الدينوري والطبري والجهشياري وابن الاثير وابن الطقطقي وابن العبري وأبو الفداء •

بينما يقتصر القسم الثاني من التواريخ العامة على دراسة بعض الأقاليم أو الأسر المالكة أو الشعوب • ويعتبر ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) شيخ مؤرخي هذه الفئة ومن بين مؤرخيها ابن واصل وأبو شامة وابن شداد وابن تَغري بَردي •

بيد أنه لئن كان ذلك التقسيم الى تاريخ عام متسلسل حسب السنين والى تاريخ محلي أي تاريخ أسر مالكة أو شعوب واضح المعالم بين منتصف القرن الثالث ومنتصف القرن الرابع فانه بات من الصعب منذ ذلك أن يميز الباحث في كتب التاريخ بين التاريخ العام والتاريخ الاقليمي • وهذا ما جعل الصفة العامة لكتب التاريخ التي وضعت منذ تلك الفترة أن تكون كتب حوليات معاصرة مع وضع مقدمة لها غالبا ما تكون موجزاً للتاريخ العام • وقد لاحظ العلماء أن الغالبية العظمى لكتب التاريخ السياسي التي وضعت منذ النصف الثاني من القرن الرابع وضعها كبار موظفي مختلف الدول الاسلامية أو رجالات بلاط ملوكها وأمرائها • مما جعل التدوين التاريخي منذ ذلك يتصف بصفات عديدة ذكر العلماء منها :

١ — أن المؤرخ لم يعد في وسعه أن يجعل أغراضه ورواياته عالمية فهو مقيّد بحدود النظام السياسي الذي يعيش في كنفه ، ويندر أن

يوفَّق الى معالجة حوادث تجري في أقاليم بعيدة عنه •

٢ ــ صارت الوثائق الرسمية والصلات الشخصية وما يدور بين العمال وفي دوائر البلاط من أحاديث هي المعين أو المصادر التي أخــذ المؤرخون يستقون منها مادة كتبهم •

٣ ــ اختصار مؤلفي التاريخ للأسناد مقتصرين على اشارة موجزة للمصدر ، لا بل استغنى بعض المؤرخين المتأخرين عن الأسناد بالمرّة في أغلب الاحيــان •

٤ ــ اتصفت كتب بعض أولئك المؤرخين بالتحيُّز السياسي (دعم المؤرخ وجهة نظر لدولة التي يؤرخ لها والنيل من أعدائها ، فالمؤرخ اما أن يكون مكلَّفاً بوضع تاريخه من أميرها أو وزيرها أو أن يكون بين موظفي تلك الدولة) ، وان يكن ما صنفه أولئك المؤرخون عن الحوادث السياسية الظاهرة موثوقاً به على العموم • ثم صار المؤرخ ينظر الى المسائل الاجتماعية والسياسية والدينية نظرة ضيقة • وأخذت كتب الحوليات تجنح الى الاقتصار على ذكر ما يفعله الامير وما تقوم به حاشيته •

٥ ــ اصطبغ التاريخ بالصبغة المدنية (بعد أن كانت كتابته مقتصرة على المحدّثين والفقهاء) وأخذ المؤرخون يحثّون على الاهتمام بدراسة التاريخ لقيمته الأخلاقية لأنهم يرون التاريخ ، (كما ورد في مقــدمة كتاب تجارب الامم لابن مسكويه وفي مقدمة كتــاب الوزراء لهلال الصابىء) يردّد ذكر الفعال الطيبة والخبيثة ويبسِّطها أمثالا نافعة في تربية الاجيال القادمة•وقد صادفت هذه الدعوة قبولاً تاماً لدى جمهرة علماء الأخلاق ورجال الأدب •

أما أعظم مصنِّفي التاريخ العام من الفئتين فهم :

١ ـ **أبو حنيفة الدينوري المتوفي سنة ٢٨٢ هـ :** هو أحمد بن داوود المولود بمدينة دينور من مدن العراق العجمي ، وقد تتلمذ في النحو على والد النحوي الكوفي ابن السكّيت وعلى الابن نفسه وتعلم رصد الكواكب في أصفهان ووضع كتاباً في الرصد كما وضع كتاباً في نباتات بلاد العرب وله كتب أخرى أهمها كتابه في التاريخ الذي يدعى «الأخبار الطوال» وهو كتابه الوحيد الذي وصل الينا . وقداعتبر الدينوري نداً للجاحظ في اتجاهه الأدبي من حيث جمعه بين التسلية والتثقيف .

درس الدينوري في الأخبار الطوال فترات من تاريخ العالم لكنه عني بصورة خاصة بالقضايا التي تهمُّ الفرس .وقد أمدنا بأخبار مفصَّلة عن تاريخ الاسكندر وآل ساسان وفتح العرب المسلمين للعراق لا سيما معركة القادسية والنزاع بين علي ومعاوية ، والخوارج ومصرع الحسين وأخبار المختار بن ابي عبيد الثقفي وفتنته وانهيار الدولة الأموية وأخبار العلويين في خراسان يذكرها في معرض حديثه عن أخبار الخلفاء .

٢ ـ **ابن قتيبة الدينوري ٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ :** هو ابو عبد الله محمد ابن مسلم الكوفي مارس القضاء في مدينة دينور لفترة ما ثم التدريس في بغداد حيث كانت وفاته . وقد اعتبر الأدباء ابن قتيبة رئيس مدرسة بغداد في النحو التي تقوم قواعدها على الخلط بين قواعد مدرستي البصرة والكوفة . وابن قتيبة كسائر معاصرية من الأدباء لم تقتصر شهرته على علم واحد بل نبغ في علوم شتى وقد حاول تبسيط جميع معارف عصره ليجعلها بمتناول الذين يعملون في الحياة العامة مع حرصهم على التعلّم وخاصة أفراد طبقة الكتّاب . وكان من مؤيدي أحمد بن حنبل وحزبه من الذين رفضوا أن يقبلوا القول بخلق القرآن في أيام المأمون والمعتصم والواثق العباسيين (١٩٨ ـ ٢٣٢ هـ) لأن المعتزلة حاولوا اجبار علماء عصرهم ، بعد اعتناق هؤلاء الخلفاء الثلاثة

مذهبهم ، على القول أن القرآن مخلوق . كما اتهم ابن قتيبة بالزندقة فدرأ عن نفسه تلك التهمة بتأليفه كتاباً . أما كتابه التاريخي فهو « عيون الأخبار » ذكر ابن النديم أنه في عشرة أجزاء أو كتب منها كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب السؤدد وكتاب الطبائع وكتاب العلم . ولابن قتيبة كذلك كتاب المعارف ، ويظن أن له كذلك كتاب الامامة والسياسة .

٣ ـ **محمد بن جرير الطبري ٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ :** ولد بمدينة آمل حاضرة طبرستان (السواحل الشرقية لبحر الخزر أو قزوين) وهو ابو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري . وقد بدت عليه مخايل الذكاء والنّجابة منذ حداثة سنّه وكان قويّ الحافظة . ولاحظ أبوه ذكاءه وتوقّد خاطره وحرصه على طلب العلم فعني بتربيته . وذكر الطبري عن نفسه خلال حديثه مع أحد أصحابه ما يلي : « حفظت القرآن ولي سبع سنين وصليت بالناس وانا ابن ثماني سنين وكتبت الحديث وانا ابن تسع سنين ».وقد عدّ ابن النديم تسعة من « الشيوخ الفضلاء » أخذ الطبري عنهم الحديث كما ذكر من درس عليهم فقه الشافعي ومالك وفقه أهل العراق (مدرسة أهل الرأي التي أسسها أبو حنيفة) كما أضاف الى ذلك قوله : « وأدرك الأسانيد العالية بمصر والشام والعراق والكوفة والبصرة والريّ ، وكان متفنناً في جميع العلوم : علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه كثير الحفظ ... ورأيت أنا بخطه شيئاً كثيراً من كتب اللغة والنحو والشعر والقبائل وله مذهب في الفقه اختاره لنفسه .. » ثم ذكر ابن النديم ثبتاً بكتبه في الفقه والتاريخ والتفسير والقراءات واختلاف الفقهاء الخ ...

قام الطبري بعدّة رحلات في طلب العلم ، فانتقل من مسقط رأسه (آمل) الى الريّ ثم قصد بغداد وأقام بها مدة طويلة وهو يكمّل

ثقافته فاستمع الى شيوخها وحضر مجالسهم وسمع مناقشاتهم وأحاديثهم ومساجلاتهم • وبعدذلكغادرها الى البصرة فسمع من علمائهاوالى الكوفة ليستوفي دراسة الحديث عن شيوخها وعاد الى بغداد حيث بقي ردحاً من الزمن منصرفاً الى دراسة الفقه وعلوم القرآن • ولم يكتف الطبري بذلك القدر من الثقافة بل سافر الىمصر ووصل الفسطاط سنة ٢٥٣ هـ ، وكان في طريقه اليها قد تجوّل في معظم بلاد الشام داخلاً وساحلاً « وكتب في طريقه (الى مصر) عن المشايخ بأجناد الشام (ولاياتها) والسواحل والثغور وأكثر منها » • ثم عاد الى الشام ورحل ثانية الى مصر حيث ظهرت مواهبه وقدرته في دراسة القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر فقال عن نفسه : « لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم الا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به ، فجاءني يوماً رجل فسألني عن شيء من العروض ولم أكن نشطت له قبل ذلك فقلت : « عليَّ قول ألا أتكلم في شيء من العروض ، فاذا كان في غد فصر اليَّ » ، وطلبت من صديق لي العروض للخليل بن أحمد ، فجاء به ، فنظرت فيه ليلتي فأمسيت غير عروضيٍّ وأصبحت عروضياً » • وأخيراً استقر المقام بالطبري في بغداد •

وبعد عودة الطبري لبغداد في المرة الأخيرة ساءت علاقته بالحنابلة وذلك لأنه لم يذكر في كتابه الذي بحث فيه اختلاف الفقهاء الامام أحمد بن حنبل فلما سئل عن سبب اهماله أجاب سائليه : « لأنه لم يكن فقيهاً وانما كان محدِّثاً » • فاستاء منه الحنابلة (وكانوا أقوياء جداً في بغداد التي كانت تذكر موقف مؤسس مذهبهم أحمد بن حنبل ورفضه الاذعان لأوامر الخلفاء في القول بخلق القرآن مما أضفى عليه شيئاً كثيراً من اعجاب الناس به وزاد عدد أتباع مذهبه فيمدينة السلام) وشغبوا عليه ورموه بمحابرهم فدخل داره التي رموها بالحجارة فتدخل صاحب الشرطة مع الجند ليحميه من بطش العامة • وقد روى ياقوت

الحموي في معجم الأدباء أن الطبري لازم بعد ذلك داره حيث وضع كتابه المشهور (أو عدّله) وذكر أحمد بن حنبل ومذهبه وفضله ٠

برّز الطبري في علوم شتى فحذق المنطق والحساب والجبر والطب لدرجة حملت بعض معاصريه على القول : « أنه كان كالقارىء الذي لا يعرف الا القرآن وكالمحدّث الذي لا يعرف الا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف الا الفقه ، وكالنحوي الذي لا يعـرف الا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف الا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات جامعاً للعلوم » ٠

كان ذلك العالم الكبير واسع الاطلاع غزير المعرفة دائب التحصيل عالي الهمة جلداً صبوراً فلما بدا له أنه صار لديه من المادة ما يكفيه لوضع تفسير لآي الذكر الحكيم بحث الأمر مع تلاميذه قائلاً لهم : « أتنشطون لتفسير القرآن ؟ فقالوا : كم يكون قدره ؟ فأجاب : ثلاثون ألف ورقة ٠ فقالوا : هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه ٠ فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة » ٠ وقد كان موفقاً في تفسيره لأنه حاز اعجاب العلماء الأعلام وتقديرهم وكان من أهم التفاسير التي وضعت لآي الذكر الحكيم ان لم يكن أهمها ٠

الطبري المؤرخ : ويبدو أن اهتمـام الطبريّ في استقصاء أسباب التنزيل اضطرّه الى مراجعة كثير من القضايا التاريخية ونظراً لصفاء ذاكرته وقوة حافظته بدا له أن يؤلف كتابه الهام في التاريخ « تاريخ الأمم والملوك » وهو بمثابة تاريخ عام للعالم ، بعد الفراغ من تفسيره ٠ فلما أتمّ التفسير استحثّ تلاميذه وأصحابه على موالاة البحث والتأليف قائلاً لهم : « أتنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا : فقالوا : كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : « انا لله ، ماتت الهمم ، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير » ٠

ومن المؤكد أن ذلك المؤرخ أفاد كثيراً من المـادة التاريخية التي جمعها مؤرخو القرن الثاني ، كما انتفع مما نقل الى اللغة العربية عن اللغات الأجنبية ، تلك الحركة التي بدأت في مطلع القرن الثاني ، من أخبار ستشكل قسماً من مادة كتابه في التاريخ • وقد تأثر الطبري في كتابته التـاريخ بعلم الحديث الذي كان من أساطينه فاستعمل طريقة الأسناد وكانت كما مرَّ بنا مستعملة من قبل رواة الحديث • ولعل أبرز ما ظهر على أسلوب الطبري في التاريخ من أثر المحدِّثين ذكره الروايات المختلفة للأخبار التي أوردها في كتابه • فكما أن المحدِّث يذكر الصيغ المختلفة لمتن الحديث كما نقلها كل راو ، فان الطبري أثبت في كتابه مجموعة كبيرة من مختلف الروايات والأخبار التاريخية استوعبت سائر ما ذكره من تقدَّمه من المؤرخين • وقد لوحظ أن الطبري استطاع أن يربط مختلف الروايات بعضها ببعض ببراعة نادرة وقد اعتبر كالجاحظ وابن حزم الظاهري أغزر المؤلفين انتاجاً •

وذكر المستشرق سيديّو Sédillot عن كتاب الطبري وأهميته ومترجميه ما نصه « ويعتقد أن ذلك التاريخ الذي وصـل الينا هو خلاصة أتى بها الطبري لكتاب عظيم له ، والأمر مهما يكن فان هـذا الكتاب ذا الحظوة الكبيرة لدى الشرقيين والمترجم الى اللغة التركية واللغة الفارسية هو من الكتب الموثوق بها كثيراً ، وهذا الكتاب لخَّصه وذيَّله جرجيس النصراني المصري المولود سنة ١٢٢٣ م والمتوفى بدمشق سنة ١٢٧٣ م والمعـروف بالمكين بن العميد ، وترجم قسم من كتاب المكين هـذا الى اللاتينية من قبل أربينيوس ، والى الفرنسية من قبل فاتيه ، وعلى ما في كلتا الترجمتين من أغاليط كثيرة نجدهما حـافلتين بالحوادث المفيدة والتواريخ الصحيحة ••• » •

أما المآخذ التي أخذها النقدة على الطبري فهي عينها التي أخذوها ..

على جمهرة مؤرخينا الى القرن الرابع وهي اهمالهم النقد التاريخي بمفهومه العلمي الحديث فكان عملهم منصرفاً الى نقد رواة الأخبار دون نقد الرواية نفسها . وبديهي أن ذلك من تأثير علم الحديث فان وُثّقَ الرواة لدى المحدّث لا داعي لمناقشة الحديث خاصة ان لم يكن في متنه ما يخالف ما جاء في القرآن الكريم وهذا ما جرى عليه المؤرخون الذين اهتموا في أن يكون التاريخ قائماً على الثقة بالشاهد الأول ، والاعتماد على صدق روايته وصحة ادراكه واستقامة أخلاقه . وقد ذكر الأستاذ علي أهم في بحثه لطريقة مؤرخينا في صدق تحرّي وأمانة الرواة ما يلي : « .. وقد استلزم ذلك بذل مجهود ضخم في تحرّي سير أمثال هؤلاء الرجال الذين يصح الاعتماد على أقوالهم ، والأخذ برواياتهم وكان على المؤرخ أن يشعر نفسه الاطمئنان الى هؤلاء الرواة بعد التحقّق والتثبّت ، والظاهر أنه كان يجد أن الرواة ونقلة الأخبار والحفّاظ أهل للثقة والرجوع الى أقوالهم متى عرفوا باستقامة الأخلاق وسلامة العقيدة ، والبعد عن الشّبه والريب ، واشتهروا بالسمعة الطيبة وحسن السيرة . أما نقد الرواية في ذاتها وتحقيقها فقد قصروا فيه تقصيراً واضحاً » .

وعلى الرغم من هذه النقيصة التي اشترك فيها سائر مؤرخينا الى القرن الرابع فان ثمة اجماعاً على اعتبار الطبري من أعظم مؤرخينا ان لم يكن في طليعتهم وعلى أنه كان صادقاً أبيّ النفس زاهداً في المال عزوفاً عن الدنيا قانعاً بما كان يأتيه من ريع ضيعة ورثها عن أبيه فلم يعرف عنه أنه مالأ ذوي الجاه أو السلطان أو قبل نوالهم . وقد ذكر معاصروه بصدد ذلك أنه كان اذا أهدى اليه مُهْدٍ هدية مما يمكنه المكافأة عليه قبلها وكافأه . وان كانت مما لا يمكن المكافأة عليه ردّها واعتذر الى مهديها . كما ذكر آخرون أنه كان ظريفاً في ظاهره ، نظيفاً في باطنه ، حسن العشرة لمجالسيه ، متفقداً لأحوال أصحابه ، مهذباً في جميع

أحواله ، جميل الأدب في مأكله وملبسه وما يخصّه في أحوال نفسه ، متبسّطاً مع اخوانه ، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة .

٤ ـ **المسعودي المتوفى حوالي ٣٤٥ هـ :** هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المعروف بالمسعودي وقد ذكر ابن النديم وياقوت الحموي أنه من نسل الصحابي عبد الله بن مسعود وهو من مؤرخي وجغرافيي القرن الرابع في العراق . ومع أن ابن النديم ذكر أن ذلك المؤرخ هو من بلاد المغرب (الفهرست لابن النديم ص ٢٢٥) فقد أجمع المؤرخون على أن المسعودي عراقي مستندين الى ما ذكره هذا المؤرخ نفسه في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر (الطبعة الثانية تحقيق محمد محي الدين بن عبد الحميد ، ص ٦٥) وفي كتابه التنبيه والاشراف (تصحيح عبد الله اسماعيل الصاوي ، ص ٣٧) حيث ذكر المسعودي أنه من اقليم بابل في العراق .

يعتبر المسعودي في طليعة المؤرخين الذين اعتمدوا على الجغرافية أو كما قيل من فئة أولئك القلائل الذين يلتقي فيهم المؤرخ والجغرافي ، فهيرودوت الذي كان يلقب عند الاغريق بأبي المؤرخين كان مؤرخاً وجغرافياً في الوقت نفسه فكان المسعودي رحّالة كثير الأسفار ، زار معظم بقاع الأرض التي كانت معروفة في أيامه فوسعت تلك الرحلات آفاق تفكيره وصقلت عقله وأمدّته بمعلومات وافرة ، فاطلع على مصادر مختلفة للتاريخ واستمع الى أخبار الرواة وقرأ الآثار المكتوبة أو غير المكتوبة . والمسعودي من طراز هيرودوت من حيث الجمع بين التاريخ والجغرافية فهو مؤرخ وأخباري من الطراز الأول كما أنه في الوقت نفسه جغرافي ممتاز قام بأسفار بعيدة وجاب أقطاراً نائية . ومع أنه سُبِق في ذلك المضمار من قبل مؤرخين جغرافيين كاليعقوبي الذي ألف كتاب التاريخ العام وكتاب البلدان وأبي زيد البلخي الذي ألف

كذلك في العلمين فقد امتاز المسعودي عنهما في أن الجغـرافي منه يصاحب دائماً المؤرخ وذكروا أنه « ينظر الأمور بعين المؤرخ ويتأملها في الوقت نفسه بلواحظ الجغرافي ، وهذه الخصلة هي التي تؤكد الشبه بينه وبين هيرودوت بوجه خاص ، وهي ماثلة في الكتابين اللذين وصلا الينا من مؤلفاته الكثيرة المفقودة وهما مروج الذهب والتنبيه والاشراف» . وقد حملت تلك الميزة المستشرق « سيديُو » على أن يقول عن المسعودي ما نصه : « ولا نخشى التكذيب اذا قلنا انه لم يظهر بين العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودي ، واذا كان المسعودي محتاجاً الى روح النقد أحيـاناً فلنذكر أن حب الاطلاع الشديد فيه حفزه الى زيارة الأماكن التي أراد الوقوف على تاريخها فكان يساق الى نقل قصص ذات أصل مشكوك فيه » .

ويظهر أن المسعودي بدأ رحلاته منذ مطلع القرن الرابع الهجري ، فقصد مصر وأقاصي البلاد طلباً للعلم وقد جاب فارس وكرمان واستقر في اصطخر سنة ٣٠٩ هـ وسافر سنة ٣١٠ هـ الى الهند حيث زار معظم أقاليمها ثم قصد سيلان ومنها انتقل بحراً الى الصين ثم عاد بحراً الى زنجبار وسواحل أفريقية الشرقية والسودان . كما قصد سواحل بحر الخزر وآسيا الصغرى والشام والعراق وبلاد العرب الجنوبية ومصر . وقد ذهب برحلة في المحيط الهندي الى جزيرة مدغشقر ثم عاد منها الى عمان وقصد سنة ٣١٤ هـ البلاد الواقعة شمالي أذربيجان وجرجان ثم عاد الى بلاد الشام وزار فلسطين . كما ذهب سنة ٣٣٢ الى أنطاكية وثغور بلاد الشام وزار دمشق وعاد الى الاستقرار في مصر وقد توفي فيها اما سنة ٣٤٥ أو ٣٤٦ بعد مغادرته للفسطاط . وكثيراً ما تحدث عن رحلاته البرية والبحرية في كتابه مروج الذهب .

يعتبر العلماء المسعودي من أقدر المؤلفين في القرن الرابع وأغزرهم .

مادة ، مكّنته أسفاره من الاستقصاء وجمع المعلومات التاريخية من معينها الأصلي واقتباس المعلومات الجغرافية من مصادرها الرئيسية ولو أنه ظنّ أن كثرة أسفاره عاقته عن الانقطاع التام للتحصيل واجادة التأليف (وهذا ما ذكره في مقدمة كتابه مروج الذهب) • ولم يقتصر تأليف المسعودي على الجغرافية والتاريخ بل كان رغم كثرة رحلاته وفير الانتاج كثير التأليف واسع الاطلاع كتب في موضوعات شتى وأحاط بها • وكان منذ صباه مولعاً بالدرس فتعمق في العلوم والفلسفة والآداب والجغرافية والتاريخ • وأورد المستشرق سيديّو رأي زميله كاترمير في المسعودي قائلاً : « والمرء حينما يتصفّح كتبه يقف دهشاً ، كما قال مسيو كاترمير من تنوّع المواد التي ألّف فيها ، ومن حلّه لكثير من المعضلات العويصة ، وكان فضل المسعودي واسعاً في الزمن الذي ذاع صيته فيه ، لا لأنه قرأ جميع الكتب الباحثة في شؤون العرب فتدبّرها فقط ، بل لأنه أحاط في مباحثه العظيمة بتاريخ اليونان والرومان وجميع الأمم القديمة والحديثة أيضاً ، وكان المسعودي عالماً بمعتقدات اليهود والنصارى والزنادقة والمسلمين والمجوس والوثنيين على السواء » •

وللمسعودي كتب كثيرة ذكرها ابن النديم لعل أهمها كتابه « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة » وهذا الكتاب مفقود ولو أن هذا المؤرخ أكثر من الاشارة والارجاع اليه في كتبه الأخرى • ولم يصلنا من كتب المسعودي سوى كتابين هما : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر وكتاب التنبيه والاشراف • وقد ظهر لنا هذا المؤرخ الجغرافي من خلال كتابيه هذين واسع حدود المعرفة متعدد جوانب التفكير باحثاً جغرافياً ومؤرخاً أخبارياً ، ومتكلّماً جدلياً ، ملمّاً بالعقائد المختلفة ، والمذاهب المتباينة ، وفقيهاً محدثاً ، وأديباً بارعاً طريف النوادر شائق الأخبار • وهو جذاب الأسلوب ممتع مبدع ، حسن السرد ، واضح الحجة ، ليس في أسلوبه

السهل المتدفّق الجاري غموض ولا خفاء ولا املال بل فيه سلاسة وبلاغة لم يشنها كلفة .

قسم ذلك المؤرخ كتابه « مروج الذهب » الى ١٢٦ فصلاً درس في الفصول الأولى منه المبدأ أو الخليقة من آدم الى ابراهيم كما درس الفترة الواقعة بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم وخصّص فصلاً للهند وآخر للصين وفصولاً للجغرافية الطبيعية والتاريخية ثم أفرد فصولاً لتاريخ ملوك السريان(الآراميين)والموصل ونينوى(الآشوريين) والكلدانيين والفرس وللملوك الطوائف وللساسانيين . ولم يهمل المسعوديُ أخبار اليونان وحروب الاسكندر ، وخصّ الدولة الرومانية بثلاثة فصول يتعلّق ثانيهما وثالثهما بأباطرة بيزنطة قبل الاسلام وبعده حتى سنة ٣٣٢ هـ . كما تحدث في فصول أخرى عن تاريخ مصر وأخبار الاسكندرية والسودان وأنسابهم والصقالبة ومساكنهم والفرنجة ، وهناك فصول لتاريخ اليمن وملوك الحيرة وملوك الشام وديانات العرب والبيوت المقدسة عند الهند واليونان وغيرهم ومجموع هذه الفصول كما ذكر سيديّو ٦٥ فصلا . ثم بحث تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وظهور الاسلام والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية (حتى خلافة المطيع) في واحد وستين فصلا . وقد انتهى من كتابه سنة ٣٣٠ هـ بمعنى أن تأليفه استغرق أربع سنين.

وقد أخذ على المسعودي ما أخذ على غيره فانه على الرغم من أنه ضمَّن كتابه معلومات وفيرة وأخباراً كثيرة فانه لم يظهر براعة ممتازة في تنسيق هذه المعلومات ولم يجعل منها كلاً حياً متجاوب الأجزاء متناسقاً وسنرى عند ايرادنا لنصوص من كتابه ما وُجّه لأسلوبه من نقد .

٥ ـ **ابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ :** هو أبو علي محمد بن

يعقوب وكان مؤرخاً وفيلسوفاً عاش في ظل سلاطين آل بويه ببغداد (منتصف القرن الرابع الى منتصف القرن الخامس الهجري) فاتصل أولاً بوزيرهم المهلبي فكان كاتب سره وأمين خزانة كتبه كما اتصل بابن العميد وابنه أبي الفتح وهما وزيرا عضد الدولة وصمصام الدولة من آل بويه .

عني ابن مسكويه أول الأمر بدراسة الفلسفة والطب والكيمياء كما اهتم بدراسة التاريخ وألف فيه كتابه « تجارب الأمم » وقد نشره المستشرق الايطالي كيتاني ونشر المستشرق ده غوي قسما منه . ولم تتجاوز حوادث كتابه سنة ٣٦٩ هـ مع أنه عاش الى ٤٢١ هـ . وقد أورد ابن القفطي في تاريخ الحكماء قائمة بأسماء كتبه في الطب . أما جلُّ عناية ابن مسكويه فقد انصرفت الى الاخلاق وله فيها مجموعة من الحكم نقلها عن حكماء فارس والهند والعرب واليونان .

٦ - **ابن الاثير ٥٥٥ - ٦٣٠ هـ :** هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، وكان يعرف بابن الأثير الجزري ، ويلقب بعز الدين . كانت ولادته ونشأته في جزيرة ابن عمر ثم غادرها الى الموصل حيث تلقى العلم ، كما قدم بغداد وسمع من شيوخها ثم سافر الى الشام وبيت المقدس وحَضر فيهما دروس جماعة من العلماء وأخيراً عاد الى الموصل حيث اهتم بالتأليف والبحث وكثيراً ما قصده علماء الموصل ومن ورد مدينتهم .

اشتهر ابن الأثير في علم الحديث واعتبر من أعلامه ، وفي حفظ التواريخ القديمة والمتأخرة ، وعُدَّ خبيراً في أنساب العرب وأيامهم وأخبارهم . وقد صنَّف عدة كتب ذكرها ابن خلكان في ترجمته ، وأهمها كتابه الكامل في التاريخ وكتاب أخبار الصحابة الذي يقع في ستة مجلدات كما اختصر كتاب الأنساب للسمعاني في ثلاثة مجلدات .

أما كتابه الكامل فيعتبر من أحسن ما ألّف في التـاريخ باللغة العربية ويتعرض فيه لتاريخ العالم منذ أول الخليقة الى آخـر سنة ٦٢٨ ه • ولئن اشترك ابن الأثير مع الطبريّ وغيره في ايراد أخبار ثلاثة القرون الأولى للاسلام فانه أضاف كثيراً من المعلومات التي انفرد بها في فترة ثلاثة القرون الثانية ، لا بل فقد شمل الكتاب معلومات هامة جداً عن تاريخ الأندلس وتاريخ مصر • واعتبر المؤرخ سيد أمير علي (كتاب مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسـلامي ، نقله عن الانكليزية الى العربية رياض رأفت ، ص ٣٩٨) كتاب ابن الأثير « يضارع أحسن كتب التاريخ العصرية في اوروبا » •

ولكتاب الكامل عدة طبعات آخرها بدأت تظهر منـذ سنة ١٩٣٠ (١٣٤٨ ه) في المطبعة المنيرية في القاهرة حيث صحّحه أحد مدرسي قسم التخصص في الازهر وهو الشيخ عبد الوهاب النجار وصدر منه سبعة أجزاء كبيرة ، أما الجزءان الثامن والتاسع فقد أصدرتهما المكتبة التجارية وقد صحّحهما نخبة من العلماء •

٧ ــ ابن الطقطقي المولود سنة ٦٦٠ ه : هو جـلال الدين (وقيل صفي الدين) أبو جعفر محمد بن تاج الدين أبو الحسن علي بن طباطبا الذي كان يعرف بابن الطقطقي من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب• وذكر المستشرق هيوار Huart في دائرة المعارف الاسلامية ان كلمة طقطقي هي صوت طقطق ، كمـا يطلق هـذا اللفظ على خفة الكلام وكثرته • وكان مقر أسرته في الحلّة حيث قتل أبوه سنة ٦٨٠ ه وكان نقيباً للأشراف العلويين في الكوفة وبغـداد فانتقلت نقابة الأشراف في الحـلة والنجف وكـربلاء للابن • وقد تزوج ابن الطقطقي من خراسان ورحل من الحلّة الى الموصل ولم يغادرها وألّف فيها كتـابه **الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية** وأهداه الى فخر الدين

عيسى نائب السلطان المغولي غازان على الموصل ولذلك دُعِيَ كتابه بالفخري • ولم يكن ابن الطقطقي من المؤرخين الحياديين بل أظهر ميلاً وتحيزاً نحو العلويين ونحو حكومة المغول التي أهدى كتابه الفخري الى أحد عمالها •

قسم ابن الطقطقي كتابه الى قسمين درس المؤلف في أولهما شؤون السياسة ، أما الثاني فقد ضمّنه موجزاً لتاريخ الدول الاسلامية•وذيّل هذا المؤرخ بحثه لتاريخ كل خليفة بأخبار وزرائه فهو والحالة هذه يعادل من حيث الأهمية كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري لا بل فاقه لأن هذا الكتاب الثاني توقّف عند وزارة آل سهل للمأمون (حوالي سنة ٢٠٢ هـ) • وقد استقى صاحب الفخري معلوماته من الكتب التاريخية التي كانت منتشرة في عهد كالكامل لابن الأثير ، كما شمل مقتطفات من كتب مفقودة كالكتاب الأوسط وأخبار الزمان للمسعودي أما أخبار الوزراء فقد استقاها من تاريخ الوزراء للصولي وهلال الصابىء • وكانت أول طبعة لهذا الكتاب سنة ١٨٦٠ ، وله عدة طبعات باللغة العربية كما نقله المستشرق آمار Emile Amar الى اللغة الفرنسية •

٨ ـ **ابن العبري المتوفى ٦٨٥ هـ :** هو أبو الفرج غريغوريوس وقد ولد في مدينة ملطية ويعتبر آخر مؤلفي السريان ، وكان أبوه طبيباً يهودياً اعتنق النصرانية ولذلك غلب عليه لقب ابن العبري • درس ذلك المؤرخ الطب كأبيه بعد أن كان أبوه أعدّه ليكون من رجال الدين ثم درس العلوم العقلية في الكتب العربية ، واستقر الوالد وابنه أخيراً في مدينة أنطاكية حيث صار الابن راهباً وبدأ يتقلب في المناصب الكنسية الى وفاته في مدينة مراغة في اقليم أذربيجان سنة ١٢٨٦ م • ومع مشاغل منصبه الديني الكثيرة فقد ألّف ابن العبري كتباً كثيرة في علوم شتى كاللاهوت والفلسفة وقواعد اللغة السريانية ، أما كتابه

الـذي يعنينا فهو مختصر تاريخ الدول الذي كتبه باللغة السريانية • وقد بحث في جزئه الأول التاريخ العام السياسي للعالم منذ الخليقة الى أيامه (١٢٢٦ ــ ١٢٨٦ م) وقد اعتبر المستشرق بروكلمان ذلك الجزء من تاريخ ابن العبري أكثر مؤلفاته اتصالا بالثقافة الاسلامية •

استقى ابن العبري معلوماته عن تاريخ العرب والاسلام من مصادر عربية وفارسية ، أما معلوماته عن فترة حكم التتر للبلاد الاسلامية فهي من مؤلف فارسي • هذا بالاضافة الى اعداد ابن العبري لترجمة عربية مختصرة لذلك الجزء من تاريخه العـام استجابة لطلب بعض المسلمين منه مضيفاً الى الترجمة العربية زيادات اقتبست من الكتاب المقدس لم يذكرها المؤلف في النسخة السريانية لافتراضه أنها معروفة في التاريخ السرياني ، وأضاف أيضاً الى تلك الترجمة العربية معلومات عن الكتب الطبية والرياضية عند العرب • وآخر طبعات هذا الجزء هي التي نشرها الأب صالحاني في بيروت سنة ١٨٩٠ • ولم يترجم الجـزءان الثاني والثالث من هذا الكتاب الى اللغة العربية • وقد بحث مؤلفه في الجزأين الثاني والثالث تاريخ الكنيسة في الغرب الى سنة ١٢٨٥ م وذلك في عهد البطارقة الذين يدينون بمذهب الطبيعة الواحدة ، كما تحدث عن تاريخ الكنيسة في الشرق الى ١٢٨٦ م وكتب أيضاً قسما عن النساطرة• وقد أضاف ابن برصوما اخو ابن العبري ترجمة لحياة أخيه الى هذا الكتاب ثم استمر في سرد الحوادث الى سنة ١٢٨٨ م ، وزاد المؤرخون بعد ذلك من حجم ذينك الجزأين فوصلوا بحوادث الجزء الثاني الى سنة ١٤٦٥ م وبحوادث الجزء الثالث الى سنة ١٤٩٦ م • أما تآليف ابن العبري الفلسفية فقد اعتمد فيها ولو بصورة جزئية على المصادر العربية • ومن مصنفاته في الطب ترجمته لكتاب القانون لابن سيناء (وهي ترجمة لم تتم) وترجمته لكتاب الأدوية المفردة للغـافقي تلك الترجمة التي اعتمد فيها بصورة كلية على المصادر العربية •

٩ – **أبو الفداء ٦٧٢ – ٧٣٢ هـ** : هو أمير من فروع الدولة الأيوبية ، كان أبوه الملك الأفضل (أخو الملك المنصور) أمير حماة آنذاك وفر من تلك المدينة مع أسرته الى دمشق من وجه جيوش المغول الـذين هاجموا سورية في مطلع العهد المملوكي عقب قضاء المغول على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ • وقد ولد ابنه اسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب عماد الدين الأيوبي في مدينة دمشق • انضم أبو الفداء لعمه في حرب الصليبيين واستمر كذلك في خدمة ابن عمه محمود الثاني ، فلما مات هـذا الأخير دون أن يعقّب (سنة ٦٥٨ هـ) لم تؤل اليه امارة حماة الشاغرة بل الى الأمير سنقر وذلك في عهد دولة المماليك الأولى ، وهذا ما حدا به الى الالتحاق بخدمة الملك الناصر ابن السلطان قلاوون المملوكي وقد استمر في خدمته اثني عشر عاماً كانت نتيجتها وثوق الناصر به فسلمه امرة حماة منذ ١٨ جمادى الأولى سنة ٧١٠ • ثم لقب بعد ذلك بعامين بالملك الصـالح بمناسبة تسلمه خلعة الامارة كما أسند اليه منذ سنة ٧٢٠ لقب الملك المؤيد وذلك عندما أقرت امارة حمـاة بصورة وراثية في بيته تقديراً لاخلاصه للمماليك • وكانت وفاته بمدينة حماة سنة ٧٣٢ هـ • وقد خلّدت حماة ذكراه نظراً لما شيّده حول قصره فيهـا من أبنية ذات نفع عام فكثيراً ما يطلق الآن على حماة اسم مدينة أبي الفداء (كما يطلق على حمص اسم مدينة خالد بن الوليد) •

لهذا المؤرخ تآليف عديدة أهمها كتابه مختصر تاريخ البشر ، وقد درس فيه تاريخ ما قبل الاسلام ثم تاريخ العرب المسلمين الى سنة ٧٢٩ هـ • والكتاب عبارة عن تلخيص لكتاب ابن الأثير المشار اليه آنفاً وغيره من كتب المؤرخين القدامى من روّاد التأليف التاريخي الذين مرت بنـا أسماؤهم من قبل أما القسم الأخير من كتابه وهو القسم الذي بحث فيه المؤلف الفترة التي اعقبت وفاة ابن الأثير سنة ٦٣٠ هـ وهي فترة وصلت

الى قرن من الزمن (٦٣٠ ـــ ٧٢٩ هـ) ، فهو هام جداً لأن أبا الفداء حدثنا فيه عن عصره •

طبع تاريخ أبي الفداء لأول مـــرة في القسطنطينية سنة ١٨٦٩ في مجلدين ثم طبع بعد ذلك في لبنان وتقوم دار الفكر ودار البحار بطبع الكتاب طبعة جديدة ، كما طبع في مصر في مطالع هذا القرن •

وننتقل الآن بعد انتهائنـــا من دراسة أهم مؤرخي الحوليّات الى مؤرخي السلالات والدول وسنكتفي بدراسة خمسة من هؤلاء المؤرخين هم ابن شداد وأبو شامة وابن واصل وابن تَغري برَدي وابن خلدون•

١ ـــ ابن شدّاد ٥٣٩ ـــ ٦٣٢ هـ : هو من مواليد الموصل ويدعى بهاء الدين أبا الحسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتّاب الأسدي • نسب ذلك المؤرخ لأخواله من بني شداد وذلك لأنه تربى عندهم لوفاة أبيه وهو صغير السن وكان شداد جده لأمه • وقد ذكر في بعض تواليفه أسماء المشايخ الأعلام الذين أخذ عنهم • وكان فقيه الشافعية في أيامه • وبعد أن أتمّ دراسته في مسقط رأسه انحدر الى بغداد حيث عُيِّن معيداً في المدرسة النظامية ، ثم عاد الى الموصل وذهب حاجا الى بيت الله الحرام سنة ٥٨٣ هـ وزار في طريق عودته بيت المقدس والخليل ووفد على دمشق وصلاح الدين الأيوبي على حصار قلعة كوكب فلما اتصل به أعجبه ودخل في خدمته منذ سنة ٥٨٤ حيث ولاّه قضاء العسكر وحكم القدس •

وعند وفاة صلاح الدين سار ابن شداد الى حلب لجمع كلمة أولاد سلطان بني أيوب ودخل في خدمة الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب تلك المدينة حيث ولاّه قضاءها وأوقافها ومنحه اقطاعاً درّ عليه أرزاقاً كثيرة لأنه لم يكن له ولد • وقد عمّر ابن شداد مدرسة في حلب للشافعية كانت تقع أمام مدرسة نور الدين محمود بن زنكي كما عمّر

بجانبها داراً للحديث وأعد بينهما مكاناً ليدفن فيه • وكان الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين الأيوبي صغير السن فحكم وصيته شهاب الدين بارشاد قاضي حلب أبي المحاسن ابن شداد •

ألّف ابن شداد كتباً عديدة ومنها « ملجأ الحكام عند التباس الأحكام » وهو كتاب للقضاء ويقع في مجلدين وكتاب « دلائل الأحكام » وقد ذكر فيها الأحاديث التي تستنبط منها الأحكام ويقع في مجلدين ، وكتاب « الموجز في الفقه » وغيرهما من الكتب وكتاب « سيرة صلاح الدين بن أيوب » وقد طبعت في القاهرة منذ أكثر من نصف قرن • وقد أوصى بأن تجعل داره خانقاه (تكية) للصوفية •

وهناك مؤرخ ثان دعي بابن شداد كذلك وهو علي بن ابراهيم وكانت وفاته سنة ٦٨٤ هـ • ولهذا المؤرخ الثاني تاريخ قيّم عن بلاد الشام والجزيرة وعنوانه « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » • ولهذا الكتاب عدة طبعات•وقد قام بتحقيق الأخيرة منها ، وهي التي أصدرها سنة ١٩٦٢ المعهد الفرنسي للدراسات الاسلامية في دمشق ، الدكتور سامي الدهان ، وتعتبر هذه الطبعة من أحسن الطبعات •

وكثيراً ما التبس الأمر على دارسي التاريخ بين ابن شداد الثاني والأول مما وجبت الاشارة اليه علماً أنه كثيراً ما غلبت كنية أبي المحاسن على أولهما وهو مؤلف سيرة صلاح الدين الأيوبي •

٢ ـ **أبو شامة ٥٧٩ ـ ٦٦٥ هـ :** هو عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ابراهيم المقدسي الشافعي • ولد من أسرة فقيرة في مدينة دمشق ، وكان جده الثاني أبو بكر محمد الطوسي امام مسجد الصخرة في القدس فقتل عند استيلاء الصليبيين عليها سنة ٤٩٢ هـ فنزحت أسرته الى دمشق وسكنتها • أما جده الأول فكان معلم صبيان في أحد مكاتب

دمشق • ولم يكن حظ أبيه اسماعيل من الثقافة كبيراً • ولما بلغ مؤرخنا أبو شامة العاشرة ذكر لأبيه أنه حفظ القرآن • ثم انصرف الى دراسة القراءات السبع ، والفقه ، واللغة ، والحديث • وبعد اتقانه لتلك العلوم اهتم بدراسة التاريخ مستكملاً بذلك ثقافة متنوعة كانت الصفة البارزة لرجال عصره من العلماء الذين أخذوا من كل علم بنصيب • وذكر العلماء أن أبا شامة ألف في فنون العربية والقراءات والحديث والفقه والتفسير واللغة والعروض •

كان أبو شامة طالباً في المدرسة العزيزية بدمشق وقد أتمّ دراسته لعلم القراءات سنة ٦٤٦ هـ • وأقام بين سنتي ٦٣٤ ــ ٦٥٦ هـ في المدرسة العادلية في المدينة نفسها وانتقل ليعيَّن مدرّساً للمدرسة الركنية سنة ٦٦٠ هـ وانتقل منها الى التدريس في المدرسة الأشرفية سنة ٦٦٢ حيث استمر في منصبه الجديد الى وفاته سنة ٦٦٥ هـ • وقد شغل أبو شامة منصب التدريس (كأستاذ) في مدرستي الركنية والأشرفية ، والأستاذ في مدرسة من المدارس يشرف على ادارتها اشرافاً كاملاً يشمل الأوقاف المخصَّصة لها • وصحب أبو شامة أستاذه علم الدين السخاويّ مدة ثلاثين سنة كما تتلمذ على عز الدين بن عبد السلام وكان كما ذكر عنه السبكي : « شيخ الاسلام والمسلمين وسلطان العلماء » • وقد أخرج من دمشق لقوة شخصيَّته وكان زاهداً في المال وفي المناصب مما جعل تلميذه أبا شامة يقتدي به ، عزوفاً عن المناصب الحكومية وترفّعاً عن التكالب على أموال الأوقاف • وكان يهتم بادارة بساتينه الخاصة فاعتمد عليها وحدها وصان وجهه عن الناس ونعم بالحرية والاستقلال ، وقد شهد العلماء كلهم بطيب أخلاق أبي شامة الا قطب الدين اليونيني الذي ذكر أنه « كان كثير الغضّ من العلماء والأكابر والصلحاء ، والطعن عليهم ، والتنقيص بهم ••• » ؛ ومن المؤرخين الذين انتقدوا أبا شامة السخاويُّ المتوفى سنة ٩٠٢ هـ لكن

النقدة النزيهين أثبتوا أن مآخذ وانتقادات السخاوي على أبي شامةوعلى سواه من المؤرخين كالمقريزي كانت مغرضة ولذا لم يعتدّ بها هؤلاء المؤرخون . وقد أثبت المؤرخون أن تلك الانتقادات كانت من قبيل التحاسد بين العلماء فحسب ويجب ألا تعتبر مطعناً على أبي شامة أو سواه من الذين انتقدهم السخاوي .

كانت عيشة أبي شامة رغدة لكنه عند دخول التتر دمشق سنة ٦٥٨ هـ استدعاه نائبهم وأهانه وهدده بالقتل فافتدى نفسه بمبلغ كبير وأطلق سراحه . كما هوجم سنة ٦٦٥ في منزله واعتدي عليه من قبل اثنين ولم يلبث أن توفي بعد شهرين من ذلك الحادث .

كتبه واهتمامه بالتاريخ ـ : مرّ بنا أن أبا شامة أتقن علوماً شتى وبرع فيها لكنه لم يبدأ بدراسة التاريخ الا في مرحلة متأخرة بعد أن حذق الدراسات الشرعية والأدبية . ولم يكن ذلك العالم يرمي من العناية بالتاريخ الا لاكمال ثقافته ، لكنه مع ذلك صنّف في التاريخ كثيراً من التآليف كتهذيبه لتاريخ دمشق لابن عساكر في صورتين ، احداهما ، وهي الكبرى ، في خمسة عشر مجلداً ، وثانيتهما ، وهي الصغرى ، في خمسة مجلدات ، وكتب تاريخاً للدولة الفاطمية وكتابه الهام الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، وله مختصر دعاه بـ « عيون الروضتين » ، وتكملته وقد سمّاها « المذيّل على الروضتين » . ثم بدأ بكتابة تواريخ أخرى لم ينجزها ، كمختصر تاريخ بغداد ، وجامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس . ويتناول كتاب الروضتين تاريخ فترة هامة من فترات تاريخ العصور الوسطى الاسلامية هي فترة الحروب الصليبية . ويوجّه أبو شامة اهتمامه الى تاريخ ثلاثة من أهم أعلام المسلمين في تلك الفترة هم عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف الأيوبي وذلك لأنهم بذلوا

جهوداً لتوحيد وتكتيل بلاد الشام والجزيرة والعراق ومصر • وقد اعتبر المؤرخون جهود ثلاثة الأمراء هؤلاء مجهوداً واحداً متصلا استهدف وحدة العرب والمسلمين في هذه المنطقة التي اعتبرت آنذاك قلب العالم الاسلامي وذلك لصدّ الخطر الصليبي المداهم الذي أفاد من الفوضى التي شملت تلك المنطقة فأسس الامارات اللاتينية الأربعة في الرّها وأنطاكية وبيت المدقس وطرابلس ولذلك فالمجال الزمني لكتاب الروضتين هو تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية وبصورة أدقّ تاريخ الفترة التي حكم خلالها أبطالنا الثلاثة المشار اليهم آنفاً •

أما المجال المكاني لكتاب أبي شامة فهو الجزيرة والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى والحجاز واليمن والنوبة أي البلاد التي ضمّتها امبراطورية صلاح الدين ولو أن مؤرخنا لم تفته الاشارة الى حوادث كان مسرحها جهات أخرى من العالم الاسلامي كذكره وفاة خليفة وقيام غيره وذلك لأهمية الخلافة كرمز لوحدة العالم الاسلامي الذي سعى أولئك الأبطال الثلاثة لتحقيقها • كما لم يهمل أبو شامة الحديث عن وفيّات بعض العلماء المبرّزين في خارج نطاق المجال المكاني لكتابه •

تناول هذا المؤرخ (داخل مجالي كتابه الزمني والمكاني) موضوعات تتعلق بالجيوش والمعارك والأسلحة والحصون والسفن الحربية وتطور القتال وغير ذلك من الموضوعات مستعيناً بالوثائق الحكومية وبالأشعار التي تسجّل المعارك وتهنّيء السلطان وبمصادر أخرى سنتناولها بالبحث •

لا جرم أن أبا شامة أعجب بنشاط عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين الحربي وبعدلهم بين الناس ، وبالأعباء المالية الثقيلة التي خفّفوها عن كاهل الرعية ، وبالمدارس الكثيرة التي أسسوها لنشر العلم بين المواطنين ، فلكل ذلك رغب مؤلف كتاب الروضتين (الذي ولد بعد

وفاة صلاح الدين بعشر سنين) أن تبدو مآثر أولئك الثلاثة لملوك عصره ، وأنه لاحظ أن الوحدة التي سعى اليها أولئك الأبطال وحققوها في أجزاء كثيرة من العالم الاسلامي بدأت تتصدع بالخلاف الذي استشرى بين أبناء البيت الأيوبي في فترة لم يكن قد قضي فيها على الخطر الصليبي تماماً •

وللكتاب جانبان جانب حكومي اعتبر سجلا حافلا للتاريخ الحكومي (فيما يتعلق بالحروب والسياسة والادارة) للدولتين الزنكية والأيوبية ، وهذا القسم هو الغالب على الكتاب • بينما لا يعالج الجانب الشعبي منه القضايا الا بمقدار علاقتها بالتاريخ الحربي لأبطال الكتاب وبمقدار تأييد الشعب والعلماء خاصة للخطوات العسكرية التي اتخذها السلطان•

استهلّ كتاب الروضتين بمقدمة موجزة ذكر فيها أبو شامة الأسباب التي حملته على تأليف كتابه بعد أن وجّه شيئاً من عنايته لدراسة التاريخ ، كما ذكر في تلك المقدمة المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها في تأليفه • ومع أن الفصل الأول خصّص للدولة النورية فان البحث لم يتناول فيه سوى القضايا العامة ذات الصلة المباشرة بنور الدين وبصفاته الشخصية التي أهّلته لأن يكون حاكماً ممتازاً محبوباً جديراً بالتقدير • ثم أفرد فصولاً ثلاثة للحديث عن أصل نور الدين ونشأته دون اهمال الكلام عن والده عماد الدين زنكي وجهاده الذي استمر عشرين عاماً (٥٢١ ــ ٥٤١ هـ) والذي انتهى باستشهاده على أبواب قلعة جعبر وتقسيم دولته بين ولديه فآل قسمها الشرقي الى سيف الدين غازي الذي استقر بالموصل على حين انتقل القسم الغربي الى نور الدين محمود الذي غدت حاضرته حلب • ولا ريب أن عبء الجهاد ضد الصليبيين قد وقع على عاتق نور الدين فقام به على أتمّ وجه مثبتاً بذلك جدارته وتقديره لتلك المسؤولية الجسيمة وتفانيه في

الجهاد ومثابرته • وكان نور الدين أحسن من تعهد اليه البلاد الاسلامية بمهمة توحيدها ، وقد غدا من أبطال الاسلام المعدودين •

وزاد اهتمام مؤلف كتاب الروضتين بنور الدين منذ توليه حلب (سنة ٥٤١ هـ) خاصة وأنه استهدف في كتابه تمجيد ذلك البطل الفذّ وأخذ يفصّل الحديث عنه مستقياً معلوماته من المصادر المعاصرة والوثائق الحكومية أو القصائد التي سجلت مراحل جهاده وقد اتبع أبو شامة طريقة الحوليات في سرده للحوادث مبتدئاً بسنة ٥٤٢ وهي التي تلت استشهاد عماد الدين زنكي ، هذا مع عنايته ببعض الحوادث فيسهب في بحثها ويعقد لها فصولا خاصة داخل نطاق النظام الحولي في التأليف التاريخي • ومعنى ذلك أن الحديث عن سنة واحدة قد يقتضي من المؤلف تخصيص عدة فصول يختص كل منها بحادث أو بعدة حوادث مع مراعاة عدم تجاوز تلك السنة الى السنة التي تليها • وقد راعى أبو شامة تلك الطريقة في تدوينه لسائر عهد نور الدين ثم لعهد صلاح الدين وذلك لأن مؤسس الدولة الأيوبية نشأ في كنف نورالدين وتلقى عنه دروس الجهاد ثم تابع سيّده فحمل راية الجهاد ضد الصليبيين الى أن مات سنة ٥٨٩ هـ • بعد تصفيته للحملة الصليبية الثالثة •

ولم يشذّ أبو شامة عند بحثه للدولة الأيوبية عن طريقته التي أرّخ بها الدولة النورية فعقد فصلا ذكر فيه الصفات التي أهّلت صلاح الدين لأن يكون في زمرة الأبطال المجاهدين والحكام العادلين الذين شهد لهم المعاصرون بحسن السيرة وقوة العزيمة وجلال القصد • ثم تحدّث المؤلف في فصول قصار عن تاريخ الدولة الأيوبية بعد وفاة مؤسسها وعن النزاع بين أبنائه وعمّهم العادل • ولا يتقيد أبو شامة في هذا الجزء من كتابه بالتسلسل التاريخي (طريقة الحوليات) الا في القسم الأخير منه فيما اقتبسه عن مؤرخ آخر هو العماد الأصفهاني •

اعتمد أبو شامة في كتابه على مصادر متنوعة ، فمنها ما كان اعتماده عليه بصورة رئيسية كتاريخ دمشق لابن عساكر ، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وتاريخ الأتابكة لابن الأثير ، والبرق الشامي والفتح القسي للعماد الأصفهاني والنوادر السلطانية لابن شداد ، ومجلدات الرسائل الفاضلية للقاضي الفاضل ، وبعض الأشعار من دواوين العماد الأصفهاني وغيره ، هذا بالاضافة الى مصادر أخرى ثانوية لم يعتمد عليها كثيراً . وهناك مصدر اعتمد عليه كثيراً هو السيرة الصلاحية ليحيى بن أبي طيء الحلبي .

وعلى العموم اعتبر كتاب الروضتين من المصادر الممتازة لتاريخ نور الدين وصلاح الدين (ودولتيهما) وقد تتبع مؤلفه نشاطهما الذي جعل منهما في المتأخرين مثلاً يحتذى كما رفع مجهودهما من مكانتهما فصارا كالعمرين في عصرهما عدلاً وديانة وجهاداً .

٣ ــ **ابن تغري بردي** Togri Bardii ٨١٣ ــ ٨٧٤ هـ : هو ابو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الجويني ، وكانت ولادته بالقاهرة في عهد الدولة المملوكية ، وكانت أمه جارية تركية للسلطان برقوق . أما أبوه فكان حاكماً لحلب ودمشق.

كانت نشأة أبي المحاسن في القاهرة حيث تتلمذ على المقريزي ومشاهير علماء عصره . وقد وصل الينا من كتبه سبعة كتب في التاريخ أهمها تاريخ مصر وعنوانه : « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» وقد عالج فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي الى سنة ٨٥٧ هـ ولو أنه أشار في مواضع شتى الى حوادث البلاد المجاورة والى وفيات كل عام ، ونشر هذا الكتاب في ليدن (١٨٥٥ ــ ١٨٦١) من قبل المستشرقين جوينبل Juynboll وماتسي Mathes ، كما نشر له المستشرق كارليل Carlyle سنة ١٧٩٢ كتاب « مورد اللطافة فيمن ولي

السلطنة والخلافة » ويتضمن سيرة موجزة للنبي (ص) مع ايراد ثبت بأسماء الصحابة وسلاطين مصر ووزرائهم حتى سنة ٨٤٢ هـ .

هذا علاوة عن اتمام ابن تغري بردي لكتاب السلوك للمقريزي فوصل بحوادثه من ٨٤٥ ـ ٨٦٠ هـ ودعاه « حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور » كما أتمّ كتاب « الوافي » للصفدي من سنة ٦٥٠ هـ الى عهده (القرن ٩) والكتاب هو سيرة لمشاهير الرجال رتبت أسماؤهم فيها على حروف المعجم . وقد صار الكتاب يدعى « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي » . ويعتبر المستشرق بروكلمان أن هاتين الاضافتين لكتابي المقريزي والصفدي جديرتان بالدرس المُفَصَّل .

٤ ـ **ابن واصل ٦٠٤ ـ ٦٩٧ هـ :** هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم مارس التدريس في أول أمره في مدينة حماة ثم استدعاه الظاهر بيبرس الى القاهرة (٦٥٩ هـ) وأوفده بمهمة رسمية الى ملك صقلية منفرد Manferd . وبعد عودته عين قاضياً للقضاة ومدرّساً في حماة وكانت وفاته في تلك المدينة . وقد صنّف كتاباً في تاريخ الأيوبيين دعاه « مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب » وله كتاب في التاريخ العام عنوانه « التاريخ الصالحي » . كما عزا اليه المؤرخون كتاب الطبري المزوَّر .

٥ ـ **ابن خلدون : ٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ :** هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم ابن عبد الرحمن بن خلدون وأسرته عربية يمانية من حضرموت ينتهي نسبها الى وائل بن حجر وكان جده خالد المعروف بخلدون هو الذي قاد اليمنيين عند فتح الأندلس وقد نزل في مدينة **قرمونة** واستقر بها ثم غادرها بنوه الى اشبيلية . ولم تظهر أهمية تلك الأسرة الا في نهاية القرن الثالث في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموي

(٢٧٤ ــ ٣٠٠ هـ) .

استمر بنو خلدون في اشبيلية طيلة حكم الأمويين للأندلس دون أن يتولوا زعامة أو رياسة ، فلما استولى بنو عباد على اشبيلية تسلم أفراد من بني خلدون وزارتهم . ثم استولى المرابطون على الأندلس بقضائهم على طوائف الملوك في ذلك القطر ، كما قضى الموحّدون بالمغرب على دولة المرابطين منتزعين منها حكم الأندلس وولّوا على اشبيلية غربيّ أباحفص زعيم قبيلة هنتاتة الذي توارث بنوه الولاية من بعده، فاتصل بنو خلدون بأولئك الولاة الجدد مستعيدين شيئاً مما كان لهم من جاه ورياسة . لكن الاضطرابات التي غدت الأندلس مسرحاً لها نتيجة القضاء على دولة الموَحّدين وسقوط البلاد تباعاً بيد الاسبان كل ذلك حمل الأمير أبا بكر الحفصي على مغادرة الأندلس الى أفريقية سنة ٦٢٠ هـ والدعوة لنفسه خالعاً طاعة الموَحّدين (من بني عبد المؤمن) . كما غادر بنو خلدون اشبيلية قبل سقوطها بيد الاسبان الى سبتة ثم الى تونس فاتصل الجد الرابع لابن خلدون بأمير مدينة بونة الذي وصله بنواله . وولي أجداد ابن خلدون مناصب سياسية هامة في تونس الى أيام محمد أبي مؤرخنا الذي نترجم له والذي زهد في المناصب السياسية وآثر الاهتمام بالدرس والتحصيل وغدا علماً من أعلام الفقه وعلوم اللغة وشاعراً مجيداً . وكانت وفاة محمد هذا في وباء الطاعون الذي انتشر في تونس وسواها من البلاد العربية الاسلامية سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) مخلفاً عدداً من الأولاد هم ولي الدين عبد الرحمن ، وهو المؤرخ الذي نترجم له وكان آنذاك في الثامنة عشرة من سني حياته ، واخوته عمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم . وفيما عدا عبد الرحمن نبغ يحيى أخوه الذي تولى الوزارة فيما بعد .

كان أول شيوخ ابن خلدون أباه ، قرأ القرآن وحفظه وتفقه في القراءات السبع ودرس التفسير والحديث والفقه كما درس النحو واللغة

على أشهر أساتذة تونس التي كانت لزمنه أهمّ مركز للعلوم والآداب في بلاد المغرب ، وقد قصدها عدد كبير من علماء الأندلس بعد ما حلّ بذلك القطر من نكبة . ولم يهمل هذا المؤرخ ذكر أسماء شيوخه في كل علم وفن وقد ترجم لهم ووصف مآثرهم . ويبدو أنه تخصّص أول الأمر في الحديث وفقه المالكية وعلوم اللغة ، والشعر . وعندما انخرط هــذا المؤرخ في الحياة العملية بعد بلوغه الثامنة عشرة درس المنطق والفلسفة وتفوّق فيهما مما شهد له به كل شيوخه .

أتمّ ابن خلدون تحصيله الى الثامنة عشرة عندما اجتاح الوباء تونس سنة ٧٤٩ فلم يبْقِ فيها ولم يذر وكان أبواه وجميع أساتذته في عداد ضحايا تلك النكبة التي قال عنها ابن خلدون (طوت البساط بما فيه) كما قال أيضاً : « ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله » . وقد بدا له أن ينزح الى المغــرب الأقصى فثناه أخوه الأكبر محمد عن عزمه . ثم استدعى حاكم تونس المستبد (أبو محمد ابن تافراكين) ابن خلدون وقلّده منصب **كتابة العلامة** عن السلطان الفتى أبي اسحاق المحجور عليه والأسير . وقد ذكر المؤرخون أن كتابة العلامة كانت عبارة عن التوقيع باسم السلطان وشارته على المراسلات والمراسيم الملكية ولم يكن ابن خلدون قد جاوز آنذاك العشرين من عمــره .

لم تنعم تونس بالهدوء حيث زحف عليها أمير قسنطينة أبو زيد سنة ٧٥٣ هـ راغباً استرداد تلك البلاد التي حكمتها أسرته من الوزير المغتصب ابن تافراكين . وقد هزم جند هذا الوزير وكان قد اصطحب معه ابن خلدون الذي فرّ من المعسكر ناجياً بنفسه . وبعد تنقّل في عدة مدن قصد بسكرة . ولما سقطت تلمسان وما جاورها من البلاد شرقاً حتى بجاية بيد أبي عنان فارس المرّيني التحق ابن خلدون بخدمته ، ثم استدعاه أبو عنان الى فارس سنة ٧٥٥ هـ فوفد اليها وقلّده السلطان

منصب كاتب سره • ووالى هذا المؤرخ دراسته على كبار علماء عصره• ثم غضب عليه أبو عنان وسجنه مرتين وقد بقي في المرة الثانية سجيناً الى وفاة أبي عنان سنة ٧٥٩ فأطلق السلطان الجديد أبو سالم سراحه وأعاده لمنصبه وأوسد اليه منصب قاضي القضاة الذي بقي فيه حتى مقتل السلطان • ثم غادر فاس الى بلاط بني الأحمر في غرناطة واتصل بوزيرهم الشهير لسان الدين بن الخطيب (سنة ٧٦٣ هـ) • غير أن الصداقة التي ربطت بينهما لم تلبث أن فترت بعد عامين فرحل ابن خلدون الى بجاية التي جعله أميرها أبو عبد الله الحفصي حاجباً له وولاه كذلك منصب الخطبة كما جمع له التدريس سنة ٧٦٦ الى منصبيه هذين •

غادر ابن خلدون بجاية من جديد لسقوطها في يد أمير قسنطينة فالتجأ الى بسكرة حيث راسل أمير تلمسان من بني عبد الواد الذي استدعاه ليكون حاجباً له • وأخذ ابن خلدون يدعو القبائل المختلفة لنصرة أمير تلمسان وحمل هذا الأخير على التحالف مع سلطان تونس • لكن ابن خلدون الذي كان معاصروه يأخذون عليه عدم الوفاء لأحد سرعان ما تخلّى عن أمير تلمسان عندما تغلب عليه الأمير المرّيني عبد العزيز وطرده فالتحق مؤرخنا بخدمة الأمير المرّيني • ثم وصل الى فاس سنة ٧٧٤ ، وبعد عامين عاد الى غرناطة فنفاه سلطانها الى جوار تلمسان • ولما شعر ابن خلدون بزهد الامراء في صحبته (نظراً لتقلّبه) قرر ترك صداقتهم الى الاعتكاف في قلعة ابن سلامة وفيها بدأ بتأليف كتابه العبر في التاريخ حيث استمر الى سنة ٧٨٠ حيث عاد بعدها الى تونس لمراجعة بعض الكتب التي كان بحاجة اليها في تصنيف كتابه •

ترك ابن خلدون تونس سنة ٧٨٤ قاصداً الحج ولكنه توقّف في الاسكندرية والقاهرة ومارس التدريس في الأزهر والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص • وقد تقرب في مصر من أحد رجال

السلطان برقوق المملوكي فعيّنه هذا الأخير قاضياً للمالكية فاستمر في منصبه هذا أقل من سنتين . ولم يكن كل المصريين راضين عنه ، وقد نقل الاستاذ محمد عبد الله عنان عن مخطوط معاصر اسمه « رفع الاصر عن قضاة مصر » لابن حجر ما يلي : « ... قرره الملك الظاهر برقوق في قضاء المالكية بالديار المصرية ، فباشرها مباشرة صعبة ، وقلب للناس ظهر المجنّ ، وصار يعزّر بالصفع ، ويسميه الزجّ فاذا غضب على انسان قال زجّوه حتى تحمرّ رقبته . قرأت بخط البشبيشي ، كان فصيحاً ، مفوّهاً جميل الصورة ، حسن العشرة ، وخصوصاً اذا كان معزولاً . أما اذا ولي فلا يعامل بل ينبغي أن لا يرى ... ولما دخل الديار المصرية تلقوه أهلها وأكرموه ، وأكثروا ملازمته والتودّد اليه ، فلما ولي المنصب تنكّر لهم وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود . وقيل ان أهل المغرب لما بلغهم أنه ولي القضاء عجبوا من ذلك ونسبوا المصريين الى قلّة المعرفة حتى أن ابن عرفة قال لمّـا قدم في الحج : « كنا نعد خطّة القضاء أعظم المناصب ، فلما بلغنا أن ابن خلدون ولي القضاء عددناها بالضدّ من ذلك . ولما دخل القضاة للسلام عليه لم يقم لأحد منهم ، اعتذر لمن عاتبه على ذلك » .

ثم مال ابن خلدون الى الزهد اثر غرق أسرته وأمواله كما خرج حاجّاً سنة ٧٨٩ . وعاد ثانية الى القضاء فتولى سنة ٨٠١ منصب قاضي قضاة القاهرة وتركه فترة ثم استردّه . وقد رافق سنة ٨٠٣ السلطان الناصر فرج المملوكي الى دمشق مع سائر القضاة لحرب تيمورلنك . وقد ذكر ابن تغري برديّ في كتاب المنهل الصافي اتصال ابن خلدون بتيمورلنك على أبواب دمشق قائلاً : « ... الى أن ملك تيمور دمشق وأحاط بها ،نزل اليه المذكور (ابن خلدون) من سور دمشق بحبل ، وخالط عساكر تيمور وطلب منهم أن يوصلوه تيمور فساروا به اليه ، فأمر باحضاره فحضر فأعجبه حسن هيئته وجمال صورته ، وكلمه بعذوبة

منطقه ودعاه بكثرة مقالاته باطرائه ، فأجلسه واستدناه ، وشكر له سعيه ، وحظي عنده ، الى أن أطلقه وزوّده . وعاد الى القاهرة بعد عود تيمور خزاه الله الى بلاده » .

ولما عاد الى القاهرة ولي القضاة للمرة الثالثة ثم عزل وأعيد وهكذا دواليك . وكان آخر مرة تولى فيهاالقضاء في شعبان سنة ٨٠٨ . وقد مات وهو قاض فجأة في رمضان من السنة نفسها ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر في القاهرة .

وعلى الرغم من كفاءته في المناصب السياسية الهامة التي وليها في شمال افريقيا والأندلس فانه لم يكن صادق الولاء . وقد لعب دوراً خطيراً في الأحداث السياسية التي كان الشمال الافريقي مسرحاً لها في عهده . وكان لا يتردد البتة في خيانة وليّ نعمته والانضمام لأعداء مولاه ان وجد مصالحه تنفق وسلوك ذلك الطريق الشائن .

كتب ابن خلدون : لم يكن ابن خلدون كثير التأليف في التاريخ ولكن حسبه فخراً أنه كان أسبق مؤرخي العالم أجمع الى النظر الى التاريخ كعلم يستحق الدراسة لا رواية تجمع أخبارها المتناثرة وتدوّن. ومن المؤكد أن مقدمته التي أراد أن يستهلّ بها كتابه هي التي كان لها ذلك الأثر الخالد الذي سما بصاحبه الى مصافّ المؤرخين وعلماء الاجتماع العالميّين .

مقدمة ابن خلدون : كتبها في الأصل كمقدمة لكتابه التاريخي القيّم ولتكون شرحاً وتمهيداً تفهم حوادث التاريخ على ضوئه فجاءت نسيج وحدها من الابتكار الفذّ الذي اعتبر مذهباً يساعد على تعليل الظواهر الاجتماعية وفهمها ، كما يساعد على فهم التاريخ ونقده وتحليله . ووصف مؤرخنا بحثه الجديد أنه علم مستقل بذاته له موضوع خاص « وهو العمران البشري والاجتماع الانساني » ، أما القضايا التي

يعالجها ذلك العلم فهي « بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى » ، ولم يغرب عن بال ابن خلدون الاشارة الى أن ذلك العلم جديد « مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة » ، وأنه لم يسبق في هذا المضمار من قبل أحد ، بل انتهى اليه بالبحث الخاص ، فهو والحالة هذه أول من وضع ذلك العلم ونظّم أصوله وشروحه .

وجدير بالذكر ان العلماء وجدوا أن لعلم العمران هذا أهمية زائدة في فهم التاريخ ودرسه . فقد اعتبر ابن خلدون علم العمران الذي ابتكره قانونا لتمحيص الحق من الباطل في الرواية واظهار الممكن والمستحيل . ومحاولة فهم التاريخ من هذه الزاوية هي التي دفعت ابن خلدون الى درس هذا العلم الجديد الذي دعاه بالعمران أو الاجتماع البشري .

وقد أوجز ابن خلدون في مقدمته (ص ٣٣) مادة علمه فقال انها « ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم أو الصنائع بوجوه برهانية ، يتّضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك » . ثم قسم موضوع علمه الى ستة فصول هي :

الأول : في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض .

الثاني : في العمران البدويّ وذكر القبائل والأمم الوحشية .

الثالث : في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية .

الرابع : في العمران الحضريّ والبلدان والأمصار .

الخامس : في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

السادس : العلوم واكتسابها وتعلّمها .

وقد استهلّ ابن خلدون مقدمته بذكر قيمة التاريخ ومذاهبه وبما يرتكبه المؤرخون من أخطاء في ايراد الأخبار والوقائع ، سواء بعامل الغرض والتحيّز ، أو بعامل السهو والجهل بقوانين العمران وأحوال المجتمع ، وعدم الدقة والتمحيص في تقدير الممكن والمستحيل • ثم يذكر أمثلة يناقشها ويحاول أن يبين وجه الخطأ فيها • وان لم تخل مناقشته أحيانا من الضّعف والتحيّز •

وعند حديث ابن خلدون عن العرب نلاحظ تحاملاً منه عليهم ، فهم في نظره أمة وحشية ، تقوم فتوحهم على النهب والعبث ، ولا يتغلبون الاّ على البسائط السهلة ، ولا يتقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصعوبتها ، واذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب لأن طبائعهم من الرّحلة وعدم الانقياد والخروج على النظام منافية للعمران ولأنهم أهل تخريب ونهب ، يخرّبون المباني وينهبون الأرزاق ، ويفسدون الأعمال والصنائع وهم أبعد الأمم عن سياسة الملك ، لأنهم لبداوتهم وخشونتهم أكثر شعوراً بالاستقلال والحرية ، لا يدينون لرياسة أو نظام • وسياسة الملك تقتضي النظام والخضوع والانقياد » • (مقدمة ١٠٥ ــ ١٠٨ المطبعة البهية) •

ويستمر ابن خلدون في هذا الفصل الثاني في حملته على العرب فيذكر أن الأبنية التي يختطّها العرب يسرع اليها الخراب ؛ وأن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وأنهم ليسوا أهلاً للعلم ، وأن حملة العلم في الدول الاسلامية أكثرهم من الأعاجم •

وقد ردّ كثيرون على آراء ابن خلدون في العرب ومن أهم تلك الردود ما أورده الاستاذ محمد عبد الله عنان من تفنيد لآراء ذلك المؤرخ وجاء فيه : « ••• ولكنا نقول في شأن الفتوحات العربية ، ان العرب هم الذين افتتحوا وهاد الشام ومفاوز الأناضول وأرمينية ، وتوغّلوا

فيما وراء فارس ، واقتحموا شمال افريقية حتى المغـرب الأقصى ثم اسبانيا ، وعبروا جبال البرنيه الى فرنسا وهذه كلها أقطار وعرة وليست من البسائط التي يسهل غزوها ، وقد افتتحها العرب جميعاً في أقل من قرن ، وفي وابل من الظفر الباهر • ثم ان العرب لم يخربوا هذه الأقطار ولكنهم بالعكس أقاموا فيها دولاً ومجتمعات عامرة زاهرة ويكفي لكي ندحض نظرية ابن خلدون في خواصّ الفتوح العـربية أن نستشهد بقيام الدولة الأموية في المشرق ، ثم قيام الدولة الاسلامية في اسبانيا ، وقد نفهم سرّ التحامل الذي يطلق رأي ابن خلدون في العرب بمثل هذه الشدّة اذا ذكرنا أنه رغم انتسابه الى أصـل عربي ، ينتمي في الواقع الى ذلك الشعب البربريّ الذي افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم ، واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض أن يندمج أخيراً في الكتلة الاسلامية ، وأن يخضع راغماً لرياسة العرب في افريقية واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه• والخصومة بين العرب والبربر في أفريقيا واسبانيا شهيرة في التاريخ الاسلامي ، وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع في هذا المجتمع البربري يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ، ونعمت برعاية الموحّدين البربر وتقلبت في نعمهم ، فليس غريباً بعـد ذلك أن نسمع منه أشدّ الأحكام وأقساها على العرب » •

وموضوع الفصل الثالث من المقـدمة الدولة والملك ، ويرى ابن خلدون أن الدولة تحدث بالقبيل والعصبية • وللدولة خواصّ معينة ، وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها • وللملك كما للدولة طبائع وخواصّ ، منها الانفراد بالمجد ، والترف والدّعة والسكون وهي خواصّ اذا استحكمت ، فانها تحمل الدولة الى الهرم ثم الفناء • ثم ان للدولة أعماراً طبيعية كالأشخاص •• فعمـر الدولة لا يعدو في

الغالب مائة وعشرين سنة الا في أحوال نادرة .

وقد رأى النقدة أن ابن خلدون قد بلغ الأوج في الابتكار في هذا الفصل حيث أوضح لنا نظرياته الاجتماعية وتحليله للمجتمع وهي في منتهى الروعة والقوة ويرون نتيجة لذلك أن ذلك الفصل من المقدمة هو أبدع أقسامها وأمتنها في العرض والتدليل ، وأسطعها في الدلالة على براعة هذا الذهن القوي الممتاز .

أما الفصل الرابع فقد تناول فيه المؤلف حديث البلدان والأمصار ، ونشأة المدن وخواصها واختلاف ظروفها وأحوالها ، من خصب ورفاهة وجدب وفقر . ثم موقف أهل البادية من المصر « وتوقف مدى الحضارة في المصر على حالة الدولة . وكون الحضارة هي غاية العمران ونهاية عمره وأنها مؤذنة بفساده .

وبحث ابن خلدون في الفصل الخامس المعاش ووجوه الرزق ووسائل اكتساب الثروة ، وتحدث عن التجارة وما يتعلق بها من العرض والطلب والاحتكار والأسعار وغيرها ، كما درس الصناعات وأنواعها وأحوالها ثم أفرد لكل من مأهاتها كالزراعة والبناء والحياكة والتوليد والطب بحثاً خاصاً .

واقتصر البحث في الفصل السادس على العلوم والتعليم ، فذكر أن العلم من طبائع العمران ، ويكثر ويزدهر حيث يعظم العمران ، ثم تحدث عن أنواع العلوم الدينية والمدنية (الوضعية والعقلية) . وأخيراً وجدنا ابن خلدون يحمل على الفلسفة والمشتغلين بها فهي كما يرى علم باطل ، وقد نوه بخطرها على الدين والعقيدة ثم حدثنا عن التربية ومذاهبها وخواص العلماء ، وكون معظمهم في الاسلام من الأعاجم . واختتم البحث بدراسة لعلوم اللغة والبلاغة والنثر والنظم ومذاهب الشعر لعصره .

وختاماً لبحث مقدمة ابن خلدون نرى أن علم العمــران الذي هو موضوع مقدمته هو علم جديد أستاذه ابن خلدون الذي اعتبر بحق مخترع علمه ونحن نقرّ رأيه أن علمه جديد مبتكر وأنه ليس من علم السياسة المدنية الذي تناوله أسلافه من قبل بل هو علم مستنبط النشأة مستقلّ بذاته ، لم يعالجه مفكر قبله ، أو لم يعالجه بمثل ابتكاره وسعته واستيعابه .

تاريخ ابن خلدون : وهو من أهم الكتب التاريخية وعنوانه الكامل : « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » . وقد آثر ذلك المؤرخ أن ينهج منهجاً جديداً في تأليفه فعمد الى تقسيمه الى كتب ثم الى فصول متصلة متداخلة . وتابع دراسة كل دولة منذ نشأتها الى انهيارها مع الاشارة الى نقط التدخّل بين مختلف الدول . وقد خالف ابن خلدون بطريقته هــذه جمهرة من سبقه من المؤرخين الذين رأيناهم يصنّفون كتبهم التاريخية متسلسلة وفق السنين ، وهي كما ذكرنا طريقة الحوليات التي حشرت فيها حوادث كل سنة على الرغم مما بين تلك الحوادث من تباعد وتباين . أما ابن خلدون فقد آثر العدول عن تلك الطريقة الى طريقة الفصول والدول المتصلة ، وهي كما يرى كثيرون أقرب الى الدقّة وحسن الرواية والتنسيق . وليس بخاف أن مؤرخنا لم يكن مبتدع هذه الطريقة فقد ذكرنا روّاد التأليف بموجبها وأن ابن خلدون قد بذّ أقرانه ممن سبقه الى تلك الطريقة ببراعة التنظيم والربط والسبك ، كما امتاز عنهم بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات ووضع الفهارس .

لقد قسم ابن خلدون كتابه الضخم الى ثلاثة كتب كبيرة : أولهــا الذي انتهينا من دراسته وهو المقدمة ، وقد رأينا أنه يبحث في العمران. ويتناول ابن خلدون في الكتاب الثاني أخبار العرب وأجيالهم ودولهم

منذ مبدأ الخليقة الى عهده (نهاية القرن الثامن ومطلع التاسع ــ القرن ١٤/م ــ) ، كما درس فيه المؤلف دول ومشاهير من عاصر العرب من الأمم مثل النّبط والسريان والفرس وبني اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجة • واقتصرت دراسة المؤلف في الكتاب الثالث على أخبار البربر ومن اليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصّة من الملك والدول •

تتألف هذه الكتب الثلاثة من سبعة مجلدات أولها علم العمران أو المقدمة • ويبدأ القسم التاريخي البحت بالمجلد الثاني • وقد أفرد ابن خلدون أربعة مجلدات (من الثاني حتى الخامس) لدراسة أخبار العرب وأجيالهم ، وأخبار باقي الأمم القديمة والتركية والفرنجية حتى القرن ٨ هـ (١٤ م) وحذا ابن خلدون هنا حذو باقي المؤرخين المسلمين فاستهلّ بحثه بأصل الخليقة وأنساب الأمم المختلفة ، ولم يأت في هذا المجال بشيء جديد ، لأنه اقتصر على ايراد الروايات والأساطير الدينية القديمة التي نقلتها كتب التاريخ الاسلامية عن التوراة وعن المؤرخ القرطبي أورسيوس P. Orsius • ولو أن ابن خلدون لم يخف شكّه في صحّة الكثير من تلك الروايات • وقد تحدث هذا المؤرخ بعد ذلك عن العرب في الجاهلية واليهود واليونان والرومان والفرس ناقلاً معظم ما رواه عن اليونان والرومان عن ابن العميد • كما أفرد لبحثه عن ظهور الاسلام وحياة النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين جزءاً خاصاً ألحقه بالمجلد الثاني • ثم درس في المجلد الثالث تاريخ الأمويين والعباسيين بافاضة ، واقتصر المجلد الرابع على تاريخ الفاطميين والقرامطة وتاريخ الأندلس منذ الفتح حتى بداية دولة بني الأحمر وتاريخ آل بويه وبني سبكتكين • أما المجلد الخامس فقد توسع فيه في دراسة تاريخ السلاجقة الأتراك ، وتاريخ الحروب الصليبية وتاريخ المماليك في مصر حتى أواخر القرن ٨ هـ مقتبساً مادته من كتب

من سبقه من المؤرخين كابن هشام والواقدي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والمسعودي وابن الأثير وسواهم •

أما الكتاب الثالث فيضم أخبار البربر حتى عصر المؤلف ويشمل المجلدين السادس والسابع • ولا يخفي ابن خلدون أنه موجّه عنايته الى هذا الكتاب الثالث فيذكر أن كتابة تاريخ البربر هي غرضه الأول من وضع مؤلفه التاريخي ، مما جعل بعض النقدة يحملون على تاريخه ، وقد رموه بالقصور وعدم الاطلاع والتحقيق فيما كتب عن المشرق • ويرى معظم من درسوا ابن خلدون أن هذا القسم من كتابه ، وهو الذي ذكرنا أنه مقتصر على تاريخ البربر ، هو بعد المقدمة أنفس أقسام الكتاب، وأوفرها طرافة ، وأقواها عرضاً وتحقيقا ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن أحوال تلك الأمم والقبائل البربرية ، ما لم يوفّق اليه أي مؤرخ قبل ابن خلدون أو بعده ، ولا غرو فابن خلدون بطبيعة نشأته وحياته ، وتقلبه في خدمة الدول والقصور البربرية ، ودرسه لأحوالها دراسة المطّلع ، هو رجل هذا الموضوع وأقدر من يتناوله بالبحث •

استهلّ ابن خلدون بحثه في هذا الكتاب الثالث عن « العرب المستعربة من بقية الدول الاسلامية من العرب بالمغرب » ، وبحث بعد ذلك تاريخ قبائل البربر الشهيرة مثل زناته ومغراوة ولواتة ومصمودة والبرانس وكتامة وصنهاجة من أقدم العصور حتى أيامه • وأورد في بحثه لأصول البربر وأحوالهم وعقائدهم قبل الفتح الاسلامي روايات وحقائق كانت مجهولة قبله ، كما ذكر تاريخ المرابطين والموحّدين بايجاز • وقد توسّع كثيراً في دراسته لتاريخ الدول البربرية القريبة من عصره والتي عاصرها • وأفرد ذلك المؤرخ فصلاً خاصاً من كتابه للحديث عن خلال البربر • « وعما كان لديهم قديماً وحديثاً من الفضائل الانسانية والخصائص الشريفة » • ويرى النقدة أن ابن خلدون لم يعن

في حديثه عن خلال أيّة أمة عنايته بالتحدُث عن البربر . ولعله ينمُ في هذا الفصل عن هوى خاصٍّ ونعرة بربرية واضحة ، وهذا ما يفسّر لنا قسوته في الحكم على العرب وحملته عليهم حملة شعواء لأنهم في نظره غزاة افريقية والمتغلبون عليها والمديلون لدول البربر .

وقد اختتم ابن خلدون كتابه « العبر » بعدة فصول دعاها « التعريف بابن خلدون » ترجم فيها لنفسه وسرد حياته منذ ميلاده الى سفره الى مصر وما جرى له من حوادث حتى مستهلٍّ سنة ٧٩٧ هـ . وابن خلدون لم يكن أول من ترجم لنفسه فقد سبقه الى ذلك ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » ومعاصره لسان الدين بن الخطيب في « الاحاطة في أخبار غرناطة » ومعاصره الحافظ بن حجر في « رفع الاصر عن قضاة مصر » والسيوطي في « حسن المحاضرة » لكن ترجمة ابن خلدون لنفسه كانت مستفيضة استغرقت كتاباً كاملاً .

كتب ابن خلدون الاخرى : ان معظم تلك الكتب مجهول لدينا وان يكن معاصره الوزير لسان الدين بن الخطيب أورد في كتابه « الاحاطة في أخبار غرناطة » ثبتا بكتب ابن خلدون الأخرى وأبحاثه ومن بينها « شرح البردة شرحاً بديعاً ، ولخّص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلّق للسلطان أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخّص محصّل الامام فخر الدين الرازي ، وألّف كتاباً في الحساب ، وشرع في شرح الرجز الصادر عني (عن لسان الدين) بشيء لا غاية فوقه في الكمال ».ويبدو أن تلك الكتب أو الأبحاث لم تكن شهيرة فابن خلدون نفسه لم يشر اليها . وقد ذكرها لسان الدين بن الخطيب قبل أن يصنّف ابن خلدون كتابه في التاريخ . ولم يعثر الباحثون الا على مخطوطين من تراث ابن خلدون فيما عدا كتابه . أما المخطوط الأول فقد وجد في مكتبة دير الاسكوريال باسبانيا وعنوانه « لباب المحصّل في أصول

الدين تصنيف العبـد الفقير الى الله تعالى الغني عن سواه ، الراجي عفوه ، عبـد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، غفـر الله له ولوالديه ، ولجميع المسلمين » • ويتألف المخطوط من خمس وستين لوحة (ورقة) من القطع الصغير ، وقد كتب بخط مغربي هو خط ابن خلدون نفسه • ويظهر أن هـذا الأخير كتب هذا الكتاب ولمّـا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره ورجّحوا أنه أول تآليفه • وثمة مخطوط ثان في دار الكتب المصـرية يبحث في التصوّف ويقع في ٨٧ ورقة (١٧٤ صفحة) كتب على عنوانه أنه « للشيخ أبي زيد عبد الرحمن ابن الشيخ الفقيه المحقق المشارك المبرور المقـدس المرحوم أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي » •

آراء علماء الغرب في ابن خلدون : بدأ اهتمام مفكري الغرب بابن خلدون مبكراً ، وقد ورد أول ذكر لاسمه ولتراثه سنة ١٦٩٧ في موسوعة هربلو D' Herbélot • ثم ترجم المستشرق الفرنسي سلفستر دوساسي لابن خلدون في قاموسه كما ترجم فقرات من مقدمته وذلك في مطلع القرن التاسع عشر • كما كتب عنه في الوقت نفسه المستشرق النمسوي فون هامر ودرس نظرياته في انحلال الدول قائلاً عنه انه « مونتسكيو العرب » (فيلسوف فرنسي من القرن /١٨ م) • واستمر المستشرقون يعنون به ، وقد نشر كاترمير مقدّمـة ابن خلدون بنصهـا العربي سنة ١٨٥٨ وبعيد ذلك التاريخ ترجم دوسلان De Slan المقـدّمة كلها الى الفرنسية • وبدأ الغرب منذ ذاك يعنى عناية تامة بنظريات ابن خلدون الاجتماعية • ولشد ما دهش مفكرو الغرب أنهم عثروا في تراث ابن خلدون على النظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية التي عالجها فيما بعد مكيافيللي وفيكو (الايطاليان) ومونتسكيو (الفرنسي) وآدم سميث (الانكليزي) وأوغست كونت (الفرنسي) •

كان علماء الغرب يظنّون قبل دراسة آثار ابن خلدون ونظرياته أن مفكري الغرب هم الذين اهتدوا الى فلسفة التاريخ ومبادىء الاجتماع وأصول الاقتصاد السياسي • لكن دراسة مقدمة ابن خلدون دراسة علمية قام بها علماء غربيون أعلام أثبتت العكس حيث وجد أن ذلك المؤلف الفيلسوف العربي سبق الغرب في هذا المجال بعدة قرون • وبعد أن درس مفكرو الغرب ابن خلدون دراسة علمية رفعوه الى ذروة المجد ونظموه في سلك مؤرخي الحضارة والفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسي مع اعترافهم أن له في ذلك كله فضل السبق على أعلام الغرب في هذه الميادين •

يعتبر المستشرق النمسوي فون كريمر Von kremer ابن خلدون مؤرخاً للحضارة يؤرخ حضارة الشعوب الاسلامية ، لأنه من بين المؤرخين المسلمين أول من درس النظم السياسية وأنواع الحكم ، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والادارة وتطوّرها في الدول الاسلامية ، والنظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، والمهن والحرف والبضائع ووجوه الكسب والمعاش ، ثم كتب عن العلوم والفنون والآداب وتطورها في العالم الاسلامي • ورأى هذا المستشرق أن ابن خلدون عالج هذه المسائل كصور للعمران وليست مراحل الحضارة سوى مقياس لمراحل العمران •

أما الفيلسوف دوبوير De Boer الهولندي فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً ويقرنه بابن سينا والغزالي وابن رشد وابن الطفيل وينوّه بقيمة المنطق في صوغ نظرياته ، ويصفه بأنه مفكر متّزن • وقد قال ذلك الفيلسوف عن ابن خلدون : « هو ولا ريب أول من حاول أن يشرح بافاضة تطوّر المجتمع وتقدّمه لأسباب وعلل معينة ، وأن يعرض ظروف الجنس والاقليم ووسائل الانتاج وما اليها وأثرها في تكوين

ذهن الانسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً .. » .

اهتم الغرب كثيراً بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ومن بين الذين درسوها بافاضة من علماء الغرب المعاصرين لدفيج غمبلوفيتش L. Gumploviez الذي قال عنه ما يلي : ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية ، وكيف ان هذه الجماعات نفسها انما هي ثمرة الوسط ، وآراؤه في هذا المقام عن الأجناس الغالبة في منتهى الأهمية . وفي أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدلُّ على أنه عرف « قانون التشبُّه بالوسط » قبل أن يعرفه داروين Darwin (الانكليزي) بخمسة قرون ، وفيما يقوله عن تشبيه الانسان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ، ما يدلُّ على أنه عرف (وحدة المادة) قبل أن يعرفه هيغيل (الألماني) ومن المدهش أن نرى كم تتفق الاجراءات التي ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكي يؤيِّدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التي أثبت البحث التاريخي الحديث أن مؤسسي الدول الأوروبية في العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التي أسداها مكيافيللي بعد ذلك بقرون الى العالم في كتابه « الأمير » . هذا وقد استطاع ابن خلدون أن يقرِّر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية ، كما يقررها أساتذة القانون السياسي والقانون الكنسي » .

ثم ختم البحاثة الغربي كلامه عن ابن خلدون بقوله : « لقد أردنا أن ندلِّل على أنه قبل أوغست كونت ، بل قبل فيكو الذي أراد الايطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي ، جاء مسلم تقيٌّ فدرس الظواهر

الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم « علم الاجتماع » .

وقد وافق فريرو Ferreiro الايطالي وليفين الروسي زميلهما غمبلوفيتش في اعتبار ابن خلدون فيلسوفاً اجتماعياً .

أما الاستاذ رينه مونييه René Maunier فقد درس آراء ابن خلدون من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية وصف مقدمته وتفكيره بقوله : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية ، وموسوعة لعلوم العصر ، وتحتوي على أجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع وطريقتها بالأخص بديعة ، تدلّل على ذهن علمي حق » . ثم عمد مونييه الى تحليل نظريات ابن خلدون الاجتماعية فقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الاجتماعية ، وقوانين التطور الاجتماعية ، ووصفها بقوله : « واذن فان فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وانما يشاهد ، وهو بذلك يدلّل على ذهنية علمية حقّة ، وبذا يجب أن يفسح له مكان في تاريخ الاجتماع الوضعي » .

ودرس الألماني فون فسنديك Von wesendonk آراء ابن خلدون في نشوء الدول وانحلالها . وحاول تطبيق نظرياته في سقوط الدول والأسر على الأمبراطورية الألمانية والدول الأوروبية . وقد رأى ذلك العالم الألماني في ابن خلدون ذهناً وافر الابتكار ، ومثلاً أعلى في التفكير العربي ... واعتبره مثل فون كريمر مؤرخاً للحضارة ، كما رأى فيه اماماً لمدرستي مكيافيللي وفيكو .

بينما درس الأستاذ استفانو كلوزيو S. Colosio عدة نواح في ابن خلدون لكنه اهتم بصورة خاصّة بنظرياته الاقتصادية . ففيما له

علاقة بعلم التاريخ وجـد كلوزيو أن ابن خلدون سبق مكيافيللي وموتتسكيو وفيكو الى وضع علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ وهذا ما كان أشار اليه ايطالي آخر ، هو آماري ، قبل كلوزيو ، فذكر آماري أن ابن خلدون هو أول كاتب في العالم عالج موضوع فلسفة التاريخ • ثم حلّل كلوزيو نظرية ابن خلدون في الجبر الاجتماعي • ويعتبر الركن الاقتصادي في ابن خلدون أهم ركن درسه كلوزيو ، فيقول مثلاً عن نظرياته في هذا الباب : « استطاع في العصور الوسطى أن يكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبـل كونسيديران (وهو اشتراكي فرنسي من القرن /١٩) ومـاركس (اقتصادي ألماني من القرن /١٩ وهو مؤسس الاشتراكية المتطرفة) وباكونين (اجتماعي واقتصادي روسي من القرن /١٩ » • وحلّل كلوزيو آراء ابن خلدون المتعلقة بعمل الدولة من الناحية الاقتصاديـة وآثاره السيئة ، وبالقوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، كما درس آراء ابن خلدون في طرق الملـك وأنواع الملكية ، ومهمة العمـل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدراً للرزق ، وقانون العرض والطلب ، وأخيراً ذكر كلوزير « اذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعه في مقدمة فلاسفة التاريخ ، فان فهمه للدور الذي يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه في مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين » •

وآخر علماءالغربدرساً لابنخلدونهوناتانيل شميث N. Schmidt الذي درس ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعي • فبعد أن عد شميث ابنخلدون في مصاف المؤرخين العالميين ، وبعد أن ذكر فضله في العدول عن طريقة الحوليات ذكر ما معناه : « ••• على أن حق ابن خلدون في الشهرة الخـالدة لا يرجع الى تاريخه ، بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذي كتبه مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته في روعة

بهائها .. » . كما يرى شميث : « أن ابن خلدون هو الذي اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته .. وانا نستطيع اليوم أن تقول ان ابن خلدون كان بحق أول كاتب استطاع أن يعرف موضوع التاريخ بهذه الصورة ، وأن ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته ... ، واذا كان التاريخ علماً ، فان التونسي العظيم الذي ابتكر هذا الرأي ودافع عنه ليس له سلف فيما يظهر ، ومن حقه أن يعتبرانه المكتشف ، وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته وأكثرها طرافة » .

ويعترف شميث مع باقي النقدة أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع الذي وجد قبل أوغست كونت بعصور طويلة ، وأن ابن خلدون ذهب في تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وأنه فيما عالج من خواص العادة والاقليم والأرض ، والغذاء ، قد سبق موتتسكيو Montesquieu الفرنسي وبكل Buckle وسبنسر Spencer الانكليزيين وغيرهم .

ولنختم تقدير علماء الغرب لابن خلدون بما ذكره المؤرخ الاسباني التاميرا R. Altamira : « كفى أنه في القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الأوروبية في منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتي يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كتب كتاباً كالمقدمة ، درست فيه وعرضت كل المسائل ، التي غدت فيما بعد ، أهم مهام المؤرخين المحدثين » . كما ذكر عن تاريخ ابن خلدون ما نصه : « وقد اشتمل تاريخه على مقدمة هي في الحقيقة مؤلف في الاجتماع والفلسفة التاريخية لم يفقه حتى أيامنا في الأهمية أي مؤلف آخر » .

الفصل الرابع

التاريخ والمؤرخون البيزنطيون

مقدمة . ــ ان معرفتنا بالتاريخ البيزنطي مستقاة من مصادر شتى ، بعضها بيزنطي وبعضها غير بيزنطي . ويستطيع المؤرخ المحدث أن يعتمد على ما كتبه أسلافه البيزنطيون في بحثه عن حقائق التاريخ البيزنطي العام بالرغم مما في كتاباتهم من تفاوت واختلاف من حيث الدقة والضبط والتفاصيل . ولكنه مضطر في كثير من الأحيان لأن يصحح أخبارهم ويكملها بمعارضتها بأخبار المؤرخين الغربيين والمسلمين والسلافيين وغيرهم ممن كانت لهم علاقات مع الامبراطورية البيزنطية . ولا بد للمؤرخ المحدث أيضا ، حتى يرسم صورة كاملة بقدر الامكان ، من أن يستعمل الى جانب المادة التاريخية المعلومات التي تتضمنها الكتابات المختلفة وتقارير السفراء ومجموعات الرسائل والخطب التي تساهم كلها في اجلاء بعض الغوامض والقاء الضوء على أحداث التاريخ العام التي تدونها الحوليات وكتابات المؤرخين . ونظراً للصلة الوثيقة التي ظلت تربط الكنيسة بالدولة طوال فترة الامبراطورية البيزنطية فلا بد للمؤرخ من أن يستعين بالكتابات الكنسية وبصورة خاصة بمقررات المجامع الدينية لما لهذه المقررات من أهمية في ايضاح الكثير من جوانب الصراع بين الكنيسة والدولة ، هذا الصراع الذي طبع جزءاً كبيراً من أجزاء التاريخ البيزنطي . كما أن الكتب التي تبحث في حياة القديسين تقدم مادة هامة جداً للمؤرخ الذي يبحث في تاريخ هذه الدولة ولا

من استعمالها والاستفادة مما يرد فيها.وتجدر الملاحظة هنا الىأن أغلب هذه الكتابات لا تعير الجوانب الاقتصادية والتشريعية والادارية التفاتاً كبيراً ، ولذلك لا بد للباحث من أن يستخرج المعلومات المتعلقة بهذه النواحي من الكتابات الرسمية وغير الرسمية التي تبحث في حياة البلاط ومن الوثائق القانونية والادارية التيتختلف منالعهود البيزنطية المختلفة حتى يستطيع رسم صورة كاملة بقدر الامكان للنواحي غير السياسية من تاريخ هذه الدولة . يضاف الى هذا ان الكتابات القانونية كانت كثيرة جداً في بيزنطة ، وقد تخلف منها الكثير الى يومنا هذا ويستطيع الباحثون المحدثون أن يستخدموها في أبحاثهم المتعلقة بالناحية القانونية والتشريعية .

وهناك أخيراً المخلفات الأثرية كالأوابد والكتابات والنقوش وقطع العملة والأختام وغير ذلك مما يستقرؤه مؤرخو اليوم ويستخدمونه في كتابة التاريخ بشكل عام . وقد أهمل المهتمون بالدراسات البيزنطية في القديم هذا النوع من المصادر ، ولكن الاختصاصيين اليوم يقدرون هذه المخلفات حق قدرها ويحاولون الاستفادة منها الى أبعد الحدود .

بعد هذه المقدمة ، التيتتعلقبدراسة مصادر التاريخ البيزنطيبشكل عام ونوعيتها ومجال الاستفادة منها ، سنحاول أن نبحث في الفقرات التالية الكتابات التاريخية المتعلقة بكل فترة من فترات التاريخ البيزنطي وأن نعدد أهم المصادر التي يعتمدها الباحثون المحدثون من أجل دراسة كل فترة على حدة وأن نتعرف بأهم المؤرخين البيزنطيين وأن نناقش أهمية ما كتبوا ومجالات الاستفادة منها .

مؤرخو فترة تاسيس الأمبراطورية (٣٢٤ – ٦١٠) . –

بدأت الكتابة التاريخية عند البيزنطيين على يد يوزيبيوس ، أسقف قيسارية ، الذي ألف حولية تاريخية تتألف من جزئين تبحث في سياسات

الامبراطورية الرومانية حتى سنة ٣٢٥ م • ويعتبر يوزبيوس أقدم كتّاب الحوليات الذين كان لكتاباتهم أهمية كبيرة في بيزنطة • وهو الى جانب ذلك مؤلف تاريخ كنسي في عشرة أجزاء يبحث في تاريخ النصرانية حتى سنة ٣٢٤ م ، ويعتبر تاريخه الكنسي هذا أول عمل من نوعه اذ لم يسبق أن عرف التأليف الكنسي كتاباً بسعته وحسن تبويبه وتنوع المعلومات فيه • وينسب الى يوزبيوس أيضا تأليف كتاب عن حياة الامبراطور قسطنطين الكبير ، ولكن هذا الأمر مشكوك فيه ، وينفي البعض نسبة هذا الكتاب اليه •

ان أشهر مؤرخي القرن الرابع الميلادي هو **اميانوس مارسيللينوس** الذي تناولناه بالبحث في فصل سابق والذي لا بد أن تعتبر كتاباته التاريخية عن الامبراطورية الرومانية ذات صلة بنشأة الامبراطورية البيزنطية اذ أن نشأة هذه الامبراطورية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتداعي الامبراطورية الرومانية وسقوطها • ولن نعيد ما ذكرناه عنه في الفصل السابق ، ويكفي أن نكرر هنا ما قلناه آنفاً من أنه كان من المؤرخين المخضرمين الذين عاصروا نهاية روما وولادة بيزنطة •

وقد أخذ المؤرخون البيزنطيون بعد أميانوس مارسيللينوس يتخلون عن اللغة اللاتينية في كتاباتهم ويستعيضون عنها باللغة اليونانية • وكان أشهر من كتب بهذه اللغة في هذه الفترة ثلاثة مؤرخين وثنيين هم **أونابيوس الساردي** الذي أرخ الفترة بين سنتي ٢٧٠ — ٤٠٤م والذي ضاع كتابه ولم تصلنا الا نتف منه ، **وأوليمبيو دوروس** الطيبي الذي أرخ للفترة التي تمتد حتى سنة ٤٢٥ م **وزوسيموس الذي** يشتمل كتابه التاريخي على الأحداث التي وقعت منذ عصر أغسطس حتى سنة ٤١٠ م • والذي أولى عناية خاصة لفترة حكم الامبراطور ديوقليسيان والأباطرة الذين تلوه •

وقد جاء بعد ذلك عدد من المؤرخين اهتم بعضهم بجانب واحد من الأحداث كالمؤرخ **بريسكوس** الذي تخصص في أخبار الهون وزعيمهم أتيلا ، والمؤرخين الذين كتبوا في التاريخ الكنسي • وكان عدد كبير من هؤلاء المؤرخين من الآباء الكنسيين الذين شاركوا في الأحداث الدينية التي قامت في عصرهم وسجلوا وقائع المجامع الدينية التي نظرت في قضايا العقيدة وما استتبعها من مشاكل دينية وسياسية •

ان أهم مؤرخي هذه الفترة من تاريخ الامبراطورية البيزنطية هو المؤرخ **بروكوبيوس** الذي ولد في قيسارية في فلسطين في نهاية القرن الخامس الميلادي وقد اشتغل في مطلع حياته بالمحاماة في القسطنطينية ، وأصبح فيما بعد [1] سكرتيراً خاصاً للقائد بيليزاريوس ورافقه في جميع العمليات العسكرية التي قادها في الجهات الفارسية والافريقية والايطالية • وبعد سقوط رافينا بيد بيليزاريوس ، عاد بروكوبيوس الى القسطنطينية ووصف لنا الطاعون الكبير الذي حل بالعاصمة سنة ٥٤٢ • ولسنا نعرف ما اذا كان قد رافق الجيوش البيزنطية في معاركها الأخيرة ضد القوط حين كان بيليزاريوس ومن بعده القائد نرسيس يحاربان الزعيم القوطي توتيلا في ايطاليا • وشكنا في حضوره هذه المعارك راجع الى أن وصفه لها لا يبلغ من الدقة والضبط والتفصيل ما بلغه وصفه للمعارك السابقة • ولسنا نعرف الكثير عن أيامه الأخيرة ، وكل ما يمكننا أن نقوله بثقة هو أنه كان في العام ٥٥٩ موجودا في القسطنطينية • ويشير المؤرخ تيوفانس الى وجود شخص اسمه بروكوبيوس في وظيفة رئيس بلدية القسطنطينية سنة ٥٦٢ ويقول أن هذا الشخص قد عزل من منصبه في العام التالي ، ولسنا نستطيع الجزم فيما اذا كان هذا الشخص هو نفس بروكوبيوس المؤرخ أم غيره •

---

(١) حوالي سنة ٥٢٧ م •

ان أهم ماخلفه لنا بروكوبيوس من كتابات تاريخية كتابه في التاريخ الذي يفصل لنا فيه أخبار الحروب التي قامت بها بيزنطة ضد فارس والقوط والفاندال والذي يقع في ثمانية أجزاء ، وكتابه عن الأبنية التي بناها الامبراطور جستنيان ويقع في سته أجزاء ، وكتابه **« مذكرات لم تنشر »** الذي سمي بهذا الاسم لأنه لم ينشر في حياة مؤلفه •

وكان بروكوبيوس يسمي كتابه في التاريخ **« كتب عن الحروب »** ويتألف هذا الكتاب من الأجزاء التالية : ١ ــ جزءان يبحثان في المعارك الضارية التي خاضها الامبراطوران جستين وجستنيان ضد فارس زمن قباذ وكسرى أنو شروان وذلك حتى سنة ٥٥٠ م ؛ ٢ ــ جزءان يبحثان في الحروب ضد الفاندال واخضاع المملكة الفاندالية في افريقية وما جرى من أحداث في افريقية بين الفترة من ٥٣٢ ــ ٥٤٦ م ؛ ٣ ــ ثلاثة أجزاء تبحث في الحروب ضد القوط ولا سيما الحروب ضد القوط الشرقيين في صقلية وايطاليا منذ سنة ٥٣٦ وحتى سنة ٥٥٢ • أما الجزء الثامن فهو ملخص للحوادث التي جرت حتى سنة ٥٥٤ • وتحوي هذه الأجزاء الثمانية معلومات قيمة جداً عن الأحداث داخل الامبراطورية البيزنطية في هــذه الفترة كثورة نيقا Nika التي قامت في العاصمــة القسطنطينية عام ٥٣٢ ضد الامبراطور جستنيان من قبل حزبي الزرق والخضر ، والطاعون الكبير الذي انتشر سنة ٥٤٢ كما اشرنا آنفاً • على أن المعلومات المتعلقة بالادارة المدنية قليلة نسبياً في هذا الكتاب المخصص في الأساس للحــروب ، وليس فيه أي شيء عن قضــايا التشريع التي اشتهر بها الامبراطورجستنيان الذي تؤرخ حروبه •

أما كتابه عن أبنية جستنيان فهو وصف لأهم المنجزات العمرانية التي تمت خلال حكم جستنيان وحتى سنة ٥٦٠ والي كان الفضل في انجازها لشخص الامبراطور الذي اشتهر بحبه للعمران • وقد أدعى

البعض أن بروكوبيوس كتب هذا الكتاب بناء على أوامر الامبراطور نفسه ، وأياً كان الصحيح في أمر هذا الادعاء فمن الثابت أنه استقى معلوماته من التقارير والسجلات الرسمية التي كانت موجودة لدى دوائر الدولة آنذاك . والكتاب مليء بمديح الامبراطور جستنيان وزوجه الامبراطورة تيودورا التي كانت كزوجها شغفة بالعمران والبناء . وهناك فارق كبير في المستوى بين هذا الكتاب وكتاب التاريخ ، فأسلوب هذا الكتاب يميل الى التنميق والبهرج اللفظي ويبتعد عن الكتابة العلمية الدقيقة مما يجعله أقرب الى العمل الأدبي منه الى العمل العلمي .

أما « مذكرات لم تنشر » أو ما يسميه البعض بـ « التاريخ السري » فهو عبارة عن تكملة لكتابه في التاريخ ألفه حوالي سنة ٥٥٠ ، وضمّنه تفاصيل وايضاحات لبعض الاحداث لم يجرؤ أن يضمنها كتابه في التاريخ خوفاً من بطش جستنيان وزوجه ثيودورا . والكتاب في مجمله عبارة عن هجوم مقذع على الامبراطور جستنيان وثيودورا وعلى القائد بيليزاريوس ، الذي كان يعمل سكرتيراً خاصاً له ، وزوجه أنتونينا وغيرهم من كبار الرجالات الرسميين . وقد استغرب البعض هذا الموقف الذي اتخذه بروكوبيوس وادعوا تبعاً لذلك أنهم يشكون في نسبة الكتاب اليه ، ولكن الدراسات الحديثة تميل الى اثبات أن بروكوبيوس هو مؤلف الكتاب وأنه ليس لهذا الشك ما يبرره . ويغلب على الكتاب الأسلوب السريع الذي تنقصه العناية والتشذيب ، وهو لا يرقى الى أسلوب كتابه في التاريخ . ولخوفه من أن يتسرب ليد الامبراطور يبدو أنه كتبه في السر وبسرعة ولم ينقحه أو يعيد قراءته . ولما نشر بعد وفاته نشر دونما تغيير أو تبديل .

ان كتابات بروكوبيوس ذات أهمية كبيرة بالنسبة للتاريخ البيزنطي ، وبالرغم من كل ما قد يوجه اليها من نقد فهي مصدر أساسي بالنسبة

لعصر جستنيان الذي هو من أزهى عصور هذه الفترة الأولى . وقد طبعت كتبه عدة طبعات وبعضها مترجم الى اللغات الأجنبية المختلفة .

والملاحظ بالنسبة لهذه الفترة أن المؤرخين كانوا كثرة ، وأن الواحد منهم كان يبدأ بالتدوين من حيث انتهى سلفه ، وقد أدى هذا الى أنا نستطيع اليوم أن ندعي أنا نملك من المصادر ما يساعدنا على تغطية الفترة بكاملها . وتصح هذه الملاحظة أيضاً على الفترة الأخيرة من من التاريخ البيزيطي حيث يكثر عدد المؤرخين وحيث تتلاحق الكتابات التاريخية . وهناك ملاحظة أخرى بالنسبة للكتابات التاريخية البيزنطية بشكل عام وهي أن المؤرخين كانوا يحاولون دوماً أن يقتدوا فيما يكتبون بأسلافهم المؤرخين اليونان الذين كانوا مثلهم الأعلى . فقد قلد بروكوبيوس مثلا المؤرخ اليوناني توسيديدس واعتبره المؤرخ المثالي الذي يجب أن يحذو حذوه . ويعزو الباحثون المحدثون تفوق المؤرخين البيزنطيين على زملائهم في الدول الغربية الى هذا الشعور بأهمية التراث الكلاسيكي ومحاولة اقتفاء أثره .

وقد تقدمت الكتابة التاريخية البيزنطية في هذه الفترة أيضا على يد كتاب الحوليات الذين كان أشهرهم المؤرخ **جون ملالاس** الذي عاش بين ٤٩١ ــ ٥٧٨ م ، وولد في انطاكية وكتب حولية تاريخية تبدأ من الخليقة وتنتهي بموت الامبراطور جستنيان سنة ٥٦٥ م . وليست لهذه الحولية أهمية تاريخية كبيرة ، وتأتي قيمتها من كونها أول نموذج للحوليات التي لم تكتب للأشخاص المتعلمين بل للرهبان والأشخاص العاديين . وقد كتب ملالاس حوليته هذه باللغة العامة التي تشوبها كلمات لاتينية وكلمات من اللغات الشرقية المتداولة . وتوجد الآن نسخة مختصرة من هذه الحولية في مكتبة بمدينة اكسفورد . وقد سار على نهج ملالاس في كتابة الحوليات مؤرخ آخر اسمه **جون الانطاكي** الذي

كتب حولية ذكر فيها الأحداث حتى سنة ٦١٠ ، ولكن حوليته هـذه ضاعت ولم يصل الينا الا تتف منها •

أما فيما يخص مصادر دراسة الأمور الادارية والقانونية في هذه الفترة من تاريخ الامبراطورية البيزنطية فانه لا بد للباحث من أن يعتمد بشكل رئيسي على مدونة **ثيودسيوس** القانونية أو ما يعرف باسم « **قانون ثيودوسيوس** » والأعمال القانونية العظيمة التي تمت زمن الامبراطور جستنيان والتي يهم المؤرخ منها بشكل خاص مدونةجستنيان القانونيةالتي تعرف باسم **قانون جستنيان** هذا فضلا عن العدد الكبير من الكتابات التي تصف التنظيم الاداري للامبراطورية والمراسيم التي تحدد الوظائف المختلفة وتنظيم شؤون الدولة ، وكلها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للباحث في التاريخ الاداري للامبراطورية • ويستفاد من المعاهدات وقرارات التنظيم العسكري وأخبار البلاط والاحتفالات الامبراطورية في اكمال الصورة فيما يتعلق بالتاريخ العسكري وحياة الأباطرة وآداب السلوك في بلاطهم •

مؤرخو فترة احياء الامبراطورية (٦١٠ ـ ٧١١ م) • ـ لم تكن حركة التأليف التاريخي في القرن السابع ناشطة كما كانت في عصر جستنيان • وتصح هذه الملاحظة بوجه خاص على الفترة التي تلت حكم الامبراطور هيراكليوس (هرقل) والتي دعيت بحق « الفترة الغامضة من التاريخ البيزنطي » بسبب قلة معلوماتنا عنها •

وقد دون احداث عصر هيراكليوس مؤرخ اسمه **جورج البسيدي** كان يعمل قسيساً في كنيسة القديسة صوفيا زمن البطريرك سرجيوس (٦١٠ ـ ٦٣٩) ، وينظم الشعر التاريخي الذي يخلد المناسبات العظيمة للامبراطورية • ومن أشهر أشعاره التاريخية قصائده التي نظمها تخليداً لانتصار هيراكليوس على الفرس في مواقع عام ٦٢٢ م وهجوم الآفار

علي القسطنطينية سنة ٦٢٦ م . ولكن هذه الأشعار لا تعتبر مصـدراً كافياً لدراسة عصر هيراكليوس ولا بد لدارس هذا العصر من أن يستقي معلوماته من كتاب المؤرخ **ثيوفانس** والبطريرك **نقفور**. وثيوفانس الذي يلقب بالمعترف سليل أسرة يونانية غنية عاش بين سنتي ٧٥٨ ــ ٨١٨ م ، وعمل في السلك الكهنوتي واهتم بالأخبار منذ شبابه . وقد تقلد عدة وظائف زمن الامبراطور قسطنطين الخامس الذي حكم بـين سنتي ٧٤١ ــ ٧٧٥ ضد معارضيها الذين كان على رأسهم الامبراطور ليـون الخامس . وقد سجن لمواقفههذه في سوماتراس حيث توفي سنة ٨١٨م. وتعتبر حوليته التي دونها بين سنتي ٨١٠ ــ ٨١٨ م تكملة للحولية التي بدأها المؤرخ جـورج سينسلوس والتي تنتهي بحـكم الامبراطـور ديوقليسيان . وهكذا فحولية ثيوفانس تبدأ منذ حـكم ديوقليسيان وتنتهي بعيد اعتلاء ليون الخامس العرش ، أي تغطي الفترة الواقعـة بين ٢٨٤ــ ٨١٣ م . وتعوز هذه الحولية الدقة العلمية وبعد النظر الثاقب وحياد المؤرخ النزيه ، ولكنها بالرغم من هذا ذات قيمة كبيرة ولا سيما بالنسبة لأخبار القرنين السابع والثامن لأن صاحبها اعتمد على مصـادر قديمة فقدت ولم تصل الينا الا عن طريـق ما نقله عنها وأهم ما يميز حولية ثيوفانس هو النظام الزمني الدقيق الذي أوجـده هذا المؤرخ لتثبيت حوادث التاريخ البيزنطي خلال فترة القرنين الغامضين التي أشرنا اليها في مطلع هذا البحث . فالأخبار عنده مرتبة حسب السنين ، وتبدأ أخبار كل سنة بلوائح يذكر فيها السنة منذ الخليقة . والسنة منذ مولد السيد المسيح والسنة منذ حكم الامبراطور البيزنطي ومعاصريه مـن الحكام العرب والفرس والبابا وبطاركة الامبراطورية الأربعة . ولا يكتفي ثيوفانس بذكر السنوات حسب العرف الاسكندري الذي يعتبر أن السيد المسيح قد ولد بعد الخليقة بـ ٥٩٤٢ سنة بل يـذكر أيضاً التواريخ التي تقابل انعقاد المجامع الكنسية زيادة في الدقة والضبط .

وقد كان لحوليته شهرة كبيرة في بيزنطة وأصبحت فيما بعد الأساس الذي اعتمده ونقل عنه أغلب كتاب الحوليات المتأخرين • وانتقلت هذه الحولية الى الغرب عن طريق الترجمة اللاتينية التي عملها لها في عام ٨٧٠ الراهب أناستازيوس الذي كان يدير المكتبة البابوية في روما • ولهذه الترجمة أهمية كبيرة بالنسبة لدارسي التاريخ اليزنطي المحدثين باعتبار أنها مأخوذة عن نص يعتبر أقدم النصوص المنسوخة عن الحولية الأصلية • وقد قام بعض المؤرخين المجهولين بوضع تكملة لحولية ثيوفانس في ستة مجلدات تتناول أخبار الامبراطورية البيزنطية حتى سنة ٩٦١ • ويبدو أن هذه التكملة قد وضعت بناء على أوامر الامبراطور قسطنطين بروفيروجونيت ليتمكن من أن يحصل على سجل كامل للأحداث التي مرت بالأمبراطورية منذ نشأتها أيام ديوقليسيان حتى حكمه • وقد طبعت حولية ثيوفانس عدة طبعات ، كما أن لتكملتها طبعات عدة أيضاً •

أما نقفور فقد كان بطريركاً للقسطنطينية منذ سنة ٨٠٦ حتى قيام أزمة الأيقونات سنة ٨١٥ • وقد كتب عدداً من الكتابات الدينية وكتاباً تاريخيا يغطي أحداث الفترة الواقعة بين سنتي ٦٠٢ ــ ٧٦٩ • وأهمية هذا الكتاب التاريخي تعود لكونه اعتمد على نفس المصادر المجهولة بالنسبة الينا التي اعتمد عليها ثيوفانس من قبل • فأخباره مقتضبة ولكنها ذات أهمية تاريخية بالغة وتتصف بالحياد والموضوعية بشكل عام • ولا ينطبق هذا الوصف على الملخص المرتب حسب السنين الذي وضعه للاحداث التي وقعت بين ظهور آدم وعام ٨٢٩[1] وذلك لأن هذا الملخص تختلط فيه الحقائق بالأساطير ولا يمكن الركون الى صدق ما يرد فيه من تواريخ •

---

(١) وهو عام وفاة نقفور •

وتستكمل المعلومات التاريخية المتعلقة بهذه الفترة من كتابات المؤرخين الشرقيين كالأرمن ، الذين اعتنى بعضهم بتدوين فترة حكم هيراكليوس وحروبه مع الفرس ، وذلك لأن الارض الارمنية كانت ميدان هذه المعارك ، والمصريين والسريان والسوريين ، الذين كانوا جميعاً من رعايا الدولة البيزنطية وكانت أرضهم مسرحاً لأحداث تاريخها .

ولا بد من أجل التاريخ الكنسي لهذه الفترة من الاستعانة بمقرارات المجامع الكنسية وكتابات آباء الكنيسة وعلى رأسهم ماكسيموس المعترف ، وهذه الكتابات متوفرة بكثرة وتساعد على رسم صورة قريبة من الكمال لكل ما يتعلق بشؤون العقيدة . وعلى العكس من ذلك ، فان معلوماتنا عن النواحي التشريعية والاقتصادية قليلة ولا يجد الباحث ما ينفع غلته الى المعرفة الدقيقة . ويبدو أن النشاط القانوني الذي عاشته بيزنطة زمن جستنيان قد خمد بعض الشيء في الفترة التالية وهكذا قل الاهتمام به من قبل المؤرخين .

مؤرخو عصر الصراع من أجل الأيقوتات (٧١١ ـ ٨٤٣) . ـ

تعتبر حوليات المؤرخين ثيوفانس ونقفور اللذين أشرنا اليهما في الفقرة السابقة ضرورية جداً وأساسية بالنسبة لدراسة هذه الفترة الجديدة من التاريخ البيزنطي . فكلا المؤرخين يتعرض بالبحث لأزمة الأيقونات ومن وجهة نظر ودية للايقونات ، ولا سيما ثيوفانس الذي كان من أنصارها المتحمسين . وفي خلال حكم الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ ــ ٨٦٧) ظهر المؤرخ **جورج الراهب** الذي كتب حولية عالمية تتناول بالبحث أحداث العالم منذ القديم حتى زمنه ، وتولى أزمة الأيقونات عناية خاصة . وتنتهي حولية جورج الراهب بأحداث عام ٨٤٢ ، وهي مثل ممتاز عن النظرة الدينية للاحداث التاريخية . ولا أهمية لهذه الحولية بالنسبة لأحداث ماقبل عام ٨١٣ لان مؤلفها ينقل عن ثيوفانس ، أما بالنسبة للفترة بين ٨١٣ ــ ٨٤٢ فهي هامة جدا لأن مؤلفها يكتب عن أحداث

عاصرها وشاهد بعضها بأم عينه .

وتصح هذه الملاحظة أيضاً على حوليـة المؤرخ **سيمون لوغوثيت** الذي نقل أيضا عن ثيوفانس في الجزء الأول من حوليته ، وأرخ في الجزء الأخير منها أزمة الأيقونات كما عاشها أو سمعها ممن عرفوها عن قرب . ولوغوثيت من مؤرخي القرن العاشر الذي كانت أخبار أزمـة الأيقونات ماتزال رائجة في عصرهم ، وحوليته العالمية كانت من الأهمية بحيث نقل عنها الكثيرون من المؤرخين الذين عاصروه أو أتوا بعده . وقد ترجمت هذه الحولية الى اللغة السلافية منذ القديم لأهميتها وشهرتها . وقد جاء بعد لوغوثيت مؤرخون آخرون اهتموا بأخبار أزمة الأيقونات في دورها الثاني ، كما اهتموا بأخبار الأباطرة ومعاركهم ضد البلغـار وغيرهم من الشعوب الغازية . والمهم في أمر هؤلاء المؤرخين أن أكثرهم كتب عن حوادث عاصرها أو اشترك فيها ، ولذلك جاءت كتاباتهم على درجة عالية من الدقة والوضوح ، وليس على المؤرخ المحدث الا أن يحاول تنقيتها من أدران الهوى والعواطف الشخصية والأحكام المبنية على الميول والأهـواء الخاصة .

ولا يستطيع المرء أن يغفل ذكر المصادر العربية والمؤرخين العـرب المسلمين في حديثه عن المؤرخين الذين دونوا أحداث هذه الفترة مـن التاريخ البيزنطي ، وذلـك لما ساهمت به كتاباتهـم من ايضاح لبعض الجوانب الغامضة من هذا التاريخ ولا سيما في مجال العلاقات العربية ـ البيزنطية . وعـلى رأس هـؤلاء المؤرخـين العـرب والمسلمين : **الطبـري وابن الاثير وابن خـرداذبة وقـدامة بن جعفر وابن الفقيه** وغيرهم (١) .

---

(١) راجع سيرة هؤلاء المؤرخين في الفصل المخصص للمؤرخين العرب والمسلمين .

وتجدر الملاحظة بأن مؤرخي هذه الفترة كانوا غير حياديين في معالجتهم لأزمة الايقونات ، وأن غالبيتهم كتبت ما كتبت وهي تحت تأثير عواطفها المؤيدة للأيقونات وشهدائها الذين اعتبروهم في مصاف القديسين. ولذا نجد المؤرخين الكنسيين لهذه الفترة يدبجون الصفحات الطوال في تمجيد الذين ماتوا من رجال الكنيسة ، ويصفون أعمالهم وأخبارهم بحماس شديد . على أن هناك جانباً ايجابيا يجعل كتابات المؤرخين الكنسيين ذات قيمة بالنسبة لهذه الفترة . ويتمثل هذا الجانب الايجابي في الكتب المخصصة لسير حياة البابوات التي تتضمن الكثير من المعلومات عن هؤلاء البابوات وأعمالهم في حقل العلاقات بين روما وبيزنطة مما يلقي ضوءاً على ناحية أساسية من نواحي التاريخ السياسي البيزنطي وهي ناحية العلاقات بين شقي الامبراطورية الشرقي والغربي . هذا فضلاً عن أن بعض هذه الكتب يتضمن الكثير من الرسائل التي كان يتبادلها البابوات مع الأباطرة والتي هي في الحقيقة وثائق هامة لدارس هذه الفترة .

أما فيما يتعلق بالقضايا التشريعية ، فان أهم ما يمكن الرجوع اليه هو الايكلوغا التي نشرها الامبراطور ليون الثالث سنة ٧٢٦ ، وأصبحت مصدراً أساسياً من مصادر التشريع في هذه الفترة .

مؤرخو العصر الذهبي للامبراطورية (٨٤٣ ــ ١٠٨١) . ــ الى جانب المؤرخين ، الذين ذكرناهم في الفقرة السابقة والذين تشمل كتبهم أخبار الجزء الأول من هذه الفترة ، ظهر في هذا الدور مؤرخون جدد عالجوا موضوعات التاريخ المحلي والعلاقات الخارجية بروح علمية وتفصيل وافٍ دقيق . وقبل أن نستعرض أسماء بعض هؤلاء المؤرخين وأعمالهم، لا بد لنا من الاشارة الى أن كتابات كل من المؤرخين سيمون لوغوثيت وثيوفانس اللذين تحدثنا عنهما آنفاً كانت الأساس الذي اعتمده مؤرخو

هذه الفترة وانطلقوا منه ليؤرخوا الفترة الجديدة . فحولية سيمون لوغوثيت التـي تعالج الأحـداث حتى وفـاة الامبراطور رومانوس ليكابينوس سنة ٩٤٨ استعملت من قبـل مؤرخين مجهـولين ادعوها لأنفسهم وأضافوا اليها بعض اضافات تتعلق بأخبار القرن الحادي عشر. وكذلك حولية ثيوفانس فقد استعملت بنفس الأسلوب وأضيف عليها ما يتعلق بالفترة الجديدة . ولم يظهر مؤرخون مُجددون حتى نهاية القرن العاشر ، فحوالي سنة ٩٩٢ كتب **الأسقف ليون** تاريخاً في عشرة أجزاء عالج فيه أحداث الفترة الواقعة بين سنتي ٩٥٩ ــ ٩٧٦ ، واهتم بشكل خاص بانتصارات الامبراطورين نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكس العسكرية . وقد سار في تاريخه على نهج المؤرخ أغاثياس الذي ينمق الأحداث ويضفي عليها بعض البهرج اللفظي ليبرزها بشكل مؤثر .

على أن أشهر مؤرخي القـرن الحادي عشر هو **ميخائيل بزيللوس** الذي عاش بين سنتي ١٠١٨ ــ ١٠٧٨ : وقد ولـد في نيكوميديا أو القسطنطينية من أسرة شريفة يعمـل أفرادها في السلك القنصلي . وفي حكم قسطنطين موتوماكوس (١٠٤٢ ــ ١٠٥٤) علا نجم بزيللوس كثيراً وأصبح من كبار رجال الدولة

وفي عهد الامبراطور اسحاق الأول كومنين أصبح مستشاراً في القصر الامبراطوري ، واستمر في اشغال هذا المنصب زمن الامبراطور ميخائيل الســابع دوكاس . ويعتبره الكثيرون أكبر علمـاء عصره وأصفاهم تفكيراً ، كما يعتبرونه السيد الذي لا ينازع في ميدان الكتابة التاريخية . وقد كتب تاريخاً مشهوراً عرف باســم الـ كرونوغرافيـا Chronographia وهو عبارة عن مذكرات تتناول الأحـداث التي جرت في العصور الوسطى بشكل وصفي فيه الكثير من الدقة وبعد النظر والتحليل الصائب للأمور . وباعتبار أن بزيللوس كان من كبار رجال الدولة فانه لم يكن على صلة بالأحداث عن قرب فحسب ، بل كان

أيضاً من الذين شاركوا في صنعها . وفي هـذا ما يفسر انحيازه في تاريخه الى جانب دون جانب في بعض الاحيان ، لأنه دون شك كان يحاول أن يبرر الاعمال التي قام بها حين كان مسؤولاً في الدولة . ويقـع تاريخ بزيللوس في قسمين ، كتب القسـم الاول بين سنتي ١٠٥٩ ـ ١٠٦٣ بناء على تشجيع رجل من اصدقائه المسؤولين وبحث فيه تاريخ الفترة منـذ بازيل الثـاني حتى تنازل اسحاق كومنين عن العرش . وقد عالج عصر بازيل الثاني باختصار ، أما ما تلاه من أباطرة فقد عالجهم بتوسع ولا سيما الامبراطور ميخائيل الخامس (١٠٤١ ـ ١٠٤٢) وذلك لأنه كان يشغل في هذا الوقت منصب مستشار الامبراطور وكان على صلة مباشرة بالحوادث . أما القسم الثاني وهو القسم الذي يعالج فيه حكم آل دوكاس (١٠٥٩ ـ ١٠٧٨) فقد كتبه بناء على طلب الامبراطور ميخائيل السابع . وفي هذا تفسير لما يخالط هذا القسم من انحياز ظاهر لهـذا الامبراطور ومديح له ولأعماله . ولبزيللوس الى جانب تاريخه الذي تحدثنا عنه عـدد كبير من الرسائل والخطب والكتب الصغيرة التي تعتبر من المصادر الهامة بالنسبة لهذه الفترة من التاريخ البيزنطي .

ومن مؤرخي هذه الفترة أيضا المؤرخ ميخائيل أتَّا ليتس الذي كان يشغل منصباً هاماً في القصر الامبراطوري أيضاً والـذي كتب تاريخاً يعتبر وثيقة شاهد عيان عن الفترة بين سنتي ١٠٣٤ ـ ١٠٧٩ . والفرق بينه وبين بزيللوس أن بزيللوس كان من أنصار الحزب المدني في الدولة ، في حين أن أتَّا ليتس كان من أنصار الحـزب الاقطاعي العسكري وقدم عمله الى الامبراطور نقفور الثـالث الذي كان في الأصـل قائداً عسكرياً كبيراً وتوصل الى العـرش وحكم بين سنتي ١٠٧٨ ـ ١٠٨١ . وقد بدأ نجم أتاليتس بالصعود منذ زمن الامبراطور رومانوس ديوجين (١٠٦٨ ـ ١٠٧١) وأخـذ يصبح ذا صلة أوثق

بأحداث الدولة • ولذا نلاحظ أن أهمية تاريخه تزداد اعتباراً من هذه الفترة وتأخـذ أخباره شكل رواية الشاهد العيان الذي يتحدث عن أشياء شارك فيها بنفسه وكان له في بعضها دوراً رئيسياً • وقد نقل عن أتّا ليتس مؤرخون عديدون جاؤوا بعده كما نقل عن زميله بزيللوس آخرون أيضاً وذلك لأن هذين المؤرخين كانا الى جـانب مشاركتهما ومعاصرتهما للاحداث معروفين بنزاهتهما ودقتهما العلمية •

وهناك معلومات ذات أهمية بالغـة بالنسبة للدراسـات الادارية والقانونية والمالية والزراعية المتعلقة بهذا العصر في كتاب يعرف باسم بـيرا Peira ألفه فاضل مشهور هو القاضي روميوس ووصلنا عن طريق أحد اتباعه الذين أخذوا عنه المعلومات القانونية وذلك حوالي سنة ١٠٣٤ • أما ما يتعلق بالقضايا الدينية والخلافات المـذهبية بين الكنائس المختلفة فهو متوفر بكثرة في كتابات الآباء الكنسيين ووثائق المجامع الدينية التي عقدت في هذه الفترة •

مؤرخو فترة حكم الارستقراطية العسكرية (١٠٨١ ــ ١٢٠٤) • ــ تعتبر فترة حـكم آل كومنين من أخصب فترات الكتابة التـاريخية البيزنطية وذلك بفضل كتابات أتّا كومنينا ويوحنا سينّاموس ونيسيتاس كونياتس •

كانت أتّا كومنينا من أذكى وأكثر بنات عصرها ثقافة ، وهي الابنة الكبرى للامبـراطور الكسيوس الأول (١٠٨١ ــ ١١١٨) • وقـد استطاعت في كتابها التاريخي المسمى باسم Alexiad نسبـة الى أبيهـا الكسيوس أن ترسم صورة رائعة لحياة أبيها الامبراطور منذ ولادته حتى وفاته وأن تشرح احداث الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٦٩ ــ ١١١٨ شرحاً يفي بغرض المؤرخ من جميع النواحي • وقد كتبت تاريخها بلغة صعبة وأسلوب معقد هما نتيجة للثقافة الكلاسيكية التي تلقتـها

هذه الاميرة في قصر أبيها والتي كانت تتألف من دراسة للتاريخ والشعر والفلسفة اليونانية القديمة • وتعتبر أنّا كومنينا ممثلة حقيقية لثقافة عصرها وللنزعة الانسانية التي كانت تسود الفكر البيزنطي في هـذه الفترة ، كما تعد كتابتها التاريخية مصدراً أساسياً من مصادر التاريخ البيزنطي اذ انها المنبع الوحيد الذي نستقي منه معلوماتنا عن الفترة الهامة التي شهدت اعادة مجد الامبراطورية واجتماع بيزنطة والعـالم المسيحي الغـربي في الحملة الصليبية الأولى والصراع مع النورمان وقبائل منطقة السهوب Steppes في الشمال والشرق • وما نلاحظه في الألكسياد من أخطاء في بعض التواريخ وميل لطمس بعض الاخطاء التي وقع فيها الامبراطور الكسيوس ، ما هي ان هفوات بسيطة لا تقلل من قيمة هـذا المؤلف سيما اذا ما ذكرنا الكنز الواسع من المعلومات التي استطاعت المؤلفة أن تجمعها في كتابها وذلك بفضل مركزها الرفيع كابنة للامبراطور وضعت تحت تصرفها جميع الوسائل التي تحتاجها لتدوين تاريخ يتعلق بفترة عاش فيها أبوها • كما يجب ألا نغفل النهم العلمي والصبر على تقصي الحقائق الذي كانت تتمتع به المؤلفة والذي جعل من كتابها نموذجاً حسناً للكتاب التاريخي في القرون الوسطى • والطريف في أمر أنّا كومنينا أن زوجها القيصر نقفور برينيوس كان مؤرخاً أيضاً وله كتاب في التـاريخ لم يتم ، ولكنه لا يقارن بكتاب زوجته • وكتاب برينيوس هـذا يعالج باختصار تاريخ اسرة كومنين منذ اسحاق كومنين وحتى زمن رومانوس الرابع ، وبعد عصر هـذا الامبراطور يعالج المؤلف موضوعاته بتفصيل أكبر ويقف عند منتصف حكم الامبراطور نقفور الثالث •

وكما يعتبر الألكسياد المصدر الرئيسي لعصر الامبراطور الكسيوس الاول ، فان تاريخ يوحنا سينامّوس هو المصدر الاول من أجل عصر الامبـراطور مانويل الاول (١١٤٣ ـ ١١٨٠) ، وكذلك فان تاريخ

نيستاس كونياتس الى جانب كونه يعالج هذا العصر فانه يعالج أيضاً أخريات أيام اسرة كومنين واسرة انجيلي • وبالرغم من أن كلاً من سينّاموس ونيسيتاس يبدءان تواريخهما بسوت الكسيوس الاول فانهما يعالجان فترة حكم يوحنا الثاني (١١١٨ ـ ١١٤٣) باختصار شديد وذلك لانهما يعتبرانه مقدمة للفترة التي يريدان بحثها • وقد نتج عن هذا الموقف أن معلوماتنا عن فترة حكم يوحنا الثاني على ما لهـا من أهمية قليلة جدا وأقل بكثير مما نعرفه عن سلفه وخلفه • ولد المؤرخ يوحنا سينّاموس بعيد سنة ١١٤٣ من أبوين ارستقراطيين وعمل فيما بعد سكرتيراً للامبراطور مانويل • وقد بدأ بكتابة تاريخه بعد موت هذا الامبراطور بفترة قصيرة ، ولم يصل الينا النص الاصلي له وانما وصلتنا نسخة وحيدة عنه يعود تاريخها الى القرن الثالث عشر نسخ عنهـا ناسخون فيما بعد ولا سيما في القرنين السادس والسابع عشر • ويبدو أن هذه النسخ جميعاً ليست صورة صحيحة عن الاصل وانما هي اختصار له • أما نيسيتاس ، وهو أصغر سناً من سينّاموس ، فقد ولد في فريجيا وبدأ حياته أيضاً كسكرتير في القصر الامبراطوري ولكنه استطاع زمن اسرة انجيلي أن يرتقي سلم المناصب العليا وأن يصبح من كبار رجال الدولة • وتاريخه يمتد حتى سنة ١٢٠٦ وقد أنهاه في نيقية بعد سقوط القسطنطينية • ان لكل من تاريخ سيناموس ونيسيتاس طابعاً خاصاً يميزه عن الآخر وهما في الاجمال غير متشابهين ولا يسيران في نفس الاتجاه ، فطريقة سيناموس تتميز بالمعالجة المباشرة للموضوع دون مقدمات أو ممهدات فهو بهذا الشكل يطرق ما يريد دون أن يمهد للوصول اليه ويقتصد في العرض قدر ما يستطيع •

أما نيسيتاس فيشتهر بالوصف المطول المنمق الـذي يجعله أشهر مؤرخي بيزنطة في عصرها الوسيط بعد ميخائيل بنريللوس • ومن ناحية اخرى فقد كان كل من سينّاموس ونيسيتاس يونانياً شديد الاخلاص

ليونانيته ، وحين كتبا عن الامبراطور مانويل الاول الذي كان ذا ميول غربية واضحة فانهما أظهرا كرههما للاتين وعبرا بذلك عن الروح الوطنية البيزنطية التي كانت تناصب الغرب اللاتيني العداء . ولا بد لنا هنا من أن نذكر أن كلا المؤرخين كان موضوعياً وحيادياً فيما كتب مما جعلهما موضع ثقة الذين جاءوا بعدهما ونقلوا عنهما . وهناك ملحق قصير لتاريخ نيسيتاس كونياتس يصف التماثيل التي خربت في القسطنطينية على يد اللاتين سنة ١٢٠٤ .

الى جانب المصادر البيزنطية التي تبحث في تاريخ هذه الفترة هناك مصادر لاتينية عديدة لها أهميتها فيما يتعلق بموضوع العلاقات بين بيزنطة والعالم اللاتيني الغربي الذي كان يعاصرها ، ولا سيما فيما يتعلق بالحملات الصليبية المشتركة ، وسنعرض لهذه الاسماء مثل فيلهاردون وروبير كلاري وغيرهما في الفصل القادم . كما أنه مهم أيضاً أن نذكر أن الكتابات والمراسلات التي تنسب الى مؤلفين بيزنطيين تشكل رافداً أساسياً لكتب التاريخ . ويدخل في هذا الباب طبعاً الوثائق الامبراطورية والكنسية ونصوص المعاهدات وقرارات المجامع الدينية وغيرها مما يتعلق بشؤون الادارة والجيش والدوائر المالية وغيرها .

مؤرخو فترة الحكم اللاتيني وسقوط الامبراطورية البيزنطية (١٢٠٤ ـ ١٤٥٣) . ـ ان بداية فترة الحكم اللاتيني تدخل ضمن نطاق تاريخ نيسيتاس كونياتس الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة والذي عالج في هذا التاريخ السنوات الاولى من الفترة الجديدة . ويعتبر المؤرخ جورج أكروبوليتس الذي عاش بين سنتي ١٢١٧ ــ ١٢٨٢ المؤلف الاول بالنسبة لهذه الفترة . وقد بنى اكروبوليتس شهرته كمؤرخ وكرجل دولة في وقت واحد ، وبلغ من شهرته العلمية أن عهد اليه الامبراطور بتثقيف وتنشئة ولي العهد ثيودور الثاني لاسكاريس .

وعن طريق صلته بولي العهد استطاع أن يفرض وجوده في القصر الامبراطوري وبالتالي أن يصل الى منصب رفيع في البلاط والدولة معاً. وقد عهد اليه الامبراطور ميخائيل الثامن أن يمثله في مجمع ليون الذي عقد في تموز سنة ١٢٧٤ في مدينة ليون والذي وقع فيه اكروبوليتس باسم الامبراطور اتفاقاً مع ممثل البابا يعترف فيه الامبراطور ميخائيل بسيادة البابا الدينية على الكنائس البيزنطية وبوحدة العقيدة لكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما ، وهكذا تحققت وحدة دينية في العالم المسيحي ، دام الصراع من أجلها أكثر من قرنين . وهكذا فقد كان أكروبوليتس على صلة وقرب من احداث عصره واستطاع أن يشاهد ويشارك بنفسه في كثير من الامور . وقد أتاحت له هذه الصلة القريبة بالاحداث أن يدون تاريخاً يتضمن الكثير من التفاصيل والاخبار عن الفترة التي تمتد بين احتلال اللاتين للقسطنطينية حتى استعادة البيزنطيين لعاصمتهم ، أي الفترة بين سنتي ١٢٠٣ — ١٢٦١ . ولأكروبوليتس غير هذا التاريخ كتابات اخرى لها أهميتها ، ولعل اشهرها الخطبة التي القاها في الاحتفال بدفن الامبراطور يوحنا الثالث ڤاتاتزيس التي تتضمن الكثير من المعلومات التاريخية .

وقد تابع المؤرخ جورج باكيميرس عمل اكروبوليتس في الكتابة التاريخية . ويعتبر علماء التاريخ البيزنطي اليوم باكيميرس أعظم رجال الفكر البيزنطيين في القرن الثالث عشر . ولد باكيميرس سنة ١٢٤٢ وتقلب في مناصب عدة وتوفي حوالي سنة ١٣١٠ . وقد الف تاريخاً يبحث في احداث الفترة الممتدة بين سنتي ١٢٥٥ — ١٣٠٨ . وتاريخه هو المصدر الوحيد الذي يغطي أخبار عصر الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوغ الذي حدثت فيه احداث كثيرة وخطيرة . ويتصف اسلوب باكيميرس بالاسهاب والتفصيل وبالانحياز الواضح لوجهة النظر الاورثوذكسية اليونانية وبكرهه الشديد لكل نوع من أنواع الاتحاد

مع روما • كما أنه يغتنم كل فرصة لينخرط في مناقشات دينية وليبين وجهة النظر الدينية التي يعتنقها • وهـذا الاتجاه نحو اقحام الامور الدينية في الكتابات التاريخية لم يكن من صفات باكيميرس وحده ، بل لازم كتابات اغلب المؤلفين البيزنطيين في فترة حكم اسرة باليولوغ •

وقد جـاء بعد باكيميرس مؤرخون آخرون أكملوا فترة الحكم اللاتيني ، ونخص بالذكر منهم العالم الموسوعي نقفور غريغوراس الذي بحث الفترة الممتدة بين سنتي ١٢٠٤ ـ ١٣٥٩ والذي يعتبر تاريخه تكملة أساسية لتاريخي اكروبوليتس وباكيميرس ، وسنقف عنده وقفة أطول بعد قليل • أما بالنسبة للنواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية أثناء فترة الحكم اللاتيني فالمصادر كثيرة وأهمها الكتابات الدينية ومراسلات رجال الكنيسة ووثائق المجامع والمؤتمرات الدينية ونصوص المعاهدات والمراسلات الامبراطورية والحكومية والتشريعات وغير ذلك من وثائق لهـا دور هام في القاء أضواء على النواحي التي ذكرناها •

أما فيما يخص الفترة التي اعقبت فترة الحكم اللاتيني وهي الفترة التي يدعوها المؤرخون عادة باسم عصر التدهور والسقوط فهنـاك زمرتان من المؤرخين لا بد من من الاعتماد عليهمـا اعتماداً أساسياً • وتتألف الزمرة الاولى من المؤرخين : جورج باكيميرس ونقفور غريغوراس ويوحنا كانتاكوزين •

ولن نضيف على ما قلناه عن باكيميرس آنفاً سوى أن مؤلفه مهم جداً بالنسبة لعصر الامبراطور اندرونيكوس الثاني كما هو مهم بالنسبة لعصر ميخائيل الثامن ، أي أن فاتحة هذا العصر معالجة جيدة ووافية في تاريخ باكيميرس • أما تاريخ نقفور غريغوراس الذي دعاه باسم « التاريخ الروماني » فهو المصدر الاساسي الذي يتصف بكل صفات

الدقة والذي لا يستغني عنه باحث في هـذه الفترة • وتسمية المؤلف لتاريخه باسم « التاريخ الروماني » دليـل على وعيه لأهمية العنصر الروماني في الجسد البيزنطي وشعوره بالصلة التي لم تنقطع بين روما والقسطنطينية في أكثر من مجال ومظهر • ويبحث « التاريخ الروماني» في احداث الفترة الممتدة بين سنتي ١٢٠٤ ــ ١٣٥٩ كما ذكرنا آنفاً ، وهو مقسم الى سبعة وثلاثين كتاباً أو جزءاً •

وقد عالج المؤلف أخبـار السنوات ١٢٠٤ ــ ١٣٢٠ في حوالي سبعة أجزاء فقط ، وخصص الاجزاء الثـلاثين الباقية للفترة الثـانية (١٣٢٠ ــ ١٣٥٩) ، أي الفترة التي كان فيها غريغوراس شخصاً له أهميته يطلع على الاحداث ويعايشها ويشارك فيها • ولهذا جاءت أخبار هذه الفترة الثانية مفصلة الى حد يدعو الى الاعجاب والدهشة •

ولد نقفور غريغوراس حوالي سنـة ١٢٩٠ أو ١٢٩١ وعاش حتى بلغ السبعين من عمره (مات حوالي سنة ١٣٦٠) ، وهو بحق من أشهر رجالات بيزنطة في القرن الرابع عشر ومن أكبر علمائهـا في مختلف القرون • ويتميز غريغوراس بأنه لم يكن مؤرخاً فحسـب ، بل مؤلفاً في مختلف حقول المعرفة في عصره • ويتميز تاريخه بأنه حافل بالاخبار والمعلومات لا في الحقل السياسي فحسب بل في حقول التشريع والادارة والاقتصاد التي لم يكن يحفل بها غيره من مؤرخي القرون الوسطى لا في بيزنطة ولا في غيرها بالمقدار الكافي • وعرضه لمعلوماته عرض جيد ويمكن الاعتماد عليه والاطمئنان اليه • وقد حافظ على هذا الموقف الا حين تحدث عن أزمة الرهبان الساكنين Hesychasts [1] ، فانه

---

(١) رهبان تعود اصولهم الى القـرن الحادي عشر ، وقد انتشرت طريقتهم التي تهدف رؤية النور المقدس بشكل واسع في القرن الرابع عشر . وكان اتباع هذه الطريقة يجلسون في عزلة تامة ويضعون ذقونهم

تخلى عن موضوعيته وكان قاسياً في هجومه عليهم لأنه كان من ألد أعداء هذه الطريقة ، فشنع عليهم تشنيعاً اخرجه عن وقاره وحياده وطريقته العلمية الدقيقة . ولم يكن تاريخه هو الاثر الوحيد الذي يهم تلامذة التاريخ البيزنطي ، بل له عدد كبير من الرسائل تعتبر مادة تارخية هامة لا يستغني عنها باحث في هذه الفترة . أما التاريخ الشهير الذي وضعه الامبراطور يوحنا السادس كاتاكوزين (١٣٤١ - ١٣٥٤) والذي يعتبر مؤلفه من مؤرخي هذه الزمرة الاولى التي تتحدث عنها فهو عبارة عن سجل للاحداث يبتدىء باعتلاء الامبرطور اندرونيكوس الثالث العرش سنة ١٣٢٠ وينتهي بأخبار السنوات القليلة التي تلت تنازل المؤلف نفسه عن سلطاته كامبراطور . فتاريخ كاتا كوزين اذن هو نوع من المذكرات الشخصية التي يضعها رجل دولة متقاعد ويحاول أن يبرر فيها أعماله ويوجد الاعذار لما اتهم به من أخطاء . وتعتبر محاولات الامبراطور المؤرخ لاظهار أعماله أثناء امبراطوريته بمظهر من الاهمية والعظمة ، السيئة الاساسية التي يتصف بها تاريخ كاتاكوزين مما يضطرنا لأن نعامل الاخبار الواردة فيه بحذر ودقة . على أن هذا لا يعني ان اخباره كلها لا تستحق الثقة بها أو الاعتماد عليها ، فهو في كثير من النواحي ثقة ولا سيما حين يسرد احداثاً مجردة لا علاقة له بها أما ما يجب أن يحترس منه فهو تفسيراته للاحداث وتعليقاته عليها التي لا تخلو من ميل وهوى واضحين .

أما الزمرة الثانية من مؤرخي هذه الفترة فتتألف من مؤرخين كتبوا تواريخهم بعد سقوط الامبراطورية واشهرهم : كالكوكونديلس

على صدورهم ويصوبون بصرهم الى صرتهم ويرددون صلاة تقول : ارحمني ، ايها الرب يسوع ، يا ابن الاله ؛ وبعد فترة من الدعاء يشرق عليهم النور الالهي على شكل اشعة تحيط بهم من جميع الجهات .

ودوكاس وفرانتزيس وكريتوبونس • ويعتبر الاثيني كالكوكونديلس من أفضل مفكري عصر النكبة • وقد تأثر بالمؤرخين اليونان القدماء كهيرودوت وتوكيديدس واتخذهما مثالاً يحتذيه ، لذلك بدأ تاريخه باستعراض عام مختصر لأخبار التاريخ العالمي منذ الآشوريين حتى الايام الاولى لقيام دولة آل عثمان ، ثم صرف همه لوصف الفتح العثماني للقسطنطينية والاصوات التي أدت الى سقوط عاصمة البيزنطيين بيد محمد الفاتح • وينهي تاريخه بأخبار سقوط ليمنوس سنة ١٤٦٣ • ويبدو أنه كتب كتابه حوالي سنة ١٤٨٠ وكان متأثرا جدا بالاحداث العظيمة التي قبلت موازين القوى في العالم ونقلت الانسانية من عصر الى عصر • وسرد كالكو كونديلس للاخبار سرد موفق يحمل دلالة أكيدة على موهبة فذة وفكر تاريخي ثاقب ، رغم ما فيه في بعض الاحيان من خلط في التواريخ وفهم مغلوط لبعض الحقائق • وتجدر ملاحظة أن هذا المؤرخ بنتيجة كونه رجل فكر وثقافة الى جانب كونه من المشتغلين بالتأريخ فقد بهره وطغى على تفكيره ما يتضمن سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين من معاني وجاء كتابه لا ليبحث بسقوط بيزنطه بقدر ما جاء ليظهر الدلالات التي ينطوي عليها صعود العثمانيين سلم المجد واحتلالهم مركز القوة في الوسط الدولي • وبهذا المعنى ، يعتبر تاريخ كالكو كونديلس عملاً فريداً بين أعمال غيره من المؤرخين البيزنطيين اذ أنه أول بيزنطي يكتب عن أمة غريبة عدوة بروح من الاعجاب والاستسلام • وقد قضى كالكو كونديلس سنوات عديدة في بلاط حاكم مقاطعة الموريا ، وكانت حصيلة هذه الاقامة الطويلة والصلة المباشرة أنه استطاع أن يقدم لنا سجلا مفصلا للأحداث التي جرت في منطقة البيلوبونيز والتي كانت حاسمة بالنسبة لبيزنطة في القرن الخامس عشر •

أما المؤرخ دوكاس الذي ظل يعمل مدة طويلة فيخدمة امارة جنوا ،

فقد كان لتاريخه ميسم مختلف • فهو مثــلا بعكس كالكو كونديلس العالي الثقافة ، يكتب بلغة يونانية فيهـا الكثير من العامية المحلية • ويشمل تاريخ دوكاس الاحــداث التي مرت حتى سنة ١٤٦٢ وتتصف أخباره بالصدق وبالوصف الحي المعبر الذي يضفي على الرواية التاريخية قوة درامية مؤثرة تتمثل خير تمثيل في وصفه المسهب لأخبار سقوط القسطنطينية •

ودوكاس كسلفه يستهل تاريخه بموجــز سريع يستعرض فيــه التاريخ العــالمي ، ولكن أهمية الكتاب لا تبدأ الا حين يعالج حكم الامبراطور يوحنا كانتا كوزين سنة ١٣٤١ والاحداث التي تلت • وفي الكتاب تفاصيل كثيرة عن اعتــلاء السلطان العثماني بيازيد العرش سنة ١٣٨٩ ، وله طبعة قديمة باللغة الايطالية اكملت فيها جميع الفجوات التي كانت موجودة في النص الاصلي •

أما تاريخ فرانتزيس فهو من نوع آخــر اذا انه في الاصل كان لا يعالج الا فترة محدودة جداً لا تشمل الا السنوات ١٤١٣ ــ ١٤٧٧ ، ولكن المؤلف وسعه فيما بعد وجعله يبدأ بحكم اسرة باليولوغ ويشمل الاحداث حتى سنة ١٤٧٧ • وكان فرانتزيس صديقاً للاسرة الامبراطورية ومن كبار رجال الدولة زمن الاباطرة الثلاثة الاخيرين من أسرة باليولوغ ، وقد جعلته هــذه الصفات يقف في تاريخه موقفاً مغايراً تماماً لموقف زميليه السابقين ، فهو في تاريخه وطني بيزنطي متحمس يحس بأحاسيس أمته التي اصيبت بكارثة فظيعة ويدافع عن وجهة نظرها بعكس دوكاس مثلاً الذي كان صديقاً للجنويين و كالكو كونديلس الذي يكتب عن العثمانيين بحماس واعجاب • وهو أيضا يختلف عن دوكاس في أنه كان لا يقبل بوجهة نظر هــذا الاخير الذي كان يعتقد بوجوب وحــدة الكنيستين البيزنطية والرومانية ، وكان عــداؤه للاتين لا يقتصر على الميدان السياسي فحسب ، بل يشمل أيضا الميدان الديني • وهو واقعي

في سرده للروايات الى حـد بعيد ويهتم اهتماماً خاصا بدقة التواريخ التي يذكرها ، واسلوبه في تقديم المعلومات اسلوب وسط بين اسلوب كالكوكونديلس المتقعر الصعب واسلوب دوكاس الذي هو أقرب الى الاسلوب الصحفي في أيامنا هذه .

ويجدر بنا أن نشير الى أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة الذين عاصروا بعضهم وعاشوا في نفس الفترة تقريبا يعتبرون مكملين لبعضهم البعض سواء من حيث المادة التي تحويها تواريخهم وسواء من حيث تفسيرهم للاحداث ومواقفهم الفكرية من القضايا الكبرى التي يعالجونهـا . ويظل دوكاس اقربهم الى الدقة العلمية واكثرهم اهتماماً بالتفتيش عن الحقيقة . ويرفد كتابات هؤلاء الثلاثة ويجلي بعض غوامض ما أرخوا تاريخ رابع هذه الزمرة المؤرخ كريتوبولس ، فاذا كان كالكوكونديلس قد ذهب الى حد جعل الدولة العثمانية مركز اهتمامه والنقطة التي يدور حولها بحثه ، فان كريتوبولس قد سبقه بأشواط في هذا الميدان ولم ير مانعاً من أن يكتب تاريخا خاصا بالسلطان محمد الثاني ، رغم أنه كان من كبار رجال الارستقراطية اليونانية التي طعنت طعنة نجلاء حين فتح العثمانيون القسطنطينية وسقطت صرعى بين ايديهم . وفي هذا التاريخ يحتل حادث فتح القسطنطينية واخبار السنوات ١٤٥١ ــ ١٤٦٧ مكانا بارزا لا من حيث التفاصيل فحسب ولكن من حيث العواطف الجياشة والحماس المتأجج رغم انه لم يكن شاهد عيان للحادث كفرانتزيس مثلا.

وهكذا نستطيع القول ان المؤرخين الذين عالجوا فترة الحـكم اللاتيني وعصر التدهور والسقوط قد زودونا بمعلومات كاملة نستطيع أن نرسم معها صورة قريبة الى الواقع تشرح لنا الاحداث السياسية بتعاقبها وتلاحقها. واذا كانت الصورة السياسية شبه كاملة اليوم بالنسبة لهذه الفترة فان الصورة الادارية والتشريعية والدينية والاقتصادية ليست على نفس

المستوى من الغنى والكمال • ولا يكمن السبب في قلة المصادر والوثائق التي تبحث في هذه المواضيع ولكن في عدم توفر الجهد للبحث فيها ونشرها وطبعها حتى يستعملها الاخصائيون الذين مازالوا ينتظرونها • فالدراسات في ميادين الاقتصاد والتشريع والادارة لهذه الفترة ما تزال في طفولتها الاولى وعليها أن تنتظر بعض الوقت قبل أن تبلغ أشدها • على أن هذا لا يعني جهلنا المطبق بهذه النواحي ؛ فالمعلومات على قلتها موجودة والخطوط العريضة معروفة •

الفصل الخامس

التاريخ والمؤرخون الاوربيون

لقد شهد العصرالوسيط في اوربه انتشار الديانة المسيحية وتوسعها والتبشير بها ، وتأثر الى حد بعيد بهذه الديانة التي امدت الثقافة القديمة الاغريقية ــ اللاتينية بكثير من المعارف المستقاة عن الكتاب المقدس وتعاليم الدين كقصة الخليقة وتاريخ الانسان والتبشير بالسيد المسيح ويوم الحساب . وهذه الثقافة الناجمة عن امتزاج الثقافتين القديمة الوثنية والجديدة المسيحية كان لها اثرها الواضح في الأدب التاريخي في العصر الوسيط وذلك يبدو بما يلي :

١ ــ الاهتمام الشديد بتاريخ البشرية .

٢ ــ تكريم الشهداء وحفظ اخبارهم واعطاء التفاصيل الكثيرة عن الاضطهادات التي تعرضوا لها في سبيل الحفاظ على ايمانهم . وهذا ما جعل العصر الوسيط يهتم خاصة بالتراجم وسير القديسين اكثر من اهتمامه بسير العظماء فلقد بلغ الاهتمام بهذا النوع من التأليف درجة عظيمة ، وكان يستهوي المؤلفين التأثير على حواس المسيحي بضروب الاتيان بالخوارق والمعجزات . وكثيراً ما استغلت عاطفة المسيحي ، من هذه الناحية ، لتبرير الاختلاف على اماكن العبادة والمزارات وتمجيد الوساطات والشفاعات والكرامات .

٣ ــ تدوين سير الملوك والسلالات الاقطاعية وتاريخ البابوات

والكنائس والأديرة والاحتفاظ بصكوك الملكية والحرص عليها ، لأن كثيراً من الاملاك كانت مثاراً للنزاع بين رجال الدين والعلمانيين من اباطرة وملوك وأمراء وافراد عاديين .

٤ ـ ذكر الحوادث العابرة التي تتعلق بالحياة اليومية كالامطار الغزيرة والفيضانات والبرد القائظ والجدب وانتشار الاوبئة والامراض والحرائق وغيرها .

٥ ـ الاقبال خاصة من قبل العلمانيين على دراسة الحقوق الرومانية، منذ القرن الرابع عشر للدفاع عن سادتهم . وهذا ما جعل رجال العصر الوسيط يعلقون اهمية كبرى على تواريخ المعاهدات والوصايا والعقود والوثائق وحتى الوثائق المزيفة منها ونسبتها ، والمراسيم البابوية التي نسبت كذباً الى البابوات واعتبرت خلال فترة طويلة من الزمن مصدراً من مصادر الحق . ولكن مثل هذا التزييف ما كان ليعتبر كذباً ، ولا يجد فاعلوه غضاضة في اتخاذه حجة لاحقاق الحق الاعظم .

٦ ـ ان اكثر المؤلفين كانوا من الاكليروس أي من رجال الدين ، وذلك لانهم كانوا يفوقون غيرهم ثقافة ، او لانهم يحتكرون الثقافة دون غيرهم لان المثقفين العاديين كانوا قلة نادرة في العصر الوسيط .

٧ ـ لقد كان هم المؤرخين ان يؤلفوا قصة الحوادث التي شهدوها بام أعينهم او التي قصها عليهم شهود عيان ، او التي نقلت اليهم بالتواتر الشفهي والرواية . اما تدوين التاريخ حسب الطريقة التاريخية ، كما هو معلوم في عصرنا الحاضر ، فلم يأخذوا به مأخذ الجد الا قليلا . لقد كانوا يقصون الحوادث المعاصرة دون ان يميزوا في الغالب بين الاصلي والاساسي منها وبين الثانوي . ونظرتهم في البحث سطحية بعيدة عن الحس النقدي الذي يعتبر بحق اهم صفة من صفات المؤرخ الحديث . وتآليفهم بعيدة كل البعد عن الحياد والموضوعية .

فهي تضم سردا لتاريخ زمانهم وبلادهم ، وذوق مؤلفها وشخصيته وطابع عصره ووسطه الاجتماعي ، وتعلقه بهذا الأمير او ذاك ، او بهذه القضية او تلك . لقد كان التحزب والانحياز صفة بارزة في آثار المؤلفين في العصر الوسيط .

مصادر تاريخ العصر الوسيط . — تقسم مصادر تاريخ العصر الوسيط في اوربة الى ثلاثة اقسام كبرى وهي :

١ — المصادر القصصية .
٢ — المصادر الدبلومية أي « الوثائق الرسمية » .
٣ — المصادر الأثرية .

تمتاز المصادر القصصية والدبلومية بطابع واحد وهو انها مصادر مكتوبة ، ولكنها تختلف من جهة أخرى ، فالاولى تتوجه الى القراء كالتآريخ (Chroniques) والحوليات (Annales) والقصص والروايات والمذكرات والمؤلفات الجدلية والقصائد والكتب الاخلاقية واللاهوتية وسير القديسين ، وقيمتها متفاوتة . والثانية هي صكوك وقوانين ومراسيم ملكية ومعاهدات صلح وامتيازات ومراسيم حبرية ، ومجموعات قوانين صادرة عن المجامع الدينية . ولها قيمة أو سلطة حقوقية أو ادارية ، وتزود الباحث بوثائق اكيدة . ولكن الصعوبة في استعمالها ، فقد تكون أصلية أو منتحلة ، لأن المعروف عن العصر الوسيط انه كثير الانتحال والتزوير . ولذا فمن الضروري فحص هذه المصادر والتأكد من صحتها : اصلية أو منتحلة ، وحيدة فريدة أو كثيرة متنوعة . وهذا ولا شك يتطلب علما خاصا عرف باسم « علم دراسة الوثائق الرسمية » (الدبلوماتيك) .

أما المصادر الأثرية فيقصد بها الآثار المادية الباقية من كنائس وقصور وزجاج وحلي وقطع نقود وفخار وأقمشة ومطرزات وغيرها .

وهي تعطي كثيراً من المعلومات عن الحياة الاجتماعية في عصر من العصور ، كما تبين درجة الحضارة التي وصلت اليها ، والحضارات التي امتزجت بها والتأثيرات المتبادلة بينها • ولا غنى للمؤرخ في تاريخ العصر الوسيط عن الرجوع اليها والافادة من معلوماتها ومقارنتها مع المصادر الأخرى •

من المقبول مبدئياً ، في اساس علم التاريخ ، ان اتفاق المصادر المستقلة دليل على الحقيقة • ولذا فان وظيفة البحث العلمي تقتضي اقامة مثل هذا الاتفاق واستنباط عناصر الحقيقة من المصادر المختلفة • وليس ذا بالأمر السهل ، لأن مصادر العصر الوسيط لم تصل الينا بنقاوتها الاولى ، وأصالتها الحقيقية ، والمصدر الاصيل كالقطع النادر ، فضلاً عن ان مؤلفي العصر الوسيط كثيراً ما يأخذ بعضهم عن بعض دون ذكر المرجع الذي استقوا منه او اعتمدوا عليه ، أو يدسون في تضاعيف سطورهم اضافات يراد منها التحوير والتبديل والتشويه بقصد او عن غير قصد ، ودون وازع ، لان الغاية عندهم تبرر الواسطة ومن هنا تبدو قضية النشر النقدي لجميع مصادر العصر الوسيط ضرورة لا محيد عنها • وما ذلك الا لأن هذا النشر يأخذ بعين الاعتبار مختلف المخطوطات حسب تنوع نسخها ويقارن بينها ، ويعين ما يمكن الاخذ به لقربه من الحقيقة التي يراد البحث عنها •

لقد ثقفت العصور القديمة التاريخ نوعا من انواع الأدب يتصف بالقصص . وعرف العصر الوسيط ما يماثل هذا النشاط الفكري ، حتى ان غريغوار أسقف تور الملقب بهيرودوت فرنسا في القرن السادس الميروفنجي لا يختلف من حيث الجوهر عن ابي التاريخ الاغريقي• فهو مثله ينقل الأخبار الخرافية والاسطورية ، كما ينقل الوقائع التاريخية الهامة منها وغير الهامة • ومهما يكن أمر هذه المصادر فان المادة التاريخية في

العصر الوسيط وصلت الينا بكتابات متواضعة على شكل تآريخ وحوليات .

التآريخ . ـ كان يراد من التاريخ في العصر الروماني وضع القوائم الزمنية للقناصل السنويين . وكان المؤرخون القدماء يؤرخون الحوادث اما بدءاًمن تأسيس روما اوبأسماء القناصل القائمين على عملهم، وذكرهم ، في هذه الحالة ، يكفي للدلالة على السنة . وقد استمرت هذه القوائم لتثبيت تأريخ الحوادث حتى الى بعد سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب . ومن هذا التاريخ بدىء بذكر اسماء قناصل بيزنطة . وعندما انقطع باصيل آخر قنصل بيزنطي عن وظائفه في ٣١ كانون الاول ٥٦٥ بدىء بالتأريخ اما بالقنصلية التي كانت بعد باصيل او بقنصلية الاباطرة الفخرية .

وقد جرت العادة ، منذ عصر يصعب تحديده ، أن يشار الى جانب اسم القناصل ، للاحداث البارزة التي جرت ابان حكمهم . وهذا التدوين كان سبباً في نشأة التأريخ .

وعلى هذا النحو جمع اوزبيوس قيسارية (٢٧٠ ــ ٣٣٨) هذه الاشارات والف منها ما سماه (تأريخ) . وما جمعه من أحداث يقف عند ٣٢٤ ، ولكنه اكمل فيما بعد حتى ٣٧٨ على يد القديس جيروم (٣٤٢ ــ ٤٢٠) ، ثم اتمت بتكملات عديدة موازية موسعة قليلاً أو كثيراً . وفي الحقيقة ان معرفتنا التاريخية عن القرون الممتدة من القرن الرابع الى القرن الثامن مدينة الى هذه المصادر التي اخذ جفافها الاول يتناقص تدريجيا . وعرف العصر الوسيط ، تحت عناوين مختلفة، تآريخ عديدة لا تقع تحت حصر قبل العام الف وبعده .

بيد ان الاهتمام بالحوليات بلغ اقصاه في القرن الثامن لانها كانت في الواقع نموذجاً حياً وممتازاً لتاريخ العصر الكارولنجي . وقد بدأت

متواضعة كالتآريخ في عصر البرابرة في القرنين الرابع والخامس . واذا نهج التأريخ منهج التقويم المدني وهو التقويم القنصلي ، فان الحوليات نشأت من التقويم الديني وهو جداول عيد الفصح . فقد كانت هذه الجداول توضع حسب دورة عيد الفصح . وذلك بأن يسجل مسبقاً ، في كل سنة ، اليوم الذي يقع فيه هذا العيد المتنقل من سنة لأخرى . وكانت الحوادث تسجل تبعاً لهذا العيد . وهكذا نشأت الحوليات التي اخذت منها الحوادث واكملت بحوادث حولية تالية . وقد كثرت هذه الحوليات وما وصلنا منها قليل من كثير . وبالرغم من الضياع فقد زودتنا التآريخ والحوليات ، بالاضافة الى سير القديسين الكثيرة على الدوام ، بأوضح الاخبار عن الحوادث الجارية من محلية وعامة . ولكنها اقتصرت بعد سقوط الامبراطورية الكارولنجية على ذكر الاحداث المحلية وظلت هذه حالها الى ان قامت الحروب الصليبية فغذت المادة التاريخية بالمؤلفات الكبرى ووجهت الانظار نحو الآفاق الواسعة والتاريخ العام .

أواخر العصر الروماني

من القرن الثالث الى القرن الخامس

لقد كانت الثقافة اللاتينية في أواخر العصر الروماني في حالة انحطاط وأفول . وعندما غزت الغارات البربرية الكبرى اوربة قضت على الامبراطورية الرومانية وأتت على ما تبقى فيها من ثقافة ضحلة سطحية . ولكن هذه الثقافة ، على ضآلتها ، بقيت محفوظة في الاديرة والكنائس ، وظل رجال الدين ، على قلة معارفهم ، رسل الثقافة وحملة المشاعل .

ولم تعد الآداب الوثنية في هذه الفترة لتنتج آثاراً أصيلة ، بل

ان كل ما انتجته كان معاداً ومكروراً ، وغلب فيه الاتباع والتقليد على الابتكار والابداع • فقد أصيب الفكر بالعقم ، وفسد الذوق وساد الشكل على الجوهر • وكان هـذا الادب يتمثل باسماء لامعـة مثل ترتوليان وآرنوب والقديس سيبرين والقديس امبرواز وجيروم والقديس اغسطين والشاعر برودانس ، ومع هـذا فان هؤلاء الأدباء ، عـلى اختلاف نزعاتهم الادبية ، لم يستطيعوا ان ينجوا من تأثير الفصاحـة والبلاغة واعمال الاسلوب في أدبهم • يضاف الى ذلك التباين الواضح بين لغة الكتابة ولغة الكلام المبتذلة ، حتى ان هذا الوضع زاد تفاقما منذ القرن الرابع لان اللغة اللاتينية المستعملة الدارجة ، بالرغم مـن ضعفها وعدم صحتها ، أصبحت لغة جديـدة ولم تعد اللغة اللاتينية القديمة لغة الادب الا عند اقلية قليلة في المجتمع الاوربي •

وكان التنافس قائما بين الادب الوثني والادب الديني منذ نشأة المسيحية وكان الوثنيون يأخذون على المسيحيين فقر انتاجهم • ولكن الأدب المسيحي اخذ يتكاثر وينمو في القرن الثالث والرابع والخامس حتى تكون أدب مسيحي ضخم قائم بذاته ، ولم يشأ ادباء المسيحية من امثال القديس جيروم والقديس اغسطين وسيدوان ابو لينـير ان يحكموا ببطلان الآداب الوثنية ، بل على العكس ، ابقوا على ضرورة دراستها • بيد ان بعض رجال الدين الورعين المتزمتين ، في القـرن السادس ، شجبوا هذه الآداب الوثنية بقوة وحزم ، ودعوا المسيحيين الى دراسة النصوص المقدسة وما كتبه آباء الكنيسـة • ولولا ظروف مواتية متناقضة ، بل ولولا تأثير الرهبان الايرلنديين لزالت الآداب الكلاسيكية القديمة نظراً لعدم نسخها من جـديد • وعندما توفي سيدوان ابو لينير ، في حوالي العام ٤٨٤ ، وهو آخر أمير مثقف في غاليا ، وآفيوس ، اسقف مدينة فينا في مملكة بورغونيا ، وجـد اناس يتذوقون الآداب القديمة ، ولكنهم لم ينتجوا أي اثر ادبي هام •

وعلى ما يبدو ان الأدب اتخذ وجهة القصص والتاريخ والسير والتراجم • ولا شك في ان هذا الاتجاه الجديد يفيد وجهة النظر التي نحن بصددها في عرض المؤرخين في العصر الوسيط • وهؤلاء المؤرخون ، بالمعنى القصصي والاخباري ، كثر • فلكل فترة من فترات هذا العصر ، او لكل مملكة او سلالة حاكمة او اسرة او اقليم او بلد او كنيسة أودير او قديس مؤرخون ومترجمون • ولو اردنا ان نأتي على ذكر هؤلاء جميعاً لضاق بنا البحث • غير أننا نكتفي بذكر النابهين والشوامخ منهم في كل عصر ، وذكرنا لهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر •

اوزبيوس قيسارية • — عاش حوالي (٢٦٥ — ٣٤٠) • كان اسقفاً ومؤرخاً مسيحياً واشتهر بهذا اللقب « ابو التاريخ الكنسي » • ولد في فلسطين وعاش في مصر وأصبح اسقف مدينة قيسارية حوالي العام ٣١٣ ولعب دورا هاما في مؤتمر نيقية (٣٢٥) • وكان مشاوراً للامبراطور قسطنطين ، يصغي اليه ويسترشد بنصحه • أهم آثاره « **التاريخ الكنسي** » وفيه يثني ثناء جماً على المسيحية ، ويسرد أهم الحوادث في التاريخ المسيحي • وقد توقف جمعه للاحداث في العام ٣٢٤ ، ثم أكمل فيما بعد حتى عام ٣٧٨ على يد القديس جيروم • ويعتبر مؤلفه « **التاريخ الكنسي** » فتحاً جديداً في عالم التأليف في ذلك العهد لأنه محاولة فريدة واولى لوضع تاريخ للحضارة •

آميان مارسيلان • — عاش بين (٣٣٠ — ٤٠٠) • ولد في انطاكية وهو يعتبر اكبر مؤرخ للامبراطورية الرومانية الدنيا • الف كتاب « **الأعمال** » ، وفيه يصف العودة الى الديانة الوثنية في عهد الامبراطور جوليان المرتد ، كما يصف ضغط البرابرة على الاباطرة الرومانيين ،

---

(١) آميان مارسلان Ammien Marcellan.

وكيف اضطر هؤلاء ، تحت هـذا الضغط أن يسهروا باستمرار على حدود الامبراطورية باقامة الحصون والقلاع .

القديس جيروم . — عاش بين (٣٤٠ — ٤٢٠) . كان أباً من آباء الكنيسة . ولد في دلماسيا من ابوين مسيحيين وتعمد في وقت مبكر . زار غاليا وروما ورسم كاهناً في انطاكية . وفي زيارة لروما عام ٣٨٢ شرع بترجمة الكتاب المقدس الى اللاتينية . وعند عودته الى الديار المقدسة عام ٣٨٥ لحقت به سيدتان مسيحيتان : الاولى ، وهي الارملة بولا ، وكان موجهاً لوجدانها ، والثانية ابنتها اوستوشيوم ، وقد نصحها بأن تبقى عذراء . ومنذ ذلك التاريخ عاش في بيت لحم في دير انشأته بولا كما انشأت ايضا ثلاث اديرة أخرى للراهبات . وكان القديس جيروم أعلم الآباء اللاتينيين وأفصحهم . وأثره الانشائي هو « **الفولغاطة** » الذي وقف عليه افضل سني حياته ، وهو اول ترجمة للكتاب المقدس باللغة اللاتينية. فقد ترجمه عن اللاتينية القديمة والعبرية والآرامية في القرن الرابع . كما الف كتباً ورسائل كثيرة .

القديس اغسطين . — عاش بين (٣٥٤ — ٤٣٠) وكان أحد كبار آباء الكنيسة اللاتينية ولد في طاجسكا (سوق الأخرس) من أعمال نوميديا (الجزائر الحالية) . وكان أبوه حاكماً رومانياً وثنياً محافظاً على وثنيته . وكانت امه مونيك مسيحية تقية . وقد تربى تربية صالحة . وبينا كان يتلقى دراسته في قرطاجه ، ساورته مغريات الحياة ، التي ندم عليها فيما بعد ، ولما بلغ سن الرشد وعزف عن غواية الشباب اعتنق المانوية ، ثم تخلى عن فرقة هذا المذهب بعدمحادثات مخيبة مع زعيمها فوستوس . وبعد ان علَّم الآداب في قرطاجة قصد ميلانو وأقام فيها استاذاً للفصاحة ، وأصبح صديقا حميما للقديس امبرواز الذي هداه للمسيحية عن طريق الافلاطونية . وتعمد اغسطين وابنه في ٢٥ نيسان ٣٨٧ على يد القديس امبرواز . ثم قفل راجعا الى مسقط

رأسه • وفي الطريق توفيت أمه في اوستي ، ميناء روما ، وقد سبق لها ان لحقت به الى ميلانو ، وسرها ان الله استجاب دعاءها فهدى ابنها • وعند عودته الى افريقية رسم كاهناً عام ٣٩١ ثم اسقف هيبون (عنّابة) عام ٣٩٥ • وكان على رأس النزاع الذي قام ضد الهراطقة • ووضع مذهباً يقوم على الايمـان بالقضاء والقدر موازياً للالهـام الافلاطوني • ولم يكن اغسطين عالماً كبيراً ، ولكنه ترك خلفه مؤلفات عظيمة القيمة • ففي العام ٣٩٧ ظهر كتاب « الاعترافات » ويعد من أصدق التراجـم الروحية • ومن العـام ٤١٣ الى ٤٢٦ الف كتـابه « مدينة الله » فقد شهد سقوط روما بأيدي البرابرة ، وكان بعضهم يدعون بأن النكبات التي حلت بالامبراطورية الرومانية انما ترجع الى التخلي عن الآلهة القديمـة في سبيل الله المسيحي ، فوجـه القديس اغسطين انتباه الناس نحـو « مدينة الله » التي ستقوم عـلى انقاض النظام القديم • وتوفي في هيبون في ٢٨ آب ٤٣٠ عندما حاصرت أقوام الفاندال هذه المدينة •

هذا ويعتبر كتاب « مدينة الله » من الكتب المشهورة في الآداب لانه اول محاولة لفلسفة التاريخ • ولكن هذا الكتاب في ذاته لا يحوي فلسفة أو تاريخاً وانما هو كتاب لاهـوت وقصص • وفيـه يستعرض القديس اغسطين شؤون المجتمع البشري منذ عصا آدم ربه وخرج من الجنة وهبط الى الارض الى يوم الحساب • ويرى ان الغاية من تاريخ العالم اثبات النزاع القائم بين مدينتين موجودتين معاً ترجع اليها سائر المجتمعات البشرية • المدينة الارضية أو « مدينة الشيطان » وتمارس « محبة الذات حتى نكران الله » ، والمدينة السماوية أو « مدينة الله » وتمارس « محبة الله حتى نكران الذات » • وكل انسان يمكن ان ينتسي الى هذه أو تلك بمحض ارادتـه • وبين هاتين المدينتين حرب هائلة لا هوادة فيها • تجاهد الواحدة في سبيل العدل وتعمل الاخرى

لنصر الظلم • وستظل هذه الحرب مستعرة الى نهاية العالم الى ان يفصل السيد المسيح بينهما فتنعم الواحدة بالسعادة الابدية وتلقى الاخرى جزاءها في النار • ولذا لم يكترث اغسطين لمصاب روما وتهديمها لان المهم في نظره هو انتصار « مدينة الله » الذي هو المبرر لوجود العالم • وما اورده اغسطين عن « دول الشيطان » او الدول الوثنية القديمة : آشور ، فارس ، مقدونية ، روما ، خال من كل حقيقة تاريخية • ولكن هذه الآراء الاغسطينية في فلسفة التاريخ انما هي محاولة لا تخلو من فائدة في تفسير الحوادث تفسيراً دينياً •

أما كتابه « الاعترافات » فهو تاريخ انسان وروح تاها في ضلال الخطيئة وبحثا عن الحقيقة بقلق الى ان كشف عنهما الغطاء واستنارا بنور الذات لالهية •

بول اوروس • ـ عاش في القرن الخامس وتتلمذ على القديس اغسطين • وهو مؤرخ ولاهوتي اشتهر بكتبه التي تحمل هذا الاسم : « الكتب التاريخية السبعة المؤلفة في الرد على الوثنيين » • وهي مجموعة اساطير قائمة على التحيز والهوى ؛ ظلت تعتمد طوال العصر الوسيط الى أن هدمها المؤرخ الايطالي فلافيوس بلندوس [٢] بنقده وفقدت قيمتها •

عصر الغارات البربرية الكبرى

القرن الخامس

من المؤلفات التي عرفها تاريخ الغارات البربرية الكبرى قصيدة

---

(١) بول اوروس Paul d'Orose.

(٢) فلافيوس بلندوس Flavius Blindus (١٣٨٨ ـ ١٤٦٣) .

تحمل هذا الاسم : « أغنية الحكمة الالهيـــة » وهي تنسب خطأً الى بروسبير اكيتانيا وتلقي نوراً على أعمال الفاندال والقوط .

سيدوان ابو لينير[1] . ـ كان غالياً . ولد في مدينـــة ليون بين عام ٤٣٠ و ٤٣٣ ، وتوفي وهو يشغل منصب اسقف كنيسة كليرمون فيران سنة ٤٨٩ على وجه الاحتمال . كان ارستقراطياً نابهاً يمثـل الجيل الذي شهد استقرار البرابرة في غاليا . وتقلد عـدة وظائف ومناصب وابدى في كل منها وعياً ودراية ، واشتهر بقوة ايمانه وفطنته ومواهبه الشعرية ، وقد ترك في « قصائده » وخاصة في مجموعـة رسائله التي تتألف من تسعة مجلدات (٤٧٠ ــ ٤٨٠) اعظم شاهـد مباشر للحوادث التي عاشها وكان شاهدها العيان .

ولكن شعوب القوط كانت موضع اهتمـــام بعض المؤرخين دون سائر الشعوب التي شاركت في الغـــارات البربرية . ونخص بالذكر منهم ثلاثة : كاسِّيودور ، جوردانيس ، ايزيدور اشبيلية .

كاسيودور[2] . ــ مؤرخ وفقيه لا تيني ، ولد في سكويلاس في منطقة كالابريا من أعمال ايطاليا بين ٤٧٧ و ٤٨١ وتوفي في المـدينة نفسها في سن الثالثة والثمانين بين ٥٦٠ و ٥٦٤ . وحياته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاهداف السياسية الواسعة في عصره . فقد لعب دور العنصر المعدل والموفق بين العالم الروماني ــ البيزنطي والمجتمع البربري الذي داهمه ، ودخل بلاط القوط والبـــابوية . وكان عمله فيهمـــا سياسياً وحضارياً . فقد خدم كهمزة وصل بين الحضارة القديمة والحديثة ، ودام نشاطه ، في ميدان الدبلوماسية ، لدى الغوط من حكم تيؤدوريك

---

(١) سيدوان ابو لينير Sidoine Apollinaire .

(٢) كاسيد دور Cassidore .

الكبير الى الفتح البيزنطي ، مشاوراً للملك وأميناً لسر البلاط ومؤرخاً رسمياً ومحرراً للاعمال الحقوقية وناطقاً باسم الحزب القومي المعتدل ، ووسيطاً في العلاقات مع البابوية . وهـذا ما جعله واقفاً على أسرار السياسة وخفاياها . فرسائله « **الاوامر** » و « **تاريخه** » أو « **تاريخ الغوط** » تعتبر وثائق أساسية لتاريخ هـذه الحقبة . وعندما انهار حكم الغوط نهائياً في عام ٥٣٩ تحت ضربات جيوش بيليزير ، القائد البيزنطي في عهد جستنيان ، انتهت حيـاة كاسيودور السياسية ، وبدأت تستهويه المشاغل الدينية والفكرية فألف كتـاباً صغيراً « **في الروح** » يتمـم « الاوامر » كمـا ساهم أيضا في بعض حوادث تاريخية وسياسية ، ثم ذهب الى بيزنطة عام ٥٥١ ، ولكن تفكيره اتجه وجهة أخرى . ففي القسطنطينية ساعدته صلته بالحاكم يونيليوس على استقاء أخبار مفصلة عن نشاط « **المعهد العالي للدراسات اللاهوتية** » في نصيبين في سورية ، فنضجت في رأسه فكرة انشـاء مركز مماثل له في رومـا . غير ان الاضطرابات السياسية والعسكرية حالت دون تحقيق هذا المشروع ، فأودعه كاسيودور في مؤلف منهجي وهو : « نظم الرسـائل الالهية والبشرية » . وهو كتابه الاساسي الذي سيؤتى ثماره طوال العصر الوسيط . ثم اعتزل أخيراً في مسقط رأسه وأسس فيها « **دير الاحيـاء** » وأصبح هذا الدير بسرعة مركزاً للدراسات الدينية والدنيوية . وكان الرهبان ينسخون بكل دقة ونقد النصوص التي ستنقل للاجيال القادمة رسالة الفكر القديم وفنه . ولا شك في ان كاسيودور في هذه الفترة حـرر « **التاريخ الكنسي المثلث** » ، وهو مختصر موسـع للمؤرخين الكنسيين الاغريق الثـلاثة : تيؤدوريت ، سـوزومين وسقراط . ثم ترجمت نصوصه من قبل أحد تلاميذه . وفي هذا الجو الحار القائم على العمل والعبادة وافت المنية كاسودور بعد أن بلغ من العمر عتياً وعاش في شروط متواضعة كما يعيش الرهبان .

هذا ويجب ألا يبحث في آثار كاسيودور عن اصالة فكرية نظرية أو تعبير فني خاص . لقد كان قبل كل شيء « استاذاً » دقيقاً يتمتع بسواهب تاريخية . فقد عرف كيف يميز العناصر الاساسية في التراث الديني والفكري وينقلها الى الاجيال ، وانصرف لهذا العمل بايمان وذكاء ساعداه على ايجاد طرق ووسائل وأساليب ظلت مقبولة أيضاً في العصور التالية .

لقد كان كاسيودور يعتبر سيدوان ايطاليا ، ولكنه كان افتى من نظيره الغالي بجيل .

جوردانس(١) . — هو مؤرخ غوطي الاصل ، لاتيني التعبير ، من رجال القرن السادس . الف كتابين يرجع تاريخهما الى السنتين ٥٥١ أو ٥٥٢ . وقد اهداهما الى البابا فيجيل . يسمى الاول « **رومانا** » أو « **تعاقب الاحكام والازمان** » وهو مختصر سيء للتاريخ العام نسخه عن فلوروس ، ويسمى الثاني « **جيتيكا** » والافضل أن يسمى « **غوتيكا** » أو « **أصل الغوط وتاريخهم** » وهو أثر هام ألفه عن مخطوطة كاسيودور المفقودة في « **تاريخ الغوط** » واضاف اليه اضافات شخصية وأنهاه بمديح لسلالة الآماليين مع تمنياته بدخول الغوط في الامبراطورية الرومانية .

ايزيدور اشبلية(٢) . — ولد ايزيدور حوالي العام ٥٦٠ أو ٥٧٠ في اشبلية وتوفي في ٤ نيسان ٦٣٦ . كان ابوه وجيهاً من وجهاء قرطاجنة وقد غادرها بعد دمارها عام ٥٥٢ ، وعاش يتيماً فكفله أخوه ثم اخته . وفي دير مجاور تلقى دراساته وتعلق بسرعة بالآداب واللاهوت

---

(١) جوردانس Jordanès او جورناندس Jornandès .

(٢) ابزيدور اشبلية Isidore de Seville .

وشهد في ميعة الصبا الحوادث التي سبقت اعتناق الغوط للمسيحية . وفي العام ٦٠١ رسم اسقفاً على اشبلية وظل فيها الى وفاته . ومنذ ٦١٠ حضر ايزيدور عدة مجامع دينية محلية . وفي العام ٦٣٣ ترأس مجمع طليطلة الرابع حيث اتخذت عدة قرارات هامة تتعلق بالنظام الكنسي وتأسيس المدارس الاكليركية على النمط الذي دشنه ايزيدور نفسه .

لقد عمل ايزيدور سياسيا ورجل كنيسة ، ولكن نشاطه في هذين الحقلين لا يعد شيئاً مذكوراً بالنسبة الى نشاطه الادبي . فقد كان له تأثير واسع في ثقافة العصر الوسيط يوضح الشهرة التي تمتع بها ايزيدور حتى ايامنا هذه . كان عقلا شاملا يمثل النزعة الموسوعية التي سادت في عصره . الف كتاباً ضخماً في عشرين مقالة سماه « **الاصول** » ولخص فيه جميع المعارف العامة ، وكتاب « **مشاهير الرجال** » و « **التاريخ** » و « **الفروق أو صفة الافعال** » و « **المترادفات** » وكتابه المسمى « **الوظائف الكنسية** » ذو أهمية كبرى في تاريخ اسبانيا الكنسي والسياسي ، ويعطي معلومات ثمينة عن تنظيم الكنيسة الغوطية وطقوسها الدينية . اما « تاريخ الغوط » والفاندال والسويفيون فهو مفعم بالتفصيلات عن الغارات البربرية في اسبانيا .

العصر الميروفنجي

من القرن السادس الى القرن الثامن

غريغوار تور . — هو أعظم مؤرخي هذا العصر . ولد في كليرمون في ٢٠ تشرين الثاني ٥٣٨ . ابوه من اسرة شيوخ من منطقة الاوفيرن في فرنسا ، وامه ارماتاريا من بورغونيا . شغل منصب اسقف تور من ٥٧٣ الى ٥٩٣ أو ٥٩٤ وهي سنة وفاته . كتابه الاساسي « **تاريخ الفرنجة الكنسي** » يتألف من عشرة كتب . وقد كتبه معترفاً

بنقص ثقافته القديمة ومحاولا أن يقص بكل بساطة تاريخ الماضي القريب منه ، ويكتبه باللاتينية الصحيحة دون رشاقة في الاسلوب .

لقد كان غريغوار كثير الاهتمام بأخباره ومعلوماته. فقد اعتمد على نصوص مكتوبة وعلى روايات شفهية ، ولم يهمل أي مصدر اخباري من وثائق رسمية ، وحوليات ، وتآريخ وحياة القديسين والنقوش وغيرها . كما جهد في النقد التاريخي وعُني خاصة بصحة الوثائق التي اعتمد عليها . وكان محباً للاطلاع ولا يسلم لكل ما لديه من شواهد تاريخية . غير انه كان يثق بالاساقفة وبمواطنيه ، ويؤمن بالخوارق ويصدق أحياناً ما يقال له ولكنه يعتذر بقوله « نقل الينا » . ويؤخذ عليه التحيز والهوى والاسلوب الركيك . ولكن عدم الاهتمام باعمال الاسلوب وتنقيحه جعل لأثره طلاوة خاصة وأمن له مكاناً فريداً مرموقاً في تاريخ اعالي العصر الوسيط . لقد كانت عنده بعض نواحي الكاتب، ولكنه لم يكن كاتباً عظيماً . واثره على ما فيه من عيوب لا يخلو من قيمة أدبية تتميز باللون ووصف الاشخاص والاحوال ، ومتعة القارىء بهذه الاوصاف افضل شهادة لصالح المؤرخ .

فريديغير(١) . — ان الدارس ليعجب حقاً عندما يرى الهوة سحيقة عندما ينتقل من « تاريخ الفرنجة الكنسي » لمؤلفه غريغوارتور الى تكملته ، حتى عام ٦٤٠ ، التي وضعها حوالي العام ٦٦٠ راهب بورغوني مجهول سماه ناشروه الاوائل في القرن السادس عشر ، فريديغاريوس، ولا يعلم سبب هذه التسمية . ويعرف عنه انه انسان غير معجب بنفسه فقد كتب في مقدمته : « لقد شاخ العالم ونبا حد المعرفة ، وما من

---

(١) فريديغير Frédégaire اسم يضم تحته تآريخ مختلفة عن عصر الميروفنجيين .

انسان في عصرنا يضاهي خطباء الماضي » ، وتكلم بحق عن غلاظة اسلوبه •

لقد أراد فريديغير أن يدون تاريخاً عاماً ، بيد ان كتبه الاولى ليست بذات قيمة لأنه يكتب كيفما اتفق ودون أعمال فكر • ويمكن أن يؤخذ عليه ، عدا ما تقدم ، بعض تفصيلات عن اللومباردين واحكاماً شخصية • غير ان كتابه اساسي لتاريخ القرن السابع والثامن وبدونه لا نعلم الا النذر اليسير •

أما الكتيب المسمى « **تاريخ الفرنجة** » أو « **تاريخ حكم الفرنجة** » الذي الفه راهب من دير القديس ـ دوني بعيد ٧٢٧ ، فهو مصدرنا الوحيد عن السنوات ٦٥٧ ـ ٧٢٧ لأن البؤس الادبي يصل الى الدرك الاسفل فلا يبقى سوى ذكر الحوادث السياسية الجافة أو الجوية تحت اسم حوليات •

الشاعرفورتونا(١)• ـ شاعر لاتيني ، ولد نحو ٥٣٠ بالقرب من تريفيز في ايطاليا ، وتوفي في بواتيه نحو ٦٠٥ • وتلقى تربيته فيرافينه ودرس الحقوق وخاصة الفصاحة والنحو • بدأ قصائده الاولى وهو في سن المراهقة • وفي العام ٥٦٢ شفي من مرض في عينيه بواسطة زيت مصباح كان يشتعل أمام صورة القديس مرتن قديس مدينة تور• فقرر أن يحج الى قبر هذا القديس وفي الطريق تقرب من ملوك الفيزيغوط ونظم عدة قصائد على شرفهم ، وعلى أثرها تمتع بشهرة عظيمة وأصبح لحد ما شاعراً رسمياً للبلاط • وبعد سنة توجه نحو الغرب وأخذ يقف بين حين وآخر عند كبار الشخصيات الاثرياء ويسحرهم بقصائده التي يستلهمها من المناسبات والحوادث اليومية ،

---

(١) فورتونا Fortunat (٥٣٠ ـ ٦٠٥) .

كقصائد المدح والرثاء والاعراس والافراح والاتراح والهجاء ، وسير القـديسين • وقد جمعت هـذه القصائد في مجموعة **((الاغاني))** وتتألف من احد عشر كتاباً • ويغلب على هذه القصائد طابع البلاغة ، ولكن الشاعر ينفخ فيها آخر نسمة من نسمات الشعر القديم • وهي تؤلف شاهداً قيماً على أخلاق القرن السادس •

وعندما وصل فورتونا الى تور عقدت صـداقة بينه وبين اسقفها افرونيوس وعاود خـلال بضع سنوات مهنته شـاعراً متنقلاً يذكر بالشعراء الطوافين في جنوب فرنسا وتقرب من الملكة راديغوند وانتظم في السلك الكهنوتي وأصبح كاهنـاً للملكة ومشاوراً ، وعكف نحو الدراسات الدينية ، وراسل كبار اساقفة عصره ومن بينهم غريغوارتور، واكتسب لدى الناس شهرة القداسة • وبعد وفاة الملكة راديغوند تسلم كرسي اسقفية بواتيه عام ٥٩٧ •

لقـد كان فـورتونا شاعراً فريـداً في عصره ، يكتب الشـعر بسهولة وانطلاق ، وقصائده ذات قيمة ادبية ضئيلة ، ولكنها تزودنا بكثير من المعلومات عن المجتمع في العصر المـيروفنجي • وهو سيء الذوق ، وغير مخلص ، يضع الامور في غير موضعها ، ويكثر في اسلوبه الغريب والحوشي • وبالرغم من كل ذلك فقـد ساد عصره ، ولما مات لم يجرأ أحد على كتابة الشعر ، ودامت ذكراه بتبني الكنيسة الكاثوليكية أناشيده التي أصبحت ترانيم دينية تنشد في الحفلات والطقوس •

سير القديسين • ـ لقد كانت سير القديسين النوع الادبي الرائج الوحيد الذي يستجيب لحاجات العصر ، لأن كتابة حياة قديس سيد كنيسة من الكنائس أو دير من الاديرة كانت تعتبر واجبا دينيا ، كمـا كانت وسيلة لجذب المؤمنين والحفاظ عليهم لزيارة قبر القديس • فقد كانت تقرأ صفحات من حياة القديس على الاتقياء والحجاج في يوم

عيده وهو اليوم الذي ولد فيه للحياة الجديدة بعد الموت . ولقد كانت حياة القديس على الارض ، من حيث المبدأ تمجيداً واطراءً . ومما لا شك فيه انها كانت توضع لخدمة غرض من الاغراض . فقصة الخوارق التي تتم على قبر القديس أو في حياته كانت عنصراً اجبارياً في السيرة كالتوابل أو الملح بالنسبة للطعام . واذا كان المؤرخون يشكون من ان هذه المؤلفات لا تجهزهم الا بحصيلة ضئيلة أو انها في الغالب ذات صفة يشك بصحتها ، فانهم ينسون انهم امام مؤلفات تمجيد وليسوا أمام مؤلفات اعلام .

ولقد احتفظ بعدد عظيم من سير القديسين النساك و « آلامهم » من أساقفة وآباء في القرن الخامس والسادس والسابع والثامن . بيد انه أعيد تأليف بعض هذه السير أو صيغت من جديد في العصر الكارولنجي أو فيما بعده أيضاً . وأقدم السير سيرة القديس جرمن الاوسيري المتوفي عام ٤٤٨ التي الفها كونستاتس ، وسيرة القديس سوزير الآرلي التي الفها جماعة من تلاميذه ، وهي قصة رصينة وبسيطة ومثقلة بالعجائب والخوارق ، ولغتها صحيحة ، واسلوبها ركيك وتغلب عليها الصفة الادبية . وكانت هذه السير في القرن السابع مفيدة وقيمة بالرغم من انها كانت مغرضة من الوجهة السياسية . ولكن اسلوبها فسد بعد ذلك ، وأكثر من ذلك أيضا ، ان السيرة أصبحت نوعاً ادبياً تقليدياً . فقد كان المؤلفون ، وخاصة عندما لا يعلمون شيئاً أو يعلمون قليلا عن بطلهم ، لا يترددون في سلب حياة قديسين سابقين ، أو سد النقص في أخبارهم ومعلوماتهم بتوسيعات من عندياتهم . ومن هنا غلبت على هذه المؤلفات صفة الكذب والرتابة والملل لانها تسبب للقارىء الضجر والسأم بل والكراهية .

ومهما يكن من أمر هذه السير فهي لا تخلو من تزويدنا بمعلومات

عن العصر الذي كتبت فيه ، ولكنها لا تخلو من الاقتباس والـدس والبعد عن الصحة والاهتمام بالاشادة والمدح قبل الاهتمام بالحقيقة •

العصر الـكارولنجي

من القرن الثامن الى القرن العاشر

لقد شهدت الحيـاة الفكرية في العصر الكارولنجي ، دور نهضة تتمثل في تجديد تعليم رجال الدين ، وذلك لأن الحالة البائسة التي تردت فيها ثقافـة الاكليروس حملت شارلومان على القيـام بالاصلاح الفكري • وقد انطلق في هذا الاصلاح من المـدارس الدينية ، حتى أصبحت هذ هالمدارس في المستقبل مراكز كبرى للتفكير والتـأمل • وقد ساعد شارلومان في هذا الجهد جمهرة من المثقفين نخص بالذكر منهـم آلكون الانغلو ـ ساكسوني ، وبطرس بيزا ، وبول دياكر ، وكان هذا الاخير لغوياً ومؤرخاً عرّف الاوساط الكارولنجية بالتاريخ الروماني وتاريخ اللومبارديين ، وألف تاريخاً في أساقفة ابرشية ميتز• بيد ان اعظم رجل في هذا العصر كان تيؤدولف أورلئان •

وهذه النهضة الدينية بوجه عام تطورت في عهد شارلومان وفي عهد ابنه لويس التقي وأصبحت انسانية ، لأن الآداب في هذه النهضة المتطورة كانت تدرس لذاتهـا ، وكان يمثلها في هذا الدور الثـاني رابان مور[1] تلسيذالكونواسقفماينس• وهو يعتبر أول الموسوعيين ، ويذكر في القرن التاسع ، بالبرت الكبير ، أحـد مواطنيه في القرن الثالث عشر • لقد وضع في متناول الجميع الكتاب المقـدس والنحو والحساب والموسيقى والليتورجيا وكان يلاحظ الطبيعة ويريد التعرف

(١) رابان مور Raban Maur .

بأسرارها . وهذا مظهر جديد من مظاهر النهضة .

ولقد عرف التأليف التاريخي في هذه النهضة الكثير من أسباب النمو والازدهار ، لأن الكارولنجيين اهتموا بتاريخهم ، وأرادوا أن تراهم الاجيال التي تخلفهم على ضوء ملائم . فقد كتبت سيرة امارة شارل مارتل وبيين القصير بايحاء من اخ شارل وابنه بشكل تكملة للتأريخ المسمى تأريخ فريديغير حتى السنة ٧٦٨ .

وابتداء من هذا التاريخ عرفت الحوادث من **الحوليات الرسمية** التي كان يحررها رجال الدين في البلاط . فكانوا يجمعون في اطار كل سنة الحوادث التي تبدو لهم أكثر نفعاً من غيرها دون أن يبحثوا عن ايضاح أهميتها . وكانت هذه الحوليات فقيرة رفلاء ، حتى وجد من الضروري معاودة تحريرها حتى عام ٨٠١ .

وقد نسب هذا العمل دون مبرر مقنع الى ايجنهار[1] أمين سر شارلومان ومترجم حياته . وتقف هذه الحوليات عند السنة ٨٢٩ . غير ان التمزق الذي اعتراها فيما بعد قطع هذا المؤلف ، ولم يعرف المحررون أي وجهة يتجهون . ثم اعطيت هذه الحوليات تكملات من جانبين : من فرنسا الشرقية التي أصبحت المانيا . ومن فرنسا الغربية . ففي المملكة الاولى امتدت الحوليات حتى السنة ٨٨٧ وحررت من قبل مؤلفين مختلفين وخاصة مؤلفين من دير فولدا . ومن هنا أخذت هذه الحوليات تحمل اسم « **حوليات فولدا** » . وهي موالية بكاملها الى ملوك جرمانيا . وفي الغرب تابع مجهول سرد الحوادث حتى السنة ٨٣٥ ثم اتمها برودانس ، اسقف تروا حتى السنة ٨٦١ ومن بعده هنكمار مطران رنس حتى وفاته سنة ٨٨٢ . وقد بدل هذا المحرر طبيعتها وجعل

---

(١) ايجنهار Eginhard (نحو ٧٧٥ – ٨٤٠) .

منها يوميات شخصية وعرض فيها أفكاره الخاصة وشكواه وكرهه ، وعند الحاجة تذمره من الملك . وقد وجـدت أقدم مخطوطة لها في دير القديس برتن[1] . وجرت العـادة في تسميتها بهـذا الاسم : « **الحوليات البرتنية** » .

التراجم . — أما سير الملوك فكانت تؤلف نوعاً آخـر للمصادر التـاريخية . وقد اعطى ايجنهـار نموذج هـذه السير في كتـابه « **سيرة شارلومان** » التي الفها بعد موت الامبراطور . وتعتبر من حيث الاسلوب رائعة من روائع النهضة الكارولنجية[2] . ويبدو فيها ان الشكل والمخطط مستوحيان من المؤرخ اللاتيني سويتون[3] .

وهناك كتاب آخر وهو « **اعمال الامبراطور شارلومان** » الذي الفه نوتكر اللجلاج راهب دير سان غال في آخر العصر . وهـو كتاب مغرض والقصص التي يذكرها ليس لها طابع شعبي .

اما لويس التقي فهو بطل مؤلفين نشرا بعـد وفاته : الاول ألفه تيغان نائب اسقف تريف ؛ والثـاني الفه مجهـول اتفق على تسميته بالفلكي بسبب الاهمية التي يعلقها على الحوادث السماوية . وهذان المؤلفان يعارضان ويردان على الاحكام البغيضة التي حمل بهـا على الامبراطور .

اما الملوك الآخرون فلم تؤلف لهم تراجم . بيد ان حكم شارل

---

(١) القديس برتن St. Bertin .

(٢) راجع الدكتور السيد الباز العريني في : « **اينهارات** » ، القاهرة ١٩٥٧ و « **شارلومان** » الذي عربه للمؤلف هـ . و . كارلس — ديفز القـاهرة ١٩٥٩

(٣) سويتون Suétone .

الاصلع كان موضع اهتمام التاريخ . فقد الف **نيثار** Nithard ابن عمه بناء على طلبه كتاب « **تاريخ ابناء لويس التقي** » باللاتينية معتمداً في ذلك على مذكرات شخصية ووثائق رسمية . وفيه يصف الحوادث التي اشترك بها من ٨٤٠ حتى ٢٠ آذار ٨٤٣ غير ان موته المفاجيء في العام ٨٤٤ حال دون متابعة كتابة هذا الاثر التاريخي الوحيد لهـذا العصر .

لقد كان نيثار أميراً من امراء الكارولنجيين ، شغل عـدة مناصب مدنية وعسكرية وكان متعمقاً بدراسة الآداب المقدسة ومثقفاً ثقافة عالية. وبالرغم من انه نصب رئيساً لأحد الاديرة الا انه كان علمانياً يكتب باللاتينية . وفي ذلك دليل على ان الثقافة اللاتينية لم تكن وقفاً على رجـال الدين .

يضاف الى ذلك المؤرخ اللاتيني **بول دياكر** [1] وهو نبيل لومباردي تثقف ثقافة عالية وعقد صلات مع البيت الملكي اللومباردي . وعمـل مربياً لابنة الملك ديديه اللومباردي والف لها قبل ٧٧٤ « ملحق التاريخ الروماني » لمؤلفه ايتروب . وقربه ديديه واطلعه على اسرار كثير من أمور الدولة. ومنذ ٧٨٧ حتى وفاته أقام بول دياكر في دير مونكاسينو حيث اطلق العنان لنشاطه الادبي . واعظم ثمرة لهذا الجهد هو كتابه : « **تاريخ اللومبارديين** » الذي ذهب به من الاصول الاسطورية حتى ٧٤٤ . وقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . وفيه يظهر حياد المؤرخ باسلوب مليء بالحركة والحياة .

كتب السياسة . ـ لقد رأى رجال الكنيسة من واجبهـم ان يسـدوا النصح الى الامراء فمن ذلك انسمارا غدوس [2] أبدير القديس

---

(١) بول دياكر Paul Diacre (٧٢٠ ـ ٧٩٩)

(٢) سمارا غدوس Smaragdus .

ميهيل المتوفي سنة ٨٣٠ الف لشارلمان كتاباً اسماه « **الطريق الملكي** » ، وجوناس اورلئان وجه في ٨٣١ كتابه « **النظام الملكي** » الى بيبن اكيتانيا الاول ؛ وسيدوليوس كتابه « **العمداء المسيحيون** » الى لوثير الثاني ؛ وهنكمار كتابه « **الشخص الملكي ومهنة الملك** » الى شارل الاصلع .

وهذه الكتب التي سميت فيما بعد « **مرايا الامراء** » مخيبة للغاية . فليس فيها ظل لفكرة سياسية ، بل هي مواعظ رخيصة مبتذلة وحض تافه للفرار من الذنب ودعوة لممارسة العدل .

تاريخ الاسقفيات والاديرة . — وبدأت الاسقفيات والاديرة تنحو منحى تراجم البابويات المعروفة باسم « سير الأحبار » وتكتب تاريخها الخاص معتمدة في ذلك على حياة القديسين الحقيقيين جهد المستطاع ، وعلى حوليات صغرى محلية ، وعلى صكوك منسوخة غالبا ، وأخيرا على ذكريات وملاحظات .

سير القديسين . — لقد قل في هذا العصر عدد الشخصيات التي يقدسها الرأي بينا لا نجد في العصر الميروفنجي اسقفاً أو أباً الا واشتهر بأنه قديس بعد موته . فقد عرف ما لا يقل عن ٣٥٠ سعيداً في غاليا وجرمانيا بين اعوام ٤٨١ و ٧٥١ ، على حين اننا لا نجد سوى خمسين قديسا جديدا بين اعوام ٧٥١ و ١٠٠٠ . ومع ذلك فلم يفتر التأليف في سير القديسين .

ولم توضع لكل قديس سيرة ، بل ان عدداً عظيماً من سير القديسين التي كانت معروفة في العصر الميروفنجي اعيدت كتابتها من جديد لتتفق مع روح العصر وذوقه . وقد شذب اسلوب هذه السير حتى افسد الجوهر . وأخطر من ذلك ان الكتاب كانوا يؤلفون سيراً للقديسين حسب انماط معروفة وحسب سير بعض الشخصيات من

العصر الروماني لم يبق منهم سوى اسمهم لتعلق الناس بهم في بعض الاماكن ، وجهلهم لحياتهم ٠

وهناك نوع آخر من حياة القديسين نما نمواً عظيماً وهو نقل رفاة القديس او مخلفاته بسبب الغزو النورماندي وما نجم عنه من نكبات ٠ ان عدداً كبيراً من هذه السير كتب اغتراب رجال الدين وهم ينقلون معهم جثمان القديسين ثم لا يلبثون يعيدونها حيث كانت ، وأحيانا يعادوون الكرون ويفرون ٠ وقصة هذه التنقلات والأسفار مصحوبة بالخوارق والكرامات مثل سير القديسين : دوني ، جرمن ، واست ، فيليبرت ، فاندريل وكلها تتضمن معلومات وفيرة من كل نوع ٠ ويبدو ان القديسين من ابناء البلاد ما كانوا ليشبعوا رغبة التقوى والورع في نفوس المؤمنين ، بل كثيراً ما كانوا يبحثون عن نقل بقايا القديسين من أماكن بعيدة للتبريك ودفع الاذى ٠ ويبدو ان دير القديس — دوني كان مركزاً لهذا الاتجاه الجديد في تأليف سير القديسين ٠

القرن العاشر

ان انحلال الامبراطورية الكارولنجية في الغرب الاوربي كان سبباً في حدوث ازمة سياسية واقتصادية ودينية وفكرية ٠ فقد قاست الحضارة الغربية الكثير من ويلات الغزو والحروب الاهلية وتفتت الدولة وضعف السلطة الكنسية ٠ وكان القرن العاشر عصر قلق واضطراب مرت خلاله الثقافة في فترة انحطاط ، حتى اننا لا نجد في النصف الاول منه شيئاً يذكر الا قليلا ٠

لقد كانت الثقافة ، كما رأينا آنفا ، بيد رجال الدين ٠ ولكن خراب الكنائس والأديرة أدى حتماً الى هذا الانحطاط الفكري ٠ فقد كانت

الكنائس والأديرة في العصر الميروفنجي والكارولنجي قيمة على الثقافة تحافظ بكل تقوى وعناية على التقاليد الادبيـة للعصر القديم الوثني والمسيحي • بيد ان غزو الأبرشيات من قبل اساقفة اميريين مجردين من كل ثقافة روحية ومنصرفين لهمومهم المادية ، وتفرق الرهبـان اثنـاء الغارات الكبرى ، وزوال مدرسـة القصر مـع الامبراطورية ، ان كل ذلك أدى في القرن العاشر الى شروط غير ملائمة لنمو الحيـاة الفكرية وازدهارها •

لقد عرف العصر الكارولنجي بنمو الآداب الكنسية ، وكان قصر آخن (ايكس ــ لا شابل) مركزاً للدراسات الدينية • ولكن هـذه الحركة انتهت بنهاية الامبراطورية حتى اننا لا نجـد في القرن العاشر لاهوتيين او فلاسفة الاماندر •

الشعر الحماسي • ـ أمـا في الأدب الدنيوي فقـد كان الشعر الحماسي ، الذي توحي به الظروف والمناسبات ، يحتل المـكان الاول : فعلى عتبة الدور الذي تلا زوال الامبراطورية الكارولنجيـة اوحت الغارات النورماندية للشاعر الراهب آبّـون [1] بالقصيدة المسماة : « **حصار باريس** » • كتبها في ٨٨٨ وفيها يقص حصار النورمانديين لباريس (٨٨٥ ــ ٨٨٧) • وتعتبر هذه القصيدة وثيقة ممتازة تزخر بالتفصيلات المستعة ، وبفضلها انتعشت حياة الاشخاص والوقائع بأدوار ملؤها الحياة واللـون • فوصف باريس وتحصيناتها ، والمدافعـين والمهاجمين ، وقصة الزحف النورماندي وغير ذلك ، تقرأ بلذة حقيقية بالرغم من الاخطاء وفساد الذوق والاهتمام بالشكل •

اما « **أعمال الملك بيرانجية** » التي تصف النضال الذي قام به بيرانجيه

---

(١) آبون Abbon راهب دير القديس جرمان دي برية (٨٥٠ ــ ٩٢٣)

ملك ايطاليا فهي أبعد من ان تكون لها نفس القيمة ، لأنها تخلو من البحث الصابر ، ويغلب عليها المدح الفخم ، ولكنها تزود بمعلومات قيمة عن المنازعات السلالية التي قامت في شبه الجزيرة الايطالية .

ريجينون بروم (١) . – أما التاريخ المنثور فلم ينتج ، فيما عدا تكملات الحوليات الكارولنجية ، الا اثراً له بعض الأهمية وهو : **« تاريخ ويجينون بروم »** وليس لهذا التأريخ من أهمية الا فيما يتعلق بالحوادث المعاصرة ، والقسم الاول جمع مما الف به غيره ، وكذا الحال في بداية الثاني من ٧٤١ الى ٩٠٦ . اما عمل ريجينون الاصيل فيتضمن تاريخ السنوات الاخيرة من القرن التاسع والسنوات الاولى من القرن العاشر . ويمكن ان يؤخذ عليه قبوله الأخبار الشفوية التي تتناقل حوله واستسلامه لتقليد المؤلفين القدامى . ولكن سرده للحوادث ببساطة واعتدال ، جعله مستساغاً وابعد عنه الجفاف العادي الذي يرى في الحوليات . كما ان الاحكام التي تصحب سرده تدل على روح في تقصي الحوادث .

الفقر الادبي . – توفي ريجينون عام ٩١٥ ولم ينتج التاريخ بعده ، كسائر الانواع الادبية الأخرى ، شيئاً يذكر قبل عصر اوتون الكبير ، الذي سيشهد بداية نهضة ادبية تعاصر وتساير قليلا او كثيرا رجعة الامبراطورية . فحتى ذلك التاريخ كان العالم الغربي فريسة المحن ، يشكو فقرا فكريا مدقعا . واذا ما استثنينا المؤلفات التي أتينا على ذكرها اعلاه ، لا نجد الشعراء الغنائيين من مدرسة القديس غال ، تلاميذ نوتكر الذي توفي عام ٩١٢ ، وما زال ينتسب الى العصر الكارولنجي ، كما لا نجد بين واضعي سير القديسين ، ومنهم القديس

---

(١) ريجينون بروم Réginon de Prüm . توفي عام ٩١٥

اودون[1] ، من يستحق الوقوف عنده • وكذا الحال فيما يتعلق بالحياة الفنية •

اليقظة الدينية • ـ لقد ارتسمت معالم هذه اليقظة الدينية منذ آخر القرن العاشر • وكان اول ظاهرة لها انتشار الطريقة الرهبانية المعروفة بنظام كلوني • وقد استلهمت هذه الطريقة كثيراً من التقاليد البندكتية التي سبقتها في القرن السادس ، الا ان التجديد الذي قامت به كان في تفوق العمل الفكري بالنسبة الى العمل اليدوي • هذا بالاضافة الى انه كان في حوزة هذه الطريقة في دير كلوني مكتبة فخمة تضم مخطوطات ثمينة ومؤلفات كبرى تتضمن دراسة مذهب آباء الكنيسة •

الحركة الادبية • ـ لقد صحب النهضة الدينية نهضة أدبية بدأت تظهر حوالي العام ٩٦٠ وكانت على صلة مع الاحداث السياسية التي كان منها رجعة الامبراطورية في الغرب الاوروبي على يد اوتون الكبير• فقد عمل الاباطرة السكسونيون والامبراطورتان اديلاييد Adelaïde وتيوفانو Theophano اكثر من غيرهم على تشجيع الآداب الدنيوية التي وقعت في حال سبات وخبال في النصف الاول من القرن العاشر ، وسعوا في جذب الكتاب الى بلاطهم ودفعوا نشاط الأديرة بالحماية والرعاية •

ليودبراند كريمون[2] : ـ ان رجعة الامبراطورية في الغرب في ٢ شباط ٩٦٢ نشطت المؤرخين • فبعد سنتين على هذا الحادث الف ليودبراند اسقف كريمون كتاباً تحت عنوان : « **كتاب الحوادث التي جرت للامبراطور اوتون الكبير** » •

كان ليودبراند من رجال البلاط لدى بيرانجيه ملك ايطاليا ، ثم

---

(١) القديس اودون St. Odon اب دير كلوني (٨٧٩ ـ ٩٤٠) •

(٢) ليودبراندكريمون Liudprand de Crémone (٩٢٠ ـ ٩٧٢) •

اختلف معه وأخذ يخدم المصالح الجرمانية في شبه الجزيرة الايطالية ليثأر لنفسه من الظلم الذي لحق به واعتبر نفسه ضحيته • والحق يقال ان « **أعمال اوتون** » ليس مؤلفه الأساسي ، فقد الف في العام ٩٥٨ كتاباً يسمى Antapodosis وحاول فيه ، بحجة تأليف تاريخ لعصره ان يهيىء رجعة الامبراطورية مشيداً بمدح العمل الذي قام به اوتون الاول، وجاحدا لكل من وجهوا السياسة الايطالية منذ آخر القرن التاسع مهما اختلفت القابهم ولذا فليس للـ Antapodosis سوى قيمة تاريخية ضعيفة فهو مؤلف قدح ومدح معاً يكشف عن صفات المؤلف الادبية ، لان ليودبراند يجيد بخبث في سرد قصص حقيقية او منتحلة ، ولكنها على كل حال ، جائرة على اعدائه ، كما يجيد في رسم صفات وملامح حاقدة أو هجائية ساخرة • لقد كان متهكماً لاذعاً يعرف كيف يكون في المناسبات مؤثراً ومهيجاً للعواطف : فسرده للحوادث العسكرية الكبرى في عهد اوتون الكبير تعتبر من افضل اجزاء مؤلفه •

فيدوكند كورفيه(١) : — هو مؤرخ آخر للسلالة السكسونية في جرمانيا : ويختلف عن ليودبراند ، و « **الكتب الثلاثة في الحوادث التي جرت للسكسونيين** » التي وضعها بين ٩٦٥ و ٩٦٧ تتضمن تاريخ ساكسونيا منذ اصولها الخرافية حتى عصره ، وتمجد الشعب السكسوني اكثر بكثير من المليك الذي شرفه ونشر شهرته • وبينا ليودبراند لايهتم بالصحة الا قليلا فان فيدوكند اراد ان يصنع مؤلفاً تاريخياً حقاً وصدقاً: فاجلاله للسلالة الاوتونية لم يؤثر على حياده ، وعند الحاجة ، احترامه لاعداء الامبراطور العظيم • وهو يستحق ان يذكر في سجل الكتاب العسكريين • فالصفحات ، التي خصصها لبعض الوقائع الحربية والثورات، قوية في اعتدالها • وكذلك أنتج التاريخ الالماني والايطالي في زمن

---

(١) فيدوكند كورفيه Vidukind de Corvey .

لاوتونيين تآريخ نادرة مثل «**تاريخ بنوا جبل ـ سقراط**» وهو مجموعة كبيرة ذكرت فيها نكبات المسيحية بعبارات مؤثرة ، كما تضم تراجم كتبت بشكل مرض وتتناوب فيها التوسيعات التقليدية والقصص الدقيق الذي يتمم قصص ليودبراند كريمون وفيد وكند .

الشعر الحماسي : روزفيتا(١) : لقد اوحى عمل اوتون الكبيرايضا قصيدة حماسية نظمتها روزفيتا الراهبة في دير غاندرسهايم[٢] . لقد فتحت الموهبة الشعرية لهذه الراهبة الفتية بقراءة الاساطير المأخوذة من الاناجيل المنتحلة ومن سير القديسين . وبناء على طلب الام جربرج ابنة أخ اوتون الكبير بدأت بعد تتويج الامبراطور عام ٩٦٢ بنظم « **قصيدة الامبراطور اوتون** » ومجدت فيها « **أعمال القيصر أوغست** » . وهذه القصيدة نص رسمي للحكم لان البلاط نفسه قدم لها وثائقه . ولكن الحوادث العسكرية أو الدبلوماسية لا تحتل فيها المكان الذي تحتله عند ليودبراند او فيدوكند . لقد ذكرت روزفيتا برقة تقية الحياة الخاصة لاسرة الامبراطور التي تشعر نحوها بالعطف والاجلال : ففي شعرها يبدو اوتون داود ثانياً بعثه الله ليخزي الوثنيين ويؤمن سلام الكنيسة ، وشخصية أرسلتها العناية الالهية لسلام العالم .

ونظمت روزفيتا قصيدة أخرى « تاريخية » على شرف ديرها تسمى « **مؤسسة دير غاندرسهايم** » ، وقطعاً مسرحية مجردة من كل ... حتى انه يمكن ان توصف بالقصص الحماسية الحوارية . وبالرغم ... الغاية الاخلاقية التي تعترف فيها بصراحة ، فهي لا تتراجع أمام تصوير المشاعر الحسية التي تنم عن الهوى . وتأثير الشاعر اللاتيني

(١) روزفيتا Roswita .

(٢) غاندرسهايم Gandersheim .

تيرانس[1] واضح في هذه الآثار الأخيرة • وفي ذلك ما يدل على صلة الاديرة الالمانية بالأدب القديم •

ايكهارد القديس غال(٢) : ـ لقد كانت روزفيتا تمثل حركة الشعر في العصر الاوتوني اكثر من أي شخص آخر ، وكان لها منافسون نخص بالذكر منهم ايكهارد راهب دير القديس ـ غال في سويسرا • فقد نظم منذ عصر هنري الاول ، أي حوالي العام ٩٣٠ قصيدة قص فيها في ١٤٥٦ بيتاً اسطورة فالتاريوس ابن ملك اكيتانيا وخطيبته هيلدوغارد وتتلخص في انهما ارسلا رهينتين لدى آتيلا زعيم قبائل الهون فأسرهما• ولكنهما استطاعا ان ينجوا من الأسر ويتزوجا • وهذه القصيدة تعتبر قصيدة غنائية قومية تمجد فيها ، بشكل شخصي ، فضائل جرمانيا الحربية مع ما يعدلها من عاطفة مسيحية ظاهرة •

فلودوآر رنس(٣) : ـ يتمثل تاريخ العصر في فرنسا بأدب فلودوآر وهو مؤرخ فرنجي يكتب باللاتينية • ولد في ايبرنيه عام ٨٩٤ ومات نحو ٩٦٦ • عمل كاهنا قانونيا في كنيسة رنس • كتب تاريخ كنيسته « **تاريخ كنيسة رنس** » **وحوليات** تغطي الدور ٩١٩ ـ ٩٦٦ • وبالرغم من ميله المفرط للحوادث الاسطورية والعجيبة فان معلوماته بوجه عام موثوقة يطمأن لها • الا انه لايضاهي من حيث القيمة الأدبية ليودبراند كريمون بل وحتى فيدوكند •

ريشيه راهب دير القديس ريمي (٤) : ـ كان ريشيه راهبا في دير

---

(١) تيرانس Térence .

(٢) ايكهارد القديس ـ غال Ekkehard de Saint - Gall .

(٣) فلودوآر رنس Flodoard de Reims .

(٤) ريشيه Richer .

القديس ــ ريمي في مدينة رنس • الف تاريخاً يشمل الدور (٨٧٩ ــ ٩٩٥) تمم به حوليات هنكسار مطران رنس • كان ريشيه كاتبــا حقا يهتم قليلا بالصحة والضبط ، معجبا بالمؤلفين اللاتينيين القدامى وخاصة سالوست • فقد كان يقلده باستمرار وبشكل موفق لحسن الحظ • ولقد امتاز دون سائر مؤرخي عصره بحس مرهف يعرف كيف يصور التفصيلات بمهارة وفن وحياة • ويعتبر قصصه من أحسن القصص الذي كتب في آخر القرن العاشر • غير انه لم يكن في كل ذلك مؤرخاً ولذا لا يمكن الاعتماد عليه والثقة بأخباره •

القرن الحادي عشر

لقد عرف القرن العاشر ، وخاصة فترة الاباطرة الاوتونيين منه ، مؤلفات ادبية هامة في حقل الشعر والتاريخ ، اما في غير هذين الميدانين فلا يستحق الذكر منها الا مؤلفات جيربرت[١] • فقد كان مفكرا وكاتبا من الطراز الاول ورسائله يمكن ان تضاهي رسائل اشهر مؤلفي العصر القديم • ولذا كانت النهضة محــدودة في اغراضها الأدبية كما هي محدودة في الزمان لأن الشعراء بعد زوال السلالة السكسونية أصبحوا نادرين ، ولا نجد في القرن الحادي عشر اسماً يمكن ان يوازي روزفيتا: فلا الألماني ريوديليب الذي وضع اول رواية في الفروسية ، ولا الفرنسي سيرلون الذي نظم قصيدة في مدح غليوم (وليم) الفاتح وقصيدة في هجو جيلبرت أب دير القديس مارتن في مدينة كَنْ ، ولا الايطــالي دونيزون الذي غنى مجد الكونتس ماتيلد ، يستحقون ان يلفتوا النظر زمناً طويلا • يضاف الى ذلك ان التاريخ زال كنوع ادبي : فاذا وضعنا جانبا بعض التراجم مثل ترجمة حياة روبير التقي التي وضعها هيلغاود ،

---

(١) جيربرت Gerbert .

وترجمة كونراد الثاني التي وضعها فيبون ، او بعض المؤلفات الشخصية مثل تاريخ رؤول غلابير ، رأينا ان التاريخ قد آل ، حتى عصر الحروب الصليبية الى حوليات جافة وباردة تذكر فيها الحوادث دون نظـام ودون أي اهتمام بالتأليف . وهكذا لم تولد بعض الحوادث العظيمة ، كفتح النورمانديين لانكلترا ، أو النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ، سوى تآريخ مجردة من كل اهتمام ادبي . وفي هذه الطبقة من التآريخ يجب وضع مؤلفات غليوم جو مييج ، وغليـوم بواتيه ، وبرنولـد كونستانس ، وايكهارد اورا . الا انه يجب أن نذكر أن هوغ فلافيني وسيجوبير جمبلو قد وضعا في آخر القرن الحادي عشر في قصصهما بعض النور واللون ، وذكرا ، ولو من بعيد ، بكتاب العصر الاوتوني .

مطرزة بايئو(١) : — ويضاف الى هذه المؤلفات مصدر قصصي آخر وهو مطرزة بايئو . وهي تاريخ مصور على قطعة قماش مطرزة طولها ٧٠م وعرضها ٥٠ سم ، وتضم ٦٢٣ شخصا . تصور هذه المطرزة فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح حتى معركة هاستنغس في ٧٩ لوحة مع سلسلة نقوش كتابات . وقد اختلف في تاريخ صنع هذه المطرزة وحامت حولها مناقشات عديدة . ويعتقد من صور الاشخاص المعروفين في محيط غليوم الفاتح ، ان هذه المطرزة معاصرة له وانها صنعت بايحـاء من اسقف بايو ، اخي غليوم . وتعتبر هذه المطرزة نوعاً جديداً للتاريخ المصور .

* * *

يبدو جلياً ان قيمة هذه التآريخ متفاوتة جداً لا سيما وان معظم مؤلفيها ساهموا في الحياة السياسية ، هذا مع العلم بأن التراجم كلمـا

---

(١) مطرزة بايئو Tapisserie de Bayeux .

أصبحت شخصية وأدبية كلما ضعفت قيمتها التاريخية . ولكن لا بد من الاشارة الى ان التقدم ملحوظ . وذلك لأن هذه المؤلفات أخذت تعتمد بالتدريج على الوثائق الرسمية ، وأحيانا تنقلها بتمامها او تستشهد بها ، بالاضافة الى جمع المعلومات الشفهية الشخصية .

مؤرخو الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٥ – ١٠٩٩) : – لقد أوجدت الحرب الصليبية عدداً من المؤرخين ، ولكن هؤلاء وجدوا أمام صعوبات جمة . فمن ذلك ان هذه الحرب وقعت في ديار الاسلام بعيداً عن الغرب الاوروبي ، وان الصليبيين الذين اشتركوا في هذه الحرب كانوا يميلون الى المبالغة عند سرد الحوادث ، فضلا عن ان ذكريات هذه الحوادث يمكن ان تنسى مع الزمن وتعاقب الاحداث ، وان الحرب الصليبية قامت في البدء على عناصر فرنسية وما لبثت ان أصبحت مشروعاً دولياً ضخماً وكان كل مؤرخ ينزع الى تمجيد زعمائه والجيش الذي ينتسب اليه . ونظراً لكثرة الجيوش وتعددها لم يقف المؤرخون على احوالها العامة ، بل انهم قصوا مارأوه أو سمعوا به . وهذا يوضح كثرة الأساطير التي رافقت قصة الحرب الصليبية ، ويدعو الباحثين الى نقد دقيق للمصادر وتصنيف زمني لمؤرخي هذه الحرب مع دراسة كل منهم دراسة عميقة ووافية .

لقد عرف تاريخ الحملة الصليبية الاولى اربعة مصادر معاصرة وهي :

١ – « تاريخ الحملة الصليبية الاولى » لمؤلف مجهول .
٢ – « تاريخ الفرنجة الذين فتحوا القدس » لمؤلفه ريمون ايغيل .
٣ – « تاريخ حملة القدس » لمؤلفه البير ايكس – لاشابل (آخن) .
٤ – « تاريخ القدس » ومؤلفه فوشيه شارتر[1] .

---

(١) راجع الفصل التالي : مؤرخو الحروب الصليبية .

القرن الثاني عشر والثالث عشر

لقد عنيت الآداب التاريخية اثر تفتتت الامبراطورية الكارولنجية بذكر الاحداث المحلية ، لا سيما وان النظام الاقطاعي قد نضج واستقر في كل من فرنسا وانكلترا وايطاليا باستثناء المانيا . فقد شذت عن ذلك لأن اوتون الكبير ، مؤسس السلالة السكسونية في جرمانيا ، استطاع ان يوطد السلطة الملكية ويخضد شوكة الامراء الاقطاعيين مستعيناً برجال الدين الذين قربهم واكرم مثواهم .

وفي الحقيقة لقد كان النظام الاقطاعي بطبيعته مبنياً على التجزئة الارضية . وهذا ما جعل لكل امارة من الامارات حياتها الخاصة . وقد وجدت حوليات محلية ديرية تكمل الحوليات الكارولنجية ، وتكتب يوما فيوما أو على مراحل متعاقبة . وهذه الحوليات تختلف من حيث قيمتها التاريخية وعددها بحسب المناطق .

كان بين الاديرة المحيطة بباريس ، دير القديس — دوني يتمتع بشهرة واسعة . فقد كان الملك بحسب التسلسل الاقطاعي تابعا له بسبب بعض اقطاعاته ، وفي أوقات الخطر يأخذ الراية منه طلبا للحماية والبركة. وكان هذا الدير مدرسة يربى فيها ملوك فرنسا ، ومدفناً تصف فيه قبورهم ، ومهداً لتاريخ فرنسا الذي وضع حجر الاساس فيه أحد رؤساء هذه المؤسسة وهو الأب سوجر .

سوجر[١] : — لقد تربى سوجر في دير القديس دوني ، وكان يجلس على مقاعد التدريس الى جانب الملك لويس السادس في المستقبل. واتته فكرة تأليف تاريخ المملكة الفرنسية ، فاختار من مكتبة الدير نصوصاً ترجع الى مختلف العهود وتابعها ثم استنسخها على الرق .

---

(١) سوجر Suger .

وما زالت هذه المخطوطة محفوظة في مكتبة مازاران بباريس وهي أقدم تاريخ لفرنسا •

ومن المعلوم ان روح النقد التاريخي كان مفقودا آنذاك • ولذا فان النصوص التي جمعها سوجر متفاوتة القيمة ، وتتصف بالطابع الاسطوري أكثر من الحقيقة •

وقد اكملت هذه المخطوطة باضافات عديدة كتبت في الدير في اوقات متعاقبة • وآخرها سيرتا القديس لويس وفيليب الجريء اللتان كتبهما غليوم نانجي[1] ، ثم وضعت مجموعة لاتينية تسمى « تآريخ دير القديس دوني » ثم في مجموعة فرنسية موازية تسمى « أمهات تاريخ فرنسا » •

يعتبر سوجر من اعظم رجال العصر الوسيط ثقافة • كان قصاصاً يجيد سرد الحوادث والنفوذ الى نفسية الاشخاص • ترك عن الملك لويس السادس السمين ، وصفاً مطبوعاًبالاعجاب العميق ، ولكنه حقيقي صادق بل وفيه شيء مؤثر يضاف الى سحر « **حياة لويس السادس السمين** »التي الفها بين ١١٣٨ و ١١٤٥ • وعلى الرغم من رجاحة عقله ، كان متحمساً عاطفياً ولهاً مغرما بجميع الذكريات التي تربطه بديره • وعندما هزم الامبراطور الجرماني هنري الخامس عام ١١٢٤ اندفعت وطنيته بغناء حقيقي • وبالرغم مما كان عليه من نقص ذوق وقلة رشاقة واسلوب معقد يقلد فيه المؤلفين القدامى ، فان « **حياة لويس السادس السمين** » تظل بعفويتها وصدقها أثراً من أهم آثار الأدب اللاتيني في القرن الثاني عشر • ومؤلفها شاهد عيان وواقف على الحوادث والأخبار ومشاور للملك ومعتمد على معرفة بالوثائق • كما يدل من بعض الوجوه

---

(١) غليوم نانجي Guillaume de Nangis .

على الدور الذي يجب ان يلعبه المؤرخ • ولكنه غير حيادي ، فهو يميل الى المدح واعطاء العبرة ليبين للملك لويس دوره الذي يجب أن يلعبه •

غيبر نوجان : - تولى غيبر نوجان رئاسة دير نوجان سوكوسي عام ١١٠٤ وتوفي في عام ١١٢٤ • الف في السنوات الاخيرة من حياته تسمى « **حياتي الخاصة** » وقلد فيها « **اعترافات** » القديس اغسطين • وهذا الكتاب يختلف عن الكتب التي كتبت في ذلك الحين • ففيه يستعرض ببساطة حية الظروف التي اشترك فيها ويقص بغبطة ذكريات شبابه وانطباعاته عن الوسط العائلي الارستقراطي الذي نشأ فيه في بوفيه ويرسم المراحل الأساسية لتاريخ ديره وكنيسة لان دون ان ينسى ثورة هذه المدينة (القومون) التحررية من ربقة الاقطاع •

ولكن اثــره الاساسي والهام هو « **تاريخ الحروب الصليبية** » الذي يشمل الدور (١٠٩٥ ــ ١١٠١) [1] ولــه « **كتاب في التبشير** » وكتب « **أماديح العذراء** » و « **كتاب مخلفات القديسين** » •

مجموعات الرسائل : ايف شارتر[2] : ـ كان ايف اسقف مدينــــة شارتر ، اشتهر برسائله التي تدشن مجموعة رسائل القرن الثاني عشر • وكان حقوقيا ساهم في الامــور السياسية ، ومشاورا يصغي اليــه البابوات ويعملون بنصحه في كل ما يهم علاقاتهم مع كنيسة فرنسا والملكية • ولهذا السبب كان يتمتع بسلطة واسعة • ترك اكثر مــن ثلثمائة رسالة موجهة في معظمها الى الملوك او الى الاساقفة ، وفي هذه المراسلات معلومات ثمينة تتعلق بتاريخ السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر والسنوات الاولى من القرن الثاني عشر • وفيها نجــد

---

(١) راجع الفصل الثاني •

(٢) ايف شارتر Ives de Chartres .

صفات الشخصيات المرموقة آنذاك وقد رسمت بحماس ورشاقة تجعلان قراءتها جذابة ومثيرة .

مؤرخو الحروب الصليبية : ـ وفي القرن الثاني عشر استمرت الكتابة في تاريخ الحملة الصليبية الاولى باستخدام القصص الاصيلة. وأهم من كتب في هذا العصر باللغة اللاتينية :

روبير الراهب : ـ كان أباً في دير القديس ريمي في رنس عام ١٠٩٤ . طرد من الجماعة عام ١٠٩٦ ـ ٩٧ ثم حج الى الديار المقدسة حوالي العام ١١٠٠ وألف كتابه في العام ١١٠٧ ويبدو ان تاريخ المؤلف المجهول عن الحرب الصليبية الاولى كان تحت يده .

رؤول كن[1] **:** ـ ذهب الى بلاد الشرق عام ١١٠٧ . وكان متعلقاً بتانغرد أحد زعماء الصليبيين . ألف كتابه **« أعمال تانغرد »** ، وفيه يمدح الامراء النورمانديين ويقدح أهل الجنوب في فرنسا ، وفيهم يقول « الشماليون للحرب والجنوبيون للاكل والشرب » .

بودري بورغوي[2] **:** ـ لقد أعاد بودري بورغوي بعد ١١٠٧ نشر كتاب تاريخ المؤلف المجهول وعدل فيه وأضاف اليه معلومات شفهية. وغرض الكتاب في الغالب الاشادة والمدح .

ايكهارد اورا : ـ وهو مؤلف الماني استوحى من المصدر نفسه . وفيه صدى للرأي الالماني[3] .

غيبر نوجان : ـ وكذلك قام غيبر نوجان بتعديل تاريخ المؤلف المجهول بشواهد أخذها عن المؤلفين السابقين .

---

(١) رؤول كن Raoul de Caen .

(٢) بوردي بورغوي Baudry de Bourgueil .

(٣) ايكهارد اورا Ekkehard d'Aura . راجع الفصل التالي .

ومن هذه الدلائل يبدو ان هذه المصادر الثانوية ذات قيمة محدودة بالنسبة للمؤلفات الاولى . ولكن أهميتها عظيمة من الوجهة الادبية .

ويضاف الى هذه المصادر « **اغنية** » ريشار الحاج التي استوحاها من قصص الحرب الصليبية الاولى ثم عدلت وأصبحت تدعى « **اغنية انطاكية** » .

الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر : ـ أهم من كتب في هذه الحــروب :

اودون دوي : ـ كان كاهنا لدى ملك فرنسا لويس السابع وامينا لسره ، ومرافقه في الحرب الصليبية . ألف كتابه « **رحلة لويس السابع الى الشرق** » وهذا الكتاب هو الاثر الوحيــد الذي لا توجد له الا مخطوطة واحدة[1] .

اوتون فرايزنغ : ـ هو اسقف ومؤرخ الماني اشترك في الحملة الصليبية التي قادها ملك المانيا كونراد الثالث . وقد اوحى اليه ابن أخيــه الامبراطور فريــديريك باربروس بكتابة « **أعمــال الامبراطور فريديريك الاول** » . ولهذا الكتاب تكملة تصل الى ١١٧٠ أضافهــا رافين[2] Rahvin .

الدول اللاتينية في آسيا في القرن الثاني عشر : ـ ان أهــم مؤلف كتب في هذا الموضوع هو **غليوم (وليم) الصوري** (١١٣٠ـ١١٨٤)[3] .

التاريخ المنظوم وأغاني الفخر الاولى :ـ أغاني الفخر هي ملاحم باللغة

---

(١) اودون دوي Oden de Deuil .

(٢) اوتون فرايزنغ Otton de Freising .

(٣) راجع الفصل الثاني .

العامية تمجد فيها أعمال بعض الشخصيات المشهورة بمغامراتها ومآثر بطولتها . ولقد كان هذا النوع من الادب في نشأته على صلة وثيقة بالحوادث الكبرى التي مرت في القــرن الحادي عشر وأهمها الحج والحروب الصليبية .

في الاديرة الممتدة على طول الطـرق المؤدية الى دور العبــادة والمزارات وفي الطرق الموصلة الى اسبانيا ، كان المنشدون ، باتفاق مع الرهبان ، يمجدون ويوسعون في غنائهم المراحل التي مر فيها تاريخ الاديرة والتي ذكرت باختصار في الحوليات . وفي الحروب الصليبيــة التي دارت رحاها في اسبانيا في منتصف القرن الحادي عشر ، استيقظت ذكرى المنازعات الكبرى ، التي اصطدمت فيها المسيحية بالاســلام وأخذت تقوى . وكان الفرنسيون الذين يعبرون جبال البرانس يتغنون بذكرى شارلومان الذي سبقتهم ومر في هذه الطريق .

غير ان معظم اغاني الفخر التيترجع الى القرن الحادي عشر مفقودة اليوم ولا تعلم الا من الاشارة لهــا في النصوص . ومع ذلك فقـد احتفظ بقصيدة «**ايزامبارت وغورمون**» التــي يرجع تاريخهــا الى السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر وتغني انتصار ملك الفرنجة . وبين ١١١٠ و ١١٢٠ ظهرت أشهر هذه الملاحم وهي «**أغنية رولان**» وهي قصيدة تتألف من اربعة آلاف بيت نسجت فيها قصة طويلة لحادث عسكري وهو مقتل مؤخرة جيش شارلومان في رونسفال عام ٧٧٨ . وفيها تعدد أعمال البطولة وتعكس حوادث الحرب الصليبية فياسبانيا ، ويظهر رولان ورجاله يكافحون كفــاح المستميت اربعمائة الف مسلم ويتركون أنفسهم يقتلون على أرض المعركة دون أن يطلبوا أي نجدة . وهؤلاء الابطال يمثلون الفرسان الفرنسيين الذين بذلوا دماءهم على تراب ايبريا دون حساب في سبيل الدفاع عن الايمان المسيحي .

وفي القرن الثاني عشر انتظمت البلاطات الاقطاعية • وكان اشهرها جميعاً بلاط آلينور اكيتانيا زوجة ومطلقة ملك فرنسا لويس السابع ، ثم ملكة انكلترا ودقة نورماندیا بزواجها بهنري الثاني من اسـرة آل بلانتا جونيه ، لقد أحاطت هذه الملكة الجميلة اللعوب نفسها بالكتاب والادباء • وفي حوالي العام ١١٥٥ كتب لها الاستاذ واس تحت اسم **« قصة بروت »** تاريخ البروتون الذين يعتبرون سليلي جدهم الروماني القديم بروتوس • ثم ان الملك هنري الثاني كلف الاستاذ واس نفسه كتـابة **« قصة رو »** او **« رولون »** الخاصة بتـاريخ النورمانديين • الا ان عمله توقف فاستأنفه بنوا سنتـ مور وقص في ٤٢٠٠٠ بيت تاريخ أدواق نورماندیا •

لقد كان هدف هؤلاء المؤلفين ان يسلو قراءهم او يلفتوا انتباههم ويثيروا تطلعهم واهتمامهم • ولذا كانت الصحة التاريخية لا تهمهم الا قليلاً • لقد كانت الحقيقة والاسطورة تمتزجان في آثارهم دون تمييز احداهما عن الاخرى تمييزاً كاملاً • ولا شك في ان استخدام هذه الاغاني يجب أن يكون مصحوباً بكثير من الحذر والتروي لأنها تشوه الحقائق وتزيف التاريخ وتنزع الى خلق بطولات أكثر من توخي الصدق والامانة •

التاريخ المنثور • ظهر التاريخ المنثور باللغة الوطنية العامية حوالي آخر القرن الثاني عشر•فقد أخذ العلمانيون يهتمون بالتاريخ ويفضلون القصص القصيرة النثرية علىقصائد واسوسنتمور الطويلة الشعرية ، هذه القصص المترجمة عن التآريخ أو التواريخ العامة ومن هذا النوع ترجمة التاريخ المنسوب الىرئيساساقفة رنس ، تورين ، وهو مجموعة اساطير مأخوذة من اغاني الفخـر وكانت له في العصر الوسيط شهرة عظيمة •

لقد كان ظهور التاريخ المنثور حادثاً هاماً • فحتى ذلك الحين لم يقم بهذا العمل الا رجـال الدين ، الذين يكتبون باللاتينية ، لغة الثقافة ، أو الكتاب المتهنون • اما الآن فان علمانيين بسطاء أخذوا يكتبون ذكرياتهم بلغتهم الوطنية •

الحملة الصليبية الرابعة واللاتينيون في القسطنطينية : ـ كانت الحملة الصليبية الرابعة موجهة في الاصل نحو مصر ، ولكنها انتهت أخيراً بفتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين الفرنسيين بمساعدة البنادقة • ولقد راع هذا الحادث العظيم بعضهم وساء آخرين ، لأن هذه المدينة، التي ما فتئت الأساطير الشعبية تصفها بأنها أروع مدينة على وجه الارض ، استولى عليها الصليبيون مرتين وفي خلال عامين ونهبوها • وكان غرض الحرب الصليبية منذ البدء أن تستعيد قبر المسيح من أيدي المسلمين ولكنها تحولت عن هذا الهدف الى المسيحيين المنشقين (المسيحيين الارثوذكس) في القسطنطينية ونهب ديارهم • ولقد ثمل الصليبيون بالفتح والسلب والنهب فلم يعودوا يهتمون بتنفيذ امانيهم واحلامهم الاولى •

ولقد كانت نظرة المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ هذه الحملة مختلفة فمنهم من اراد بكل بساطة أن يكتب عن العجائب التي شاهدها ، وهذه هي حال **روبير كلاري**(١) ؛ ومنهم من أراد أن يبرهن على صدق نوايا الصليبيين ، وهذه حال **جوفروا فيلهاردون**(٢) •

تبدل الوضع في الشرق والحروب الصليبية الاخيرة : ـ لقد شهد القرن الثالث عشر آخر الحروب الصليبية وتبدل الوضع في حالة

---

(١) روبير كلاري Robert de Clari .

(٢) جوفروا فيلهاردون Geoffroy de Villehardouin .

المسلمين في بلاد الشرق من حسن لأحسن حتى نزح الصليبيون وعادت البلاد لأهلها • وكان حامل لواء هذه الحملة وقائدها ملك فرنسا لويس التاسع أو القديس لويس الذي يحدثنا عنه صديقه وخدينه جان دوجوانفيل في كتابه «**سيرة القديس لويس**» (١) •

القرن الرابع عشر والخامس عشر

لقد نما الادب التاريخي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر نمواً عظيماً • ويلاحظ ذلك في كثرة المؤرخين الذين وصلت الينا آثارهم • ولكن بينا كان أحسن المؤرخين في السابق ، مثل فيلهاردون وجوانفيل ، أمراء كباراً حرصوا على أن يتركوا لانسالهم ذكريات أعمالهم ومغامراتهم ، كان مؤرخو القرنين الرابع عشر والخامس عشر يكتبون للجمهور لأن معظم مؤلفاتهم عرفت في عصرهم ونسخت وقلدت وتممت ، حتى ان بعضهم مثل فرواسار كان لمؤلفه نشرات عديدة متوالية •

وفي الحقيقة ان الحوادث الخطيرة التي مرت في هذين القرنين قد زودت التاريخ خاصة بمادة غزيرة • فحرب المائة عام التي سادت في هذا الدور بدأت حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، ولم تكن بادىء بدء سوى نزاع سلالي يدعمه فيليب قالوا وابنه يوحنا الصالح ضد مزاعم ملك انكلترا ادوارد الثالث ، وما لبث أن بدلت طابعها ، وأصبحت منذ حكم شارل الخامس حرباً قومية حقيقية بين فرنسا وانكلترا ، ثم تعقدت هذه الحرب باضطرابات سياسية واجتماعية في كل من البلدين • وكان لهذه الحوادث صداها في اوربة كلها • واضطرب

---

(١) راجع الفصل التالي •

وضع الكنيسة الغربية أيضاً بانقسامها الاكبر ، وانتصر الترك على السلافيين والبيزنطيين وأقاموا في اوربة وانتهوا بالاستيلاء على القسطنطينية .

وتحول الادب التاريخي ، كما تحول التاريخ نفسه . ففي بداية القرن الرابع عشر كانت الحرب حرب فروسية ، وظلت الطبقة النبيلة في هذه الحرب عنصراً أساسياً وترى فيها فرصة لاظهار شجاعتها وبسالتها . غير ان نتائج الحرب كانت مغايرة تماماً . وقد وصف المؤرخون هذا المجتمع الفروسي وجعلوا من تاريخ عصرهم قصة فروسية حقيقية . أما العوامل التي تحرك الناس وتدفعهم ، والاسباب العميقة للمنازعات فكانت تغيب عنهم ، أو لم تكن لتشغلهم أو تهمهم . ولعل أفضل هؤلاء المؤرخين فرواسار الذي استطاع أن يصور هذه الحياة الصاخبة ويعطي عنها تفاصيل دقيقة في تآريخه .

فرواسار (١٣٣٣ - بعد ١٤٠٠) (١) :- ولد فرواسار في فالانسيين في شمال فرنسا عام ١٣٣٣ . وبعد أن قضى عنفوان شبابه في حياة الانس والادب والملاطفة والغزل والشعر ذهب في العام ١٣٦١ الى انكلترا وقصد ملكتها فيليب هاينوت احدى بنات وطنه وزوجة الملك ادوارد الثالث ، وقدم لها دليلاً على موهبته كتاب تأريخ يضم قصة الحوادث التي جرت منذ ١٣٥٦ . واستقبل فرواسار في البلاط بحفاوة وشجع على المضي في عمله التاريخي . وقد اتيح له في هذا الجو الجديد أن يلتقي بكبار الشخصيات الانكليزية والاسرى الفرنسيين ويستعلم ويتنقل ويسافر ويزور ايكوسيا (سكوتلاندة) وايطاليا عام ١٣٦٧ ويلتقي بالشاعر بترارك . وعند وفاة الملكة في عام ١٣٦٩ قفل راجعاً الى هاينوت وبحث عن حماة آخرين كراماً فالفى بغيته لدى

---

(١) جان فرواسار Jean Froissart .

الدوق فنسيسلاس لوكسمبورغ بن الملك جان بوهيميا وتابع عمله التاريخي ودفع ، معتمدا على استعلاماته الشخصية ، أو لمحاولة له حتى الحوادث المعاصرة • ثم رأى ان قصته لا تأخذ الامور من بدايتها الحقيقية فقدم لها بقصة السنين من ١٣٢٥ الى ١٣٥٦ • وقد اعتمد في كتابة هذا الجزء على تاريخ يوحنا الطيب وتابعه بأمانة وأحيانا بحرفية•

وفي العام ١٣٨٨ قام برحلة الى منطقة بيارن في جبال البرانس ليستعلم عن شؤون جنوب فرنسا ، وليرى بلاط الدوق غاستون دوفوا الشهير ، ثم ذهب الى آفنيون ، وعاد ماراً بباريس ، والف عند عودته كتابه الثالث وجزءاً من الرابع (١٣٩٠) • وفي ١٣٩٥ عبر المانش الى بلاط انكلترا ، فلاحظ انه لا يعرف أحدا وما لبث أن عقد صلات جديدة • ومنذ ذلك الحين لا يعلم شيء كثير عنه ومن المحتمل أن يكون قد توفي في شيميه في هاينوت في بلجيكا اليوم بعيد ١٤٠٠ بقليل •

لم يكن فرواسار ، على خلاف فيلهاردون وجوانفيل بل وحتى روبير كلاري ، رجلا تدفعه مغامرات حياته ليصنع من نفسه مؤرخاً ويثبت ذكرياته • انه كاتب ممتهن ، ثقف التاريخ كما ثقف القصة والشعر الغنائي ، ولم يكن شيئا في الحوادث التي يرويها • لقد أمسك بالقلم في يده ليكتب ويرضي الطبقة النبيلة التي تقرأ كتبه ؛ والحماة الكبار الذين يكافؤونه على مدحه لهم • ومن هنا تأتي هذه الصفة الخاصة بمؤلفه ونظراته المحدودة ، ولذا لا يمكن ايضاح فهمه للتاريخ الا اذا تذكرنا مجموعة نشاطه الادبي •

لقد كان فرواسار قصاصاً وشاعراً يمتاز بخياله الروائي الجميل المعجب • فكل ما اشار اليه من أمور زمانه كان يرضي ويعجب لنفس الاسباب • فقد اختار من حياة عصره كل ماكان قميناً بقصص الفروسية : كالبسالة مهما كانت دوافعها ، والاعياد ، والمبارزات والمغامرات الحربية

التي تظهر فيها الجرأة وشجاعة الرجل ، مهما كان هذا الرجل ، لصاً أو فارساً حقيقياً . وكان يستعلم بدقة وعناية ويقوم بالتحقيق بنفسه . وهذا التطلع يقربه من المؤرخ الحقيقي . كان قوي الملاحظة موهوباً ، يتذوق التفصيل والشرح والتصوير ويتعلق بالاعمال أكثر من الافكار. وتتفق مواهبه مع مناقب ومثالب الاكثرية العظمى من معاصريه . لقد كان مصوراً ماهراً لهذا المجتمع الفروسي المقاتل المحب للزخارف والعابث الذي ملأ الدنيا برونقه وبهائه ومفاخره .

أحب فرواسار الحقيقة على طريقته ، وبحث عنها في البلاطات وفي الطرق ، وطلبها من الشهود وفي مظانها . ولكنه لم يستعلم بصورة كافية وليست طريقته هذه بالطريقة التاريخية الكافية ؛ لأنه لم يستطع أن يستخلص الا نوعاً من واقعية وظاهراً جذاباً وسطحياً . والحقيقة التي بحث عنها هي حقيقة روائي قصاص أكثر منه مؤرخاً . ولكنه رأى جيداً ، وقص جيداً وعرف كيف يُثري غيره ، وكيف يخرج الانفعالات البسيطة والقوية من النفوس التي لا ينفذ الى جميع أسرارها. لقد عرض كل ذلك في صفحات كثيرة مشرقة وبلغة من اغنى لغات العصر الوسيط وأكثرها ألواناً . ولكن هذا العرض كان ينقصه الرابط المنطقي الذي يربط بين مختلف أجزائه .

ونظم فرواسار قصيدة تتضمن قصة طويلة تدعى « **ميليادور** » Méliador ثم « **قول الفلورن** » (Le dit du Florin) و « **السجن العاشق** » ولكن أثره الهام دون منازع هو تأريخه المعروف باسم « **تآريخ** » السيرجان فرواسار . وهو يمتد من ١٣٢٧ الى ١٤٠٠ ويضم أربعة كتب . بدأ الاول في ١٣٦٩ ثم عدله في ١٣٧٦ ، ثم حرره للمرة الثالثة في ١٤٠٠ . ولا شك في ان لتأريخه أهمية كبرى ولكن شهرته الصحيحة ترجع الى اسلوبه الساحر الاخاذ .

كومين(١) : ــ ولد فيليب كومين في بلاد الفلاندر عام ١٤٤٧ وكان ابوه كولار كومين حاكماً في كاسّل وقاضياً في غان • فقد أباه وهو حــدث السن فكفله ابن عمه ، وتربى تربية عسكرية على نمط أولاد النبلاء في ذلك العصر • وفي العام ١٤٦٤ التحق في خــدمة كونت شاروليه وهو شارل المتهور دوق بورغونيا وظل فيها حتى ١٤٧٢ وقام في أثناء ذلك بعدة مهمات دبلوماسية وابدى حصافة في الرأي واعتدالاً في السلوك • وعلى ما يبدو ان الملك لويس الحــادي عشر قدر فيه هذه الصفات فأغراه • وفي ليل ٧ ــ ٨ آب ١٤٧٢ غادر فرواسار دوق بورغونيا ودخل في خدمة ملك فرنسا وأصبح منذ ذلك الحين نجياً له وصفياً • وما كان من الدوق الا أن صادر أمواله • الا ان الملك زوجه بوارثة غنية ، وهي هيلين شامب ، فأتته بامارة ارجانتون فحمل اسمها وجعل المعاصرون ينادونه السير ارجانتون •

حظي فرواسار بثقة الملك ووقف على مجريات الامور•ومما لاشك فيه ان أهمية أثره ترجع ، في جزء عظيم منها ، الى القيمة الاستثنائية لاخباره بالاضافة الى ذكائه الشخصي • وبعد موت لويس الحادي عشر فقد وظائفه وحظوته بعض الوقت وسجن عام ١٤٨٨ في قفص حديدي من اقفاص سيده القديم • ثم تصالح مع شارل الثامن وتبعه الى ايطاليا وارسل في بعثة الى البندقية • وهذه الحوادث التي تؤلف موضوع القسم الثاني من كتابه هي آخر نشاطه السياسي • وتوفي في ١٥١١•

لقد حرر كومين بين ١٤٨٩ و ١٤٩١ ذكرياته عن حكم لويس الحادي عشر بناء على طلب رئيس اساقفة فينّا آنجيلو كاتو الذي أراد أن يدون تاريخ الملك • وحوالي العام ١٤٩٧ ــ ١٤٩٨ أضاف ذكرياته عن حكم

---

(١) السير فيليب كومين Sire Phillippe de Commynes (١٤٤٧ ــ ١٥١١) •

شارل الثامن • وطبعت « **مذكرات** » كومين عام ١٥٢٤ ولاقت نجاحاً كبيراً واعيد طبعها مرات عديدة •

ليس في كتاب كومين « **المذكرات** » أثر لاهتمام ادبي • فقد كتب على سجيته ولا تخلو كتابته في بعض الاحيان من رفل • ولكنه مراقب بصير يعرف كيف يسجل باعجاب ما رأى وما شاهد ، كما يعرف كيف يبدي ملاحظاته الصائبة على طباع الزعماء وعلى ما يجول في أفكارهم • وهو أكثر من شاهد عيان وكاتب مذكرات ، انه مؤرخ وقاض وواقف على الحوادث يريد أن يرى تسلسلها فيتابع مقاصد السياسيين ويكشف عن الاعمال الاساسية التي أمنت نجاحهم أو أدت الى اخفاقهم • ويحكم دون هوى ، ولا يخشى من الاعتراف بفضائل شارل المتهور والاشارة الى أخطاء لويس الحادي عشر •

كان مراقباً بارداً • وقد استطاع أن يستخلص من مشاهد الامور البشرية أفكاراً عامة تؤلف فلسفته الخاصة • فهو يحب أن يعطي رأيه في الحوادث لا كمؤرخ فحسب بل كأخلاقي أيضاً ، ويرى ان لا عقل دون خطأ كما لا يوجد نجاح أكيد ، وان الانسان يقدر والله يدبر ، وان الاطماع الواسعة تؤول الى الاخفاق والخيبة •

وفي ختام هذه التجربة التي اكتسبها من اختلاطه بالناس وجد في الدين أساساً لحكمه على الاشخاص والاشياء • ورأى ان الامراء الذين يدمون العالم ويتحملون وزر الجرائم في سبيل عظمة زائفة مدمرة ، من الافضل لهم أن يفكروا بأرواحهم • وخرج من هذا الكتاب المفعم بالمشاهد المفرطة والناس الاشداء بمدح الاعتدال وحسن التدبير والعقل المتوسط الذي يخشى انتقام القدر •

وفي الحقيقة ان مذكرات كومين تعتبر وثيقة لا مثيل لها عن عصره ،

وآبدة لذكاء انسان ، وكتاباً من كتب الادب الكبيرة لا يضاهى ، لولا ما يعوزه بالرغم من كل شيء من رقة وعذوبة ومن موهبة فنية علوية .

* * *

وهكذا نرى ان المؤلفات التاريخية التي تعالج تاريخ العصر الوسيط في الغرب الاوربي عديدة ومتفاوتة القيمة ، وان كومين كان ختاماً لتطور مديد عميق . فمذ بدأت معالم اوربة تظهر للوجود التاريخي في القرن الحادي عشر والثاني عشر كان المؤرخون يقصون ما كانوا قرأوه . ومع فيلهاردون وجوانفيل يروون ما كانوا رأوه ، ومع فرواسار ومؤرخي القرن الرابع عشر والخامس عشر ما سمعوه مما كان يقال . اما كومين ، على العكس ، وهذه هي أصالته ، فقد صنع من التاريخ نظاماً فكرياً . فحتى ذلك الحين كان يكتفى بتسجيل الحوادث كما هي بصوابها وخطأها ، وما كان منها محتملاً أو غريباً . اما مع كومين فقد ظهر مفهوم جديد يجعل للفكر وللنقد دوراً لم يكن في الحسبان وما كان ليتصور من ذي قبل .

الفصل السادس

مؤرخو الحروب الصليبية في الغرب

كان زحف الصليبيين الى الشرق حادثاً بالغ الاهمية في حياة الغرب المسيحي ، فتح أمام جماهير أوربة عوالم جديدة تختلف عن عالمهم اختلافاً جذرياً في أكثر مناحي الحياة • ولم تكن الحملات الصليبية عمليات عسكرية ذات أهداف دينية وسياسية فحسب ، بل كانت مخاضاً حضارياً وثقافياً أخذت بعده أوربة سمتا جديداً في مسيرتها التاريخية وانطلقت لتخط الصفحة الاولى في سفر حضارتها الحديثة التي تدين بالشيء الكثير لما نقلته عن الشرق العربي المسلم حين احتكت به ابان الحروب الصليبية وبعدها • وقد ظهرت آثار دهشة أوربة من الرقي والتقدم الذي كان يحياه مشرقنا العربي في تلك الفترة في العدد الضخم من الرسائل والتقارير التي أرسلها الصليبيون الاول الى أهلهم وذويهم وحكوماتهم في الغرب • ويبدو ان الرسائل والتقارير لم تشبع نهم الغرب الى معرفة المزيد من حضارة المشرق وأحداثه ، فأخذ الكثيرون ، منذ الايام الاولى للحملات الصليبية ، بتدوين الكتب التي تبحث في أحداث العصر السياسية ، وتصور المرحلة الحضارية والثقافية التي وصل اليهما الشرق آنذاك • وهكذا فان التراث الغربي الذي يبحث في الحروب الصليبية يتألف من قسمين هامين :

أولا : ـ الرسائل والتقارير وتتألف من مراسلات شخصية بين

حجاج ومحاربين ومغامرين قدموا الى الشرق . وبين أصدقائهم أو أسرهم التي بقيت في أوربة ، كما تشمل أيضاً التقارير والكتابات الرسمية التي كان يرسل بها رؤساء الحملات ورجال الدين الى مراجعهم في الغرب ، وقد كتب هذه الرسائل بابوات وقادة وزعماء ولهـا أهمية كبيرة لأن كاتبيها كانوا معاصرين للأحداث قريبين منها زماناً ومكاناً •

ثانياً : ـ الكتب التـاريخية التي دونهـا مؤرخون حصلوا على الحقائق اما مباشرة أو عن طريق أشخاص آخرين ، ونقلوا من الرسائل والتقارير المختلفة أو عمن سبقهم من مؤرخين •

ولن نقف عنـد هذه الرسائل ولن نطيل الحديث عنهـا لعـدم توفر أكثرها واستعمال المؤرخين لما تبقى منها • وسنقصر حديثنا على المؤرخين الغربيين[1] فقط ، لأن المؤرخين المسلمين الذين اهتموا بأخبار الحروب الصليبية كانوا موضع الحديث في الفصل السابق الذي يبحث في المؤرخين العرب المسلمين في العصور الوسطى •

ريمون ايغيل (٢) ـ واحـد من كثرة من المؤرخين الذين كتبوا حول الحروب الصليبية وكانوا في الاساس رجـال دين • فقد كان ريمون ايغيل في عـداد الجيش الذي شكله ريمون كونت طولوز وسار به باتجاه الاراضي المقدسة في الحملة الصليبية الاولى • وقد رسم (عين) قسيساً عند مسيره الى الاراضي المقدسة ، وحضر المعارك هناك وشجعه صديقه الفارس بونتيوس على تدوين مايجري من حوادث في ساحة المعـركة بقصد اثارة حماس المسيحيين في الوطن • فكان

---

(١) لقد كان من أهم المصادر التي اعتمدناها في تأليف هذا الفصل كتاب الاستاذ الدكتور السيد الباز العريني ـ « **مؤرخو الحروب الصليبية** » القاهرة ١٩٦٢ .

(٢) ريمون ايغيل Raymond d'Aiguilhe .

ريمون يلجأ الى خميته ويعكف على تدوين ما يجري من حوادث حتى مات الفارس بونتيوس أمامه في احدى المعارك ولم ينقطع عن التدوين، واستمر في العمل الذي شجعه عليه صديقه القتيل • وقد بدأ بكتابة تاريخه أثناء حصار انطاكية وانتهى منه في أواخر عام ١٠٩٩ •

وقد اشتهر ريمون بالصدق وبساطة الاسلوب ، ولكن ايمانه بالمعجزات وكرهه لمن يعارضه جعل البعض يشكون في صحة ما يورد من حقائق • ويتصف سرده لأخبار أعدائه بالشدة والغلظة والتجرد عن كل حس انساني ، فهو يفرح لموت آلاف المسلمين ويأسف لهلاك بعض الخيول ، ولا يبالي بسمل عيون الأسرى من الاعداء • ويحفل كتابه المسمى « **تاريخ الفرنج الذين استولوا على بيت المقدس** » بتفاصيل كثيرة تعتبر ذات أهمية أولية بالنسبة لموضوع بحثه ، ولا يفسدها الا انسياق المؤلف وراء الاساطير والعنف والحماس • ويعتبر ريمون ايغيل من ثقاة المؤرخين ، وفي بعض النواحي تؤخذ أحكامه على أساس انها القول الفصل في الموضوع • ويكاد يتفق تاريخه في كثير من النقاط الرئيسية مع ما جاء في كتاب « **أعمال الفرنجة** » ولا سيما في ذكر الحوادث ، أما في الامور الفرعية أو الخاصة فلكل من الكتابين وجهة نظره الخاصة • وقد حدا هذا التشابه بين الكتابين بالبعض الى الزعم بأنهما يرجعان الى أصل واحد ، وان كل ما فعله ريمون أنه زاد بعض التفاصيل على كتاب « **أعمال الفرنجة** » ووسع في بعض أبحاثه • والواقع ان هذا التشابه ناتج عن كلا من ريمون ومؤلف كتاب « **أعمال الفرنجة** » قد كتب ما كتب من وجهة نظر قومه• فريمون ايغيل يكتب بلسان أهل الجنوب ، في حين أن مؤلف « أعمال الفرنجة » يكتب بلسان أهل الشمال ، وكلاهما يروي الحقيقة كما عرفها • ولم تكن الاحداث التي كتب عنها المؤلفان سرية أو تجري بعيداً عن أعين المراقبين ، لذلك جاء ما كتباه متشابهاً في المضمون ولكن

بعبارة مختلفة • ولا يحدث التشابه في العبارة الا في موضعين يشير اليهما النقاد ويعتقدون أنه قد حدث على أيدي ناسخين متأخرين • وقد يكون من الممكن أن ريمون نفسه هو الذي نقل هـذه الفقرات من كتاب « أعمال الفرنجة » وأوردها في مؤلفه لشعوره أن هناك بعض الفجوات في تاريخه ويجب أن تسد • وأياً كان فان « تاريخ الفرنج الذين استولوا على بيت المقدس[1] » يعتبر من خير المصادر تمثيلاً لعصره ولا يستغني عنه باحث في الحروب الصليبية ، وان ما يوجه من نقد الى الكتاب راجع لشهرة مؤلفه بالعاطفية والحماس والانسياق وراء الأساطير • ولكن ريموند ممثل أمين لعصره ومحيطه ، لا تنقصه الجدة ولا الصراحة بالرغم مما اتصف به من غلظة وجفوة • وقد انتهت حياته نتيجة لكارثة اصابته وهو في صحارى فريجيا في آسيا الصغرى •

فوشيه شارتر[2] : ـ ويسمى أيضاً فولبر Fulbert كان قسيساً في شارتر بفرنسا • وبعد مجمع كلير مون ، أي حوالي سنة ١٠٩٥ حمل الصليب وسار ليدل على انضمامه الى جماعة الصليبيين، وقد انخرط في عداد جيش الكونت روبير النورماندي وستيفن بلوا ، وسار معهما عن طريق أبوليا وبلاد اليونان حتى وصل في سنة ١٠٩٧ الى المعسكر الصليبي قرب نيقية • وهناك انضم الى الجيش الصليبي الرئيسي الذي سار الى مرعش ومنها الى الرها بقيادة الكونت بودون• وبعد أحداث دامية في الرها ، واقامة دامت حتى وفاة غودفروا ، توجه الى فلسطين حيث حظي بمقام رفيع في بلاط الملك بودون الاول ، لا يقل عن مقامه عنده حين كان كونتاً في الرها •

---

(١) يطلق على هذا الكتاب في بعض الاحيان اسم : « رؤى بطرس بارثولوميو و آخرين » Visions of Peter Partholomew and Others

(٢) فوشيه شارتر Foucher de Chartres .

ويبدو أن فوشيه لم يقصد في الاســاس أن يكتب تاريخاً بالمعنى العلمي للكلمة . بل أراد أن يدون مذكرات يومية يصف فيها احداث حياته الخاصة وما وقع من احداث عامة شاهدها أو شارك بها أو نميت اليه • وتمتد روايته للاحداث حتى عام ١١٢٧ ، ونجد في هذه المذكرات الطابع الشخصي يتغلب على كل ما عداه : فالامور والاحداث مهمة أو لا أهمية لها بقدر ما تلذه أو تستهويه • وهي تبعاً لذلك مسهب في وصفها أو شرحها أو مشار اليها اشارة سريعة تنم عن عــدم اهتمام الكاتب بها•ومن الممكن أن يقسم كتابه المسمى « **أعمال الفرنجة ورحلاتهم الى القدس** » الى أجزاء عديدة تبعاً للطريقة التي اتبعها المؤلف وأهمية المعلومات التي أوردها•ويعتبر الجزء الذي يبحث في الاحداث التي مرت بين انخراطه في صفوف جيش الكونت روبير النورماندي ووصوله الى الرهــا ، على جانب كبير من الاهمية لدقة وصحة ما يرد فيها من وقائع ولمنهج المؤلف في البحث • ويعتبر تقريره عن الجــزء من الرحلة عبر ايطاليا واليونان من أمتــع وادق ما نعرفه من كتــابات صليبية حول نفس الموضوع • أما روايته للاحداث التي وقعت أثنــاء وجوده في الرها فتعتبر قطعية وحاسمة الا انه كان الشاهد العيان الوحيــد الذي عاش هذه الاحداث وكتب عنها •

وقد شغف فوشيه بكل ما يهمه شخصياً ويناسب مزاجه ، فأسهب في وصف ما يحب ولم ينس التفاصيل • وخير مثال على هذه النزعة عنده الفقرة التي يتحدث فيها عن تنصيب بودون ـ صديقه ـ ملكاً على بيت المقدس باسم بودون الاول • فهو يستهل هذه الفقرة بوصف تفصيلي مثير لمسير بودون من الرها يحيط به مائتــا فارس وسبعمائة راجل ، وانتقاله من مدينة الى اخــرى حتى وصل الى طرابلس حيث اكرمه أميرها وزوده باللحم والنبيذ والخبز والعسل ، وحذره من كمين

نصبه له المسلمون قرب بيروت • ثم يتحدث عن المعركة التي جرت قرب بيروت بين بودون والجيش الاسلامي ، وعن الهزيمة التي لحقت بهم وكيف انه تمنى أن يعود مرة اخرى الى موطنه فرنسا • ثم يسهب في وصف نهاية المعركة وكيف استطاعوا أن يشقوا طريقهم حتى حيفا التي كان يحكمها أمير معاد لبودون ، وبالرغم من ذلك حصلوا على بعض المؤن التي ساعدتهم على الوصول الى بيت‌المقدس حيث استقبل بودون استقبالاً رائعاً من قبل رجال الدين وأمراء الدولة وقوادها • ونصب ملكاً في كنيسة القيامة في مهرجان مهيب • وبعد ستة أيام يغادر فوشيه والملك بيت المقدس ليقوما برحلة في الجزء الجنوبي من المملكة ، يصفها لنا فوشيه بتفصيل كامل ، كما يعطينا وصفاً مجملاً للحملة الصليبية الثانية • ويبدو أنه كان في سنة ١١٠٢ بصحبة الملك بودون في حملته على عسقلان ويافا اذ أنه يقدم لنا شرحاً مفصلاً عن هاتين الحملتين •

وتاريخ فوشيه كان المصدر الذي اعتمد عليه المعاصرون له والذين أتوا بعده • ومن بين الذين نقلوا عنه المؤرخ الفرنسي غيبر نوجان[1] الذي كان رغم اعتماده عليه ونقله المتكرر منه يهاجمه ويسخر منه دون أن يذكر سبباً لذلك • وقد نقل عن تاريخ فوشيه أيضاً المؤرخ اوردريكوس ڤيتاليس Ordericus Vitalis ، وهو فرنسي الاصل ولد في انكلترة وعاش بين سنتي ١٠٧٥ — ١١٤٣ وألف تاريخاً كنسياً عني فيه بأخبار الحروب الصليبية • ويعتبر تاريخ ڤيتاليس من المصادر الاساسية بالنسبة لبعض النواحي كأعمال بطرس الناسك ونبلاء مقاطعة نورمانديا وشمال فرانسا • ولم يكتف ڤيتاليس بما نقله عن فوشيه ، بل أضاف اليه زيادات شيقة وهامة لم تكن كلها صحيحة •

وتجدر الملاحظة أخيراً الى ان تاريخ فوشيه لم يكن سجلاً لما شاهده أو شارك به المؤلف بالذات فحسب ، بل كان يحوي أيضاً

المعلومات التي استقاها من المصادر المختلفة ، أو التي امده بها اشخاص ساهموا بصنع الاحداث • والمهم أن فوشيه كان نزيهاً في نقله لما وصل اليه من معلومات فلم يضف اليه أو يعلق عليه بشيء ، بل ابقاه كما هو• لذا جاء بعض ما في تاريخه مطبوعاً بطابع الخـرافة أو تنقصه الدقة والضبط وذلك بسبب رغبته في الحفاظ على ما سمع دون تحـريف أو تبـديل • ويعتبر فوشيه آخـر المؤلفين الذين كانوا شهوداً عياناً للأحداث التي دونوها ، وستأتينا بعده طبقة المؤلفين الذين نقلوا عن الشهود العيان • وجدير بالذكر أنه كتب كتابه على ثلاث مراحل في سنوات ١١٠١ و ١١٠٦ و ١١٢٤ ــ ١١٢٧ •

وقبل أن ننهي هذه الفقرة عن المؤرخين الذين كانوا شهوداً عياناً للأحداث التي دونوها ، لا بد لنـا من أن نشير الى كتـاب « أعمال الفرنجة » الذي سلف ذكـره أثناء حديثنا عن المؤرخ ريمون ايغيل ؛ وهو كتاب مجهول المؤلف يعتقد المؤرخ رنسيمان[1] أنه ربمـا كان مذكرات أحد رجال الامير بوهيمون الذي ذهب الى القدس مع تانكرد Tancred • وتنتهي هذه المذكرات بقصة معركة عسقلان التي حدثت عام ١٠٩٩ • ويبدو أنهـا نشرت أول مرة سنة ١١٠٠ أو ١١٠١ لأن المؤرخ ايكهارد اطلع عليها سنة ١١٠١ في القدس • وكاتب المذكرات ، كما يظهر ، جندي بسيط يتمتع بنزاهة تتناسب مع امكاناته وثقافته ، ولكنه لا يخلو من تعصب وحب شـديد لبوهيمون • ويعود انتشار كتاب « اعمال الفرنجة » الى اهتمام بوهيمون نفسه به ومساعيه لنشره بين الناس ولا سيما أثناء زيارته لشمال فرانسا عام ١١٠٦ لاعتقاده بأنه يتضمن مديحاً لشخصه • وقد تبنى هذه المذكرات فيما بعد قسيس صليبي آخر اسمه توديبود Tudebod ونشرها بعد أن أضاف عليهـا

---

(١) ــ انظر ــ Steven Runciman - A History of the Crusades, vol. 1., 1951, p. 329.

بعض ملاحظاته الشخصية • واستمر الاعتماد على كتاب « اعمال الفرنجة » من قبل اشخاص مختلفين مثل غيبر أب دير نوجان الذي سنتحدث عنه بعد قليل وبودري وروبر رنس وغيرهم •

غيبر نوجان : — ويعتبر مع توديبود أول المؤرخين الصليبيين الذين نقلوا عن شهود عيان ، واضافوا الى ما نقلوا بعض ملاحظاتهم ومعلومات جديدة ترامت اليهم • وقد ولد غيبر سنة ١٠٥٣ من اسرة نبيلة تعيش قرب كليرمون في فرانسا • وكانت أمه مشهورة بتقواها وورعها ، ونذرته قبل ولادته لخدمة الكنيسة • وقد شب غيبر في جو متدين ، وكانت البابوية أثناء ذلك تمارس نفوذاً دينياً واسعاً في فرانسا، فازداد تعلقه بالدين ولم يلبث أن صار راهباً في دير فلاڤيني Flavigny وهو ما يزال يافعاً لم يبلغ سن الرجولة • ولكن هذا التعلق والحماس للدين بدأ يخف حين شب وترعرع ، وأخذت نوازع دنيوية تظهر في تصرفاته وأعماله • أخذ يقرض الشعر ويعزف الموسيقى ، وكان قصارى أمله أن يصبح شاعراً شهيراً كأوڤيد وڤرجيل وغيرهما • ولكنه لم يلبث أن ادرك أن هذا الاتجاه لا يليق برجل كنيسة ؛ وساعده على التخلص من هذا الانحراف الدنيوي انه التقى بأنسلم رئيس دير بيك Bec الذي سيصبح فيما بعد رئيس اساقفة كنيسة انجلترا • وبتأثير انسلم عاد الى الجادة الكنسية وانصرف الى البحث والتعمق في شؤون الدين فذاعت شهرته وهو ما يزال في مقتبل العمر وعرف في الاوساط الادبية والسياسية قدر ما عرف في الاوساط الدينية • وصار رئيساً لدير نوجان وهو شاب في مقتبل العمر وظل بهذا الدير حتى مات سنة ١١٢٤ •

ورغم انه كان راهباً ورئيس دير ولم يغادر فرانسا فقد تهيأت له الظروف والاتصالات التي ساعدته على كتابة تاريخ للحروب الصليبية• فقد كان له اصدقاء كثر داخل فرانسا وخارجها ، وكان من بين اصدقائه

روبير أمير الفلاندر و ماناس رئيس اساقفة رنس ، وكلاهما ذو اطلاع ومعرفة واسعة بالاحداث . وقد جعل جل اعتماده على كتاب « اعمال الفرنجة » ، وكأنه أراد صياغة الكتاب من جـديد ليصبح مستساغاً عند جمهرة القراء المثقفين الذين لم يستسيغوا اسلوب مؤلفه المجهول . ويبدو أن اسلوب غيبر الادبي وثقافته الواسعة وطـريقته المعقدة قد أضرت بانتشار كتاب « أعمال الفرنجة » لأن لغة مؤلفه الاصلي البسيطة وقربها من أفهام عامة الناس ساعدت على تداوله من قبل عدد اكبر من القراء . ويمكننا أن نلاحظ أن غيبر قد مر في كتابة تاريخه بمرحلتين : الاولى مرحلة اعادة صياغة كتاب « أعمال الفرنجة » ، والثانية مرحلة اضافة ما تجمع عنده من معلومات اضافية . فبعد أن انتهى من المرحلة الاولى وجد أن كمية كبيرة من المعلومات قد ثبتت لديه ولم يستعملها في اعادة صياغة الكتاب فسردها في نهـاية الكتاب الجديد دون أن يكون بينها رابط أو وحدة في الموضوع أو الهدف ، لقد جمع غيبر في نهاية كتابه ما يحفظ من معلومات اضافة على المعلومات الموجودة في كتاب « أعمال الفرنجة » ولم يفرق بين غث وسمين وهام وتافه وكأنه يريد أن يفرغ شحنة من معلومات تجمعت لديه . وتنتهي أخباره في منتصف عهد الملك بودون الاول . على أن أهمية هذا الجزء من الكتاب تتركز فيما يحويه من ملاحظات شخصية تضيف الى معلوماتنا عنصراً جديداً نفتقده عند غيره من المؤلفين . وقد بدأ كتابة كتابه سنة ١١٠٨ ولم ينته منه حتى سنة ١١١٢ على اغلب الظن لأنه يحوي أخباراً جرت سنة ١١١١ .

ايكهارد رئيس اساقفة أورا . — [١] يمثل ايكهارد طبقة من المؤرخين الصليبيين الـذين كتبوا تاريخ هـذه الحروب دون أن يقوموا بدور

---

(١) ايكهارد اورا Ekkehard of Aura

في العمليات العسكرية نفسها . وكان كل الدور الذي لعبه ايكهارد في الحروب الصليبية أنه رافق الحملة الالمانية التي قدمت الى فلسطين سنة ١١٠١ ، وعاد الى المانيا سنة ١١١٥ ونفسه ممتلئة بآمال عراض من بينها أن يدون تاريخاً للحروب الصليبية يكون جزءا من تاريخ للعالم ينوي كتابته ، وقد كتب فعلا كتابه المعروف باسم « **تاريخ بيت المقدس** » الذي احتوى بعض ذكريات اقامته في الاراضي المقدسة وما وصل اليه من أخبار وقصص عن طريق الروايات الشفهية التي سمعها بنفسه أو سمعها بعض اصدقائه ورووها له ، أو ما نقله عن كتب الذين تقدموه . كما كتب تاريخاً للعالم سرد فيه الاحداث حتى سنة ١١٠٠ ، ثم حين قام بالحج الى الاراضي المقدسة اضاف اليه زيادات كثيرة جعلته يمتد حتى سنة ١١٠٦ . ويبدو ان الكتاب بعد هذا قد طرأ عليه تعديلان آخران ، الاول حين طلب اليه ايركمبرت Erkembert رئيس دير كورفيه Corvey أن يضيف بعض الاشياء التي تتعلق بالارض المقدسة ففعل ، والثاني سنة ١١٢٥ حين أكمل كتابة الاحداث التي مرت بين ١١٠٦ و ١١٢٥ . وهكذا اصبحنا نملك أربع نسخ من تاريخ ايكهارد : الاولى التي ينتهي ذكر الاحداث فيها بعام ١١٠٠ ، والثانية تمتد اخبارها حتى سنة ١١٠٦ ، والثالثة هي التي تحوي التعديلات التي اقترحها ايركمبرت، والرابعة التي انتهى من كتابتها سنة ١١٢٥ .

وتوضح الدراسة المقارنة لهذه النسخ الاربع أن الفروق بينها طفيفة وأن النسخة المؤلفة سنة ١١٠٦ لا تختلف كثيرا عن النسخة المعدلة باشراف ايركمبرت . واهمية هذه النسخة الاخيرة تأتي من توسع المؤلف فيها باخبار الاستعدادات لتسيير الحملة الصليبية الاولى وما تحويه من معلومات هامة يبدو أن المؤلف استقاها من اشخاص عاصروا الاحداث وشاركوا فيها . ويعتبر تاريخ ايكهارد المصدر الاساسي الاول من اجل اخبار بطرس الناسك وحملته . ويقول انه في

سنة ١١٠١ وقع في يده في بيت المقدس كتاب تناول بالتفصيل الزمان والمكان اللذين جرت فيهما الحرب التي استمرت ثلاث سنوات فأثبتها كتابه وحفظ لنا هكذا شيئاً كثيراً من هذا الاصل الذي كان يحوي على ما يبدو معلومات هامة وأساسية •

وقد كانت النسخ الاربع من تاريخ ايكهارد شائعة الاستعمال في القرون الوسطى ونقل عنها مؤلفون عديدون بعد أن أجروا في ترتيبها بعض التعديلات وأضافوا اليها ما وقع لهم من زيادات عند غيره • وتجدر الاشارة في هذا المجال الى أن تاريخ القديس باتتا ليوني Chronicle of St. Pantaleone عن الحروب الصليبية ، وهو من المصادر الهامة لهذا الموضوع ، منقول بأكمله عن كتاب ايكهارد مع بعض التعديلات الطفيفة التي تدل على استخدام مصادر أخرى • ويلاحظ المقارن لكتاب ايكهارد مع التواريخ المنقولة عنه أن الفصل المتعلق ببطرس الناسك هو الفصل الذي استحوذ على اهتمام اغلبهم فنقلوه بحذافيره ودون أي تحريف ، كما انهم يوافقونه على اعتبار غودفروي قائدا للجيش وليس الرئيس الذي تم اختياره في بيت المقدس • وايكهارد من المؤرخين الصليبيين الذين يهتمون بايراد المصدر الذي استقوا منه معلوماتهم ، ولكنه كان على ما يبدو غير محقق لأخباره يقبل مايروى له أو ينقله عن غيره دونما تمحيص أو نقد • وقد جرته هذه الخصلة الى أخطاء كثيرة حطت من قدر مؤلفه •

البرت قسيس ايكس لاشابيل (آخن) ــ Albert of Aix (Aachen)

ان اكمل وصف معاصر للحملة الصليبية الاولى هو الوصف الذي يقدمه لنا البرت قسيس ايكس أو (آخن) في كتابه « تاريخ حملة القدس » والذي كتب حوالي سنة ١١٣٠ م • ولا نعرف الكثير عن البرت هذا ، وهناك خلاف دار حول نسبه • وكما دار نقاش حول نسبه فقد دار نقاش آخر بين العلماء حول الفترة التي عاش فيها وزمن تدوين

تاريخه . والمهم أن تاريخه يتضمن وضعا للاحداث التي وقعت حتى سنة ١١٢١ مما يدل على أنه باشر بتدوينه بعد ذلك أي حوالي سنة ١١٣٠ كما ادعينا في مطلع هذه الفقرة . ومعروف أن البرت لم يزر الشرق قط، وقد اعتبر كتابه لفترة طويلة من الزمن وحتى منتصف القرن الماضي أفضل وأوثق مصدر عن الحروب الصليبية ، حتى أن المؤرخ الشهير غيبون كان يمحضه كامل ثقته . ولكن حين نقده المؤرخ فون سيبل وشكك في نزاهته ، غدا من الشائع عند الكثيرين اليوم أن يعاملوه معاملة المصدر الذي لا يتمتع مؤلفه بالثقة وتعوزه الدقة . والواقع أن تاريخ البرت هو عبارة عن مجموعة من الخرافات والقصص والاخبار التي رواها له شهود عيان جمعها لبعضها دون نقد صحيح ودون ذكر لأسماء رواتها . ويلاحظ القارىء لكتابه اهتمامه بسرد الامور الغريبة والحوادث الخارقة وتضخيمه أخبار الفظائع وذهابه في سردها الى حد الخيال . وهو في كل هذا مؤمن أشد الايمان فيما يكتب ، متحمس الحماس له ، لا ينقد ولا يستغرب بل يحاول هو أن يدافع عن الصدق فيه وصحته التي لا تقبل عنده جدلا . ويقول في تبرير ذلك : « منذ زمن طويل ، تشبعت بما سمعته من الامور الغريبة الخارقة ، وتلهفت لان اشترك في هذه الحملة ، ولأن اعبد المسيح (المخلص) في كنيسة القيامة . ولما لم تتحقق هذه الرغبة ، رأيت ان أورد من الأحداث ما بلغني خبرها شفوياً من أولئك الذين شهدوها[1] وقد جمع ماورده من روايات شفوية دون أن يحاول اختصارها أو تنسيقها لان هدفه كان اعطاء صورة كاملةعن عالم مسيحي صليبي تنوعت جنسياته وثقافاته ولغاته ولكن اتحد هدفه وتوثق مقصده . ويمكننا ان نعزو الى حبه ايراد كل ما وصل اليه من معلومات ، التناقضات الكثيرة التي يقع فيها

---

(١) انظر الباز العريني ــ مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٦٨ .

تاريخه ، ويبدو أنه لم يخطر له على بال أن يقارن بين الروايات المختلفة التي وقعت له وأن ينتقي منها أقربها الى الصحة والدقة في رأيه • وقد أدى به هذا الى قبول اكثر من رواية للحادث الواحد رغم ما قد يكون بين هذه الروايات من تنافر وعدم اتفاق • وهكذا كان حديثه عن حياة بطرس الناسك ونشأته الاولى حديثا غير موثوق ، في حين أن اخبار الحملة التي قادها بطرس هذا اخبار موثوقة رويت له على ما يبدو من قبل شخص شارك فيها • ويصح هذا الوصف على اخباره عن رحلة غودفروي الى القسطنطينية وما وقع للجيش اثناء اجتيازه منطقة الاناضول اذ انه نقله من جندي كان في عداد جيش غودفروي • وقد يكون من الجائز أنه كان من عادته وحتى قبل أن يدون كتابه بكثير أن ينقل عن الجنود والحجاج العائدين من الاراضي المقدسة ما وقع لهم من احداث ، وانه احتفظ بهذه المدونات حتى كتب كتابه فأثبتها فيه • على أن هذه الملاحظات على طريقته واسلوبه ونوعية المادة التي نجدها عنده لا ينبغي ان تؤخذ كدليل على قلة أهمية مؤلفه أو ان تنقص من قدره كمصدر هام من مصادر دراستنا للحروب الصليبية • فتاريخ ألبرت قسيس ايكس رغم كل هذا يظل من المصادر التي لا يستغنى عنها باحث في هذه الحروب •

وليام الصوري William of Tyre • — ويعتبر أعظم مؤرخي الحروب الصليبية واكثرهم اهمية ويحتل كتابه مكانة فريدة بين تواريخ هذه الحروب لانه أول تاريخ شامل لها •

ولد وليام الصوري حوالي سنة ١١٣٠ في بيت المقدس على حد زعم أغلب الذين ترجموا له • ويبدو أن أبويه قد نزحا من الغرب الى الارض المقدسة وسكنوا فيها وولد لهما وليام • ولسنا نعرف جنسيه أبويه قبل نزوحهما ولا زمن ارتحالهما الى بيت المقدس اذ تضاربت الروايات حول ذلك • فمن قائل انهما من أصل انكليزي ومن قائل

انهما من أصل الماني أو فرنسي أو ايطالي • ولا يشير وليام الى ذلك بشيء في كتابه ، وان كان يبدو من كتاباته وما يشيع فيها من ميل لشعب ضد شعب أنه ربما كان ايطالي الاصل •

وقد أمضى طفولته في مدينة القدس اذ يشيع اسم هذه المدينة واسماء شوارعها كثيرا في تاريخه وفي أحاديثه عن ذكريات هذه الطفولة • ونستدل من معرفته للغة اللاتينية أنه تلقى علومه في المدارس لأن هذه اللغة كانت لغة الكنيسة والمدارس في عصره • يضاف الى هذا معرفته لعدد من اللغات الاوربية والشرقية • فقد كان يعرف الى جانب اللاتينية الفرنسية واليونانية والعربية والعبرية والفارسية • وقد دخل في خدمة الكنيسة منذ صباه وتلقى التدريب اللاهوتي على يد كبير قساوسة كنيسة القيامة بطرس البرشلوني • وأظهر من الدأب والميل الى التعلم ما جلب نظر رئيس القساوسة فتمتنت الصلة بينه وبين تلميذه • وقد يبدو غريبا أن تقول ان وليام قد تابع دروسه الاولية في مدرسة نظامية ، وهذا يثير مسألة وجود مدارس في ذلك العصر • والواقع أن الحجاج الذين كانوا يفدون الى بيت المقدس كانوا يجدون مدارس يشرف عليها الرهبان تعلمهم علوم الدين واللغات المختلفة ولا سيما اليونانية والعربية و غيرهما • وتزعم بعض المصادر أن وليام قد غادر بيت المقدس الى فرنسا وهو في ريعان الشباب ليتابع علومه ودراسته ، وليس لدينا ما يؤكد هذه الحقيقة الا اشارة في احدى الوثائق الى سفرة قام بها « الى ماوراء البحر ليتابع دراسة الفنون الحرة في المدارس » • وفي حوالي العام ١١٦٣ اضحى وليام قسا ومن أعضاء الكاتدرائية المسؤولين في صور ، وليس هناك ما يؤكد ما اذا كان الذي رسمه قساً هو بطرس البرشلوني أم البطريرك فوشيه ، وان كان أغلبيته المؤرخين يميلون الى الاعتقاد أن الذي قام بهذه العملية هو بطرس البرشلوني ، وان بطرس هذا هو الذي أرسله الى ايطاليا ـ

لا الى فرانسا ــ كما زعم آخرون ، حتى يتزود بالمعرفة والمران اللذان يؤهلانه للاضطلاع بالشؤون القانونية المتعلقة بالابرشية ، ويبدو أن غيبته لم تطل اذا أنه عاد في خريف ١١٦٣ ليشرف على شؤون الابرشية القانونية •

ولا نعرف الكثير عن حياة وليام في السنوات الاربع التالية سوى أن بطرس البرشلوني قد توفي خلالها فخلفه في رئاسة اسقفية صور فردريك الذي كان يختلف في كثير من النواحي عن سلفه بطرس وقامت بينه وبين وليام مشاحنات كثيرة انصرف بعدها الى عمله القانوني في الابرشية •

ويحدث في هذه الفترة حادث هام في حياة وليام وهو أن أموري الاول[1] حين أراد فتح مصر شعر أنه اذا تحقق له هذا الحلم فسيكون حدثا بالغ الاهمية لايقل كثيرا عن فتح بيت المقدس لذلــك قرر أن يصطنع مؤرخاً يسجل له هــذا النصر اذا تم • فقرر أن يعين وليم الصوري رئيساً للكهنة بكنيسة صور وأن يعهد اليه بهــذه المهمــة • ولا شك أنهاحسن الاختيار للصفات العالية التي يتمتع بها وليام ولدرايته الواسعة والمامه بعدد كبير من اللغات • وهكذا أصبح وليام رئيسا للشمامسة ومؤرخاً خاصاً لأموري • وقد انصرف بعد أن صارت لــه هذه الصفة الى الاعداد مع اموري للحملة القادمة على مصر • وكلما طالت عشرة أموري له كلما ازداد احترام الملك له ، وأولج اليه مهــام جديرة بالموثوقين فقط • حتى انه عهد اليه بتربية ابنه الكبــير بودون وكان آنذاك لا يتجاوز التاسعة من عمره • وقد ظل وليام يقوم بهذا العمل مدة أربع سنوات ، اكتشف بعدها أن تلميذه مصاب بداءالجذام• ولم يمهل المرض بودون طويلا فمات وهو في شرخ الشباب سنة ١١٨٥•

---

(١) أموري الاول ملك القدس ، ولد سنة ١١٣٥ ، وحكم بـين سنتي ١١٦٣ – ١١٧٤ م•

ويجمع المؤرخون على أن أموري هـو الذي اقترح على وليام الصوري كتابة تاريخ شامل لمملكة بيت المقدس منذ قيامها ، وأن وليام وافق فوراً على هذا الاقتراح • وقد قر رأيـه على أن تكون نقطـة البداية في تاريخه مجمع كلير مون الذي عقد سنة ١٠٩٥ ، أو سنة ١٠٩٤ وهي السنةالتي يقال أن بطرس الناسك حج فيها الى بيتالمقدس• وسار وليام قدما في تحقيق مشروعه واخذ يجمع كل ما يقع اليه مـن مصادر مكتوبة وروايات شفهية واخذت فصول الكتاب تظهر تباعا • وشعر أموري ، سيما بعد أن زار مصر ورأى روعة الحضارة الاسلامية فيها ، أنه يريد تاريخا يشرح له ماضي العالم الشرقي المسلم فزود وليام بالمصادر العربية التي كان قد استلبها من مكتبة اسامة ابن منقذ وطلب اليه أن يكتب له تاريخاً عن أمراء الشرق • وهكذا وقع على عاتق وليام أمر كتابة تاريخين في وقت واحد احدهما **«تاريخ المملكة »** ، **وثانيهما « التاريخ الشرقي »** • ولكن الاقدار لم تمهل أموري طويلا اذا أنه ما لبث أن مرض ومات وهو مايزال دون الثامنة والثلاثين من عمره • وقد عزت وفاة أموري كثيرا على وليام فانقطع عن العمل في التأليف والكتابان اللذان ابتدأ بهما كانا ما يزالان غير كاملين • وفي خريف سنة ١١٧٤ اختير ريمون الثالث امير طرابلس وصياً على عرش المملكة ، فاستدعى وليام وسلمه منصب مستشار المملكة ، كما عينه سنة ١١٧٥ رئيساً لأساقفة صور فأصبح يجمع في شخصه منصبين رفيعين أحدهما سياسي والآخر ديني وأخذ يتطلع الى اليوم الذي يصبح فيه بطريركا لبيت المقدس • وقد زاد في أمله في الحصول على هذا المنصب أنه عهد اليه سنة ١١٧٨ أن يرأس الوفد الذي يمثل مملكة بيت المقدس الى روما لحضور المجمع المقدس الذي دعا الى عقده البابا اسكندر الثالث•

ولعب وليام دوراً كبيراً في أعمال ومناقشات هذا المجمع واعجب بـه البابا وعهداليه بمهمة خاصة في بلاطالقسطنطينية لتوحيدالكنيستين

البيزنطية والرومانية • وقد استقبل وليام في القسطنطينية استقبالا حافلا وعاد الى صور سنة ١١٨٠ بعد أن أصبح شخصية دينية مرموقة وطبقت شهرته آفاق العالم المسيحي آنذاك • ولكن غيابه عن مملكة بيت المقدس مدة عامين سمح لاعدائه أن يقوموا مركزهم فأبعد عن منصب بطريرك القدس واتنخب للمنصب شخص آخر • وانصرف وليام من جديد لكتابة تواريخه التي بدأها من قبل واستمر في هذا العمل مدة عامين ونصف فرغ بعدهما من كتابة ما بدأ به ونقح وأضاف على ما كان قد كتب من قبل اذ أن خبرته ومعرفته قد اتسعتا الآن أكثر من قبل • وحوالي سنة ١١٨٤ داهمت وليام الامراض فقطعته عن عمله في التأليف والكتابة التاريخية • ورغم الغموض الذي أحاط بالظروف التي أدت الى وفاته فانا نعلم أنه توفي في أوائل سنة ١١٨٥ ، أي نفس السنة التي توفي فيها تلميذه بودون ابن الملك أموري •

ان شهرة وليام الصوري لا تعود الى المناصب الرفيعة التي تقلب فيها ولا الى صلته بالملوك والامراء ، ولكن الى مؤلفاته التاريخية العديدة التي تناولت اكثر من موضوع • ويجب أن نسجل سلفاً أن أغلب مراسلاته الرسمية والوثائق التي اصدرها بوصفه مستشاراً للمملكة قد ضاعت ولم يبق منها الا ما نقله هو أو غيره من المؤرخين في كتاباتهم • كما أن التقرير الذي وضعه عن اعمال ومناقشات المجمع المقدس الذي حضره ممثلا لمملكة القدس (وهو المجمع المعروف باسم مجمع اللاتران) قد ضاع أيضا • على أن افدح خسارة كانت ضياع كتابه المعروف باسم « تاريخ أمراء المشرق » الذي كتبه بناء على طلب أموري كما ذكرنا آنفاً • ومعروف أن نسخاً من الكتاب ظلت متداولة ومعروفة بعد مائة سنة من تأليفه ، ولكن لم يعد يعرف مصيره بعد ذلك • وكل ما وصلنا منه هو تتف واشارات نقلت عنه في تواريخ أخرى لكتاب آخرين •

ان الكتاب الوحيد الذي تبقى لنا من مؤلفات وليام الصوري هو

كتابه في التاريخ المعروف حاليا باسم : « تاريخ الاعمال التي انجزت وراء البحر » ، وهو الكتاب الذي ألفه بناء على أوامر أموري • وقد مر عمل وليام في كتابة هذا التاريخ بثلاث مراحل أولها : الكتاب المعروف باسم « أعمال أملريك » Gesta Amalrici وقد شرع في كتابته سنة ١١٦٧ ، وتوقف عن اتمامه سنة ١١٧٠ لأن أموري طلب اليه أن يؤلف كتابا عن التاريخ السابق للملكة • فشرع في كتابة هذا الجزء الذي يعتبر بمثابة مقدمة لكتابه الاول ويتناول تاريخ الفترة التي تبدأ بالحملة الصليبية الاولى أي منذ سنة ١٠٩٤ أو ١٠٩٥ وتنتهي ببداية عهد آموري سنة ١١٦٣ • أما الجزء الثالث فكان المقصود منه أن يشمل تاريخ العالم الاسلامي منذ زمن الرسول الكريم وحتى زمن وليام نفسه • وقد كتب وليام هذه الكتب على مراحل وفي فترات متقطعة حسبما كانت تسمح له مشاغله السياسية وواجباته الدينية • وهكذا فان تاريخه بمجموعه يشمل أخبار الحروب الصليبية منذ الحملة الصليبية الاولى وحتى سنة ١١٨٠ •

وتنقسم المصادر التي اعتمد عليها وليام الصوري في تأليف تاريخه الى قسمين : بعضها مكتوب ، وبعضها حفظ عن طريق التواتر الشفهي • فقد أفاد من مؤلفات من سبقه من مؤرخين في هذا الموضوع كريمون ايغيل ، وفوشيه قسيس شارتر ، والبرت الآخيني ، وغيرهم • وكانت طريقته في ايراد الحادث ان يذكر الرواية الوحيدة اذا كان ليس هناك غيرها اما اذا تعددت الروايات فكان يلجأ للمفاضلة بينها وينتقي منها الافضل في رأيه أو يسرد جميع الروايات ويترك للقارىء أمر المفاضلة بينها • وحين يستعمل الروايات الشفوية فانه لا يهتم بابراز الخلافات التي قد تقع بينها وبين الروايات التي يذكرها اسلافه من المؤرخين الصليبيين • وكان يؤثر أن يتابع الموضوع الواحد من البداية حتى النهاية دون أن يلتفت الى ما قد تسببه هذه الطريقة من اطالة • ويلاحظ

المتتبع لتاريخه أنه اعتمد على ألبرت الاخيني في اخبار الحملة الصليبية الاولى وحتى الاستيلاء على بيت المقدس • أما اخبار معركة عسقلان فقد استمدها ريمون الايغيلي واعتمد على ماكتبه فوشيه قسيس شارتر في اجزاء كثيرة من كتابه • واستعان بشهود العيان لتدوين اخبار حملة لويس السابع وكونراد الثالث والاحداث التي أدت للاستيلاء على بانياس سنة ١١٦٥ والنزاع بين أملريك و الفاطميين • وقد سار على نفس النهج عندما استعان بالمصادر العربية ، ويبدو أنه لم يستعمل الكثير منها واكتفى في أغلب ما كتب بالنقل عن سعيد بن البطريق او بالاستماع الى بعض العلماء العرب المسلمين الذين كانوا يعيشون في صور وقتذاك ، اذ أنه معروف أن صور كانت فيها اربعة مساجد يتردد اليها مسلمو المدينة وزوارها •

وهناك فارق كبير بين المعلومات التي يوردها في تاريخه عن الفترات التي سبقت عصره والمعلومات المتعلقة بعصره • فهو في هذه الاخيرة يتناول الاحداث بكثير من الاسهاب والتفصيل ويشعر القارىء أنه أمام كاتب مطلع يستطيع ايفاء موضوعه حقه • ففي أخبار فترة حكم آموري نراه يسهب في وصف أحوال مصر والخلفاء الفاطميين وأصلهم واخبارهم ، كما يولي أمر جغرافية مصر والنيل وبرزخ السويس عناية خاصة • وتجدر الملاحظة هنا أن قارىء تاريخ وليام الصوري يشعر بفارق كبير في الاسلوب والنضج وطريقة البحث بين ما كتبه في مطلع عهده بالتأليف وما كتبه فيما بعد حين اتسعت آفاقه ونمت مداركه • ويلاحظ هذا النضج والافق الواسع بصورة خاصة في الفصول ٢١ ــ ٢٣ من الكتاب والمقدمة التي كتبها بعد أن انجز تأليف جميع فصوله •

وهو في كل ما كتب مؤرخ نزيه شديد الحرص على انصاف كل من يكتب عنهم ، حتى أنه بلغ برأي الكثيرين مرتبة المؤرخ الحديث

الذي يأخذ بأدق مقاييس النقد والحياد . وكان يحرص على اتباع الترتيب الزمني للاحداث في كل موضوع من الموضوعات ويحاول ربط الاحداث ببعضها ربطا يظهر تتابعها وانتظامها . وكانت اللغة اللاتينية التي كتب بها لغة صافية متينة بأسلوب منمق فصيح يفوق أساليب كثير من الناثرين اللاتين الذين عاصروه . وقد اعتبر المؤرخون الصليبيون ولفترة طويلة من الزمن تاريخ وليام الصوري المصدر الاول والوحيد بالنسبة للفترة بين سنتي ١١٤٤ ــ ١١٨٤ . كما أنه أساسي بالنسبة للسنوات السابقة التي يعالجها لانه لم يكتف بالنقل عن مؤلفين سبقوه بل أضاف الى ما نقل أشياء جديدة كثيرة وقعت له ، كما أضاف اليها قدرا كبيرا من مادة جديدة في حقول الدراسات الادبية والاثرية والجغرافية وقدر الاحداث التاريخية السابقة في ضوء التطورات المتأخرة. ومنذ مطلع القرن الثالث عشر كانت نسخ من تاريخ وليام الصوري تتسرب الى أوربة وتنتشر بين المثقفين من مدنيين ورجال دين وساسة وقادة عسكريين وغيرهم . وقد أدرك مؤرخ مجهول أهمية هذا التاريخ فتولى ترجمته في زمن مبكر الى اللغة الفرنسية وتبعه سنة ١٢٣٢ مؤرخ آخر بترجمة أخرى . وبفضل هذه الترجمات صار لوليام تأثير بالغ الاهمية في الادب الفرنسي ابتداء من دانتي وحتى العصر الحاضر . وهكذا فان تاريخ وليام لم يكن مهماً بالنسبة للمؤرخين فحسب ، بل بالنسبة للادباء أيضاً الذين استمدوا منه مادة ادبية واجتماعية كثيرة .

روبير كلاري : ــ هو مَلاَّك صغير من منطقة بيرون في شمال فرنسا وفارس رافق أميره بطرس آميان في الحملة الصليبية الرابعة التي انحرفت عن وجهتها الاولى مصر واتجهت صوب القسطنطينية وعندما هلك سيده قفل راجعاً الى بلاده عام ١٢٠٥ وأهدى من اسلابه تحفاً جميلة الى دير كوربي . وكل ما نعلمه عنه بعد ذلك أنه كان حياً

في العام ١٢١٦ ٠

لقد وضع روبير كلاري بالفرنسية العامية قصة الحملة الصليبية الرابعة في كتابه « **تاريخ فتح القسطنطينية** » ٠ وفيه يروي قصة الحوادث التي شاهدها بام عينه أو التي اخبر بها مباشرة ، ويلح في هذه الناحية على مصدر الخبر الذي يكتب عنه ٠ ومن المؤكد انه لم يكن زعيماً كبيراً بل فارساً من اولئك الفرسان الفقراء اذ لم يعلم من سير العمليات العسكرية ومكايد السياسة الا ما علمه كل فرد في الجيش ٠ غير ان تطلعه تجاوز دائرة نظره المباشرة وطمح الى كتابة شيء يفوق حد المذكرات البسيطة ، وأهم من ذلك هو ان شخصه وقصته الخاصة ليس لهما أي مكان في كتابه اذ لم ينسب لنفسه القيام بأي مغامرة ، ولم يأت على ذكر اسمه الا مرة واحدة وعلى سبيل العرض ٠

ولقد كان يشعر مراراً بحاجة لتفسير الحوادث التي يقصها ٠ فكان في هذا المعنى مؤرخاً عن غير ارادةمنه ، ولكن بضاعته الثقافية وأخباره وأفكاره أقل من هذه المزاعم لأن محاولاته التاريخية لم تكن سوى أخطاء وخرافات ٠ وبالرغم من كل ذلك فان كتابه يضم معلومات قيمة ، فقد كان لها شاهداً عياناً مباشراً ، ووصف بشكل حي كثيراً من المشاهد التي رآها وشارك في حوادثها ٠ ولذا كانت الصفحات التي كتبها عن الحملة والجيش ونفسيته وحالة الجندي الفرنسي العادي وجشع الصليبيين وانشغالهم في الأسلاب والغنائم ، من اروع ما كتب ٠ الا ان ما يؤخذ عليه هو ان كتابه ، بالرغم من انه وثيقة تاريخية دقيقة وتصويرية ، محدود واسلوبه بعيد عن الرقة والعذوبة ، ولكنه بسيط وصادق وأمين ٠

فيلهاردون (١١٥٠ - ٢ - ١٢١٢) : - لقد ألف فيلهاردون قصة الحرب الصليبية الرابعة باللغة الفرنسية العامية ٠ ولذا تمكن مقارنة

مؤلفه بمؤلف روبير كلاري • ولكن فيلهـاردون يختلف عنه كثيراً • كان نبيلاً ، وقبل أن يشترك بالحرب الصليبية الرابعة بعشر سنوات ، أي في العام ١١٩١ ، كان يشغل منصب ماريشال شامبانيا • وكانت سنه آنذاك تتراوح بين اربعين وخمسين عاماً • وقد تجلت مواهبـه في الاجتمـاعات التي عقدت قبل انطلاق الحملة ، فقربه البـارونات وشاوروه في الامر • ومنذ ذلك الحين لمع نجمه وأخذ يلعب دوراً هاماً في المجالس أو المفاوضات أو العمليات العسكرية • وتؤلف قصة حياته جزءاً من التاريخ العام الذي شـارك بحوادثه مشاركة نشيطة ، ولم يطلق لنفسه العنان في ابراز شخصه بتواضع زائف أو بعرض متكبر ، بل كان سلوكه يمتاز بكل حيطة وكـرامة وعظمة ويظهره رجل فكر وعاطفة . وزعيماً حقيقياً في السلم والحـرب يسدي النصح ويسوي النزاع بين الكبار والقادة ويتحمل المسؤولية في أوقات الذعر والخطر والهزيمة ليعيد الامور الى نصابها ، ويتبوأ بعد ذلك منصب ماريشال رومانيا الاكبر كما كان من قبل ماريشال شامبانيا • ومات فيلهاردون عام ١٢١٢ في بلاد الشرق تاركاً ذكرى الرجل العظيم • ولكن كتابه لا يسمح بتتبع قصة حياته حتى مماته فقد توقف في عام ١٢٠٧ •

ويعتبر كتـابه في الحرب الصليبية الرابعة « فتح القسطنطينية » من اعظم كتب العصر الوسيط أثراً أدبياً ومصدراً تاريخياً • ويبدو ان المؤرخين متفقون ، وحتى من يعارض منهـم في بعض النقاط ، على صحةالنص الذي عرض فيلهاردون فيه الحوادث ، وذلك لأن فيلهاردون في كتابه يدعم نظرية ويجيب كل من عجب لانحراف الحملة الصليبية عن غايتها والقى بالتبعة على القيادة • وكل ما كان يريد أن يدل عليه هو ان زعمـاء الحملة قد فعلوا ما يجب أن يفعلوه ، وقرروا ما يجب عمله لأن الظروف أبانت لهم ان ما اتخذوه هو الافضل ، وان الظـروف وحدها بتسلسلها وتشابكها كانت أقوى من المشاريع المقررة والخطط

الموضوعة وقادت الصليبيين الى القسطنطينية وأبقتهم فيها .

ومهما تكن النظرية التي حاول فيلهاردون دعمها ، حقيقية كانت أو مصطنعة ، فقد ساهمت في اعطاء كتابه صفات بارزة : أهمها وحدة القصة واستمرارها وترابط أجزائها وتسلسل حوادثها وايجاز عرضها بدقة ومنطق وجفاف أيضاً . وهذا ما حدا بالكثيرين الى اعتماد اخباره التي كان شاهدها العيان ، ولكن المؤرخين المحدثين أخذوا يبدون بعض الحذر في تفسير الحوادث التي عرضها .

ولا يعني هذا ان المؤلف بعيد عن كل ذوق ادبي ، فالخطب المنقحة التي يعزوها للأمراء والسفراء والممثلين تدل بوضوح على صفاء فكره ورشاقة اسلوبه وبساطة نفسه ونبله .

لقد كان فيلهاردون اقطاعياً متعلقاً بشخص سيده : تيبو شامبانيا ثم بونيفاس مونفيرا ، وايمانه بسيده يفوق ايمانه بالحرب الصليبية . فهو يخشى الخيانة ويريد من التابع الاخلاص المطلق لسيده فلا يناقش أوامره .

وعاطفته الدينية نامية وحقيقية : فهو يكره الشقاق والنفاق والهرطقة ويحلم بوحدة الكنيسة الرومانية مع كنيسة القسطنطينية . ولكنه لا يبلغ درجة العمق في هذه العاطفة لأن سلطة البابا عنده أقل من سلطة سيده ، ولذا لم يخامره أي قلق لدى تحول الحملة الصليبية عن غرضها الاول . ولا يأبى على نفسه ان يغطي اخطاء الامراء الغربيين وما ارتكبوه من فظائع عند نهب القسطنطينية ، ويدافع عنهم دفاعاً قوياً ويحذف متعمداً الحوادث التي تكون موضع خلاف .

وتاريخه بالاجمال صحيح ودقيق ولكنه مغرض وتفسيره للحوادث فيه مجال لكل لوم ، بيد انه واضح ومعتدل مقتصد في عرضه بعيد عن ذكر التفصيلات غير المفيدة ، وأخيراً ان كتاب فتح القسطنطينية

يجعل من فيلهاردون كاتباً من كبار كتاب العصر الوسط •

٧ ـ **جان دي جوانفيل** Jean de Joinville : ـ وهو آخر المؤرخين الصليبيين الذين سنتناولهم بالبحث في هذا الفصل •

ولد جان دي جوانفيل في مدينة جوانفيل سنة ١٢٢٤ من أبوين نبيلين وأسرة لعب الكثير من أفرادها دوراً بارزاً في الحروب الصليبية وساهموا فيها بأشخاصهم وتأييدهم ونفوذهم • وكان جان وريث ابيه وأمه من ناحية اللقب والمال ، فاجتمع له هكذا النبل والثروة • وحين بلغ السادسة عشرة من عمره توجه الى بلاط كونت شامبانيا حيث عاش لفترة من الزمن يتدرب على مراسم البلاط وآداب السلوك بوجه عام • وأثناء اقامته في بلاط كونت شامبانيا صحبه الكونت في احدى زياراته الى بلاط الملك لويس التاسع حيث حضر مأدبة كبيرة شهدها عدد كبير من السادة والنبلاء • وفي سنة ١٢٤٣ نصب فارساً وتسلم ممتلكاته من أمه التي كانت تتولى الوصاية عليه بعد وفاة أبيه •

وطبيعي أن يشارك جان دي جوانفيل في الحروب الصليبية لأن ثلاثة أجيال من أجداده شاركوا في هذه الحروب التي كانت المساهمة فيها تقليداً من تقاليد اسرته النبيلة • وهكذا نجده في سنة ١٢٤٨ يحمل الصليب وبصحبته ثلاثة فرسان ونحو مائتي رجل ويتوجه الى مرسيليا للابحار الى الاراضي المقدسة • وفي أثناء هذه الحملة التي استمرت من سنة ١٢٤٨ حتى سنة ١٢٥٣ دخل جوانفيل في خدمة الملك لويس التاسع ؛ ومنحه الملك لويس مقابل ذلك راتباً سنوياً مناسباً • ولما عاد الملك لويس من هذه الحملة الصليبية عين لجوانفيل بعض الاراضي التي يحق له تحصيل ما عليها من ضرائب دون أن يكون له حق الاشراف عليها • وقد عاد من مغامرته الصليبية وله من العمر ثلاثين عاماً• وأصبح شخصية لامعة لها شهرتها وخبرتها ومواقفها البطولية الرائعة

وانصرف بعد عودته للعناية بضياعه واقطاعاته • وفي سنة ١٢٦٠ توفيت امه وزوجته الاولى ، فتزوج من امرأة ثانية ، ولم يخرج من عزلته الا سنة ١٢٨٢ حين عاود الاتصال بالبـلاط الملكي الذي كان يحكم فيه الملك فيليب الجميل ابن لويس التاسع • وكان لويس قد توفي قبل ذلك باثنتي عشرة سنة بمرض الطاعون أثناء مغامرة صليبية قادته الى تونس سنة ١٢٧٠ حيث كان يأمل أن يجعـل من ملكها مسيحياً • وقد تم تطويب الملك لويس التاسع وجعـل قديساً باسم القـديس لويس سنة ١٢٩٧ • وفي سنة ١٣١١ عين الملك فيليب الجميل جان دي جوانفيل قاضياً لمقاطعة شامبانيا ، وظل يشغل هـذا المنصب حتى سنة ١٣١٩ حين وافته المنية بعد عمر طويل ودفن في كنيسة القـديس لورنس • ان شهرة جان دي جوانفيل تعود لتأليفه تاريخه المشهور باسم « تاريخ القديس لويس » (أي الملك لويس التاسع) الذي ألفه بناءً على طلب ملكة ناڤار • ويمكننا أن نتساءل عن السبب الذي حـدا بملكة ناڤار الى الطلب من جوانفيل أن يقوم بكتابة هذا التاريخ •

ان جان Jeanne ملكة ناڤار هي زوجة فيليب الجميل ملك فرانسا وابن القديس لويس ، وقد أرادت أن تخلف لأطفالها كتاباً يروي لهم ما كان لأجـدادهم من أدوار بطولية في نصرة العقيدة المسيحية وما تحقق على أيديهم من أمجاد ترقى بهم الى مصاف الابطال العظماء • يضاف الى هذا أن جوانفيل نفسه ، كانت تربطه بالملك لويس التاسع روابط من الصداقة والالفة تعود الى زمن الطفولة ، وقد أراد أن يخلد ذكريات قديمة عاشها مع صديقه الملك القديس الراحل • ومر الزمان فخلع الخيال على ذكريات الملك النبيل آي البطولة والقداسة • ولقد كان طبيعياً أن يفكر بجوانفيل صديق الصبا وخل الوفا وتطلب شهادته بصديقه الملك عندما اريد رفعه الى درجة القداسة • فقد استمع اليه المحققون عام ١٢٨٢ ، وحضر جوانفيل رفع الجثمان المقدس عام ١٢٩٨ ،

وخصص له مذبحاً في كنيسة قصره في جوانفيل ، ثم شرع بتأليف كتابه عنه وأنهاه في ١٣٠٩ ثم عاش بعد ذلك بضع سنوات وتوفي عام ١٣١٧ .

لقد كان عمر جوانفيل عندما شرع بتأليف الكتاب ثمانين عاماً ، وهذا يتضح من نسق عباراته . فكتابه سيرة قديس وتأليف شيخ هرم بلغ من الكبر عتياً ، تتمثل فيه سلامة الطوية وبساطة التعبير ولمحات الماضي البعيد اذ لم يكن لدى المؤلف سوى أن يعود الى ذكرياته القديمة وخاصة المؤثرة منها والطيبة ليستجمعها ويكتب عنها . ومن هنا يجب الا يطلب من جوانفيل ، وهو في هذه السن ، أن يرسم لوحة كاملة عن حكم لويس التاسع ، او يصف الحوادث وصفاً دقيقاً واضحاً وجامعاً . لقد كان عمله يعتمد على التذكر ، وهذا التذكر كثيراً ما يكون مشوباً بالاستطراد والعودة الى الوراء والتكرار . ولذا فمن الصعب ان تتبين تصنيفاً منظماً ومطرداً لذكرياته . ولكنها جذابة على اختلاف الوانها ، تخرج عفو الخاطر دون أي تنسيق أو تكلف . وسرده للحرب الصليبية التي أسهم فيها الملك القديس لا يوضح الا قليلا سلوكه السياسي والعسكري ، كما لا يعطي الا لقطات سريعة عن الحركات المعقدة التي كانت تقوم بها الشعوب الاسلامية حول الصليبيين آنذاك . فالفتن التي قامت في مصر ، وتصادم الحكم الفرنجي او الجرماني في سورية ، واموال فرسان المعبد ، وتجارة الجنويين ، ومن بعيد قوة المغول السرية ، ان كل هذه الحوادث يعطي جوانفيل فكرة عنها ولكن بشكل غائم ورؤى سحرية وطوارىء مستمرة دون ان يكون بينها أي رابط .

ولكن هذا الانقطاع في الحوادث ، الذي لا يفهم الا قليلا ، تزينه مظاهر الحقيقة البارزة،لان القديس لويس وصحبه والمسيحيين والمسلمين يبدون على حقيقتهم البسيطة والاكيدة . لقد كان جوانفيل يحب الصراحة ويأتي بكل ما هو طبيعي في الحياة ، ويصور اشخاصه ويسرد حوادثه بسرعة لا تنفي التفصيل وحسن الاختيار . ولقد غشى عمل السنين

البطىء ذكرياته فلم يبق منها الا أثبتها لوناً وأوقعها تأثيراً •

وفي الحقيقة يجد القارىء في سيرة القديس لويس صفحات مشرقة وجميلة وانطباعات عامة • وفي كل هذا لم يختص جوانفيل الملك بصفة مميزة ، ولم يتعمد ذلك ليجعل منه انساناً يفوق البشر ، وكل ما فعله هو أنه وصف الانسان المقدس في حياته اليومية مع ما يزينها من فضائل علوية ولكنها انسانية • كما أنه لم ينس نفسه ومساهمته في كل عمل مشرف في حومة المغامرات الكبرى في الحرب الصليبية ، ونراه يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن بطله حتى لكأن القارىء يقرأ قصتين في قصة واحدة• ولا يخلو وصفه لنفسه ، في الظروف التي شاء القدر ان يضعه بها ، من صور محببة مختلفة الالوان • لقد كان جوانفيل فارساً بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى : موالياً ، وفياً لاصدقائه ، متفانياً في خدمة مليكه حتى الموت ، ولكنه لا يضع نفسه موضع البطل ، فهو انسان بكل بساطة وصراحة ، وبوده أن يذنب ذنباً مميتاً عوضا أن يكون مصاباً بالجذام • وهو لا يبخس المال حقه ولا يجهل أهميته ، ولا يفهم الخدمة « في سبيل الشرف » أو مرضاة لله • انه يعيش على الارض بما له وما عليه •

أما لغته في عرضه فواضحة وسهلة وجذابة • ومفرداته متنوعة ولا يعوزها التصوير عند الحاجة • وجمله مرنة تدل على مهارة الكاتب الموهوب الذي ألف فأعجب وجعل من مؤلفه كتاباً من أطلى كتب العصر الوسيط وأقربها الى القلب •

الفصل السابع

التاريخ والمؤرخون في العصور الحديثة

عصر النهضة

القرن الخامس عشر والسادس عشر

منذ القرن الحادي عشر وعوامل التطور البطيء تعمل عملها في تغيير معالم العصر الوسيط في أوربة الى ان تفتح التغير عن نهضة عامة شملت نواحي الحياة المختلفة • ولقد تأثر التأليف في التاريخ بأحـداث هذا العصر الكبرى : النهضة ، الاصلاح الديني ، الاكتشافات الجغرافية الكبرى ، الثورة الاقتصادية •

النهضة الاوربية • ـ لقد اتفقت هذه النهضة من الوجهة الزمنية مع بدءالعصور الحديثة ولكن الواقع هو ان لا انقطاع بين العصور الوسطى والعصور الحديثة • وما تقسيم التاريخ الى عصور تاريخية الا نوع من اصطناع • واذا وجد شيء من ذلك فلتسهيل عرض التاريخ وتعليمه لان هذا التقسيم لا ينطبق مع الواقع الا من بعيد ، ولان تاريخ البشرية سلسلة متواصلة الحلقات يتمم بعضها بعضاً • وليست النهضة بعد هذا الا مفهوماً مجرداً وحالة فكرية عامة •

والمتأمل في آثار المؤلفين في بدء العصور الحديثة يرى ان لا جديد لديهم بالمعنى المطلق لان العصور الوسطى ما زالت تعيش بين ظهرانيهم •

والنهضة بذاتها ليست في منطلقها سوى عود على القديم والتفاتة نحو الماضي أكثر منها نحو المستقبل ، بل ورجعة نحو ماضيين وهما القديم الوثني والقديم العبري ـ المسيحي ، أي نحو الالياذة والكتاب المقدس . واذا امتازت هذه النهضة بالاحياء والبعث فان حركة الادب التي نشطت فيها قامت لتعرف الاجيال بالادب الانساني في العصور القديمة ولتعيد الدين المسيحي الى نقاوته الاولى .

لقد حاول الادباء الانسانيون في هذا العصر ان يبعثوا العالم القديم كعلماء ومؤرخين ويفهموه بذاته ويتذوقوا جماله وينفذوا منه الى أسباب وجوده . ومن المؤكد ان معنى التاريخ كان نامياً في ذهنهم . فقد فهسوا العالم القديم حقيقة مخالفة لحقيقة العالم الحديث زالت من الوجود وأرادوا احياء معالمها . وهذا يظهر بما يلي :

١ ـ ازدراء العصور الوسطى والمبالغة في تمجيد العالم القديم حتى أن بترارك ، الشاعر الايطالي ، وهو رائد من رواد النهضة وزعيم الاتجاه الانساني فيها ، كان يكره العصور الوسطى بكل ما أتت به ويرى ان يلتفت الادباء الى القديم اذا ارادوا تأسيس معرفة حقيقية للعالم والانسان فلقد شغف بالقديم وأحبه وحاول احياءه بحرارة وحماسة واندفاع ، وتوضيح معالمه بالبحث . ولكن هذا البحث لم يكن بحث العالم الجامع الواسع المعرفة ، بل بحث انسان يعمل ما في وسعه لبعث عالم مفقود لان المحدثين في نظره ليسوا برابرة فحسب بل يجهلون الفضائل القديمة للانسان والمواطن . وكتبه التي وضعها في الاخلاق والتاريخ كانت على مثال التراجم تمدح عظماء الرجال في العصر القديم وتجعل منهم نماذج بشرية سامية وفاضلة يجب ان تحتذى .

٢ ـ نمو فردية الانسان وتوكيد شخصيته والفخر بكل ما يأتي واحلال عاطفة الكبرياء والغطرسة محل التواضع ، والتجديد محل التقليد

وامتد لوران فاللا في نقده الى العقيدة نفسها • فقد انتقد الرأي الشائع الذي ينسب الى الحواريين كتابة المذهب المسيحي ، وبرهن على أن هذا المذهب انما حرر في المجمع الديني الذي عقد في نيقية عام ٣٢٥ م• وكان أول من فسر الكتاب المقدس تفسيراً علمياً حديثاً ، وسجل عدة ملاحظات هامة على الفلغاطة ، أي الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب واظهر الاخطاء التي تحتويها بمقارنتها مع النص الاغريقي • ولم يترك فرصة سانحة دون ان ينحي باللائمة على لاهوتيي العصر الوسيط ويعيب عليهم جهلهم الاغريقية دون ان يستثني مشاهيرهم •

والجدير بالذكر ان دروس فاللا لم تتبع الا في خارج ايطاليا ، وذلك لان الانسانيين الايطاليين احجموا ، خلال نصف قرن وتحت مؤثرات مختلفة ، عن الجرأة التي دعاهم اليها لوران فاللا •

الاصلاح الديني • — لقد كانت النهضة الفكرية في المانيا والبلاد المنخفضة وسويسرا اكثر عمقاً وأبعد مدى مما كانت عليه في ايطاليا لان الاهتمام بالمعنى كان يفوق الاهتمام بالمبنى • فقد تبين من دراسة الكتاب المقدس ، بعد مراجعة النصوص والترجمات القديمة ، ان الترجمة اللاتينية المعروفة بالفلغاطة تتضمن تحريفاً للعقيدة المسيحية • كما دلت تلك الترجمة على أن الكنيسة المسيحية في حياتها الاولى بسيطة تختلف اختلافاً كلياً عما هي عليه في عهد بابوات القرنين الخامس والسادس عشر • وقد رافق هذه الدراسة في المانيا خاصة رغبة في التحرر من سلطة الكنيسة الرومانية • ونمت هذه النزعة واخذت شكل حركة دينية وقومية معاً ، الى ان قام المصلح مارتن لوثير ، والاستاذ في جامعة فتنامبرغ ، ودعا الى مذهب بولس الرسول القائم على خلاص المؤمن بالايمان وحده لا بالاعمال ، وتحدى البلاط البابوي وآل الامر أخيراً الى قيام المذاهب البروتستانتية (الاحتجاجية) وحركة الاصلاح الديني التي تطالب بالعودة الى اصالة الدين المسيحي الاولى •

٣ ــ اهتمام العلمانيين بشؤون الثقافة والفكر ومنافستهم لرجال الدين والنقمة عليهم والسخر منهم ، والتحرر جهد المستطاع من التأثير الديني في التأليف .

٤ ــ العناية بالاسلوب الادبي البليغ وتنميق العبارة حتى لكأن التاريخ أصبح خادماً للادب .

٤ ــ الاقبال العظيم على نبش التراث القديم ونشره والتعليق عليه . ومما لا شك فيه ان البحث عن النصوص القديمة ، على اختلاف انواعها ، قد أمد التاريخ والتأليف فيه بمعارف جمة كانت مجهولة عن العالم القديم .

٥ ــ نمو روح النقد وطلب المعرفة والبحث الحر وتحكيم العقل في قضايا التاريخ وابعاد تأثيرات ما وراء الطبيعة ، والخروج على التقليد وسلطته . ولقد ظهرت هذه النزعة الانتقادية عند الاديب الانساني لوران فاللا [1] في فقه اللغة والفلسفة والفقه الشرعي والتاريخ واللاهوت والسياسة الدينية . فقد ذهب بالنقد مذاهب عديدة وخطيرة حتى أنه تناول نظم الكنيسة والعقيدة المسيحية وأسس السلطة الزمنية للباباوات. فقد أنكر في العام ١٤٤٠ حقيقة هبة الامبراطور قسطنطين الى البابا سلفستر الاول ومنحه روما لتكون ملكاً له . واعتبر هذه المنحة تزويراً قامت به البابوية نفسها بعد خمسة قرون من التاريخ الذي وردت به . ثم انتقل الى نقد النظم الرهبانية وبرهن ، بعد الاستناد على النصوص ، على أن لا مجال للتمييز في الانجيل بين نصائح للكمال وبين نصائح للمؤمنين السذج ، لان هذه النصائح تفرض على جميع المسيحيين على حدسواء ، ولذا يرى ان الرهبان يخطؤون اذا زعموا أنهم يستطيعون ان يحققوا كمالا علوياً اذا فروا من الواجبات العامة على جميع المؤمنين وعلى ضوء هذه النظرة يعتبر طليعة للمصلح البروتستانتي مارتن لوثير.

---

(١) لوران فاللا Laurent de Valla (١٤٠٥ ــ ١٤٥٧) .

وقد أدت هذه الثورة الدينية الى انقسام المسيحية وقيام الحروب الدينية فيأوربة واقتضت المقارعةالحجة بالحجة وكثرت الكتب والرسائل والكراريس الجدلية التي تستخدم التاريخ للرد على الخصوم . وحاولت الكنيسة البروتستانتية ان تحصن مواقعها وتحسن الهجوم على كنيسة العصر الوسيط بالكتاب المسمى « **قرون ماغدبورغ** » وهو مؤلف عظيم طبع عدة طبعات . وكانت أولى هذه الطبعات في مدينة بال في سني (١٥٥٩ ــ ١٥٧٤) بعنوان : « **تاريخ الكنيسة المسيحية** » . ويسرد هذا الكتاب تاريخ الكنيسة المسيحية قرناً قرناً منذ تأسيسها حتى عام ١٤٠٠ ؛ ومن ثم عرف بهذا الاسم « **قرون ماغدبورغ** » وطبع به ابتداء من العام ١٧٥٧ . ومؤلف هذا الكتاب مصلح ديني من اتباع لوثير اسمه ماتياس فلاكسيوس [١] وفيه يصور الكنيسة المسيحية في بساطتها الاولى في القرن الاول كما صورتها اعمال الرسل في صورة سماوية علوية ، ثم يعرض تاريخ الكنيسة في الاربع عشرة قرناً التالية بما اشتمل عليه من بدع وما اعتراه من فساد وزيادات شوهت حقيقته . ومما لا شك فيه ان هذا العمل فيه كثير من النقد الهدام ، ولكنه يضم كثيراً من المعلومات الصحيحة عن المجامع الدينية والبابوات كانت بحاجة الى ايضاح . ولذا تعتبر من هذه الناحية اول بناء للبحث التاريخي القديم القائم على الفهم والوضوح .

وقد ردت عليه الكنيسة الكاثوليكية على لسان احد رجالها وهو الكاردينال قيصر بارونيوس [٢] قيم مكتبة الفاتيكان في « **الحوليات الكنسية** » التي نشرها من (١٥٨٨ الى ١٦٠٧) . وكان في متناول مجموعة فريدة من وثائق العصر الوسيط حتى ذلك الحين . وقد استطاع

---

(١) ماتياس فلاكسيوس Mathias Flacius (١٥٢٠ ــ ١٥٧٥)

(٢) قيصر بارونيوس César Baronius (١٥٣٨ ــ ١٦٠٧)

بعمله هذا ان ينور الرأي بمعارف جمة كانت مجهولة عن تاريخ الكنيسة.
بيد ان بارونيوس لم يكتف بالدفاع عن المذهب الكاثوليكي بل تجاوز القصد وركب متن الشطط فاضر بالقضية الكاثوليكية التي ندب للدفاع عنها . وهذا ما جر عليه انتقادات العلماء البروتستانتيين نخص بالذكر منها التي وجهها اليه عام ١٦٠٦ الهوغنوتي اسحاق كازوبون [١] في « **الممارسات** Exercitationes » عام ١٦١٢ . وامتد العمل خلال القرن السابع عشر بطوله حتى انتهى في « **مذكرات في خدمة التاريخ الكنسي للقرون الست الاولى** » (١٦٩٣ — ١٧١٢) التي وضعها العالم الجانسيني سيباستيان لونَن دو تيلمون [٢]. وهي مؤلف اصولي منهجي نادر الدقة والوضوح وما زال وسيلة عمل لا غنى عنها للمؤرخ الحديث .

الاكتشافات الجغرافية الكبرى . — لقد كان للاكتشافات الجغرافية الكبرى ، التي تمت في هذا القرن ، أثر كبير في التعرف بحضارات العالم الجديد ولا سيما حضارة المكسيك وبيرو وحضارة جنوبي افريقية وشرقي آسيا وغيرها من الحضارات الاصيلة العريقة . وقد فتحت هذه العوالم المكتشفة امام الاوربيين آفاقا واسعة حفزت خيال المؤرخين ووسعت نطاق أبحاثهم في العادات والآداب والاخلاق والنظم السياسية والاجتماعية بما يتجاوز نطاق القارة الاوربية الى البلاد الاخرى . ولقد ضرب المؤرخون الاسبانيون المثل في هذا الحقل بسبب الاكتشافات التي تمت على أيدي الاسبانيين والامبراطوريات الكبرى التي أسسوها في بلاد الامريكتين .

---

(١) اسحاق كازوبون Isaac Casaubon (١٥٥٩ — ١٦١٤) .

(٢) سيباستيان لونن دوتيلمون Sébastien Lenain de Tillemont .

النهضة الاقتصادية . ـ لقد كان لاكتشاف العالم الجديد واتصال موانىء أوربة وخاصة الغربية منها أثر كبير في خروج الاقتصاد الاوربي من نطاقه الضيق المحدود الى اقتصاد قائم على التبادل مع البلاد البعيدة . وقد أدى هذا الاقتصاد الى الاستعمار والرأسمالية ونمو البورجوازية التجارية وتقهقر الاقطاع ، وتبدلت على اثر ذلك سيماء اوربة اقتصادياً واجتماعياً . ونشأ عن كل ذلك مؤلفات تاريخية تصف هذه الاحداث الكبرى والظروف التي أدت اليها والنتائج التي ترتبت عليها ، مما زود المكتبة التاريخية بالمعلومات الكثيرة عن الاوضاع في البلاد الجديدة .

ظهور الرواية الحديثة . ـ لقد كان العصر الوسيط في الغرب الاوربي متأثراً بالدين الى حد بعيد ، وكان هذا الميل عنده يتعارض مع التقدم العميق في المعرفة التاريخية وشدة النقد . وكان في بنائه السياسي والاجتماعي يعتمد على تسلسل العلاقات الشخصية او الاجتماعية غير المؤسسة على الطبيعة والعقل والمبنية على وقائع تاريخية كالوراثة والعقد . ويجدد العقد وضع الانسان او الارض . وهذا النظام في العلاقات يجنح في الغالب الى الاستقرار بتأثير العرف وظروف الحياة . بيد أنه يتحول بمبادهات وأعمال أخرى مختلفة وعقود جديدة كالوصايا ونظام التوريث والمؤسسات والجمعيات والمواثيق والمعاهدات المتمثلة بوثائق مكتوبة . وفي الواقع ان معظم النشاط الحقوقي والدبلوماسي والسياسي كان يقوم في مطالبيه ومزاعمه على اللجوء الى التاريخ الحقيقي أو المزعوم أنه حقيقي ، لان الاهمية المعلقة على الحوادث التاريخية كانت أصلا لجميع الاعمال المزورة التي تملأ اضبارات الباحثين في العصر الوسيط . ولكن يجب ألا يظن بأن رجال هذا العصر كانوا سريعي التصديق كما هو شائع . بل الثابت هو أنهم ما كانوا ليصدقوا آلياً جميع أهواء المزيفين الا اذا كان لهم فيها مصالح ومنافع .

لقد كان ينقص مؤرخي العصر الوسيط النقد الذي يساعد المؤرخ

على التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين المقبول والخيالي ، مع درجة قابلية معطيات الوثائق للاحتمال والتفسير ؛ كما كانت تنقصهم قوة الطريقة العلمية التي تساعد على حصول الاقتناع وتبريره ونقـله الى الآخرين واقتناعهم بالدلائل العقلية •

ان اعداد الطريقة النقدية ، التي يعتمد عليها التاريخ ، يرجع الفضل فيها الى انسانيي عصر النهضة الذين عرفوا كيف يجدون ويحيون النقد عند المؤرخين وفقها ءاللغة • ولا شك في أن هؤلاء الانسانيين قاموا بجهد واسع في حقل الكتاب المقدس وقدامى آباء المسيحية والادباء الوثنيين القدامى وبحثوا عن النصوص ونشرها والفصل بين المؤلفات الاصلية والمنتحلة • ولكن لا حاجة للمبالغة بشأن الموقف العقلاني الذي وقفوه حيال التاريخ أو بالاهتمام الملحوظ في القضايا الانسانية ، وخاصـة السياسية منها ، لان التقدم في هذه الناحية كان بطيئاً ومتناقضاً أحياناً ، ولان الادب الانساني كان له مزوروه ومزيفوه • فقد غلب اعجـاب الانسانيين بمؤلفي القديم الاتباعي على كل نقد ، حتى ان تيت ـ ليف على ما هو عليه من مثالب ، بدا لهم في الغالب وكأنه النموذج المقترح على المؤرخين • ومن هنا يمكن القول بان اهتمام الادباء الانسانيين في عصر النهضة كان منصرفاً الى البحث والنشر وحب الاطلاع وسعـة المعلومات ، أو بكلمة مختصرة الى الرواية أكثر من انصرافه الى النقد واعمال العقل ولان الاقبال على النشر والتأليف كان يعارض التحليل النقدي للوثائق نفسها • ولكن جهاز الرواية التاريخية سيستكمل جميع وسائله الفنية بين القرن السادس عشر والثامن عشر • فعلم تأريخ الحوادث وهو الاساس لكل تاريخ علمي ، تعينت اطره تدريجياً بين الكتاب « **تصحيح الازمنة** » الذي نشره جوزيف جوست سكاليغير[1]

---

(1) جوزيف جوست سكاليغير Joseph Juste Scaliger .

في ليدن عـام ١٥٨٣ و « **فن تحقيق التواريخ** » وهو احدى مساهمات فريق البندكتيين من جماعة سن ــ مور المقيمة في دير سن جرمن دوبريه. وقد ظهرت الطبعة الثالثة منه في السنوات (١٧٨٣ ــ ١٧٨٧) .

القرن السابع عشر والثامن عشر

لقد نشأ النقد التاريخي في القرن السابع عشر بتأثير الحركة الفكرية التي نجمت عن فلسفة ديكارت [١] ومعارضة كل ما هو تقليد وسلطة . فقد نقد سبينوزا [٢] في كتـابه « **المطول في اللاهوت والسياسة** » التفسير التقليدي للتواريخ التي ذكرها الكتاب المقدس . وتبع هـذا النفي عمل ايجابي . فقد اخذ التأليف التاريخي يتأثر بالطرق العلمية الجديدة .وذلك بان جعل يصعد الى المصادر التاريخية ويجمعها وينشرها وظهرت على اثر ذلك مجموعات تاريخية من تاريخ انكلترا واسبانيا والمانيا وفرنسا . ولكن أهم هذه المجموعات الوطنية جميعا كانت مجموعه تاريخ العصور الوسطى التي شرع في اعدادها ونشرها ، منذ منتصف القرن السابع عشر ، الرهبان البندكتيون من جماعة سن مور بباريس . وأهم مجهود لهذه الجماعة يظهر في الاثر العظيم الذي وضعة جـان مابيون [٣] وهو **حوليات نظام القديس بندكت** (١٧٠٣ ــ ١٧٣٩) . كما ان رسالته « **في الدبلوماسية** » (١٦٨١) تعتبر فاتحة للبحث العلمي عن المخطوطات وبداية طيبة لنشر وثائق العصور الوسطى .

---

(١) ديكارت Descartes فيلسوف افرنسي (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) .

(٢) سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) .

(٣) جان مابيون Jean Mabillon (١٦٣٢ ــ ١٧٠٧) .

وفي الوقت نفسه بدأ جان بولاند[1] المؤرخ اليسوعي في البـلاد المنخفضة منذ العام ١٦٤٣ بنشر مجموعة « **الاعمال المقدسة** » . وهي سلسلة ضخمة استغرق اصدارها قرنين ونصف وتضم سير القديسين وأعمـالهم . وفي العام ١٦٦٣ اسس الوزير الفرنسي كولبـير[2] « **المجمع العلمي للنقوش والآداب الجميلة** » . وكان من جملة أعماله نشر « **براءات ملوك فرنسا** » .

وفي القرن الثامن عشر نشرت مجموعات قومية أخرى نخص بالذكر منها المجموعات التالية :

في ايطاليا : نشر المؤرخ الايطـالي مورا توري [3] المجموعـة التاريخية التي تحمل هذا الاسم « **كتاب الشؤون الايطالية** » (١٧٢٣ ـ ١٧٥١) وتذهب من سنة ٥٠٠ الى ١٥٠٠ .

وفي فرنسا : نشر الراهب البندكتي بوكيه [4] ابتداء من ١٧٣٨ بناءعلىاقتراحالوزير الفرنسيكولبير « **مجموعة مؤرخي الغال وفرنسا** »

وفي انكلترا : نشر توماس ريمر [5] مجموعة من الكتب تبحث في الاحلاف والمعاملات التي تمت بين انكلترا والدول الاخرى ابتداء من ١١٠١ . وقد أتمها بعده مساعده سنْدرسن° ووصل بها الى عام ١٧٣٥ كما قامت جهود اخرى بنشر الكثير عن تاريخ انكلترا مثل : مجموعة الاديار الانكليزية وتاريخ المالية الانكليزية ومجموعة التأريخ ومجامع بريطانيا العظمى الدينية ومسح الارضين .

---

(١) جان بولاند Jean Bolland (١٥٩٦ ـ ١٦٦٥) .

(٢) كولبير Colbert (١٦١٩ ـ ١٦٨٣) .

(٣) موراتوري Muratori (١٦٧٢ ـ ١٧٥٠) .

(٤) بوكيه Bouquet (١٦٨٥ ـ ١٧٥٤) .

(٥) توماس ريمر Thomas Rymer (١٦٤١ ـ ١٧١٣) .

ولم يأت القرن التاسع عشر الا ووجد في الغرب لفيف من العلماء المؤرخين . الا انه يؤخذ على التاريخ المآخذ الآتية :

١ ـ ان التاريخ لم يكن ليدرس لذاته بل كان يدرس ويستغل لتأييد بعض المصالح السياسية او الدينية ودعمها اذ لم يكن غرضه الوصول الى الحقيقة في احداث الماضي ومعرفة دوافعها ووصفها ونتائجها .

٢ ـ ان افق التاريخ كان ضيقاً لان المؤرخين كانوا يسرفون في نزعتهم المحلية والفردية وتعصبهم لطوائفهم ونظرهم السطحي الى الامور عوضا عن النظرة العامة الشاملة التي تميز المؤرخ الحق . هذا بالاضافة الى ان ميدان عملهم كان محدودا لانهم قلما يتخطون الحوادث السياسية والدينية الى ميادين الحياة الاخرى ، التي لا تقل أهمية عن تلك ، كالحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والفنية . لقد كان اكثر اهتمامهم قاصرا على العناية بتاريخ السلالات الحاكمة وعظماء الرجال من ملوك وقادة ووزراء دونما نظر الى حياة الجماهير والشعوب . وما كانوا لينفذوا خلال ابحاثهم الى ما وراء الظواهر ليصلوا الى الاسباب العميقة والحوافز القوية التي أثرت في حدوث هذا الحادث او ذاك .

٣ ـ ان المؤرخين كثيراً ما كانوا يسلمون بكثير من الاخبار ويثقون بها ويصدقونها دون نقد او تمحيص . ولم يكونوا ليعنوا العناية الكافية بجمع المصادر الاساسية للبحث ، ولم يناقشوا ما كان في متناول ايديهم ، ولم ينفذوا منه الى اعماقه ليميزوا فيه الباطل من الحق والغث من السمين . وهذا ما جعل ابحاث بعضهم بعيدة عن الحقيقة ومدعاة للظن والاتهام .

هذا وتجدر الاشارة الى ان الرواية اي الاطلاع وسعة المعلومات ليست التاريخ كله بل هي وسيلة والتاريخ غاية . فلا يكفي ، للوصول الى مستوى التاريخ الحقيقي ، ان تختار الوثائق وترتب بكل عناية

وتحدد بالزمان والمكان ويعرف نوعهاوتنتقد من حيث قيمة قابلية الاعتماد عليها وتصديقها ، بل تجب القدرة على استخدامها واستخلاص المعلومات التي يمكن ان تعطيها • وهذا يفترض من جانب المؤرخ معرفة القضايا الحقيقية التي يجب حلها ، والاسئلة التي يفيد عرضها ، كما لا يكفي الاستعلام الواسع ووضع جميع ما يلزم من فن للاجابة على هـذه القضايا والاسئلة بشكل مجد ، بل يجب ايضا التصرف بثروة داخلية أي بثقافة انسانية واسعة قادرة على الفهم والشعور وايجاد كل ثروة الماضي وحياة هذا الماضي الذي كان حاضر الناس الذي عاشوه واختفى وراء الآثار الباقية والرسوم الماثلة التي حفظتها الوثائق • ولمعرفة هـذا الماضي البشري ينبغي معرفة من هو الانسان وما هي الحياة ، وامتلاك مفهوم بنية كل منهما ، أو بتعبير آخر ينبغي معرفة حد أدنى من العمق الفلسفي •

وهذا الزاد الفلسفي الضروري للمؤرخ ظهر على يد المؤرخ الانكليزي ادوارد غيبون [1] في كتابه « **تاريخ افول الامبراطورية الرومانية وسقوطها** » الذي ظهر بين ١٧٧٦ و ١٧٨٨ واعيد طبعه مرارا وما زال يطبع الى ايامنا هذه في البلاد الانغلو ـ ساكسونية لما له من قيمة ادبية خاصة • فهو يعتبر رائعة من روائع الادب الاتباعي • واذا كان المؤرخ الكبير كاتباً كبيراً فليس لان جمال اسلوبه فحسب هو الذي منح كتابه هذه القيمة الدائمة وهذا الخلود اللذين يميزان الاثر الفني ، بل لان المؤرخ الذي يتناول اليوم دراسة عصر الكتاب وموضوعه لا يمكنه ان يتجاهل شأن المعالجة التي قام بها غيبون • ولا ريب في ان تقدم البحث العلمي في عصرنا الحاضر قد تجاوز تاريخ غيبون واصبح بالامكان لمس الضعف والنقص اللذين فيه ، ولكن جهد الايضاح والفهم الذي بذله

---

(١) ادوارد غيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) •

غيبون بسخاء كبير يفيدنا كثيرا عندما نقارن فرضياتنا مع فرضياته ، وحتى عندما نريد ان ننفصل عنه نجد انفسنا قد افدنا من الحوار الذي تم بيننا وبين هذا المحدث الحكيم .

وفي الحقيقة ان قيمة عمل غيبون تأتي عن انه استطاع ان يحقق مؤلفاً يجمع بين مجلوب الرواية وبين معنى القضايا الانسانية الكبرى كما تصورها من عل ووسعها في نفسه بما تأثر به من الافكار الفلسفية التي سادت في عصره والتي قال بها فلاسفة عصر الانوار وخاصة الفرنسيون منهم من امثال مونتسكيو وفولتير وروسو ، الذين انتجوا مؤلفات تاريخية رائعة ، ولكنها اقرب الى فلسفة التاريخ ، بالمعنى الطموح للكلمة، منها الى التاريخ الحقيقي .

النصف الاول من القرن التاسع عشر

كانت الحياة السياسية والحياة الفكرية في النصف الاول من القرن التاسع عشر تمتازان بنضال دائم وكفاح شديد ضد التقليد والمألوف . فقد عرف هذا الدور بالصراع العنيف المثمر والجهد القوي في التجديد والخلق والابداع . وقامت ، بعد حوادث الثورة الفرنسية وحكم نابوليون الاول ، حركة فكرية نشيطة امتدت رقعتها في اوربة بسبب التغيرات التي احدثتها الثورة والامبراطورية ونمو الحياة السياسية وازدياد عدد الكتب والجرائد والمجلات . ونهضت القوميات وبدأت تشعر بذاتها . كما اوجدت الحوادث السياسية من حروب وهجرات ودعاية للحرية شبكة من الروابط الفكرية بين مختلف البلدان . وتوطدت بين هذه البلاد وشائج التبادل بين أخذ وعطاء . وأدى النمو السريع في المعارف البشرية الى التخصص وتقسيم العمل وخاصة العمل العلمي. وحقق العلم تقدماً عظيماً بفضل عبقرية العلماء والتنظيم الافضل للعمل وتحسين طرق البحث العلمي .

وكان للتقـدم العلمي صداه في جميع ميادين المعرفة • وحاول العلماء ان يطبقوا الطرق العلمية الصارمة في دراسة الحوادث البشرية كاللغة والاخلاق والعادات والنظم والافكار والديانات • وتكونت بالتدريج ، الى جانب العلوم الفيزيائية ، العلوم المعنوية وخاصة العلوم التي تمتاز بسعة المعرفة او العلوم التاريخية • وقامت في هذا الميـدان بحوث جدية صابرة • فقد اوجد الالماني بوب[1] « النحو المقارن » وأقام صلة القربى بين اللغات الاوربية والسنسكريتية ، لغة الكهنـة الهنود ، وانتهى الى احتمال وجود جذر واحد للشعوب الآرية أو الهندية ـ الاوربية • وترجم الفرنسي برنوف [2] عدة كتب مقدسة عن فارس القديمة والهندية • وفك شامبوليون[3] الفرنسي الرموز الهيروغليفية (١٨٢٢) وأسس علم الدراسات المصرية • وكشفت في بلاد ما بين النهرين قصور قديمة آشورية (١٨٤٢ ـ ١٨٤٥) • وفك علماء فرنسيون وانكليز النقوش المسمارية • وعرفت حضارات قديمة ترجع الى عـدة آلاف السنين قبل العصر المسيحي • وفي العام ١٨٤٦ تأسست مدرسـة آثينة الفرنسية •

وامتد حب الاطلاع في التاريخ الى الاصول القديمة والى العصـر الوسيط • وكثر نشر الوثائق في فرنسا والمانيا • وحاول الالمانيون البحث في ماضيهم عن شواهد الوحدة القومية وعظمتها واعطوا نماذج المؤلفات التاريخية المبنية على دراسة النصوص دراسة نقدية • وتأثرت الدراسات التاريخية بالحركة الابداعية في الادب التي قامت بثورتها العنيفة على عقلانية القرن الثامن عشر وراحت تطالب باقامة مجتمع انساني على

---

(١) فرانتز بوب Franz Popp (١٧٩١ ـ ١٨٦٧) •

(٢) جان ـ لوي برنوف Jean - Louis Burnouf (١٧٧٥ ـ ١٨٤٤)

(٣) جان فرانسوا شامبوليون Jean - François Champollion (١٧٩٠ ـ ١٨٣٢) •

أسس جديدة . فقد شغت هذه الحركة الادبية بالتقاليد والنعرات القومية والاخلاص للدين واحترام القديم والخضوع للتقاليد والعرف وتمجيد العصر الوسيط الى حد بعيد وبعث مبدأ الحق الآلهي في الحكم واحلال مبدأ القومية وتقدير الفريد النادر . وأصبح التاريخ تعليمياً ، وحاول المؤرخون بعث الماضي حياً والتوفيق بين الرواية من حيث سعة المعرفة والحياة وبين الاهتمام بالصور الجذابة كما يبدو في « **قصص العصور الميروفنجية** » لمؤلها اوغستن تييري [1] التي نشرها عام ١٨٣٥ . وكثرت العناية بالتاريخ الخاص لكل شعب من الشعوب بدراسة العرق والبيئة وغدا التاريخ محكمة سياسية ، وكثر المؤرخون السياسيون الذين ارادوا ان يستخلصوا من التاريخ ، وبصورة عامة من الماضي القريب ، مبررات لمذهبم واعمالهم وقواعد للعمل وحججاً انتخابية ، حتى ان بعض السياسيين ممن لا يعانون العمل التاريخي أخذوا ينهلون من التاريخ ما يتفق مع مصالحهم للرد على خصومهم أو لدعم سلوكهم ، أو لأنهم يتمثلون كمتنبئين بالأزمنة القادمة في المستقبل .

وقام في كل بلد أوربي نفر من المؤرخين ينبشون ماضيهم القومي لتتعرف عليه الأجيال المعاصرة . وكان هذا العمل منهم اما بعامل المبادهة الشخصية والعاطفة القومية واما بدافع من رجال السياسة .

ففي المانيا : بدأ البارون فون شتاين [2] نضاله في سبيل تجديد دولة بروسيا وأسس « **جمعية دراسات التاريخ الالماني** » . وقررت هذه الجمعية ان تجمع وتحرر وتنشر سلسلة كبرى تاريخية تتصل بتاريخ المانيا

---

(١) اوغستن تييري Augustin thierry (١٧٩٥ ــ ١٨٥٦) .

(٢) شتاين Stein (١٧٥٧ ــ ١٨٣١) .

في العصر الوسيط وتعرف بهذا الاسم[1] « **اصول التاريخ الالماني القديم** » .
وكانت خطة هذا المشروع أن يتألف من خمس مجموعات كل منها قائم بذاته وهي : الكتّاب ، القوانين ، المراسيم الامبراطورية ، الرسائل ، متفرقات .

وأدخل المؤرخ نيبور[2] في دراساته القضايا السياسية والاجتماعية ودشن بذلك التاريخ الاجتماعي . فقد درس نصوص المؤرخ الروماني تيت ـ ليف وغيرها من المصادر الاسطورية للجمهورية الرومانية وألف كتابه الشهير « **تاريخ الرومان** » ونهج به نهجاً علمياً مبتكراً أحيا به التاريخ الروماني وجعل للتاريخ عن طريق هذا الكتاب مكانة علمية .

وفي فرنسا : كان التاريخ سلاحاً سياسياً بيد البورجوازية . وعلى هذا النحو وضع تاريخ كامل للرجال السياسيين والمؤلفين . ففي العام ١٨٣٣ بدأ المؤرخ ميشليه [3] بنشر « **تاريخ فرنسا** » ومع هذا فقد وجدت دراسات تاريخية تدل على سعة الاطلاع والمعرفة . ففي العام ١٨٣٥ نشرت المجموعة : « **وثائق لم تنشر عن تاريخ فرنسا** » وهي تضم حياة ومؤلفات آباء الكنيسة لواضعها مين [4] . ووضع غيزو[5] مؤلفاته التاريخية حسب قاعدة نقدية قوية ، وألف في العام ١٨٣٤ « **جمعية تاريخ فرنسا** » وكان أول رئيس لها المؤرخ الابداعي

---

(١) اصول التاريخ الالماني القديم :
. (Monumenta Germaniae Historica)

(٢) نيبور Niebuhr (١٧٧٦ ـ ١٨٣١) .

(٣) جول ميشليه Jules Michelet (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) .

(٤) مين Migne (١٨٠٠ ـ ١٨٧٥) .

(٥) غيزو Guizot (١٧٨٧ ـ ١٨٧٤) .

بارانت° • ونشرت هذه الجمعية سلسلة مجلدات في مصادر التاريخ الفرنسي تزيد على ثلثمائة وخمسين مجلداً •

وعلى هذا المنوال شرعت بلجيكا بنشر مخطوطاتها ابتداء من ١٨٣٦ واسبانيافي١٨٤٢ والنمسا في١٨٤٩ • وألفت انكلترا« **لجنة السجلات** » في ١٨٠٠ •

وفي ايطاليا : كان يراد من التاريخ أن يري جذور الوحدة الايطالية التي يراد تشكيلها • وكان الاتجاه منصرفاً نحو العصر الوسيط • ومن رجاله ماتروني وترويا وجينو كابوني وكارلو كتّابو وقد أعطى هذا جزءاً من تاريخ ايطاليا مبنياً على أسس اجتماعية واقتصادية •

وفي انكلترا كان أهم اثر لهذا العصر « **تاريخ اغريقية** » (١٨٤٨ — ١٨٥٦) للمؤرخ الكبير ج• غروت[١] • فقد جمع بين قوة الطريقة النقدية اللغوية التي اشتهر بها الالمان وبين الهوى السياسي الذي يعرف به الديموقراطي • وكذلك توماس كارليل بكتابه الشهير في « **الابطال** » وضع نظرية تجعل من التاريخ مجموعة من السير المختارة والمثل التي تحتذى • ويعتبر رائداً من رواد التوسعية الاستعمارية والتسلط الاستعماري الانكليزي الذي عرفت به انكلترا سيسيل رودز و كتشنر•

النصف الثاني من القرن التاسع عشر

لقد تبدلت الحياة الفكرية بصورة عميقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أثر التبدلات الكبرى التي حدثت في النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، وتطورت بسرعة فائقة • وكان يسيطر على هذا التطور حادثان أساسيان وهما: التقدم العلمي والتقدم الديموقراطي•

---

(١) ج• غروت G. Grote (١٧٩٤ — ١٨٧١) •

فقد تقدم العلم فأمسك بقيادة الحضارة بكاملها وطبع بطابعه الخاص مختلف اشكال النشاط الفكري ، وجهز المفكرين والفنانين والأدباء بمفاهيم جديدة وطرق عمل جديدة ومصادر الهام جديدة وأخذ تأثيره ينمو يوماً عن يوم •

ولم يكن التقدم الديموقراطي بأقل من التقدم العلمي • فقد وجد نظامان ديموقراطيان ممتازان تبنتهما الدول المتحضرة وهما نظام التصويت العام ونظام التعليم العام • وكان من نتائجهما المباشرة نمو الجمهور وبالتالي تزايد النتاج الفكري بسرعة • فقد ازداد عدد قراء الكتب والصحف والمجلات ونظارة المسارح وزوار المتاحف وسمّاعة الحفلات الموسيقية ازدياداً عظيما • وتبدلت شروط العمل الفكري وتحسنت عند المؤلفين الذين استطاعوا ان ينفذوا بمؤلفاتهم الى السواد الأعظم من الناس • وألفى كل انسان ضالته من الأفكار المحافظة التقليدية الى الأفكار الجديدة الثورية • واذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر مأخوذاً بتيار الابداعية والنزاع بين الابداعيين والاتباعيين فقد تعقد التطور في النصف الثاني من هذا القرن فبلغ التطرف في تنوع النزعات والميول والمدارس والمؤلفات والصراع الفكري والعقائدي • وكلما عظم اتصال الحياة الفكرية وتوثقت علاقاتها مع الخارج كلما ازداد تنوع الانتاج وتعددت تيارات المبادلات بين بلد وآخر وامتدت الى البلاد البعيدة في الشرق الأقصى والامريكتين حتى ان الحياة الفكرية كالحياة الاقتصادية والسياسية أخذت تطبع بالطابع الدولي والعالمي •

وظهر التأثير العلمي واضحاً في القصة والمسرح ونفذ الى التاريخ نفسه ففصله نوعاً ما عن الأدب وقربه من العلم وأخذت الدراسات التاريخية مكاناً عظيما في الحركة الفكرية ، وما فتىء مجالها يتسع بفضل العلوم المساعدة كعلم النقاشة وعلم فك الكتابات الأثرية وعلم

المسكوكات وعلم الآثار ، وبفضل المساعدات المالية التي تمنحها الحكومات والمؤسسات الخاصة • وقد لمع اسم التاريخ في معظم البلدان الاوربية ولكن سناه في فرنسا والمانيا كان أكثر ضياء واشعاعاً •

وأدى التقدم الديموقراطي وانتشار الاشتراكية ، على أثر القلق الاقتصادي والحركات الشعبية ، الى تصور جديد للتاريخ • فقد حاول المؤرخون أن يضمنوا تواريخهم العامة حياة الشعوب بنواحيها المختلفة دون الاقتصار على ناحية معينة كالاهتمام بسير العظماء والبطولات والقادة والملوك •

وكثرت وسائل البحث بتنظيم مستودعات المحفوظات والوثائق ، وغزرت المادة التاريخية حتى خشي أن تغلب وفرة الانتاج طاقة المؤرخين على الاستهلاك لأنه أصبح من المتعذر على من يعاني العمل التاريخي أن يحيط بجميع الوثائق الحديثة التي تصل اليه كل يوم • وان أكثر ما يؤخذ على المؤرخين المحدثين هو عدم احاطتهم احاطة تامة بمختلف أنواع الوثائق التاريخية المتعلقة بالموضوعات التي يدرسونها •

وامتد الاقبال على التاريخ الى ميادين جديدة • فقد انطلق كل نظام فكري يبحث عن ماضيه وأضيفت الى التواريخ « **الافقية** » ، التي تهتم بأزمنة محدودة وبأحداث سياسية أو عسكرية أو دبلوماسية معينة، تواريخ أخرى اختصاصية « **شاقولية** » كالتاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الفن وتاريخ الأدب وتاريخ الحقوق ، وتاريخ الاديان ، وتاريخ العلوم ، وتاريخ الفن الصناعي ، وتاريخ الادوات والآلات • وأحدثت هذه الاختصاصات الدراسات التي تتفق مع صعود الطبقات الجديدة الموجهة • فقد اهتم التاريخ الاقتصادي بالبورجوارية الرأسمالية ، كما عني التاريخ الاجتماعي بالجماهير وأخذ يتكيف مع عالم يسود فيه التصويت العام •

وفرض كل اختصاص على نفسه طرقاً جديدة . فقد أخذ العلماء المهتمون بالمواثيق والآثار والانساب والاختام والشعارات وفك الكتابات القديمة يبحثون في وثائقهم عن كل ماله فائدة وعلاقة بالعصر الـذي يدرسون أو المجتمع الذي أوجد المخلفات ، وأصبح كل شيء وثيقـة تاريخية . وساعدت طرق التحليل والمقارنة المطبقة على الفن وعلم اللغة والحقوق وعلم الاقوام على تفهم الحوادث المتبقية التي لم تفسر أو ما زالت مجهولة . ونمت اختصاصات جديدة أوجدتها الاكتشافات الاثرية كعلم النقاشة (**دراسة النقوش**) وعلم البردي وعلم قياس مـدة الحوادث (**كرونوغرافيا**) . وأصبح لكل عالم من العوالم القديمـة باحثون مختصون : كالعلماء المختصين بالدراسات المصرية والمستشرقين المهتمين بالدراسات الشرقية والصينية وغيرها ، حتى أن طبيعة الأرض وقطع الاراضي الزراعية ووضع هذه القطع بالنسبة لبعضها أصبحت عناصر لها قيمتها في الدراسة .

ولقد أخذ على العلماء الأوربيين وخاصة الالمانيين من أمثال فولنف° وشتاين انهم أضاعوا حياتهم ، كما يبدو للبعض ، في عمل غير مجد وغير مفيد عملياً . ولكن التحليل الدقيق للتفاصيل التي أتى بها هؤلاء العلماء فرض نفسه على المؤلفات المعاصرة وعلى التي أتت بعدها . فلولا سعة المعرفة والاطلاع والاختصاص العالي لما تمت المؤلفـات الضخمة العديدة والأوابد التاريخية الكبرى التي تعتبر عملا عظيمـاً من أعمال العبقرية البشرية . وفي الحقيقة كان كبار الاساتذة أنفسهم اختصاصيين ومثقفين ثقافة متينة ويتحلون بعزم ثابت ، وهمة لا تفتر عن العمل ، ودأب لايكل ولا يمل . ولو لا هذه الصفات لما استطاعوا ان ينتجوا ما انتجوه من مؤلفات قيمة . ونخص بالذكر منهم :

في فرنسا ، ظل ميشليه حتى عام ١٨٧٤ يمثل التاريخ الابداعي . بيد ان هنالك ثلاثة مؤرخين كانوا ، على اختلاف درجاتهم ، يمثلون

التاريخ العلمي وهم تين[1] ورينان[2] وفوستل دوكولانج[3] • أما تين فكان فيلسوفاً ومؤرخاً طبق طريقة العلوم الفيزيائية على العلوم المعنوية • وكان يرى ان الحوادث البشرية تتعين بالعرق والبيئة والعصر وتخضع لقوانين كسائر الحوادث الطبيعية ولذا يجب دراستها بالطريقة نفسها • وعلى هذا النحو الف أثرين قويين وهما :« **تاريخ الادب الانكليزي** » (١٨٦٣) **واصول فرنسا المعاصرة** (١٨٧٦ — ١٨٩٤) • ويغلب في هذين الكتابين روح المذهب على روح الملاحظة •

وكان رينان فيلسوفاً ومؤرخاً وكاتباً كبيراً وأحد أساتذة النثر الفرنسي • وقد انساق بمواهبه وتربيته الى الدراسات الدينية ووقف أحسن أيامه لكتابة **تاريخ اصول المسيحية** (١٨٦٣ — ١٨٨٣) ثم اتبعه بكتاب **تاريخ الشعب الاسرائيلي** (١٨٨٧ — ١٨٩١) •

أما فوستل دوكولانج فكان مؤرخاً حقاً • وقد وضع النماذج الاولى للتاريخ الموضوعي في كتابيه : **المدينة العتيقة** (١٨٦٤) **وتاريخ النظم السياسية لفرنسا القديمة** (١٨٧٥ — ١٨٨٩) • وتتلخص طريقته التاريخية بثلاث قواعد :

١ — ان تدرس النصوص وحدها مباشرة في أدق تفاصيلها •

٢ — ألا يصدق الا ما تبرهن عليه هذه النصوص •

٣ — ان يجنب عن تاريخ الماضي الافكار الحديثة التي تحملها اليه الطريقة الباطلة •

---

(١) هيبوليت تين Hippolite Taine (١٨٢٨ — ١٨٩٣) .

(٢) ارنست رينان Ernest Renan (١٨٢٣ — ١٨٩٢) .

(٣) فوستل دوكولانج Fustel de Coulanges (١٨٣٠ — ١٨٨٩)

ويقول : « ليس التاريخ فناً بل هو علم بحت . وهو يقتضي ، ككل علم ، مشاهدة الحوادث وتحليلها ، وتقريبها من بعض ، وبيان الرابطة التي تربط فيما بينها . ومن الممكن ، ولا شك ، أن تخرج فلسفة ما من هذا التاريخ العلمي ، ولكن يجب أن تنبعث منه بصورة طبيعية ومن نفسها ، وخارجة تقريباً عن ارادة المؤرخ . اما هذا فليس له من مطمح سوى ان يرى الحوادث ويفهمها بصحة وضبط ، ولا يمكن ذلك ، الا بملاحظة النصوص ملاحظة دقيقة ... ان أفضل المؤرخين المؤرخ الذي يقف من النصوص عن كثب ، ويفسرها بكثير من الضبط والدقة ولا يكتب بل ولا يفكر الا بحسبها » .

في المانيا ، بدأ المذهب الحديث في النقد التاريخي في العام ١٧٩٥ عندما نشر فولف[١] العالم اللغوي والنقاد الالماني « **مقدمة هوميروس** » ولم تكن هذه المقدمة بحثاً تاريخياً بالمعنى الصحيح ، بل كانت بحثاً أدبياً لغويا . وترجع أهميتها الى ان الالياذة والاوديسية لم يكتبهما هوميروس أو رجل آخر بهذا الاسم ، ولكنهما من نظم جماعة من الشعراء تتابعوا على فترات متباعدة من الزمن . وقيمة هذه المقدمة التاريخية تأتي من انها برهنت على ان من الممكن الحصول على كثير من المعلومات الهامة من دراسة الوثائق القديمة دراسة واعية .

ولقد سار على نهج فولف ونيبور عديد من العلماء ، ويأتي على رأسهم ليؤبولد فون رانكه[١] . ويعتبر زعيم المدرسة التاريخية الحديثة في المانيا ، وقد عرف بعدالته ونزاهته ، وكان همه الوصول الى معرفة الحوادث وكيفية حدوثها . وقد عمر طويلا وكتب كثيراً . وأهم كتبه

---

(١) فولف Wolf (١٧٥٩ — ١٨٢٤) .

(١) ليؤبولد فون رانكه Léopold Von Ranke (١٧٩٥ — ١٨٨٦)

« **تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية بين ١٤٩٤ ـ ١٥٣٥** » وقد نشر عام ١٨٢٤ وكتاب **تاريخ المانيا في عصر الاصلاح** (١٨٣٩ — ١٨٤٧) • ففي آثاره يرى تفتح التاريخ الايجابي الذي يهدف الى بعث حوادث الماضي « كما جرت فعلا » ويعتمد على دراسة نقدية للمصادر ، كما يرى تقدم الطريقة العلمية بكل ما تتطلبه من دقة وضبط واطمئنان وهذا يظهر في :

١ ــ العمل البسيط على الوثائق المطبوعة •

٢ ــ تقيم الوثائق •

٣ ــ الفحص المنظم والكامل لجميع المصادر القريبة المنال •

بيد ان ما يؤخذ على التاريخ ، حسب رأي رانكه ، هو انه يسير على خط توسيديد وبوليب ، وافضل من ذلك ان يقال على طريقة ماكيافيللي وغيشاردن ، أي انه يهتم بالتاريخ السياسي أو تاريخ الحوادث أو سردها • ولكن العلم لا يقبل أن يتحدد نشاطه وهو آخذ بالتعمق ؛ فالى جانب التاريخ السياسي المحض الخاص بدراسة الحكومات ومنازعاتها والحروب والدبلوماسية ، نما نموذج من التاريخ أكثر عرضاً وأكثر شمولا وهو تاريخ الحضارة ، الذي يجمع مجلوب التواريخ الخاصة كتاريخ الفن والعلوم والفلسفة ، ويحاول أن يشمل نشاطات الانسانية كلها ليصنع منها لوحة عامة ويظهر فيها العلاقات المتقابلة ومختلف أنواع التنسيق على مدى العصور •

وأكبر مؤرخي الألمان بعد نيبور هو تيؤدور مومسن [1] • فقد كان فقيهاً باللغة ، قانونياً ، عالماً بالنقوش الأثرية ، نشر كتاب « **تاريخ الرومان** » الذي عمت شهرته الآفاق وكتاب « **تاريخ الحق العام الروماني** » و « **مجموعة النقوش الرومانية** » وجدد بها دراسة القديم

---

(١) تيؤدور مومسن Thédor Mommsen (١٨١٧ ــ ١٩٠٣) •

اللاتيني ، وحاز على جائزة نوبل •

في انكلترا ، بدأت المدرسة النقدية في التاريخ بالمدرسة التي تحمل اسم مدرسة اكسفورد التي ينتمي اليها وليم ستبز [1] وقد اشتهر بكتابه « **تاريخ الفتح النورماندي** » العظيم ، وفريمان [2] بكتابه « **تاريخ انكلترا الدستوري** » وغرين[3] وبوركلي[4] وسيلي [5] مؤرخ التوسعية البريطانية ؛ الى جانب الاعمال الكبرى التي كان يديرها الاختصاصيون كالمجموعة التي تحمل هذا الاسم : « **انكلترا الاجتماعية** » سجل تقدم الشعب (١٨٩٢ — ١٨٩٦) •

في ايطاليا ، اشتهر غيوبرتي [6] بكتبه وآرائه السياسية التي أراد بها توجيه القضية الايطالية بعدم النسخ عن دولة اجنبية أو الالتحاق بها ، وذلك بالقيام بالاصلاحات لا بالثورات ، وانشاء اتحاد من الدول الايطالية تحت زعامة البابا • ولكنه عدل وجهة نظره هذه في كتابه « **تجديد ايطاليا المدني** » (١٨٥١) واتجه نحو دولة حرة وموحدة • ومن الملاحظ ان الدراسات التاريخية في ايطاليا وقعت في حالة انحطاط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر •

في الولايات المتحدة ، تأثرت الدراسات التاريخية بالمدرسة الالمانية في النقد التاريخي • ونخص بالذكر من المؤرخين جورج بنكروفت[7] •

---

(١) وليم ستبز W. Stubes (١٨٢٥ — ١٩٠١) •
(٢) فريمان E. A. Freeman (١٨٢٣ — ١٨٩٢) •
(٣) غرين G. R. Green
(٤) بوركلي Burckle
(٥) سيلي Seely
(٦) غيوبرتي Gioberti
(٧) جورج بنكروفت George Bancroft (١٨٠٠ — ١٨٩١) •

فقد كان سياسياً أميركياً ومؤرخاً ، بل ويعتبر من أكبر مؤرخي الولايات المتحدة . وأكبر مؤلفاته « **تاريخ الولايات المتحدة** » في بضعة مجلدات، واندرو هوايت[1] من جامعة ميتشيغان وله بحوث تاريخية في الصراع بين العلم واللاهوت في العالم المسيحي ؛ والمؤرخ هـ. ب آدامز [2] ، فقد تخرج من جامعة هايدلبرغ في المانيا وعين استاذاً للتاريخ في جامعة جونز هوبكنز عام ١٨٧٦ ، ومن مؤلفاته« **طرق الدراسة التاريخية** » .

وهكذا وجد في كل بلد لفيف من المؤرخين خلصوا التاريخ من شوائب الجهل والباطل والدعاية والهوى والنزعات المغرضة ، وارتفعوا به الى صعيد العلم ، ولكنهم لم ينجوا ، رغم محاولاتهم هذه ، من الجمع بين العلم والعاطفة القومية .

القرن العشرون

لقد أدى التطور في الدراسات التاريخية الى تحرير التاريخ من الانواع الادبية وأصبح علماً مستقلا واسع المعرفة ، قائماً على النقد ، له مقوماته الخاصة وطريقته في البحث والتحقيق . وتسارع التقدم الفني التقني في هذا القرن وعاد على التاريخ بفوائد جمة . فمن ذلك ان علم الآثار أخذ ينقب عن هذه الآثار تحت الارض وتحت البحر وعن المواقع الاثرية بطريق التصوير من الجو أو من علو شاهق ، حتى ان الاب بوادبار[3] استعمل النور الافقي الماسح في تصوير الآثار في سورية . وأصبح الفيلم والقرص المسجل والشريط المسجل وثائق أساسية . واستعين بالفيزياء والكيمياء وتطبيقاتهما الصناعية في تصوير

---

(١) اندرو هوايت Andrew white (١٨٣٢ ــ ١٩١٨) .

(٢) هـ . ب . آدامز H. B. Adams (١٨٥٠ ــ ١٩٠١) .

(٣) بوادبار R. P. Poidebard

المنحوتات وقطع الاجسام المعدنية بواسطة التحليل الكهربائي ، وبعيار الفحم ١٤ المشع لمعرفة عمر المواد العضوية القديمة وتاريخها ، وقد طبقت تجارب حقيقية كالشيخوخة الاصطناعية بغية المقارنة بينها وبين الشيخوخة الطبيعية .

وساعد التطبيق المنظم لعلم الاحصاء على التاريخ في الحصول على تقدم عظيم ، بالرغم من أخطار التزييف والتحريف والتفسير الخاطىء التي يمكن أن تتضمنها الاحصاءات .

واذا كان الخطر بالنسبة للعصر الحاضر هو الغرق في كتلة الارقام ، فان هذه الارقام تندر كلما صعدنا في سياق العصور . فالارقام السابقة للقرن التاسع عشر تتطلب صبراً وأناة لانشاء سلسلة كاملة وصحيحة .

بيد أن التعداد الاحصائي المطبق على الحوادث الديموغرافية والاقتصادية والنقدية (من حيث العملة) ، شجع في هذا القرن على تفتح التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بعد أن ظل زمناً طويلا في حالة ركود . ولقد حاول بعضهم منذ القرن الفائت اكتشاف الصفات الاساسية المميزة لهذا النوع من التاريخ ، أو أكدوا عليها ، نذكر منهم المؤرخ لافاسور [1] في كتابه « **تاريخ الطبقات العاملة والصناعة في فرنسا قبل ١٧٨٩** » ، والنظري كارل ماركس الذي أقام للتاريخ الاقتصادي مكاناً قطعياً في سير الحوادث البشرية . ولكن تحليل هؤلاء المؤلفين للحوادث ، مهما كانت قيمته ، يبقى مبنياً على تقديرات وتخمينات أكثر منه على حقائق علمية .

وفي بداية عصرنا الحاضر وضع فرانسوا سيميان [2] المبادىء

---

(١) اميل لافاسور Lavasseur (١٨٢٨ ـ ١٩١١) .
(٢) فرانسوا سيميان François Simiand (١٨٧٣ ـ ١٩٣٥) .

الاصولية والمنطقية لتحليل الحوادث الاقتصادية والاجتماعية تحليلا علميا . وأدت هـذه الطريقة فـي عام ١٩٣٢ الى أثره العظيم فـي « **الاجرة والتطور الاجتماعي والنقد** » والى التعريف بتقسيم جديـد للتاريخ الى مراحل طويلة ، كامتداد النقد أو تقلصه ، ومضطربة في ذاتها بمراحل قصيرة معاكسة . ولكن مثل هذه النظرة لا تخلو من مخاطر . فهي لا تستطيع أن تعلم ولا تزعم بأنها تعلم جميع الحوادث التاريخية ، وتفتح باب الخلاف الدائم بين التاريخ الاقتصادي والتاريخ البحت ؛ الذي يرفض أن يرجع التاريخ الى أي دراسة اخرى ويقتصر على وصف دقيق واضح للحوادث وشروط تسلسلها.ولقد كان للمفهوم الاقتصادي انصار متحمسون في بداية هذا القرن ولكنهم أخذوا يميلون بالتدريج الى التحفظ والحذر من الانزلاق في مثل هذه المخاطر . وهم يقبلون بأهمية الاقتصاد والبنية الاجتماعية في التاريخ ، ويرفضون في الوقت ذاته أن يجعلوا منهما مفتاحا لكل شيء ، كمـا يؤكدون على وصف الحوادث ويطالبون بأن يرد الى عظماء الرجال ما لهـم من فضـل في تسيير الحوادث ، حتى ان أشد المتمسكين بالتحليل الاقتصادي أخذوا يشعرون بضرورة احلال الحوادث الثقافية والقصصية والاعمال الفردية محلها اللائق الذي تستحقه .

وأخذ النقاش يتركز من جـديد على صعيد الاولية بين « **التاريخ التقليدي** » الذي يصف الحوادث ويحددها في الظروف التي ترافقها ، وبين « **التاريخ الكلي** » الذي يهتـم بالتزيين والاطار ووضع الحوادث ضمن هذا الاطار بكل ما تحتويه اللوحة التاريخية من **اقتصاد ومجتمع وحضـارة** . وقد احتلت هذه اللوحة الثلاثية المكان الاول ، وأخذت الحوادث التاريخية تمثل على ارضية هذه اللوحة مع الاعتراف بدور هذه الحوادث في القيام برد فعل على الاطار ، ومع العلم ان قيام أي حـركة تاريخية لا يمكن أن يفهم الا بشرح الحالة العـامة والظروف

المحيطة التي عبأت الافكار وجعلت قيام هذه الحركة أمراً لا مندوحة عنه ، أما أن تأخذ هذه الحركة هـذا الاتجاه أو ذاك فهذا يرجع الى الشخصيات التي وجهتها ولعبت دورها في تسييرها •

وعلى هذا النحو يقوم العمل التاريخي المبني على التركيب•ومهمة المؤرخ أن يدفع التحليل في جميع الاتجاهات ، ويضع الفرضيات التي يراها مناسبة ويحـاول تحقيقها ثم يجمع هـذه المعطيات في تركيب تاريخي • ومثل هذا التأليف يتطلب ولا شك فكراً عاماً وشاملاً ينظر الى جميع الآفاق ويتصور كل الاحتمالات ويقدر على تقريب العناصر المختلفة ولو بدت متباعدة ظاهراً •

ان هـذا العمل لا يمكن أن يقوم به انسان بمفرده • ولذا كان العمل جماعة ضرورة لا بد منها • وفي هذه الحالة يوجه العمل مؤرخ خبير ويقوم كل مؤلف بالتأليف بجزء من العمل ضمن الخطة المرسومة لـه • وهكذا انجزت معظم المجموعات التاريخية في البـلاد الراقية ولكن هل من الممكن ان يصنع من التاريخ بوتقة تذوب فيها معطيات الماضي البشري برمتها ؟ ان هذا غير ممكن ، على أن المشاهد عملياً هو ازدياد اختصـاص المؤرخين وازدياد الانقسام في البحث ، وقد أدى الامر الى حدوث ازمة تعود الى التباين بين مطامح التاريخ ووسائله ، حتى ان البعض اتخذ من ذلك حجة وقال بعدم صلاحية التاريخ لأن يكون علمياً بالمعنى الدقيق للعلم ، لأن الملاحظ ان التـاريخ « ذاكرة البشرية » وان الذاكرة ليست وسيلة يطمأن لها دوماً • وحاول آخرون البحث عن الطرق المألوفة في التاريخ التي يغلب عليها الطابع الحِرَفي واعتبروها مسؤولة عن الاخفاق الظاهر الذي مني به التاريخ الكلي • بيد أن هذا التاريخ يصبح ممكناً بتركيز البحوث وجعلها فوق ــ قومية وتنظيمها وترتيبها وتعميم استعمال الميكرو فيلم والجذاذات المثقوبة والحاسبة الالكترونية •

وهناك قطاع حرج في التاريخ وهو مجابهة النظم الفكرية لأن هذه المجابهة أصبحت عامة في هذا العصر وأشد عنفاً في ميدان يدرس الانسان منظوماً في المجتمع • فقد خلف المؤرخون المذهبيون ؛ المتعلقون بمذهب من المذاهب الفكرية ، المؤرخين السياسيين • ومن الملاحظ ان اولئك المؤرخين يخفون في كتاباتهم الأعمال العارضية التي يقوم بها السياسيون المتهنون ولا يكتفون بتبرير المذهب وفهم المستقبل على ضوء الماضي فحسب ، بل انهم يوضحون الماضي ويشرحونه بسلمات المذهب • ولا شك في ان هذا السلوك لا يخلو من التجني على الماضي في كثير من الامور •

ويقوم النزاع في هذا العصر بين التاريخ الماركسي والتاريخ غير الماركسي ، والمجال رحب لتنوع الفروق بين التاريخين حسب العقيدة وحسب ارادة انصار كل من التاريخين في التوفيق والمصالحة • ويرى المؤرخ المعاصر نفسه مسوقاً بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى الاختيار بين هذه النزعات الفكرية • ولا ينكر ما لهذه النزعات الفكرية المختلفة من فوائد لأنها تضطر الانصار والخصوم الى الخوض في بحوث ومحاورات ومناظرات مثمرة • غير انه لا يمكن أن يجهل بأنها تشوه الحوادث والواقع لأن الاغراء عظيم بالانضواء تحت ظل هذه النزعات أو بالخضوع لها •

ووجدت كثير من التواريخ الجدلية أو الحزبية التي افقدت التاريخ والمؤرخين ما لهم من حظوة ، حتى انهؤلاء ذهبوا ضحية اعتداء غيرهم عليهم ممن يكتبون عن الماضي ويزعمون أنفسهم مؤرخين • فقد يصعب في بعض الأحوال ، الفصل بين القصة والتاريخ ، وبين حسن النية وسوء النية ، وبين البحث الدقيق والارتجال الكيفي •

واليوم يعاد البحث في القضية الاولى وهي حدود التاريخ • ان ما يراد من التاريخ هو أن يكون علماً دقيقاً واضحاً ومفصلا ، ويأخذ

بعين الاعتبار تطور البشر وحركات الشعوب والمجموعات الحضارية الكبرى بكل مظاهرها المختلفة ؛ وان حوادث وأفراداً معينين قد طبعوا زمنهم بطابعهم الخاص ويجب أن يتبؤوا مكانهم اللائق بهـم ، وان هنالك حركات ونبضات كان لها من التأثير العميق على ممـر العصور والسنين أكثر مما كان لغيرها من اندفاعات عارضة ومؤقتة . ولكننا نتساءل هل مثل هذا التطلع ممكن التحقيق ؟ ان واقع الامـر هو انه لا يمكن لأحد أن يكون جازماً في هـذا الاتجاه أو ذاك لأنه يدرك ويقدر مدى العقبات التي تقف في طريق هـذا العمل أو تنسب اليه أو الصعوبا تالتي تتناسب مع عظمته وضخامته . ولـذا ينبغي على التاريخ أن يتقيد بما يلي :

١ ــ أن يبقى على حاله كمـا هو دون أن يرمي الى ضم نواح فلسفية أو دينية أو سياسية بل وحتى اجتمـاعية **(سوسيولوجية)** ودون أن يجعل نفسه حكرة بيد واحدة منها أو كلها .

٢ ــ أن يكون متواضعاً في وسائله فلا يجرؤ ويعمم أو يستنتج أو يدخل أشياء من اختراعه عنـدما يكون التوثيق **(جمع الوثائق)** ناقصاً أو مفقوداً . بل عليه أن يبقى نقاداً باستمرار ، يقظاً دوماً أمام الوثائق التي يستعملها سواءً من حيث افراطها أو تفريطها .

٣ ــ أن يتجنب التجزئة بدافع من كثرة الاختصاصات وفروعهـا النـامية . وعلى المؤرخ أن يكون مكان عمله الخـاص في المجموعة التاريخية ماثلاً في ذهنه دون انقطاع .

٤ ــ أن يتطلباناساً مجهزين بالمواهب الفكرية والنفسية الضرورية للعمل التاريخي . ولكن مثل هذا الطلب غير متوافر ، ولذا يجب أن يكون كل مؤرخ متمماً ومراقباً بمؤرخين آخرين .

٥ ــ لا تاريخ دون اختصاص ومعرفة عميقة وعمل دائب ونزاهة فكرية .

تقسيم التاريخ ومواده • ـــ تقوم دراسة التاريخ على ثلاثة أبعاد : الزمان والمكان وميادين البحث المختلفة • ومن المعلوم ان التقسيم في التاريخ أمر كيفي ولا يخلو من صعوبة • وهذه الصعوبة تأتي من تفاوت الاقسام المختلفة ومن الفائدة المتوخاة من أحد الأبعاد ، لأن النظر فيه يختلف بالنسبة للبعدين الآخرين ، فضلا عن ان التقسيم الزماني والمكاني لا يمكن أن يكون نفسه اذا تركت أولية تاريخ الحوادث تمر على أولية البناء الاقتصادي • فالتقدم الفني الصناعي ، وبخاصة تقدم المواصلات يمرران الحوادث السياسية من الاطار الاقطاعي أو الاقليمي الى الاطار القومي والقاري والأطلسي وأخيراً العالمي، في الحقبة الممتدة بين القرن الثالث عشر والقرن العشرين • واذا لم يتجاوز التداخل المباشر وغير المباشر بين هذين الحادثين السياسي والاقتصادي ، في القرن الثالث عشر ، بضع عشرات من الفراسخ ، فهو يلعب دوره في كل نقطة من نقاط الأرض ، وبين نقطة وأخرى في القرن العشرين ؛ أو بتعبير آخر اذا كان الدافع والاستجابة في الماضي يتسلسلان على سنين وأشهر بين نقطة وأخرى فقد أصبحا يتبادلان في أيامنا هذه ، في بضع ساعات أو أقل •

التقسيم الزماني • ـــ لقد قسم الزمان الى عصور واحتفظ بهذا التقسيم واعتبر مقبولا ومرضياً عنه ، كما قبل بصورة عامة أيضاً ان التخلص منه أمر مستحيل • وبموجبه قسم الماضي الى خمسة أقسام متفاوتة وهي :

١ ـــ عصر ما قبل التاريخ وهو واسع ومظلم وغامض •

٢ ـــ العصور القديمة وهي أربعة آلاف عام منذ ظهور الكتابة في الشرق الادنى الى تداعي الامبراطورية الرومانية في الغرب الاوربي •

٣ ـــ العصور الوسطى وهي ألف عام منذ تفتت العالم القديم الى الاكتشافات الجغرافية الكبرى •

٤ ــ العصور الحديثة وتسمى أيضاً العصور الاتباعية **(الكلاسيكية)** وهي ثلثمائة عام من النهضة الاوربية الى ثورات آخر القرن الثامن عشر •

٥ ــ الدور المعاصر وهو أقل من قرنين من التغيرات التي لا تنقطع في مختلف الميادين وعلى مقياس عالمي •

ان كل دور من هذه الادوار الخمسة ينقسم بدوره الى عصر « **أعلى** » وعصر « **أدنى** »، الى امبراطوريات ، الى قرون ، الى عهود سلالات حاكمة ؛ أو الى دورات اقتصادية ونقدية ؛ أو أخيراً الى أدوار حضارية • كما ان الاطار الزمني يتبع قطاع البحث والاطار الجغرافي المختار ؛ والحدود بين الأدوار الكبرى غير واضحة وتحتمل النقاش حسب الموضوع ؛ ويحوم حولها عدد كثير من القضايا ، فليس بالممكن مثلاً قطع الغارات البربرية الكبرى بين القرن الثالث والسادس • وليس ممكناً أيضاً قطع النهضة الايطالية بين القرن الرابع عشر والسادس عشر •

وبالرغم من النقد فمن الممكن أن يقبل بأن كل عصر يقابله جملة نوع من البحوث والاختصاصات المختلفة وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم الملحقة والمساعدة : فالمختص بما قبل التاريخ يعمل في الأصل على معطيات أثرية مختصرة ، ولكن هذه المعطيات تتمم بمعطيات العلوم االاخرى كعلم المستحاثات وعلم طبقات الارض (**الجيؤلوجيا**) وعلوم الطبيعة ، ويضم لها علم الأجناس (**اثنولوجيا**) وعلم وصف الأقوام (**اثنوغرافيا**) المقارن •

ويبحث مؤرخ العصور القديمة عن التوافق بين الوثائق القليلة العدد التي تقع تحت يده • وهذه الوثائق على نوعين :

١ ــ الكتابات الأدبية التي نقلها النساخ عبر العصور حتى مخطوطات العصور الوسطى •

٢ ـ المعطيات المتنوعة لعلم الآثار ومختلف الفروع ذات الاختصاص التي نجمت عن مكتشفاته اذ ان بعضها يكون مادياً صرفاً ، والآخر يضم عناصر مكتوبة كعلم الآثار المصرية والاستشراق وعلم النقاشة **(الكتابات الاثرية)** وعلم البردي وعلم المسكوكات . وكل هذه الوثائق تعطي مادة لعلم اللغة والحقوق والفلسفة والأديان وتواريخ الحوادث. أما القديم الادنى فيوضح بالبقايا المتروكة أو المخلفات في دراسة الاسماء الخاصة **(اونوماستيك)** [1] والدراسة اللغوية والتاريخية لأصل أسماء المكان **(توبونيميا)** [2] وأحياناً علم تمثيل سطح الأرض **(الطوبوغرفيا)** [3] .

ومواد مؤرخ العصور الوسطى كالمواد السابقة ولكنها تختلف عنها من حيث الكمية والعيار والمكانة الخاصة بها . فالمعطيات الأثرية ، بالرغم من انها أكثر من غيرها ، تلعب في تاريخ العصور الوسطى دوراً أقل مما تلعبه في تاريخ العصور القديمة . وما ذلك الا بسبب كثرة النصوص التي خلفتها تلك العصور . وهي تقدم اطاراً كعناصر تاريخ الفن ، ولكن المكانة الاولى للكتابات أي النصوص الأدبية وخاصة المحفوظات [4] . ومن هنا تأتي أهمية الوثائق الرسمية **(الدبلوماتيك)** وعلم فك الكتابات القديمة **(الباليوغرافيا)** [5] ، وعلم الانساب ، وعلم الشعارات ودراسة الأختام وبقايا اسماء الامكنة التي يكشف عنها علم الجغرافيا في حياة الريف والحواضر المدنية .

---

(١) دراسة الاسماء الخاصة . (Onomastique) .

(٢) دراسة اسماء المكان (Toponymie) .

(٣) علم تمثيل سطح الارض (Topographie) .

(٤) المحفوظات Archives .

(٥) علم فك الكتابات القديمة (Paléographie) .

ويجد مؤرخ العصور الحديثة نفسه ، أمام كثرة المكتوبات وانتشارها ابتداء من عصر النهضة ، في مشكلة جديدة وهي صعوبة الوفرة والاختيار الضروري ؛ يضاف الى ذلك الاعتماد على الجداول الاحصائية ودراستها وتمثيلها تمثيلا خطياً بيانياً مع الاستعانة بمختلف العلوم المحضة والتطبيقية .

ويناضل مؤرخ العصر الحاضر ضد افراط الوثائق لأن الوسائل الكثيفة في الانتاج والنسخ ونقل الكلام والأصوات والصور وتعميم التعليم تجهزه بمصادر عديدة سمعية وبصرية . وعليه أكثر من أي شخص آخر أن يحسن التصرف بالوسائل العلمية في الاصطفاء والتحليل. ويعتبر من جهة ثانية ضحية تاريخية عصره ، أي مذهب عصره المبني على اعتبارات تاريخية وفلسفة هذا العصر التي تعتبر جميع القيم ناتجة عن التطور التاريخي ، لأن الأفراد والجماعات يدرسون التاريخ ويكتبون له ويعلقون عليه أهمية كبرى . وهذا ما يجعل موقف المؤرخ حرجاً فلا بد له من التبصر والحذر امام الوثائق الموضوعة . وعليه أن يفيد أخيراً من علم السكان وعلم الاجتماع والعلوم الاقتصادية والسياسية وأن يحترس من الخلط بين دراسته وهذه العلوم . وهكذا يرى ان التاريخ كلما اقترب من الحاضر كلما ازداد تعقيداً في مختلف الوجوه .

التقسيم المكاني . – لقد اعتمد البناء الاجتماعي القديم والوسيط والحديث نفسه على المدينة والامبراطورية والاقطاع والطائفة والدولة. وتقتصر هذه الأخيرة على التاريخ المحلي أو التاريخ القومي . أما اليوم فتقوم الدراسة التاريخية على المجموعات الحضارية الكبرى : كأن تتناول دراسة أجزاء من قارات أو قارات بكاملها ، أو منطقة بحرية أو محيطية نمت فيها أو حولها تأثيرات متبادلة هامة ولو كانت بطيئة وتدريجية ولا يشعر بها معاصروها . وما نعلمه اليوم هو أنه لا يسكن

فصل الغارات البربرية الكبرى في اوربة الغربية في بداية العصر الوسيط عن حركات الشعوب في آسيا الوسطى وأمواج الغزو في الشرق الاقصى • وكذا يمكن القول بشأن وحدة البحر المتوسط في العصور القديمة ، والوحدة المسيحية اللاتينية في العصور الوسطى في الغرب والوحدة الاسلامية في الشرق في هذه العصور ، ووحدة المنطقة الأطلسية في العصور الحديثة ، ووحدة الشرق الاوسط ، والوحدة الافريقية في العصر الحاضر •

ميادين البحث • ـ لقد اقتصر البحث طويلا على الحوادث • ولكن هذه الحوادث لا تشكل في حد ذاتها سوى قطاع من القطاعات التاريخية • ولهذا القطاع نفسه اختصاصات : كالتاريخ العسكري والسياسي والدبلوماسي ، ويلحق بها تاريخ الأفكار • ويميز فيه تاريخ الحقوق وتاريخ الأديان والمذاهب الفلسفية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية •

ومقابل ذلك تشكل تاريخ للآداب والفنون • ومنذ القرن التاسع عشر نما التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، وتاريخ العلوم والفن الصناعي • والتاريخ الاقتصادي بدوره ينقسم حسب النشاط البشري الى زراعة واصلاح زراعي ، وحرف يدوية ، وصناعة ، وتجارة ومبادلات ، ونقد وأموال • والتاريخ الاجتماعي يشمل علم السكان (الديموغرافيا) والطبقات الاجتماعية ونزاع الطبقات • وتاريخ العلوم والفن الصناعي يشتمل على فروع بقدر ما توجد علوم بحتة وتطبيقية وميادين تكنولوجية : رياضية وعلوم فيزيائية وطب وعلم المعادن وغيرها •

وهذا التقسيم الذي لا ينتهي يدعو الى تعقيد البحوث ، وتقنينها يؤلف عقبة خطيرة أمام التاريخ • ولذا يحاول صهر هذه التواريخ الاختصاصية جميعاً في قلب تاريخ المجتمعات والحضارات الذي يضم

سائر الميادين الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ويدخل تاريخ الحوادث في جسم التأليف المنشود .

تمثيل التاريخ . — لقد مثل الفنانون التاريخ في العصر القديم بصورة كليو[1] وهي احدى الالهات التسع في علم الأساطير (الميثولوجيا) . وجرى هذا التقليد في العصر الاتباعي وبخاصة على يد الرسام الفرنسي لوبرن[2] في سقف قاعة المرايا في قصر فرساي بفرنسا . كما مثل التاريخ أيضاً بجنية في آبدة قلب فرنسوا الأول في سن — دوني . وفي القرن التاسع عشر مثل النحت التزييني التاريخ بجبهة الباتيون (مدفن العظماء) التي ألفها المثال دافيد دانجيه[3] أو لوحات قوس الظفر في ساحة النجم في باريس على يد كورتو[4] .

---

(١) كليو Clio .

(٢) لو برن Le Brun .

(٣) دافيد دانجيه David D'Anger .

(٤) كورتو Cortot .

الفصل الثامن

الصناعة التاريخية

يحسن قبل كل شيء أن نميز بين لفظي « التاريخ » بالألف اللينة ، و « التأريخ » بالهمز لاجتناب اللبس • يطلق لفظ تأريخ على دراسة الماضي ، وتاريخ على الماضي ذاته الذي هو موضوع هذه الدراسة • ومعظم المؤرخين يقصرون معنى التأريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضي أي كل ما يتصل بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على سطح الارض، كما يدل على ذلك لفظ Historia الاغريقية الأصل ، وذلك عن طريق تسجيل أو وصف الحوادث التي طرأت على الافراد والمجتمعات •

والمفهوم الأدق للتأريخ في أصل معنى لفظه واشتقاقه أنه يفيد البحث ، أو المعرفة التي يتوصل اليها عن طريق البحث • والمعنى المستتر هنا هو الاستقصاء والكشف وتحري الحقيقة ، كما يشير اليه معنى اللفظ في الاغريقية ، وبهذا يكون التأريخ علماً • ذلك أن تعريف العلم بأنه المعرفة المنظمة المبوبة المقننة يسمح لنا باسناد صفة العلم الى أي موضوع يجهد الانسان في دراسته الى توخي الحقيقة ، وتجسيع الوقائع واطراح الهوى • ولذا فالمعرفة التاريخية لا تختلف عن أية معرفة اخرى من حيث الغرض والدافع والغاية المنشودة • على أن التأريخ ليس علم معاينة مباشرة كالفلك ، ولا علم تجربة واختبار كالكيمياء ، ولكنه علم نقد وتحقيق يعتمد على تفكير استقرائي يتصف بطابع التحليل والتركيب ، وربما كان أقرب العلوم الطبيعية شبهاً بالجيولوجيا •

فالجيولوجي يدرس طبقات الارض في مختلف العصور ليعرف كيف صارت الارض الى حالتها الحاضرة • والمؤرخ يدرس الآثار الغابرة ليفسر بواسطتها ماضي المجتمعات البشرية وحاضرها ، ومادة علمه هذه الآثار الباقية والاصول المدونة والادوات المصنوعة والفنون المنقوشة والتقاليد والانفعالات التي لا تدل على وقائع الماضي مباشرة وانما تساعد على اثارة ذهن المؤرخ بما يهديه الى الصلات التي ترتبط بين الحوادث ، وبما يوضح له هذه العوامل الخفية التي تدفع الناس ، في آخر الامر ، للعمل والحركة والتطور • واذا عرّفنا التأريخ بأنه السعي الدائب لادراك الماضي البشري واحيائه ، فليس معنى هذا اننا نستطيع الفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل • فالحياة في سيرها وحدة منسجمة متكاملة ، والباحث لايستطيع مجابهة أي مشكلة ما لم يدرس جذورها ومراحل تطورها • ويعني المؤرخون بالماضي البشري افقياً وعمودياً ، أي من وجهة سعة المحتوى ، ووجهة الامتداد الزمني ، فيشمل نظرهم جميع وجوه الحياة الانسانية وكافة مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والفكرية والدينية • ولقد وفى هذا الغرض المؤرخ العربي ابن خلدون في تعريفه للتاريخ بقوله : « انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال »[1] ••

---

(١) المقدمة ــ الكتاب الاول في طبيعة العمران ص ٢٠ ؛ الطبعة الاولى، المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ.

ولا بد أن نفرق بين موضوع التاريخ وموضوعات العلوم الاخرى لئلا يتبادر للذهن أن موضوع التاريخ غير مستقل عن موضوعات العلوم الأخرى ، ولا يتم ذلك الا بابراز صفات الحادث التاريخي وهي :

١ ــ الحادث التاريخي حادث اجتماعي ، بمعنى أن له تأثيرا في بعض الجماعات البشرية ، أو في البشرية جمعاء

٢ ــ الحادث التاريخي حادث جزئي أو واقعة فريدة مقيدة بالزمان والمكان . أما الظاهرة الطبيعية أو الاجتماعية في حادثة تتكرر وتلاحظ مراراً في زمان ومكان آخرين حسب ما يتطلبه الاختبار لاستنتاج القانون المنشود . فالتاريخ مثلا لا يبحث في نشأة الديانات عموماً ، كما يفعل علم الاجتماع ، وانما يدرس كيف ظهرت الديانة اليهودية أو النصرانية أو الاسلامية في عصر ومكان معينين . والتاريخ لا يعنى بدراسة القتل السياسي بصفة عامة ، وانما يكشف عن حوادث قتل معينة تم وقوعها وانقضى عهدها . والتاريخ يشارك العلوم الاجتماعية بمادته الانسانية ، ولكنه يختلف عنها في أنه ينصرف الى هذه المادة من وجهة نشوئها وتغيرها وتسلسلها الزمني ، فان شاء أن يتعدى هذا الى استخلاص قوانين التغير والتطور فقد دخل حيز دراسة فلسفة التاريخ .

٣ ــ الحادث التاريخي لا يعلم مباشرة : يقع الحادث الطبيعي تحت حواسنا فنلاحظه مباشرة ونجربه ، أما الحادث التاريخي فلا نطلع عليه الا بواسطة الوثائق والآثار ، ومن هنا كانت المعرفة التاريخية بذاتها معرفة غير مباشرة ، منطلقها الأثر أو الأصل المكتوب ، وهدفها الحقيقة التاريخية ، وأقل خطأ يرتكبه المؤرخ في هذا المرتقى الصعب بين منطلقه وهدفه ، قد يفسد كل النتائج التي يستنتجها من دراسته .

يتبين مما سلف أن التاريخ ينساب في شتى العلوم والآداب ،

ويرتبط بها متفاعلاً معها ، ولكنه يتميز عنهـا من حيث تركيزه على الماضي بالذات ، بينما هي تتجه الى أغراض وغايات أخرى عندما تنظر الى الماضي ، وهي تستخدم التأريخ وتفيد منه في سبيل تحقيق هذه الاغراض والغايات .

واذا كانت الاحداث السياسية والحربية أشد لفتاً للنظر من سواها بسبب ما يصحبها من ضجة ، فالاحداث الاخرى الاقتصادية والاجتماعية والعقلية لا تقل عنها أهمية ، بل كثيراً ما تكون هي المسببة لها والعاملة من ورائها ، فكل مظهر من مظاهر النشاط البشري أياً كان قدره وأياً كان بروزه أو خفاؤه ، هو كل مترابط موحَّد لا يتجزأ ولا ينقسم ، ولذا يصح ما سبق أن نوهنا عنه من أن المرء لا يدرك حقيقة حدث ما الا اذا وعى الحياة كلها .

والتاريخ يشارك غيره من العلوم في أنه مثلها سعي وجهد وعرق ، ولكن مهمة المؤرخ دونها مهام أعظم العلماء الآخرين ، وضخامة عمله تتضح وتتضاعف اذا قوبلت بضآلة الوسائل والادوات التي يملكها التأريخ بالنسبة للعلوم الأخرى ؛ فالمؤرخ محجوب عن مادته عاجز عن التحكم بها ، لا ينفذ الى الماضي الا من خلال الآثار والمخلفات ، ولا يغرب عن البال المآرب والاغراض والاهواء المتضاربة التي دفعت الى وضع هذه الآثار أو فعلت في تدوينها ، أو ما أصاب بقاياها من تلف وضياع . هذا الى ان الماضي البشري طويل المدى واسع الميدان وأشد خطورة وادعى للتدبر والرهبة مما في العلوم الاخرى : أحداث متشابكة متعاقبة ، حضارات متوالية متداخلة ، ثورات عظمى سياسية وعقلية ودينية ، وانقلابات فاصلة اجتماعية واقتصادية ، وخوالج ومشاعر ، وخيال جامح النزعات والاهواء ، ومطامع يمتزج في صنعها الخير والشر ، والحق والباطل ، تتفاعل في غمارها أحداث السياسة بالاقتصاد ، بالأدب والاجتماع ، بالفن والاخلاق ... ويكون نتاجها شيئاً يتعذر

على الفكر البشري أن يحيط به ويعي حقيقته • وقد يبدو ان سبيل هذا الوعي التاريخي هو سبيل العلوم الأخرى : الاختصاص الجزئي الذي لا يزال يدرس ويحقق حتى يجلو الجزء ويربطه بأجزاء الماضي فتتكامل صورته ، ولكن ندر بين المؤرخين من امتلك ناصية التدقيق الجزئي الاختصاصي ، وموهبة الادراك العـام الكلي • وقد ثبت أنه كلما تجزأ هـذا النظر الجزئي ، ضَعُف الفهـم الكلي ، وكلما تناثرت الابحاث وتشتتت ، صعبت اعادتها الى وحدة التأريخ المستمدة من وحدة الحياة •

على أن مناهج البحث التاريخي قد اقتربت كثيراً من هذه الغاية المثلى ؛ فقـد وضع المؤرخون الثقاة طريقة دقيقة وصناعة **(تكنيك)** محكمة يحاولون التزامها جهد الامكان ، ولا يضعون نصب أعينهم جسامة الموضوع وضآلة أدواته فحسب ، بل صعوبة مادته وشـدة تعقدها ، وخفاء مقاييسه وعسر تحديدها أيضاً • ولما كانت الاحاطة متعذرة بجميع عوامل التأريخ واحداث الحياة ، فحسب المؤرخ الحصيف أن يختار من احداث الماضي ما يلاحظ أنه كان أعمق وابعد أثراً في بيان تطور المجتمع الانساني الى حالته الراهنة •

مراحل الصناعة التاريخية • ـ نريد بالصناعة هنا ما تعني لفظة **(التكنيك)** باللغات الأجنبية ، أي « الجهد المنصرف الى غاية معينة ، والمنظَّم بقواعد ثبتت بالاختبار ، تكفل بلوغه الغاية عن أسلم الطرق وأضمنها وأوفرها نتاجاً » • ولا نقول فن التاريخ لئلا يلتبس المقصود منه بالاخراج الأدبي للبحث التأريخي •وصناعة التأريخ أو طريقة بحثه ومنهجه تعرف لدى الغرب بالميثودولوجيا Methodology وقد دعاها الدكتور أسد رستم **((مصطلح التاريخ))** جرياً على التسمية التي أطلقها العلمـاء المسلمون على علم **((مصطلح الحديث))** عنـدما عكفوا على استخلاص قواعد تحقيق أحاديث النبي (ص) لمعرفة درجات الصحة

والضبط في طرق روايتها • وقد كان لعلمـاء الحديث فضل السبق والابتكار في الميثودولوجيا التاريخية ، اذ تسرب أثر هذا التحقيق الناقد من الحديث الى التأريخ ، وقد أنصف الدكتور رستم جهـود المحدثين حين ربط مبادىء الصناعة التأريخية الحديثة ، ومبـادىء « **مصطلح الحديث** » ،وكشف عن مآرثهم في النقد التاريخي الذي تحددت معالمه في ديار الغرب ، منذ أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحـالي •

تكون مبادىء الصناعة التأريخية من سلسلة من المراحل التي يمر بها الباحث للوصول الى الحقيقة ، وتبدأ من اكتشاف الأثر والوثيقة وتنتهي بالتأليف التأريخي • وليس بمستطاعنا في هذا الفصل المجمل أن نحيط بهذه المراحل ، وتتبسط في جهودها المحكمة المتتابعة وانما نكتفي بايجاز أهم خطواتها وأبرز مقوماتها بما يكفي لجلاء غوامض الاحداث الماضية •

وبمـا أن الماضي يستخرج من آثار السلف ، أصـولَ التأريخ ومصادره ، لذا يتعين على المؤرخ أن يقوم بما يلي :

١) **التقميش (جمع الاصول والمصادر)** • ـ ينبغي للمؤرخ قبل كل شيء أن يعنى بجمع الأصـول والوثائق المتصلة بموضوع دراسته • والمصادر بأنواعها تختلف قيمتها بحسب الفترة الزمنية المراد بحثها ، أو الناحية المقصودة من نواحي الماضي ، وتنقسم أصول التاريخ تبعاً لذلك الى قسمين :

١ ـ اصول ومصادر عصور ما قبل التاريخ •
٢ ـ اصول ومصادر العصور التاريخية •

أما القسم الأول فيتألف من الآثار القليلة التي كشفت عنها الحفريات الأثرية وغيرها في المـدافن القديمة والكهوف والجروف ، كالآلات

والاسلحة الحجرية والمعدنية والنقوش والتصاوير البدائية وما اليها .
وبما أن انسان تلك العصور كان لا يعرف الكتابة ، فان دراسة حوادث ما قبل التاريخ تبقى محوطة بالمصاعب والمعضلات .

أما القسم الثاني فيتألف من الآثار الوفيرة التي خلفها الانسان منذ أن عرف الكتابة . وتنقسم أصول الازمنة التاريخية ومدوناتها الى نوعين : الاول نوع يشتمل على الوثائق التي وضعت لاحتياج الناس اليها عهدئذ كالقبور والابنية والنقود والاوسمة والالبسة والسجلات الرسمية والمستندات السياسية والعسكرية والاحصاءت والحسابات والمآثر الفنية والادبية والصناعية ، والالفاظ الباقية من اللغات القديمة، والمعاهد والتقارير والمراسلات وما الى ذلك .

والثاني يشتمل على الوثائق التي وضعت لاخبار الاجيال الآتية بما فعلته الاجيال الغابرة ، وتنقسم الى شفاهية كالروايات والملاحم والقصص والاساطير والاقوال المأثورة ، والى كتابية أ ويدوية كالتصاوير التي تمثل بعض المشاهد التاريخية أو بعض الحفلات الدينية أو الاعمال اليومية ، والكتابات والنقوش المحفورة على الابنية ، والتماثيل وأقواس النصر ، وشجرات الانساب ، والتراجم ، وكتب المؤرخين ومصنفات الرواة والمذكرات والنشرات والصحف وما اليها . وقد تسابقت متاحف الدول لحفظ النقوش والتصاوير والخطوط وصيانتها من التلف والضياع ، وجمعت الاصول والوثائق المكتوبة في خزائن الكتب ودور المحفوظات (الارشيف) ووضعت لها فهارس منظمة لوصفها وتبويبها وارشاد الباحثين اليها . ولا مراء في أن قوة البرهان على الحادث التاريخي تختلف بحسب ما يتوفر لدى الباحث من الآثار المادية والكتابية ، الا أنه بلغ من فضل الاصول والوثائق المكتوبة على غيرها من المصادر كالمخلفات المادية الملموسة من تماثيل وأبنية ومصنوعات ... ان قيل فيها بحق : « لا تأريخ بغير وثائق » ، فالمؤرخ دون معونة الاصل

المكتوب ، كالبحار دون بوصلة . وعلى الرغم من ان الآثار المادية هي شواهد تاريخية صامتة تمثل الماضي حياً تحت حواسنا ، ولا تضللنا اذا أحسنا استنطاقها ، واستعرضنا ما دوِّن عليها من اسماء ووقائع واعمال ، غير انه يجدر بنا ان نقف قليلا عند بعض آثار الماضي ، ان أقواس النصر التي أمر نابليون بونابرت مثلا بتشييدها في بعض جهات المانيا التي احتلتها قواته يوماً ، لا تعني احتفاظه بالسيطرة على اوربا لمدة طويلة . والمدالية التذكارية التي أمر بضربها بمناسبة « نزول » جيشه في الجزر البريطانية لا تدل على ان الاحتلال قد تم فعلا ، مع أن المدالية نقش عليها أنها ضربت تخليداً لذكرى استيلاء نابليون على انكلترا . ومـا ينطبق على الوثائق الخطية من الدس والتزييف والانتحال لمقـاصد متباينة لا يقع تحت حصر ، ولذا يتحتم على المؤرخ أن يهتم بدراسة آثار الانسان المختلفة بروح النقد والتحفظ والحذر ، فاذا جرى فيها على سجيته ، واستسلم للاصول بثقة عمياء وتهالك في تصديقها وأسرع في عمله ، فلن يصل الى غاية التأريخ الصحيح . ويجب ألا يستهين الباحث بأي من الاصول والمصادر أو يهمله ، اذ قد يغدو اضألها شأناً أثناء عملية التقميش والجمع ، أشدها أهمية بعد النقد والتحقيق . ومن الضروري للباحث الا يطمع في أن يجد كافة معلوماته في بطون الاصول والمراجع ، فمن المفيد له السفر والارتحال ليتصل بأعلام التأريخ فـي البلد ويأخذ عنهم بعض ما يريد من المصادر ، ولا يجب أن يقتصر الباحث على دار واحدة للمحفوظات (الارشيف) بل ينبغي استقصاء ما يتصل بموضوعه في جميع دور المحفوظات العربية والاجنبية ان أمكن . والمؤرخ البارع يعرف أين يجد بغيته في المجموعات العامةالتابعة للدولة أو في المجموعات الخاصة التابعة لبعض رجالات الدولة أو القانون أو العلم ، أو في المتاحف منظمة مبوبة في قاعات البحث والمطالعة ، أو مبعثرة مختلطة في الأقبية والمستودعات ، والى آخر لحظة يظل الباحث

يتوقع كشف أصول جديدة قد تغير ماوصل اليه من الحقائق كلها أو بعضها ، وبعد أن يزور آثار العصر الذي يبحثه والمباني القائمة التي عاش فيها رجال العصر ، والحدائق التي كانوا يتنزهون في أرجائها . وبعد أن يتعرف على طرق معاشهم ووسائل تسليتهم وآلة حربهم وموسيقاهم وأزيائهم ، تشيع في نفسه خلجات رجال العصر ورؤى نفوسهم ، ثم يبدأ المرحلة التالية بعد أن حشد جميع الاصول المطبوعة والمخطوطة ، وجمع كل ما كتبه الرواة وأصحاب المذكرات عن موضوعه .

٢) **نقد الاصول التاريخية :** ان عملية النقد تتلو جميع الاصول والمصادر او تصحبها ؛ فالمؤرخ لا يأخذ هذه الاصول على علاتها ؛ بل يعمد الى اساليب من النقد والتحقيق والتمحيص ، وفحص كل منها لتقدير قيمته ومدى امكان الركون اليه في تسجيل احداث الماضي ؛ واثبات صحة الاصل والتثبت من خلوه من كل دس أو تزوير أو تحريف . وهذه الاساليب النقدية متعددة متتابعة ؛ تقسم عادة الى قسمين رئيسيين :

النقد الخارجي : ويتوجه الى اثبات صحة الاصل وتثبيت نصه ومعرفة مؤلفه ، وزمان التدوين ومكانه ، أي يتحرى الاصل التاريخي من شكله وخارجه من حيث نصه ولغته واسلوبه ومصادره .

النقد الداخلي : ويتوجه الى روايات النص لفهم معناها وتقدير اتجاهات مؤلفها ومدى تسرب الخطأ اليها أو تأثير التشيع فيها ، ويبحث المؤرخ الاحوال الفكرية التي مر بها كاتب الاصل فيحاول ان يعرف ماذا قصد . وهل يعتقد بصحة ما كتب ؛ وهل لديه ما يبرر ذلك ؛ وهل كان متأثراً بعوامل داخلية أو خارجية .

ان أول خطوة في النقد الخارجي هي اثبات النص في الوثيقة أو الاصل ، وهنا تعترضنا حالات مختلفة ؛ فقد تكون الوثيقة هي النسخة

الاصلية التي وضعها المؤلف ، وحينئذ نعتمدهـا اذا كانت سليمة لم تتعرض لأي تآكل أو تحريف أو ضياع بعض أجزائها •

وغالباً ما تكون محفوظة لنا نسخة أو نسخ منقولة عن النص الاصلي اما مباشرة او بالواسطة ، فيجب على المؤرخ ان يعارض هذه النسخ بعضها ببعض ، وان يقسمها الى فصائل ، وان يتخذ الاغلاط المشتركة قاعدة للقسمة لان اتفاق النساخ في غلطة واحدة يدل على ان بعضهم قد نقل عن بعض ، ثم يتبين الحلقات المفقودة بينها ويستخرج النص الاصلي منها ، أو أقرب صورة مسكنة لذلك النص • وهـذا العمل الناقد المحقق يتطلب معارف متنوعة بأشكال الخط والورق والحبر والقلم والخاتم واللغة والاسلوب ، هل هي مما يتفق مع عادات الكتاب في دواوين ذلك العصر أم هي مختلفة عنها • حتى اذا توفر لنا الاطمئنان الى أقرب نص ممكن من الاصل ، عدنا الى نشره ليبقى مرجعاً للباحثين، وقد يكتشف نص آخر اقدم منه فنعيد المحاولة على ضوء الدليل الجـديد •

وقد نجد بين أيدينا عدداً من المخطوطات المنسوخة عن أصل واحد . فكيف تثبت النص الاصلي ؟ مثال ذلك ان المجمع العلمي العربي بدمشق لا يزال يتابع نشر تاريخ دمشق لابن عساكر . وهو يقع في عدد كبير من المجلدات ، وله في المكتبة الظاهرية نص ، وفي مكتبة الجامع الازهر نص ، وفي المتحف البريطاني نص ، والمسعى مبذول للوصول الى تحقيق النص الاصلي •

ولبلوغ هذه الغاية يجب أولا أن نجمع هذه المخطوطات كلها أو صوراً منها ، ثم تتحرى أقدم هذه النسخ • وليس معنى هذا ان الاقدم هي الاصح ، فقد تكون النسخة الثانية أصح منها • هل نقبل النص الذي تتفق عليه أكثريتها ، ونرفض النص الذي تورده الاقلية ؟ ليس هذا بصحيح دوماً ؛ بل يجب ان نبحث عن العلاقات بين هذه النسخ

ونعرف ما هو مأخوذ عن غيره وما هو مستقل . فنصنفها ليس بحسب طبيعتها وقيمتها ، وانما بحسب اتفاقها او عدم اتفاقها في ذكر تفسيرات أصيلة للحادث التاريخي ، أي نرسم شجرة نسب لهذه المخطوطات فنطرح النسخ المنقولة عن أصل واحد ، ونكتفي باحداها ، وعندما تتوفر لدينا النصوص المستقلة . نعمد الى استخراج الاصل القديم منها : فاذا اتفقت نصوصها نقبل النص المتفق عليه ، واذا اختلفت ننتقي ونؤثر نصاً على آخر ، وايثارنا للنص يتوقف على ثقتنا بناسخه أو مصدره؛ ولا شك في أن التثبت من صحة الاصول وأصالتها أمر يتطلب المران والخبرة ويقتضي اقصى الجهد وأوفر العناء .

وبعد تثبيت النص جهد الامكان ، تتساءل عن مؤلفه ، لان قيمة الاصل تتبع مكانة واضعه . من هو ؟ هل هو ذلك الذي تدعي الوثيقة أنها من تأليفه ، أم شخص آخر ؟ وبعبارة أخرى ، هل الوثيقة صحيحة أم مزورة ، وما هو مبلغ الدس والتحريف فيها ، وهل هي من وضع مؤلف واحد أو أكثر ، وما هي الاقسام الخاصة بكل منهم ؟

في العصر الحديث لا يثير هذا السؤال أي إشكال ، لان أسماء المؤلفين ظاهرة على كتبهم ، هذا الى أن مشاعر الامانة العلمية قد نمت في أيامنا هذه بحيث لا يجرأ المؤلف أن ينسب لنفسه ما ليس من وضعه ، ولو حدث الانتحال فعلا لسهل اكتشافه ، فضلا عن الحماية التي تضمنها البلدان الراقية لحقوق المؤلف والناشر . ان كل ذلك لم يكن معروفاً في العصور الماضية ، ولذا وصلنا من العصور القديمة والوسطى عدد من الاصول والمخطوطات المجهولة المؤلفة أو المنتحلة ، أو التي حاول بعضهم التلاعب بنصوصها تبديلا وإضافة وحذفاً وتصحيحاً أو شرحاً وتعليقاً ، وذلك لاغراض متباينة بعضها بريء وأكثرها غير بريء . فوجب على المؤرخين التحقيق عن هؤلاء المؤلفين والتثبت من شخصياتهم ؛ ومن نزعاتهم ودرجة علمهم وذكائهم ، ومدى اتصالهم

بالحوادث التي يروون أخبارها ، وزمن كتابتها ومانها • ان مهمة المؤرخ هنا أصعب بدرجات من مهمة القاضي والمحامي ، لان مخبرهما حي ماثل أمام الاستنطاق ، أما مخبر المؤرخ فهو ميت مطوي الصفحة • بيد أنه يمكن كشف المؤلف بدراسة الاصل التاريخي من حيث الخط والورق والحبر واللغة والاسلوب والمصطلحات والروح السائدة ، وتسلسل الاخبار ، وربما اهتدى الى اسم المؤلف بمراجعة بعض الاصول الاخرى ، وقد لا يؤدي البحث الى شيء فيبقى المؤلف مجهولا • ولا تكفي معرفة اسم المؤلف فقط ، فالغرض من معرفة الاسم هو معرفة شخصية الكاتب وصفاته لما لذلك من أهمية في تقدير قيمة المعلومات الواردة في الاصل ومدى فهم مؤلفها للحوادث وظروفها عموماً ، فتتناسب قيمة المعلومات مع شخصية مدونها من حيث مركزه وطبيعة عمله ومشاهدته العيانية واعتماده على غيره بذلك • واذا كان المؤلف معلوماً بحث عن شخصيته ودرجة الثقة به وعدالته في الرواية ، وأمانته في القول وسلامته من الكذب ، وجمع اخباره من كتب التراجم ، وتنسم أخبار الاصل من الكتب التاريخية الاخرى ••

وبعد معرفة مؤلف الاصل التاريخي نتساءل عن زمان تدوين الاصل ومكانه ، وعن كل ما يساعدنا على وضعه في موضعه الصحيح وتصور الظروف التي كتب فيها ، والتطورات التي تعاقبت عليه • فالاصل أو الوثيقة قد تكون صحيحة ، وكاتبها معروفاً ، ومع ذلك ينقص من قيمتها بعد المسافة الزمنية بين وقوع الحادث ورؤيته وبين تدوينه • فاذا تعذر على المؤرخ تحديد زمن تدوين الاصل بالضبط ، فعليه أن يضع له حداً أقصى وحداً أدنى ، أي يعين التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله أو بعده ، وهو أمر ميسور غالباً ، لان المؤلفين يشيرون احياناً الى بعض ما وقع في أثناء تدوينهم للحوادث كالاشارة الى حادثة طبيعية مثل الكسوف ، أو حادثة مشهورة يعرف زمنها :

وحينئذ يجعل تاريخ وقوع هذه الحوادث حداً أقصى في تعيين الزمن الذي كتب فيه الاصل وهكذا .

وبصدد تعيين مكان تدوين الأصل نتساءل هل دوّن شاهد عيان أخبار الحوادث في مكانها أو بعيداً عنها ؟ وهل نقلها عن شهود عيان أم رواة عن غيرهم ، واين تم ذلك ؟ وهل كان الكاتب في موضع يمكنه من تسجيل الوقائع بدقة أم أنه أدخل الخيال والذاكرة في روايته ؟ وتحدد المعلومات التاريخية في بعض الاحيان مكان تدوين الأصل . وقد يمكن معرفة ذلك من المعلومات العامة عن الكاتب **(محل اقامته وخلافه)** . وبانتهاء المؤرخ من نقد الاصول والتعرف على مؤلفيها وزمان التدوين ومكانه ، تنتهي أهم مراحل النقد الخارجي .

أما النقد الداخلي فقد ذكرنا انه يتوجه الى المضمون والمحتوى ، وهو في الصناعة التأريخية على نوعين : نقد داخلي ايجابي ، وهو يفسر النص ويجلو معناه . ونقد داخلي سلبي ، وهو يكشف عن مآرب المؤلف وأهوائه ودرجة تدقيقه في الرواية . ولا حاجة الى القول ان مراحل النقد الخارجي تمهد لمراحل النقد الداخلي ؛ اذ بعد التثبت من النص والتعرف بمؤلفه وزمانه ومكانه ، يبادر المؤرخ الى روايات النص الذي بين يديه ليفهم مقصود واضعه عن طريق التحليل الدقيق . وتحليل أي نص تاريخي معناه محاولة فهم الآراء والأفكار الواردة فيه . والتمييز بين كل منها على حدة . ويسمى النقد الداخلي الايجابي أيضاً بنقد التأويل . أي تحليل الاصل لتفسيره وادراك معناه ؛ ويمر في طورين .

١ ــ تفسير ظاهر النص وتحديد معناه الحرفي .

٢ ــ ادراك المعنى الحقيقي للنص ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه.

والطور الاول يتطلب أن يلم المؤرخ أولاً بلغة الأصل ويفهم دقائقها وأساليبها . ويحيط بتطور ألفاظها ومصطلحاتها ، فاللغة تتغير من عصر الى عصر . ومن مكان الى آخر ، ولكل كاتب طريقته الخاصة في التعبير عن أفكاره • وقد تكفي قراءة النص وحده للالمام بمعانيه ، فاذا تعذر ذلك . رجع المؤلف الى كتب المؤلف الأخرى ، أو كتب معاصريه ، وينبغي أن لا تفسر الفاظ النص في أول الأمر الا بحسب معناها الظاهر ، فاذا وجد المؤرخ في معناها غموضاً أو نقصاً أو تناقضاً أو مخالفة لآراء المؤلف الأخرى ، أو للحقائق التاريخية المعلومة ، بحث عن أغراض المؤلف الحقيقية ؛ فقد يكون في الكلام ضروب من الكناية والمجاز والتشبيه والتعريض والمداعبة وما الى ذلك • فلا بدَّ من الوقوف على مقتضيات الصناعة اللفظية وقواعد البديع والبيان لتمييز المعنى الحقيقي من المجازي ، ولا بد من النظرة الشاملة والمقدرة على الاحاطة مستمدة من الدراسة الاجتماعية والفلسفية ، تحرزاً من الضياع في الجزئيات ، وتوصلا الى استخلاص معنى الاحداث وحسن تعليلها •

هذا عن مسألة فهم ما عناه كاتب الاصل • يبقى هل ما عناه مطابق للحقيقة ؟

هنا أيضاً تجري الفطرة والسليقة الى قبول ما عناه المؤلف ، أما النقد والتأريخ . فيجريان الى الشك ، الى ان ليس كل ما يروى مطابقاً بالضرورة للواقع ؛ فالأصل في التأريخ الاتهام لا براءة الذمة • ومن هنا كان النقد الداخلي السلبي ضرورة عملية لتحقيق صحة الوقائع واستبعاد الزائف منها • وهذا النقد يتجه الى ناحيتين :

١ ـ نقد الصدق ـ لتحري صدق واضع الأصل وعدالته •

٢ ـ نقد الضبط ـ لتحري الاسباب التي توقع واضع الأصل في الخطأ •

أما نقـد الصدق فغايته معرفة أسباب الشك في صـدق رواية المؤلف . ولكي نرد على السؤال : هل كان المؤلف صادقاً أو عادلا ، نجمع كل ما يتوفر لدينا من معلومات عن المؤلف لنرسم صورة صادقة عن أخلاقه ومقاصده ، ونحاول الاجابة على سلسلة من الاسئلة تتلخص كلها في سؤال اساسي : هل كان المؤلف يرمي الى الحق . أم كانت له مآرب شخصية أو حزبية أو جنسية جعلته يموه الحقائق أو يبدلهـا أو يخفيها .

أما نقد المؤلف من حيث ضبطه فنتساءل بصـدده هل كان دقيقاً متبصراً فيما يروي ؟ ذلك أن الخطأ قد يتسرب الى التاريخ أيضاً من وجهة ضعف الملاحظة ، وقلة الضبط ، وفي ذلك عدة مسائل : هل كانت حواس المؤلف وملكاته العقلية سليمة ، أم كان عرضة لخطـأ الحواس وضلال العقل وضعف الذاكرة بحيث يتوهم انه يروي الحقيقة وهو بعيد عنها كل البعد ، وهل تقيد المؤلف بشروط الملاحظة العلمية من حيث وجوده في وضع يساعده على صحة مشاهدة الحوادث ودقة ملاحظتها ورواية خبرها ، ومن حيث تدوينه مشاهداته توا أثناء وقوع الحوادث المروية لئلا تخونه الذاكرة أو يفوته فهم بعض الآراء التي سمعها فأهملها ، أو افترضها وقدّرها ؟ ان غاية هذه المسائل وسواها من مسائل التعديل والتجريح[1] هي قدر قيمة المؤلف كشاهد ، وبالتالي قيمة الشهادة التي يدلي بها كما رأينا . وجدير بالملاحظة هنا أن أمر العدالة والضبط عند الراوي ليس جامعا مانعاً كما يقول المناطقة . فلا يجوز مثلا أن نثبت عدالة (الطبري) وضبطه ثم نأخذ أقواله . اذ قد يكون عادلا ضابطاً في بعض ما يقول ، ويكون على عكس ذلك في بعض أقواله الأخرى .

---

(1) التجريح هو ذكر العيوب التي تسلب الراوي صفة العدالة . والتعديل هو ذكر الصفات التي تجعل الراوي موضع الثقة والتصديق .

... الى أنه ليس من الضروري أن تحتوي الوثائق الرسمية معلومات صادقة وكاملة ، فقد تضطر ظروف بعض الدول السياسية والحربية الى اخفاء بعض الحقائق في وقت ما . وقد تذكر وقائع مخالفة للحقيقة ، أو تسكت تماماً عن وقائع معينة ، وليس معنى ذلك عدم وقوعها .

وينبغي للمؤرخ الا يعتمد على القصص والاقاويل والشائعات : فقد تتضمن شيئاً من الحقيقة ، وقد تكون باطلة من أساسها . وخير معيار لتمييز الصدق من الكذب في الروايات :

١ ــ أن يعارض المؤرخ أخبار الرواة بعضها ببعض ، ويرجّح منها ما اتفق عليه الرواة المستقلون اذ يستبعد أن يتفق هؤلاء الا على الصحة ، واذا اتفقوا على الكذب ، كان بعضهم ناقلا من بعض ، ولكن اتفاق الرواة المستقلين مع ذلك لا يؤدي ، في كثير من الاحيان ، الى نتائج نهائية ، وانما الى الظن والتخمين ومجرد الترجيح .

٢ ــ أن ينظر المؤرخ في انسجام الحقائق التاريخية وتآلفها واتساقها ، ويمتحن امكانها المادي ، فاذا كانت مطابقة للحقيقة ، تآلفت ولمع الحق في ثناياها ، واذا كانت مخالفة لها تعارضت وتفككت وتداعت .

٣ ــ ان ينظر المؤرخ في معقولية الحوادث ومطابقتها لقوانين الطبيعة والخلاصة المعرفة الانسانية والفيسيولوجيا والسيكولوجيا البشرية ، والا اضطر لاسقاطها وابطالها ، مع ضرورة التريث في الحكم ، والتدقيق في حال الاحتمال بالنسبة الى مستوى ثقافة الاشخاص والى ارتقاء العلم .

وأخيراً فقد تخدع وفرة التفاصيل الواردة في تضاعيف رواية ذات اسلوب ادبي جذاب . وكلما كان الراوي في التعبير أقوى ، كان المؤرخ الى الشك في صحة روايته أميل ، ووفرة التفاصيل قد توحي للقارىء

بصدق الرواية ويمكن أن تسمى « أصدق من الحقيقة » ولكنها ، على كل حال ، ليست الحقيقة نفسها لاشتمالها على كثير من الخطب الموضوعة ، والاقوال المأثورة ، والمشاهد الفنية الرائعة • وهكذا فان اسلوب الراوي عامل مهم في تقدير قيمة الرواية ، ونضج تفكيره الذي يبدو من خلال الرواية ، ويكمله بمعلومات يستقيها مما حوله يجعل المؤرخ أقرب الى الثقة به والركون اليه • وتفضّل الرواية التي يكتب وقائعها شخص يدون ملاحظاته يوماً فيوم ، فمن خلال عفوية الكاتب تبدو مظاهر صدقه وطراوة أفكاره بما يضاعف من قيمة مروياته • وبالمثل فالقول المرتجل في الرواية الشفهية هو دوماً مفضّل على القول الذي يضعه الراوي بعناية ويزن ظروفه وينظم نتائجه • وبما ان الادب مجرى من مجاري التاريخ فان مصنفات فنون الادب يمكن أن تمدنا بمعلومات عن الاذواق في عصرها ، وقد تتضمن أحياناً من الشواهد ما يجعلها تكشف عن عادات العصر وعقائده ومؤسساته الاجتماعية • والصعوبة هنا في التمييز بين ما هو حقيقي وما هو خيالي ، وهنا تبدو موهبة المؤرخ في تقدير هذه المدونات الادبية وفي الحكم عليها دون التأثر بجمال صنعتها وروعة أدائها واسلوبها • ولو ضلّ المؤرخ مرة عن جادة الصواب فهذا أمر طبيعي ، وسيتلوه من الباحثين في المستقبل من يصحح هذا الضلال أو الخطأ في الحكم • ومن كل ما سبق تتلقى درساً بوجوب الانتباه والاحتراس ورهافة الاحساس النقدي • فلو أخطأ المؤرخ أو خُدع ، فالذنب ليس ذنب الاصول والوثائق والمدونات ، وانما هو ذنبه لأنه لم يتقيد بمتطلبات الصناعة التاريخية من دقة ونباهة واحتراس ونقد •

٣ ـ **تنظيم الحقائق التاريخية** : ان عمليات النقد الخارجي والداخلي لم توصلنا الى تبين حقيقة الماضي بل مكنتنا من المفاضلة بين الرواة ، وأدت بنا الى احتمال صدق بعضهم ، ولذلك لا بد للمؤرخ من ادخال

الاحتمال في دائرة اليقين عن طريق متابعة الدرس واثبات الحقائق المفردة ، وذلك بأن يتناول المؤرخ الروايات بعد أن ينقدها على ماذكرنا . فيقارنها ويقابلها بسواها من الروايات المنقودة مثلها ، وما يزال يقابل ويقارن ويوازن ويقارب ـ مقدماً في ذلك كله الشك على التصديق . والاتهام على التبرئة ـ الى أن يتكون لديه نوع من القناعة عن الحادث وكيفية وقوعه ، ولن يتوفر لديه الجزم والبت النهائي الا في احوال نادرة . ولذا يجد المؤرخ نفسه مضطراً في غالب الاحوال الى الترجيح، أو الى مجرد ذكر الروايات دون اتخاذ موقف منها بانتظار ظهور روايات أو تحقيقات جديدة تقوي عنده الشك أو الترجيح ، أو تمكنه من الاثبات أو النفي .

وتتم عملية تنسيق الحقائق التاريخية أو عملية الانشاء التاريخي Historical Construction اذا جمع المؤرخ العناصر المتفرقة التي كشف عنها التحليل ، ورتبها ونظمها ، وألف منها صورة تشابه ما أمكن الصورة التي وجدت في ذهن شاهد عيان . ويشتمل التركيب التاريخي على القواعد الآتية :

١ ـ يتخيل المؤرخ أولا حوادث الماضي على صورة الحوادث الحاضرة المشابهة لها .

٢ ـ ينظم هذه الحوادث الماضية ، ويرتبها على النمط الذي جمعت فيه حوادث الحاضر ، فيؤلف منها مجموعات وأقساماً مختلفة على أساس التشابه بينها ، فيضع في كل قسم منها ما يناسبه من الحقائق تبعاً لظروفها الظاهرة ولطبائعها وخصائصها .

وأسهل طريقة للتقسيم هي تقسيم التاريخ الى ادوار مختلفة ؛ وأزمنة متعاقبة ، ثم تقسيم كل دور من الادوار الى التاريخ السياسي، والتاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الديني .. ثم عرض الحوادث في كل

باب من هذه الابواب بحسب تسلسلها الزمني أو الجغرافي أو المنطقي، وقد ذكر (لانغلوا وسينيوبوس)[1] مثالا لتنظيم الحقائق التاريخية وهــو :

١ ــ باب الاحــوال المــادية ، ويشتمل على دراسة الجســد (الانتروبولوجيا والتشريح والجنس والأمراض ...) ودراسة البيئة (التضاريس والمناخ والتربة والحيوان والنبات وعمل الانسان في البيئة كالزراعة والطرق ...) .

٢ ــ باب العادات العقلية ، ويشتمل على البحث في اللغة وما يتفرع عنها والفنون اليدوية والعلوم والفلسفة والاخلاق والدين ...

٣ ــ باب العادات المادية ، ويشتمل على البحث في الحياة المادية من طعام وملبس ومسكن ، وما يتصل بحياة الانسان الخاصة والعادات الاجتماعية ووسائل اللهو والتسلية ...

٤ ــ باب العادات الاقتصادية ، ويشتمل على البحث في الانتــاج والزراعة والصناعة وتقسيم العمل ووسائل النقل والتجارة والتبادل والتوزيع ونظام الملكية والعقود .

٥ ــ باب النظم الاجتماعيــة ، ويشتمل على البحث في الاســرة والتعليم والطبقات الاجتماعية .

٦ ــ باب النظم العامة : ويشتمل على البحث في النظم السياسية ، والمؤسسات الدينية ، والنظم الدولية والسياسية العامة والحرب وقوانين التجارة الدولية وما الى ذلك .

ويلاحظ ان هذه التقسيمات لا يكون بعضها مستقلا عن بعض تماما،

---

(١) Langlois et Seignobos : Introduction aux études - histoiques . Paris 1898 P. P. 234 - 235.

بل هي متداخلة فيما بينها . ففي العرض التاريخي نجد أجزاء مادية أو اجتماعية أو اقتصادية متداخلة ومتصلة ، على حسب الموضوع الذي يعالجه المؤرخ ، والحق انه يصعب جداً أن نفصل بين المبادىء المختلفة في ربط الحقائق التاريخية ، لان طبيعة الواقع التاريخي كطبيعة العمل الانساني هي أنه معقد متشابك لا يمكن ان يحصر بأي شكل واحد معين من أشكال التقسيم أو التنظيم . أي عمل هو في الوقت نفسه حدث في زمان ومكان ما ، ومتعلق بشخص ينتمي الى فريق من الناس ... هذا العمل يتعلق بالروابط القائمة بين الناس ، وهي على أنواع : حرب وسياسة ، اقتصاد ، دين ، فهو كل هذه الاشياء بدرجات مختلفة ، ولذا لا نستطيع تقسيم الحياة في التاريخ الماضي فنقيم الحواجز بين الاقسام ونقول : هذه الوقائع تنتمي الى زمن ما ، ولا تتعلق بزمن آخر أو بمكان آخر ... كل واقع تاريخي ينظر اليه من كل هذه النواحي لانه معقد متشابك ، وما الربط بين هذه الحقائق سوى وسيلة لفهمها يفرضها عقلنا المنظم المبسط ، ولكن عقلنا ليس بستطاعه ان يستنفدها كلهـــا .

ولا بد للمؤرخ ، أثناء تنسيق الحقائق وتنظيمها ، من تفضيل بعض الحقائق على بعض ، فان لبعض الحقائق تأثيراً عميقاً في التطور التاريخي وبعضها الآخر تافه لا يصلح لتطوير الماضي ، فلا غرو اذا اختار المؤرخ الحوادث الاولى وترك الثانية . ولكن هذا الاختيار حافل بالمخـاطر والمزالق ، لانه تابع لغاية المؤرخ وفلسفته ، ولان الحوادث المفـردة كثيرة ، وقد يكون لها قيمة ذاتية ، فينبغي للمؤرخ ان يطلع عليها كلهـا ، وأن يختار منها ما يناسب موضوع بحثه ، وان يقتصر في التركيب التاريخي على الحوادث العامة الفاصلة ، وان يجمع الكلّ في قواعد عامة على أساس علاقتها بالحاضر ، وان يسعى جاهداً لابراز فكرة التطور من خلال الحقائق . وهنـا تعترضنا قضية هـامة . فقد لا تكفي

الحقائق التاريخية المفردة التي تزودنا بها الاصول والوثائق لتغطية كل جوانب الموضوع المراد بحثه • قد تكثر الحقائق من ناحية ، وتنقص أو تنعدم من ناحية أخرى ، فيجتهد المؤرخ لتلافي الفراغ ، ولملء الفجوات عن طريق الاجتهاد والقياس والاستدلال العقلي ، أي يلجأ الى استنتاج ما يمكن ان يكون قد حدث بالاستناد الى ما حدث فعلا في ظروف مماثلة ، أو بالاستناد الى قوانين طبيعية او اجتماعية يستمدها من العلوم الاخرى • والمؤرخ الذي يضطره بحثه للاجتهاد ينبغي ان يدرك ما يصحب هذا العمل الفكري الاجتهادي من أخطار ومزالق • ولذا يجب ان يتجه اليه بحذر واحتياط وتحفظ لكيلا يجمح به الخيال أو يغرب به التكهن والتقدير •

والاجتهاد في الصناعة التأريخية نوعان : سلبي وايجابي • فالاجتهاد السلبي هو ما عبّر عنه المناطقة بقولهم « السكوت حجة » أي الحكم بعدم وقوع الحادث لسكوت الاصول التاريخية عنه ؛ ولكن سكوت الاصول لا يدل على عدم وقوع الحادث الا اذا كان الراوي قد دوّن جميع الاخبار المشابهة له ، وكان الحادث مما يهم الراوي ويسترعي نظره بصورة خاصة ، ففي هذه الحالة ، ربما يكون عدم ذكر الحادث دليلا على عدم وقوعه • أما الاجتهاد الايجابي فهو استنتاج أمر من امر أشارت اليه الاصول التاريخية — وثبت وقوعه — لان احدهما متعلق بالآخر ، أو لانهما معاً نتيجة لسبب واحد او لعلة واحدة مشتركة • وجدير بالملاحظة ان الاجتهاد لا يؤدي الى نتائج نهائية ثابتة ، ولكن الى نتائج تقريبية يظل الشك محوماً فيها •

التعليل التاريخي : ان غاية مراحل النقد والتحقيق والاستنتاج هي استخراج حقيقة الماضي بجزئياتها وكلياتها ، وهي مراحل علمية في جوهرها ، ولكن لا بد من ان تتخللها جهود تعليلية فلسفية خصوصاً في مراحل الجمع والتأليف • ذلك ان المؤرخ مضطر احياناً لوضع بعض

الفروض التي يتخيلها من ظواهر الحقائق وسياقها العام ، ويحاول ايجاد التعليل الذي يناسب هذه الفروض حتى يصل الى ما يقنعه باحدها .
وقد حاول بعض المؤرخين ايجاد قوانين تاريخية عامة ، فرد بعضهم تعاقب حوادث التاريخ الى فكرة واحدة او نظرية محددة وحاولوا ان يفسروا على أساسها تلك الحوادث . ولكنهم بذلك حمّلوا الحقائق التاريخية اكثر ما تطيق ، كما فعل بعض المتحمسين لنظرية اقتصادية او لفكرة فلسفية أو دينية . وهذه الآراء تُرجع حوادث الماضي الى أمور متعالية مطلقة تخرج عن نطاق العلم الحاضر . والمؤرخ لا يمكنه الاعتماد عليها لانه يبحث فيما يقع تحت ادراك الانسان من الحوادث ، أما الامور المجردة العامة فيعهد بها الى فلاسفة التاريخ . والمؤرخون هنا يمثلون عدة اتجاهات : بعضهم في طرف ، يعللون اولا ثم يفرضون تعليلهم على التاريخ فرضاً واعياً ؛ يقولون مثلا ان أساس الحياة البشرية هو العامل الاقتصادي وتنازع الطبقات ، ويعللون الماضي بمبدئهم ، ويختارون من الحقائق ما يؤيده ، وهؤلاء ليسوا مؤرخين بالمعنى الصحيح ، قد يكونون اقتصاديين او علماء اجتماع ، والتاريخ عندهم واسطة .

وفي الطرف الآخر مؤرخون لا تعليل لديهم ، ومثلهم الاعلى الصورة الفوتوغرافية ، يرفضون أي تعليل ويدونون الوقائع فقط .

والمؤرخ المبدع الحصيف لا يكون اداة تسجيل وآلة تصوير ؛ فلا بد من ان يقف موقفاً وسطاً بين من يقول بنظرية ويفرضها على الماضي ، وبين من يتجرد من كل فكرة او نظرية او فلسفة . ومعنى موقفه الوسط هو أن يأخذ هذه النظريات ويدرس الماضي على ضوئها ، ولا ليصيب الماضي في قالبها ، بل ليحك هذه النظرية بمحك وقائع الماضي ، ويرى أتنطبق فعلا على الوقائع . فاذا انطبقت ازداد ايمانه بها ، والا عدّلها بحيث تنطبق ، فهو اذن بموقف دائم التطور ، ينمو عقلياً بصياغة نظريات

يعلل بها الحيـاة ، ويستحن هـذه النظريات لتصحيحها او تعديلها ؛ فالمؤرخ القدير يسعى ليكون ابن بيئته ليفهمه الناس او يتحرر من بيئته ليفهم الماضي .

ولا مراء في ان أحسن تعليل تاريخي ، هو ما اقتبست قوانينه من علم الاجتماع ؛ فعلى المؤرخ ان يأخذ باسباب علم الاجتماع ويتضلع به ويستبصر بنوره ويتذرع بوسائله في فهم الماضي وايضاحه . ان علم الاجتماع يضع القوانين الاجتماعية العامة ، وعلم التاريخ يطبقها على تفسير الوقائع الجزئية . ان النظرة الحديثة للتأريخ ترتكز على ان غايته الوصول الى الحقيقة فحسب ، واذا كان غرضنا استخلاص العبر وسقنا الامثلة التاريخية للتدليل عليها فلسنا مؤرخين بل وعاظاً أو طلاب فلسفة واخلاق . وسبيل التاريخ هو سبيل العلم القـائم على التحري والنقد والاستنتاج ، بل ان سبيل التاريخ الى ذلك يتطلب مزايا خلقية ادبية ؛ فالثقة صفة علمية وخلقية ، وكذا الامانة في النقل، والمبادىء الخلقية والادبية تكون جزءا هاما من منهج البحث التاريخي ، ومن الثقافة الانسانية الشاملة التي ينبغي للمؤرخ ان يمتاز بها ، للحكم على الماضي ، شريطة الا يجعل مهمته الاولى الحكم ومهمته الثانية الكشف عن الحقيقة لانه عندئذ يجافي الحقيقة .

العرض التاريخي : آخر مرحلة من مراحل الصناعة التأريخية هي مرحلة العرض ، وهي ليست أهون ولا اسهل من المراحل السابقة . ولا تصبح كتابة التأريخ سهلة الا عندما تتوفر جميع الحقائق لدى الباحث وتمثل امامه منظمة منسقة مشروحة ، وعندما يتخيل موضوع البحث كله كوحدة عامة ، يدرك أهمية اجزائه ، وتتعين اللغة التي سيعرض بها بحثه .

ولا شك ان مرحلة العرض التأريخي هي مرحلة ادبية فنية يلجها

المؤرخ لنشر بحثه ، الذي تتجلى فيه ملكة المؤرخ في حسن الاداء وروعة التعبير ونقل الاختبار النفسي بأبلغ تعبير وأجمله وأشده تأثيراً • ولئن كان التأريخ علماً من حيث طرق بحثه وتحقيقه ، وفلسفة من حيث محاولته الاحاطة بالاحداث وربطها وتعليل اسبابها ونتائجها ، فهو أدب وفن من حيث العرض والاخراج والبيـــان • ولا يعني هذا طبعاً ان يكتب المؤرخ بأسلوب أدبي صرف تتغلب فيه العناية بالتعبير على الدقة في التحقيق ، لان ذلك قد يضطره الى المبالغة فيما يكتب لاحداث الاثر المتوخى في نفس القارىء • والمؤرخ الحصيف هو الذي يعرف كيف يعرض العلم الدقيق بالاسلوب الرفيع وهذا مطلب عزيز لا يبلغه الا قلة من الموهوبين الممتازين الذين خلدوا اسماءهم في سجل الكتابة التأريخية ، ووصلوا بها الى أعلى القمم وأسماها •

والمقصود ان يعرض الكاتب حقائق التاريخ باسلوب يجمع فيه بين البساطة والدقة وحسن الاداء والتعبير • ومن شروط العرض التأريخي توفر الوحدة التاريخية في البحث ، وربط اجزائه المختلفة واقســامه بما يسودها من روح عامة تنتظم موضوع البحث كله • وعلى المؤرخ أن يوضح الموضوع في كلياته وجزئياته بتقديمه الادلة والبراهــين والاسانيد على ما يسوقه من الحقائق ، وان يجعل واضحاً في ذهن القارىء الاتجــاه العام الذي سيتبعه • ويحسن به بعد ان يكتب جزءا من الموضوع ان يتركه لفترة من الوقت ، ثم يعود اليه ويحاول ان ينتقــده وفي احوال كثيرة تظهر له مسائل غامضة او سيئة الصياغة والترتيب ، فيوضحها او يعدلها او يعيد كتابتها من جديد • والحق ان تعديل احدى المسائل وتصحيحها يعود الى ضمير الباحث نفسه ؛ فالمسألة تتطلب الامانة العلمية لان غيره لا يستطيع في الغالب ان يفطن الى معرفة التفاصيل والجزئيات في موضوعه •

وينبغي ان تكون الهوامش جزءاً هاماً في أسفل الصفحات لـــكي

لضبط الوقائع الواردة في متن التاريخ ، ومن المؤلفين من يضع للهوامش أرقاماً يوردها في نهاية البحث • وفي المؤلفات المطبوعة التي يعتمدها الباحث ، عليه ان يسجل اسم المؤلف واسم الكتاب ومكان طبعه وتاريخه وطبعته ، ورقم المجلد (عند الحاجة) ، ورقم الصفحة • واذا كان الكتاب المطبوع نادر الوجود فينبغي ذكر مكان وجوده ورقمه • واذا كان الاصل التاريخي المعتمد وثيقة مخطوطة فينبغي ـ كلما امكن ذلك ـ ذكر دار المحفوظات (الارشيف) أو المكتبة التي توجد بها ، ورقم المجلد والملف والورقة وتاريخ الوثيقة ومكان تدوينها ، وعمن صدرت والى من ارسلت ، لان المقصود ان يرجع الاخصائي الى بعض هذه الاصول اذا رغب في التثبت من مسألة معينة ، او اذا رغب في متابعة الحديث وتوسيعه • وليس ثمة حد واضح يفصل بين ما يجب ايراده في متن البحث او في الهوامش ، والمسألة متروكة لتقدير الباحث ، والقاعدة المتبعة ان يسرد الباحث في متن البحث خلاصة آرائه ، ولا مانع من ان يورد في المتن نفسه من وقت لآخر بعض ما يؤيد اقواله ، ويضع في الهوامش بقية الادلة المستقاة من المصادر التي اعتمدها •

وتأتي بعد ذلك ملاحق البحث ، وهي مجال لتقديم ونشر مختارات من الاصول التاريخية المعتمدة ، وهي المادة الاولى التي استقى منها الباحث معلوماته •• وقد تكون هذه الاصول مراسلات سياسية من السفراء الى حكوماتهم أو بالعكس ، وقد تكون صور معاهدات سياسية أو حربية أو تجارية ••• والافضل نشر هذه الاصول بلغاتها وباخطائها دون تعديل • ويلي ذلك مكتبة البحث ، أي قائمة الاصول والمصادر والمراجع وينبغي ان تنتظم هذه المكتبة أبجدياً بحسب اسماء المؤلفين وتقسّم الى أقسام متعددة : قسم للوثائق والمراسلات الرسمية غير المنشورة ان وجدت ، وقسم للوثائق والمراسلات الرسمية المنشورة ، وقسم للمؤلفات والمخطوطات ، وقسم للمراجع الخاصة والعامة وقسم

للسجلات العلمية . ولا بد
الاصول والمراجع ، وبيان م
وأرقامها ، ومن الضروري بيان
طبعها ، وعدد مجلداتها . ويح
فيها ويبين قيمة الاصول والمص

العلوم المساعدة او الموصلة
اداتها وهي الشك والنقد والص
تحتاج الى دربة عقلية ومعار
مختلفة من الثقافة الانسانية ،
او الموصلة ذات العلاقة الواش

فمن أهم العلوم المساعدة
الحاجة اليها بحسب العصور
القديم مثلا لا يلزمه ما يلزم مؤ
العربي في بعض ادواره ، يج
العربية ، وذلك للافادة من الا
كالسريانية واليونانية واللاتي
الانكليزية والفرنسية والالمانية
وأفضل وسائله لمتابعة الجهو

وعلم فقه اللغة ، وهو ضر
مصادره ويحيط بقواعدها واس
الفاظها . وعلم الآثار ذو الص
القديمة لقراءة المخطوطات الت
وكذا علم (النقاشة) لقراءة
والحجارة والصفائح المعدنية

من اعطاء معلومات دقيقة عن كل هذه
كانها ، ودور المحفوظات المستقاة منها
ن تاريخ صور المؤلفات المطبوعة ، ومكان
سن ان يقدم الباحث مذكرة تحليلية ينتقد
ادر التي يوردها ومدى افادته منها .

للتاريخ : أول الصناعة التأريخية توفر
بر . وكل مرحلة من مراحل هذه الصناعة
ف غزيرة خاصة والمام متزايد بضروب
كما تحتاج الى احاطة بالعلوم المساعدة
جة بالتأريخ .

للمؤرخ اللغات ، وهي كثيرة ؛ وتختلف
والموضوعات ؛ فمؤرخ العصر اليوناني
رخ التاريخ الامريكي . ومؤرخ التاريخ
نفسه مضطراً الى معرفة اكثر من اللغة
صول والمصادر التي وضعت بلغات أخرى
ية وسواها . بل ان اللغات الحية —
والروسية .. — أمست أهم عدد المؤرخ
التأريخية في العصر الحديث .

وري للمؤرخ لكي يقف على تطور لغة
اليبها وتطورها واختلاف معاني ومدلولات
ة الوثيقة بالتاريخ ، وعلم قراءة الخطوط
ي تعود الى العصور القديمة والوسطى ،
الكتابات المنقوشة على الابنية والتماثيل
رما اليها .

وعلم الو
الدبلوماسية
ويبحث فيه أ
الورق . والمس
وجود تاريخي
وملوك وذكر
لمعرفة اختلاف
المتباينة ، وأ
لمعرفة اختلاف
في التعرف عل
وغير ذلك من
واستنطاقها .

ولا بد لل
بينها وتعليل ا
الاجناس بفرع
الأثر في توجي
تكوين الانسا
وقد تتدخل ع
والاتساع صا

وقد أثر ا
موارد الجزيرة
ربوع الهلال ال
كما أن الثورة
الاسواق والمس
الاجتماع أكبر

وثائق الرسمية لفهم القرارات والمعاهدات والمراسلات
وتدرس فيه لغة الوثائق واصطلاحاتها في كل عصر وبلد ،
يضاً عن الحبر المستعمل في تدوينها والاقلام وأنواع
سكوكات وهو علم النقود . فبعض الجماعات لم يعرف لها
الا عن طريق نقودها وما تحمل من أسماء وصور آلهة
يات وسني ضربها . وعلم الاختام Sphragistics
الأختام التي تمهر بها الوثائق والمراسيم وأشكالها
واعها الشمعية أو المعدنية . وعلم الشارات أو الرنوك
شارات الملوك والقواد والجند والدروع ، مما يساعد
حقيقة الوثائق أو الاسلحة وصحة نسبتها الى عصرها ،
علوم وفنون تهتم بجمع المخلفات التاريخية المختلفة

باحث في مراحل اثبات الحقائق المفردة وربطها والتأليف
الاسباب واستنباط النتائج من معارف مستمدة من علم
يه الطبيعي والحضاري ومن الجغرافيا : فالبيئة لها أكبر
ه مصير بعض الجماعات ، والموقع الجغرافي له تأثير على
ولونه وملكاته واساطيره واديانه واقتصاده واجتماعه .
وامل الجغرافيا لتغير مجرى التاريخ ؛ فشدة المناخ
روسيا — مثلا — من الغزو الخارجي .

لعامل الاقتصادي في تاريخ بعض البلدان : ان ضآلة
العربية مثلا ، حملت الكثير من سكانها على الهجرة الى
خصيب حيث استقروا وأسسوا الممالك والمدن والحضارات .
الصناعية في اوربا الغربية حملت أقطارها على ايجاد
ستعمرات لتصريف الانتاج الصناعي المتزايد . ولعلم
الشأن في فهم طبيعة النظم البشرية وتطورها ، ولعلم

السياسة أهمية كبرى في فه
الاساسية •

والادب ، الى ذلك ، و
ولوحة المجتمع ، فضلا عن فا
وكذا الفنون التي هي خلا
العصر وتكشف خوالج النف
والتصوير والعمارة والموسيق
غور أعماقه • ولا شك في
المساعدة يزوده بتفهم حكيم
والدراسة الفلسفية الاجتماع
الاحاطة والربط وتؤمن له ح
تفاصيل الجزئيات ، وتوصله
عميق في تطور تاريخ الانس
الزمان والمكان والناس •

م احداث الماضي ومعرفة دوافعها وعواملها

وثيق الصلة بالتاريخ ، فهـو مرآة العصر
ندته للمؤرخ في مراحل العرض والتأليف .
صة العواطف الانسانية اذ تعبر عن روح
س وتنقل خبراتها ؛ فدراسة فنون النحت
ى تجعل المؤرخ أقدر على فهم العصر وسبر
ان اتساع معارف المؤرخ في هذه العلوم
أقرب ما يكون لأحداث الحياة الماضية .
ة تمكنه من النظرة الشاملة والمقدرة على
سن التعليل ، وكذلك تجنبه الضياع في
الى كشف الحقائق التي لها تأثير حاسم
سانية ، ووضعها في اطارها الصحيح من

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع

التاريخ والمؤرخون الاتراك العثمانيون

تمهيد : كانت نشأة الامارة العثمانية في القرن الثالث عشر الميلادي في الارض حول مدينة اسكي شهر في منطقة الحدود بين الدولة التركية السلجوقية ودولة الروم البيزنطية . ومنشئ الامارة غزاة مغامرون عملوا في الغزو تحت امرة بيت زعامة تقليدي (بيث عثمان) ، وهي امارة كرست نفسها للغزو وانساحت في ملك الروم في الاناضول والبلقان وفي بلاد الصقالبة والالبان واليونان والرومان . واتسعت في الوقت نفسه في الاناضول في ممالك وامارات السلاجقة بأساليب حربية وغير حربية توجّت باتصار محمد الفاتح على القسطنطينية والقضاء على دولة الروم نهائيا . ولم يلبث ان تم اندماج العرب بالدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر ، ودام حتى نهاية الحرب العالمية الاولى . ومن المعلوم ان دولة آل عثمان لم تقترب من أقطار الوطن العربي وتتصل بها رسميا الا في أواخر القرن الخامس عشر زمن السلطان الثامن بايزيد الثاني ، أي ان الدولة العثمانية لم تباشر فتح اقطار العروبة الا بعد ان سلخت قرنين من عمرها وحكمها ثمانية سلاطين ، ووقعت تلك الاقطار العربية في حوزة آل عثمان عندما قاربت دولتهم ذروة عزها وأقصى امتدادها ، ثم بدأت حدود الدولة العظمى تتراجع وتنحسر ، في حين كانت انظمة الدولة وقوانينها قد اكتملت في عهد سليمان حتى أجمع المؤرخون على تسميته بالقانوني ، وهذا يعني ان الدولة العثمانية ،

بحكم تأخرها الزمني عن الدول الاسلامية الكبرى ، كانت وريثة الدول جمعاء ، بحيث أننا لا نستطيع عند تحليل الانظمة العثمانية ان نقول ان هذا النظام اسلامي صرف أو تركي صرف أو بيزنطي صرف ... فليس تعدد العناصر هو الشيء الذي يلفت النظر في تحليل النظم العثمانية . بل الميزة في ان تلك العناصر قد سكبت ونسقت في كل واحد وعالم عثماني واحد دون تعارض او تنافر ، فجاء نظام الدولة العثمانية في عنفوان قوتها مثيرا للاعجاب والدهشة وخاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ولا شك في ان المصدر العربي من أهم مصادر النظم العثمانية ؛ فقد اتخذ العثمانيون من الاسلام نظاماً تشريعياً واجتماعياً ، كما أخذوا الحروف العربية لكتابة لغتهم ، بل اقتبسوا كثيراً من الكلمات والمصطلحات العربية . بيد ان أهم ما أخذوه هو الدين الاسلامي ولولاه لنحت عقلية العثمانيين وحالتهم الاجتماعية نحواً آخر ولاتجه مصير دولتهم اتجاهاً آخر في التاريخ .

ومن مصادر النظم العثمانية أيضاً المصدر الفارسي الذي استمد منه العثمانيون نظمهم قبل الاسلام وقد وصل اليهم بوسائط مختلفة وبطريق النقل عن آخر دولة اسلامية كبيرة سبقت الفتح العثماني في الاناضول ، وهي الدولة التركية السلجوقية التي اقتبست عن الخلافة العباسية ، وهذه بدورها ورثت عن الدولة الساسانية نظما من أصل فارسي . ولما اعتنق الترك العثمانيون الاسلام اتخذوا هذه النظم وأضافوها الى ما لديهم .

فلدى العثمانيين ، بحسب الاوضاع عناصر فارسية وتركية وكلها مصطبغة بالصبغة العربية ـ الاسلامية ، ومشربة بالمثل العليا ، والقواعد الشرعية . وكان الكتاب والمؤرخون يعتبرون التاريخ العثماني جزءاً متمماً لتاريخ الاسلام ، وينظرون الى السلاطين العثمانيين كأخلاف للخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين .

والللغة الرسمية في السلطنة كانت تعرف باللغة **العثمانية** لا باللغة
تركية ، ومثل ذلك يقال عن الادب والنحو والصرف وغيره • وكان
كتاب والادباء يكثرون من استعمال الكلمات العربية والفارسية ،
عتبرون القواميس العربية والفارسية ملكاً مشاعاً مباحاً يسوغ لهم
يقتبسوا منها ما شاءوا من الكلمات ، لايجاد قواف طريفة في اشعارهم
نظوماتهم او ابداع عبارات رنانة فخيمة الجرس • وبكلمة ، كان
شيء في السلطنة ينعت تارة بالعثمانية وطوراً بالاسلامية فحسب ،
ا نعت (التركية) فلم يكن يخطر بذهن أحد سواء من رجال الدولة او
ن عامة الناس • واستمرت الاحوال على ذلك حتى عهد التنظيمات
القرن التاسع عشر ، عندما دخلت السلطنة في طور اصلاحات واسعة
رفت باسم **التنظيمات** في الادارة المالية والسياسية والقضاء •• على
ساس الاقتداء بنظم الغرب وأساليبه العصرية • وكان لا بد ان تقترن
ذه التنظيمات الحكومية وخاصة في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر
طورات هامة في العلم والادب أيضاً • ونظرة الى آثار النهضة الادبية
تي قامت في عصر التنظيمات تدلنا على مبلغ تأثرها بالآداب الغربية ،
قد فتحت ميدانا جديداً في الكتابة عن الوطن والوطنية فيما نشر من
تب ومقالات وقصائد اسوة بما فعله ادباء الغرب •

وقد تأثرت اساليب الكتابة في الادب والتاريخ بظروف مرحلتين
ر بهما تاريخ السلطنة العثمانية تعرف اولاهما بمرحلة ما قبل التنظيمات
تنتهي بنهاية القرن الثامن عشر ، وتتصف بالجمود والركود والهدوء
لنسبي في داخل السلطنة وخارجها • وتعرف ثانيتهما بمرحلة ما بعد
لتنظيمات وتبدأ مع بداية القرن التاسع عشر تقريبا ، ويمكن القول
انه من المباديء التي قامت عليها التنظيمات ما وجد خاتمته في قيام
الجمهورية التركية الحديثة • ومن الطبيعي أن تتسم هذه المرحلة
الثانية **بالديناميكية** في الخارج والتنظيمات وفق الاساليب الغربية

الحديثة في الداخل ، ومن الطبيعي أيضا ان يتأثر التاريخ والمؤرخون بظروف هاتين المرحلتين ، كما يتبين مما يلي :

التاريخ والمؤرخون الاتراك العثمانيون حتى عصر التنظيمات :

خضع المؤرخون الاتراك العثمانيون في كتاباتهم الادبية والتاريخية للتأثير الفارسي خاصة بين القرنين العاشر والسادس عشر ، ولكنهم يعترفون بالعرب اساتذة لهم في العلوم الصحيحة ، وكانوا يبذلون جهودهم لمحاكاة شعراء فارس وكتابها . وقد كتب أقدم مؤرخي الاتراك بالفارسية . وعندما كتبوا فيما بعد بالتركية كانت كتاباتهم حافلة بالاستعارات العربية والفارسية . والمعلومات التي لدينا عن بدء الدولة العثمانية قليلة يشوبها الاضطراب والخيال . غير ان هنالك معلومات وتواريخ مفصلة وحسنة عن الفترات التالية ، وضعها شهود عيان وجماعة من الكتاب ومن كبار الموظفين . وقد ظلت الرواية الفارسية الادبية سائدة في ارجاء السلطنة العثمانية بحيث ان احمدي الذي ولد في الاناضول سنة ١٣٣٤ م وتلقى علومه في القاهرة وتوفي سنة ١٤١٣ م ، وكان شاعراً قبل ان يكون مؤرخاً ، والذي يعتبر من أعظم شعراء ومؤرخي القرن الرابع عشر الميلادي ، استقى موضوع كتابه المشهور **اسكندرنامه** من المصادر الفارسية ، وقد اتم كتابة هذا التاريخ عام ١٣٩٠ م ، والكتاب قصيدة تتألف من حوالي (٨٢٥٠) بيتاً ، سجل فيها وقائع اسطورة الاسكندر . الا انه يتطرق في جزء من هذه القصيدة الى تاريخ العالم حتى يومه وذلك بأن يتصور الاسكندر المكدوني يسأل استاذه ان يحدثه عن التاريخ حتى زمنه . ثم يأخذ التاريخ شكل التنبؤ اذ جعل الفيلسوف يتنبأ بالحوادث التاريخية التي وقعت بعد الاسكندر ، وبذلك يغطي الكاتب فترة من التاريخ العثماني حتى وفاة بايزيد الاول (١٤٠٢) واستخلاف سليمان وينهي الكتاب بمدح

هذا السلطان • ومن ثم جاز لنا ان نعتبره اول المؤرخين الاتراك الذين كتبوا تواريخهم بالشعر • ويتضمن ديوان احمـــدي قصائد ذات قيمة محلية لانها تصف مدينة بروسة والغارات التي شنت على أهلها •

ويلاحظ في القرن الرابع عشر أن اللغة التركية تزايدت أهميتهـا حتى كادت أن تطغى على العربية لغة الدين ، وعلى الفارسية ، لغـة الادب • وتطّرد هذه الاهمية في القرن الخامس عشر حتى أوشكت التركية ان تصبح لغة الدولة ولغة التأليف تقريباً • حتى أن الوثائق الرسمية التي صورت في عهد السلطان محمد الثاني كتبت كلها بالتركية وأقدمها يعود الى سنة ١٤٥٥ م •

وبعد ذلك نصادف ثغرة بين أحمدي ، وبين ما تلاه من الكتابات التاريخية التي تعرف باسم الاخبار السلطانية والتي يرجع اولها الى سنة ١٤٤٤ والى ما قبل سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م • وهــذه الاخبار تبدأ بقوائم متسلسلة تاريخياً عن الانبياء منذ آدم حتى الخلفاء الراشدين ، الى أهم وقائع العصور السلجوقية والعثمانية والسلالات القرمانية وتتخلل هذه الوقائع بعض الملاحظات الفلكية والتنبؤات وتفسيرات الاحلام • ولا تقتصر هذه الاخبار على الوقائع العثمانية فحسب بل تتطرق ايضاً الى الحوادث الهامة في الامصار الاسلاميـة الاخرى •

والاخبار التي كتبت نثراً والمعروفة باسم « تواريخ آل عثمان » ، قد حلت التركية فيها محل العربية والفارسية ، وهذه التواريخ وان اختلفت في مادتها ، الا انها تؤلف وحدة مترابطة • فهي تبدأ جميعهـا بهجرة سليمان الى بلاد « الروم » أي آسيا الصغرى ، ولكنها تنتهي في تواريخ متفرقة : فمنها ما يؤرخ حتى سنة ١٤٩٤ ، ومنها مايستمرحتى سنة ١٥٥٠ ، والقليل منها يؤرخ حتى القرن السابع عشر • ولا يعرف

اصحاب هذه التواريخ التي ظهرت في عهد بايزيد الثاني ، والتي رُصّعت عبارتها بقصائد منقولة من « اسكندرنامه » لاحمدي • وقد انتشر في عهد الفتوح العثمانية الكبرى للقرم وجزر بحر ايجة ، طائفة من الاخبار نظمت في مثنويات • والمثنويات (جمع مثنوي) [1] تعتبر بدعة القرن الرابع عشر • فقد اقبل الشعراء والادباء على نظمها اقبالاً عظيماً مقلدين في ذلك كبار شعراء فارس كجلال الدين الرومي ونظامي وجامع •

ومن هذه المثنويات ما يتصل بمغامرات كمال رئيس منظمة صفائي السينوبي ، في أحد عشر الف بيت ، وكان صفائي هذا شاعراً عاش في تكية عند غلطة بضواحي استانبول وبرع في تناول المسائل البحرية • ومنها ما يتصل بغزوات قوجة داود باشا في البوسنة نظمه صفائي الادرني في مثنوي آخر يتألف من خمسة عشر ألف بيت ، ثم أخبار منظومة أهداها صاري كمال الى بايزيد الثاني المتوفي سنة ١٥١٢ ، وسماها (سلاطين نامه) ، ومنها أيضاً أخبار غزوات ميخال اوغلي علي بك [2] التي نظمها سوزي البرزريني في خمسة عشر الف بيت ، وكتاب (قطب نامة)الذي أهداه الشاعر اوزون فردوسي الى بايزيد الثاني ووصف به غزو جزيرة مدِلّي • وهو مرجع تاريخي ذو شأن • ويتضح من ذلك انه قد ذاع في القرن الخامس عشر بين الجمهور وبين الجند خاصة ، اخبار تشبه ان تكون مادتها من مادة الملاحم •

وثمة ثلاثة كتب تاريخية تعود لفترة حكم السلطان محمد الثاني ، والكتاب الثالث منها فقط يتصل موضوعه بتاريخ العثمانيين ، لان

---

(١) والمثنوي بيت من الشعر قافية صدره وعجزه متجانسة الآخر .

(٢) قائد عثماني مشهور قتل في معركة قرى قلاتش في البلقان في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر .

التاريخين الباقيين هما ككتاب احمدي تواريخ للعالم اضيف اليها أجزاء عن الاسرة العثمانية . ومؤلفو هذه الكتب هم : شكر الله ، الذي ولد حوالي فترة انتهاء حكم مراد الاول ويسمى كتابه « **بهجة التواريخ** » وهو كتاب قصير للغاية يحوي قوائم السلاطين مع تواريخ ارتقائهم لمناصبهم وفترات حكمهم . ومؤلف الكتاب الثاني هو **أنوري** ولا نعرف عنه أي شيء سوى أنه رافق محمود باشا الصدر الاعظم للسلطان محمد الثاني في حملات حربية متعددة ، وأنه ألف كتاباً اسمه « دستور نامه » كتبه انوري في سنة ١٤٦٥ م ، والكتاب مفيد جداً فيما يتصل بتاريخ ايدين اوغلي .

ومؤلف الكتاب الثالث هو **درويش احمد عاشقي** المعروف بعاشق باشا زاده المولود سنة ١٤٠٠ م وقد عالج فيه الفترة العثمانية ، وهو من سلالة الشاعر المتصوف عاشق باشا [١] . ويعتبر أول من بدأ بتدوين التاريخ الوطني العثماني ، وقد وضع تاريخه بأسلوب شعبي وخيالي ، ويعتمد تاريخه على خبراته الشخصية وعلى أحاديثه مع رفاقه في السلاح ، الا انه يكيل المديح دوماً للسلاطين والحكام ولكن هذا لا يسنع ان يتعرض السياسيون وقادة الجيش كثيراً لنقده اللاذع .

أما « **نشري** » فترجع كتاباته الى هذا العهد أيضا . وقد عاصر نشري عاشق زاده ولا نعرف الا الشيء القليل عنه وهو انه عاش مدرساً في البصرة ومات خلال فترة حكم السلطان سليم الاول وكتب (جهان نما)[٢] وهو يتألف من ثلاثة أجزاء تعالج أحفاد (اوغوز خان)

---

(١) عاش بين (١٢٧٢ ــ ١٣٣٢ م) .

(٢) جهاننما مؤلفة من كلمتين فارسيتين (جهان) بمعنى العالم و (نما) بمعنى يظهر ، والعنوان يمكن ان يترجم (مرآة العالم) ويقصد تاريخ العالم .

جد الاتراك العثمانيين والسلاجقة . والجزء الاخير هو أطول الاجزاء الثلاثة . وتكمن أهمية كتاب نشري هـذا في انه وان لم يذكر مصادره غير انه يمكن استنتاجها من قراءة الكتاب . والمصدر الرئيسي الذي يستقي منه هو كتاب عاشق زاده ، الا انه يخفف من حدة نقد الاخير لرجالات الدولة وساستها . كذلك فقد اعتمد (نشري) التقاويم الملكية واعتمد تاريخاً عثمانياً عن بيازيد الثاني لكاتب مجهول . وبرغم كل أخطاء نشري ، فانه يعتبر مؤرخاً حقاً لانه كان يتمتع بفضيلة المؤرخ الاساسية وهي الرغبة في الوصو لالى الحقيقة عن الوقائع والاحداث التي تدور من حوله . وهذا ما ينطبق على ادريس بن علي البدليسي صاحب كتاب (الهشت بهشت أي الجنان الثماني) وقد أخذ فيه على عاتقه عبء كتابة تاريخ السلاطين الثمانية الأُول من آل عثمان ، كتبه بالفارسية نزولا على امر السلطان بيازيد الثـاني ، ذلك ان ادريس البدليسي (المتوفي سنة ١٥٢٠) كان أول امره موظفاً يعمل تحت امرة يعقوب أوزون حسن [١] سلطان التركمان من القطيع الابيض (المتوفى سنة ٨٩٦ هـ — ١٤٩٠ — ٩١ م) . ولما كتب السلطان بايزيد يعلن انتصاره ، رد عليه البدليسي فأعجبه رده واستدعاه الى بلاطه وظل في خدمة سليم الاول وصحبه في غزو بلاد فارس وشارك في الحروب بصفةقائد واستولى على كردستان لحساب سليم وهزم الفرس وفتح ماردين، وكان له شأن في ضم الرُها والموصل وفي اقرار الاحوال الداخلية في البلاد . وقد بلغ اسلوب البدليسي في (الهشت بهشت Hasht - Bihisht الغاية من الترصيع والمبالغة والتنميق . ولا شك ان وراء الحشو واللغو اللذين يفيض بهما مصنف البدليسي وغيره رواية جدية ذات قيمة

---

(١) اوزون حسن امير من امراء دولةالقطيع الابيض التركماني المعروفة بـ (اق قيو نلو) صاحب ديار بكر ، ومؤسس دولة قوية شملت ارمينيا وما وراء النهر وفارس ، وتوفي سنة ١٤٧٨ م.

تاريخية كبرى . وعلى الرغم من ان الكتّاب لم ينصرفوا تماماً عن الاسلوب البسيط ، فان الاسلوب المنمق المرصع رجح عندهم آخر الامر ، وكان أفضل نموذج له مصنف البدليسي المذكور ، ذلك ان كثيراً من أصحاب التواريخ مثل طوروسون بك صاحب (تاريخ أبي الفتح وجعفر جلبي مؤلف (استانبول فتح نامه سي) وغيرهما ، قصدوا من ذلك اظهار براعتهم في صناعة الادب والانشاء ، ولكن مؤلفاتهم تختلف اختلافاً كبيراً عن تلك الاخبار التي لا يعرف اصحابها ، ويبدو انها كتبت للخاصة من الناس لا لعمومهم . وخير مثل على هذه التآليف من بعض الوجوه هو كتاب **يازجي علي** المسمى (سلجوق نامه) وقد وضعه في عهد مراد الثاني الذي حكم بين (١٤١٣ – ١٤٢١ م) .

ولا ننهي كلامنا على مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي من الاتراك العثمانيين دون ان نشير الى أحد معاصري البدليسي واسمه **كمال باشا زاده** . [1] وبدأ المؤرخون الآن يلمسون أهميته المتزايدة بسبب بعض المخطوطات التي تم العثور عليها حديثاً . وترجع أهميته

---

(١) كان جده من قواد محمد الفاتح وابوه من المحاربين الكبار، فانخرط الفتى في الجيش وكان ميالا الى العلم ومجالسة العلماء ، فترك الجندية ، ورسخت قدمه في العلوم واصبح قاضي عسكر الاناضول (١٥١٦ م) وقد الف بالعربية والفارسية والتركية . وكتب (تاريخ آل عثمان) بالتركية بناء على ايعاز من بايزيد الذي لمس الحاجة الى وجود كتاب تاريخي بالتركية الى جانب ما كتب ادريس بالفارسية . وقد سرد فيه تاريخ العثمانيين من سنة ١٥٢٦ م حين احتل سليمان بودا المجرية . وقد صحب السلطان سليماً في حملته على مصر ولما كان في الطريق أمره ان يترجم له كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي فترجمه عن العربية وكان يطلع السلطان كل يوم على ما ترجم ، فما دخل سليم مصر الا وهو على علم بتاريخها واخبار ملوكها . وجعله سليمان شيخاً للاسلام وظل ثمانية سنوات في هذا المنصب حتى مات سنة ١٥٣٤ م .

الى أنه لا يسرد الوقائع سرداً بل يحاول ان يربط فيما بينها ويحاول أيضاً أن يبحث عن أسباب الحوادث ، ويقدم لكل فصل بمقدمه عن المكان الذي جرت فيه الاحداث ، وكذلك فانه ينتقي مصادره انتقاء حسناً ويعتمد اكثر ما يعتمد على شهود العيان ، وبكلمة واحدة : انه يعكس نظر السياسي الذي يحاول ان يجمع الحوادث في رابطة تربطها لترشده الى سياسة المستقبل •

ان الدوافع الحقيقية التي دعت هؤلاء المؤرخين في القرن الخامس عشر لكتابة التاريخ هي :

أولا : دافع التقوى وتتمثل فيما كتب « أحمدي » في « اسكندرنامه » حين حاول المؤرخ ان يفرق بين أعمال المسلمين الاتقياء الذين حملوا لواء الجهاد دون كلل أو ملل ضد ظلم المغول وطغيانهم ، ولكن لا يتطرق الى الاشارة بأن بعض هذه الحروب كانت تجري بين مسلم ومسلم •

ثانياً : دافع التسلية والمتعة ، أي في تزويد الناس بمادة للقراءة والمطالعة تشبه الروايات التاريخية التي يقبل الناس على قراءتها في أيامنا هذه •

ثالثاً : دافع الاصلاح ، لكي يعتبر الخلف بما أسلف السلف •

وفي القرن السادس عشر بلغت قوة العثمانيين غايتها ، ويعتبر أزهى عصور التأليف التاريخي التركي ؛ فقد امتد سلطان دولتهم فبلغ أقصاه في عهدي سليم الاول وسليمان القانوني ، وانعكس اثر ذلك على اللغة والادب ، وازدهرت مراكز الثقافة بانشاء المعاهد والمدارس والتكايا • واضطرت الطبقات المستنيرة من غير الترك الى تعلم التركية ، واجتذبت استانبول علماء وشعراء البلاد التركية والاسلامية الاخرى ، وازدهر الادب العربي لا في العاصمة وحدها بل في بغداد وديار بكر وقونية وقسطموني وبروسه وادرنة وغيرها ••• وكان الادباء يلتقون في

الحدائق والحانات والتكايا ، ولما عُرفت القهوة اصبحت المقاهي ملتقى الادباء ، ومع ذلك ظلت اللغة الادبية تستعير من العربية والفارسية • ويوم رحل العثمانيون من ديارهم بقلب آسيا الى الاناضول ، كانت لهم أغان شعبية يتغنون فيها بمناقب اسلافهم ومآثر ساداتهم وخاصة اوغوز جد الاتراك العثمانيين •

ونقسم مؤرخي الترك فريقين ؛ فمنهم **كتاب الوقائع** ، وهم رجال رسميون نيطت بهم في قصر السلطان هذه المهمة • وغيرهم مؤرخون يتوفرون على كتابة التاريخ بصفة علمية وشخصية • وطبيعي الا يعبر المؤرخون الرسميون عن وجهة نظرهم لانهم كانوا يرسفون في أغلال مناصبهم ، بعكس غير الرسميين المنطلقين على سجيتهم •

ويمكن أن نلحق بالمؤرخين الرسميين اصحاب ال **(شاهنامه)** أي المنظومة الشعرية التاريخية ويسمى الواحد منهم (شاهنامجي) وهو الشاعر الذي ينظم الحوادث التاريخية بقصيدة • وقد عرف هؤلاء المؤرخون لاول مرة في القرن الخامس عشر يوم انشأ السلطان محمد الفاتح هذا المنصب الادبي • ومما يذكر ان اصحاب الشاهنامه كانوا يعملون مع شرذمة من الكتاب والرسامين والمجلدين والخطاطين ليستعينوا بهم في اخراج الشاهنامة أجمل اخراج • وكانت الشاهنامة منظومة من بدايتها الى نهايتها ، ثم أصبحت شعراً يتخلله النثر •

ومن هؤلاء المؤرخين الشعراء ، **فتح الله عارف** المتوفي سنة ١٥٦٢، وهو رجل فارسي الاصل رحل الى مصر مع أبيه ثم عاد الى وطنه • وقدر له ان يزور استانبول وفيها نال منصب شاهنامجي نظراً لحسن ترسله وبديع نظمه في الفارسية والتركية ، وأجرى عليه السلطان سليمان القانوني راتباً يومياً وقد سرد تاريخ العثمانيين في شاهنامه من ثمانية آلاف بيت بالفارسية ، وأشاد بذكر السلطان سليم الاول خاصة • وله

ألفا بيت بالتركية تحدث فيها عن حروب الصدر الاعظم سليمان باشا في الهند . وقد مات فتح الله عارف في مصر . وخلفه في منصبه **افلاطون شيرواني** ، وهو تركماني الاصل ، رحل الى استانبول كسلفه حيث نظم للسلطان سليمان شاهنامه تسمى (هنرنامه) أي كتاب الفضل . وصور فيها حياة سليمان الخاصة ، وحياته الرسمية بالتفصيل، وما ترك شيئاً الا ذكره حتى احلام السلطان .

ولهذه الشاهنامة نسخة بديعة التلوين والتصوير ، يمكن الوقوف من تهاويلها واشكالها على كثير من الحقائق التاريخية في ذلك العصر ، ولكن السلطان غضب منه في شيء فأمر بضرب عنقه سنة ١٥٦٩ [١] .

ولدينا في باب المثنويات (جمع مثنوي) منظومات تاريخية منها المنظومة التي كتبها **فقيري** المتوفي عام ١٥٣٤ م ، وسماها (رسالت تعريفات) وقيمتها تاريخية لانها تصف طبقات المجتمع المختلفة . وليست غزليات « نهالي البروسوي » المتوفي عام ١٥٤٢ م بأقل من هذه شأناً ، لانها تصف محاسن طوائف ارباب الحرف . ولدينا طائفة من التواريخ نظمت في قالب المثنويات ، وكلها فيما عدا التاريخ العثماني الذي كتبه حديدي عام ١٥٣١ يعالج حادثة واحدة ، مثل غزو بودين وجربه واليس وغيرها ؛ أويتحدث عن فتوح سلطان ، وهو السلطان سليمان القانوني غالباً ؛ او يتحدث عن قائد مثل خير الدين باشا بربروسا ، وأوزدمير أوغلي عثمان باشا وغيرهما[٢] . واهتمت الطبقة المتعلمة في القرن السادس عشر بما أصاب الدولة من نجاح في حروبها ، ولذا نشطت كتابة

---

(١) انظر عن المؤرخين العثمانيين ومؤلفاتهم كتاب « بابنجر » :
Babinger , die Geschichtsschreiber der Osmanen (Leipzig 1927)

(٢) انظر مقال الترك في Encyclopedie de l'islam .

التاريخ في هذا العهد وظهرت في الفترة ما بين حكم بيازيد الثاني وسليم الاول تواريخ كتبت نثرا الى جانب التواريخ المنظومة شعراً • ونقل ابن ادريس البدليسي التاريخ العثماني الرسمي الذي كتبه أبوه بالفارسية الى التركية ، كما ظهرت تواريخ عامة أخرى كتاريخ ابن كمال وتاريخ جلال زاده مصطفى جلبي واسمه « طبقات المماليك » وتواريخ محي الدين جمالي ولطفي باشا وعالي باشا ، وسنختار فيما يلي مشاهيرهم •

عالي : ويعتبر شيخ مؤرخي هذا القرن واسمه مصطفى بن احمد ابن عبد المولى جلبي ويجمع التاريخ الى الادب ويعتبر واحدا من اشهر ممثلي الادب العثماني في القرن السادس • ولد في غاليبولي سنة ٩٤٨ هـ/ ١٥٤١ ــ ١٥٤٢ م ، أو سنة ٩٤٩ هـ • وقد أتيح له ان يستمع الى دروس سروري العلامة الكبير في اللغة والادب الفارسيين • كما درس على محيي الدين معلم العروض ، وقد اهدى عالي الى ولي العهد سليم في سنة ٩٦٥ هـ أول انتاج شعري له على شكل قصيدة رومانسية ، وبعدها دخل في خدمة رجل الدولة الشهير لالا مصطفى ، فأتيح له أن يطلع على الاحداث الجارية من حوله • وبعد موت سليمان وتسلطن سليم احتفظ عالي بمركزه الممتاز • وفي ربيع ١٥٧٠ ــ ١٥٧١ رافق سيده الذي عين قائداً للحملة المكلفة بغزو قبرص ، وقضى بعدها عدة سنوات في الروملي ، وفي هذه الفترة الف كتاب (هفت داستان) أي الحكايا السبع ، وفيه وصف نهاية حكم سليمان وبداية أعمال خلفه ، باسلوب فخم طنان • وقام بزيارة مصر والديار المقدسة في الحجاز (١٥٧٨) ، ومن ثم رافق لالا مصطفى قائد الحملة الموجهة ضد فارس ، وبريشة عالي وصلت جميع التقارير العديدة والنشرات الى الآستانة في العصر العثماني • وقد انتهز عالي هذه الفرصة لجمع المعلومات الموثوقة عن عادات واساطير الشعوب الجبلية ، وخاصة سكان

مناطق جيلان وشروان وكردستان ولكن عزل سيده وحاميه لالا مصطفى ووفاته . أورث عالي القلق والغم ، ومع ذلك انصرف الى مضاعفة نشاطه في الميدان الادبي ، فأهدى الى السلطان مقطوعة روائية موجزة عن معجزات الانبياء ، وجعلها بعنوان (مرآة العوالم) وقد وضعها بعد عام من الحملة المذكورة .

ويهمنا عالي المؤرخ : فلقد انصرف تدريجياً الى كتابة التاريخ . وفي سنة (٩٩٥ هـ ، ١٥٨٧ م) وبعدها بقليل وضع (مناقب هنروان) أو مناقب الفنانين ، وقد جمع فيه اشهر ما امتاز به عدة مئات من الخطاطين المهرة ومجلدي الكتب ومزينيها فتحدث عن روائع انتاجهم وجمال صنعتهم ، ولا عجب فالخط الجميل والتجليد الباهر المزخرف كانا يعتبران من فروع الفن الرئيسية عهدئذ ، وأخيراً فقد عين في منصب رفيع في الادارة المالية ، وبعد ذلك بقليل أصبح وكيلاً عاماً للانكشارية ، وبذلك أصبح في مركز يمكنه من وصف تاريخ عصره ، وقد وضع تاريخه المشهور المسمى (كنه الاخبار) بين سنتي ، ١٥٩٣ – ١٥٩٩ ، وطبع في الاستانة بين (١٢٧٧ – ١٢٨٥ هـ) في خمسة مجلدات دون الخاتمة التي تتضمن احداث المائة والخمسين سنة الاخيرة في التاريخ العثماني الذي عاصره . ويعتبر تاريخ عالي بجانب تاريخ منجم باشي الذي سنصفه بعد قليل ، أهم ما انتجه المؤرخون العثمانيون في التاريخ العام . وقد تناول فيه الشعوب الاوربية في بعض الاحيان وفي القسم الاول من الكتاب يتحدث عن الانبياء القدامى ، وعن شخصية الرسول الاعظم (ص) وعن الاعمال المجيدة التي قام بها وعن الدين الاسلامي الذي بزغ نوره على العالم ، وقد كان عالي مدركاً للدور الذي قام به بنو جنسه في تقدم الاسلام بحيث جعل المجلد الثالث يتصل بالترك والتتار ، وضمنه تاريخ الخلفاء المسلمين وإمراء الاقطاع ، ويعتبر المجلد الاخير أحسن أقسام الكتاب ، فقد عالج فيه

اخبار الدول وتاريخ العثمانيين ، وقد تناول « عالي » التاريخ العثماني في القرن السادس عشر بعمق وتجرد . والحق ان فضيلة هذا المؤرخ هي في حبه للحقيقة ، فقد كان ناقداً لاذعاً محيطاً باحوال الحياة في عصره . وموجهاً اللوم أحيانا الى أعمال السلاطين . والرؤساء ، كما انه يمتاز باللهجة الودية التي يتحدث بها عن غير المسلمين ، واذا كان أسلوبه في الكتاب شعريا في المجلدات الاولى فهو قد تبسط أخيراً فأصبح أسلوبه مقروءاً . وله كتاب عن تشكل الدول وانحلالها وعنوانه (فصول حل وعقد أصول خرج ونقد) وبلغ من انتشاره انه لم تكن تخلو منه مكتبة ، وقد سمي باشا جدة مكافأة له على انتاجه الادبي ، وكان آخر هذا الانتاج كتيباً سماه (الحالات القاهرة من العادات الطاهرة) وله كذلك (نصيحة السلاطين) و (قواعد المجالس) . ويعتبر عالي نموذجاً لأفضل الموظفين الاتراك ، ففي عصر انتصرت فيه الدسائس وسادت القسوة ، ظل هذا المؤرخ مثالاً للعدالة والشرف والاتزان ، ولا نكاد نجد كاتباً في عصره لم يكن على صداقة شخصية معه ، برغم حقد كبار رجالات الدولة عليه .

أما **خواجة افندي سعد الدين** (١) فقد كان مؤرخاً ومؤدباً لمراد الثالث ومن أهل المنزلة عنده حتى قيل ان « الملكة اليزابيت » ملكة انكلترا طلبت اليه ان يقنع السلطان بضرورة مدها باسطول تقوى به

---

(١) فيما يلي نبذة من وصفه لفتح استانبول « ووضع الترك مدافعهم في مواضعها وبعضها على هيئة الثعابين والاخرى لها رؤوس التنانين وتحصنوا فانعصموا وقام الانكشارية والعرب بما وكل اليهم فاطلقوا على البروج القلاع مدافع تدق الحصون فتدكها وتتابعت الضربات والطلقات حتى تصدع البنيان وتخرقت الجدران كأنها قلب عاشق ولهان ووسعوا الصدوع والشقوق توسيعاً ، واصبح وجه الدنيا كحظ هؤلاء الكفار : وكأنما السهام أسل تنطلق من قسيها لتقول في آذان العداة المبهوتين بأعلى صوتها اينما تكونوا يدرككم الموت » .

على ، « فيليب » ملك اسبانيا • وقد عاش المؤرخ بين (١٥٣٦ ــ١٥٩٩) وهو مؤلف كتاب التاريخ العثماني المعروف باسم (تاج التواريخ) وتميز فيه على كافة ما سبقه عن توراريخ آل عثمان وتناول فيه الكلام على البيت العثماني منذ نشأته حتى وفاة سليم الاول ١٥٢٠ •

واستقى المؤرخ مادة تاريخه من كتب المؤرخين السابقين ، وأسلوبه يغلب عليه الاطناب والتنميق والطنطنة ، وطبع الكتاب في مجلدين باستانبول (١٨٦١ م) وينتظم فصولاً يخص كل منها سلطاناً من السلاطين ، كما تحتوي خاتمته تراجم لعلماء وشعراء وكتاب عرفهم المؤرخ وعايشهم ، ويعتبره الترك أول مؤرخيهم الرسميين (وقعة نويس) وان كان صنيعة القصر السلطاني ولم يقدر على التعبير الصريح والرأي الحر • وهناك بعض التواريخ الخاصة التي تتحدث عن عهود واحداث معينة مثل التآليف التي تسمى (فتح نامه) وبعض التراجم مثل (جواهر المناقب) التي تتحدث عن « صقلي »[1] •

ويعتبر تاريخ **لطفي باشا** وخاصة كتابه (آصف نامه) مفيدين أكبر الفائدة في معرفة التاريخ الاجتماعي لذلك العصر • وأسلوب لطفي في تاريخه يماثل اسلوب التواريخ القديمة ، ويكشف لنا تاريخ **سلانيكي مصطفى افندي** عن مبلغ فساد الحكم في نهاية هذا القرن •

وقد تأثر بعض الكتاب الاتراك بالرواية العربية القائمة على التراجم ، فوضعت في المناطق التركية والفارسية على السواء تراجم باللغة العربية • وان كتاب (الشقائق النعمانية) لقاضي استانبول **طاشكبري زاده** واسمه أحمد مصطفى المتوفى (١٥٦١ م) لمن الكتب العمدة في تأريخ الاسلام في تركيا • وقد وضع الكتاب بالعربية ونقل الى التركية ،

---

(١) هو محمود صقلي الوزير القدير للسلطان سليم الثاني الملقب بسليم الاحمق او سليم السكير (١٥٦٦ ــ ١٥٧٤) •

هذا بالاضافة الى عدد كبير من كتب الطبقات ومن بينها تراجم شيوخ المتصوفة من الاتراك ، ولها شأن تاريخي • وكان من نتائج السياسة البحرية التي انتهجتها الدولة العثمانية ان كتب بيري رئيس سنة (١٥٢٩ م) كتابه المشهور (بحريه) • ومن آثار الحملات التي شنها سليمان برا كتاب مطراقجي نصوح وفيه صور رائعة • وكتب على رئيس كتابه (محيط) واورد فيه وصفا لمغامرته الفاشلة في المحيط الهندي، واعتمد على تآليف العرب الاقدمين اعتمادا كليا • اما كتابه الثاني المسمى (مرآة الممالك) فهو اكثر اصالة وابداعا ، ونقل محمد يوسف الهروي كتابا يتحدث فيه عن كشف القارة الامريكية وسماه (تاريخ هند غربي) • وقد اهتم السلاطين بكتابة التاريخ في أواخر القرن السادس عشر فعينوا مؤرخين رسميين (وقعةنويس)[1] •

فريدون احمد بك : النشانجي وجامع الوثائق العامة و لانعرف مكان ولادته ولا اصله ولا أدبه • فقد ربي في منزل عبد الله شلبي الدفتر دار ثم دخل في خدمة الوزير محمد صقللي باشا عام (١٥٥٢ ـ ١٥٥٣ هـ) بصفة كاتب ديوانه ثم أصبح سكرتيرا لديوان الكتابة وشارك في بعض الحروب ثم عين رئيسا للكتاب واصبح نشانجي ١٥٧٣• وقد قدم كتابه (منشآت السلاطين) عام ١٥٧٥ الى السلطان ومات سنة ١٥٨٣ ، ومنشآت السلاطين بحسب ما يخبرنا سلانيكي تقع في ١١ مجلدا وتحوي على ١٨٨٠ وثيقة منذ تأسيس السلطنة حتى وصول مراد الثالث الى العرش ، وقد طبع الكتاب مرتين في استانبول (١٨٤٨ ـ ١٨٤٩) وفي (١٨٥٨) • واذا صدقنا ما يقوله سلانيكي فان الطبعتين تحتويان اقل مما هو في الاصل ، ومن جهة اخرى تحتويان على وثائق

---

(١) نويس كلمة فارسية بمعنى يكتب ، كاتب . (وقعة نويس آل عثمان) بمعنى كاتب وقائع آل عثمان وهو المؤرخ الرسمي للدولة .

لاحقة يبدو انها اضيفت من جانب الـذين اكملوا الكتاب • ويستهل بحكم اخلاقية (مفتاح الجنة) • ومن ثم يوجد فصل مطول عن اوضاع الملكية العقارية في مصر وقد انشيء وأضيف في زمن مراد الثالث ، وفي المقدمة يكتب فريدون نفسه نبذة تاريخية (نزهة الاخبار) •

وفي القرن السابع عشر ظلت الحياة العقلية تجري في مجاريهـا المعتادة المألوفة برغم تدهور وضع الدولة العثمانية السياسي والحربي وظهرت طائفة من المنظومات الشعرية باسم (شاهنامه) و (غزانامه) وغيرهما • وكتب المؤرخون تآليفهم القصيرة شعراً دون ان يكون لها أهمية تاريخية تذكر ، وكثرت الكتابات حـول اصلاح شؤون الدولة وحاول بعض السلاطين تنفيذ هذه الاصلاحات المقترحة وبينهم مـراد الرابع [1] ووزراء آل كبريلي[2] • واقـام السلطان مراد الرابع قابلي مؤرخاً رسمياً (وقعة نويس) لحملة اريوان ، وعين السلطان مصطفى الثاني **محمد خليفة الفندقلي** مؤرخاً رسمياً ، كما عين السلطان محمـد الرابع **نشانجي عبد الرحمن باشا** لمثل هذه الوظيفة (١٦٦٤)• وتواريخ هذا القرن منوعة منها منقول من تواريخ الاسلام العامة او تآليف أصلية في الموضوع نفسه ، او كتب عامة او خاصة او رسائـل في التاريخ

---

(١) مراد الرابع سلطان قوي حكم بين (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) تولى الحكم بنفسه ونجح في حروبه مع الصفويين وقررت حدود الطرفين بمعاهدة ١٦٣٦ معهم وبموجبها اصبحت مدينة بغداد تابعة نهائيا للسلطنة العثمانية وتوفي وعمره ثمان وعشرون سنة .

(٢) صدور عظماء ووزراء فاتحون تولوا الحكم في عهد سلطان قاصر اسمه محمد الرابع سنة (١٦٤٨ ـ ١٦٨٦) فتمكنوا من قمع الفتن ونشر الامن والقضاء على مظاهر الفساد دون بذوره . وبداوا الاصلاح ، ولكن بانتهاء الهجمات التركية على اوربا الوسطى (١٦٨٣) انتهى عهد الاصلاح وعادت المساوىء في الحكم والادارة الى الظهور من جديد .

العثماني . ولعل كتاب (جامع الدول) **لمنجم باشي** يعتبر من اهم هذه التآليف من الناحية التاريخية .

ومنجم باشي هو الاسم الذي عرف به واحد من اشهر المؤرخين العثمانيين في موضوع التاريخ العام واسمه الحقيقي هو « احمدافندي بن لطف الله[1] » وأصل أسرته من اركلي قرب قونية ، وقد ولد في « سالونيك » في النصف الاول من القرن السابع عشر حيث تلقى تعليمه، وخدم في خان للمولوية مدة طويلة ودرس الفلك والتنجيم وأصبح كبير منجمي البلاط السلطاني (منجم باشي) سنة ١٠٧٨ = ١٦٦٧—١٦٦٨، وادخل في المعيّة السلطانية عام ١٠٨٦ هـ ولكنه بعد ذلك ارسل منفياً الى مصر ١٦٨٧ وبعد عدة سنوات رحل منها الى مكة حيث أصبح شيخ المولوية فيها وتوفي فيها سنة ١٧٠٢ ومنجم باشي الى جانب آثاره التاريخية كان بارعاً في الميدان الأدبي ، فقد وضع حاشية على تفسير البيضاوي ، ووضع عددا من الفذلكات عن علم الهندسة والموسيقى وعن التصوف ، وديوانه الشعري يفسح له مكاناً بين الشعراء المتصوفة الاتراك .

أما تاريخه العام الذي عرف باسم (جامع الدول) فقد وضعه باللغة العربية وكتبه في الحجاز وهو تاريخ للعالم ، مرتب على طريقة التآليف العربية المماثلة بحسب السلالات ، وينقسم الكتاب الى ثلاثة اقسام : اولها يعالج فيه تاريخ النبي الكريم (ص) ، والثاني يتناول فيه السلالات غير الاسلامية ، والثالث يخصصه للسلالات الاسلامية . وقد ذكر المؤلف في المقدمة المصادر العديدة التي استقى منها مادة كتابه ، وقد فقد منها الكثير اليوم ، ومن هنا قيمة هذا المؤلف الذي ترجع أهميته الى احاطته بالسلالات الحاكمة الصغيرة والمتعددة التي كان

---

(١) Encyclopédie de L'Islam T. 111 PP. 771 - 2

آخرها السلالة العثمانية ، وقد اختصها بالتفصيل والتطويل اكثر من جميع السلالات الحاكمة الاسلامية السابقة • كما استند المؤلف الى عدد من المصادر غير المعروفة ، أما القسم الأخير من الكتاب فيتناول فيه التاريخ المعاصر له (١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨ م) •

وهنالك أيضا كتابات « **بجوي** » واسمه ابراهيم بجوي ولد سنة ١٥٧٤ بمدينة (بج) ببلاد المجر وعرف الحرمان في شبابه ولم يطل أساه اذ اشترك في حروب « سنان باشا » القائد العثماني المشهور ضد المجر ، وشغل منصب الدفتردار في الاناضول ، ثم اعتزل الخدمة وانصرف الى التأليف التاريخي عن احداث السنوات بين (١٥٢٠ – ١٦٣٩) معتمدا على مؤلفات عثمانية ومجرية ، واسلوبه سلس في الكتابة ويعتبر من خيرة مؤرخي ذلك الزمان ، ويمتاز بقلة السجع وخلوه من تكلف الصنعة وتشوبه بعض الألفاظ المجرية • وهو يسرد حوادث عهده باعتباره شاهد عيان او راوية لما سمع ، واسم كتابه (تاريخ بجوي) وقد طبع في جزئين في استانبول سنة ١٨٢٣ هـ ويتميز هذا المؤرخ بسداد أحكامه وتحريه الصدق والدقة في روايته ، وبعده عن الهوى ، وقد ساهم في تدوين المذكرات، وابرام المعاهدات بين المتحاربين لاتقانه لغة المجر ، ولما مات حاميه لالا باشا لقي الواناً من العناء وعاد الى مدينة (بج) حيث دون تاريخه وقضى فيها •

ويعتبر المؤرخ العثماني **نعيما** في طليعة من يجيدون الوصف ، وهو بالتالي قادر على تحليل الشخصيات التاريخية تحليلا نفسياً • ونعيما اسمه « مصطفى[1] » وهو من مواليد حلب عام ١٠٦٥ هـ = ١٦٥٥ م ثم اجتذبته العاصمة نحوها وخدم في قصر السلطان ثم رقي الى رتبة كاتب الديوان ، وبعدها سمي رئيسا لديوان محاسبة الاناضول ، ثم

(١) Encyclopédie de L'Islam T. 111 PP. 771 - 2

أصبح رئيساً للتشريفات السلطانية ، وفي الوقت نفسه شغل منصب مؤرخ الدولة الرسمي وشغل عدة مراكز مهمة اخرى ، واشترك في حملة « المورة » بصفة وكيل بمعية انسر عسكر ومات في مطلع سنة ١١٢٨ هـ = ١٧١٦ في باتراس لوفيو Patras Levieux حيث دفن في مسجدها الذي تهدم اليوم • وقدكتب نعيما تاريخ السلطنة العثمانية بروح مستقلة وموضوعية ، وكان يشغل يومها منصب مؤرخ الدولة الرسمي• وقد اعتمد في تأليف كتابه على كتابات المؤرخين الذين سبقوه مثل وجيهي ، وحاجي خليفة وسواه ، ويغطي تاريخه الفترة من ١٠٠٠هـ = ١٥٩١م حتى ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩م[1] والعنوان الصحيح لهذا المؤلف القيم يعرف احياناً بـ (روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين) كما ورد في حاجي خليفة • وفيما عدا ذلك وضع نعيما (رسائلي سياسية) وهي محفوظة في مجموعة آثاره المخطوطة • ويمتاز نعيما انه كان جادا رصينا في كتاباته ، فاذا اضفنا الى ذلك حبه للحقيقة ادركنامكانته الرفيعة بين نخبة المؤرخين العثمانيين وفي طليعتهم لهذه الفترة • والحق ان في تاريخه تبصرة للقارىء بشئون اوربا وتبيانا لما كان يربطها بالدولة العثمانية من صلات ، وهو يعرض وجهة النظر العثمانية بوضوح

---

(١) ومن قوله يصف فتح العثمانيين لجزيرة كريت « وفي تلك الاثناء ذاع الخبر بوصول الاعداء فاطلقت النيران حتى ظهر انه هذا مكذوب . وفي الغد بين الصلاتين نزل المسلمون على التلال بالقرب من الجسر الحجري ازاء قلعة خانية فاذا بالكفار في الكروم والبساتين يلهون ويرقصون وقد لبسوا من صالح ثيابهم وبدوا كأنهم لا يحسبون لشيء حسابا فحمل الجند المنصورون على هؤلاء المقهورين في ساعة امنهم وبهجتهم ففنموا منهم ما لا يدخل تحت حصر ووقع بايديهم مال جزيل وكثير من الاسرى وجيء بالاسرى النساء والاطفال واهل القرى فكان من حسن تدبير القائد ان احسن جزاء الجند واطلق الاسرى ، كما نهى عسكره عن احراق الديار وقطع الاشجار وقتل الاخيذ وتسامع الناس بذلك ومالوا الى عسكر الاسلام وقالوا ان الجزيرة لهم » الخ . .

كما ينطوي على خبر طويل عن الترك وفتحهم جزيرة « كريت » •
ومن مؤرخي القرن السابع عشر ايضاً **« اوليا جلبي »** الذي ولد باستانبول سنة ١٦١١ وتوفي بعد سنة ١٦٧٩ بقليل وقام خلال أربعين عاما برحلات متتالية في انحاء السلطنة وفي اوروبا الوسطى والشمالية ايام حكم السلطانين ابراهيم ومراد الرابع ، ونشر مشاهداته وتجاربه في الحرب والسلم في (سياحت نامه) في عشرة اجزاء • وفي الكتاب معلومات عن احوال الدولة العثمانية ، والمؤلف كان قوي الخيال شغوفاً بوصف المخاطر والعجائب ، ويجد لذة في المبالغة ويؤثر الاساطير على الحقائق ، على ان كتابه يعتبر كنزاً للمعارف الجغرافية والاجتماعية ، ويتميز بسهولة العبارة وحسن العرض وقوة الوصف وجماله ، وهو نادر الاقتباس من المصادر المكتوبة • كما بحث **قوشجي بك** (١٦٣٠) في رسالته المشهورة في اسباب اضمحلال الدولة العثمانية ، وفيها مقترحات كثيرة لاصلاح احوالها • اما الكاتب الموسوعي (حاجي خليفة) فيحسن ان نختم به حديثنا عن التاريخ والمؤرخين العثمانيين في القرن السابع عشر ، لا لنفاذ بصيرته وسعة معارفه فحسب ، بل لوفرة انتاجه وتنوعه ايضاً •

هو مصطفى بن عبد الله ويلقب ايضاً بـ « كاتب جلبي » وهو تركي ولد في استانبول سنة (١٦٠٨ م) وتطوع الجيش وكان في الرابعة عشرة من عمره ، والتحق في الوقت نفسه بديوان المحاسبة ، وفي وظيفة كتابية صغيرة ، وصحب الجيوش العثمانية في حملاتها على الحدود الشرقية للاناضول بين عامي (١٠٣٣ ــ ١٠٤٥ هـ) وشارك في الحملات ضد الفرس وسواهم ، وحجَّ الى مكة سنة (١٦٣٣) وقد ورث عن أقاربه ثروة كبيرة فانصرف الى حياة الدرس التي طالما تطلع اليها ، واستقال من وظيفته في ديوان المحاسبة (١٦٤١ م) ولكن اصحابه من الكبراء عينوه في منصب الخليفة (المساعد) الثاني في هذا الديوان

ومن ثم تلقب بـ « حاجي خليفة » وتوفي في استانبول سنة (١٦٥٧م) ولما يبلغ الخمسين ٠

وفيما يلي ثبت باهم مؤلفـاته التاريخية مرتبـة بحسب سنوات تأليفها :

١ ــ فذلكة : وضعها بالعربية سنة ١٠٥١ هـ وهي عبارة عـن تاريخ موجز لحوالي ١٥٠ دولة مستخرج مـ نتاريخ الجنابي المتوفي سنة ٩٩٩هـ وقد زاد عليها حاجي خليفة ذيولا من عنده والظاهر انهـا فقـدت ٠

٢ ــ تقويم التواريخ ، وهو جداول مرتبة بحسب الترتيب الزمني ، كتب المقدمة ، والملاحق (جرائد بالاسر الحاكمة والاعيان) بالتركية ؛ بينما وضع الجداول بالفارسية ٠ وتضمنت الوقائع التاريخية منذ بدء الخليقة الى وقت فراغه من التأليف ١٠٥٨ هـ ٠

٣ ــ جهانتما ــ بدأها عام ١٠٥٨ هـ واهداها الى السلطان محمد الرابع ، وجهانتما ، تعني (وصف أو مرآة العالم) ٠

٤ ــ سلم الوصول الى طبقات الفحول ، وهو معجم في تراجم الاعيان كتب بالعربية ٠ وضع المجلد الاول منه بين ١٠٦١ هـ ــ ١٠٦٢ ٠

٥ ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون وهي موسوعـة مصادر عظيمة عدّد فيها آلاف الكتب العربيـة والفارسية والتركية في مختلف فروع الثقافة الاسلامية ، وهي أهم تصانيف المؤلف ، قضى في جسيع موادها اكثر من عشرين عاماً وكتبها بالعربية ، أتم الجزء الاول منها عام ١٠٦٤ هـ وقد نشر فلوجل النسخة الاصلية بلايبزغ بين (١٨٣٥ ــ ١٨٥٨) ثم نقلت عنها طبعة بولاق عام ١٢٧٤ هـ واستانبول عام ١٣١٠ ــ ١٣١١ هـ ٠

٦ ــ وصف الولايات العثمانية بأوربا ، وهو مخطوط من عدة نسخ

ترجم « فون هامر » قسماً من نسخة المؤلف في كتـابه « الروم‌للي والبوسنة » المطبوع في فيينا ١٨١٢ م ٠

٧ ــ دستور العمل في اصلاح الخلل ، وهي رسالة في الاصلاحات المالية وضعها سنة ١٠٦٣ هـ ولكنها لم تنشر الا بعد ثلاث سنوات ، وقد طبعت في القسطنطينية عام ١٨٦٣ وترجمت الى الالمانية ٠

٨ ــ تحفة الكبار في أسفار البحار ، وهي تاريخ البحرية العثمانية وضعها سنة ١٦٥٦ ونشرت في القسطنطينية بين (١٧٢٨ ــ ١٩١٤) وترجمت الى الانكليزية ٠

وقد تعرّف حاجي خليفة على قسم كبير من أقاليم الدولة العثمانية من خلال اشتراكه في الحملات الآسيوية ، وأعد ترجمة تركية لاطلس « مركاتور » المطبوع في اونهايم عام ١٦٢١ م ٠

وفي القرن الثامن عشر ظلت الحياة العقلية تجري في المجاري السابقة نفسها وكان يرافق الانحطـاط السياسي انحطاط فكري ، وكان الشعراء ينتقدون احياناً المفاسد الاجتماعية في الدولة ، وبالتالي ظلت حركة التأليف التاريخي تتسم بنفس السمات الاولى على الرغم من أن التواريخ تتقدم سائر ما ألف نثراً ٠ ومن المؤلفين الذين شغلوا منصب المؤرخ الرسمي للسلطنة **راشد** ، وهو محمد ابن راشد ٠ ولد في استانبول ودرس فيها وعين قاضياً لحلب ١٧٢٠ ، وقبلها عين في منصب المؤرخ الرسمي للدولة ١٧١٤ وعين سفيراً لبلاده في فارس وأخيراً قاضي عسكر الاناضول ١٧٣٥ ، وقد كتب ذيلا لتاريخ نعيما ، عن الدولة العثمانية من عام (١٦٦٠ ــ ١٧٢١) يعرف بـ « تاريخ راشد » ويعتبر مصـدراً مهماً لهذه الفترة ، وطبع في استانبول لآخر مرة عام ١٢٨٢ في ستة مجلدات ٠ ومنهم **جلبي زاده عاصم وواصف** ٠ الا ان واحدا من هؤلاء الثلاثة لم يبلغ مبلغ أسلافه من امثال نعيما برغم انصراف مئات الكـتاب الى التأليف في السير والتـاريخ ٠ وقـد حمـل انحطاط

وضع الـدولة السياسي والحربـي الكتاب عـلى تأليف رسـائل (لايحـة) بحشـو فيهـا أسـباب تدهور احـوال الدولـة • وأشهر من كتب في أصول السياسة والادارة العثمانية والادب السياسي عموماً هو : **محمد باشا الدفتردار** اذ كتب بالتركية (نصائح الوزراء والامراء)[1] • وقد شغل المؤلف منصب الدفتردار عدة مرات في العقدين الاولين من القرن الثامن عشر ، واعدمه السلطان عام ١٧١٧ • ولم يكن رجالات الدولة قد تبينوا بعد اسباب نهضة اوربا ودواعي قوتهـا الحربية ، فرأى بعضهم ان سبب نكبات الدولة يرجع الى التفريط في السنن العثمانية الاولى التي اوصلت الاجداد الى ذرى المجد والقوة • وقد نحا الدفتردار هذا النحو عندما فر في استنقاذ الدولة لا من المطامع الاوربية فحسب ، بل من الفساد والفوضى الداخلية أيضاً • وقد أراد الدفتردار لكتابه ان يكون دليلا لمن يستلم مقاليد امور الدولة العليا ، واهتم بأخلاق الوزير الصالح وقارن بين احوال زمانه ، وبين ما كان سائداً في زمان سليمان القانوني ــ وهو العهد الامثل في نظره • ويتضمنْ الكتاب تسعة فصول عن احـوال المناصب الحكوميـة ، ومساويء الرشوة ، واحوال اقطاعات الزعامة والتيمار ، وأوضـاع الرعايا ، وأحوال العدو ، وصفات القواد وما الى ذلك • وفي الفصل الذي عقده للحديث عن الطريقة البكطاشية اشار الى اختلال نظـام الانكشارية ، والى سبيل اصلاحه ، وذلك بالعودة الى أصول نظامه القديم ، وطرد الدخلاء من صفوف الجند الانكشاري ، وكان يستشهد بالاحاديث الشريفة ، يوردها بالعربية ثم يترجمها الى التركية بتصرف • وقد استفاد في كتاباته من عدة مؤلفات سابقة مثل (سياسه نامه) لنظام الملك السلجوقي •

---

(١) هذا الكتاب بنص تركي ثم ترجمه الى الانكليزية بعنوان :
Walter Weight : Ottoman statecraft the book for veziers governors of Sari Mehemed pasha the Deterdar Princeton 1935.

وهنالك أيضاً رسالة كتبها **قوجي بك** أحد مشاهير العثمانيين في عام ١٦٣٠ تحوي اقتراحات كثيرة لاصلاح الدولة ، وهي مصدر هام لمعرفةاسباب انحطاطها ، وكتاب (نصيحة نامه) لمؤنف مجهول وضعه سنة ١٩٦٠ ٠وفيه يقول : دب في الدولة دبيب الضعف وبدت عوامل الفساد والفوضى منذ عهد السلطان مراد الثالث ولا يتسع المجال لبسط القول ٠ ويكفي ان نورد عبارة السفير الانكليزي سنة ١٦٢٧ الذي كتب يصف حال الدولة العثمانية بقوله : « لن يكتب لهذه الدولة طويل دوام ، والله على كل شيء قدير ، غير انها في نظر المرء مشرفة على نهايتها المحتومة » ٠

ولذا لا عجب اذا تناول المؤرخ التركي قوجي بك بالنقد سيــاسة الدولة في رسالة عرض فيها لاسباب النهضة والسقوط شارحاً مؤرخاً فهو كاتب سياسي اجتماعي ٠ وقوجي من اصل الباني قدم استانبول وهو حدث فتربى في قصر السلطان وتأدب ، ثم لحق بخدمة السلطــان احمد الاول ومصطفى الاول ، وعثمان الثاني ، ومراد الرابع ، وقد قربه هذا الاخير وعمل بمشورته ولم يفارقه في سفر أو حضر ، وقدم **قوجي بك** اليه رسالته في اسباب تدهور الدولة وهي تخلو من الملق تماما مما يدل على اتصال الود بينهما ٠ ومن قوله فيها « ليس بخاف على الملك السعيد العادل المجيد ، وهو الحازم التفكير ذو العقل المنير ، ان الديوان السلطاني كان مصدر العدالة ، وان اجداده الامجاد قبل السلطان سليمان القانوني كانوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من امور الدولة واحوال الرعايا والبرايا وشئون المال الا امروا بتقييدها ، اما السلطان سليم فلم تجر عادته بالحضور في الديوان ، غير انه كان اذا خرج بنفسه للغزو تخبّر الاخبار في طريقه وعرف جلية الامور ٠ اما في القسطنطينية المحروسة فكان ينصت الى ما يقال في الديوان وهو جالس على عرشه خلف حاجز وبذلك يقف على الاحوال » ونراه في موضع آخر من رسالته يوضح أسباب السقوط ويعدّها بقوله :

« لا يخفي ان حل السلطان سليان للديوان كان اول سبب للخلل وفساد الامر • اما السبب الثاني فاختياره السلحدار ابراهيم باشا وهو خادمه الخاص وزيراً اعظم من غير نظر الى القاعدة ، فكان كل سلطان يرفع مرتبة خدامه الخواص باسناد هذا المنصب العظيم لهم ولم يكن لهم علم وتجربة ، كما اغتروا بجاههم ورضا السلطان عليهم فنكفوا من أن يسألوا أهل الذكر ، وتخبطوا في جهالتهم وغفلتهم ، فعم الفساد ودب الوهن في امور البلاد » • وقد تأثر كثيرون من المؤرخين بقوجي بك ومنهم نعيما المشهور •

التاريخ والمؤرخون الاتراك العثمانيــون منذ عصر التنظيمات حتى قيام الجمهورية التركية •

استغرقت التنظيمات والاصلاحات امدا طويلا ابتدأ من القــرن التاسع عشر ووجد خاتمته المنطقية بقيام الجمهورية التركية • وليس لنا ان نتوقع تبدلا جوهريا في مدارك الناس ومفاهيمهم للحياة والقيم في فترة وجيزة • ويمكن تقسيم هذه الفترة الى دورتين اثنتين :

أولهما : يمتد من بدء حركة التنظيمات حتى انقلاب المشروطية (١٩٠٨) وفيه ظلت كتابات الكتاب وتآليف المؤرخين محافظة على صفتها العثمانية والاسلامية •

وثانيهما : يمتد من انقلاب المشروطية حتى اعلان الجمهورية التركية وفيه استولت فكرة القومية التركية على اذهان الترك ، ولم تلبث ان قامت الجمهورية التركية مقام السلطنة العثمانية • ومن المعلوم ان الفكرة القومية التركية بدأت أولا كحركة لغوية ادبية ثم صارت تظهر في الابحاث التاريخية ، واخيراً انتقلت الى ميادين الحكم والسياسية أي أنها بدأت بتتريك اللغة ، وتتريك التاريخ ثم تتريك الدولة :

ففي الدور الاول كانت آثار الفكرة القومية قليلة وضعيفة ومبعثرة ،

تجلت في كتابات بعض المفكرين والادباء ولكنها لم تستطيع ان تحدث تياراً مؤثراً في الحيا ةالعقلية والسياسية •

وفي الدور الثاني اخذ التيار القومي التركي شكلا منظما وانتشر بين الاوساط الشعبية بواسطة الجمعيات والنوادي والمقالات والخطب والاغاني وغيرها • ولا حاجة الى القول بان الوقائع السياسية والحربية التي توالت على السلطنة ساعدت على غلبة هذا التيار التركي ، اذ لم يبق للسلطنة العثمانية بعد حروب البلقان والحرب العالمية الاولى سوى ولاياتها التركية الصرفة فأصبحت دولة تركية فعلا تمثلت في الجمهورية الجديدة • ويهمنا ان نعرض لاهم التطورات التي احدثتها الفكرة القومية التركية في ميدان التأليف التاريخي ؛ ذلك ان حركة التتريك في المباحث والتصانيف التاريخية بدأت في أواخر القرن التاسع عشر كما ذكرنا ، بالالتفات الى ما نشره المؤرخون الغربيون عن تاريخ الاتراك قبل الاسلام ، وانصرف بعض الكتاب الى الاقتباس منها • وصاروا يزعمون ان الاتراك لم يكونوا أهل حرب ونزال فقط وانما أهل حضارة وعمران ومن الطبيعي ان هذه الجهود لعبت دورا هاما في ايقاظ روح القومية واثارة الغرور القومي لدى الاتراك ، بل دعا بعض كتابهم ومؤرخيهم الى اعادة النظر في التاريخ العثماني لانه كتب بنظرات دينية • فالتاريخ العثماني مثلا يلعن جنكيز خان لانه حارب المسلمين وغزا بلادهم في حين يجب احترام هذا « الفاتح العظيم » لانه جمع معظم الشعوب التركية تحت راية واحدة • وينطبق مثل هذا الحكم على ما كتبه الغربيون عن « أتيلا » الذي يتهم بالظلم والتخريب في حين أنه لا يختلف عن سائر الفاتحين في الميدان ، ولذا يجب تكريم ذكراه وتبجيله • وأخيراً لا آخراً قامت حركة في التأليف التاريخي تدعو الى توسيع مدلول الترك والاتراك ليمتد الى التتار والمغول بحيث لا يعتبر الاتراك انهم يؤلفون مع هؤلاء امة واحدة فحسب ، وانما يعدون رجالاتهم ايضا اجداداً لهم واسلافاً ،

بل أخذ هذا التيار في المغالاة بحيث صار الكتاب والمؤلفون يعتبرون ان السومريين والحثيين القدامى من أصل تركي ، ويدخلون بالتالي جميع مآثر حضارتهم في نطاق المفاخر القومية التركية • وتبنت الحكومات التركية نفسها بعد المشروطية هذه الجهود المتطرفة التي بدأت فردية ثم أصبحت جماعية فعهدت الى لجان رسمية مختصة لنشر هذه البحوث التاريخية ، وتحولت لجنة التاريخ العثماني الى لجنة التاريخ التركي[1] •

وفي الدور الاول ظلت المؤسسات التقليدية العثمانية تقوم الى جانب المؤسسات التي أوجدتها التنظيمات • وينطبق هذا القول طبعا على أساليب الكتابة التاريخية ، وآية ذلك اننا نجد تآليف تاريخية موضوعية

---

(١) روى الاستاذ ساطع الحصري في كتابه (محاضرات في نشوء الفكرة القومية) (ص ١٥٥ ــ ١٥٦) امثلة عن مدى هذا الانحراف في استتراك التاريخ ، فذكر ان استاذاً لتاريخ الحقوق في جامعة استانبول وضع كتاباً عنوانه (منشأ الحضارة اليونانية) حاول فيه البرهنة على ان الحضارة اليونانية منحدرة من أصول تركية ، وابرز البراهين التي أوردها المؤلف كان ما يلي « كان اليونان يعبدون الآلهة التي اسمها أثينا Athena والمدينة المعروفة بهذا الاسم منسوبة الى هذه الالهة . ومن الامور الظاهرة للعيان ان هذا الاسم يعني آتنا مخفف من (آت ــ آنا) . النصف الاول آت تدل في التركية على (الحصان) والنصف الثاني منها (آنا) تدل على الام . ولما كان تأليه الحصان ، واعتباره ام الآلهة من خصائص الاتراك فيمكن الجزم بأن هذه الآلهة انتقلت الى اليونان من الاتراك . ولما كانت الديانات في تلك العهود أساس الحضارة ، فلا يبقى مجال للشك في أن الحضارة اليونانية انحدرت من أصول تركية ». واستطرد الحصري يقول ان الكتب المدرسية التركية الحديثة تزعم ان « طارق بن زياد » كان تركي الاصل ، واما منشأ هذا الزعيم فهو ما يلي : طارق بن زياد كان بربري الاصل ، والبربر من الاتراك بدليل ان احدى قبائلهم المشهورة تسمى (توارك) ومن الواضح ان هذا الاسم محرف عن (الاتراك) .

وهذا طبعا مخالف تماما لابسط الحقائق العلمية التاريخية الحديثة .

وفق الاساليب القديمة جنباً الى جنب مع تآليف استوحى أصحابها المنهج العلمي الحديث في كتاباتهم • وما شارف القرن التاسع عشر على نهايته حتى وجد في الدولة رجال يتقنون الفرنسية ويطالعون منتجات الثقافة الغربية • وقد شجع ايفاد البعوث الى ديار الغرب واستحضار الاساتذة الاوربيين على تفاقم التأثير الاوربي في تركيا ، وتبع ذلك طبعا ظهور هذا الاثر الاوربي في جميع نواحي الحياة ، وفي الميدانين الفكري والفني • وسنحاول فيما يلي ان نبين الازدواجية التي طبعت التآليف التاريخية في هذه الفترة • ولن نستطيع ان نذكر جميع ما نشر فيها من المصنفات التاريخية ، ولذا نقتصر على ذكر ما نرى انه جدير بالاشارة والتنويه ، وما نتحقق أنه يشكل خطوة جديدة في تطور حركة التأليف التاريخي •

من مؤرخي بداية القرن التاسع عشر **عاصم** وقيل له **مترجم عاصم** وهو أول مبشر بالاصلاح وقد نالته الارزاء والاحن فمات محزوناً سنة ١٨١٩ • ترجم الى التركية قاموسين احدهما عن الفارسية والآخر عن العربية ، كما كتب تاريخاً يعرف بتاريخ عاصم • ويعرف بجودة اسلوبه وتبصره النقدي ، ويؤخذ عليه التعصب •

ولكن اجدر المؤرخين بالذكر هنا هو « **احمد جودت باشا** » فقد ولد في « لوفجة » من ولاية الطونة (الدانوب) سنة ١٨٢٢ وحارب أحد اجداده بطرس الاكبر عند نهر بروث • واشتغل جد آخر له بالافتاء ، وحج ابوه وجده الى مكة • وقد تلقى احمد جودت مبادىء العلوم الاسلامية في مسقط رأسه ثم اجتذبته استانبول التي كانت مركز الحركة العقلية وذلك ١٨٣٩ حيث دأب على الدرس وشغف بعلم الكلام والفلسفةوالادب والرياضيات والجيولوجيا ، كما حذق العربية والفارسية وقد تولى مناصب هامة في الدولة حتى كلفه السلطان عبد المجيد بكتابة تاريخ عام للاتراك منذ صلح كوتشك قينارجي ١٧٧٤ الى ابادة

الانكشارية عام ١٨٢٦ • وفي العام التالي قدم للسلطان المجلدات الثلاثة الاولى التي كتبها بعبارة طلية ، واسلوب حماسي ، فعين مؤرخاً للدولة وما زال يتدرج في المناصب حتى بلغ رتبة الوزارة (١٨٦٤ ـــ ١٨٦٥) وعمل على ادخال الروح العصرية في المدارس ، ثم اعتزل المناصب وانصرف الى المطالعة وقضى في بلدة « ببك » ١٨٩٥ • وفي أواخر عهد السلطان عبد العزيز وضع كتاباً سماه (قصص الانبياء وتاريخ الخلفاء) وقد ختمه بمقتل عثمان بن عفان ، ولكن كتابه المسمى (وقائع الدولة العثمانية) هو ما اكسبه شهرته حقاً ؛ وقد تناول فيه الحوادث من (١٧٧٤ ـــ ١٨٢٦) فجاء في ١٢ مجلداً استغرق وضعها في ثلاثين سنة ، وطبعت لاول مرة في استانبول بين (١٢٧١ ـــ ١٣٠١) ، وتكرر طبعه فيما بعد ، ولم يعتمد في كتابه على الوثائق الرسمية فحسب ، بل اعتمد كذلك على مؤرخي الدولة الذين سبقوه ، كما اعتمد احياناً على المؤرخ العربي المصري الجبرتي وعلى غيره • ولم يعتمد من المصادر الفرنسية الا على مذكرات « نابليون » التي دونها في جزيرة « القديسة هيلانة » ويمتاز تاريخ « جودت » بأن صاحبه كان مستقلا في الرأي ويتسم سرده بالنضج ولكنه لم يرجع في كتابة المجلدات الثلاثة الاخيرة الى المحفوظات الرسمية • وكانت طريقته عموماً أن يرتب الحوادث ترتيباً زمنياً • وبرغم انه مزج الحروب والاحداث الداخلية ، ولكنه استطاع بمهارته أن يحافظ على هذا الترتيب الزمني • واسلوبه لم يكن مشرقاً ، ففي المجلدات الخمسة الاولى نهج على طريقة المؤرخين القدامى من حيث الاسلوب الفخم ، أما في المجلدات الباقية فقد توخى البساطة في التعبير • ويؤخذ عليه انه كان يمر بسكون على هزائم الترك ويتجاهلها أحياناً ، ولكنه كان يفيض بالحماسة الوطنية حين يشير بفتوحاتها وانتصاراتها •

سلك المؤلف في كتابته طريقة كتّاب « الحوليات » في ذكر الحوادث

التي جرت بين عامي (١٧٧٤ ــ ١٨٢٦)[1] وبرغم ان المؤلف قد تلقى علومــه في المدرسة العثمانية التقليدية ، وان اســلوبه في الرواية ما زال يماشي الاسلوب التقليدي ، فكتابه امتاز بالحس النقدي ووفرة المصادر ، والمنطق الصائب ، هذا الى اعتماده على مصادر غربية مترجمة الى التركية في مصر محمد على باشا ، ولكنه مع كل ذلك ظل محافظاً أميناً على التقليد • ويجهد في البحث عن علاج لتردي أوضاع السلطنة عن طريق اصلاح المؤسسات التقليدية دونما حاجة الى الاقتباس عن الغرب • ونجد أن ملاحظاته عن التاريخ والعمران البشري تعتمد بوضوح على ما ورد في مقدمة المؤرخ العربي العظيم ابن خلدون ، وتدل على اعجاب شديد به ، فلا غرابة ان قام بترجمة الجزء السادس والاخير من مقدمته الى التركية • وقد سجل « احمد جودت » في كتابة الترقيات الرسمية والوفيات بأسلوب كلاسيكي ، وفيما عدا ذلك يتناول الموضوع بالطريقة التي تلائمه دونما تقيد بأسلوب القدامى ، ومن هنا فقد اتخذ كتابه شكل مجموعة من الحوليات الاخبارية ، وقليل من المقالات والمواضيع الخاصة •

ومن مؤرخي هذه الفترة أيضاً **(احمد لطفي)** وقد عاش بــين (١٨١٥ ــ ١٩٠٧) وقد خلف جودت باشا في منصبه كمؤرخ رسمي ، والف حولية اخبارية تغطي الفترة بين (١٨٢٦ ــ ١٨٦١) تحت اسم تاريخ لطفي ، وجعله في ثمانية مجلدات نشرت في استانبول بين (١٢٩٠ ــ ١٣٢٨ هـ) ولكنه من حيث القيمة التاريخية دون تاريخ جودت بكثير ، اذ انه في معظمه تلخيص لمقالات صحفية •

أما تاريخ **(عطا)** فهو من أفضل الكتابات التاريخية ذات الاسلوب القديم ، وقد اتخذت شكل السير والتراجم للفترة الواقعة بين (١٨١٠ ــ ١٨٧٧) • وينطبق هذا الوصف أيضا على **محمد ثريا** المتوفي سنة

---

(١) ترجم الجزء الاول من تاريخه عبد القادر الدنا في بيروت عام ١٣٠٨ هـ

١٩٠٩ • ويقع تاريخ عطا في خمسة مجلدات نشرت في استانبول بين (١٢٩١ ــ ١٢٩٣) يتناول بعد مقدمة طويلة عن (الاندرم)[١] ، وهي مدرسة القصر السلطاني ــ الشخصيات التي تلقت تعليمها في هذه المدرسة ، بينما يتضمن الكتاب الثاني من اربعة مجلدات نشرت في استانبول (١٣٠٨ ــ ١٣١٥) سيرة حياة جميع عظماء التاريخ العثماني • وبرغم كثافة معلومات الكتابين وفائدتها غير انها لا تنطبق دائما مع الحقيقة •

وعلى الرغم من الاخذ بمقتضى التنظيمات ما أمكن وادخال عناصر التجديد في أجهزة الدولة العثمانية فقد كان تطور الاسلوب الحديث في كتابة التاريخ بطيئاً ، واستمر البعض يكتبون وفق الاسلوب القديم ، وآخر هؤلاء هو ابن الامين « محمد كمال اينال »[١] الذي عاش بين (١٨٧٠ ــ ١٩٠٧) والف كتاباً قصصياً تناول فيه حياة عدد من الوزراء العظام بدءاً من عالي باشا (١٨١٥ ــ ١٨٧١) • على ان انفتاح السلطة العثمانية امام المؤثرات الاوربية بعد اعلان التنظيمات من قبل مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠ ــ ١٨٥٨) وما تلاه من خطوط شريفة همايونية واجراءات اصلاحية بعد عام ١٨٣٩ ادى الى سرعة الاخذ بالاسلوب العلمي الحديث في كتابة التاريخ ، وخاصة بعد ان اطلع المؤرخون الاتراك على ما تحتويه الكتب التاريخية الاوربية في منهج بحث يقترب كثيراً من الحقيقة والواقع •

وتمثلت هذه التأثيرات في كتاب تاريخي يعتبر مرحلة انتقال بين

---

(١) الاندرم هو (الاندرون) وكلمة اندرون فارسية بمعنى (من في الداخل) . يقصد منها الذين يتربون ويعيشون داخل القصر السلطاني .

(١) ابن الامين اينال ، ابن الامين كنية المؤرخ القديمة ، واينال اسم العائلة الذي اختاره الرجال لوضعه في آخر اسمهم الاول ، عملا باحكام (قانون أسماء الاسر) التركي سنة ١٩٣٣ .

الاسلوبين القديم والحديث وهو كتاب **خير الله افنـدي** (١٨١٧ ــ ١٨٦٧) وهو مؤرخ تركي نابه الذكر ولد في استانبول من أسرة ظلت تخدم السلاطين دون انقطاع اكثر من ١٦٠ عاماً • نشأ المؤرخ نشأة دينية ثم اتجه نحو العلوم والتربية وشغل مناصب رفيعة في وزارة المعارف وعين أخيراً سفيراً في طهران (١٨٦٤) حيث توفي سنة (١٨٦٦) تعود شهرته الى تآليفه في التاريخ ، فله تاريخ مفصل للدولة العثمانية عنوانه (دولت عليه عثمانية تاريخي) • وكان همّ خير الله افندي ان يكتب التاريخ التركي بأجمعه في مصنف واحد متصل الحلقات • ولعله كان اول مؤرخ تركي حاول ان يتناول التاريخ التركي من ناحية مكانته بالنسبة لتاريخ العالم ، على عكس ما كان مألوفا الى ذلك الوقت عند اصحاب الحوليات من الترك الذين لم يخرجوا في تآليفهم عن المصادر والشؤون التركية دون سواها • وقد أصاب كذلك نجـاحا في كتابه (تاريخ عمومي) وهو تاريخ شامل للعالم من اثنين وثلاثين جزءاً لم يتمه ، واعتمد فيه على المصادر الفرنسية مع كتاب هامر بالاضافة الى المصادر التركية • وقد خص مجلداً من كتابه بالمقدمة وبالتاريخ المتقدم للدولة العثمانية ، وهو العهد السابق على حكم عثمان الاول • وقـد وضعت خطة الكتاب بحيث يختص كل سلطان بمجلد من مجلداته ، كما عرض في الوقت نفسه لحكام المسلمين والنصارى المعاصرين • ولغـة الكتاب بسيطة واضحة سهلة الفهم اذا قسناها بلغة المؤرخين السابقين الطنانة ، ويمتاز عنهم أيضاً ببعده عن المحاباة وعدم التحيز للثقافة غـير الاسلامية • وقد ظهر من هذا التاريخ خمسة عشر مجلداً فقط (١٨٥٣ ــ ١٨٦٤) تبدأ بعهد عثمان الاول وتنتهي بعهد أحمد الاول (١٦٠٣ ــ ١٦١٧) ثم توفي المؤرخ بعد ذلك •

واحمد راسم : كاتب تركي ولد عام ١٢٨٣ هـ / ١٨٥٦ م ، في صاري كوزل ونشأ يتيماً وشغف بالفن والادب وبدأ عمله صحفياً •

ويهمنا ما كتبه في التأريخ اذ كان يرى من واجبه ان يثير اهتمام مواطنيه بالتاريخ يعرضه بصورة شعبية • وفي البداية كتب راسم تاريخاً لروما القديمة (اسكي روما ليلر) وتاريخاً مختصراً للحضارة (تاريخ مختصر بشر سنة ١٣٠٤) وكتب تاريخاً لتركيا من عهد السلطان سليم الثالث الى عهد مراد الخامس في مجلدين بعنوان (استبداداان حاكميت ملليه) • واستعرض تاريخ تركيا في كتابه المفيد (عثمانلي تاريخي) في أربعة مجلدات (١٣٢٦ ـ ٣٠) وله ملحق من اربعة مجلدات عنوانه (شهر مكتوبلري) (١٣٢٨ ـ ١٣٢٩) ويضم (١٨٠) رسالة ، وفيها وصف رائع للحياة القديمة في استانبول على اختلاف صورها ، وقد بحث في كتابه (مناقب اسلام) الاعياد الاسلامية والمساجد وغيرها من الموضوعات الدينية •

وفي عام ١٨٦٦ نشر **احمد حلمي** المتوفى سنة ١٨٧٨ تاريخاً للعالم باسم (تاريخ عمومي) في مجلدين في استانبول (١٢٨٥ هـ) وهو ترجمة مطابقة لمؤلف (تشامبر Chamber) في التاريخ العام • وقد أدى تزايد الاهتمام بالثقافة الغربية الى ترجمة عدد من الكتب الاوربية ، وجعلت مثلا يحتذيه المؤلفون الاتراك فيما بعد • فقد شرع **احمد مدحت** الذي عاش بين (١٨٤١ ـ ١٩١٢) بنشر سلسلة من الكتب مقلداً سلسلة العالم (Univers) التي تصدر بالفرنسية ، وجعل اسمها (الكائنات) فصدرت في ١٥ مجلداً نشرت في استانبول (١٢٨٨ ـ ١٢٩٨) وقد لخص المؤلف او بالاحرى الناقل تاريخ كل بلد في مجلد صغير وجعل المجلد الاخير خاصا بالسلطنة العثمانية • وقد استقبلته الدوائر الثقافية التركية بالحفاوة • وكان لا بد من وضع مؤلفات تاريخية قصيرة واضحة بطلبة المدارس الجديدة ، وهذا بحد ذاته حافز آخر لتطور حركة التأليف التاريخي • وقام المثقفون الاتراك بهذه المهمة ، وأول محاولاتهم الناجحة في هذا الميدان تمت على يد

احمد وفيق باشا الذي عاش بين (١٨٢٣ ــ ١٨٩١) ؛ فقد وضع (فذلكة تاريخ عثماني) سنة (١٨٦٧) ونشر في استانبول سنة (١٢٨٦هـ) والمؤلف بحكم وضعه كابن لدبلوماسي تركي في باريس اتم تعليمه في العاصمة الفرنسية ، وتمكن من اعداد مؤلفه المذكور بموجب الاسس الفرنسية المعاصرة ، من حيث تقسيم التاريخ العثماني الى فصول ستة كل منها يقترن بمرحلة من مراحل تاريخ السلطنة منذ نشوئها واتساعها حتى انحطاط اوضاعها • حتى اذا جاء آخر المؤرخين الرسميين وهو **عبد الرحمن شريف** الذي عاش بين (١٨٣٣ ــ ١٩٢٥) وضع (تاريخ الدولة العثمانية) لطلبة المدارس الثانوية وجعله في مجلدين نشرهما بين (١٣٠٩ ــ ١٣١٢ هـ) • ونسج المؤلفون على منواله حتى بعد قيام الجمهورية التركية • ولا نلمس التأثير المنهجي الاوربي فيما وضع من مؤلفات تاريخية للمدارس والمعاهد فحسب بل نلمسه أيضاً في التآليف التاريخية المكتوبة للقارىء العام • وان مؤلفاً مثل **مصطفى نوري باشا** (١٨٢٤ ــ ١٨٩٠) استطاع ان ينهج نهجاً علمياً موضوعياً في كتابه المسمى (نتائج الوقوعات) برغم انه لا يتقن سوى اللغة التركية ولم يزر اوربا أبداً وقد نشر الكتاب في استانبول (١٢٩٤ ــ ١٣٢٧ هـ) وجاء في اربعة مجلدات •

وخطا التأليف التاريخي العثماني خطوة أخرى حين لم يقف عند دراسة مشاهير الرجال فحسب كما كان في السابق ، وانما اصبح يتجه تدريجياً لدراسة حوادث بلد او منطقة معينة • من ذلك ما كتبه **شاكر شوكت** عن تاريخ طرابزون ، وقد جاء في مجلدين نشرهما في استانبول(١٢٩٤هـ)•ومن ذلك أيضاً (مرآة الحرمين) **لايوب صبري باشا** المتوفي سنة ١٨٩٠ ويقع في ثلاث مجلدات نشرت في استانبول ١٣٠٩ هـ و (مرآة استانبول) **لمحمد رئيف** المتوفى سنة ١٩١٦ نشرت سنة ١٣١٤ هـ •

وتخطو حركة التأليف التاريخي خطوة اخرى حين ينصرف رجال الدولة البارزون الى كتابة مذكراتهم على نسق ما وجدوه في مذكرات رجال السياسة الاوربية • ويبدو ان ظريف باشا (١٨١٦ — ١٨٦١) كان أول رجل دولة يكتب مذكراته ، ولكن لم يقصد نشرها [١] • ولا بد ان الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ — ١٨٧٨) كانت مناسبة لظهور عدد من مذكرات القادة العثمانيين الذين شاركوا في هذه الحروب ، ربما لتبرير مسلكهم خلالها عن طريق تقاريرهم المتصلة بأحداثها • و (مجريات حياتي) **لأحمد مختار باشا** (١٨٣٢ — ١٩١٩) هي نموذج لهذه المذكرات • وكتب الصدر الاعظم (سعيد باشا) مذكراته ، وتلاه كامل باشا • هذا الى ان تنظيم المتحف السلطاني للآثار في استانبول ١٨٨١ دفع الدراسات التاريخية والآثارية الى الامام • وقد نشرت ستة مجلدات بعنوان (قائمة بالمسكوكات الاسلامية القديمة) في استانبول سنة (١٣٠٩ — ١٣٢٢) وقد قام باعدادها اسماعيل غالب (١٨٤٧ — ١٨٩٥) ومحمد مبارك واحمد توحيد الوصوي (١٨٦٨ — ١٩٤٠) • ونشرت كذلك قائمة مماثلة بالاختام الرصاصية المحفوظة في المتحف الامبراطوري على يد خليل ادهم ايلدم (١٨٦١ — ١٩٣٨) •

وامتد تأثير المنهج التاريخي الاوربي الى كتب المراجع فقد وضع شمس الدين سامي (١٨٥٠ — ١٩٠٤) موسوعة تاريخية جغرافية باسم « قاموس الاعلام » في ستة مجلدات نشرت في استانبول (١٠٣٦ — ١٣١٦) حاكى فيه الموسوعات الاوربية وأخذ مادتها من مصادر شرقية وأوربية مع عناية بالاسلام وخاصة بالسلطنة العثمانية •

كذلك تأثرت كتابة التواريخ في هذه الفترة بأفكار جماعة من المفكرين الاتراك الذين وجدوا المناداة بالقومية العثمانية وسيلة لوقف

---

(١) نشرها انور ضيا كارال مع مقدمة سنة ١٩٤٠.

تدهور السلطنة العثمانية المتداعية ، ولمقاومة التيار الانفصالي الذي أبدته الملل المسيحية الخاضعة للسلطنة ، وليقفوا أخيراً في وجه المطامع الاوربية الخافية والسافرة • وخير ممثل لهؤلاء المفكرين كان **نامق كمال** (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨) الذي نشر كتابه (اوراق بريشان)[١] وقد نشر في استانبول (١٢٨٨ ـ ١٣٠٥ هـ) وفيه يترجم لعدد من ابطال المسلمين ، ويبرز صلاح الدين الايوبي والسلطان محمد الثاني والسلطان سليم الاول والامير نوروز كنماذج مثلى للعقيدة الاسلامية • ان كل ما كتبه نامق كمال الذي يعتبر أباً للعثمانية في العالم العثماني كان يهدف دائماً الى استثارة روح الوطنية العثمانية المبنية على الحمية الاسلامية ، دون أن يذكر شيئاً عن الاتراك بوجه خاص • وان اعظم المنافحين عن بيضة الاسلام في نظر نامق كمال هما اثنان السلطان صلاح الدين الايوبي والامير نوروز : الاول ضد القوى المسيحية ، والثاني ضد المغول • أما محمد الثاني فهو مؤسس دولة اسلامية اقامها على قواعد صحيحة زادت قوتها عندما حصل سليم الاول على لقب الخلافة • وتبين من ذلك ان المؤلف كان منسجماً في كتابة تاريخه مع المشاعر والمثل السائدة في زمانه ، ولكنه توقف في سرد احداث تاريخه عند سنة ١٤٧٩ نظراً للرقابة المفروضة على المطبوعات في عهد السلطان عبد الحميد • وقد طبع الكتاب طبعة جديدة باسم (تاريخ عثماني) ونشر في استانبول (١٣٢٦ ـ ١٣٢٨ هـ) في أربعة مجلدات • ولكن فكرة الرابطة العثمانية لم تلبث ان حلت محلها فكرة تنادي بشعار (تركيا للاتراك) كما رأينا • فقد قدر لهذه الفكرة

---

(١) بريشان كلمة فارسية بمعنى متفرقة متناثرة ، ومعنى كتابه (اوراق متفرقة) وهو مجموعة من فصول قصار عقدها عن تاريخ العثمانيين وصلاح الدين الايوبي والسلطان سليم الاول وله (مدافعة) التي دحض بها تخرصات ارنست رينان الذي ذهب الى ان الاسلام دين يتعارض مع مع المدنية الحديثة .

أن تمارس تأثيراً على كتابة التاريخ لا سيما بعـد ان استمرت حركة تبسيط اللغة التركية وتخليصها من الدخيل ، وبعد أن نقلت مؤلفـات علماء اوربا الى اللغة التركية ، فأدى ذلك الى معرفة القديم من تاريخ الترك وثقافتهم • حتى اذا حدث الغزو الروسي لآسيا الوسطى (١٨٦٠) اتجهت انظار المثقفين الاتراك الى سكان هذه المناطق المسلمين الـذين يشاركون الترك في اصولهم التي انحدروا منها ، وهم الذين يؤلفون الفرع الشرقي القاطن في تركستان الصينية • واهتم المؤرخون الاتراك بالتاريخ السياسي والعسكري لـلاتراك القدامى أكثر من اهتمامهم بالنواحي الحضارية ، كما حرصوا على ابراز شأن الدويلات التركية الصغيرة التي قامت قبل نشوء السلطنة العثمانية في آسيا الصغرى • ولعل كتاب **نجيب عاصم** في تاريخ التراجم المنشور في استانبول ١٣١٦ يمثل بأجلى صورة العقيدة الطورانية التركية ، وقد اعتمد المؤلف فيه على كتاب فرنسي يشيد ببطولة الاتراك البدو في آسيا الوسطى • وقد عاش عاصم بين (١٨٦١ ــ ١٩٣٥) وزعم في كتابه ان التقاليد الاسلامية قد دفنت تاريخ هذه الجماعات التركية • وفي الوقت نفسه نشطت حركة خارج تركيا قام بها فتيان الترك وبدأوا يصورون القومية التركية من الوجهة السياسية ، فيبدأ الوعي القومي التركي بالظهور ويستنـد الى التاريخ والثقافة التركيين • وقضت ثورة (١٩٠٨) على رقابة النشر فأقبل الكتاب على التأليف ، ونقلوا الى التركية عدة تآليف أجنبية في الاجتماع والفلسفة والتاريخ ، فادركوا ان لهم تراثاً قومياً محترماً يتمثل بتاريخ الاتراك الشرقيين القديم • ولم يلبث نازع القومية التركية الصرفة ان طغى على العنصر التركي ، وكان ضيا كوك الب هو الذي عمل على دعم هذا التوجيه القومي ، وبعد موته (١٩٢٤) كانت أسس الدراسات التركية قد اتضحت واتخـذت وجهتها ، ولكن الـدعوة الطورانية جوبهت بالكارثة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى • على اننا

نجد علاقة واشجة بين التطلعات القومية للمفكرين الاتراك ، وبين الكتابات التاريخية التي نشرت هذه المرحلة ، ومن هنا كان اللقاء حتمياً بين المفكرين الاتراك وبين تاريخ تركستان .

أما مؤرخو الجمهورية التركية الحديثة فقد اقتدوا بفؤاد كوبريلي المولود سنة (١٨٩٠) وركزوا دراساتهم على الحضارة التركية القديمة ، وقد انشيء في جامعة استانبول (معهد التركيات) وترأسه (كوبريلي) .

وبعد ، فقد كان لفترة التنظيمات التي استمرت حتى قيام الجمهورية اثر بالغ في كتابة التاريخ العثماني ؛ فالاسلوب التقليدي لم يندثر بل استمر المؤرخون يتخذونه في كتاباتهم ، ولكنهم في الوقت نفسه أصبحوا يميلون نحو منهج البحث الاوروبي الحديث ، بحيث ان انظارهم انصرفت الى اوروبا ، فلا نكاد نميز بين مؤلفاتهم كتاباً يعتدّ به عن التاريخ الاسلامي ، في حين ان جميع كتب التاريخ العام كانت مهتمة بتاريخ دول اوربا الغربية الناهضة . وقد ذكرنا ما كان لكل ذلك من اثر على ظهور أنواع جديدة من الكتابة التاريخية كالمذكرات والدراسات الخاصة المفيدة ، وكان للعقيدة الطورانية الجديدة فضل في توسيع افق المؤرخين الاتراك . على انه ينبغي ان نسجل قصور هؤلاء المؤرخين في ميدان النقد التاريخي بمعناه المعروف من حيث عدم استيفاء مقتضيات البحث العلمي العصري (تثبيت النصوص القديمة وأصول نشرها وتحقيقها) ، ولكن من الانصاف الا تتوقع عملا ممتازاً من كتّاب ينقصهم التدريب والمران ، لأن أغلبهم كانوا من رجال الدولة أو من القادة العسكريين أو الصحفيين .

بدأت مرحلة جديدة من مراحل كتابة التاريخ العثماني لدى المؤرخين الاتراك المحدثين عندما تأسست لجنة التاريخ العثماني (تاريخ عثماني الجميني) بعد الدستور (١٩١١) برئاسة **عبد الرحمن شرف** آخر

المؤرخين الرسميين • ومن ذلك الحين بدأ المؤرخون يستفيدون من المحفوظات الضخمة المتراكمة في قصور استانبول ومكتباتها • ونشرت اللجنة في مجلتها ابحاثا كثيرة مستخرجة من محفوظات القصر السلطاني المعروف بـ (طوب قابي) ، كما اهتمت بنقل ما كتبه الغربيون الذين كانوا معاصرين لأهم الوقائع من التاريخ العثماني •

ومن ثم فقد غدا البحث التاريخي يعتمد على الخبراء المدربين الذين تلقى بعضهم علومه في كلية الآداب بجامعة استانبول التي تأسست سنة (١٩٠٠) • ومنذ الاربعينات من هذا القرن عكفت جمعية التاريخ التركي على كتابة التاريخ التركي باسلوب موثق حسب الاصول العلمية الحديثة •



الفصل العاشر

التاريخ والمؤرخون العرب في العصور الحديثة

تمهيد : خصائص الحياة الفكرية والعلمية في الاقطار العربية . ـ

احتفظ المجتمع العربي في العصر العثماني بمقوماته الاساسية السابقة من حيث انقسامه الى طوائف ، تقوم كل منها برعاية شؤون مصالحها فيما بينها ، ولم تكن علاقة هذه الطوائف بالدولة سوى علاقة محددة ضيقة للغاية . فالتعليم ، وهو مما يمس مباشرة الحياة العقلية ، كان حراً قبل عصر التنظيمات ، بمعنى انه لا تتولاه ادارة حكومية . ولكن نفقات التعليم واجور المعلمين كانت تدبر مما يحبسه أهل الخير من جميع طبقات المجتمع على معاهد العلم وكتاتيبه .

هذا الى أنه لم يكن للعثمانيين رصيد حضاري يلقحون به الحياة الفكرية في اقطار الوطن العربي الخاضعة لهم ، وان خضوع اكثر العرب للحكم العثماني لم يؤد الى قيام علاقات ثقافية أو اقتصادية بين مختلف أقطارهم أكثر توثيقاً مما كان الحال قبل الفتح العثماني[١] .

---

(١) في العصر المملوكي علت مكانة اللغة العربية فاصبحت لغة المكاتبات والمراسلات الرسمية ، واستقر المماليك في مصر والشام وشجعوا العلم وأكرموا الادباء والعلماء واصحاب المصنفات التاريخية والادبية ، على حين احتفظ العثمانيون بلسانهم التركي ، هذا الى بعد عاصمتهم استانبول عن الحواضر العربية وضعف وسائل الاتصال والانتقال ، وانعزال كل قطر بنفسه دون ان تكون للرحلة في سبيل العلم اهمية كالسابق ، الا في نطاق ضيق نلمسه بين العلماء الشوام وتركيا .

صحيح ان اللغة التركية أصبحت لغة التحرير لبعض أنواع المراسلات ، ولكنها لم تنتشر بين العرب اطلاقاً قبل عصر التنظيمات • أما بعد عصر التنظيمات في القرن التاسع عشر فالحال يختلف تماماً عن ذي قبل ولا يصعب تفسير ذلك ؛ فقبل التنظيمات والتجديد كان عمل الحكومة محدوداً جداً ويمكن لأغلب الناس ان يستغنوا تماماً عن تعلم اللغة التركية واستعمالها ؛ أما ابتداء من عصر التنظيمات فقد اتسع نطاق العمل الحكومي واصبح يمس حياة الفرد العادي في كل شيء تقريباً ، وأصبح للدولة نظام تعليمي يقوم على تدريس التركية ، فانتشرت بين العرب خلال القرن التاسع عشر على نحو لم يشهدوه في القرون الثلاثة السابقة له • ويهمنا ان نسجل هنا ان جمود الحياة الفكرية وركود الحركة العلمية لا يرجع الى تناقص عدد المدارس والمدرسين ونقص في الاوقاف المحبوسة على هذه المؤسسات العلمية ، ولكن يرجع الى ضعف المستوى العلمي نفسه ؛ فالركود كان مخيماً على الحياة العقلية والعلمية ، ولما جاء الفتح العثماني لم يحرك الأجواء العلمية الساكنة ، ولم يولد لدى طوائف المتعلمين ردود فعل انتاجية خصبة• وليس الذنب ذنب العثمانيين وحدهم ، فهم لم يقفوا في وجه العلم والتعليم ، ولم يحولوا دون الابتكار والتأليف ، بل انهم تركوا الحياة العلمية في الأقطار العربية تسير في مجراها المألوف القديم ، فأبقوا المدارس واوقافها، وفتحوا مدارس جديدة لرفع المستوى العلمي والديني • ولذلك نقول ان الاحتلال العثماني لم يكن وحده المسؤول عن ضعف الحياة العقلية ، وانما النزعة النقلية والمحافظة ، وفقدان روح الابتكار والخلق هي السبب في ضعف المستوى العلمي والعقلي • ومن مظاهر هذا الضعف انتشار الطرق الصوفية وزحفها على الحياة العقلية والاجتماعية ، حتى اذا تحولت أفكار المتصوفة من السمو الفلسفي الروحي الى طقوس الدراويش وكرامات الاولياء ، أصبح الناس يعتقدون بالشعوذة

والخرافات ، وغدا كل أبله ولياً وصالحاً ، وكل مجذوب شيخاً تلتمس بركاته وعمل الشيوخ الاحجبة والتعاويذ ، وانحط مستواهم الفكري الى مستوى العامة . ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية أيضاً التركيز بصفةمطلقةعلىالعلوم النقلية (الدينية) دون العلوم العقلية (الدنيوية) . والحق أن العثمانيين عملوا على مساندة هذا الوضع تدعيماً للاسلام والسنة خاصة وتقويتها ومحاربة التيارات الشيعية ، وكانت النتيجة اهمالا كاملا للعلوم العقلية ومنها التاريخ ، فجمدت القرائح وانحطت الآداب عموماً ، وندر نبوغ العلماء والمفكرين او المستنبطين فيها ، واكثر ما كتب في هذا العصر ، انما هو من قبيل الشروح والحواشي والتعاليق ، وشرح الشروح ونحوها . ولكن هذا الانحطاط في الحياة الفكرية العربية لا يعني قلة الانتاج وتوقف حركة التأليف التاريخي بقدر ما يعني انحطاط أسلوب الكتابة الذي تردى حتى أوشك ان يصبح عامياً كما في تغريبة بني هلال . وبرغم كثرة المؤلفات والمصنفات في العصر العثماني ، فانها كانت تتصف عموماً بقلة الاصالة والابتكار وضحالة الافكار وانعدام التنسيق والارتباط بين أقسامها ، بحيث انها كانت أشبه بالكشكول الذي يحتوي كل شيء ومن كل شيء . ومعظم ما كتب وألّف كان من قبيل الشروح الهامشية والتعاليق التي لا تأتي بجديد ، بل ان الخراب أخذ يزحف على المدارس القديمة التي كانت منائر العلم في الماضي ، فضلا عن ميل معظم رجال العلم الى التدليس وامتداح رجال السلطان مهما ضلوا وأفسدوا . وفي أحوال كهذه لا يمكن أن تزدهر الحياة الفكرية والادبية ، أو ينشأ ابتكار وأصالة في البحث التاريخي . فتدهور التاريخ كان يعكس في الواقع تدهوراً عاماً في الحياة العلمية ولا سيما فيما اصطلح على تسميته بالعلوم العقلية . ومن العوامل التي أدت أيضا الى انحطاط علم التاريخ ما نجم عن الاهمال والفتن والفساد والنزاع المسلح بين فرق الأجناد وغيرهم

من تلف مكتبات المدارس والجوامع ، وهنا يضطر مؤرخ كالجبرتي مثلا ان ينقل من أفواه المسنّين وعن صكوك الكتبة والمباشرين وعن نقوش القبور • فضلا عن تسرب الكتب التاريخية من مواضعها الاصلية في بلادها الى بلاد أخرى عقب الفتح العثماني ، فبعد أن عدّد المؤرخ الجبرتي كتب التاريخ التي يعرفها يقول : « وهذه صارت اسماء من غير مسميات ، فانا لم نر من ذلك كله الا بعض أجزاء مدشتة بقيت في بعض خزائن كتب الاوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي الصحافين وباعها القومة والمباشرون ، ونقلت الى بلاد المغرب والسودان » • (الجبرتي ١ : ٦) •

ولا شك في أن من اسباب تدهور علم التاريخ في العصر العثماني هو عدم اهتمام الخاصة بكتابة ودراسة التاريخ ، ونظرة عدم التقدير الى هذا النوع من المعرفة • ولم يكن الجبرتي وحده يشكو من هذه الحال ، فهناك المرادي المؤرخ الشامي شكا من ذلك أيضاً ، والكتاني المؤرخ المراكشي يعلن « قلة اعتناء أهل هذا المغرب بالتاريخ[1] » •

على ان هذا الحال لن يدوم ، فالأقطار العربية ستأخذ بأسباب النهضة الفكرية الحديثة حالما تتخلص من الاحتلال العثماني ، وستزدهر فيها حياة عقلية متزايدة الاهمية ، وخاصة في القرن العشرين • وسنبين خلال عرضنا لحركة التأليف التاريخي في كل قطر عربي أسلوب الكتابة التاريخية وموضوعها في ضوء ظروف كل قطر على حدة ، بقدر ما اتاحته لنا المصادر المتوفرة لدينا •

بعد هذا التمهيد الموجز عن خصائص الحياة الفكرية والعلمية في الاقطار العربية الخاضعة للحكم العثماني ، تنتقل الى موضوعنا عن

---

(١) انظر عجائب الآثار للجبرتي ٢ : ٥ ، وانظر سلوة الانفاس للكتاني ١ : ٣ •

التاريخ والمؤرخين العرب في العصور الحديثة ، فنستبق الموضوع بكلمة مجملة عن خصائص حركة التأليف التاريخي في العصر العثماني الذي الذي ينتهي بنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، ثم ننتقل بعد ذلك الى التفصيل •

خصائص التأليف التاريخي • ــ لن نستطيع بالطبع في الوقت الحاضر ، ان نصل الى جميع ما كتبه المؤرخون العرب في العصر العثماني لنعكف على تحليل مؤلفاتهم تحليلا مقارناً من حيث انها تتاج شامل لمرحلة من التاريخ العربي في العصور الحديثة ، ويرجع ذلك الى اننا نفتقر فعلا الى نشر هذه المؤلفات التي لا يزال معظمها مخطوطا ، وتحقيقها علمياً يمكننا من الحكم عليها والنظر فيها على انها تنطوي على محاولات مترددة ضعيفة لاحياء تقاليد المدرسة التاريخية الشهيرة التي عرفها العصر السابق للعصر العثماني في بعض الاقطار العربية وخاصة في مصر والشام• وبرغم ان هذا العصر العثماني الذي تتناول كتاباته التاريخية العربية الآن هو أكثر غنى في عدد التآليف التاريخية من سابقه العص المملوكي ، ولكن حركة التأليف التاريخي في العصر العثماني لم تبلغ قوة انتاج سابقتها ولا تنوع نشاطها او عدد المؤرخين الموسوعيين العظام فيها • ولذلك فسنحاول ــ في ضوء ما توفر لدينا من التواريخ العربية في العصر العثماني ــ أن نعطي صورة اولية لتطور علم التاريخ في الوطن العربي ، وسنرى ان ثمة ظواهر مشتركة بين المؤرخين وبين تآليفهم ، تماما كما كان الحال في الفترة السابقة للعصر العثماني • من ذلك مثلا أن المؤرخين في العصر العثماني ظلوا في الغالب يجمعون بين فن الكتابة في التاريخ والدراسات والتآليف المتنوعة • ومن ذلك أيضاً أن معظمهم كانوا يمارسون نظم الشعر ويوردونه في تضاعيف مؤلفاتهم في مناسبات شتى • وثمة ظاهرة مشتركة بارزة بين مؤرخي العصر العثماني من العرب هي انهم كانوا مقلدين لاسلافهم المتأخرين في التأليف التاريخي بالعالم

الاسلامي كله ، ولا تكاد شخصيتهم ترى الا بصعوبة من خـلال اخبار السلاطين والامراء ، واخبار العزل والولاية ، والتراجم والوفيات والحروب والفتن ، وبذلك لا تتضح امامنا الطرق لتفهم الحياة الفكرية في عصر المؤلف . هذا الى ان المؤلف نفسه قلما يتحلل من قيود تسجيل الاخبار ، ونادراً ما يتصدى للادلاء برأي خاص ، يستوي في ذلك المؤرخون في المشرق والمغرب من الوطن العربي ، أو يحاول ان يعلل الحوادث تعليلا عقلياً ، ويناقش بعض العيوب والنواقص نقاشاً حراً ، كما فعل أسلافهم من المؤرخين الاولين . على ان غثاثة تلك المؤلفات أو قوتها لا بد وان تنم عن شخصية مؤلفها ، ولا بد ان تلقي الضوء على شيء من هويته ودخيلته .

أما التعريف بمنهج الكتابة والتأليف عند مؤرخي العرب في العصر العثماني ، وتقدير مؤلفاتهم من حيث انها المصادر الاولية للتاريخ العربي الحديث ، فمن الضروري قبل الكلام في هذا المؤرخ أو ذاك ، ان نذكر باديء ذي بدء أن لفظ (تاريخ) في ذلك العصر وما سبقه ، كان يتسع لغير التاريخ من العلوم والفنون والمقاصد . فلم يميّز مؤرخو العصر العثماني ، تماماً كأسلافهم المتأخرين ، بين التاريخ والقصص والادب والوفيات والتراجم ونظم الحكم والمدونات اليومية ومعاجم الكتب .. واتبعوا طريقة الاستطراد في التأليف ، فلم يكن ثمة فارق في نظرهم بين التاريخ الصرف وبين الاقتصاد والاجتماع وخلافه . اذ يفتتح كل منهم كتابه بالبسملة والحمدلة والصلوات الطيبات ، ثم ينتقل غالباً الى شيء من التاريخ المختصر ، ثم الاقل اختصاراً ، وهكذا الى ان يصير الكتاب سجلا يومياً لما يقع في القطر وما حوله من الحوادث الكبرى والصغرى في زمن المؤلف . وقد يتخلل هذا السجل شيء عن اسعار المحاصيل والحاجيات ، او تفصيل جدل ادبي أو محنة مذهبية ، او تعديل في نظم الحكم وطوائف الاجناد ، أو وقف شيده سلطان او باشا ، أو نص

رسالة بعث بها ملك مجاور وجواب السلطان عليها ، فضلا عن الوفيات والتراجم التي تطول وتقصر بحسب مزاج الكاتب ومقاييسه ، وعلى قدر مكانة المترَجم له السياسية والاجتماعية •

وأخيراً لا بد من الاشارة الى سقم الاسلوب العربي الذي كتب به بعض مؤرخي العصر العثماني مؤلفاتهم • اذ تنوي كثرة كتاباتهم (وخاصة من ينتسب منهم للاجناد والعامة من الناس لا للمؤرخين العلماء) على تعابير وجمل ركيكة لا تمت للعربية الفصحى بصلة ، ومرد ذلك جزئيا الى ذيوع اللسان التركي بين طبقات الخاصة ، وتسرب كثير من الفاظ اللغات المجاورة كاليونانية واللاتينية وغيرها •• في مصطلحات الجيش والبحرية والدواوين •

وللبرهان على كل ما تقدم من ملاحظات حول موضوع التأليف التاريخي يجب الرجوع الى ما كتب المؤرخين الذين سنتناول بعضهم في بحثنا هذا ، أو الى مقدماتها على الاقل • وطبيعي ان لا يتيسر لنا ذلك على الوجه الاكمل ، ولذا نكتفي بايراد ما وصل الينا فوقفنا عليه فعلا ، أو ما اتصل بنا خبره فدونا ملاحظاتنا عنه بالرجوع الى مظان هذا البحث، وهي حقاً في غاية من النقص لا تفي مطلقاً بالغرض •

وبعد ان نوهنا بأهم تقاليد مدرسة التاريخ العربي في العصر العثماني، لا بد لنا قبل الشروع في تفصيلها من ان نعرض للملاحظات الايضاحية الثلاث التالية لتسهيل بحثنا :

أولا : رأينا أن نوزع حركة التأليف التاريخي على فترتين زمنيتين واضحتين : اولاهما تبدأ بالفتح العثماني في القرن السادس عشر وتنتهي ببداية القرن التاسع عشر ، وقد اصطلح على تسمية هذه الفترة بالعصر الحديث •

وثانيتهما تبدأ بمستهل القرن التاسع عشر وتنتهي في القرن العشرين،

وقد اصطلح على تسمية هذه الفترة بالعصر الحاضر أو المعاصر . ولهذا التقسيم ما يبرره وما يحتمه نظراً للظروف التي مرت بها أقطار الوطن العربي في المشرق خاصة ، وفي مصر والشام بوجه أخص ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، من حيث تعرضها ليقظة قومية وثقافية ، ولتيارات السياسة والاقتصاد العالمي ، مما أدى الى ان تتخذ الاحداث فيه شكلا حركياً ديناميكياً يختلف تماماً عن العصر الحديث السابق له الذي اتخذت أحداثه شكلا محلياً ساكناً قبل نزول الحملة الفرنسية في مصر .

٢ — وثاني الملاحظات هي انه لا بد من تقسيم موضوعات التأليف التاريخي في العصر العثماني الحديث بحسب الانواع او المدارس التالية لتسهيل بحثها ونقدها . وعلى الجملة فمن عرضنا لاهم هذه الكتابات التاريخية وجدنا انها تنحصر في احدى هاتين المدرستين التاليتين :

أ — ما يتصل بالسير والتراجم الفردية والجماعية والطبقات .

ب — ما يتصل بتواريخ البلاد والدول ، او ما يتصل بالتاريخ العام .

وسنشير الى ممثلي كل من هذه الانواع او المدارس التاريخية في سياق حديثنا عن المؤرخين ومؤلفاتهم ، ومعلوم ان مدرسة السير والتراجم ليست جديدة على المؤرخين العرب في العصر العثماني ، ولكنها نشطت في هذا العصر بشكل ملموس وخاصة في ديار الشام حيث اتخذت طابعاً قومياً جامعاً أشبه بطابع الوحدة الثقافية العربية ، في حين انها اتخذت طابعاً محلياً في الاقطار العربية الاخرى . ونحن اغنى الامم بكتب السيرة ، وأسبقها الى تدوين السيرة في مؤلفات متنوعة متعددة . فمن السير ما رُتب على طبقات ، بحيث لا تجد أهل فن أو علم أو مقصد أو فرقة ومذهب لم توضع طبقة او طبقات في تراجمهم . ومن السير ما تصدى الى تراجم الاعيان عامة دون الاقتصار على طبقة معينة . ومنها ما رتبت السير فيه على المشاهير في هذا القرن أو ذاك . فهذا كتاب في اعيان

القرن الثامن ، وذلك في أعيان القرن التاسع • اما كتب التراجم التي اقتصرت على سير الاعلام في قرن معين فهي أحدث عهدا من كتب الطبقات الاخرى ، وقد روعي في اكثرها ترتيب التراجم على حروف المعجم ، وأقدم المشهور منها يدور على سير أعيان القرن الثامن الهجري لابن حجر العسقلاني وهو كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » • ومدرسة التراجم والسير هي الغالبة على تواريخ علماء الشام ومصر • واشهر من يمثلها في القرن الثاني عشر الهجري محمد خليل المرادي • اما المؤرخون الآخرون فمنهم من ينتسب الى العلماء الذين ظلوا من حيث فهمهم للتاريخ أو طريقة كتابته متأثرين بمدرسة التاريخ الاسلامي ، وأشهر من يمثلهم في القرن الثاني عشر الهجري عبد الرحمن الجبرتي •

وأخيراً فثمة كتابات تاريخية تبتعد كثيراً عن مدرسة العلماء من حيث فهمها للتاريخ أو طريقة كتّابها ، ومن حيث فقدان اية خطة للبحث والكتابة لديها ، وانما هي أميل الى طريقة الكتابة الشعبية ، ويمثلها البديري الحلاق في الشام في القرن الثاني عشر الهجري ، والدمرداش كتخدا عزبان في مصر القرن الحادي عشر الهجري • والمادة التاريخيةالتي تقدمها فريدة في الاهمية لا يصل اليها المؤرخون الآخرون • ذلك ان مؤرخي هذه المدرسة التي نسميها مدرسة الاجناد والعامة ، لم تكن صناعتهم كتابة التاريخ او الاشتغال بالعلم ، بل كانوا يمارسون كتابة التاريخ كنوع من الهواية ، واشتهرت هذه المدرسة خاصة في مصر نظراً لحوادثها الحافلة في حقبة صراع البكوات المماليك على السلطة قبل الحملة الفرنسية وبعدها •

٣ ــ وثالث الملاحظات هي أنه لا بد من تقسيم حركة التأليف التاريخي في العصر العثماني الحديث بحسب المواطن التالية ، بحيث نبحث التاريخ والمؤرخين :

أ ــ في مصر والشــام •

ب ــ في الجزيرة العربية •

حـ ــ في العراق •

د ــ في المغرب والسودان •

وبحسب هذا التقسيم الاعتباري سنتناول موضوع التاريخ والمؤرخين العرب المحدثين حتى بداية القرن التاسع عشر ، وبعد ذلك تتناول هــذا الموضوع في كل قطر عربي على حدة ، وذلك منذ ان دب دبيب اليقظة الثقافية والقومية • وسنعرض للعوامل المختلفة التي كان لها أثر في تشكل حركة التأليف التاريخي في هذا القطر العربي او ذاك ، كلمــا اقتضى توضيح البحث ذلك •

التاريخ والمؤرخون (١) في مصر والشام في العصر العثماني حتى بداية القرن التاسع عشر : كان هــذان القطران العربيان يتأثران بأحداث سياسية واحدة تقريباً ، والرحلة بين علمائها متواصلة ، وسيتعرضان لمؤثرات النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر اكثر من جميع الاقطار العربية • ولذلك أفردنا لهما مبحثاً خاصاً يتناول التاريخ فيهمــا في القرنين التاسع عشر وبداية العشرين •

أ ــ مدرسة التراجم والسير • ــ نبدأ بها لا لانها الغالبة على كتابة التاريخ العربي في سائر عصوره فحسب ، بل أيضاً لان هذه المدرسة العريقة هي التي نشطت في العصر العثماني ، فكان منها هذه السلسلة الطويلة من كتب السير والتراجم واحتفظت هــذه المدرسة بقوتها لانها

---

(١) نقصد بالمؤرخين من الف تاريخا عاما او خاصا على الحوادث او التراجم نثرا او شعرا ، ومن الف في الطبقات على اختلاف ضروبها ومن الف في الوفيات وكذلك في الانساب والفضائل والخطط .

كانت ، على عكس الاخبار التاريخية ، لا تعتمد كثيراً على التقلبات السياسية •

وقبل أن نعرض لاهم هذه الكتب لا بد لنا من أن نسجل ان التفوق في هذا اللون من الكتابة التاريخية كان لمدرسة الشام ومدرسة دمشق بالذات ، ولا تقتصر اهميتها على ان مقام الصدارة كان لهـا ، وانما أيضاً لان مدارس التراجم في الشرق العربي قد تأثرت بها ؛ فالغزي صاحب « الكواكب السائرة » توطن دمشق حيث تلقى تعليمه فيها• وابن طولون الدمشقي حيث تلقى تعليمه فيها • وابن طولون الصالحي صاحب « ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر » كان دمشقياً وكذلك المرادي صاحب «سلك الدرر» ، وهنالك أيضاً الصفوري ومصطفى فتح الله والمحبي وغيرهم كثيرون • على أن مدرسة التراجم هذه لم تكن تقتصر في التراجم على بلاد الشام ، وانما كان كل واحد من روادها يكتب تراجم علماء العرب في الشرق العربي كله •

البوريني الدمشقي المتوفى ١٠٢٤/١٦١٥ ، وله مجموعة التراجم المسماة « تراجم الاعيان من ابناء الزمان » مرتبة على حروف المعجم •

وابن طولون الصالحي الدمشقي ٩٥٣هـ/١٥٤٥م وله مصنفات كثيرة أشهرها : « اعلام الورى فيمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الكبرى »•

والنعيمي الدمشقي المتوفى ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م وله : « الدارس في تاريخ المدارس » •

والحلبي القاهري المتوفى ١٠٤٠/١٦٣٤ ، له ترجمة النبي (ص) : « انسان العيون في سيرة الامين المأمون » • وتسمى بالسيرة الحلبية •

الغزي : المتوفى ١٠٦١/١٦٥١ هو محمد بن نجم الدين الغزي • له مؤلفات عديدة أهمها : « الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة »

رتب المؤلف فيه تراجم أعيانه على حروف المعجم باستثناء المحدين الذين وضعهم في أول كل طبقة • ويعنى خاصة بالترجمة لرجال الشريعة والافتاء والقضاء •

المحبي : الدمشقي : المتوفى ١٦٩٩/١١١١ هو محمد أمين بن فضل الله ، أهم آثاره التاريخية : « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » • اهتم فيه كالغزي بترجمة حياة كبار العلماء والتجار والأئمة والقضاة ، والكتاب مفيد يلقي ضوءاً على أحوال الشام ومصر خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر •

المرادي الدمشقي : المتوفى ١٢٠٦/١٧٩١ هو محمد خليل المرادي مفتي الحنفية بدمشق • وقد اكمل ما بدأه الغزي والمحبي من قبله • ويخص بالذكر العلماء والمتصوفة والنحاة واللغويين والشعراء والمدرسين ومن أجازهم من الاشياخ وما طالعوه من الكتب ، ومن تصدر منهم للتدريس في الجوامع والمدارس ، ويبين ترجمة هذا وذاك يسرد بعض احداث عصره ، ويستشهد بمنظوم الشعر ومنثور الحكماء والأئمة • وقد امتدت تراجمه على المجال العربي الاسلامي العام من مراكش الى العراق •

وهنالك أيضاً من كتاب التراجم والسير **محمد بن جمعة الدمشقي** عاش حوالي ١٧٤٣ وله « الباشات والقضاة في دمشق » منذ ١٥١٦/ ١٧٤٣ •

وابن القارىء وله « كتاب الوزراء » الذين حكموا دمشق •

ب ـ تواريخ البلاد والدول او التواريخ العامة في مصر والشام .

ان مؤلفي هذه التواريخ عموماً احتفظوا ببعض التقاليد التي ورثها العصر العثماني في الكتابة التاريخية ، ومن الطبيعي اننا لن نستطيع ان

نستعرض جميع المؤلفات التي وضعت في مصر والشام عن هذه الفترة ولذلك نكتفي باختيار أهم مثلي هذه المدرسة ، سواء أكانوا من المؤرخين التقليديين ، أم من الاجناد وغيرهم من طوائف الشعب • وسنحاول دراسة نماذج من كتاباتهم التاريخية التي استطعنا الوصول اليها سواء عن طريق مطالعتها محققة منشورة ، أم عن طريق قراءتها مخطوطة في مظانها وأماكنها ، والتي لم نستطع الوصول اليها المعنا اليها وذكرنا اسمها واسم مؤلفها وسنة وفاته ، وأشرنا الى موضوعها •

لقد ظهر في الشام وفي مصر عدد من المؤرخين في العصر العثماني ، ولكنهم في جملتهم لا يرقون الى مرتبة من سبقهم من مدرسة المؤرخين التقليديين وخاصة في القرن الخامس عشر ، كما ذكرنا • لقد افتتح العصر العثماني بمؤرخ كبير هو ابن اياس واختتم بمؤرخ أيضاً هو الجبرتي • وسنلم بابن اياس الماماً سريعاً على الرغم من انه ينتمي في نظر مؤرخي العصر المملوكي الى هذا العصر ، اكثر من انتمائه الى العصر العثماني مع أنه مات سنة ١٥٢٤ م أي بعد ان عاصر الفتح العثماني وأرخ له وللتنظيمات العثمانية التي تلته في مصر والشام • وسنرى ان ابن اياس يقف عند بداية العصر العثماني بحيث لا يصور لنا التحول الذي طرأ على المجتمع العربي في مصر ، اثناء انتقاله من العصر المملوكي الى العصر العثماني ، ومن هنا تأتي أهمية تواريخ القرن الحادي عشر الهجري التي تتناول هذا المجتمع في مصر والشام وقد أصبح عثمانياً ، فتصور الموقف من داخله ؛ ففي مصر مثلا تصور انهيار النظام العثماني في أوائل ذلك القرن ، ثم تدهور الباشوية المصرية لحساب الاوجاقات العثمانية ، ثم حوالي منتصفه تدهور الاوجاقات بدورها ، وبداية ظهور سيطرة البكوات المماليك حتى الحملة الفرنسية •

ابن اياس • — هو محمد بن أحمد بن اياس الحنفي ، لا نعرف عنه

الا ما كتبه هو عن نفسه . قال انه ولد في القاهرة سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ لأب كان من المحببين الى كثير من امراء الدولة واربابها . وحج ابن اياس سنة ١٤٧٧ م وشهد ما لقيه الحاج ذاك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة بسبب الكراهية بين السلطات المملوكية وبعض اهالي مكة . ونعلم انه كان لابن اياس اقطاع وافر يدر عليه دخلا كافياً جعله يستطيع أن يتوفر للكتابة والتأليف في التاريخ ونظم الشعر في مناسبات مختلفة . ويلاحظ انه كان أميناً لا تؤثر فيه عوامل الظروف ، ولا يحمل الضغينة لأحد أساء اليه بل يعترف بالحق ويشيد به ، ويتضح هذا من كتابته عن جميع السلاطين الذين عاصرهم في حكم مصر طوال حياته فانه يسجل لهم محاسنهم ، كما يعد عليهم مساوئهم ، مما يدل على أنه لم يكن له أية صلة رسمية بالبلاط السلطاني في أي وقت من الاوقات .

وكتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » كتبه على طريقة الحوليات الشائعة بين مؤرخي ذلك العصر ، وهو تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ طبع في مصر سنة ١٣١١ في ثلاثة أجزاء . فكان يدون الحوادث شهراً بعد شهر في الأجزاء غير المعاصرة من كتابه ، ثم يوماً بعد يوم في الاجزاء الاخيرة منه ، وفيه تفصيل فريد عن فتح العثمانيين لمصر سنة ٩٢٣ هـ لأن المؤلف كان شاهد عيان . وقد وصف ابن اياس أحوال مصر الداخلية ابان الفترة الأخيرة من الدولة المملوكية دون أن يركز اهتمامه على ناحية خاصة منها .

وابن اياس كان يكتب بلغة سهلة بسيطة أقرب الى العامية منها الى الفصحى وتزخر بكلمات دخيلة من الايرانية والتركية واليونانية وغيرها من اللغات المجاورة ولا سيما في ما له علاقة بالبلاط السلطاني والجيش والادارة .

وبوجه الاجمال فقارىء بدائع الزهور يفتقد الافاضة والتفصيل ،

غير أن اسلوب ابن اياس رغم اختصاره حتى في الأجزاء المعاصرة من كتابه ، مطبوع بطابع الذكاء والدقة ، و لاينكر انه كان على جانب عظيم من المقـدرة برغم صرامة احكامه من جهة ، فهو لم يكن من المؤيدين للسادة الجدد العثمانيين ولذا نلمس في كتابه عبارات وفيرة من النقد اللاذع والتحقير • ومن جهة اخرى فأمانته العلمية ودقته مشهودتان تجعلان كتابه المرجع الأول لفترة الفتح العثماني برغم أخطاء المؤلف أحياناً في ضبط الوفيات • وسنفتقد في المؤرخين بعد ابن اياس النظرة النافذة المتفحصة والمثابرة على جمع الحوادث والافاضة في عرضهـا وغير ذلك مما نعرفه في ابن اياس وتقاليد صناعة التاريخ في العصر المملوكي •

ومن المؤرخين الذين اهتموا بالتاريخ العام وأرخوا للقرن الحادي عشر الاسحاقي والبكري الصديقي من المؤرخين التقليديين ، وابن زنبل الرمال واحمد الدمرداش عزبان والبديري الحلاق من الأجناد وعامة الشعب •

الاسحاقي • — محمد بن عبدالمعطي بن أبيالفتح بن أحمد بن عبد الغني بن علي الاسحاقي المنوفي الشافعي من بلدة منوف بالقطر المصري وكان أديباً شاعراً ، وقاضياً عالماً مؤرخاً كثير النظم للشعر • ذكر المحبي ان له تاريخاً لطيفاً ورسائل كثيرة ، وأنه قرأ في بلده على كثير من العلماء • وكان يتردد الى القاهرة ويحضر على كثير من علمائها وشيوخها • فرغ من كتابة تاريخه المعـروف بتـاريخ الاسحاقي في سنة ١٠٣٣ هـ ، وهو بعنوان :

« لطائف أخبار الأوَل فيمن تصرَّف في مصر من ارباب الدول » رتبه على مقدمة وعشرة ابواب وخاتمة • وطبع في القاهرة عدة طبعات آخرها سنة ١٣٠٠ هـ وأرخ فيه لمن وليمصر من حكام منذ الفتح العربي

الى أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، وقد تحدث في المقدمة ـ شأن مجموعة المؤرخين من العلماء الذين كانوا متأثرين بمدرسة التاريخ الاسلامي ـ عن فضائل مصر وذكرها في كتاب الله وما ورد بشأنها من صحيح الأحاديث النبوية ، ثم تناول تاريخ مصر منذ أيام الخلفاء الراشدين والدول التي مرت عليها ، ويطيل في ذكر كل ذلك ويسهب ، حتى لا ينال تاريخ مصر الحديث في العصر العثماني سوى البابين الاخيرين التاسع والعاشر • وطريقة الاسحاقي انه يبدأ أولا بالكلام على كل سلطان من السلاطين العثمانيين في عرض سريع ، ثم يطيل الحديث عن تاريخ تعيين وعزل كل باشوات مصر وحكامها بالدقة المطلوبة ، وينوه بأهم ما انجز الباشا من أعمال في عهده ، وينهي تاريخه بعام ١٠٣٢ هـ آخر تولي ابراهيم باشا السلحدار •

ونلمس من خلال كتابته اهتماماً خاصاً بأسعار الحاجيات مما يفيد في تاريخ البلد الاقتصادي ، وكان يجري حوله من الشؤون السياسية ما يستأثر باهتمامه ، رغم أنه كان من طبقة العلماء البعيدة نسبياً عن غمار الاحداث ومجريات الصراع بين طوائف العسكر العثماني والعصبيات المسلحة الأخرى •

والاسحاقي الى ذلك يتحدث عن نفسه من خلال كتابته التاريخية فهو يجمع صفة المذكرات الى جانب التاريخ ، تماماً كما كان الحال عند سابقه ابن اياس وما سيكون عليه الحال عند لاحقيه البديري الحلاق والجبرتي • ونظرة الاسحاقي الى التاريخ تستحق الاهتمام • فالتاريخ لديه فن وليس علماً ، فن تنبغي الاحاطة به لا لما فيه من عناصر التشويق والامتاع والفكاهة والجديد ، وانما أيضاً لاضافة تجارب الاولين الى معرفة الانسان ، في سبيل فهم أفضل للحياة ومشاكلها •

ابن ابي السرور البكري الصديقي • ـ هو ابو عبد الله شمس الدين

محمد بن محمد بن ابي السرور البكري الصديقي ، مؤرخ عربي ولد بالقاهرة ١٠٠٥ هـ/١٥٩٦ م ومات بها حوالي عام ١٠٦٠ هـ / ١٦٥٠ م ، و لانعرف عنه الشيء الكثير ، ولكن يظهر أنه نشأ في بيت علم وثراء ونفوذ . ويفهم من حديث المؤرخ عن ابيه انه كان شيخاً للاسلام ، وشيخ الازهر كان يلقب بشيخ الاسلام ، ومن هنا كان المؤرخ مطلعاً على مجريات عصره وشؤونه واحداثه أكثر من زميله الاسحاقي المنقطع للعلم .

وله ثلاثة تواريخ ما زالت مخطوطة ، كتبها في التاريخ المصري وتعتبر مكملة لبعضها بعضاً وهي :

١ — « عيون الاخبار ونزهة الابصار » .

٢ — « النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » .

٣ — « المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية » .

أما « عيون الاخبار » فهو كتاب في التاريخ الاسلامي العام مع التركيز على تاريخ مصر . ذلك أنه يبدأ به من الخليقة الى دولة الجراكسة ، ويقع في تسعة عشر فصلا أو مقصداً : في شرف علم التاريخ وفيمن سكن الارض قبل آدم وقصة آدم ، وفي ذكر ملوك الفرس واليونان والروم ، وفي سيرة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين في الاندلس ، والدول الديلمية والفاطمية والسلجوقية والايوبية والتركية الى آخر دولة الجراكسة أي حتى نهاية عهد المماليك .

وأما « النزهة الزهية » فهو تاريخ مصر العثماني ، ويذكر فيه المؤلف باختصار خلفاء وملوك مصر ونوابهم منذ أقدم العصور الى زمن السلطان مراد ١٠٤٢ هـ ، وطريقة المؤلف في الجزء الخاص بمصر

العثمانية تتلخص في انه يذكر تولية كل وال أو باشا وتاريخ عزله ، وما جرى في زمنه من الاحداث كما يعنى بوصف الباشا وبوصف موقف الناس منه ، كما يعنى بذكر أسماء الاوجاقات ووظائف الادارة العثمانية وأسماء القضاة وتاريخ تعيينهم في مصر أو عزلهم ، ويختم المؤلف كتاب النزهة الزهية بما يشبه الكتابة في الخطط ، وذلك حين يتناول نهر النيل ومدن مصر ومنتزهاتها وعجائبها ومحاسنها وما ورد بشأنها في القرآن والحديث وما نظم فيها من الشعر .

واما « المنح الرحمانية » فهو تاريخ للدولة العثمانية يؤرخ فيه المؤلف لسلاطين آل عثمان حتى السلطان سليم الاول فاتح الشام ومصر ، ومنذ ذلك الحين يهتم المؤلف بذكر من حكم مصر من الولاة والباشوات في عهد كل سلطان قادم ، ويلاحظ أنما اورده مؤرخنا بشأن ولاة مصر لا يختلف في شيء عما ورد عنهم في النزهة الزهية .

وللبكري الصديقي كتابان آخران أحدهما في التاريخ واسمه « قطف الازهار » وهو خلاصة خطط المقريزي ، جاء في مقدمته ان المؤلف اطلع على خطط المقريزي فرآه اسهب فيها على غير ترتيب ، بحيث يصعب الكشف فيها عن المراد ، فاقتطف محاسنها وزاد عليها بعض الزيادات ، ورتبه على ٣٤ باباً .

والكتاب الآخر اسمه : « دور المعالي العالية في نور عثمانية » وهو كتاب في التصوف .

وطريقة الصديقي هي طريقة الاسحاقي في الكتابة : سرد الحوادث وفق عصر كل وال من الولاة العثمانيين . وبالقياس الى التآليف التاريخية المطولة السالفة يعتبر كلاهما ميالا الى الايجاز ، يعطي المعالم الرئيسية فقط للتطور السياسي في عصره .

ثمة فارق طفيف بين الرجلين . فالصديقي يسهب في سرد أحداثه

أكثر من الاسحاقي نظراً لوقوفه على الأحداث بشكل أفضل من زميله • وأمر آخر هو ان نظرة الصديقي الى التاريخ تتميز بأنها أكثر عمقاً ووضوحاً • يتبين ذلك من مطالعة المقصد الأول الذي يقصده للحديث عن شرف علم التاريخ •

فالتاريخ بما انه يعيد نفسه ـ في نظر الصديقي ـ فان من يقرأ اخباره يعيش نفس التجربة وصار كأنه قد عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها وباشر الاحوال بنفسه فيكبر عقله ويصير مجرباً للامور ، كما ان في قراءة أخبار الانبياء والرسل والعلماء والحكماء وسيرهم منفعة عظيمة لصلاح أمور الدين والدنيا • وتنعكس نظرة الرجلين الى التاريخ على موقفهما من الاحداث الجارية من حولهما ، وعلى الفكرة التي تهيمن على تاريخهما وهي أن الحاكم الصالح لا يشتط في ضرائبه على الناس ويعمل على استتباب الأمن •

وهناك جماعة من المؤرخين في العصر العثماني لم تكن منصرفة الى كتابة التاريخ أو الاشتغال بالعلم ، بل كان أغلب أفرادها من الاجناد ، كتبوا ما يشبه اليوميات ووصفوا حوادث عصرهم • وقد عرض الجبرتي لهذا النوع من الكتابات التاريخية في مقدمة كتابه عجائب الآثار ، وذلك حين أراد أن يضع أساساً تاريخياً لأحداث عصره التي شهدها ودونها مع تراجمها : « وأردت أن اوصله بشيء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش الا بعض كراريس سودها بعض العامة من الاجناد ركيكة التركيب مختلفة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص في مواضع من خلال بعض الوقائع » • وأفراد هذه الجماعة من المؤرخين يختلفون كثيراً عن جماعة العلماء التقليديين من المؤرخين سالفي الذكر لا في فهمهم للتاريخ أو في طريقة كتابته فحسب ، وانما أيضاً لانعدام الخطة والتنظيم في كتاباتهم التي هي أميل الى طريقة الكتابة الشعبية ، ولكن فائدتها فريدة في الاهمية • وأهم من يمثل هذه الجماعة من المؤرخين وأولهم

في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) **هو ابن زنبال الرمال .**

هو احمد بن ابي الحسن علي بن احمد نور الدين المحلي الشافعي ابن زنبـــل الرمال لا نعرف عنه الا انه كان موظفاً في ديوان الجيش العثماني حتى سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٣ حيث توفي ، وكان يتعاطى ضرب الرمل والتنجيم . وقد رافق جيش السلطان سليم أثناء الحروب التي خاضها لفتح الشام ومصر ، وقد حضر جنازة آخر المماليك طومان باي لتوزيع الصدقات على روحه بأمر سليم .

له « تاريخ أخذ مصر من الجراكسة » وهو سجل واف لحوادث الفتح العثماني من يوم خروج السلطان قانصوه الغوري من القاهرة لملاقاة العثمانيين في مرج دابق قرب حلب ، حتى رجوع السلطان سليم الاول الى الآستانة مظفراً ، ولا يزال هذا الكتاب مرجعاً من الدرجة الاولى حتى الآن .

ولابن زنبل كتاب في التاريخ باللغة التركية وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين في زمنه .

ولم يصل الينا شيء من كتابات هذا النوع من المؤرخين في القرن الحادي عشر ، ربما بسبب فقدان كتبهم ابان الحروب الاهلية أو الغزو الفرنسي لمصر . ويظهر عدد منهم في القرن الثاني عشر ولعل سبب ذلك راجع الى ان هذا القرن كان حافلا بأحداث الصراع بين طوائف الاجناد العثمانية والمماليك ، وأهم أفراد جماعة المؤرخين اجناد **احمد الدمرداش كتخدا عزبان** المتوفي بعد سنة ١١٦٩ هـ / ١٧٥٥ م ، ولا نعــرف عنه أكثر من أنه كان يتولى منصب الكتخدا بأوجاق عزبان ، كما تبين من لقبه . وهو يأتي بعد منصب الآغا قائد هذا الأوجاق الذي يلي اوجاق الانكشارية في المرتبة بالقطر المصري عهدئذ .

وقد وضع المؤلف « الدرة المصانة في أخبار الكنانة » ــ وهي

مخطوطة ضخمة في جــزئين بالمتحف البريطاني وتتناول تاريخ مصر السياسي منذ بداية القرن الثـاني عشر الهجــري (١٠٩٩ هـ) حتى (١١٦٩ هـ) ولعله توفي حوالي هذا العام لأنه كتب في آخر مؤلفه : « هذا وقد نهيت تاريخي على ذلك وان أعطاني الله عمراً زدته مما أراه عياناً » • وعلى ذلك فمؤلفه أقرب للمذكرات عمـا يجري حوله من الاحداث ، منها الى التحقيق التاريخي •

وتبدو أهمية الكتاب بالنواحي الآتية : أولا ان الفترة التي عاشها المؤلف ، وهي النصف الاول من القرن الثاني عشر الهجري هي فترة غنية في احداث التطور السياسي لمصر العثمانية لأنها الفترة التي شهدت الصراع المرير بين طوائف الجند العثماني ، وانهيار النظام الذي أسسه السلطان سليم وسليمان ، والذي انتهى بسيطرة البكوات المماليك • فاذا أضفنا الى ذلك ان الجبرتي بدأ يكتب تاريخه بدقة منذ ١١٩٠ هـ ، أدركنا أهمية تاريخ الدمرداش من حيث تكميله لتاريخ الجبرتي •

وثانياً : ان المؤلف شارك في هــذه الاحداث ولذا تتميز كتابته بالادراك العميق والاحاطة الواسعة بالانقسامات والعصبيات العثمانية والمملوكية العسكرية المسلحة ، وهذه تلخص التاريخ المحلي السياسي للبلد ووصف ما دار على مسرحه من نزاع حول السلطة •

هذا الى ان الكتاب يتضمن ثروة من المصطلحات العسكرية والادارية والمالية الخاصة بالعصر العثماني كما يتضمن أسعار الحاجيات وصورة للتقاليد الوطنية والعادات الاهلية والدينية •

ثالثاً : ان الكتاب الى ذلك يصور بدقة البناء العثماني في مصر ، ويصف تركيب المجتمع المصري عهدئذ ؛ ففي الكتاب نصوص تصور جميع أفراد المجتمع على اختلاف حرفهم وأعمالهم ومذاهبهم ، فالدولة تعترف بأفراد الحرفة مهما انحطت مكانتها في المجتمع وتحترمها وتتعامل معها •

ولا حاجة الى القول ان كتاب الدمرداش مكتوب بلغة أقرب للعامية منها للفصحى .

وهنالك جماعة من عامة الناس ومن الكهنة كتبوا ما يشبه اليوميات ، ووصفوا حوادث عصرهم ، وابرزهم **احمد البديري الحلاق** : لا نعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته لان كتب التراجم لم تترجم له ، فقد كان أحد أبناء العامة في دمشق . وهو مؤلف كتاب « حوادث دمشق اليومية » واسم جامع الحوادث الكامل هو : شهاب الدين أحمد بن بدير البديري الشهير بالحلاق ، ولم يقصد بالطبع أن يدون بها تاريخاً لبلده ، لأن هذا العمل فوق ما تحتمله ثقافة الرجل ، ولكنه شهد على المسرح الدمشقي أحداثاً تأثر بها فسجل ما شهد وما سمع يوماً بعد آخر ، لم يدفعه الى ذلك اغواء كبير من الكبراء ، أو حظوة يطمع بها عند حاكم من الحكام ، وانما الرغبة في التسجيل خشية النسيان أو هواية الكتابة والتعبير عن المشاعر ، والتفصيل عن كامن العاطفة ، والبوح برأيه في الناس والحكام ، أو الرغبة في افادة الناس من بعده على نحو ما عرف من تواريخ الماضين ، ولذا جاءت يومياته صورة معبرة زاهية وصادقة عن قطاع من الحياة السياسية والاجتماعية في دمشق في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي . ويبدو من ملاحظاتنا لهذه اليوميات أن صاحبها أقبل على تدوينها بعد ان استوفى نضجه واتسعت دائرة معارفه وعمقت تجاربه ، وساعدته مهنة الحلاقة التي كان يمارسها على ان يخالط الناس ويسمع عنهم كثيراً من الروايات والأخبار . ونلاحظ أيضاً ان البديري نشأ في بيئة متدينة فقيرة ، ونهل من الثقافة الصوفية الشائعة في أيامه ، ونظم الشعر الشعبي (المواليا) في أغراض مختلفة .

وأبرز موضوعات الكتاب وأكثرها استئثاراً باهتمام المؤلف هي الموضوعات الثلاثة التالية :

١ ـ باشوات الشام من آل العظم ، وقد شغلت الجانب الاكبر من اهتمام البديري وخاصة في عهد وزيرين هما سليمان باشا واسعد باشا كما ذكر البديري طرفاً من أخبار بعض الباشوات الآخرين من أمرة العظم ممن تولوا باشويات أخرى في ديار الشام •

٢ ـ طوائف الأجناد في دمشق ، وقد شغلت أنباء فتنها المسلحة كثيراً من صفحات الكتاب •

٣ ـ الحج الشامي : وقد استأثرت أنباء خروج قافلته وعودتها وما جرى لها في الطريق بجانب لا يستهان به من اهتمام البديري ومن اهتمام الناس جميعاً •

اسطفان الدويهي • ـ عاش بين (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤) ذهب الى روما حيث تلقى تعليمه في مدرسة اللاهوت المارونية التي أسسها البابا غريغوريوس الثالث عشر لتدريب الطلبة الموارنة على حياة الكنيسة ، وكانت سنه يومها احدى عشرة ، وبقي في روما اربع عشرة سنة ، ثم ما زال يتدرج في مناصب الكهنوت الماروني حتى أصبح بطريرك الموارنة ، ويعتبر من أهم المؤرخين الاكليركيين • وقد ألف عدة كتب تاريخية كان موضوعها منصرفاً الى الطائفة الدينية التي ينتمي اليها ، واهتمامه ، مع بقية المؤرخين الموارنة في هذا العصر العثماني ، كان مركزاً على القول بأن كنيستهم المارونية الموحدة ثابتة دائماً على الكاثوليكية ، وانها لم تقبل أبداً الهرطقة الموحدة القائلة بأن للسيد المسيح مشيئة وطبيعة واحدة •

وقد كتب عدة كتب :

١ ـ تاريخ الطائفة المارونية •

٢ ـ سلسة بطاركة الطائفة المارونية •

٣ ـ « تاريخ الازمنة » ، وهو أهمها • وتحوي الكتب السابقة بعض أجزائه ، والمؤلف يركز فيه خاصة على تاريخ جبل لبنان وعلاقاته بحكام المناطق المجاورة حتى زمن المماليك والعثمانيين • والكتاب حافل بأخبار القرنين الأخيرين منه • وقد اعتمد الدويهي في كتابته على مجموعة من المصادر ، فأثبت أسماء أصحابها مثل ابن سبط في كتابه عن التنوخيين في منطقة الغرب في جبل لبنان، وأحمد الخالدي الصفدي المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ من أجل تاريخ الامير فخر الدين المعني وولده ، ووليم الصوري من أجل تاريخ الصليبيين ، كما أفاد أيضاً من كتب الكنيسة المارونية ومن محفوظات الفاتيكان • والدويهي لا يهتم بتاريخ الموارنة كجماعة سياسية تتعامل مع غيرها فحسب ، بل على انها حاملة مباديء وثقافة معينة • وفي رأيه مثلا ان المسيحيين اليعاقبة ، الذين تسربوا الى لبنان في القرن الخامس ، لا يقل عداؤهم للموارنة عن عداء الجيوش المملوكة ، والدويهي في ذلك لا يختلف عن الكتاب الذين لم يكتبوا التاريخ من أجل التاريخ • وعلى ذلك فاهتمامهم بالكنيسة المارونية وماضيها كان تعبيراً عن حركة الفكر الكاثوليكي الجديدة التي نشطت في أوساط الكنيسة المارونية ، والتي تناولت في مجال التاريخ ، الاهتمام بالتاريخ العربي والثقافة العربية بكاملها، وبتاريخ وآداب المسيحية الشرقية جميعها ، وذلك لابراز دور الموارنة في الدفاع عن نصرانيتهم الدائمة ، وفي حفظ الكاثوليكية ونشرها في المشرق العربي •

ومن كتّاب تواريخ البلاد والدول ، والتواريخ العامة في الشام ومصر :

شهاب الدين المنوفي • ـ ابو العباس احمد بن محمد بن عبد السلام شهاب الدين المنوفي الشافعي • ولد في منوف سنة

٨٤٧هـ / ١٤٤٣ م وتلق ىتعليمه في القاهر ةواصبح قاضياً في بلده منوف ، وتوفي سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٧ م له :

١ ــ « الفيض المديد في أخبار النيل السديد » .

٢ ــ « البدر الطالع من الضوء اللامع » وهو مختصر الضوء اللامع للسخاوي .

نور الدين المنهاجي او الصهناجي : المتوفى نحو سنة ٩٦٦ هـ هو نور الدين أو بدر الدين محمد بن يوسف جمال بن عبد العزيز المنهاجي (الصهاجي) خطيب جامع السيدة نفيسة بالقاهرة ، كتب حوالي ٩٦٠ / ١٥٥٣ .

١ ــ « البدور السافرة فيمن ولي القاهرة » ــ وهي ارجوزة فيها أخبار من ولي حكم القاهرة من الباشوات منذ الفتح العثماني حتى سنة ٩٥٦ هـ .

٢ ــ « النجوم الزاهرة في ولاة القاهرة » ــ وهي ارجوزة اخرى تقع في مائتي بيت ، تتضمن اسماء ولاة القاهرة منذ الفتح حتى سنة ٩٦١ هـ .

ابن الحنبلي : هو محمد بن ابراهيم بن يوسف بن عبدالرحمن بن الحسن الحلبي الربعي التاذفي (نسبة الى تاذف من اعمال حلب) الحنبلي القادري ، من أحفاد ابن الشحنة ، توفي في حلب بعد سنة ٩٧١ هـ ، وألف في العلوم المختلفة ، ويهمنا من مؤلفاته التاريخية :

١ ــ « الزبد والضَرب في تاريخ حلب » ــ وهو مختصر تاريخ ابن العديم مع ذيل الى سنة ٩٥١ هـ .

٢ ــ « در الحَبَب في تاريخ أعيان حلب » ــ وهو تراجم مشاهير حلب في عصره .

عبد الواحد الرشيدي : المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦١٤ م كان امام برج المغيزل من أعمال رشيد بالقطر المصري ، مولده بها ، وقد ينسب اليها فيقال له البرجي ، وفاته بالقاهرة ، له « نزهة المسامرة في أخبار مصر والقاهرة » ذكر فيه الوزراء العثمانيين الذين تولوا مصر •

ابن كنان الدمشقي : هو محمد بن عيسى بن محمود بن كنـان الحنبلي الدمشقي الصالحاني الخلوتي ، أحد العلماء الأئمة في دمشق ولد سنة ١٠٧٤ هـ / ١٩٦٦٣ م ونشأ في كنف والده وأخذ عنه العلم وقرأ وأجيز على يد كثير من الفضلاء ولما توفي والده صار مكانه شيخاً واستقام الى أن مات سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وألف التاريخ الذي جمعه بالحوادث اليومية ، وقد طالعه المرادي ، واستفاد منه ، ويقول في وصفه : « وهو تاريخ اشتمل على الحوادث الصادرة في الأيام مع ايراد وفيات ومناسبات وفوائد » •

له : ١ ــ « الحوادث اليومية في تاريخ احد عشر وألف وميّة » ، وهي يومية من محرم سنة ١١١١ هـ الى آخر سنة ١١٣٤ هـ جاء فيهـا وصف حوادث السلاطين والقضاة والباشوات في الشام ، وما رافق ذلك من الحوادث المهمة للمشاهير من العلماء والشعراء •

٢ ــ « حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين » ــ من حيث أساليب مخالطتهم ومعاملتهم •

٣ ــ « المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية » في وصف الشام •

٤ ــ « تاريخ معاهد العلم في دمشق » ــ المدارس •

٥ ــ « المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية » •

الجنابي : هو ابو محمد مصطفى بن حسن بن سنان بن احمد

الحسيني الهاشمي الجنابي ، مؤرخ عربي ولد في جنابة من أعمال فارس وولي القضاء في حلب ، وتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م بعد ان صرف من منصبه • وألف الجنابي تاريخاً لاثنتين وثلاثين اسرة اسلامية حتى سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٨٨ م ورتبه على اثنين وثلاثين فصلا ، وجعله بعنوان :

« العَيْلَمْ الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر » ، ويعرف عادة بتاريخ الجنابي • وقد قام الجنابي نفسه بنقل هذا الكتاب الى اللغة التركية ، وقد طبع منه قطعة في فينا سنة ١٦٨٠ م تتعلق بتيمورلنك مع ترجمتها التركية والفارسية واللاتينية •

القرماني : هو أبو العباس ، أحمد بن سنان بن يوسف بن أحمد الدمشقي القرماني • ولد في دمشق سنة ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢ م ، وكان أبوه ناظراً على المارستان (الدمشقي) النوري والجامع الاموي ، فأساء استعمال وظيفته ثم قتل • وأصبح المؤرخ كاتباً في ديوان الاوقاف ثم رئيساً له بدمشق ، وله :

١ — « أخبار الدُّوَل وآثار الاوَل » وهو تاريخ عام للدول الاسلامية في المشرق والمغرب ، مع مقدمة في التاريخ القديم •

السمعاني : يوسف سمعان عاش بين (١٦٨٧ — ١٧٦٨) ، من أشهر خريجي الكلية المارونية في روما ، ولد بطرابلس من اسرة أصلها من حصرون • ذهب الى روما في الثامنة من عمره ، وكان واقفاً على لغات عديدة ، وقام برحلتين الى بلدان الشرق الادنى لجمع المخطوطات ، وعاد ومعه ثروة عظيمة منها ، فعكف على تأليف كتابه عن « المكتبة الشرقية » Bibliotheca Orientalis • كتبه باللاتينية ودوّن فيه المخطوطات القديمة باللغتين العربية والسريانية وغيرها ، مع ترجمة حياة مؤلف كل مخطوط مقرونة بالحواشي والتعاليق • وطبع فيها ٤ أجزاء في روما (١٧١٩ —

١٧٢٨) عن الآداب اللاهوتية المارونية والنسطورية واليعقوبية وبرغم ان الكتاب لم يكتمل الا أنه كان له أثر في فتح أعين اوربا على تاريخ وآداب بلاد الشرق ، وقد عمل المؤلف محافظاً لمكتبة الفاتيكان . وللسمعاني كتاب آخر « أصل الرهبان في لبنان » . طبع في روما ١٨٤١ م واكثر مؤلفات السمعاني في تاريخ المسيحية الشرقية وعقائدها التي نشأ بين أحضانها .

وبعد فينبغي ان ننتظر القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) لنشهد عودة الروح الى المدرسة التاريخية العربية القديمة متمثلة في الجبرتي في مصر وحيدر احمد الشهابي في سورية والزياني والسلاوي في المغرب الأقصى وغيرهم ..



الفصل الحادي عشر

التاريخ والمؤرخون في مصر والشام منذ القرن التاسع عشر

١ ـ التاريخ والمؤرخون في مصر

لم تقم حركة التأليف التاريخي بمصر على اكتاف مؤرخين مختصين أعدوا لدراسة التاريخ وتدريسه والتأليف فيه ، فاذا استثنينا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ، الذي حصر جهوده في التأليف التاريخي، ورفاعة الذي أعد نفسه للكتابة التاريخية ، وجدنا ان بقية المؤرخين المصريين في القرن التاسع عشر تأثروا أصلاً بألوان متعددة من الثقافة في القانون أو الهندسة أو الأدب أو الحرب ، أو العلوم الدينية ، وقد مالوا الى التاريخ فانصرفوا الى كتابته • ولكن هذا الوضع يتغير في العقد الثاني من القرن العشرين ، اذ ستوفد بعثات من خريجي مدرسة المعلمين العليا الى جامعات اوربا للتخصص في دراسة التاريخ ، ثم تفتح الجامعة المصرية الحكومية أبوابها سنة ١٩٢٥ ، وينشأ فيها قسم خاص بالتاريخ في جميع فروعه ، ويقوم بالتدريس فيه أولا عدد من أساتذة التاريخ الاوربيين ، وعدد من مبعوثي المعلمين العليا بعد عودتهم ، ليكونوا نواة المدرسة التاريخية في مصر •

وسنعرض فيما يلي للمؤرخين في مصر ، ونبدأ بأعظمهم في القرن التاسع عشر وهو الجبرتي •

عبد الرحمن الجبرتي : (١٧٥٤ هـ ــ ١٨٢٥ م) الجبرتي هو أول من عمل على احياء حركة التأليف التاريخي في مصر بعد أن توقفت عجلتها في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، فكان أول من تابع الكتابة التاريخية بعد ابن اياس وابن زُنبل الرَّمال . وبرغم انه عاش معظم سني حياته في القرن الثامن عشر ، فقد ادرك القرن التاسع عشر بل عاش وشهد أحداثاً هامة جداً في الربع الاول منه ، اذ شهد مقدم الحملة الفرنسية وما وقع في مصر خلال فترة بقائها وخروجها . وشهد الصراع الذي أدى الى حكم محمد علي في مصر ، وقد عاصر أيضاً السنوات الاولى من حكم هذا الباشا ، وقد أرخ هذا كله في كتابيه القيمين : (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) و « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ، ففي الاول يبدو فيه كاتب مذكرات أكثر منه مؤرخ .

نشأ مؤرخنا في بيت علم ، فقد كان والده الشيخ حسن الجبرتي من كبار علماء زمنه ، مستبحراً في علوم الشرع والرياضيات وكان يتقن اللغتين التركية والفارسية ، هذا الى ولع خاص بعلوم الهندسة والحساب والجغرافية ، وكان يدرس في الازهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت ، وكان يبيح لتلاميذه المقربين مكتبة داره العامرة بالكتب النفيسة وباللغات الثلاث . ودرس مؤرخنا على والده وعلى أصدقائه وشيوخ العصر ، وفي مقدمتهم السيد محمد المرتضى الزبيدي . وورث عن أبيه ثروة كبيرة فتفرغ للعلم والدراسة وكان وقته موزعاً بين حلقات الازهر وبين مكتبة داره . وقد اتصل الجبرتي بعلماء الحملة الفرنسية وأعجب بمكتبتهم وتجاربهم العلمية ، واختاره الجنرال (مينو) عضوا في الديوان .

وقدذكر الجبرتي أن سبب تأليفه كتابه هذا هو ان المرادي مؤرخ الشام بعث برسالة الى الشيخ محمد مرتضى الزبيدي يسأله فيها أن

يمده بتراجم المصريين الذين عاشوا في القرن الثاني عشر • فكلف الزبيدي بذلك تلميذه عبدالرحمن الجبرتي ، وجمع هذا ما تيسر جمعه من التراجم وحملها الى أستاذه ، فأرسل الزبيدي بعضها الى صديقه المرادي وأفاد من البعض الآخر في وضع معجمه (المعجم المختص) ولما توفي الزبيدي اشترى الجبرتي ما أراد من مكتبته التي بيعت بالمزاد ، فوجد هذه التراجم وغيرها من مسودات الشيخ ورسائله وأوراقه ضمن ما اشترى ، وأفاد منها كثيراً عند تأليف كتابه عجائب الآثار • ووصلت الجبرتي هدية من المرادي مقرونة برسالة يطلب فيها تحصيل ما جمعه الزبيدي من أوراقه وضم ما جمعه الجبرتي وارساله • وجمع مؤرخنا مسوداته وزاد فيها وهي تراجم فقط دون الاخبار والوقائع • وفي أثناء ذلك ورد علينا نعي المترجم (المرادي) « ففترت الهمة ، وطرحت تلك الاوراق في زوايا الاهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع ، الى ان حصل عندي باعث من نفسي على جمعها ، مع ضم الوقائع والحوادث والمتجددات على هذا النسق » • وهذا يفسر لنا تسمية تاريخ الجبرتي •

وللجبرتي كتاب آخر عنوانه : « مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس » • وهو يسجل في شكل مذكرات يومية الاحداث ابان الحكم الفرنسي لمصر ويذكر الجبرتي أن صديقه الشيخ حسن العطار قد شاركه في تأليفه ، ويبدو أن معظم مشاركته اقتصرت على مقطوعات من الشعر • ويتفق ما كتب الجبرتي في « مظهر التقديس » مع ماكتبه في « عجائب الآثار » عن عهد الحملة الفرنسية • والفروق بين المؤلفين ضئيلة لا تجاوز الحذف والزيادة • ولكن الفرق الهام هو أنه يحمل على الفرنسيين في مظهر التقديس ويعلن الفرح لجلائهم عن مصر ، في حين ان ما كتبه عنهم في « عجائب الآثار » يتسم بالاعتدال بل والتقدير لأعمالهم أحياناً • ولهذا الفرق ما يفسره • ذلك ان الجبرتي كتب

أجزاءاً من هذا الكتاب أثناء وقوعها ، فهو يسجل ويقدر تارة أخرى • أما مظهر التقديس فقد كتبه الجبرتي ونفسه مفعمة بمشاعر الوطنية والقوميـــة •

الشيخ عبد الله الشرقاوي : هو عبد الله بن حجازي بن ابراهيم الشرقاوي ، ولد بعد سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م وتعلم في الازهر وعاش في البدء معيشة الفقر والحرمان وخلف الشيخ العروسي في مشيخة الازهر ، ثم تزوج وأثرى واصبح رئيس الديوان الذي شكله بونابرت ، ومات في الازهر في مجتمع كبير بسكتة قلبية ١١٥٧ هـ / ١٨١٢ م ، وقد كتب رسالة خطيرة تاريخية سماها : « تحفـــة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين » وتقع في ٥٦ صفحة وطبعت في القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٢٩ م ورتبها على مقدمة وثلاثة أبواب • وهي عن تاريخ مصر منذ الاسلام حتى السلطان سليم الثالث والحملة الفرنسية• والكتاب قليل القيمة وموجز جداً وينقل فيه المؤلف عمن سبقه من المؤرخين وخاصة من (حسن المحاضرة) للسيوطي • ولعل أهم ما فيه الفصل الذي عرض فيه للحملة الفرنسية وأهم احداثها وأعمالها من ص (٥٤ ــ ٥٩) • كما كتب « التحفة البهية في طبقات الشافعية » ، ابتداءاً من القرن التاسع حتى سنة ١٢٢١ هـ •

الشيخ اسماعيل الخشاب : صديق للجبرتي ، كان يجلس بدكان أبيه سعد النجار ، حاد الذهن كثير الحفظ وله نظم رائق • اتصل برجال الحملة الفرنسية وعلمائها ، ثم اختير ليكون أميناً لمحفوظـــات الديوان ، يسجل مضابطه • وقد حاول ان يضع تاريخاً لمصر في هـــذه الحقبة معتمداً على ما تحت يده من محاضر الديوان وسجلاته • ولا نكاد نسمع عن مشروع كتابه هذا الا ما ذكره الجبرتي في قوله : « فجمع (أي الخشاب) من ذلك عدة كراريس لا أدري ما فعـــل بها » • ولو وصلنا هذا الكتاب لأمدنا بمادة غزيرة عن تاريخ مصر

في عهد الحملة الفرنسية ، وعن الديوان الذي انشأه الفرنسيون ومدى اختصاصه وأثره في حكم مصر والمصريين • وللخشاب كتاب مخطوط آخر اسمه « تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة ١١٢٠ (١٧٠٨) الى دخول الفرنسيس » •

الشيخ خليل ابن أحمد الرجبي : لا نعرف ما يستحق الذكر عن تاريخ حياته • وضع مخطوطة عنوانها : « تاريخ محمد علي باشا » وكما يبدو من اسمها أرخ المؤلف لاصلاحات محمد علي الداخلية وسياسته الخارجية ، وذكر حروبه مع الوهابيين • والكتب يقع في سبع مقالات ومقدمة وخاتمة • والكتاب بمجمله تقريظ لمحمد علي وتمجيد لاعماله• ولعل المؤلف وضع الكتاب ليعارض به ما كتبه الجبرتي في نقد بعض أعمال محمد علي •

• • •

اعتمدت الكتابة التاريخية في عصر محمد علي اعتماداً كلياً على الترجمة ، شأنها في ذلك شأن الحركة العلمية الثقافية العامة ، وقد ترجم عدد كبير من كتب التاريخ الاوربية تلبية لرغبة محمد علي نفسه أو لرغبات ابنه ابراهيم ؛ فقد شعر الباشا بحاجة لمطالعة تراجم أمثاله من القواد والملوك ليفيد من خبراتهم • وقد ظل أثر هذه الكتب المترجمة محدوداً فلم تنتشر بين المصريين ولم يقرأوها ، ذلك أنه مضى على حركة الترجمة في عصر محمد علي نحو عشرين عاماً والجهد كله منصب على الترجمة فقط ، ولم يجد طلبة المدارس ومدرسوها وخريجوها الفراغ الكافي ليستجيبوا للثقافات التي تلقوها ، ويعكفوا على التأليف ، وهو الخطوة الطبيعية التالية للترجمة وأشهر رواد هذه المرحلة :

رفاعة رافع الطهطاوي : ولد في مدينة طهطا ونشأ نشأة متواضعة وعاش بين (١٨٠١ ـــ ١٨٧٣) واتم دراسته في الازهر (١٨٣٤) وكان

أحد الأئمة الثلاثة للبعثة العلمية التي أنفذها محمد علي الى فرنسا (١٨٢٦) فحذق اللغة الفرنسية • ويعتبر رفاعة من أعمق العقول العربية التي احتكت بالغرب وفهمته فهماً واعياً • وقد صادف وجوده في باريس عهد الملك شارل العاشر النزّاع الى السلطة المطلقة ، وشهد رفاعة كيف اندلعت ثورة ١٨٣٠ في باريس على اثر فض مجلس النواب والغاء حرية الصحافة ، وقد شهد أيضاً احداث الأيام الثلاثة المجيدة التي استغرقتها الثورة ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وعني خاصة بالدستور الفرنسي وسماه الشرطة (La charte) ونقله الى العربية • وكان من الطبيعي ان ينتبه اليه رفاعة ، وهو العربي المسلم المحافظ الذي يلتمس لبلده أسلوباً في الحكم يسير عليه ويساير الامم الناهضة في نظام يتساوى فيه المواطنون جميعا في الحقوق والواجبات • وطبيعي ان ينظر رفاعة الى ما يجري حوله باعجاب وتقدير ، وقد حاول التوفيق بين تقاليد مجتمعه وبين المبادىء الثورية التحريرية حين بيّن ان روح هذه المبادىء ينطوي عليها الاسلام المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله • و (تخليص الابريز الى تلخيص باريز) هي رسالة شائقة كان الباعث على كتابتها تلك الفترة التي قضاها في باريس •

وعلى ذلك فقد انعكست هاتا نالحركتان على الكتابات التاريخية، فبدأ المؤرخون يؤلفون في تاريخ بلدهم وأمتهم ، كما أفادوا في الوقت نفسه من الاضواء الجديدة التي القتها الكشوف الاثرية على التاريخ القديم والحضارات الشرقية واليونانية والرومانية •

ولا حاجة الى القول بأن جهود علماء الحملة الفرنسية في ميدان الآثار قد نبهت الاذهان الى ضرورة دراسة الآثار المصرية دراسة علمية • وبعد اكتشاف حجر رشيد وفك رموز الكتابة الهيروغليفية ، أمكن قراء ةالنصوص المصرية ، وأطل العلماء على أصول الحضارة المصرية القديمة • وبدأ المؤرخون والاثريون أمثال ماربيت وماسبيرو

وبروكش يكتبون تاريخ مصر الفرعونية بالاستناد الى نتائج الكشوف •
ولا شك ان رفاعة قد أفاد من ذلك ، اذ بدأ كتابه في تاريخ مصر لا
بالفتح العربي الاسلامي ، أو ببـدء الخليقة كما فعل اسلافه في
العصر الوسيط • بل بدأ بمقدمة عن نهر النيل وفروعه وأهميته لمصر
وأثره في تاريخها وأهلها وحضارتها ، وتحدث عن البعوث التي أرسلها
محمد علي للكشف عن منابع النيل • ثم خصص الجزء الاول لتاريخ
مصر من عصور الفراعنة والبطالمة والرومان والبيزنطيين ، ووقف عند
الفتح العربي لمصر • وجعل الفصل الاخير من كتابه خاصاً بالكلام
على العرب قبل الاسلام وعاداتهم ولغتهم وأسواقهم وآدابهم ، وسمى
كتابه هذا :

« أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل » وقدم
الكتاب الى الخديوي اسماعيل وطبع في بولاق سنة ١٢٨٥ هـ •

علي مبارك : وهو رائد آخر في ميدان التأليف التاريخي • ولد
في قرية برنبال الجديدة من مديرية الدقهلية سنة ١٢٣٦ — ١٨٢٣ م ،
أقام في باريس خمس سنوات درس خلالها الهندسة العسكرية ، ويهمنا
أن نذكر أن علي مبارك، بجانب ثقافته الهندسية العسكرية ، اولع بالتاريخ
وشغف به • وبرغم ان مؤلفاته في الهندسة وغيرها كثيرة ، ولكن أعظم
مؤلفاته قيمة هو كتابه الكبير « الخطط التوفيقية الجديدة » ، وقد
أخرجه في عشرين جزءاً وطبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ ، خصص الثامن
منها للنيل ومقاييسه وارتفاعه من قديم الزمان الى أيامه ، وخصص
التاسع للترع والخلجان ، والجزء العشرين للنقود الاسلامية
وتاريخها الخ •

وفن تأليف كتب الخطط فن نشأ في مصر من اقطار العالم العربي
والاسلامي ، وكان آخر من كتب في خطط مصر تقي الدين المقريزي

من القرن الخامس عشر الميلادي • وقد اتخذ علي مبارك خطط المقريزي أساساً لكتابه ، ثم مضى يستعرض مدن مصر وقراها ومراكزها فأثبت ما أصابها من تغير أو تطور الى زمنه ، وكان نهجه في التأليف نهجاً علمياً موثقاً بالنقوش وحجج الاملاك والاوقاف •

ولا يكاد يختلف علي مبارك عن رفاعة في منهج بحثه التاريخي الذي سلكه في تأليف الخطط التوفيقية ، فهو مثل رفاعة اعتمد على المراجع العربية القديمة ، وعلى المراجع الفرنسية على السواء ، وقد اطلع على كثير مما كتب الاوربيون والمستشرقون عن تاريخ مصر ، كما اطلع على آخر المكتشفات الاثرية في عصره ، ومضى يلخص منها ما فيه الفائدة • والكتاب يعرض لطبوغرافية المدن والقرى المصرية جميعاً منذ أقدم العصور ، ويصف خططها ومبانيها ومرافقها العامة ومساجدها أو كنائسها ومدارسها ومصانعها وحماماتها ووكائلها ، وما أصاب هذه المنشآت من تغير وتطور على مرّ الزمان •

هذا الى ان الكتاب يترجم — كالمقريزي — لمن اشتهر في تاريخ كل مدينة أو لمن عاش فيها أو دفن من أعيان وعلماء وأدباء وأمراء • وقد استخدم علي مبارك كتاب عجائب الآثار للجبرتي وغيره عند الترجمة لمن لم يعيشوا في عصره ، أما معاصروه فقد ترجم لهم في خططه لاول مرة ، وكان معظم رفاقه في الدراسة أو في الوظيفة ، فاذا أعوزته التراجم طلب من أصحابها ان يترجم له كل ترجمة حياته • ومن هنا أهمية الخطط • فهي سجل لا غنى عنه لجمهرة الرجالات الذين صنعوا تاريخ مصر الحديث ، وخاصة بناة نهضتها في القرن الماضي •

وقد ترجم علي مبارك كتاب سيديو عن الفرنسية وهو « خلاصة تاريخ العرب » وطبع في القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ • ولعلي مبارك كتب

أخرى في فنون الحرب والهندسة لا يعنينا ذكرها هنا .

ولا ريب ان الرجل كان يقف على رأس مدرسة من المؤرخين لها طابع خاص ؛ ذلك ان معظم مؤلفاتهم التاريخية فيها مزج بين التاريخ وبين علوم الهندسة والطبوغرافية والرياضيات والفلك والآثار . كما أن انتاج افرادها يغلب فيه التأليف على الترجمة ، والابتكار على النقل، وهذان هما الفارقان الواضحان بين انتاج رفاعة ومدرسته وانتاج علي مبارك ومدرسته ، ولعل مرجع هذا الى الدراسة العلمية والعقلية التي امتازت بها المدرسة الاخيرة .

بيد ان المدرسة التاريخية الحديثة في مصر ازدهرت بفضل ممثليها المعاصرين ، ونخص بالذكر منهم الاستاذ محمد شفيق غربال . فقد امتاز بعمق التحليل وسعة الافق والنظرة الشاملة ، والاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الذي انصرف الى تاريخ العصور الوسطى الاسلامية وخاصة فترة الصليبيين والمماليك ، والاستاذ عبد الحميد العبادي في التاريخ الاسلامي ، والدكتور ابراهيم نصحي في تاريخ مصر القديم ، والدكتور محمد فؤاد شكري في التاريخ الحديث .

وتربى على يد الاستاذ غربال لفيف من اساتذة الجامعات المصرية تخصص في مختلف الدراسات التاريخية ، وأخذ يوجه الاجيال الجديدة نذكر منهم الاساتذة الدكاترة : أحمد عزت عبد الكريم وأحمد فخري وأحمد بدوي وجمال الدين الشيال والسيد الباز العريني وغيرهم ممن سار على هداهم في البحث والتأليف .

كما نشط التأليف التاريخي على ايدي اساتذة من خارج الجامعات كالاستاذ عبد الرحمن الرافعي مؤلف سلسلة « تاريخ الحركة القومية في مصر » ، والاستاذ عبد الله عنان الذي بذل الكثير من مجهوده ووقته في تاريخ الاندلس والمغرب العربي تأليفاً وترجمة ، والاستاذ محمد

رفعت في التاريخ الحديث •

كما تجدر الاشارة الى الاساتذة الذين تتلمذوا على هؤلاء المؤرخين جميعا ، من جيل الاساتذة الجامعيين القائمين على عملهم ، ويضيق المجال بذكرهم ولكل منهم جهده وبحوثه وفضله في خدمة التاريخ •

وتنظم هذا الجيل العديد من المؤرخين والآثاريين « الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » • وهي تصدر مجلة تنطق باسمهم وتنشر بحوثهم ومحاضراتهم •

٢ ـ التاريخ والمؤرخون في ديار الشام حتى القرن العشرين

ذكرنا ان الكتابات التاريخية التي وجدت في اقطار العرب عموما تمت على يد مجموعة متباينة من رجال الدين المسلمين في سورية غالبا، ومن رجال الدين المسيحي (في جبل لبنان) ، ومن كتبة كانوا في خدمة الامراء والباشوات في مختلف الولايات السورية ، وكانت كتابة التاريخ بالنسبة لهم تمثل جانبا واحدا من جوانب نشاطهم الادبي المتعدد الوجوه ، والذي كان من شأنه نهضة الحركة الادبية والثقافية في هذا القطر العربي او ذاك في القرن التاسع عشر والعشرين • وفيما يلي نذكر أهم كتّاب التاريخ في ديار الشام ، بما فيها لبنان ، اعتبارا من مطلع القرن التاسع عشر •

ابراهيم العورة : هو ابن المعلم حنا العورة من طائفة الروم الكاثوليك • ولد في عكا في أواخر القرن الثامن عشر ودرس على ابيه الذي خدم في ديوان انشاء الجزار ثم ديوان خلفه سليمان باشا ، وبرع ابراهيم في الكتابة ، وانضم الى كتاب الديوان ١٨١٤ ، وبما انه كان قريبا من الادارة المركزية للولاية فقد استطاع ن يلقي الضوء على كثير من المقررات والشؤون العامة • وجمع حوادث بلاد الشام في تلك

الفترة التي شهدها وجعلها في كتاب سماه :

« تاريخ ولاية سليمان باشا العادل » .

افتتحه بمجمل اخبار القرن الثامن عشر ، ثم بدأ بتفصيل روايته للاحداث التي جرت في آخر ايام الجزار ولا سيما في عهد خلفه سليمان الى وفاته ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ ، ولم يزل يهذب في تاريخه هذا حتى أتمه حسب قوله في سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٣ م . وقد أمدنا العورة بوصف حي للعلاقات التي كانت قائمة بين ولاية صيدا ، ومن بعد عكا ، وبين استانبول ، ولتوازن العناصر المملوكية والمحلية في الولاية مع الاجراءات التي كان يتبعها الموظفون في تصريف شؤونها . لقد أتم العورا كتابه بعد مضي نصف قرن تقريباً على حوادثه ، ولكنه وعى بدقة ما جرى من الاحداث في شبابه ، واستطاع ان يعطينا عنها صورة رائعة .

حنانيا المنيّر : (١٧٥٦ ـــ ١٨٣٢) ولد في زوق مصبح بلبنان وكان عارفا بفنون الكتابة ، منظومها ومنثورها ، وفي كتابه الذي ألفه عن عقائد الدروز دعا نفسه بالطبيب مما يدل على انه كان يتعاطى الطب. كما الف كتابا عن نظام رهبنته الدينية « تاريخ الرهبنة الحناوية الملقبة بالشويرية » ، وفيه اخبار تخص امراء جبل لبنان من اواسط القرن الثامن عشر حتى سنة ١٨٠٤ م ، وفيه ذكر لأحوال جبل لبنان والشام والقطر المصري ، وأهم كتبه :

« الدر الموصوف في تاريخ الشوف » وهو تاريخ عام عن جبل لبنان وخاصة عن الاسرة الشهابية ومنطقة الشوف التي كانت مركز قوتهم ، وهو تاريخ سياسي يشتمل على احداث الفترة مابين ١٦٩٧ ـــ ١٨٠٧ م . وقد اعتمد فيه جزئيا على المرويات العامة ، وفي اجزاء اخرى على ملاحظاته الخاصة وعلى اليوميات والوثائق الاخرى المتعلقة بنظام الجبل. والكتاب مكتوب بأسلوب واضح ومستقيم ، ونلحظ أن عواطف المؤلف

كانت الى جانب الامير بشير الثاني في صراعه مع الجزار ، وفي وقوفه في وجه معارضة أقاربه ابناء الامير يوسف • وقد أفاد من الكتاب الامير حيدر احمد الشهابي والشيخ طنوس الشدياق •

حيدر احمد الشهابي : (١٧٦١ ــ ١٨٣٥) هو من اعظم المؤرخين في ديار الشام ، كان احد افراد الأسرة الشهابية الحاكمة وابن عم الأمير بشير الثاني الذي كلفه بعدة مهام سياسية تتطلب الثقة لأهميتها ، وقد كتب بمساعدة بعض الاساتذة والمعلمين الذين اجتمعوا حوله ، تاريخ جبل لبنان ، وتاريخ أسرته في كتاب بعنوان :

« الغرر الحسان في اخبار أبناء الزمان » قسمه الى ثلاثة أجزاء ، يبدأ أولها منذ سنة ٦٢٢ م حتى ١٦٩٧ أي منذ الهجرة النبوية حتى انتهاء حكم اسرة معن • وثانيها يبـدأ ١٦٩٧ وينتهي ١٨١٨ ، وثالثها مـن ١٨١٩ ــ ١٨٢٧ ، ويبدو أن المؤلف قد كتب مختصرا في آخر حياتـه عن الامير بشير الثاني ، واستمر في تسجيل أخباره حتى وفاته •

ويلاحظ ان حيدرا لا يشير الى مصادره خلال كتابته ــ كعادة مؤرخي تلك الأيام • ولكن يبدو مما ورد في معلومات تاريخية أنـه اعتمد في الجزء الأول من كتابه على تاريخ الطبري خاصة وغيره من كتب تاريخ الاسلام العام ، كما اعتمد على بعض المصادر الاوروبية • وفي الجزئين الثاني والثالث اعتمد على الوثائق الرسمية وكان مركزه في حكومة الجبل يتيح له ان يطلع عليها ، من مراسلات بين الامير بشير والموظفين الاتراك الكبار • وقد أثبت نص بعضها كاملا في كتابه ، كما اعتمد على بعض دفاتر الامير المالية والعمومية • واهم من هـذا كله ملاحظاته الخاصة ، وملاحظات المتصلين به ، فالمؤرخ كـان يعيش في الجبل في مجتمع آفاقه محدودة وتسيطر عليه التقاليد والاعراف ويندر فيه القادرون على القراءة والكتابة ، ولذا فان الذاكرة تعي عادة تفاصيل

جامعة ودقيقة عن أخبار عدة أجيال سابقة ، بحيث كان بمستطاع الرجل ان يذكر تفاصيل تعود الى بداية القرن الثامن عشر • وتدور مباحث تاريخه حول موضوع رئيسي هو سياسة الامراء الشهابيين الذين كان المؤرخ واحدا منهم ، ولذا فلم يكن يكتب تاريخه من وجهة نظر مواطن عادي ، بل كرجل يضع السياسة ويتخذ المقررات ، وهو في سرده لا يهتم كثيرا بشرح ما وراء الاحداث من الدوافع ، مع انه كـان يتمتع بثقافة سياسية طيبة من حيث فهم مقاصد العمل السياسي وحدوده وأساليبه وذلك مما تناقلته أسرته الحاكمة خلال أيام حكمها • ومن الواضح أن المؤرخ كان يقف في صف أسرته وفي صف الامير بشير في جميـع المنازعات التي كان يعرض لها ؛ فهو مع الشهابيين ضد الجزار ، ومع بشير ضد الامير يوسف ، ومع بشير ضد تحدي اسرة جنبلاط الدرزية الكبيرة وزعيمها بشير جنبلاط •

طنوس الشدياق : هو الشيخ طنـوس بن يوسف بن منصـور الشدياق ، ولد في الحدث سنة ١٧٩١ ، ودرس مع اخوته فارس وأسعد في مدرسة عين ورقة وعمل في التجارة مدة ، ثم انقطع لخدمة الامراء الشهابيين فأرسلوه الى عكا ودمشق بمهام وظيفة ناجحة ، وأقيم بعد ذلك قاضياً على النصارى في جبـل لبنان ، وقد نشر سنة ١٨٥٩ ما يشبه الموسوعة عن عائلات جبل لبنان النبيلة سماه : « أخبار الاعيـان في جبل لبنان » • وهو مقسم الى ثلاثة أقسام تتناول على التوالي جغرافية جبل لبنان ، ثم نسب العائلات اللبنانية الكبيرة وتاريخها ، ثم تاريخها السياسي الحديث • وسجل المؤلف في مقدمة كتـابه قائمة بأسماء مصادره وتتضمن بعض الحوليات القديمة ، وذكريات مشايخ الدروز ، وغيرهم من كبراء الجبل ، وقليل من الوثائق الرسمية ، مع مذكراته الخاصة التي ظل يدونها منذ ١٨٢٠ ، وأهمية كتابه تبدأ منذ أن يتناول أيام الامير بشير الأخيرة ، والاحتلال المصري لسورية ، وتفاقم أزمة

الحكم في منتصف القرن التاسع عشر فضـلا عن أنه يزودنا بتفاصيل عن أصل ونشأة الاسر اللبنانية الكبيرة • ولم تكن احداث جبل لبنان التي يرويها الشدياق تدور حول حاكم أو أسرة حاكمة ، كما هو الحال عند حيدر الشهابي ، وانما كانت تدور حول المجتمع في جبل لبنان نفسه ؛ فهو لا ينظر الى الجبل كمقاطعة موحدة في ظل اسرة واحدة من الامراء والحكام ، وانما كبناء متكامل من العائلات لكل واحدة مجال نفوذ وسلطة ، وهي جميعاً متوازنة ومترابطة سواء كانت هـذه العائلات مارونية أم درزية ، أم سنية أم شيعية ، وقوتهـا وسلطانها لا يستمدان من ولاء العائلات الديني ، وانما من قوة المقاطعات نفسها ، والمفروض أن تسمو مصالحهم المشتركة على خلافاتهم الدينية في نطاق جبل لبنان الاقطاعي الموحد • والشدياق يقدم لنا توضيحاً كافياً لفهم قضايا هذا الجبل • ويعتبر تاريخ الشدياق هذا من أدق وأضبط ماكتب في موضوعه • ولقد ساعده في تهذيبه وتنقيحه ونفقات طبعه المعلم بطرس البستاني ، واستغرق العمل فيه خمس سنوات ، وتوفي مؤلفه سنة ١٨٦١ م •

نقولا يوسف الترك : (١٧٦٣ ــ ١٨٢٨) ولد في دير القمر لأسرة يونانية الأصل جاءت من الاستانة ، عمل ابوه مدة في خدمة الامير يوسف الشهابي ، وقد عمل نقولا في خدمة الامير بشير الثاني الشهابي لمدة طويلة كشاعر وموظف • وقد أرسله الامير الى مصر ليسجل احداث الاحتلال الفرنسي ففعل ؛ وسجل ما شاهده في كتاب سماه « تملك جمهـور الفرنساوية الاقطار المصرية والشامية » • وله أيضاً كتـاب « تاريخ أحمد باشا الجزار » وصف فيه أحوال الشام في الربع الاخير من القرن الثامن عشر والسنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر• (١٧٧١ ــ ١٨١٠) م •

وهنالك **ميخائيل الدمشقي** الذي تناول أحـداث سورية بشكل

حوليات منذ ١٧٨٢ ــ ١٨٤١ ، وكان موظفاً في الحكومة العثمانية . **ونعمان بن عبده القساطلي الدمشقي** طبع في بيروت ١٨٧٧ كتاباً عن دمشق سماه « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » فيه معلومات مفيدة عن مؤسسات دمشق التعليمية والعمرانية وغيرها . واشهر ما كتب عن هذا الفرع من التاريخ المحلي هو **عيسى اسكندر المعلوف** في مؤلفه « تاريخ مدينة زحلة » حيث يوضح المؤلف نسو الطبقة الوسطى الجديدة التي لم تتلاءم مع البناء الاقطاعي اللبناني ، فكان ذلك أحد أسباب الحرب الاهلية المعروفة بحوادث الستين . واهتم المعلوف بجمع مادة لتاريخ يتناول أهم العائلات في لبنان والشرق الادنى. فنشر « دواني القطوف في تاريخ بني معلوف » ، وفي حديثه عن موطن الأسرة الأول (حوران) استعرض المؤلف تاريخ منطقة حوران كلها . واعتمد المؤلف على مخطوطات قديمة . وسجل الروايات المحلية التي تعود الى القرن الثامن عشر ، ودقق في النصب التذكارية الموجودة في المعابد المختلفة . وللمعلوف كذلك كتاب عن « تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني » . وفيه يمتدح الأمير الذي كافح لتوسيع بلده وتمدينه.

وكتب البعض عن حوادث الستين ، لأن فواجعها قد حفزت أقلامهم، وكتب أغلبها مسيحيون من وجهة نظرهم . وادعاها للثقة كتاب ميخائيل مشاقة (١٨٠٠ ــ ١٨٨٨) .« الجواب على اقتراح الاحباب » وكان أبوه في خدمة الأمير بشير الثاني ، وأكمل ميخائيل تعليمه في مدرسة القصر العيني للطب في القاهرة (١٨٤٦) ثم استوطن دمشق ، وهو من مواليد رشميا من الروم الكاثوليك . وقد حلل مشاقة أسباب الانفجار الطائفي لحوادث الستين ، ولم يتردد في توجيه النقد واللوم الى المسيحيين الذين تحدوا مشاعر كبراء الدروز بعد احترامهم لسلطتهم التقليدية في الجبل . والكتاب يتضمن سرداً لاحداث سورية ولبنان

منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أيام المؤلف ، مع عناية خاصة بتاريخ اسرته .

وبعد أن اتفقت الدول الكبرى مع الدولة العثمانية على ايجاد نظام المتصرفية الممتازة في جبل لبنان (١٨٦١) ازدهرت في مؤسساته التعليمية ثقافة عربية مدت أنظارها خارج حدود لبنان الجبل ، وخارج حدود ولاية بيروت نفسها لتدور حول محور أوسع ، محور سورية ، فظهرت كتابات تاريخية تستقطب نوعاً من الولاء السياسي لهذا القطر المحيط بمتصرفية جبل لبنان ، مدعماً بفكر تاريخي . وأشهر من كتب حول ذلك هو جرجي يني وهو مسيحي ارثوذكسي في كتابه « تاريخ سورية » ، وقد تعرض فيه لتاريخ طرابلس بالذات . **ويوسف الدبس** (١٨٣٣ — ١٩٠٧) وهو المطران الماروني المولود في قرية كفر زينا من زاوية طرابلس ودرس في مدرسة عين ورقة ووقف على اللغات العربية والسريانية واللاتينية والايطالية ، وأنشأ مدرسة الحكمة في بيروت ، وكتب تاريخاً عاماً لسورية منذ أقدم العصور حتى أيامه ، بالاضافة الى تاريخ اسلامي عام ، وتاريخ للثقافة العربية ، ولكن سورية تبقى مدار موضوعه الرئيسي . وفي الجزء الاخير من كتابه المسمى « تاريخ سورية ، يعني المؤلف (لبنان) عندما يتحدث عن (سورية) » . والكتاب يقع في ثمانية مجلدات ، وفيه تفصيلات وافية عن التاريخ الكنسي الماروني ، وهو في اطاره العام وفي فصوله الاولى مستمد من المراجع الاوربية ، ولكن اسلوبه يتغير عند البحث في تاريخ جبل لبنان الحديث ، فهو هنا تاريخ محلي لا يخرج عن نوع الكتابة التقليدية المألوفة التي تستند الى مصادر محلية وقيمته محدودة .

ومن كتاب التاريخ أيضاً **جرجي زيدان** (١٠٦١ — ١٩١٤) ويعتبر كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » أهم مصنفاته ؛ بناه على مؤلفات المستشرقين وعلى بعض المصادر العربية . وكتب تتمة له « تاريخ العرب

قبل الاسلام » ولكنه لم يتمه ، ولا يقل عنه شيئاً « تاريخ آداب اللغة العربية » وقد اتخذ بروكلمن وغيره أساساً له •

الشيخ كامل الغزي : الحلبي المولد (١٨٥٢ ـ ١٩٣٣) له : « نهر الذهب في تاريخ حلب » تناول فيه فتوحها وآثارها وخططها وتراجم أعيانها وحوادثها ، وتغلب عليه نزعة الادب •

والشيخ عبد الرزاق البيطار (١٨٣٧ ـ ١٩١٤) وله : « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر » ترجم فيه للاعيان والعلماء على طريقة القدامى ، ويتضمن كثيراً من المعلومات المفيدة عن أحوال الشام الثقافية والاجتماعية والسياسية •

والشيخ محمد راغب الطباخ وله « اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء » وهو ليس تاريخ مدينة فحسب بل تاريخ لشمال سورية كله• وطريقته نفس طريقة القدامى ، ونقل من كتبهم دونما تحليل أو نقد • والكتاب مجموعة من النقول والمواد الخام لا يستغني عنها الباحث •

ولن يتسع المجال لذكر مؤلفات الامير **شكيب ارسلان** (١٨٦٩ــ١٩٤٦) الذي أغنى المكتبة العربية بكثير من المؤلفات ، وكان قد تعرف على الشيخ محمد عبده فلازمه وأفاد منه •

كذلك **محمد كرد علي** (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣) صاحب « خطط الشام » الذي رجع في تأليفه الى ما كتبه مؤلفو العرب خاصة ومؤلفو الفرنجة ، وأراد بالخطط كل ما يتناول العمران ، والبحث في تخطيط البلد وتاريخه وحضارته ، وجعله في ستة أجزاء •

وهنالك **رفيق العظم** (١٨٦٥ ـ ١٩٢٢) واتخذ من مصر دار هجرة له فراراً من مضايقات السلطات العثمانية لأحرار الشام ، وتتسم كتاباته بالدعوة الى مقاومة الاستبداد والدعوة الى الاخذ بنظام اللامركزية وله

كتاب « أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة » و : « البيـــان في التمدن والعمران » •

وأمين **الريحاني** وغيرهم ممن تصدى لكتابة التاريخ في أيامنا هذه•
وبعد تنسية جامعة دمشق وانشاء قسم التاريخ في كليـــة الآداب (١٩٤٦) بدأنا نشهد انتاجاً تاريخياً لا يقل قيمة عن الجهود التأريخية في الغرب ، وذلك على يد هيئة التدريس والخريجين •

يضاف الى ذلك الجهود الموفقة التي يبذلها في حقل التاريخ الاساتذة المؤرخون في جامعات لبنان وخارجها • ونخص بالذكر منهم : الاستاذ أسد رستم وقسطنطين زريق وعمر فروخ ونبيه فارس ونيقولا زيادة وعادل اسماعيل وغيرهم •

كما ان انشاء قسم التاريخ في الجامعة الاردنية سيكون له النتاج الطيب في خدمة التاريخ عامة والتاريخ العربي والاسلامي خاصة ، على يد الدكتور عبد الكريم غرايبة وزملائه •



الفصل الثاني عشر

التاريخ والمؤرخون في العراق والجزيرة العربية

١ ـ التاريخ والمؤرخون في العراق

تمهيد : تاريخ العراق منقديم الزمان حتىنهاية القرن التاسع عشر صراع بين الدول القوية على امتلاك اراضيه ، ومحاولات من القبائل المتبدية للاغارة عليه والاستئثار بخيره وأرزاقه ، مما جعل ماضيه سلسلة طويلة من الحروب والوقائع والغارات لا يكاد يخسد أوارهـا ، وأراضيه سهلا يتوافد عليه الغزاة من كل ناحية ويقصدونه من كل صوب . لقد استهدفه الفرس في الشرق والبدو في الغرب ، والاكرادوالجركس والاتراك والأرمن من الشمال ، وقراصنة البحر الهندي والخليج من الجنوب ، ولذا كان من الطبيعي أن تتوالى الغـارات في غالب أيامهم العراق بسبب وبغير سبب ، وأن نجد أهله مشغولين في غالب ايامهم بمدافعة الاعداء ومغالبة الفاتحين حتى لا يكادون يجدون فسحة من الهدوء والاستقرار يعنون فيها بشؤون أنفسهم ومرافق بلادهم . ولم يتأثر تاريخ العـراق بمجاورته لايران فحسب ، بل تأثر أيضاً بالفتح العثماني الذي ترتب عليه توالي الحروب الايرانية العثمانية . صحيح ان العهد العثماني قد أبعد عن العراق التأثير الفارسي الشيعي الى حين، وأقام فيه منار السنة من جديد ، ولكن الحكم العثماني في العراق لم يكن يختلف عنه في أي قطر عربي آخر ؛ فقد كانت الفوضى منتشرة والاضطراب بالغاً حده في الادارة . وفي مثل هذه الاوضاع مع وجود

الفتن وفقدان الهدوء والسكينة ، واستمرار الحروب ، فالأهلون من جراء ذلك في خوف دائم ، بل في ويل وثبور ، تتناوب حكمهم دول متعددة ومتسلطة فتلحق بهم السوء وتكدر صفو عيشهم • ولم يكن بوسع الآداب والحالة هذه ان تزدهر لأن الآداب والثقافة بنت الراحة والطمأنينة والاستقرار • ولم يتهيأ لبغداد أن تعيش منعزلة وحدها تجاه قوتين عظيمتين تتجاذبانها ، وما ان خلصت للدولة العثمانية في ايام مراد الرابع (١٦٣٨) حتى أعقب ذلك حروب الافغانيين ، وحروب نادر شاه ، الى أن تسلط المماليك سنة ١٧٤٩ ، وظلوا في دست الحكم الى آخر ايامهم ، ثم يبدأ العهد العثماني الأخير ، فيستمر حتى سنة ١٩١٧ باحتلال الانكليز لبغداد •

ولا ينكر ان العراق شهد فترات متقطعة من الاستقرار ، ساعدت على نمو المعارف في المدارس العلمية الموقوفة التي لم تتعرض لها الدولة العثمانية بسوء نظراً لما لها من الصبغة الدينية ، فكانت من الوسائل الفعالة لحفظ بعض مخلفات الآداب وصيانتها • ولكن نشط الانتاج الثقافي والعلمي في فترة حكم المماليك للعراق (١٧٤٩ ــ ١٨٣١) اذ هدأت الاحوال نوعاً ، وناصرت حكومة المماليك ضروب الأدب وعمرت المدارس طمعاً في رضى الأهلين وظهرت في هذه الفترة ثلة من المتأدبين والمؤرخين أصحاب المجاميع والمطارحات والتواريخ • وفي سنوات القرن العثماني الاخير (١٨٣١ ــ ١٩١٧) انتشرت الطباعة وزاد اتصال العراق بالاقطار العربية المجاورة له ، نظراً لتقدم وسائل المواصلات • ومن قبل كانت بادية الشام غربي الفرات تبعد عن العراق التأثيرات الشامية ، وعاد العراق الى السلطنة العثمانية بعد ما ادركها الاصلاح والتقدم بوجه عام ، وظهر فيه جماعة من المؤرخين والادباء ، كانوا يراعون السجع في أوائل العهد العثماني الأخير ، ثم مضوا الى التحسين فيه ، وصدفوا عنه في أواخره • وقد جهد العراق للاحتفاظ

بالتراث الثقافي العربي برغم ما اصابه من نكبات خلال حروبه وثوراته وكوارث واوبئة وفيضانات قضت على الكثير من نتاجه العلمي ·

ونحن فيما يلي سنعرض لمن اشتهر من المؤرخين في العــراق في العصر العثماني حتى مطلع القرن التاسع عشر ، وسنرى ان الحياة العقلية في هذا القرن وما بعده حتى مطالع القرن العشرين ، تتركز في قليل من المناطق ، وتزدهر لدى أسرات معينة في غالب الأحيان · بقي أن نذكر مسألة مهمة بالنسبة لحركة التأليف التاريخي في العراق بالعصر العثماني وهي أن الشيعة ظلوا غير متأثرين بالحــركة العقلية التي نهضت في العراق في القرن العشرين ، ولذلك نذكر تآليفهم مع تآليف العصر العثماني لانه لا يوجد فرق واضح بين تآليف الفترتين المذكورتين · هذا الى أن المؤرخين العراقيين لم يختلفوا عن المؤرخين العرب في بقية الاقطار العربية من حيث موضوعات تآليفهم أو اسلوب كتــابتهم ، ويلاحظ ان اكثرهم من علماء اللغة والتاريخ معاً وما ينطبق على اولئك ينطبق على هؤلاء في هذا العصر العثماني ·

وسنرى من عرضنا لاهم الكتابات التاريخية في العراق ، أن ليس بينها (تواريخ) متصلة الحوادث مترابطة الاسباب · وانما هي تآليف تحدد علاقات منفصلة كوقائع الغزو والحصار ، وتوالي الولاة على مسرح الحكم ، وانتشار الاوبئة ، ووصول فرمانات توليــة الوزراء الجدد ، وعلاقة هؤلاء بالمتغلبة الاقربين والأبعدين ·

وهذه (التواريخ) متفرقة المادة ، مبتورة الحوادث ، تهتم بعلاقات الحكم القائم ، ولا تهتم غالباً بتسلسل الوقائع واطرادها ، بل تقتصر أحياناً على حياة هذا الوالي أو ذاك ، وليس بين كتاب التاريخ العراقيين مؤلف تسيطر روايته على الحوادث قط ، ومعظــم التــواريخ التي سنعرض لها ، تغرق في لجج التفاصيل بدلاً من أن تؤلف قاعدة شاملة

مترابطة الحلقات • وقد بحث المؤلفون عن ادوار محددة ، وهذه لايمكن الاعتماد عليها الا بعد التوفيق بين مختلف مروياتها ، وهم لا يخرجون عن كونهم (في حالة المؤلفات التركية) اما مؤرخين رسميين للدولة العثمانية ، أي لا يبحثون احداث التاريخ في العراق الا اذا كان يعاني من حصار أو ثورة تهم الدولة العثمانية ، واما كتاباً عراقيين ينحصر همهم في تناول تاريخ ولايتهم أو بلدتهم •

وفيما يلي نذكر أهم المؤرخوين في العراق العثماني حتى العقد الثاني من القرن العشرين •

احمد بن عبد الله البغدادي : توفي في طاعون ببغداد ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م ، وهو المعروف بـ (غراب) نشأ في بيت علم وأدب كتب : « عيون أخبار الأعيان بمن مضى في سالف العصر والأزمان » المعروف بتاريخ الغرابي وهو من المصادر المهمة عن الفترة التي عاشها المؤلف ، وتناول فيها احداث العراق حتى أواخر أيامه (١٦٨٧ م) ، وفصّل في الحوادث التي وقعت خاصة في بغداد ، وعرّف كذلك بالعلماء والأدباء البغداديين •

فتح الله بن علوان الكعبي : هو الشيخ جمال الدين علي فتح الله ابن علوان بن بشارة الكعبي المولود في (القبّان) ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م في انحاء الحويزة من أعمال عربستان على الحدود بين العراق وفارس وقد درس في شيراز شاباً ، واشتغل في طلب العلم ، ثم رجع الى القبان، ودرس على ابيه علم الكلام والفقه والحديث ، ثم ولي قضاء البصرة لمدة قصيرة عاد بعدها الى مسقط رأسه بعد أن توفي ابوه سنة ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م •

له : « زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر » وهو عبارة عن مقامة تناولت احداث الحرب بين والي البصرة حسين باشا آل افراسياب وبين

الجيش العثماني بقيادة ابراهيم باشا • وتتناول موجزاً للاحداث الأخيرة في ايام هذا الوالي بين (١٦٤٥ ــ ١٦٦٥) وقد أتم المؤلف كتابه سنة ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م ، وطبع في بغداد سنة ١٩٢٤ م •

محمود بن عثمان الرحبي : مفتي الحلة توفي نحو سنة ١١٥٠ هـ /١٧٣٧ م ، كتب « بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان » •

وفيه مقدمة عن العالم كله ، وتاريخ ملوك الفرس ، وتاريخ الدول المختلفة ، وتاريخ الانبياء ، وتاريخ الوزير سليمان أمين البصرة بولاية أحمد باشا في بغداد (١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م ــ ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م) •

يحيى الجليلي الموصلي : المتوفي سنة ١١٩٨ هـ ١٧٨٣ م ، كتب :

« سراج الملوك ومنهاج السلوك » وهو عبارة عن تاريخ عام انتهى به مؤلفه حتى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م •

ابو الخير السويدي : المتوفي سنة ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٦ م وهو عالم وشاعر ومؤرخ ، أخذ عن والده وعن غيره ، كتب :

« حديقة الزوراء في سيرة الوزراء » •

وهو تاريخ تناول فيه الحديث عن والي بغداد حسن باشا (١٧٠٥ ــ ١٧٢٢) وابنه أحمد باشا (١٧٢٢ ــ ١٧٤٦) وشرح كثيراً من وقائع العراق المهمة ويتخلل كل ذلك النظم والنثر ، كعادة مؤرخي هذه الفترة العثمانية•والكتاب أقدم مرجع محلي ، اعتمد عليه المؤرخون المتأخرون•

محمد أمين العُمَري : ولد سنة ١٧٣٨ م لأسرة عريقة في الموصل تولى عدة مناصب آخرها كتابة العربية للوالي وكان خطيب جامع العمرية الذي بناه جده ، ودرَّس في الموصل وتوفي سنة ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٩ م • ويعتبر من رجال الأدب والتاريخ ، ومن مؤلفاته :

« منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في سادات الموصل الحدباء » ، تناول فيه جماعة كبيرة من علماء الموصل وسيَر الصالحين المدفونين فيها أو بالقرب منها •

مرتضى أفندي نظمي زاده : كتب بالتركية كتابه « كلشن خلفا » وأوصله الى سنة ١١٠٠ هـ ويشمل بحثه وقائع المدة التي تبدأ بتأسيس بغداد وتنتهي في سنة ١١٣٠ هـ (١٧١٧ م) ذلك أن المؤلف بعد ذلك صار يدون ما كان يجري في أيامه حتى أكمله عام ١١٢٩ هـ وختمه بذكر مناقب الوزير الوالي عمر باشا الذي قدم كتابه اليه • والحق ان هذه السنوات الثلاثين تعتبر من الوقائع المعاصرة ذات الأهمية • والكتاب مفيد جداً فيما يتصل بالفترة الواقعة بين (١٦٣٨ — ١٧١٧) وتقل أهمية الكتاب خاصة بعد سنة ١٧٠٠ ، ولكنه مع تاريخ الغرابي يكمل وقائع تاريخ بغداد والعراق عموماً • وقد طبع كتاب (كلشن خلفا) في استانبول ١١٤٣ هـ/١٧٣٠ م والكتاب بحكم اطلاع صاحبه على مجريات الاحداث الرسمية يعتبر مرجعاً أساسياً لهذه الفترة ، ولكنه بالمقابل لا يستطيع أن يصرح مما صرح به الغرابي في تاريخه ، ومن هنا يتكامل هذان التاريخان •

الشيخ حاوي رسول الكركوكلي : هاجر من كركوك الى بغداد سنة ١٢٢٠ هـ وفي عهد ولاية علي باشا ، وكان كاتباً بالمصرفخانه ، وكان ناثراً وشاعراً • توفي سنة ١٢٤٥ هـ • وكتابه المشهور يدل على أنه كان من اكابر الكتاب وقتئذ • له : « دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء » •

ذكر في مقدمة كتابه ان داود باشا أمره بتأليف الكتاب ليكون تكملة وذيلاً لكتاب (كلشن خلفا) فابتدأ بذكر ما جرى من الوقائع والحوادث في أيام حسن باشا من سنة ١١٣٢ هـ مع سرد ما قام به

سلاطين آل عثمان وما فعله الوزراء الذين تقلدوا أزمة الامور في بغداد في مقارعة طغيان الأعاجم والوقوف دون تقدمهم واعتداءاتهم ، وما وقع من احداث وتقلبات في ايامهم مع ذكر صفاتهم واخلاقهم وتواريخ تعيينهم ووفاتهم أو عزلهم وانفصالهم مقتدياً بأسلوب نظمي زاده مرتضى افندي صاحب (كلشن خلفا) . وقد تناول سرد الوقائع منذ سنة ١١٣٢ لأنه لم يستطع العثور على احداث ١١٣٢ برغم بحثه الملح عنها ، وسجل المؤلف أيضاً طريقة جمعه لمادة الكتاب التاريخية ، فقال انه استعان بما عثر عليه من النسخ المخطوطة والمحفوظة لدى بعض الشخصيات التي تناولت بالبحث وقائع الوزراء لمدة سنتين أو ثلاث ، وبعضها لمدة عشرين أو اربعين سنة « ولم اكتف بذلك بل رحت أبحث في السجلات الرسمية وأقابلها معها ، واستطعت تحري الاخبار التي يركن الى صحتها من افواه الاشخاص الذين واكبوا أصحابها من الوزراء الذين لم يتيسر لهم تدوين ما قاموا به من أعمال لسبب مشاغلهم ، وقد رتبتها بحسب وقائعها بعد التثبت منها » .

ويبدو أن المؤلف قد دون كتابه هذا بلغة لا هي عربية ولا هي تركية ولا هي فارسية صرفاً ، بل هي مزيج من اللغات الثلاث ، كما صرح هو نفسه في مقدمته بذلك ، وكثيراً ما يخرج اسلوب الكتابة التاريخية الرصينة الى الاسلوب الأدبي المليء بالمحسنات البديعية التي يميل المؤلف الى استعمالها ، وتشغل صفحات من كتابه ، لا سيما عندما يعرض لمدح الحكام والامراء والكبراء ، أو عندما يريد أن يستفيض في وصف حادثة أو واقعة . وقد وصف المؤلف لغة كتابه بأنها « جزلة العبارات يفوح منها مسك البيان وعنبر البلاغة بما تضمنته من استعارات واشارات يطرب لها الفصحاء ، واولو الابصار من مشاهير البلغاء » .

سليمان فائق بك ابن الحاج طالب كهية : المتوفي سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م ، كاتب بارع بالتركية ومتبصر بالادارة ودخائلها ، صار محاسباً

ومتصرفاً لمدة ، كما كان كاتب ديوان الولاية في بغداد ، ولولا كتاباته لضاعت أخبار كثيرة تتصل بتاريخ العـــراق الحديث • كتب بالتركية تاريخاً للماليك في بغداد باسم : « بغداد كوله من حكومتنك تشـكيليه انقراضنه دائر رساله » •

وقد فضل المؤلف ان يضع عليه اسماً مستعاراً هو (ثابت) • وبرغم بعض التحيز الذي يبديه لاسرته أحياناً ، لان والده الحاج طالب كان كهية (وكيلا) لداود باشا ، وكان من المماليك المعتقين ، ولكن كتابه يعتبر مرجعاً تاريخياً مهماً عن الفترة مابين (١٧٤٩ ــ ١٨٣٦) • وقد طبع الكتاب في استانبول سنة ١٨٧٥ بالتركية ، وطبع في بغداد ١٩٦١ ، مترجماً الى العربية بعنوان « تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد » •

وللمؤلف نفسه : « مرآة الزوراء » ، وهو يشمل عدا الفترة التي اشتمل عليها الكتاب السابق ، فترة السنوات السبع الاولى من عهـد علي رضا باشا الذي تولى حكم بغداد سنة ١٨٣١ ، بعد سقوط آخر سلالة المماليك داود باشا • والكتاب مفيد في بيان احوال القطر العراقي ، وفي امتداد احداثه لسياسية الى م ابعد المماليك حتى أيـام نامق باشا •

وللمؤلف أيضاً : « حروب الايرانيين » كتبه بالتركية حوالي سنة ١٨٨٠ م في بغداد ، ويبحث في المدة الواقعة بين (١٧٣١ ــ ١٧٤٦) وقد اعتمد في تأليفه على المؤرخين الرسميين الاتراك ، وعلى دوحة الوزراء ، وعلى مرزا مهـــدي مؤلف كتـــاب (جهانكشاي نادري) بالنارسية ، فضلا عن المعلومات الخاصة التي أضافها المؤلف •

ياسين بن خير الله العمري الخطيب الموصلي : المولود سنة ١٧٤٦م وهو من مشاهير الادباء في الموصل ، مؤرخ وشاعر • كان يجمـع مؤلفاته من مطالعاته المختلفة ويقدمها الى الامراء والعلماء والموسرين

ويفوز بجوائزهم • له : « غاية المرام في محاسن بغداد دار السلام » •

وفي الكتاب معلومات تتصل بالجغرافية والانساب والسير، بالاضافة الى تاريخ بغداد الذي يتناول الخمسين سنة التي تنتهي عام ١٢٢٠ هـ/ ١٨٥٠ م ، ويعتبر البحث فيها مهماً ومبتكراً ، وقد عالج المؤلف احداث عصره على السنين سنة فسنة ، ولغته العربية متوسطة سهلة بسيطة يشوبها كثير من الالفاظ والتسميات التركية الدخيلة ، وهو يبدأ كل سنة بمن ولي الولاية في بغداد أو الموصل أو البصرة ، وما حدث من الفتن أو العراك بين الاجناد وغيرهم ، وما تم فيها من عزل وعصيان ونهب وخلافه •

الشيخ عثمان بن سَنَد البصري الوائلي : المتوفى على الترجيح سنة ١٢٤٢ هـ ـ ١٨٢٧ م • هو مؤرخ داود باشا آخر المماليك في العراق • ولد سنة ١١٨٠ هـ في قرية من قرى نجد اسمها (فشليكة) قريبة من الكويت ، ونسبه يرجع الى قبيلة وائل • انفق شبابه في طلب العلم • كان على صلة بداود باشا وكتب عنه : « مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود » رتبه ابن سند على السنين بادئاً بتسجيل حوادث العراق من عام ولادة داود باشا ، فدون فيه أخباراً مهمة ووقائع خطيرة لا يصيبها الباحث في سواه • ووصف أحوال العراق السياسية والاجتماعية وشئون القبائل العربية في أيام حكومة عمر باشا من سنة ١١٨٨ هـ الى حكومة الوزير داود باشا حتى سنة ١٢٤٢ هـ ، وذكر ما جدَّ في أيامهم من الوقائع ، وترجم لكثير من رؤساء القبائل ولطائفة من العلماء على حسب معرفته بهم • وابن سند من شهود العصر الذي أرخ له ، امتاز بدقة أخباره عن جنوبي العراق •

السيد عبد الله الفخري : من أسرة علم بالموصل أصلها من سادات الاعرجية ، وكان كاتب ديوان الموصل ، ثم جاء الى بغداد أيام الوالي

أحمد باشا الذي حكم بين (١١٣٦ — ١١٦٠ هـ) وظل في منصب كاتب الديوان الى وفاته • ويعرف بين كتاب الترك بـ (نشاطي) وهو لقبه ، وتاريخه معروف باسم (تاريخ نشاطي) كتبه بالتركية ، وجلا فيه صفحة من تاريخ العراق في هذه الفترة •

الشيخ ياسين بن حمزة آل شهاب البصري الشافعي : له منظومة في تاريخ آل افراسياب ووقائعهم الاخيرة ، ذكر فيها واقعة حسين باشا بن علي باشا آل افراسياب في البصرة ، وما جرى عليه مع مصطفى باشا والي بغداد وباقي الوزراء ، وفيها تفاصيل لا توجد في غيرها سواء من ناحية المواقع التاريخية أو تراجم الأعيان والوجهاء •

ابراهيم فصيح الحيدري : كتب : « عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد » ، فيه معلومات جغرافية وتاريخية واحصائية ونَسَبِيَّة عن البصرة وبغداد ونجد ، وأهميته خاصة في ذكره أنساب الاسر العراقية الشهيرة ، وأتم المؤلف كتابته ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٦ م •

الشيخ محمد امين السويدي : درس على علماء عصره ، وحج الى الحرمين الشريفين وشرع بالتأليف فشرح العقائد السلفية في كتابه المسمى (التوضيح والتبيين) ، له : « سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب » طبع بغداد سنة ١٢٨٠ هـ ، وله مصنفات كثيرة في الرد على الرافضة وعلى منكري الطريقة النقشبندية ، وله شرح تأريخ ابن كمال باشا وغير ذلك من الرسائل في المسائل الفقهية • وله رسالة في مولد النبي (ص) • وتوفي سنة ١٢٤٦ هـ •

السيد محمود شكري الالوسي : نسبة الى بلدة ألوس قرب عانة ، ولد سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م في بغداد وتوفي فيها سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م • عاش ٦٩ سنة قضى معظمها تحت الراية العثمانية حتى شهد زوالها ، وكان حائراً بين الرضى بها والكره لها •

وقد درس الألوسي في مطلع شبابه العلوم اللسانية والدينية على مشاهير عصره في بغداد ، وكلف بالتاريخ والسير واللغة ، وزاول الكتابة وتصدر للتدريس في جامع الحيدرية وجامع السيد سلطان علي . ومدرسة مرجان ببغداد . وقد حرر في جريدة الزوراء التي أسسها مدحت باشا سنة ١٨٦٩ ، وزار مؤتمر رالمستشرقين المنعقد عام ١٨٨٩ في استوكهولم لتقديم كتابه (بلوغ الارب في أحوال العرب) تلبية للدعوة الى تأليف كتاب يستوفي أحوال العرب قبل الاسلام ، وقد وجهت هذه الدعوة الى العلماء المختصين بتاريخ العرب والاسلام في الشرق والغرب . وقد نوهت اللجنة بفضل مؤلفه واثنت عليه واعتبرت كتابه وان لم يفز بجائزة الملك اوسكار الثاني من اقرب المؤلفات المقدمة اليها مراعاة لشروط المسابقة .

ومن مؤلفاته التاريخية أيضاً : « تاريخ بغداد » ذكر فيه بناء بغداد ومحالها وقصورها وجسورها وانهارها وقراها المجاورة .

و « المسك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر » ترجم فيه لطائفة من علماء بغداد وأعيانها .

و « مساجد بغداد » ذكر فيه ما في بغداد من المساجد والمدارس وترجم لبعض من انشأها ، ووصف بناءها ونقل ما على جدرانها من الكتابات والاشعار . وأهم ما فيه كلامه على المستنصرية والنظامية .

و « تاريخ نجد » يبتدىء بالكلام في بيان ما يطلق عليه اسم نجد من جزيرة العرب ، وما اشتملت عليه من القرى والبلاد ، وفصل عن مقاطعة الأحساء ، وفي شمائل أهل نجد ومعايشهم وأقواتهم وأزيائهم ومعتقداتهم . ويلي ذلك نبذة من تاريخ أمراء نجد ، واختتم الكتاب ببعض من اشتهر من علماء نجد ولا سيما المصلح محمد بن عبد الوهاب وفيما سوى هذه الآثار التاريخية فللألوسي مؤلفات دينية اصلاحية ،

ومؤلفات لغوية أدبية متعددة . وفي الكتابة التزم السجع في أول أمره ، ثم مال عنه الى طريقة الترسل السهل الواضح .

عبد الواحد بن عبد الله بن عبد اللطيف باش أعيان : (١٢٨٣—١٣٣٧) = (١٨٦٦ — ١٩١٩ م) مولده ووفاته بالبصرة ، كان من كبار تجارها ، له : « زبدة التواريخ » وهو تاريخ للاسلام مع ذكر خاص لتاريخ البصرة الاخير ، مع التاريخ التركي العام وتاريخ الحجاز ، وقد اعتمد المؤلف كثيراً على « مطالع السعود » ، لابن سند . ويقع الكتاب في ست عشرة مجلدة عربية مخطوطة .

القس سليمان الصائغ : له « تاريخ الموصل » ويبدو أنه اقتبس كثيرا عن (سالنامه) ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥ هـ ، والتي وصفها بالتركية حسن توفيق افندي مكتوبجي الولاية . وأحسن ما دون فيه حصار نادر شاه للموصل في سنة ١٧٤٣ م وكذلك عهد الاينجه بيرقدار (١٨٣٥ — ١٨٤٣) وفيه قائمة كاملة باسماء باشوات الموصل منذ سنة ١٠٠٠ هجرية . والحق أن « تاريخ الموصل » و « تقويم ولاية الموصل » يستقيان بكل أمانة من كتاب « منهل الأولياء » لمحمد أمين العمري .

الأب انستاس الكرملي : (١٨٦٦ — ١٩٤٧) ولد لأسرة لبنانية الاصل في بغداد ، وتلقى علومه في مدرسة الآباء الكرمليين وتولى تدريس العربية فيها من بعد . ووفد على بيروت لتدريس العربية وآدابها في المدرسة اليسوعية ، ثم درس الفلسفة واللاهوت في بلجيكا ومونبيليه ، وأصبح كاهناً سنة ١٨٩٤ ، ثم زار الاندلس وعاد الى العراق وانصرف للتأليف ، وعمل في ميدان اللغة والصحافة والتاريخ ، وأتقن عدة لغات غربية وشرقية . أهم مؤلفاته : « خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه الى يومنا هذا » طبع في البصرة ١٧١٩ م .

يوسف رزق الله غنيمة : (١٨٥٥ ــ ١٩٥٠) ولد في بغداد وتلقى علومه فيها وأتقن الفرنسية والانكليزية والتركية مع المام بالآرامية ثم عمل في التجارة عام ١٩٠٦ ومال الى الكتابة التاريخية والاقتصادية ، وعمل في الصحافة مدة ، وقام برحلات في أطراف العراق وفارس ، وكتب مذكراته عن رحلته والقى سلسلة محاضرات عن تاريخ العراق القديم • ومن مؤلفاته : « نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق » و « الحيرة المدنية والمملكة العربية » و « محاضرات في تاريخ مدن العراق » و « تجارة العراق قديماً وحديثاً » •

علي ظريف الاعظمي البغدادي : له « تاريخ ملوك الحيرة » بغداد ١٩٢٠ و « مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث » بغداد ١٩٢٦ ، و « تاريخ الدول الفارسية بالعراق » بغداد ١٩٢٧ ، و « تاريخ الدولة اليونانية بالعراق » بغداد (لا تاريخ) •

ولا يتسع المجال الا للتنويه في الوقت الحاضر بتآليف عبد الرزاق الحسني ، وعباس العزاوي الذي جرى في كتاباته على الطريقة القديمة ، بحسب السنين والولاة وما جرى في أيامهم • ولكن بعد تأسيس الجامعة العراقية في بغداد والمعاهد العلمية الأخرى نشأت فئة من الدارسين والمؤرخين يحتلون اليوم كراسي التاريخ في الجامعة ، ولهم مؤلفات تضاهي أحسن البحوث الغربية التاريخية • ومنهم الاساتذة الدكاترة : زكي صالح ، عبد العزيز الدوري ، فاضل حسين ، صالح العلي ، فيصل وائلي ، جواد علي ، محمود على الداود وغيرهم من كبار الاساتذة •

٢ ــ التاريخ والمؤرخون في الجزيرة العربية

في القرن الثاني عشر الهجري نشر المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الاصلاحية فاستقرت الاحوال في نجد وتوحدت مناطقها تحت راية آل سعود وانتشر العلم في اعقاب هذه الدعوة الاصلاحية ، وعكف بعض العلماء على تأريخها ، ونخص بالذكر منهم :

الشيخ حسين بن ابي بكر غنام المالكي : المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ .
استدعاه الامير سعود بن عبد العزيز بن محمد (١٢١٨ – ١٢٢٩ هـ)
الى عاصمته الدرعية لتدريس علوم اللغة العربية ، فمكث الشيخ في
المدينة بضع سنوات مدرساً . ثم تولى في الوقت نفسه تدوين تاريخ
الدعوة الاصلاحية الوهابية مبتدئاً بوصف حالة البلاد الاسلامية من
الناحية الدينية أثناء قيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنشر دعوته ،
ثم بترجمة الشيخ وذكر طائفة من رسائله ومؤلفاته ، وجعل كل ذلك
في كتاب سماه « روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام » . ثم
أتبعه بكتاب آخر سجل فيه الغزوات التي قام بها آل سعود لمناصرة
الدعوة الوهابية والتمكين لها في البلاد ، وجعله بعنوان : « كتاب
الغزوات البيانية والفتوحات الربانية » ، وقد بدأه من سنة انتقال
الشيخ من العُيَيْنَة الى الدرعية سنة ١١٥٨ هـ ، وانتهى به الى سنة
١٢١٣ هـ ، ويعتبر تاريخ ابن غنام أوثق مصدر عن حوادث هذه الحقبة
الزمنية المهمة .

والنسخة المطبوعة نشرت في جزئين سنة ١٩٤٩/١٣٦٨ في القاهرة
وعنوانها : « تاريخ نجد المسمى روضة الافكار والافهام لمرتاد حال
الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام » .

الشيخ عثمان بن بشر : المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ . هو عثمان بن عبدالله
بن عثمان بن احمد بن بشر من قبيلة بني زيد القضاعية القحطانية التي
تسكن بلدة شقراء من بلدان الوشم . عزم على جمع ما يمكنه من
تاريخ نجد ، فوجد ان الحوادث مدونة مرتبة ابتداء من قيام الشيخ
محمد بن عبد الوهاب بدعوته ، أما الحوادث التي وقعت قبل هذه
الدعوة فمتفرقة لا يربطها زمن ، ولا بد للمؤرخ من القيام بتدوينها ،
ولذلك عكف على وضع كتابه « عنوان المجد في تاريخ نجد » ليجمع

وقائع آل سعود وأخبارهم مرتبة منسقة على حسب السنين من السنة التي ابتدأ بها ابن غنام القسم الثاني من تاريخه .

ومن مؤرخي الحجاز **احمد بن زيني دحلان** المتوفى ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م أهم تآليفه في التاريخ « الجداول المرضية في تاريخ الدول الاسلامية » . تناول فيه الدول دولة بعد دولة مبتدئاً بالنبي (ص) فالخلفاء من السنة والشيعة الى زمانه ، مع اشارات خاصة الى جزيرة العرب ومصر .

ومن مؤرخي اليمن والجنوب العربي **ابن الديبع الزبيدي** المتوفي سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م ، وله « بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد » وهو تاريخ مطول للمدينة منذ تأسيسها الى سنة ٩٠١ هـ . نقل مادته عن مؤرخي اليمن السابقين .

محي الدين العيدروس المتوفي سنة ١٠٣٧ هـ . له كتاب تراجم مشهور يسمى « النور السافر في أخبار القرن العاشر » والجديد فيه عناية المؤلف بتراجم العلماء في الهند ، وهو يعتبر مؤلفاتهم جزءاً من التراث العربي الثقافي في عهدئذ ، الى جانب عنايته بالترجمة لعلماء اليمن .

ومنهم أيضاً **ابن أبي الرجال** المتوفى ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م . أهم مؤلفاته معجم في التراجم مرتب على حروف الهجاء بعنوان : « مطلع البدور ومجمع البحور » . يشتمل على ١٣٠٠ ترجمة تقريبا لأكابر الزيدية في اليمن والعراق الى الوقت الذي عاش فيه المؤلف . وكان يشير الى مصادره بدقة .

واليوم يشرق يوم جديد في التأليف التاريخي المنظم بعد تأسيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الرياض في المملكة العربية السعودية وقد بدأت طليعة مؤرخيها المحدثين تعطي نتاجها على يد الاستاذ الدكتور عبد العزيز الخويطر .

الفصل الثالث عشر

التاريخ والمؤرخون في اقطار المغرب العربي

خصائص التاليف التاريخي : لا تكاد حركة التأليف التاريخي في المغرب العربي الحديث تختلف عن مثيلتها في المشرق العربي الحديث ، التي أتينا على ذكر جوانب منها •

ففي المغرب بشتى أقطاره يزدوج كاتب التراجم بالضرورة مع الاخباري ، كما هو الحال في بقية اقطار العالم العربي الاسلامي ، باستثناء مراكش التي كان فيها ما يشبه وظيفة المؤرخ الرسمي للدولة ، برغم ان التاريخ فيها كان يقتصر على الملوك والحكام • والتواريخ تتألف ، كما هو الحال في المشرق ، من كتب أخبار ذات امتداد زماني ومكاني متغير ، ومن تراجم الامراء والعظماء دونما ذكر للتطورات التاريخية الكبرى ، أو عناية بربط الاحداث بعضها مع بعض بغية اكتشاف الصلة بينها ، ومدى التأثير والتأثر الواقع فيها ، مما يساعد على فهم التاريخ والنظر الى أحداثه في اطارها الواسع الشامل •

وتتألف هذه التواريخ كذلك من قصائد شعرية واراجيز متحيزة كثيراً أو قليلا ، ولا تكاد تصلح الا للغرض التعليمي • ومن المعلوم ان كتابة التراجم لا تؤلف في نظر العلماء المسلمين نوعاً مستقلا ، أو حتى علماً مساعداً لعلم التاريخ • فكتابة التراجم للملوك والامراء والوزراء في بقية العالم الاسلامي ، وهي تراجم للملوك والامراء والوزراء وغيرهم من رجال الدول ، أو العلماء والصلحاء والاعيان •

أما حياة الشعب الاجتماعية ، والبطولات الشعبية التي يزخر بهـا تاريخ اقطار المغرب العربي ، فلا نكا دنجد له أثراً الا في النزر اليسير ، وفي كلمات عابرة ترد استطراداً ، أو نظراً لضرورة الاشارة اليها فـي الحديث عن بعض أولي الامر والسلطان • ولا عجب اذا سمعنا أحـد المعاصرين من كتاب التراجم في مراكش يقول : « ان تراجم الكبار أجلّ من التاريخ » • وتتركز معظم الكتابات التاريخية غالباً حول سرد زمني للوقائع والاحداث ، وما عدا ذلك فكلام مطول عن المعارك والحروب ومظاهر النزاع حول العروش والتيجان •

أما بالنسبة لأساليب الكتابة التاريخية ، فلا تختلف عنها لدى كتاب التاريخ أو كتاب التراجم في الشرق الاسلامي أو في الاندلس بالعصور الوسطى ، وليس ثمة تطور مهما كان شأنه في كتابة التاريخ في أقطار المغرب حدث بعد ذلك ، برغم ان المؤرخين في مراكش خاصة يكادون ينفردون بمعالجة موضوعاتهم لا وفق اطار ديار الاسلام عموماً ، وانما ضمن حدود بلادهم ونطاقها القطري المقتصر كلياً عـلى مراكش • وقد حدث هذا التطور ببطء • وتدريجياً مالوا لعـدم ذكر ماليس مراكشياً في مدوناتهم • ولم يجر المؤرخون في أقطار المغرب العربي — كما سيتبين لنا من استعراض آثارهم التاريخية — ان يتحرروا من طريقة اسلافهم القدامى في المشرق والمغرب على السواء • وباستثناء بعض التواريخ النادرة ، ظل المؤرخون يستقون معلوماتهم ومـادة تواريخهم عن المؤلفات السابقة لعهدهم ، سواء أكان اصحابها مـن الاخباريين أم من كتاب التراجم • ويعكف المؤرخ — في العـادة — على مصادره يدرسها ، استعداداً لمرحلة الصياغة ، وعندما يشرع بالكتابة، يشرح الهدف من كتابة مؤلفه في المقدمة ، ويضع له عنواناً في قافية رنانة ، ثم يبدأ الكتابة في موضوعه ، تماماً كما كان الحال في اقطار المشرق • وبينما تتركز عينـاه على مذكراته و جذاذاته يجري قلمـه

بالكتابة السريعة على المبيضة •

وهنا تعرض له طريقتان في انشائه التاريخي ؛ فأحياناً يدخل في كتابه جميع الشواهد والدلائل غير المتعارضة المتوفرة لديه ؛ وأحياناً اذا وقع الشك في نفسه في حالة عدم توافق روايتين حول مسألة ، فانه يكتفي بايرادهما تفصيلا • ومن جهة أخرى يترك في غالب الاحيان للقارىء ان يستنتج الحقيقة بنفسه ، ويحكم على الحادثة ، وذلك بأن يضع القارىء أمام عناصر الموضوع ، فلا يشعر القارىء بأن المؤلف واسطة ايصال المعلومات فحسب ، شأنه في ذلك شأن المؤرخين العرب القدامى ؛ ومتى انتهى وضع الكتاب فانه لا يبقى في نجوة من التعديل والتغيير في نصوصه ، وحتى حين يتم نسخ الكتاب ويوضع موضع التداول ، يسكن الاضافة اليه أو الحذف منه ، وبما ان نص الكتاب ليس مثبتاً في مطبعة تثبيتاً نهائياً ، فان هذه الاضافات المعدلة أو المغيرة ؛ تبدو لأول وهلة غير ذات أهمية ، وهنا يحدث الاختلاف بين نصوص النسخ للكتاب نفسه •

أما الاسلوب اللغوي للمؤرخين المغاربة ، فهوعموماً أسلوب واضح، وجملهم قصيرة ، نلمس فيه أحياناً من الفخامة وقليلاً من التعقيد ، وفي بعض التواريخ نصادف اللهجة المراكشية المحلية ؛ وفي غيرها نصادف اهتماماً بالاسلوب البراق الرنان ، ويتدفق سيل اللغة الجميلة والاسلوب الضخم في كتابات مؤرخي الاسرتين السعدية والعلوية في مراكش ؛ وأحياناً تزدحم الاستعارات والتشابيه وتلتف المعنى الحقيقي المراد ، بحيث لا بد للقارىء أن يتوقف بين آونة وأخرى لاستيعاب ما يقرأ •

وفي عرضنا للتأليف التاريخي في أقطار المغرب العربي الحديث ، نبدأ بمراكش نظراً لان حركة التأليف التاريخي فيها كانت ناشطة بسبب

الظروف التاريخية المحلية . وكما فعلنا في عرضنا للتاريخ والمؤرخين في اقطار المشرق العربي ، سنكتفي بتحليل وتقدير بعض الكتب التي استطعنا مطالعتها ، وسنوجز في ذكر المؤلفات التاريخية الاخرى في كل من تونس والجزائر وليبيا .

التاريخ والمؤرخون في المغرب الاقصى (مراكش)

تنحصر الكتابات التاريخية في مراكش غالباً في أحد هذين النوعين التـــاليين :

أ ـ تواريخ البلاد والدول والسلالات المالكة .

ب ـ كتابة التراجم الفردية أو الجماعية والطبقات .

أ ـ فالنوع الأول يتركز في مراكش خاصة على التاريخ الأسري للحكام الذين تعاقبوا على مسرح السياسة في المغرب الاقصى ، ومن المعلوم ان الملوك والرؤساء في المغرب والمشرق كانوا يرتاحون لقراءة ما يمجدهم وما يخلّد ذكرهم ، لأن ذلك من شأنه ان يرفع منزلتهم ليس فقط في نظر شعوبهم ، بل وفي نظر الامم الاجنبية أيضاً . وكان من الطبيعي ان يتزاحم الكتاب على قصور الحكام لتقديم تناج قرائحهم طمعاً في الهدايا والألقاب والوظائف . ولا حاجة الى القول ان هذا الفرع من الكتابة التاريخية ما كان يخلو من تملق الظلم والظالمين ومجافاة النزاهة والتجرد والعدالة . ومن خلال التملق والتحريف يبدو السلطان الفاجر سلطاناً مثالياً ، وهذه الآثار المكتوبة ينبغي أن تقرأ بحذر شديد . ويجانب هذا النوع المتملق يوجد مؤلفات أخرى لا تكتفي بالمديح والتقريظ فقط ، وانما تورد بعض التفاصيل عـــن الاحداث الهامة في عهد الملك الممدوح ، مع مقدمة عن أسلافه مـــن سلالته ، وهي تتضمن عادة بعض الاحصائيات التي لا تنكر قيمتها

في التاريخ • وينبغي التمييز بين المؤرخين والكتاب الذين يكلفهم السلطان رسمياً بكتابة التاريخ ، وبين أمثالهم ممن يبادرون تلقائياً بالكتابة كيما يقدموا مؤلفاتهم الى السلطان طمعاً بوصله • ذلك ان المؤرخين الرسميين ، ان صحت هذه التسمية ، يتمتعون بكل التسهيلات وكل وسائل الاستعلام فنراهم يدرجون في تآليفهم قوائم كاملة بالموظفين وأسماء الضباط والقادة وعدد العساكر في حال الحرب ، وأسماء الاقاليم ، وحكام الحصون ، وكتب التهنئة الموجهة للملك في حال النصر ، ورسائله الى شعبه أو الى سفاراته في خارج البلاد • كذلك تر داسماء موظفي الديوان وشخصيات البلاط والوزراء والامناء والقادة مع تراجم كاملة لهم ، بالاضافة الى السفارات الاجنبية التي وصلت الى البلاط ، والبعوث التي أرسلها هو الى بلاطات الخارج ، اذ يرى المؤرخ في كل ذلك اشادة بعظمة الاسرة المالكة ، والحاشية ، وقد لا يغفل المؤرخ أيضاً ذكر نفقات الاسرة المالكة ومواردها • وهذا النوع نجده في كتابات المشارقة من رجال الدولة والادباء والمؤرخين والاعيان والعلماء المطلعين على حقائق الامور • ونحن عادة نميل الى الثقة بالكتابات التي يدونها كاتبها عندما تكون الاسرة الحاكمة في أوجها ، أي عندما يكون صادقاً في وصفه لأحوالها ، وأما اذا كانت هذه الاسرة منهارة ومهددة بالخراب في الوقت الذي يدون المؤرخ أخبارها ، فاننا نميل الى الحذر منه والى اتهامه بالتحيز والتزوير • وندرة من الكتاب تلك التي سجلت الاخطاء والعيوب والنقائص . ومن هذه الندرة ابن السلطان العلوي سيدي محمد بن عبدالله(١٧٥٧ــ ١٧٨٩) • فقد ألف كتاباً مملوءاً بالنقد واللوم المرير ولم يجد حرجاً في تسجيل جميع ما شاهد من نقائص الاسرة المالكة التي ينتمي اليها ، ويستنكر أخطاء حكومة والده ، وثمة كاتب آخر هو ابو عبد الله محمد ابن عبد السلام الضياف الرباطي ، في كتابه « العلويون منذ بدايتهم

حتى منتصف حكم مولاي سليمان » نحو عام ١٨٠٠ م ، سجل فيه كل ما بدا له حسناً ، ومن المؤسف ان كتابه مفقود • وتهتم مؤلفات التاريخ الاسري في مراكش بالسلطة الملكية وما يحيط بها فحسب ، وما عدا ذلك لا يستحق الاهتمام في نظر المؤلفين • ويلاحظ ان هذه المؤلفات تهمل عن قصد تاريخ البلاد الداخلي الشعبي الذي يدور من حول زوايا العلماء والصلحاء والمرابطين ، والطرق الدينية ، ربما لاعتبارات الرعاية والاكرام الواجبين نحو الملك ، ومراعاة للصراع الخفي والصريح بين السلطة المركزية الملكية ، وبين الرؤساء الدينيين ذوي النفوذ الواسع بين عامة الناس •

ب ـ أما النوع الثاني من الكتابات التاريخية فهو كتب التراجم والسير والطبقات ، و لاتختلف عن مثيلاتها في المشرق أيضاً ، اللهم إلا بأنها تنحصر غالباً في نطاق الحدود المراكشية المعروفة ، في حين ان تراجم المشرق ، وخاصة الشامية منها كانت تتسم بالوحدة الثقافية العربية الشاملة • وبما أن مراكش يكثر فيها الصلحاء والشرفاء ، ويلقى هؤلاء التعظيم والتبجيل والاحترام في هذا القطر ، وليس في أي بلد اسلامي آخر ما يعدل مراكش في عدد الزعماء الروحيين المسلمين وعدد الاولياء والشرفاء والصلحاء • ومن هنا كانت كتب التراجم متعددة غزيرة لا تهتم الا بالشرفاء والعلماء •

هذا الى ان فكرة التاريخ ومفهومه لدى كتاب هذين النوعين من التواريخ المراكشية ، ليست واحدة • أما **كتب تاريخ السلالتين الحاكمتين** سلالة الاشراف السعديين ، وسلالة الاشراف العلويين ، فتنصب موادها خاصة على حياة الملوك الشخصية • وليس في هذا النوع من الكتابات التاريخية أي تطور أو تقدم عما كانت عليه في العصور الوسطى ، برغم انحصارها داخل حدود مراكش • وأصحابها لا يختلفون عن اسلافهم

في البلاط المريني والوطاسي • أما كتّاب التراجم فقد سخروا أقلامهم لكتابة تراجم الاولياء والشرفاء ، والاشادة بمناقبهم ومزاياهم ، أو عكفوا على وضع قواميس تراجم عامة ، ولا نكاد نجد كتباً خاصة بطبقات الحفّاظ والفقهاء والنحويين • وانما نجدها واردة في ثنايا التراجم حيث يتجاور الأولياء والفقهاء والمحدثون مع بقية أعيان المجتمع المراكشي الاسلامي •

وما ذكرناه عن طريقة الكتابة لدى المؤرخين المغاربة عموماً ، ينطبق على المراكشيين منهم خاصة ؛ فطريقتهم هي نفس الطريقة التي وضعها اسلافهم القدامى ، وهم لم يجربوا أبداً أن يتحرروا منها ولا يمكن القول ان دورهم كان مجرد الاجابة على أسئلة تقليدية مصبوغة بالصبغة الاسلامية القوية • ومطالعة المدونات التاريخية الموضوعة في العصر الحديث ، تكشف عن هذا الاسلوب • ويصعب علينا أن نحيط بما استعمل المؤرخ من الاصول والمراجع الموضوعة تحت تصرفه ، وما توصل اليه بفضل تحقيقه الخاص ، بصورة مباشرة عن الطريق الشفوي، أو بصورة غير مباشرة عن طريق محفوظات الدولة ودواوينها ومخطوطات العائلات والاشخاص وما إليها • وهذه المراجع الأخيرة يتعذر ضبطها وتحقيقها غالباً ، ولكن المؤرخ لا يلجأ إليها إلا قليلاً ، وذلك حينما لا يكون هو نفسه معاصراً للأحداث التي يرويها • ويستطيع المؤرخ بوجه عام أن يحيط بالمؤلفات التي تتصل بموضوع تاريخه الذي يزمع تدوينه • ولكن توثيق هذه المؤلفات وضبطها من جانب النقاد هو أمر لا يتيسر دائماً • ذلك أن المطبعة لم توجد في مراكش حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ووجدت في فاس مطبعتان تطبعان على الحجر ومعظم مطبوعاتهما ذات صفة تعليمية • والانتاج الادبي والتاريخي كان يعتمد على النسخ الذي يكلف كثيراً •

واذا جمع الكاتب بعض المواد التي تتصل بموضوعه ، فانه يحيط

بمحتواها ، ويأخذ منها ما يستطيع وينسخه ، وهذه المذكرات تسمى (فوائد) •

اما كتاب **التراجم** فقد كتبوا باعتدال أكثر من الاخباريين ؛ ذلك لأنهم لم يكونوا مدفوعين بحافز الحصول على جائزة من الحاكم أو الاسرة أو الشخصية التي يؤرخون لها • وكانوا يعتمدون أكثر من الاخباريين على المعلومات التي تأتيهم عن مصدر شفوي ، من اقرباء المترجم له وأحفاده وأصحابه ، وعملهم أبسط حتما من عمل المؤرخين لأنه مسرد تجميع للمعلومات في معظم الحالات • ولا يهتم المؤرخ المراكشي ، سواء كان كاتب حوليات أم كاتب تراجم ، بالمعلومات التي تصله من مصدر شعبي ، اذ يشكل العامي عادة من الاحداث السياسية التي يشهدها رأياً يطيب له ، ويتأثر بنفوذ الصلحاء ومشايخ الزوايا الدينية ، ولذا لا يوردها المؤرخ بل يرفضها أحياناً ، كما حدث بمناسبة موت السلطان أحمد المنصور ، الذي لم يتردد المؤرخ الافراني في أن ينفي ما دار من ضجة حول « تسميم » السلطان المذكور من قبل ابنه مولاي زيدان ، بدلاً من وفاته بوباء الطاعون حتف أنفه • قال الزياني « لا أحد من المؤرخين الموثوقين » ذكر هذا التسميم الذي ليس الا من بنات أفكار الشعب والطلبة الجهلاء » • كما أنه لفت النظر الى انه ترك جانباً الاقوال التي تؤثر على العامي ، لأنه وجد ضرورة لاستثنائها من الكتاب •

ومهما يكن الأمر فانه يصعب عيلنا أن نضع تصنيفاً للمؤلفات التاريخية المراكشية بحسب منهج وطريقة كتابتها • وأول ما يلفت النظر من استعراض هذه المؤلفات هو نقص المؤلفات التي تعالج التاريخ العام للبلد منذ اصولها الاسلامية الاولى ، الى أن حاول المؤرخ الناصري السلاوي منذ نهاية القرن التاسع عشر أن يسد هذا النقص • ويلفت النظر أيضاً ان التواريخ هي تواريخ الاسرات الحاكمة السعدية والعلوية ،

وأحسن ما فيها عادة هو الجزء الذي يتصل بحياة السلطان في وقت كتابة المؤلف لكتابه ، أو الجزء المتصل بخلفائه المباشرين بعده الذين يتوفر لدى المؤرخ عنهـم معلومات حسنة . ولكن تاريخ حكم أي سلطان لا ينظر اليه في مجموعه ، فالمؤرخ المراكشي هو كاتب حوليات يقوم بتدوين الاحداث المتتالية خلال عام واحد ، ثم ينتقل الى العام الذي يليــه ، وهكذا . فعمله أن يسجل كل ما يعاصره مما يراه أو يسمعه ، دون أية رابطة بين الاحـداث العامة ، وهــذا هو اسلوب (اكنسوس) فلا يترك للمؤرخ مجالا للحكم على احداث عصره احكاماً اجمالية الا في الوقت الذي يصل فيه الى موت الملك أو صعود وريثه الى العرش بدلا عنه . ووظيفة المؤرخ حينئذ أن يعطي وصفاً تفصيلياً عن صورة الامير الجديد من حيث طوله ولونه واسنانه وخلاف ذلك ، هذا الى جانب صفاته الخلقية وثقافته ، ومقارنتها مع غيره ، وهذا هو اسلوب **(ابن القاضي)** في كتابه « المنتقى » . وهــذا الاسهاب في تحليل المشاعر قد لا يترك المجــال واسعاً دائماً لدراسة حكم الملك السياسي . ويترك المؤرخ عادة مكاناً صغيراً لترجمة الشخصيات الكبيرة في البلاط بحسب مراتبهم ومنزلتهم من الملك . وتطالعنا كتابات بعض المؤرخين أحياناً بقوائم كاملة بأسماء كبار الموظفين والقادة والقضاة ، في مدن فاس ومكناس ومراكش خاصة ، مع كتّاب السر والسكرتارية. وتتضمن هذه التواريخ كذلك رسائل موجهة من الملوك والسلاطين الى أبنائهم ، وهي تعطي صورة عن تنظيم القصر الداخلي في مراكش وتفصيلات عن الحياة الاجتماعية في البلد . والى جانب الاحــداث السياسية نجد أخباراً عن بناء أو اصلاح القصور والمعابد في عواصم الامبراطورية المراكشية ، مع ذكر للظواهر الحيوية النادرة ، والاوبئة والمجاعات ، والزلازل والجراد ، وظهور المذنّب الذي انطبق توقيته مع توقيت معركة المخازن سنة ٩٨٦ هـ وخلاف ذلك مما رأيناه لــدى

المؤرخين المشارقة سواء بسواء •

ولعل **القادري** في « نشر المثـاني » كان يُعنى أكثر من غيره بتسجيل النكبات العـامة ، فقد ورد في قاموسه عن تراجم الرجـال تفصيلات مثيرة عما أصاب مراكش في اعقاب زلزال أول تشرين الاول سنة ١٧٥٥ م • ويمتاز القادري في أنه جمع في كتابه « التقاط الدرر » و « نشر المثاني » الموضوعات السياسية والترجمة للرجـال في آن واحد ، فهو يمثل مرحلة انتقال بين كاتب الاخبار التاريخية الصرف ، وبين قاموس الاعلام لمشاهير المراكشيين ، واسلوبه أن يسرد تراجم الاعلام المتوفين خلال تلك السنة ، الواحد تلو الآخر • ثم يرسم لوحة مختصرة للاحداث الداخلية التي جرت في البلد • ويمكن أن تعتبر تراجمه للعلماء والصلحاء في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين كتاريخ سياسي على شكل حوليات في الوقت نفسه ، ولكن القادري في ذلك لا يمثل القاعدة العامة في كتاب التراجم بمراكش ، وكتاب التراجم كالاخباريين ، يهتمون باسم وصفات المترجم ومزاياه واساتذته واجازاته التي حازها ، وأسماء مؤلفاته ومصنفاته ، وأسماء مشاهير تلامذته ، ومكان وزمان ولادته وموته ، ومكان دفنه ، وعند ذكـر ترجمة العلماء والاولياء تذكر مظاهر كراماتهم ومناقبهم كل بحسب مكانته • ان تدوين قصة الرحلة الى الديار المقدسة في الحجاز تتضمن عادة تراجم العلماء والفقهاء والمشاهير الذين صادفهم الحاج أثناء سفره ، هذا الى ان رحلة الحج تكون أشبه بقاموس طوبوغرافي يحتوي على كل ما هو مشهور في دنيا الاسلام ، وهذا يذكرنا أيضاً بهذا النوع من الكتابة التاريخية لدى المشارقة •

أما اسلوب المؤرخين المراكشيين فقد ذكرنا انه واضح وبسيط ، ويختلف بين مؤرخ وآخر ، فاسلوب الفشتالي والقاضي وهـما من مؤرخي الاسرة السعدية ،يبدو متكلفاً ورناناًبراقاً ، وربما لايتصنع الافراني

كثيرا في اسلوبه المشجع الا حين يريد أن يذكر بعض قوانين الادارة المركزية ، بدون عاقبة سيئة ، كما أن اسلوبه في تاريخه لا يخلو من بعض الطلاوة • ولكن الوزير المؤرخ الزياني يضحي بكل قوالب الادب في عرضه في « الترجمان » من أجل توضيح الوقائع التاريخية• أما في كتابه « البستان » فعلى العكس يهتم بالاسلوب الادبي • وقد رأى الزياني — بحق — انه يجب ألا يضحى بالوضوح في مؤلف تاريخي من أجل فخامة الاسلوب • وتنطبق هذه الملحوظات عن الاسلوب اللغوي لدى الاخباريين المراكشيين على مدونات كتاب التراجم ومؤلفي سير الصلحاء والاولياء • وفيما يلي سنعرض لمؤرخي الاسرات والدول واصحاب التراجم في مراكش •

مؤرخو الدول والاسرات :

عبد العزيز الفشتالي : هو ابو فارس عبد العزيز بن محمد ابن ابراهيم الصنهاجي الفشتالي ؛ المولود عام ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م والمتوفي سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م • ولد ببلاد فشتالة ، وينسب الى فشتالة . وهي قبيلة في الشمال الغربي لفاس ومن قبائل صنهاجة ؛ تلقى العلوم الدينية عن علماء عصره في فاس وبرع في الكتابة والشعر والادب ، وظهر نبوغه مبكراً إذ عين رئيس الكتاب في بلاط الملك ابي العباس أحمد المنصور من اسرة الاشراف السعديين ؛ ونال حظوة كبيرة لدى المنصور ، وما زال في خدمة المنصور حتى توفي المنصور في فاس سنة ١٠١٢ هـ ، وخلفه ولده ابو المعالي زيدان ، فاستمر كاتباً عنده ؛ وثبت على عهده وتوفي في خدمته سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م • ولم يكن الفشتالي كاتب الديوان الملكي فحسب ؛ وانما كان أيضاً مؤرخ الدولة وشاعر البلاط الرسمي ، وهو الذي نظم أكثر مقطوعات الشعر المحفورة على المرمر والخشب في أروقة قصر البديع وداخل أجنحته في مدينة

مراكش • ومترجمو الفشتالي ، وخاصة صديقه المقري في نفح الطيب ، اعترفوا بأنه من أعظم شعراء عصره •

مؤلفاته : « مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا » وهو كتاب مفقود ذكر المقري انه يتألف من ثمانية مجلدات ، وقد استعمله المؤرخ الافراني ووصفه بأنه يشتمل على تاريخ دولة الاشراف السعديين منذ نشأتها حتى عهد المنصور ويتضح من المقتبسات المطولة التي أخذها مؤرخون لاحقون عن كتاب الفشتالي أن المؤلف جعل كتابه مديحاً وتقريظاً لأسرة المنصور الشريفة التي تنسب الى النبي صلى الله عليه وسلم وجعله مشتملاً على جميع الحوادث التي وقعت خلالها • ويبدو أن الفشتالي وجد في العمل التاريخي الذي وكله اليه المنصور فرصة لاظهار موهبته كناثر وكشاعر ، لدرجة ظهر معها كتابه أشبه بديوان الشعر ، تبرز فيه المادة التاريخية على شكل لحمة لوصل القصائد في الكتاب • ولكن الكتاب يبقى ذا أهمية تاريخية لا يستهان بها ، وقد وصفه الافراني بأنه يضم أدق تفاصيل حكم المنصور وحكومته ، ولا شك أن أجود ما في كتاب الافراني وأكثره نفعاً هو خلاصات ومقتبسات عن الفشتالي ، فيما يتصل بحياة السلطان المنصور العامة والخاصة ، وفيما يتصل بتنظيم البلاط الشريفي على النمط التركي ، وتنظيم الجيوش السعدية ، وبناء قصر البديع الذي أراده المنصور أن يبقى أثراً خالداً لأسرته والذي حمل الرخام له خصيصاً من ايطاليا ، مقابل وزنه سكراً من معاصر القصب القائمة على طول الشاطيء الاطلسي في مراكش • وفقدت للاسف مؤلفات الفشتالي غير التاريخية ولولا الافراني الذي حفظ لنا خلاصة تاريخ الفشتالي لضاع أثره ، وكذلك المؤرخ اكنسوس أورد في تاريخه مقطعاً طويلاً من تاريخ الفشتالي •

وطريقة الفشتالي كما تبدو من خلال المقتبسات ، هي انه يذكر

الوقائع والحوادث المهمة بشيء من الاسهاب ويقتصر على ما هو مهم في سرده . واذا ضاع تاريخه نهائياً فهنالك مؤلف آخر عن أسرة الاشراف السعديين وضعه أيضاً مؤرخ معاصر هو ابن القاضي .

ابن القاضي : هو شهاب الدين ابو العباس أحمد بن محمد بن أحمد ابن علي بن عبد الرحمن بن أبي العافية المكناسي الزناتي المعروف بابن القاضي . المولود في ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م ويرجع نسبه الى قبيلة زناتة التي استقر كثير من أبنائها في فاس ومكناس . تلقى العلم على والده وعلى غيره من مشاهير عصره ، وبرع في الحساب والعلوم التي « كان يعوم فيها كالسمك بالماء أو يحلق فيها كالصقر في السماء » وقد ارتحل الى ديار المشرق الاسلامي حاجاً حيث سمع عن بعض العلماء ومكث هناك مدة طويلة ، وعاد الى بلاده . وفي فزان علم بانتصار المنصور على اعدائه البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة ٩٨٦ هـ وقتل ملكهم . ولما عاد ابن القاضي الى المشرق ثانية سنة ٩٩١ هـ اسره قراصنة البحر النصارى ، وبعد احد عشر شهراً من الاسر والحرمان ، افتداه المنصور الذهبي ، فمدحه ابن القاضي بقصيدة طويلة . وبعد أن شغل منصب قاضي سلا صُرف منه وانتقل الى فاس حيث استقر وكرس حياته للتدريس في جامع الأبّارين ، وكان من تلاميذه احمد المقّري صاحب نفح الطيب الذي قام بالصلاة عليه حين توفي ابن القاضي بفاس سنة ١٠٢٥ هـ ١٦١٦ م .

مؤلفاته : ترك قرابة ١٤ كتاباً ، أربعة منها تراجم ادبية (وثلاثة مصنفات تاريخية .) أولها .

« المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور » ، وقد خصصه للاسرة السعدية بل للملك أحمد المنصور الذهبي ، ويبدو من صفحة الكتاب الأولى انه مقدَّم الى الملك عرفاناً بجميله إذا أطلق صاحبه من

الاسر فهو يعدد أفضاله ، ويسهب في وصف مناقبه وصفاته الخلقية والخلقية ، ويشيد بعدله ونزاهته وورعه ، ومعارفه وصبره وعنايته بالعلوم وبموسم المولد النبوي وما الى ذلك . ومن خلال هـذا كله تطالعنا معلومات تاريخية قيمة ، وخاصة في مطلع الكتاب ، حين تحدث عن نسب الاسرة السعدية موجزاً لأن سابقيه تناولوا ذلك ، ثم يبدي الشك في بنوة واحد من جدود الأسرة ؛ وبعدها يتحدث عن ميـلاد السلطان المنصور ، وكيف اعلن ملكاً بعد معركة وادي المخازن (٤ آب ١٥٧٨ م) وبالمناسبة يورد ملخصاً عن المعركة ويقارنها بمعركة بدر ، ثم يستطرد الى فتوح السودان على يد جيوش المنصور ، في السنوات التالية . ولا يستطيع إلا القارىء النبيه أن يلتقط هذه المواد التاريخية الغارقة في بحر التقريظ والمـديح للسلطان ، مما يجعلها شحيحة ؛ فالكتاب في فصوله الثماني عشرة مليء بالشعر والاستطرادات الجانبية والفوائد الدينية . مثال ذلك انه بينما يتحدث عن تقوى المنصور في الفصل السادس يدخل في حديث طويل عن فوائد مخافة الله ، وخلال ذلك كله يورد ما لا يقل عن ١٣ مقطـوعة شعرية في كل منهـا من ١٠ ـ ٢٠ بيتاً ، ثم يعود الى فصله ليختمه ببضعة سطور . وقد شرح ابن القاضي اسلوبه في الكتابة : « وقد أذكر بعض حكايات وقصائد ومقطعات انشدتهـا وملحغريبة استحسنتها ، ليكون ذلك كالمعين على مطالعة الكتاب لأن النظر في فن واحد قد ترغب عنه النفوس ، بخلاف ما اذا نحي بغيره فقد يسلي العبوس ، والخاتمة اذكر فيها نكتاً غريبة وطرفاً عجيبة يصغي اليها المنتهي والشادي ، والعاكف في ربع الادب والبادي » . هذه اذن خير وسيلة لتسهيل قراءة الكتاب خشية إملال القارىء وإرهاق فكره ، فالاستطرادات اللطيفة تخفف من جدية الصفحات وتجعل قراءتها متعة .

ولا شك في أن ابن القاضي قد كتب « المنتقى » في بادرة عرفان

بجميل مَنْ افتداه من الاسر ، ولم يكن يفكر انه يضع كتاباً في التاريخ على الأرجح •

ولابن القاضي أيضاً ارجوزة تاريخية بعنوان « درة السلوك فيمن حوى المُلك من الملوك » وتتركز خاصة على السلالة المراكشية الحاكمة ، وأكملها ابن القاضي بذيل بناء على طلب المنصور فأصبح عنوانها : « الدرّة الحلوق المشرق بدرّة السلوك » وهي تقع في ٤٠٠ بيت بدأها بترجمة حياة النبي صلى الله عليه وسلم في عدة ابيات ، ثم انتقل الى الامويين والعباسيين ، والفاطميين والايوبيين ، وأنهى القسم الاول من الارجوزة بذكر سلاطين آل عثمان ، وما تبقى من الارجوزة عن مراكش، وذكر أسماء ملوكها وسنيهم ، ويفصّل في نسب الملوك وتواريخ وصولهم للحكم ووفاتهم وأحياناً قائمة بالوزراء والكتاب والقضاة والكبراء •

الافراني : أو اليفرني ، أو الوفراني : هو أبو عبد الله محمد ابن الحاج محمد بن عبد الله الافراني — ولد في مدينة مراكش حوالي ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م ينتمي الى قبيلة افران في السوس•ودرس الافراني في موطنه هذا ثم أكمل دراسته في جامع القرويين بفاس • ولا نعرف الكثير عن حياته ، وكل ما نعرفه انه نكب في حياته ، وشكا من جشع الناس للمال • ويبدو انه وقع في ضائقة مالية وانه كان يقاسي من الظلم بسبب بعض المسائل الشخصية أو السياسية • وقد باع دائنوه الجشعين مكتبة الافراني ، وقد عبّر عن غيظه في رسالة بعث بها الى احدى الشخصيات الدينية وطلب تأمين شيء من اللحم له ليقتات به •

وكذلك كتابه « نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي » • وكتابه « صفوة من انتشر » انتهى منه عام ١٧٢٤ — ١٧٢٥ م ولكن كتابه نزهة الحادي هو ما يهمنا لأنه يعتبر أكمل تاريخ للاسرة السعدية بعد مناهل

الصفا للفشتالي • ومن الطريف أن نلاحظ ان هذا المؤرخ ترك الكتابة عن السلاطين الماضين والمعاصرين ، ليمجّد الصلحاء والاولياء (تقرباً من الله) في تراجم لهم يختم بها حياته •

يبدأ المؤرخ كتابه نزهة الحادي بنشأة الاسرة السعدية وينتهي بحكم مولاي اسماعيل ، فهو يغطي فترة قرنين من الزمان ويتعرض لبداية الأسرة العلوية ، وقد اعترف الافراني انه يريد التأريخ لأسرة الاشراف السعديين ، ولكن عنوان كتابه يوحي بأن تاريخ مراكش خلال فترة قرن فقط ، وليس تاريخ جميع الملوك السعديين • وقد ذلل هذه الصعوبة بقوله ان هذه الاسرة بدأت في السنة السادسة عشر من القرن العاشر الهجري ، ولكن لم يكن لها واسع شهرة ، ولم يتعاظم نفوذها حتى نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر • ولا شك ان الافراني كان يتعاطف مع ذكرى السعديين الذين كانوا يأتون من السوس موطنه هو ، ويتربعون على عرش مدينة مراكش التي حلت محلها مكناس كعاصمة للاشراف العلويين ، ولم يكن يسعه الا أن يئن تحت انقاض قصر البديع الذي امر بهدمه مولاي اسماعيل ، وفي نظره ليس أعظم من المنصور صديق الشعراء والمؤرخين فقد خصه بثمانية وعشرين فصلا تابع فيها حياته واعماله الباهرة • ويشتمل نزهة الحادي على تاريخ فترات مختلف السعديين ، فيذكر انساب كل منهم ، وتاريخ اعتلائهم العرش • ثم ينتقل بسرعة الى حكم مولاي عبد الملك ، ويقف قليلا عند النصر الذي أحرزه على جيوش دون سباستيان ، حتى اذا وصل الى زمن المنصور ، بدأ يكتب بحماس وتؤدة عن فتوحه ونشاطه العمراني ، ووصف قصر البديع بمراكش وأورد معلومات مختلفة عن الاحتفالات الدينية الرسمية ، ووصف شتى فروع الادارة المركزية (المخزن) ، ثم عرض للثورات التي قامت بعد وفاة المنصور ، وختم الكتاب بكيفية طرد السعديين على يد الشرفاء الحسينيين من سجلماسة ،

ويذكر عهد مولاي محمد بن الشريف وأخيه مولاي الرشيد ومولاي اسماعيل .

وقد استند الافراني في تاريخه هذا على ٤٣ مصدراً ، بعضها يتصل بالتاريخ العــام ، وبعضها يتصل بتاريخ الاسرة السعدية ، كالمنتقى للفشتالي ، ودرة السلوك وذيلها لابن القاضي . ولم تكن تنقصه الجرأة أحياناً حين يحشر في كتابه بعض العبارات التي لا يرضى عنها الملوك ، ولكنه يخلّص مسؤوليته باسنادها الى أصحابها .

والافراني بالاضافة الى امتياز معلوماته التاريخية ، التي يسدنا بها والى ثقافته الواسعة ، التي نلمسها في ثنايا كتابه ، فكر نقّاد ، فهو يستعمل ثقافته ومحفوظه لنقد أقوال بعض المؤلفين الذين أخطأوا في التعليل والتفسير .

وبرغم فضيلة الفكر الانتقادي ، التي يتمتع بها الافراني ، مما يميزه عن سابقيه ولاحقيه ، الذي يبقى كغيره ميالا الى الاستطرادات الكثيرة والصفحات العديدة ، ولكن الذي يهمنا ان الافراني استطاع أن يرجع في تاريخه الى اوثق المصادر ، ويستعملها استعمالا سليما وينتفع بها كما رجع أيضاً الى بعض المحفوظات الرسمية بحكم وظيفته في المخــزن (الحكومة) بحيث توصل اليها ونقل عنها بأمانة . وفي نهاية مؤلفه ، أورد قائمة مصادر عربية مطولة . ويعتبر الافراني المؤرخ المراكشي الوحيد في عصره الذي ترك لنا خلاصة عن حكم السلاطين الثـلاثة الاولين من الاسرة العلوية .

وبعد موت مولاي اسماعيل (١٧٢٧) اضطربت أحوال الدولة وتنازع أولاده على العرش وقويت شوكة القبائل وتحسنت الاحوال عند وصول سيدي محمد بن عبد الله الى العرش سنة ١٧٥٧ وقد حكم حتى سنة ١٧٩٠ ، وحدّ من شغب الجيش وفساده وردّه الى شيء من

النظام • وفي هذه الفترة المضطربة بين ١٧٢٧ و ١٧٥٧ لم تساعد فترة الاضطرابات والفتن والانقسامات على قيام المؤرخين بتدوين وقائعها • ولا نجد سوى مؤرخين اثنين في الفترة الواقعة بين بداية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر عاصرا القسم الاكبر من الاحداث التي سجلاها ، وكلاهما مرتبط بالمخزن (الحكومة) فهما اذاً محيطان بالامور العامة جيداً ، وهما ابو القاسم الزياني ومحمد اكنسوس •

مؤرخو الاسرة العلوية حتى حكم مولاي الحسن :

ابو القاسم الزيّاني : هو ابو القاسم أو بَلقاسم بن احمد بن الفقيه المقرىء النسّابة ابي الحسن علي بن ابراهيم الزياني ولد بفاس ١١٤٧ ﻫ ١٧٣٤ ـــ ١٧٣٥ م وتلقى علومه فيها ، وينتسب الى قبيلة زيان من أهل الاطلس المتوسط • أخذ الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق عن علماء عصره ، ولكن علوم التاريخ والنسب والجغرافية ظلت تستهويه ولم تكن مما درسه في جامع القرويين أو فيجامع الاندلس ، وانما يبدو ان الميل اليها أخـذه عن جده • وعزم والده على الارتحال الى ديار المشرق ، والاستقرار نهـائياً في المدينة المنورة ، اذ ضاقت نفسه من توالي الفتن واضطراب الامن في المغرب منذ وفاة مولاي اسماعيل ، فباع دارين كانتا له بفاس ومكتبة لوالده ، واتجه الـرجل وزوجته ووحيدهما مؤرخنا الزياني في طريق الحج وكان في الثالثة والعشرين من عمره • ويحدثنا الزياني عن هذه الرحلة المثيرة ، التي عاد منها الى فاس بعد ثلاثة أعوام رأى خلالها المؤرخ كثيراً من بلاد الشرق والغرب ودرس أحوالها وأفاد منها معلومات منوعة ، ووجـد أن رفاقه بفاس قد تعلقوا بخدمة السلطان فتولى وظيفـة كاتب سر المخزن للسلطان محمد بن عبد الوهاب • وكان له فضل في اخماد ثورة بعض القبائل البربرية اذ اعتمده السلطان لمفاوضة العصاة من البربر حتى دخلوا

في الطاعة فبالغ السلطان في اكرامه بعدما تنكر له • وقام الزياني بعدة مهام للسلطان ، ووفد على الآستانة مبعوثاً من سيده (١٧٨٦) حيث مكث نيفاً وثلاثة أشهر كتب بعد عودته منها وصفاً مفصلا لهذه المدينة وما شهده من آثارها ومكتباتها • وبمساعي الزياني أقرض المغرب الدولة العثمانية مالاً لمعاونتها على الجهاد • وتقلب بعد ذلك في عدة مناصب عليا من قيادة وولاية على المدن وخلافها ، وجاب مناطق مراكش من اقصاها الى اقصاها ، حتى اذا مات السلطان سنة ١٧٩٠ وخلفه ابنه اليزيد وضع حداً لأعمال الزياني لأنه كان يمقته فبدأ النحس يلازم الزياني ، وقد نجا من الموت باعجوبة عندما اصيب اليزيد نفسه في سنة ١٧٩٢ بجرح في قتاله احد المطالبين بالعرش ، وما ان اطلق سراح الزياني حيث كان سجيناً في الرباط حتى اشترك بالمناداة بمولاي سليمان سلطانا على البلاد وهو ابن آخر للسلطان محمد بن عبد الله • فعينه هذا عاملا على وجدة في شرقي مراكش • وما كاد يصل اليها حتى هاجمه الاعراب فقتلوا معظم من كان معه في القافلة ، ويقال ان اهالي المدينة طردوه ، فمقت الحياة العامة وتوجه الى قرية بجوار تلمسان ينشد فيها العزلة والهدوء ثمانية عشر شهراً • وهناك اطلع على تواريخ تعتبر اليوم في حكم المفقودة • ثم تجول في وهران والجزائر وقسطنطينة وتونس ، وركب البحر الى الآستانة وتوجه منها الى الحج ولقي احمد باشا الجزار في مكة ، وبعد ذلك قام بزيارة للقدس ودمشق ، فلقي كمال الدين الغزي وسعد الدين النابلسي حفيد الشيخ المشهور عبد الغني النابلسي ، وتوجه الى ازمير فاشترى بما معه سلعاً تجارية وطلب من أهله ان يوافوه الى تلمسان فردوا عليه بوجوب العودة الى المغرب ، وكذلك أمره السلطان ، فاضطر للعودة ، والتزم خدمة الكتابة والوزارة والحجابة ، وبلغ منزلة رفيعة جدا عام ١٢١٣ هـ وبقي في مناصب عدة سنوات ، ثم صرف عنها نتيجة سعايات اعدائه ، ولما مات ولده وهو كبير السن

عظمت عليه المصيبة بعد اهمال السلطان له ، فعكف على التأليف ، وتوفي بفاس ١٢٤٩هـ ــ ١٨٣٣ م •

وقد وجد الزياني ــ برغم حياته الحافلة ــ متسعاً من الوقت للكتابة فوضع خمسة عشر كتاباً جلها في التاريخ والجغرافية ، اعظمها « الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب » وهو تاريخ عام للاسلام أراد ان يجعله مؤلفه على شاكلة تآليف المؤرخين الكبار كالطبري وابن الاثير وابن خلدون وخلافهم • وللزياني أيضاً « الترجمانة الكبرى التي جمعت اخبار مدن العالم براً وبحراً » جمع فيها اخبار رحلاته الثلاث خارج بلاده ، وانتهى من كتاباته يوم مولد النبي (ص) سنة ١٢٣٣ هـ ــ ١٨١٨ م وكان له من العمر ٨٦ عاماً • والكتاب يحمل طابع الرحلة والجغرافية • أو هو عبارة عن قاموس طوبوغرافي حقيقي « جمعت اخبار العالم براً وبحراً وما تخللها من الامصار ، والمدن والقرى والقفار، والبحار والجبال والانهار ، والعيون والمعادن والآبار ، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والاحجار ، وما يؤيد ذلك من التفسير والآثار ، ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الاشعار » • وتتجاور فيها الفوائد التاريخية والادبية والتراجم المختلفة ، وأهمها ترجمة الزياني لنفسه •

والقيمة التاريخية لكتاب « الترجمانة » انه يكمل ماورد في « الترجمان » و « البستان » ، اذ تطرق الزياني فيه الى السنوات الاخيرة من حكم مولاي سليمان ، ودرسها بالتفصيل ، هذا الى أن الترجمانة تحتوي معلومات كثيرة وجديدة عن السياسة الداخلية للسلطان اسماعيل ومحمد بن عبد الله بن اسماعيل •

ويبدو أن الزياني كان متعجلا في كتابه بسبب ظروف حياته الحافلة ، فقد سجل ملاحظاته خلال اسفاره الثلاثة في المكان الذي

يصفه او بعد قليل ، ووجد ان هذه الملاحظات والمعلومات التي اجتمعت لديه نتيجة ذلك تشكل مادة كتاب مهم فاستعان برحلات سابقيه ومعاصريه كالعياشي وغيره • والزياني هو المؤرخ المراكشي الوحيد الذي اهتم بالجغرافية الى جانب اهتمامه بالتاريخ •

• • •

وبعد ، فان المؤرخين المراكشيين اللاحقين بالزياني وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، لم يبلغوا مبلغه في تاريخه ، ولم يقدموا التوثيق اللازم والدقيق الذي كان يحرص عليه الزياني في مؤلفاته ، وان ماكتبوه عن تاريخ الاسرة العلوية ، ليس فيه كبير عناء ، الا بعد العصر الذي توقف فيه الزياني عن الكتابة ، اما كتاباتهم عن الفترة التي عالجها الوزير المؤرخ ، فقد استعيرت واقتبست عن الزياني وجعلت في قوالب مزوقة من السجع والصنعة اللفظية •

وشخصية المؤرخ تبدو بوضوح من خلال ما يكتب ، لا يمر بحادثة دون أن يعلق عليها ويتجاوزها الى نظائرها وأشباهها ، مع اهتمام بالمهم واعراض عن التافه • وتآليفه توحي بالدقة والاحكام سواء في المعلومات التاريخية ، أو في خطط البلدان وهو أول من تحدث عن كره الترك للعرب وازدرائهم بهم ، وسجل على بعض حكام الترك وقضاتهم ورجالاتهم أخذ الرشا وارتكاب المظالم ، واضاعة الحقوق ، وأسف على ذلك كله • واسلوبه اللغوي سهل واضح قريب من العامية ، وأحياناً يهتم بتخليصه من اللحن الخفيف الذي يذكرنا بلحن الصحفيين في أيامنا هذه • ومات الزياني بفاس في ١٢٤٩ هـ ودفن فيها •

محمد اكنسوس : هو عبد الله محمد بن أحمد اكنسوس ينتسب الى قبيلة كنسوس اوإيدَ ــ Ida كانت تقطن بلاد السوس • ولد في ديار قبيلته سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ ــ ١٧٩٧ م وبعضهم يقول فيه

الكنسوسي • شبَّ في السوس ثم توجه الى فاس طلباً للعلم فأخذ عن مشاهير علمائها ، واجتذبته وظائف الادارة (المخزن) كما اجتذبت من قبل الزياني وغيره من طلبة جامع القرويين ، ونبغ اكنسوس في عدد من العلوم كالنحو واللغة والادب والتاريخ والحساب والتوقيت • كما برع في صناعة النظم والانشاء ، ولم يلبث أن قفز من وظيفة كاتب في الديوان الى منصب الوزير في أواخر عهد مولاي سليمان • والوزارة كان يتولاها في مراكش منذ وقت طويل أصحاب القلم لا أصحاب السيف •

وكان السلطان يجابه مشاكل معقدة من خروج أهل فاس عليه ومبايعتهم مع أهل تطوان لولد مولاي اليزيد واسمه مولاي سعيد ، وعصيان جيش الودايا (القبائل) ، وثورة بعض المناطق الاخرى ، وقد أرسله السلطان في مهام متعددة الى تطوان وسلا والقصر الكبير ، ولكن السلطان سليمان كان قد هُزم وعاد اكنسوس من تارودانت • وتوفي السلطان في ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٢ م ففقد اكنسوس بموته حاميه ، كما فقد منصب الوزارة ، بفعل الحساد والوشاة • لبث اكنسوس في مدينة مراكش منصرفاً للعبادة والدراسة ، ومناصراً للطائفة التيجانية ، وفي أواخر حياته أصبح وزيراً ، وادرك صدراً من عهد السلطان مولاي الحسن ، ومات في مدينة مراكش عن عمر يناهز الثالثة والثمانين ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م له آثار شعرية ونثرية أهمها تاريخه الذي اسماه :

« الجيش العرمرم الخماسي في دولة اولاد مولانا علي السّجلماسي » ، ويتناول فيه تاريخ دولة الاشراف العلويين ، وقد وضعه بناء على رغبة السلطان محمد بن عبد الرحمن ، ورتبه وافترض فيه أن كيان التاريخ الاسلامي بمثابة كيان الجيش يتألف عند العرب من خمسة أقسام متميزة : مقدمة ، وجناحان وقلب وساقة • فالمقدمة في البلديات وفي حقيقة الامامة العظمى وفضلها وحكمها شرعاً والفرق بينها وبين الخلافة

وبين المثلث • والجناح الايمن في أول المشرق يشتمل على ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، والامويين والعباسيين والفاطميين والاتراك العثمانيين • والجناح الأيسر في دول المغرب الادارية وأمويي الاندلس ، والمرابطين والموحدين والحفصيين والمرينيين والسعديين ولكن بتلميح وإشارة فقط كالسابق • والقلب في الدولة الشريفية العلوية وهي المقصودة بالذات من هذا « الخميس » ، والساقة في سياسة الملك وتدبيره واعوانه من وزراء وكتاب وغيرهم وما يتصل بذلك ، وقد ضمنها تراجم بعض وزراء السلطان ورجال البلاط في عصره••

وباستثناء المقدمة والساقة ، تشتمل هذه الاقسام على ألوية كبار ؛ وتحت كل لواء رايات صغار ، فيقصد باللواء الدولة ، وبالراية الملك ؛ وكل منها ملوّن بلون يلائم حالة من نسب اليه ودلّ به عليه :

فاللون الأبيض لوصف الخالص الكامل في أحوال الدين والدنيا ، واللون الأسود يوصف به الثابت في سيادته وعزته ، واللون الأحمر يوصف به الفرح مع اللهو المفرط ، واللون الاخضر للمعتدل الذي غلب عليه الخير والصلاح ، والازرق عكس الاخضر ، واللون الاغبر ، يوصف به مجهول الحال • فهو مثلاً يصف مولاي اليزيد في فصل « الراية الزرقاء الكسيفة المنظر الكريهة المخبر راية مولانا اليزيد بن مولانا محمد بن عبد الله بن اسماعيل » •

وقد تناول في كتابه « الخميس » ذكر دول الاسلام موجزاً جداً ، وتحدث عن دولة العلويين الاشراف وذكر ملوكها ملكاً ملكاً مع ما وقع في ايامهم ، وما خلفوه من آثار ، مع منظومات من شعره وشعر غيره في التهاني والمديح بحسب مقتضى الحال • وهدفه ابراز أهمية الأسرة العلوية في التاريخ الاسلامي العام ، منذ نشأتها حتى عام ١٨٦٥ في

حكم سيدي محمد بن عبد الرحمن ، وكان لاكنسوس من العمر وقتها أكثر من سبعين عاماً • وقد صرح اكنسوس في مطلع كتابه (الجيش) انه أول عالم يخصص للعلويين تاريخاً يستحقونه ، وبذلك لم يعترف بتاريخ الزياني ،وتجنى عليه أكثر حينما ذكر بأن احداً من قبله (أي اكنسوس) لم يعالج تاريخ مراكش باستثناء الافراني في نزهة الحادي ومؤلف قليل الاهمية تناول تاريخ مولاي اسماعيل •

وقد رتب اكنسوس جيش الخميس في قسمين أولهما يبدأ من نشأة الاسرة العلوية حتى حكم مولاي سليمان ، والقسم الثاني يتصل بحكم مولاي عبد الرحمن وابنه سيدي محمد • أما القسم الاول فقد اكتفى اكنسوس بانتحال ما ورد عن ذلك في الافراني والزياني • فقد حشر وادمج جميع نهاية « نزهة الحادي » في (الجيش) ونادراً ما كان يذكر المصدر الذي اخذ عنه • واذا كان « البستان » قد فقد ، فيجب أن نتعزى عن فقده لأن الجزء الاكبر منه منقول في (الجيش) •

أما في القسم الثاني فيمثل الفترة التي عاشها بنفسه وشهد احداثها كممثل أو كمشاهد • فتاريخه هنا ذو قيمة تاريخية • ويبدو بشكل كاتب الحوليات ، أشبه ما يكون بالزياني • فالطريقة نفس طـريقة الزياني : مقام الصدارة يخصصه للاحداث السياسية ، ثم للذكريات والثورات والحملات الموجهة لاخمـاد عصيان القبـائل ، ثم فوائد ومعلومات مفيدة : عن الشخصيات البارزة بمناسبة وفاتهم ، وتاريخ تشييد العمائر العامة ومعلومات قيمة عن القطر المراكشي وعواصمه المختلفة وخطط مدنه • ولكن يبدو أن اكنسوس يظل شاعراً في صميمه ، فالأثر الذي تتركه مطالعة القسم الثاني من « الجيش » هو ان المؤلف قد استعمل سرده التاريخي كوسيلة لذكر انتاجه الشعري ، والقصائد المتعددة التي قدمها اكنسوس للسلاطين والامراء والوزراء الكبار ، قد أعاد

نسخها في (الجيش) ، بحيث انه يبدو شاعراً من أكبر شعراء البلاط العلوي . كما هو فعلاً في نظر معاصريه .

والقسم الأخير من كتابه ، يتضمن المـزايا المرجوة للامير ، مع استشهاد بمقتبسات كتب سابقه . وبرغم كل ذلك فيمكن استخلاص عدد من الملاحظات المفيدة من كتاب اكنسوس ، تتصل بتطور (المخزن) المراكشي في عهد الأسرة العلوية ، وذلك حين يعرّف بوظائف الوزير والكاتب وناظر القصر . وبرغم ان (الجيش) يعتبر وثيقة تاريخية ذات قيمة كبرى ، يجب أن يقرأ بحذر ، ليس فقط بسبب الاوهـام التي وقع بها والاخطاء التي ارتكبها المؤلف عندما عرض لقائمة مراجعه التاريخية ، وانما أيضاً لأنه ، حرصاً منه على تملق السلاطين ، لم يتردد لحزازات شخصية ومآرب دنيوية في الغض من شأن الادارسة ، وهم أول السلاطين الشرفاء ، فضلا عن انه تجاهل تماماً ، بل وغمط حق الزياني ، مع انه كان يتملقه في حياته ويترسم خطاه ويستمد منه . ولا حاجة الى القول بأن اكنسوس كان في اسلوبه اللغوي متين العبارة غني المحفوظ لا يلتزم السجع في كتابته ولا يتكلف غالباً .

الناصري السلاوي : هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن خالد ابن حمّاد الناصري ، يرجع نسبه الى مؤسس الطريقة الناصرية الدينية ، ولد في مدينة سَلا ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م وكانت تنافس على نطاق ضيق مدينة فاس قصبة البلاد في العلم والادب ، ودرس السلاوي علوم الدنيا والدين والكلام ، وتعمق في علوم اللغة واستوعب دواوين البحتري وابي تمام والمتنبي ، وليس في حياة الناصري ما يثير ، فقد التحق في نحو الاربعين من عمره بالقسم الشرعي من المخزن بوصفه كاتباً شرعياً وناظراً على أملاك الدولة ، وولي عدة مناصب متفاوتة القيمة في الدار البيضاء وفي مراكش وفي سلا ومازاغان وطنجة . ثم عاد الى سلا اواخر ايامه حيث انصرف للتدريس ومات في ١٨٩٧ م ودفن فيها . وتهمنا

اعظم مصنفاته « كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى » ، وكان نشره بمثابة تقدم لا نظير له في حركة التأليف التاريخي المغربي ؛ فلم يكتب مؤلفه أخباراً محددة ، بل وضع تاريخاً عاماً لبلاده ، ورحب به المستشرقون مع مؤرخي شمالي افريقية ، وأصبح من أفضل الاصول التي يرجع الباحث اليها كثيراً . والكتاب مصنف يقوم على الجمع ، ومزيته انه يجمع في رواية متصلة أشتاتاً من مادة التاريخ السياسي مبعثرة في كتب التاريخ الاخباري ، أو كتب الطبقات المعاصرة . والحق ان الناصري كان أول من حاول من مواطنيه أن يستقصي موضوعاً لم يتناول أسلافه من المؤرخين الا بعض أجزائه . ويبدو أن هذا لم يكن هدف المؤلف في بادىء الامر ، لان منطلقه في جمع الكتاب كان مصنفاً مطولا بعض الشيء عن تاريخ الاسرة المرينية .

بدأ تأليفه التاريخي حينما حفزته اوابد سلا والرباط ومقبرة الملوك المرينيين في شالة قرب الرباط على كتابة تاريخ سلاطين فاس الذين تركوا آثاراً بالغة الروعة . فعكف على التأريخ للاسرة المرينية سماه « كشف العرين في ليوث بني مرين » ، واعتمد على تواريخ ابن زرع ، وابن خلدون ، ومكّنته إقامته في مختلف عواصم مراكش من الوصول الى المصادر التي استقى عنها اخبار الأسر لحاكمة الاخرى ، ثم فكر في تصنيف تاريخ كامل لبلده ، واطلع على نزهة الحادي للافراني والمنتقى لابن القاضي والجيش لأكنسوس ، وكتب تراجم عن السعديين وبداية العلويين ، فأخذ منها ما يتصل بالمرينيين وأسلافهم وأخلاقهم ليؤلف من كل ذلك تاريخه . وهكذا شرع في كتابه (الاستقصا) .

فبالنسبة لتاريخ بني مرين اكتفى الناصري بنقل « كشف العرين » ، ولما عثر على « الترجمان والبستان » للزياني وجد فيهما مايكفي لاتمام كتابه فأنهاه عام ١٨٨١ قبل نهايةحكم مولاي الحسن ، فقدمه الناصري اليه طمعاً بوصله ، ولكه كتابه استقبل بما لم يكن يتوقع ؛ فقد وُجّه

اللوم الى مؤلفه لأنه لم يحاول « اخفاء الحقيقة » أحياناً ، وبأنه خصَّ وزراء ملوك العلويين المتأخرين بالدور الأهم الذي يسيء الى ملوكهم .
وقد احتاط الناصري بأن كلف خطاطاً هو محمد المكي بن البشير بنسخ صورة عن كتابه قبل تقديمه للملك ، وبذلك استطاع أن يحتفظ بمؤلفه ، وتابع عمله الاداري منتظراً سنوح فرصة أفضل ، حتى اذا مات مولاي الحسن ، سارع الناصري بطبع (الاستقصا) في مطابع القاهرة بواسطة عالم فاسي استوطن مصر ، وبما ان احداث تاريخه تقف عند عام ١٢٩٧ ، فانه قد أكمله حتى وصول مولاي عبد العزيز الى العرش ، ثم اتيحت له فرصة عام ١٨٨٩ ، أن يضيف على النسخة بعض الزيادات الهامة ، وبذلك يكون كتابه قد غطى الفترة الواقعة بين الفتح العربي للمغرب حتى أواخر القرن التاسع عشر .

ويتألف كتاب (الاستقصا) المطبوع في القاهرة من اربعة أقسام متساوية نوجزها فيما يلي :

في المقدمة ينوه بفوائد التاريخ ، ثم يمر المؤلف بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالخلفاء الاربعة .. ثم يتحدث عن البربر ويستعير نسبهم الخرافي من كتاب العبر لابن خلدون ، ويعرض بعد ذلك لمدينة فاس ودولة الادارسة ، ثم يوجز في ذكر الدولتين المرابطية والموحدية ، وبهما ينهي القسم الاول من كتابه .

أما الاقسام الثلاثة الباقية من تاريخه فتتناول بالتفصيل تاريخ المرينيين والوطاسيين في القسم الثاني وتاريخ السعديين في القسم الثالث ، وتاريخ العلويين في القسم الرابع .

وفي ملاحق الكتاب تطالعنا قائمة كاملة نوعاً بأسماء المصادر والمراجع المراكشية وغيرها ، ولم يستعملها الناصري كلها طبعاً ، لأنها وردت في كتب المؤلفين الذين أخذ عنهم . ويبدو أن المؤلف استعمل

تاريخ ابن خلدون وروض القرطاس والروض المعطار لعبد المنعم الحميري وجمهرة الانساب لابن حزم ، وجذوة الاقتباس لابن القاضي وغيرها • ويستوحي الناصري كثيراً من نزهة الحادي لتأريخ السعديين كما يستعمل كتب التراجم المراكشية ، ومناهل الصفا للفشتالي • وحين يؤرخ للاسرة العلوية يستخدم الناصري نزهة الحادي والزياني والجيش لأكنسوس .ويشير الناصري الى أنه مدين بمعلوماته تلك الى الزياني واكنسوس • فاذا ما وصل الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ، اعتمد على الجيش ، وجعله مصدره الوحيد ، بالاضافة الى معلومات مواطنيه • والحق ان الناصري لم ينتحل شيئاً من كتابات المؤرخين السابقين له ، بل كان يشير الى بداية الاقتباس ونهايته ، وأحياناً ينقد ما يقتبس • وربما يُعزى عدم اسهابه في وصف حكم الحسن الى علمه بأن بعض معاصريه يعالجونه ، كما سنرى •

وزبدة القول ان المؤرخ الناصري ، برغم مزايا تاريخه التي اشرنا اليها ، لم يأت بكثيرمن الاصالة في تاريخه ، واذا كان فضله يكمن في أنه جمع في عهده نصوصاً لا يمكن الوصول اليها في وقت تأليفه لكتابه ، فان معظم مصادره التي أفاد منها ، قد نشر اليوم • ولكن الناصري يمثل في حركة التأليف التاريخي في المغرب ظاهرة جديدة ، وذلك حين يشير الى بعض المصادر الاجنبية الاسبانية والبرتغالية والى أخذه عنها• والناصري برغم انه يتناول احداث تاريخية مرتبة على السنين كأسلافه ، كتّاب الحوليات الاخبارية ، غير أنه يتضمن سجلا للوفيات في نهاية كل عهد ، ويلاحظ ان معظم هذه الوفيات هي لمشاهير مدينة سلا • وأخيراً فأسلوب « الاستقصا » يدل على امتلاك مؤلفه الكامل لناصية اللغة ، وعلى صفاء وروعة وبساطة ، ولم يلجأ الى المجاز ، ولم يصطنع السجع الا نادراً ، وهو في ذلك يمتاز على اسلافه المؤرخين بلغته السهلة الواضحة •

وبعد فالناصري السلاوي يبدو في كتـابه شديد الثقة بنفسه ، وصاحب نظر صـائب عموما ومستقل الرأي ، ويعتبر مثال المؤرخ المراكشي الحديث الذي يكتب بسهولة ورشاقة عظيمتين .

احمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج السلَمي المرداسي الفاسي :

ولد بفاس في النصف الاول من القرن التاسع عشر وابوه كاتب بارز فيها ، واحمد بن الحاج السلمي اتخذ الكتابة مهنة له كأبيه ، بعد أن درس في جامع القرويين حتى دعاه السلطان سيدي محمد بن عبـد الرحمن ليعلم أولاده في قبيلة الاحمر قرب مدينة مراكش حيث كان يربي أولاد السلطان ، وكان من بين هؤلاء السلطان الشهير مولاي الحسن الاول . وحين تربع هذا الاخير على عرش البلاد سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م كلفه بتأليف كتاب موسع في تاريخ الدولة العلوية ، وعينه مؤرخه الرسمي ، فبادر ابن الحاج بتصنيف كتاب مطول سماه « الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر امير المؤمنـين مولانا الحسن » . وبعد عدة سنوات وصل في تأليفه الى حكم مولاي سليمان في احد عشر مجلداً ، والمفـروض أن يتم الكتاب في عشرين مجلداً ، ولكن السلطان لم يشأ انتظار كتابة تاريخ الاسرة ريثما يصل الى حكمه هو ، فأمر المؤرخ بقطع عمله والبدء بتاريخ حوليات مراكش منذ يوم صعوده الى العرش ، فعكف المؤرخ على عمله الجديد وضمّنه عـدة مجلدات وأعطاه نفس العنوان ، فرضي عنه الملك الحسن الاول واغدق عليه . وقد سجل جميع الاحداث الكبرى التي مرت على مسرح مراكش حتى وفاة الحسن ، سنة ١٨٩ واكمله بصورة جزئية الى ما بعد هذا التاريخ. وفي الوقت نفسه كان المؤرخ يعمل مدرساً في زاوية مولاي ادريس وجامع القرويين ، فألف كتباً أخرى ، منها واحد عن نسب العلويين ، وغيرها في الطب ، وفي شرح تعليق على الاجرومية ... ومات بفاس ١٣١٦ هـ / ١٨٩٩ م ودفن في زاوية شرفاء وزان في فاس .

وكتاب « الدرّ المنتخب » يحتوي على مقدمة وخلاصة لتاريخ مولاي الحسن ، والاخبار السياسية والاحداث تبدو انها لم تستحوذ على اهتمام المؤلف . والفصل التاسع فقط من الفصول الاثني عشر التي يتألف الكتاب منها ، ينطبق على عنوان الكتاب . والفصول الاولى حول ما يرجى أن يتحلى به السلطان المسلم : العدالة ، احترام الشرع ، الرحمة ، الكرم ، والثقافة الادبية . والفصول الاخرى عن رأي علماء البلاد حول كيفية قيادة معارك الحرب ، والنتائج التي يجب أن تنجم عن الحملات السعيدة الموفقة . يتبين من ذلك أن الكتاب أشبه ببحث في السياسة السلطانية من زاوية محلية وينتهي المؤلف بايراد قائمة عن معلمي السلطان للحسن ، وبمديح وزرائه وكتابه ، وبقصائد الشعر في تهنئته بالاعياد الدينية ، وبمناسبات الزواج والولادة بين امراء الاسرة المالكية ، ومن هنا تكون فائدة هذا الكتاب ضئيلة من الوجهة التاريخية.

محمد بن جعفر الكتاني : هو ابو عبد الله محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني ، ولد بفاس سنة ١٢٧٥ / ١٨٥٨ ــ ١٨٥٩ م ، أخذ العلم عن والده وعن غيره ، وارتحل الى المدينة المنورة سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م واتجه الى دمشق مع اسرته فراراً من الاتراك ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م واشتغل فيها بالتدريس ، وعاد منها الى مراكش سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م ومات في فاس ١٣٤٥ / ١٩٢٧ م ودفن فيها .

وضع كتاباً يعتبر نموذجاً لكتاب التراجم في ترجمة اعلام العلماء والصلحاء في المغرب الاقصى ، اشتغل فيه مدة اثنتي عشر عاما ، وانتهى منه سنة ١٣١٣ هـ وسماه « سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن أُقبر من العلماء والصلحاء بفاس » .

وقد خصص فيه لكل من الشخصيات المرموقة ــ من العلماء والصلحاء المدفونين بمدينة فاس ، نبذة مطولة عن حياته . والكتاب

ينقسم الى ثلاثة أجزاء كبيرة : الاول يتضمن مقدمة مستفيضة عن زيارة الصلحاء والاولياء ، والثاني أطول منه عن مشاهير فاس مصنفة اسماؤهم بحسب التقسيم الطبوغرافي لاحياء المدينة حيث دفنوا فيها ، والثالث قائمة مرتبة بحسب الحروف الابجدية تتضمن مشاهير الوفيات في فاس ، ممن لم يعثر المؤلف على مكان قبورهم . والمقدمة بوجه الاجمال تبرر تعظيم الصلحاء والاولياء واجلالهم ، ويسوق المؤلف الادلة على وجوب ذلك من مراجع السنّة الاسلامية ... ويعرض الكتاني بعد ذلك لآداب القيام بشعائر الحج ، فاذا كان راكباً مطيته نزل عنها ، واذا زار مقاماً مباركا خلع نعليه وانحنى تأدباً ، وذكر بعض الدعاء في مناسبة الزيارة ، ويريد الكتاني ان يخلص من كل ذلك الى هذه النتيجة : وهي ان جميع الاحترام والتبجيل الموجه الى أحد صلحاء فاس ، انما هو موجه الى مؤسس فاس وسيدها ، مولاي ادريس الانور حفيد ادريس الاكبر . وبه يبدأ المؤلف « سلوة الانفاس .. » وبما ان ضريح ادريس يقع في قلب المدينة ، فالكتاني يتابع عرضه للصلحاء والاولياء والعلماء بحسب مكان دفنهم وانطلاقاً من القلب . ومن المعلوم ان مدينة فاس حافلة بالاضرحة والمقامات. ويذكر المؤلف اسماء علماء الدين والشرع والفقه والتفسير ، وبينهم اكثر من ١٤٠ من مؤلفي العلوم الدينية . ونجد في الكتاب أيضاً ذكراً لبعض الصلحاء العباد الزهّاد من غير العلماء المتفقهين بالدين .

ونحس من مطالعة الكتاب ان مؤلفه جهد في الطواف المتفحص لجميع انحاء المدينة فاس ، وطالع محفوظات المدافن حتى المتواضع منها ، وحدد المكان الصحيح لكل قبر ، بحرص ودأب شديدين يدعوان للاعجاب .

وقد التزم المؤلف الاشارة الى جميع مصادره في نهاية كتابه ، وهي تؤلف قائمة صحيحة كاملة في موضوع التراجم والسير ، وفي

موضوعات العلوم الدينية الصرفة . ويمتاز الكتاني بأنه يعطي لكل من تراجمة قائمة مصادر مراكشية كاملة ، فكتابة لا غنى عنه لمن يتوفر على الكتابة عن تواريخ مدينة فاس ومحفوظاتها . وبرغم ان المؤلف جامع للمعلومات ، ولكنه جامع شريف ، ان ترجمة الصلحاء والعلماء في كتابه عبارة عن خلاصة وجمع ما سبق وكتب عنهم ، مع التحرر من مسئولية ما جاء بها . واذا كان هنالك بعض الثغرات ــ فيما يتصل بالمؤلفات التاريخية التي استعملها وسرد اسماءها ــ فقائمة مراجعة تكاد تضم أساساً طيباً للمصادر المراكشية ، مضافاً اليها مراجع العلوم الدينية الاسلامية البحتة . وقد نجح الكتاني في انه يجعل مؤلفه اشبه بقاموس ضخم لا غنى عنه للباحث في مصادر التراجم والسير المراكشية ، وفي معرفة تاريخ المؤلفين والمؤرخين والادباء الذين دفنوا بفاس .

المؤرخـون في الجزائر

لا تختلف حركة التأليف التاريخي في هذا القطر العربي عما ذكرناه من السمات العامة في مقدمة هذا البحث الا بأن الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠ قد أخمد فيه جذوة الثقافة وحال بين الشعب وبين الاخذ بالعلم كما هو معلوم . والحركة الادبية لم تكن زاهية قبل هذا الاحتلال ، وينطبق عليها ما ينطبق على الولايات العثمانية في المشرق ، بخلاف مراكش التي لم تخضع للعثمانيين . وفيما يلي سرد موجز للمؤرخين ومؤلفاتهم .

محمد بن عبد الله محمد بن احمد : الملقب بابن مريم ابو عبد الله الشريف المديوني التلمساني ــ كتب بعد عام ١٦٠٥ م « البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان » . وهو مرتب على الحروف الابجدية .

ابن عبد الرحمن التلمساني : محمد بن محمد بن عبد الرحمن التلمساني ، كتب سنة ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م « الزهر النائرة فيما جرى في الجزائر حين اغارت عليها الجنود الكافرة » • وفيه وصف الحملات المسيحية الفرنجية على الجزائر منذ زمن خير الدين بربروسة حتى سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م •

المقري : المتوفى سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م احمد بن محمد بن احمد بن يحيى ابو العباس المقري التلمساني المؤرخ الاديب صاحب « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » • في تاريخ الاندلس السياسي والادبي • ولد ونشأ في تلمسان وانتقل الى فاس ومنها الى القاهرة ، وتنقل في الديار المصرية والشامية والحجازية ، وتوفي بمصر ودفن فيها ، وقيل توفي بالشام مسموماً • والمقري نسبة الى مقرة من قرى تلمسان وله أيضاً : « روضة الانس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس » • وله : « عرف النَّشق في اخبار دمشق » •

احمد بن سيدي عمار الجزائري : سافر الى الديار المقدسة الحجازية عام ١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م ومكث هناك حتى ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م له : « الرحلة الحجازية » مطبوع بالجزائر بلا تاريخ • و « لواء النصر في علماء العصر » عن علماء القرنين الماضيين قبل زمانه •

الورثيلاني : (١٧١٣ – ١٧٧٩)الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني ، مؤرخ من فقهاء المالكية ، ينسب الى بني ورثيلان (قبيلة قرب بجاية بالجزائر) نشأ بها وحج فأخذ عن علماء مصر والحجاز ، له : « نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار » – مطبوع ويعرف بالرحلة الورثيلانية ، ذكر فيه ما شاهده من الامكنة ، ومن اجتمع به من الاعيان في حجة عام ١١٧٩ هـ •

محمد بن عبد القادر الجزائري : المتوفى ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م

هو نجل الامير المجاهد الكبير عبد القادر بن محيي الدين ، كتب « تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر » طبع في الاسكندرية سنة ١٩٠٣ م . نشأ وعاش بدمشق ولعله ولد فيها ، وجمع سيرة والده في الكتاب المذكور ، في جزئين احدهما سيرته السيفية ، في حروبه مع الفرنسيين والثاني سيرته العلمية . وتوفي بالآستانة .

احمد بن المبارك بن العطار : كتب بعد ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م «تاريخ بلد قسنطينة » تناول فيه احداثه حتى عام ١٧٦٥ م وترجم للفرنسية في المجلة الافريقية عدد ١٩١٣ .

محمد بن شنب : ١٨٦٩ — ١٩٣٠ م محمد بن العربي بن محمد أبي شنب من علماء الجزائر المرموقين ، ولد ببلدة المدية جنوبي الجزائر وتابع تعليمه في المدارس الابتدائية وفي دار المعلمين ، ثم حصل على اجازة مدرسة الآداب العليا ، ثم نال الدكتوراه من جامعة الجزائر ، وعمل استاذاً للآداب العربية في نفس الجامعة .

نشر كتاب ابن مريم المذكور آنفاً واسمه « البستان في علماء تلسان » في الجزائر ١٩٠٨ ، ونشر « طبقات علماء افريقية » لابي العرب الخشني ، مع ترجمة فرنسية في جزئين بباريس ١٩١٥ — ١٩١٩ . و « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » نشره في الجزائر سنة ١٩٢١ . و « عنوان الدراية في تراجم علماء بجاية » للغبريني . وله مؤلفات تاريخية في تاريخ عنابة .

الجفناوي : ولد في منتصف القرن الماضي وتوفي في أوائل القرن الحالي ، ألف كتاباً مفيداً في تراجم مشاهير الجزائر اسمه « تعريف الخلف برجال السلف » نشر سنة ١٩٠٨ بالجزائر وهو أشبه بموسوعة جزائرية .

الشيخ بلغوتي ابو علي : عالم من تلسان ، عمل مدرساً في

مدرستها وعاش في النصف الاول من القرن الحالي ، ونشر كتباً في تاريخها بالاشتراك مع بعض المستشرقين .

أحمد بن توفيق المدني : ولد في مطلع القرن الحالي فيتونس لاسرة هاجرت من الجزائر اثر الاحتلال الفرنسي ، ودرس في المدارس التونسية الابتدائية ، ثم في الزيتونة ، وعمل بالسياسة ، وكان من مؤسسي حزب الدستور مع الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، ثم نفي الى الجزائر سنة ١٩٢٦ فعاون الحركة الوطنية فيها واصدر « كتاب الجزائر » وهو تاريخ للجزائر حتى زمان المؤلف الذي عمل وزيراً في حكومة الجزائر المستقلة .

وفيما يلي ثبت للمؤرخين في **تونس** مع مؤلفاتهم حتى القرن التاسع عشر ، ويتبين من استعراض هذه الكتابات التاريخية انها لاتختلف عن مثيلاتها في هذه الفترة في بلاد المشرق سواء بسواء من حيث الموضوعات وطريقة الكتابة .

الزركشي : ابو عبد الله اللؤلؤي ، عاش في الربع الاول من القرن السادس عشر وكتب حوالي ٩٣٢ هـ/١٥٢٥ م « تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية » حتى سنة ٩٣٢ هـ ومنه نسخة تضمنت تقويماً زمنياً للاسرتين حتى عام ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م .

ابن ابي دينار الرعيني : ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم دينار الرعيني القيرواني ، كتب عام ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م « المونس في أخبار افريقية وتونس » ورتب كتابه على ثمانية أقسام : الاول في وصف تونس ، والثاني في وصف افريقية ، والثالث في غزو المسلمين لافريقية ، والرابع في تاريخ الدولة العبَيْدية ، والخامس في تاريخ أهل صنهاجة ، والسادس في تاريخ بني حفص . والسابع والثامن في تاريخ الحكم التركي . وفي الخاتمة يتحدث عن الحوادث المتأخرة عن القطر التونسي .

الحاج حمودة بن عبد العزيز : ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز التونسي المتوفى سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٧ م كتب ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م « الكتاب الباشي » وهو تاريخ باشا تونس ابو الحسن علي بك بن حسين بك علي التركي ، وقد حكم بين ١٧٥٨ — ١٧٧٤ ، مع نبذة من تاريخ الحفصيين حتى سنة ١٥٤٤ ، ونظرة عامة على تاريخ العادات والتقاليد في افريقيا الشمالية منذ بداية الاسلام حتى زمان المؤلف •

السراج : هو ابو عبد الله محمد بن محمد السراج الوزيرالاندلسي كتب حوالي ١١٣٨ هـ / ١٧٢٥ م « الحلل السندسية في الاخبار التونسية » وهو تاريخ افريقية وخاصة تونس حتى سنة ١٧٢٥ م وقد رتبه على حوادث الايام والسنين ، يشتمل على تاريخ تونس ، ومن كانت له فيها دولة من الملوك قبل الدولة العثمانية مع ذكر علومهم وكتبهم ، ثم تفصيل اخبار العثمانيين منذ سنة ١١٠٢ هـ الى زمن حسين باي تونس ، وهو السبب في تأليف هذا الكتاب • وينتهي سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م وقد رتبه على ثمانية أبواب : الاول في التاريخ العام ، والثاني في اخبار المغرب ، والثالث في افريقية والرابع في قرطاجنة ، والخامس في تونس ، والسادس في ملوكهم ، والسابع في الامراء الذين تولوا تونس تحت آل عثمان والثامن استطرادات واخبار مفصلة •

ابو الثناء محمود بن سعيد : من مدينة صفاقص ، تلقى تعليمه في مصر ومات بعد ١٢٣٥ هـ / ١٨١٨ م له : « نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار » وأتم المجلد الاول منه سنة ١٧٩٦ م ، ولكن الحومة التونسية منعت صدوره وانتشاره •

محمد الصغير بن يوسف : من مدينة باجه ، كتب سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م « المشرب الملكي في سلطنة اولاد على التركي » •

حسين خوجة : ابن علي الحنفي المتوفي ١١٩٦ هـ / ١٧٥٥ م —

رئيس ديوان الانشاء في تونس في عهد الداي حسين بن علي (١٧٠٥ — ١٧٣٥ م) له : « بشائر اهل الايمان في فتوحات آل عثمان » فضلا عن ذيل يتضمن تراجم نخبة من فضلاء التونسيين وغيرهم بين (١٧٢٣ — ١٧٢٤) والكتاب تاريخ قصير عن تاريخ نيابة تونس العثمانية .

التاريخ والمؤرخون في تونس في القرن التاسع عشر :

مقدمة : بدأت تونس تأخذ تشكيلها الحالي في القرن السادس عشر عندما امتد النفوذ العثماني الى ذلك القطر العربي ، وقد ترتب على ذلك من أول الامر اتخاذ الاقطار المغربية قاصيها ودانيها التقسيم الجغرافي السياسي المعروف .

والحق أنه بعد احتلال فرنسا للجزائر احس اهالي تونس بالخطر ، وتحققوا من طغيان المحتل الاجنبي بما شاهدوه من بؤس أحوال المهاجرين الجزائريين الذين وفدوا عليهم بعد عزة وثروة . ولقد كان ثمة حجاب سميك بين الاهالي وحاكم البلاد الباي ، وأفراد حاشيته الغرباء ، وبالتالي كان ثمة اختلاف بالمشاعر بين الطرفين ؛ فالشعب في تونس كان يدرك بحق ان ما نزل به هو بسبب التدخل الاجنبي الذي فرض على رجال الحكم تملق الاوربيين والخضوع لاهوائهم بعد ارتباك مالية الدولة وبوار الصناعة وكساد المرافق . ولقد بدأ التبرم بهذا الحال منذ نزول الفرنسيين في أرض الجزائر (١٨٣٠) ، ومنذ تولية الامارة للمشير احمد باشا (١٨٣٨) فبدأ بعزيسة ثابتة سبيله الى الاصلاح ، ورأى البعض ان لا سبيل للاصلاح الا بالقوة الصناعية لانها سبب نهضة اوربا وقوتها . وشرعت النهضة في تونس تقلد النهضة المصرية وخطط الاصلاح العثماني ، وافتتحت المدارس العسكرية لتخريج الضباط والمهندسين والموظفين وجلب اليها مدربون اجانب باشراف شاب

تابع شركسي اسمه خير الدين ، وبهذا انتقل العمل الاسلامي الذي اضطلع به احمد باشا من الميدان العملي الى الميدان الثقافي انتقالا نبع به التيار الفكري الجديد الذي دفع بالحياة الفكرية والادبية الى الاطوار التي اقترنت بعهد الاحتلال الفرنسي وتعاقبت بعده . وكما حدث في مصر ، حدث في تونس نتيجة اتصال العقلية العربية الاسلامية بالعقلية الغربية ، وشاع الاقبال على مطالعة ما ظهر من كتب الشرق العربي الذي سبق الى التعرف الى الحياة الغربية واهمها رحلة رفاعة (تخليص الابريز ...) ولم يلبث ان قام أحمد باشا وصحبه برحلة الى اوربا (١٨٤٦) وعاينوا حضارتها المتفوقة،ودوّن الشيخ **احمد بن ابي الضياف** أخبار تلك الرحلة مع ملاحظاته عليها ، وعلى عمران فرنسا وازدهار الاقتصاد والنهضة العلمية والفكرية ، ومدى علاقة هذا كله بالتقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، كذلك تتابعت رحلات رجال الدولة الى فرنسا فيما بعد ، ومنهم **خير الدين** .

وتوفي المشير احمد باشا سنة ١٨٥٥ فخلفه ابن عمه المشير محمد باشا ، وفي عهده استفحل العجز المالي ، وما نشأ عنه من أزمات وتوازن قنصلي ؛ فقد فتح الامراء الباب واسعاً للاجانب استعجالا للنهوض والسير ، وبعد استقدام الفنيين الاوربيين قويت الجاليات الاجنبية ومن ورائها القناصل ، واصبحت موارد الاهلين وموارد الحكومة نهباً مباحاً لكل طامع . ووضع الامراء أنفسهم وبلادهم في شراك لم يستطيعوا منها خلاصاً ، وكلما امتد بهم الزمن ضاقت العيون وازدادوا خبالا . وأخيراً اقتنع محمد باشا بوجوب الاصلاح ولكنه توفي سنة ١٨٦٠ فخلفه أخوه محمد الصادق ، فأكمل نهضته ، وأصبح خير الدين زعيم هذا الطور الاصلاحي ، وبدأ النفوذ الفرنسي يظهر جلياً ، ولكن الصعوبات الداخلية والخارجية قامت في وجه هذا العهد الدستوري فاضطربت البلاد بثورة عام ١٨٦٤ وتعطلت المجالس ، وعمت الفوضى ، ودخلت

مالية البلاد تحت رقابة دولية (١٨٦٩) وتخلى خير الدين عن مهـامه وانزوى ، وانصرف الى التفكير فيما مر بالدولة ، والاعتبار بما فات ، وكان يتردد عليه اصدقاؤه من أهل العلم والسياسة ، وخرج من تلك الدراسات بكتابه القيم المعروف باسمه « كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » فقد استوفى خير الدين فيه وصف النواحي العـامة لكل دولة من الدول العشرين الاوربية التي تناولها ، ومن بينها الدولة العثمانية ، وكأنه يقصد بذلك التنبيه الى المقايسة والمقارنة ، ولعل المسلمين يقتبسون منها ما يصلح لهم .

استهل خير الدين كتابه الذي طبع سنة ١٨٦٧ بمقدمة في أسباب تأخر العالم الاسلامي ، ووسائل نهضته ، وذلك بالاقتباس من المعارف والنظم التي حققت النهضة في أوربا ، والالتحـام بين أهل العلم وأهل السياسة ، وبيان ما كان لانتشار المعارف في اوربا ، وخاصة في فرنسا ، من أثر في سعادة الامة ، وحقيقة الملك والحرية والشورى ، والمسئولية الوزارية ، وما يقوم في وجه التآلف المطلوب بينها من المصاعب ، وانه اذا تكونت تلك المصاعب فقد تبيح الضرورة تفويض ادارة المملكة لشخص واحد مستبد في ظروف معينة وضمن قوانين محددة .

وبدأت المساعي لاصلاح ما بين خير الدين ومحمد الصادق ، ونجحت فتولى منصب الوزير الاكبر ، واستمر فيه حتى عام ١٨٧٧ حين استقال لاختلافه مع الباي ، وفارق تونس نهائياً سنة ١٨٧٨ حيث تولى الصدارة العظمى في الآستانة وبقي بالآستانة حتى وفاته عام ١٨٩٠ .

وبينما كانت المؤسسات الثقافية والعلمية قد اتسعت في عهد خيرالدين فنشأت المكتبات ، وازدهرت الطباعة والصحافة والنشر ، وتنظم التعليم في جامع الزيتونة ، وتأسست المدرسة الصادقية .. حلت كارثة الاحتلال

الفرنسي (۱۸۸۱) ، وجهدت السلطات لضرب هذه المعاهد ، واستولت على جميع الاجهزة بما فيها تعليم الزيتونة .

وهنا بدأ يظهر تيار جديد في الميدان الفكري ، وبدأ الشعور بالشخصية الوطنية الخاصة الى جانب الشعور بالقومية الواسعة وهي الاسلامية . وتركز الانتباه حول التاريخ التونسي لعظمته واستمداداً من أمجاده لتحريك الهمم وحفز النفوس الى بعث مستقبله . فتوجهت الاقلام الى التاريخ التونسي ، والى كتابة تراجم التونسيين ، فوضع الشيخ **محمد السنوسي** كتاب « مسامرات الظريف بحسن التعريف » طبع بتونس ١٢٩٨ هـ ، وجعله احياء لمجد المناصب الدينية الكبرى التي لم تزل حية ماثلة ، فأدرج فيه تراجم ثلاث سلاسل من سلاسل المناصب التونسية من أول التاريخ الاسلامي ، هي سلسلة المفاتي وسلسلة أئمة جامع الزيتونة ، وسلسلة قضاة الجماعة . وثارت غضبة الشعب بعد ان انكشف غدر الاحتلال وعدوانه ، فتناول الكتاب هذه القضية المصيرية وبرز الشيخ **محمد بيرم** وبحث القضية التونسية بحثاً مستفيضاً في كتابه (صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار) فبين ارتباط تونس بالسلطنة العثمانية ، وظلامة العدوان الفرنسي عليها ، ورتب بحثه على قسمين الحق احدهما بالكلام على تاريخ تونس في الجزء الثاني ، وألحق الآخر بالكلام على تاريخ فرنسا في الجزء الثالث . وطبعت اجزاء الكتاب الخمسة في مصر سنة ١٣٠٢ هـ و ١٣١١ هـ ، وترك نشره صدى بعيداً في منطق الجدل السياسي واصوله الذي امتلأ به تاريخ القرن الثالث عشر الهجري .

كذلك استبدت القضية الوطنية بالاذهان وظهرت بوضوح في اغراض الكتابة ، فكتب الشيخ محمد السنوسي (الرحلة الحجازية) ، وهي وان كانت دون (صفوة الاعتبار) من ناحية التحرير التاريخي السياسي ، ولكنها تمتاز بروعة الصياغة وبلاغة الوصف . وقد رتبها صاحبها على

ثلاثة أجزاء ، افرد جزءاً منها بالكلام على ايطاليا وقد استطاع المؤلف فيه ان يسبر غور صميم الحياة الغربية ويتذوق الوانها ، وخصص الجزء الثاني للكلام على تركيا والحجاز وسورية ومالطة . وكتب في الجزء الثالث تراجم مشاهير الرجال الذين اتصل بهم في رحلته . وفي (صفوة الاعتبار) و (الرحلة الحجازية) يبدو الاسلوب بسيطاً لا يلتزم السجع ولا فنون البديع ، كما كان مألوفاً في المنهج القديم ، وانما ينسجم مع الوضوح والاعتدال والبساطة .

وكانت النهضة الفكرية تنشط من حول المدرسة الخلدونية التي أوجدت تعليماً وفنوناً حركت الاذهان والهمم وطورت الحياة العلمية ، وتطلعت الى انتاج جديد ، ولم يلبث جامع الزيتونة ان تحرك وانتعشت فيه حركة التأليف واتجهت نحو نشر نفائس الكتب والتعريف بها اقتداء بما تم في مصر ، وتأثراً باهتمام المستشرقين الفرنسيين بتلك الخزائن من جهة ، وباهتمام خريجي المدارس الفرنسية من التونسيين الذين وجدوا في البحوث التاريخية والاثرية المنشورة بالفرنسية ما يلفت أنظارهم الى أسماء كتب ورجال وحقائق تاريخية ، فتوجهوا من أجل التعرف اليها الى علماء الزيتونة ، وبذلك شعر هؤلاء بأهمية تلك المباحث ، فكونوا لجنة ضمنت محمد بن الخوجة من المدرسة الصادقية ، مع علماء من جامع الزيتونة ، وبدأت اللجنة عملها لتحقيق ما يوجد في خزائن تونس بطريقة علمية ، وكانت هذه الدراسات العلمية مع الدراسات التاريخية الى جانب دروس التاريخ بالخلدونية تحرك حوافز الاهتمام بمباحث التاريخ ، والحرص على احياء الآثار التونسية ، والتنويه بالماضين من عظماء التاريخ ورجال العلم والفكر ، ففتحت الصحف مجالاتها لنشر المقالات عن هذه الموضوعات ، احتذاء بما كان ينشر في مجلات المنار والمقتطف والهلال والضياء ..

وبرغم ان الاوضاع السياسية اخملت الحركة الفكرية عموماً ، فان

أصداءها لم تلبث ان حركت الهمم نحو البحوث التاريخية والمباحث الاثرية ، فظهر **حسن حسني عبد الوهاب** وغيره كما سنرى • ونشبت الحرب العالمية الاولى ، ولم يتحرك للتأليف التاريخي ساكن خلالها ، ولم يكن يغذي النفوس طوال سني الحرب الا الامل بارتفاع كابوس الاستعمار الفرنسي وتجدد القوة الاسلامية بانتصار دولة الخلافة تركيا ! وقد تسبب ذلك في وضع تونس والمغرب كله بمعزل عن الحركة العربية التي ظهرت في الشرق منذ سنة ١٩١٦ ؛ فلم تكن دعوتها تصل الا من خلال طرق استعمارية غير جديرة بالثقة •

ثـم اتضحـت روح تأكيـد الروابط العربيـة بين أقطار العرب في الفترة ما بين الحربين • وبانتهاء الحرب العالمية الثانية وقيام جامعـة الدول العربية ، وفد الطلبة من تونس والمغرب على ديار المشرق العربي لاستكمال دراستهم العالية باللغة العربية على كره من سلطات الاحتلال الفرنسي التي خشيت من تعاظم الوعي القومي العربي في ديار المغرب جميعاً ، وما زالت تونس تناضل حتى حققت ما تصبو اليه من اجـلاء الاجنبي وبدأت صفحة جديدة من حياتها الفكرية المتصلة بحياة الوطن العربي الكبير ، وهذا بالطبع أوجد أغراضاً جديدة للتأليف التاريخي في أيامنا هذه •

المؤرخون في تونس منذ القرن التاسع عشر :

محمد البشير صفر (١٨٦٣ ــ ١٩١٧) : كان رئيس بعثة المدرسة الصادقية بفرنسا ، عمل في تحرير جريدة الحاضرة التونسية وكتب مقالات اهتم فيها بدراسة النظم الاجتماعية والسياسية في أوربا ، وبدراسة الاطوار التاريخية والاوضاع الجغرافية لكل مملكة من ممالكها ، فكان له أثر في نشر أساليب جديدة لعرض التاريخ ومقارناته واستنتاجاته ، وفي اشاعة مناهج التفكير المقتبسة من المصادر الحديثة للتاريخ الاوربي ،

ولما تأسست الجمعية الخلدونية برئاسة الميرالاي محمد القروي ، كان من اعضائها • ومضى يلقي دروس التاريخ والجغرافية في الخلدونية ، له : « محاضرات في تاريخ تونس » •

احمد بن ابي الضياف التونسي : (١٨٠٤ — ١٨٧٤) من الكتاب المؤرخين ، مولده ووفاته بتونس ، ولي مناصب رفيعة في عهد احمد باي وحسين باي ووجه في بعض المهام الى الآستانة ثم اعتزل • له : « اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان » طبع تونس ١٣١٩ هـ •

محمد بن الخوجة : ولد ١٨٧٥ وتوفي سنة ١٩٤٢ من عائلة تركية الاصل ،كان أبوه البشير بلخوجة او ابن الخوجة معنياً بالتاريخ ، توفي قبل الحرب العالمية الاولى بمدة يسيرة ، وتولى محمد بعض الاعمال الادارية ، منها رئاسة مطبعة الحكومة بتونس ، فاغتنم الفرصة لنشركتاب « معالم الايمان في تراجم علماء القيروان » لابن ناجي ، و « بشائر اهل الايمان في فتوحات آل عثمان » لحسين خوجة في تراجم التونسيين على عهد المراديين والحسينيين (١٠١٧ — ١١١٧ هـ) ومقدمة تاريخ أحمد بن ابي الضيّاف ، والخلاصة النقية في تاريخ افريقية للباجي المسعودي •

وكتب محرراً في جريدة الحاضرة والخلدونية عن رحلته الى باريس ١٩٠٠ (سلوك الابريز في مسالك باريز) في نفس السنة ، فعرّف بالتاريخ الفرنسي وبنظم الدولة واوضاع الحضارة في فرنسا • وفي سنة ١٩٠١ أنشأ تقويماً سنوياً سماه (الرزنامة التونسية) وهي مجموعة دراسات في التاريخ التونسي ، وعرض فيها للنظم الدولية والدواوين الحكومية وتواريخها ووظائفها ، وأفرد أقساماً تاريخية اعتنى فيها بدراسة بعض نواحي تاريخ تونس (١٩٠٠ — ١٩١٧) • ومن مؤلفاته : « تاريخ الجوامع والمدارس بتونس » ، و :

« رحلة رئيس الجمهورية فاليار بتونس » ، ويتخلل الوصف تاريخ المدن الاثرية التونسية .

محمد القروي : اصله من مدينة القيروان ، وولد بتونس في النصف الاول من القرن الماضي ، وتوفي سنة ١٩٣٢ ، تعلم بالمدرسة الحربية في باردو ووصل الى رتبة الميرالاي ،وسمي ياورا للوزير خير الدين ، ومديرا للمدرسة الصادقية وحافظاً لخزانة أوراق الدولة ومترجماً . ألف في « تاريخ الحماية » وتاريخ الوزير مصطفى خزنه‌دار ، ووضع مذكرات .

محمد الكعاك : ولد سنة ١٨٦٥ بتونس ، تعلم بالزيتونة وباشر ادارة خزانة اوراق الدولة طوال نصف قرن ، ونشر تاريخ الوزراء التونسيين ، وتاريخ معالم تونس ، وتاريخ الجند التركي ، وتاريخ الصناعات .

محمد عثمان الحشائشي : ١٢٧١ ــ ١٣٣٠ ﻫ (١٨٥٥ ــ ١٩١٢ م) كان حافظاً لخزانة جامع الزيتونة في أواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي . نشر فهرست كتب الخزانة الزيتونية في أربعة اجزاء ، مع تراجم المؤلفين . وضع دراسة عن السنوسية ترجمت الى الفرنسية ، وله عدة دراسات وبحوث منفردة عن العادات والصناعات والاسواق والفولكلور لا تزال في مسوداتها . وله : « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » أو « النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية » ورحلة الى فزان وجغبوب وكفرة (في جنوب برقة) .

محمد السنوسي : (١٨٥٠ ــ ١٩٠٠) محمد بن عثمان بن محمد السنوسي ، أديب ، له اشتغال بالتاريخ ، مولده ووفاته بتونس . له : « مسامرة الظريف بحسن التعريف » وهو تاريخ لقضاة تونس وأئمة جامعها والمفتين .

له مؤلفات متعددة منها خلاف ما ألمحنا اليه « تاريخ الحركة التونسية

الاولى » (١٨٨٤) • وقد طلب منه مؤلفو (دائرة المعارف) البستانية أن يكتب لهم تاريخ امراء الدولة الحسينية بتونس فأملاه ، وادرجوه بنصه •

محمد طراد القيرواني : عاش أواخر القرن الماضي واوائل الحالي ، درس بالزيتونة واشتغل بالتاريخ فنشر فهرست حلل فيه محتويات مكتبة جامع القيروان وكتاب « رفع الجناح عمن دفن بالجناح » • والجناح الاخضر هو مقبرة قريش بالقيروان ومدفن كبار علمائها ، وله ايضاً دراسات عن تاريخ القيروان •

محمد النيفر : (عاش أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي) درس بالزيتونة ، ودرّس فيه ، له : « عنوان الاديب عمن نشأ بتونس من عالم وأديب » وله أيضاً « تاريخ تونس » وهو مطبوع •

صالح الجودي القيرواني : (عاش في أواخر القرن الماضي واوائل الحالي) ، درس بالزيتونة وولي قضاء القيروان • له : « تاريخ قضاة القيروان » ترجم فيه لسبعة واربعين منهم •

ومن المؤرخين الاحياء بتونس اليوم :

حسن حسني عبد الوهاب : تخرج من المدرسة الصادقية وخلف البشير صفر في تدريس التاريخ بالمدرسة الخلدونية فنهج نهجاً حديثاً وتابع دراسات المستشرقين وبحوث الآثاريين الاوربيين فزادت عنايته بتحقيق المصادر واحيائها ، وانقطع للبحث والدرس وتعرف على المخطوطات ومراكز البحث التاريخي في الشرق والغرب ، وتوفر في البداية على دراسة مدينة القيروان وآثارها ، فنشر سنة ١٩١٢ أول كتبه وهو « بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » ، بحث فيه بمعالم المدينة وخططها وحضارتها باسلوب وصفي معتمد على ابراز

نتائج المعرفة التاريخية والبحث الاثري ، فقد صور المدينة في عهدها الزاهر من حيث العمران والعلوم والآداب ، ثم تفرغ لتلخيص التاريخ التونسي عامة فكتب « خاصة تاريخ تونس » الذي طبع لاول مرة سنة ١٩١٤ ، وقسم فيه التاريخ الى ادوار وأوجز في كل دور الكلام على دوله واحداثه السياسية وحالة الحضارة واعلام الرجال ، مع التنبيه الى أهم الآثار الباقية من كل دولة ، وكل دور ، بأسلوب محكم ومنهج حديث ولغة واضحة سهلة .

عثمان الكعاك : ولد بتونس ١٩٠٣ ودرس بالصادقية وبمدرسة اللغات الشرقية وأجيز من جامعة باريس ، وعمل مدرساً للترجمة في المدرسة العليا للغة والآداب العربية ، ومدرساً للآثار وعلم قراءة الخطوط في معهد البحوث العليا ، وحافظاً لدار الكتب الوطنية . له بحوث ودراسات عديدة منها :

التاريخ العام للجزائر ، والمجتمع التونسي على عهد الاغالبة ، ومعاهد التعليم بالمغرب ، ومصادر ابن خلدون ، وتاريخ مدينة باجة ، تاريخ المنستير ، تاريخ ديار والكتب التونسية ، البربر ، الفولكلور التونسي ، تاريخ الحفصيين ، ومعالم طرابلس الدينية ، التعليم في ليبيا على عهد الموحدين ، آثار ليبيا . وتتميز بالاسلوب المشرق والفصول المتصلة والايجاز [1] .

ليبيا (طرابلس الغرب وبرقة)

ينطبق على ليبيا من حيث التأليف التاريخي ما ذكرناه عن التاريخ والمؤرخين في الاقطار العربية الخاضعة بصورة مباشرة او غير مباشرة للحكم العثماني وفيما يلي نذكر ما توصلنا الى معرفته من المؤرخين في ليبيا .

الطيتوري : عبد السلام بن عثمان بن عز الدين بن عبد السلام بن

---

(١) للاستاذ عثمان الكعاك الفضل فيما امدنا ببعض تراجم المؤرخين التونسيين المعاصرين .

أسسر الطيتوري الطرابلسي ، كتب ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م « كتاب الاشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات » و « فتح العالم في مناقب عبد السلام بن سالم » والمؤلف من نسل الولي الصالح المشهور عبد السلام بن سالم الطيتوري .

ابن غلبون : ابو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي المصراتي . ولا نعرف شيئاً عن تاريخ مولده أو وفاته ، ارتحل الى الازهر في طلب العلم ودرس على مشاهيره ورجع الى بلده مصراته عام ١١٣٣ هـ ، وانصرف فيها الى تعليم التفسير والفقه والحديث وغيرهـا من العلوم الدينية .

كتب نحو سنة ١١٥٠ هـ/١٧٣٩ م « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار » وهو شرح قصيدة نظمها الشيخ احمد بن عبد الدائم الانصاري ، ويعرف هذا الشرح بتاريخ ابن غلبون لانه جمع فيه ما يتعلق بطرابلس من أخبار ، وما تعاقبت عليها من دول اسلامية وغيرها ، وما وقع فيها من ثورات وحروب منذ الفتح الاسلامي الى اواسط حكم أحمد باشا القرمنلي ، وهو شرح لقصيدة الانصاري التي أنشأها مدحاً لطرابلس الغرب ورداً على من ذمها بما يعلي قدرها ويرفع من شأنها .

أما ناظم القصيدة فهو الشيخ احمد بن عبد الدائم الانصاري ، « وكان ذا معرفة بالتواريخ الاسلامية ، والاخبار الملوكية ، وكان شاعراً ومن شعره قصيدة استنجد بها بملك القسطنطينية اذ ذاك على الفرنسيس الذين هاجموا طرابلس سنة ١١٤٠ هـ » .

وقد ذكر ابن غلبون ما دفعه لتأليف هذا التاريخ ، وبين طريقته في الكتابة ، وهي لا تخرج عن طريقة مؤرخي المسلمين القدامى ، وبعد الدعاء المألوف في مقدمة الكتاب يقول ابن غلبون في شرح ذلك : « ..

وبعد فان القصيد الذي أنشده الفاضل .. سيدي احمد بن عبد الدائم الانصاري في مدح طرابلس معرضاً فيه بمن هجاها ، وهو وان صرح بالمدح فيه اجمالا ـ يحتاج الى التفصيل بذكر جزئيات أخبارها ، ولم أر من تعرض لجمعهـا على حدة من المؤرخين ، وانما ذكرت مشتتة في الصحف والدواوين ، فقد امرني بجمعها من ادام الله سعوده وحرس لاحياء الدين والمكرمات وجوده .. كافل المملكة الطرابلسية ، واكرم من خففت عليه الالوية العثمانية تيمنا ببركاته ، وتلقياً للنجح مما رويت أو شاهدت من آثارها ، سالكاً فيه سبيل الاختصار ، راجياً التوفيق ».

وبدأ ابن غلبون بذكر « من ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار »، وشرح سبب دخول البربر برقة : والفتح العربي لبرقة منذ زمن عمرو بن العاص ، وحصار القائم بالله لطرابلس سنة ٣٠٢ هـ ، والغزوة الهلالية ، وولاة طرابلس من الملثمين المرابطين فالموحدين .. حتى العثمانيين والقرامنليين . ويورد ما جرى من احداث الولاة والياً والياً ، وبين آونة وأخرى يورد أبياتاً من قصيدة الشيخ الانصاري ، ثم يشرحها شرحاً لغوياً ، ومن خلالها يستطرد الى بعض غرائب الاخبار التي شهـدها أو سمعها .

الشيخ محمد بن عبد الكريم : المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م من مؤرخي الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، ولد في طرابلس الغرب وتلقى العلوم عن اعلام عصره فيها ، تولى النيابة في وطنه بعد والده ، وألف كتاباً سماه : « الارشاد بمعرفة الاجداد » ضمنّه ذكر أسلافـه ، وكان أصلهم من الاندلس ثم انتقلوا الى طرابلس الغرب وعرفوا بآل النائب ، وكان ابوه فقيهاً شاعراً توفي سنة ١٧٧٥ .

الطاهر احمد الزاوي الطرابلسي : ولد سنة ١٨٩٠ في الحرشا احدى قرى مدينة الزاوية بطرابلس الغرب ، وحفظ القرآن ببلده ودرس على

بعض المشايخ فيهـا ، والتحق بالازهر لاتسـام دراسته سنة ١٩١٢ ، وعاد الى طرابلس ١٩١٩ ، وبقي مع المجاهدين ضد الطليان الى سنة ١٧٢٤ « وفي هذه السنة تغلب الطليان على الطرابلسيين فهاجرت الى مصـر والتحقت بالازهر ثانية » •• وأجيز منه ، ثم عمل في وزارة الاوقاف بمصر ، وما زال مقيماً فيهـا •

مؤلفاته : « تاريخ الفتح العربي في ليبيا •

عالج فيه تاريخ ما يسمى الآن بليبيا منذ اصول البربر فيها ، وتناول الفتح العربي بشتى مراحـله ، كما تحدث عن الصـراع بين العرب والبيزنطيين ، ووقف بتاريخه حتى بداية ولاية طورغود باشا التركي ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م • وقد اعتمد المؤلف في كتابته على المصادر العربية فحسب ، وعلى دائرة المعارف الايطالية •

سليمان الباروني : ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ ــ ١٣٥٨ / ١٩٤٠ م • هو سليمان (باشا) ابن عبد الله بن يحيى الباروني الطرابلسي ، زعيـم سياسي ولد في كاباو من بلاد طرابلس الغرب ، وتعلم في تونس والجزائر ومصر ، وعاد الى وطنه فانتقد سياسة الدولة العثمانية ، فأبعد عن بلده ، فقصد مصر حيث أقام حتى اعلان الدستور العثماني (١٩٠٨) فاختير نائباً عن طرابلس في مجلس المبعوثين بالآستانة الى أن حدث الغزو الايطالي لطرابلس (١٩١١) فعاد الى بلده وواصل النضال مدة ثم انصرف الى تونس ، فالآستانة ، ثم عاد الى بلده لمباشرة القتال ضـد الايطاليين • وبعد ان عقد الصلح مع ايطاليا ١٩١٩ رحل الى أوربا ، وحج سنة ١٩٢٤ ، وذهب الى مسقط ثم الى عمان ، وكان أباضي المذهب فجعله سلطان مسقط مستشاراً لحكومته (١٩٣٥) فأقام عامين ومات في بومباي وهو يستشفي فيها • له : « الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية » •

ومن الأحيـــاء :

محمد بن مسعود : درس بطرابلس الغرب ، وتعلم الايطالية وعمل في ميدان التاريخ وتدريسه ، له « تاريخ طرابلس » و « جغرافيـــة طرابلس » .

مصطفى بعيّو : تلقى العلم في مدارس طرابلس ، وتخرج من جامعة الاسكندرية حاملا اجازة في التاريخ ، وأكمل تعليمه في اميركا وباشر التعليم في الجامعة الليبية ، له : « دراسات من تاريخ ليبيا » .
و « المجمل في تاريخ ليبيا » .

المؤرخـون في السـودان

لاتختلف طريقة المؤرخين فيالسودانالغربي والشرقي عن بقيةالاقطار العربية الاخرى غير انه لم تصل الى السودان مؤثرات النهضة الفكرية التي أدت الى نشاط حركة التأليف التاريخي في مصر ، ولا يكاد يوجد في هذا القطر العربي الواقع في اقصى الجنوب من الوطن العربي الافريقي الا قلة من الكتابات التي تتصل بالانساب وبعض الشئون المحلية .

أحمـد بابا : هو أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد .. بن يحيي التكروري الصنهاجي المسوفي التسبكتي . ولد في قرية عروان قرب تسبكتو سنة ٩٦٣ هـ/١٥٥٣ م ودرس العلوم الاسلامية على أبيه وجده وكثير من أفراد أسرته ، وكان اخوانه في الدين يعتبرونه فقيهاً مالكياً عظيماً ، ولما رفض ان يعترف باحتلال الجند المراكشي لمدينـة تسبكتو سنة ١٠٠٢ هـ قبض عليه وعلى أفراد أسرته القائد محمود زرقون، واقتيد الى مراكش وظل في السجن هناك سنتين ثم اطلق سراحه على أن يغادر قصبة مراكش ، فانقطع للتعليم في جامع الشرفاء . ولما ولي السلطنة مولاي زيدان اذن له بالعودة (١٦٠٥ ــ ١٦٠٦ م) مع من

بقي من اسرته الى موطنه تبكتو ، وهناك كرس بقية حياته لتعليم الفقه ، وتوفي ١٠٣٦ هـ/١٦٢٧ م • له : « المواهب القدوسية في المناقب السنوسية » وهو مختصر ترجمة السنوسي لمحمد الملالي التلمساني • وله « تكملة الديباج لابن فرحون » ـ وفيه تراجم المالكية الى سنة ١٠٠٥ هـ وترجم الى الاسبانية ، وطبعت الترجمة مع الاصل العربي سنة ١٨٦٥ م في اسبانيا • و « كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج » مختصر مرتب على الحروف الابجدية •

السعدي : عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ، ولد في تسبكتو سنة ١٥٩٦ م ودرس فيها على أحمد بابا ، وسافر الى جنى على نهر النيجر ، وتولى امامة جامع سنغور ، وارتحل بعد ذلك الى عدة ممالك مجاورة للسودان الغربي ، وتقلب في مناصب مختلفة واتيح له فترات راحة عكف فيها على التأليف وتوفي سنة ١٠٦٦ هـ • له : « تاريخ السودان » قسمه الى ٣٨ باباً ، وفصل عن مملكة سونرهاي وما تقلب عليها الى موت المؤلف ، صدَّره بخلاصة تاريخية لاهم احداث السودان وخصوصاً تنبكت (تسبكتو) وماسنه وسعي وملي وجنى ، وعلاقات هذه الممالك مع مراكش وملوك المغرب • وفي الكتاب ايضاً أبواب لتراجم الملوك والباشوات ، ويتخلله كثير من الفوائد الاجتماعية والادبية •

أما السودان الغربي فنعني به السودان في حدوده الحالية • وثمة ثلاث مراحل واضحة للكتابة التاريخية حول السودان منذ سنة ١٨٢٠ أي منذ الاحتـــلال المصري ، وهذه المراحل تقابل انواع الحكم الثلاثة التي وجدت خلال المائة وثلاثين سنة الماضية : وهي الفترة المصرية ١٨٢٠ ـ ١٨٨١ وهي فترة فقيرة بالكتابات التاريخية ، الفترة المهدية (١٨٨١ ـ ١٨٩٨) وكتبت فيها بعض الكتابات الشعبية ذات الاهمية المحدودة ؛ خاصة حول سيرة المهدي وموت غوردن ، وفترة الاحتلال

الثنائي من (١٨٩٨ ـــ ١٩٥٦) . ولقد كتب الاخباريون المحليون في السيرة والانساب كتباً هامة عن فترة الفونج ، ولكن ليس لها أهمية في توضيح الفترة المصرية . وأهم المؤرخين في السودان هم :

الحلفاوي : محمد نور بن ضيف الله الحلفاوي المتوفي ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩ م وهو مؤرخ معروف في السودان الشرقي كتب عن تاريخ الصلحاء في بلده وعن نفوذ زاويتهم « الطبقات في خصائص الاولياء والصالحين والعلماء في السودان » ، طبع سنة ١٩٣٠ .

مجهول : كتب عن تاريخ سنار حتى سنة ١٢٣٥ هـ/١٨١٩ م .

مجهول : كتب حوالي ١٢٨٠/١٨٦٣ عن « تاريخ ملوك الفونج بالسودان واقاليمه الى حكم محمد باشا سعيد بن محمد علي باشا رأس العائلة الملوكية بمصر » تبتديء منذ تأسيس سنار سنة ٩١٠/١٥٠٤ حتى الفتح المصري وقد استعمل فيه كتاب الطبقات لحمد بن ضيف الله .

ابراهيم بن عبد الدافع : المتوفي سنة ١٨٨٤ أثناء حصار الخرطوم،له « تاريخ عبد الدافع » ويشمل تاريخ سنار القديم والفتح المصري .ومؤلفه من الفتيحاب الجعليين ، وعاش أكثر من مئة سنة وعاصر آخر ملوك سنار وكتب عن خبره . ويصل فيه الى زمن احمد ممتاز باشا (١٨٧١ ـــ ١٩٠٢) والمؤلف حذر من توجيه أي نقد للحكومة .

الشيخ محمد الطيب الملاوي . ـ هو محمد الطيب بن الشيخ الامام ابن التنبكتي من أعيان دارفور الذي أتي بهم الى مصر بعد الفتح سنة ١٩٠٣ .

له كتاب عن تاريخ دارفور القديم طبع بالقاهرة عام ١٩٤٧ .

اسماعيل عبد القادر الكردوفاني . ـ لا نعرف عنه الا ما أورده نعوم شقير في تلخيص ترجمتـــه . هو ابن اخت للسيد احمـــد لولي

الكردوفاني المشهور ، وقد قضى في الازهر مع خاله ثماني سنين ثم عاد الى الابيض فخدم فيها مفتياً للمديرية ، الى أن كانت الثورة المهدية ، وأتى المهدي الى كابا مهاجماً الابيض فخرج مع أهلها لاستقباله ، الى أن توفي المهدي ، فصحب خليفته التعايشي الذي عهد اليه بتأليف سيرة المهدي ، وما كان في المهدية من الوقائع والفتوحات لتكون شاهدة بفضل المهدية ومؤيدة لملك خليفتها في السودان • وشمر الكردوفاني عن ساعد الجد ، وكتب الى جميع العمال في الجهات فكتبوا اليه التقارير الوافية عما جرى على يدهم من الوقائع والفتوحات ، وجمع اليه من كان في أم درمان من القواد والمحاربين ؛ فألف سيرة المهدي وضمنها وقائعه منذ قيامه الى ما قبل وقعة طوشكي اي منذ رمضان ١٢٩٨ هـ الى ٣ ربيع الاول ١٣٠٦ هـ ، وقضى في تأليفها بضعة عشر شهراً تحرى فيها الحقيقة ما أمكن ، ولكنه اضطر الى كثير من الاطراء والتملق للمهدي وخليفته والى ذكر الكرامات والخوارق المنسوبة اليهما مما لم يكن في اعتقاده ، فسر بها الخليفة وأمر بنسخها وتوزيعها • وعلت منزلة المؤلف فحسده والحساد ، وشهدوا ضده ، ففعلت هذه الوشايات فعلها ، فنفي مؤلف السيرة الى الرجاف ، وأرسله مع مركب بحري سنة ١٨٣٣ وأمر بان تحرق سيرته اينما وجدت ، فأحرقت كلها الا نسخة منها خبأها احد كتاب الخليفة حرصاً على حقائقها • ولبث الكردوفاني في منفاه حتى مات اوائل ١٨٩٧ م •

المكي شبيكة • ــ الاستاذ في جامعة الخرطوم ، ألف كتاب «السودان في قرن ١٨١٩ ــ ١٩١٩ » اعتمد في تأليفه على وثائق الحكومة المصرية والفترة المهدية ، والعشرين عاماً الاولى من فترة الحكم الثنائي •

* * *

المصادر الاساسية

المنشورات العربيـة

ابو حنيفة الدينوري (احمد بن داود) ، الاخبار الطوال .

كتاب حققه عبد المنعم عامر وراجعه الدكتور جمال الدين الشيال ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي في القاهرة سنة ١٩٦٠ .

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي) ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين .

أحسن طبعاته الطبعة التي حققها الدكتور محمد حلمي محمد احمد في القاهرة سنة ١٩٥٦ ولكنها لم تنجز بعد .

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسمـاعيل المقدسي) ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع .

حققه محمد زاهد بن الحسن الكوثري ونشره مكتب الثقافـة الاسلامية في القاهرة سنة ١٩٤٧ .

ابو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ابي الفداء صاحب حماة) ، المختصر في أخبار البشر .

كتاب في أربعة أجزاء نشرته المطبعة الحسينية في مصر سنة ١٣٢٥ هـ .

ابو المحاسن (يوسف بن تـغْـري بردي الاتابكي) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . وهو كتاب في اثني عشر جزءاً اصدرته دار الكتب المصرية بالقاهرة منذ ١٩٢٩ م .

ابن الابّار (ابو عبد الله بن ابي بكر القضاعي البلنسي) ، التكملة لكتاب الصلة .

وهو كتاب في جزأين يتمم تاريخ أعلام الاندلس حتى وفاته سنة ٦٥٩ هـ • نشره في القاهرة عزت العطار الحسيني سنة ١٩٥٥ •

ابن الاثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني) • كتاب في تسعة أجزاء نشره الشيخ عبد الوهاب النجار في القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ •

ابن اياس ، صفحات لم تنشر من « بدائع الزهور في وقائع الدهور » تحقيق محمد مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ •

ابن بشكوال (ابو القاسم خلف بن عبد الملك) ، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم •

وهو كتاب في جزأين يدرس اعلام الاندلس الى وفاة المؤلف سنة ٥٧٨ هـ نشره عزت العطار الحسيني • القاهرة ١٩٥٥ •

ابن الجوزي (ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي) ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم • وهو كتاب في عشرة أجزاء (الاجزاء الاربعة الاولى منه مفقودة) نشرته مطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدر آباد الدكن (الهند) سنة ١٣٥٩ هـ •

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربي) ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر •

وهو المعروف باسم : تاريخ ابن خلدون •

كتاب في ثمانية أجزاء • الطبعة الثانية صدرت عن دار الكتاب اللبناني في بيروت سنة ١٩٦١ •

ابن خلكان (شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر) ، وفيات

الاعيان وأنباء ابناء الزمان . وهو في ستة مجلدات . نشرها وحققها الاستاذ محمد محي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨ .

ابن شداد (بهاء الدين ابو المحاسن يوسف) ، سيرة صلاح الدين ابن أيوب . وهو كتاب نشره المستشرقون منذ أواسط القرن الثامن عشر أما طبعته العربية فقد صدرت في القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم) ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة .

نشره معهد الدراسات الاسلامية (الفرنسي) بدمشق سنة ١٩٦٢ وحققه الدكتور سامي الدهان .

ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا العلوي) ، كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية .

نشرته شركة طبع الكتب العربية بمصر سنة ١٣١٧ هـ .

ابن عبد ربه (ابو عمر احمد بن محمد) ، العقد الفريد .

كتاب في سبعة أجزاء . حققه ونشره ، أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابياري في القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٤٨ .

ابن عذاري المراكشي (ويدعى كذلك ابن عذاري وهو ابو عبد الله محمد المراكشي) ، البيان المعرب في أخبار المغرب . نشره المستشرق دوزي في ليدن واسمه بالفرنسية : تاريخ افريقيا واسبانيا وهو كتاب في جزأين نشر لاول مرة سنة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ . ولهذا الكتاب طبعة عربية في جزأين صدرت عن مكتبة صادر في بيروت سنة ١٩٥٠ .

ابن الفرضي (ابو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي) ،

تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس (حتى وفاة المؤلف سنة ٤٠٣ هـ)

كتاب في جزأين نشره عزت العطار الحسيني في القاهرة سنة ١٩٥٤.

ابن قتيبة الدينوري (ابو محمد عبد الله بن مسلم) ، عيون الاخبار كتاب في أربعة أجزاء نشرتها دار الكتب المصرية ١٩٢٤ — ١٩٣٠ . وأعادت طبعها وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٣ .

ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ، الامامة والسياسة . وهو كتاب في جزأين ، ورجح أنه لابن قتيبة . ويعرف الكتاب باسم : تاريخ الخلفاء .

أصدرته مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

ابن النديم ، الفهرست . نشرته المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .

ابن هشام (محمد عبد الملك بن هشام) ، سيرة النبي .

كتاب في أربعة أجزاء . حققه محمد محي عبد الحميد ونشرته المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة سنة ١٩٣٧ .

وهذه السيرة هي عبارة عن تهذيب سيرة محمد بن اسحاق .

ابن واصل الحموي (ابو عبد الله جمال الدين محمد بن سالم) ، مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب .

كتاب في ثلاثة أجزاء حققه الدكتور جمال الدين الشيال وطبعته مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ .

الاصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد) ، مقاتل الطالبيين حققه أحمد صقر . القاهرة ١٩٤٩ .

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود) ، أنساب الاشراف .

وقد أخرج هذا الكتاب معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية . وصدر منه الجزء الاول عن دار المعارف بمصر وهو بتحقيق الدكتور محمد حميد الله . القاهرة ١٩٥٩ .

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود) ، فتوح البلدان .

حققه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة ١٩٥٩ . وهذه النسخة قوبلت على نسخة الاستاذ الشنقيطي المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

الجهشياري (ابو عبد الله محمد بن عبدوس) ، كتاب الوزراء والكتاب .

حققه كل من مصطفى السقا وابراهيه الابياري وعبد الحفيظ شلبي. صدر في القاهرة ١٩٣٨ .

الخطيب البغدادي (ابو بكر احمد بن علي الخطيب) ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام (منذ تأسيسها الى وفاته سنة ٤٦٣ هـ) . وهو كتاب في أربعة عشر جزءاً أصدرته مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد سنة ١٩٣١ .

الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان) ، سير أعلام النبلاء . وهو كتاب في عدة مجلدات ، اصدره معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية. صدر منه حتى الآن المجلدات الثلاثة الاولى عن مكتبة دار المعارف بمصر : الاول منها بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد والثاني بتحقيق الاستاذ ابراهيم الابياري والثالث بتحقيق الدكتور محمد اسعد طلس .

الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد عثمان) ، تاريخ الاسلام

وطبقات المشاهير والاعلام • وقد أصدر منه حسام الدين القدسي خمسة أجزاء في القاهرة سنة ١٣٦٧ ﻫ ولم يتم اصدار باقي اجزاء الكتاب الى الآن•

السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ • نشره حسام الدين القدسي في دمشق ١٣٤٩ ﻫ •

الدكتور السيد الباز العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية • القاهرة ١٩٦٢ •

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي) ، تاريخ الخلفاء • حققه محمد محي الدين عبد الحميد • وأصدرته المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة ١٩٥٢ •

الصابي (ابو الحسن الهلال بن المحسن الصابي) ، الوزراء أو تحفة الامراء في تاريخ الوزراء • حققه عبد الستار احمد فراج • أصدرته مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة سنة ١٩٥٨ •

الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير) ، تاريخ الامم والملوك • كتاب في ثمانية أجزاء • نشرته المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة سنة ١٩٣٩

القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا • كتاب في اربعة عشر جزءاً أصدرته المطبعة الاميرية بين سنتي ١٩١٠ — ١٩٢٠ ونظراً لانه فقد فقد أعادت وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر اصداره سنة ١٩٦٣ •

الكتبي (محمد بن شاكر بن احمد) ، فوات الوفيات • كتاب في جزأين حققه الاستاذ محي الدين عبد الحميد وصدر في القاهرة سنة ١٩٥١ •

الكندي (محمد بن يوسف) ، ولاة مصر • حققه الدكتور حسين نصار ، أصدرته مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٩ •

المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين بن علي) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر . كتاب في اربعة اجزاء . نشره وحققه الاستاذ محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٤٨ .

المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا . نشره وحققه الدكتور جمال الدين الشيال في القاهرة ١٩٤٨ .

المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . صححه ووضع حواشيه الدكتور مصطفى زيادة . وهو كتاب في أربعة أجزاء . لم يصدر منها حتى ١٩٦٣ سوى الجزأين الاول والثاني وذلك في ستة أقسام أي كتب . وقد نشرت هذه الكتب لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة .

المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، وقد حققه ونشره الدكتور عبد المجيد عابدين . مصر سنة ١٩٦١ .

المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك . نشره وحققه الدكتور جمال الدين الشيال في القاهرة ١٩٥٥ .

المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . وهو كتاب في ثلاثة أجزاء كبيرة . نشرته مكتبة العرفان ، صيدا (لبنان) سنة ١٩٥٩ .

وللمقريزي كتب كثيرة أخرى ليست لها علاقة بموضوعنا فلم ندرجها في ثبت المصادر هذا .

المقري (أحمد بن محمد المقري التلمساني) ، نفح الطيب من غصن

الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب • وهو كتاب في عشرة أجزاء حققه ونشره محمد محي الدين عبد الحميد • القاهرة المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٤٩ •

النويري (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب) ؛ نهاية الارب في فنون الادب • كتاب في ثمانية عشر جزءاً أصدرته دار الكتب الاهلية بمصر • وقد أصدرته مؤخرا وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر سنة ١٩٦٣ •

الواقدي (محمد بن عمر) ؛ فتوح الشام • كتاب في جزأين نشرته المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة •

اليعقوبي (أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) ، تاريخ اليعقوبي • وهو كتاب في جزأين • نشرته مكتبة صادر في بيروت سنة ١٩٦٠ •

أحمد أمين ، ضحى الاسلام • كتاب في ثلاثة أجزاء • أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة • الطبعة الثانية ١٩٣٤ م •

ادوارد كار ، ما هو التاريخ ، ترجمة احمد حمدي محمود • مراجعة علي أدهم القاهرة ١٩٦٢ •

ألدو ميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي • ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى وراجعه على الاصل الفرنسي الدكتور حسين فوزي • كتاب أصدرته الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية القاهرة سنة ١٩٦٢ •

بدوي (الدكتور عبد الرحمن) ، مناهج البحث العلمي ، القاهرة ١٩٦٣ •

بدوي (الدكتور عبد الرحمن) النقد التاريخي ، القاهرة ١٩٦٣ •

الدكتور جمال الدين الشيال • التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٨ •

عثمان (الدكتور حسن) ، منهج البحث التاريخي • القاهرة ١٩٤٣•

الدكتور حسين نصار ، نشأة التدوين التاريخي عند العرب • أصدرته مكتبة النهضة المصرية في القاهرة •

دائرة المعارف الاسلامية • تراجع المجلدات التي ترجمت الى اللغة العربية من قبل لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية • وفي المجلد ٤ ؛ ص ٤٨٣ ــ ٥١٦ مقال للمستشرق الانكليزي جب عن علم التاريخ •

كما تراجع في الدائرة المقالات والتعليقات التي كتبت عن مؤرخينا العرب والمسلمين حسب التسلسل الابجدي لاسمائهم •

رستم (الدكتور أسد) ، مصطلح التاريخ ، الطبعة الثانية ، صيدا وبيروت ١٩٥٥ •

زريق (الدكتور قسطنطين) ، نحن والتاريخ ، بيروت ١٩٥٩ •

سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي • ترجمه عن الانكليزية رياض رأفت في مصر •

سيديو (لويس أميلي) تاريخ العرب العام بالفرنسية • نقله الى العربية عادل زعيتر سنة ١٩٤٨ •

الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ • وهو الكتاب ذو الرقم ١٠ من سلسلة المكتبة التاريخية التي أصدرتها دار القلم في القاهرة باشراف الدكتور احمد عزت عبد الكريم سنة ١٩٦٠ •

فتحي عثمان ، أضواء على التاريخ الاسلامي مصر ١٩٥٦ •

فرانز روزنتال (Franz Rosenthal) : علم التاريخ عند المسلمين•

ترجمه الدكتور صالح العلي وراجعه محمد توفيق حسين • ونشرته مكتبة المثنّى ببغداد لحساب مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر •

لوسترانج (المستشرق البريطاني غي لوسترانج) (Gay le Strange) بغداد في عهد الخلافة العباسية • ترجمه عن الانكليزية سنة ١٩٣٦ بشير يوسف فرنسيس واصدرته المطبعة العربية في بغداد •

محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى • وهو في ثمانية مجلدات طبعة بيروت (دار صادر) ١٩٥٧ • ومقدمة الطبعة بقلم الاستاذ احسان عباس •

محمد عبد الغني حسن ، علم التاريخ عند العرب • وهو الكتاب التاسع من سلسلة « مع العرب » التي اصدرتها مؤسسة المطبوعات الحديثة في القاهرة ١٩٦١ •

محمد عبد الغني حسن ، معرض الادب والتاريخ الاسلامي ، القاهرة ١٩٥٨ •

مسكويه (أبو علي احمد بن محمد) ، تجارب الامم • كتاب في عدة أجزاء نشر اربعة منها المستشرق آمدروز H. F. Amedroz سنة ١٩١٣ •

ويتبع هذا الكتاب كتاب آخر لابي شجاع (محمد بن الحسين ظهير الدين الروذراوري) ؛ واسمه : ذيل كتاب تجارب الامم • نشره كذلك المستشرق المذكور سنة ١٩١٦ •

الدكتور محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن التاسع • القاهرة •

مرغليوث (المستشرق الانكليزي) ، دراسات عن المؤرخين العرب • ترجمة الدكتور حسين نصار • طبعة دار الثقافة بيروت •

الدكتور نقولا زيادة ، الرحّالة العرب. وهو الكتاب ذو الرقم ٩٧ في مشروع الالف كتاب التي تصدرها وزارة التربية والتعليم في مصر ١٩٥٦ .

عباس العزّاوي ، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان . صدر الجزء الاول . بغداد ١٩٥٧ .

عبد السلام هارون ، تحقيق النصوص ونشرها . مصر ١٩٥٤ .

الدكتور عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٦٠ .

علي أدهم . بعض مؤرخي الاسلام . القاهرة .

كارل بروكلمان (مستشرق الماني) . تاريخ الادب العربي . ترجمه الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار . صدر منه حتى الآن ثلاثة مجلدات في مكتبة دار المعارف بمصر . القاهرة ١٩٥٩ .

كاسيرر (ارنست) ، في المعرفة التاريخية . ترجمة أحمد حمدي محمود ومراجعة علي أدهم القاهرة .

كولنجوود (ر. ج.) ، فكرة التاريخ . ترجمه محمد بكير خليل وراجعه محمد عبد الواحد خلاف القاهرة ١٩٦١ .

وولش (و. ه.) مدخل لفلسفة التاريخ . ترجمة احمد حمدي محمود ، ومراجعة محمد بكير خليل القاهرة ١٩٦٢ .

هرنشو (ف. ج. س) ، علم التاريخ . ترجمة عبد الحميد العبادي، القاهرة ١٩٣٧ .

هورس (جوزيف) ، قيمة التاريخ ، (دراسة فلسفية) . ترجمة الشيخ نسيب وهيبة الخازن . بيروت ١٩٦٤ .

هيوج • اتكن ، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية • ترجمة الدكتور محمود زايد • تقـديم الدكتور قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٦٣ •

ياقوت الحموي ، معجم الادباء • وهو في عشرين جزءاً • طبعة دار المأمون في القاهرة ١٩٣٦ • وهذه الطبعة منقولة عن التي حققها المستشرق البريطاني مرغليوث •

يوسف هوروفيتش Josef Horovitz (وهو مستشرق الماني) • المغازي الاولى ومؤلفوها • ترجمة الدكتور حسين نصار • طبعة القاهرة ١٩٤٩ (الطبعة الاولى) •

المؤلفات الاجنبية

ARON (Raymond), *Dimensions de la conscience historique,* Plon , Paris, 1961.

Bailey, Cyril, (ed.), *the legacy of Rome,* 1923.

Berdiaeff (Nicolas), *le sens de l'Histoire,* Paris 1948.

Bossuat (André), *les chroniqueurs français du Moyen Age* (Extrait), t 1 et 2, Paris 1937.

Brockelmann, Carl, *Geschichte der Arabischen literatur,* vol 2, Leiden 1949.

وذيله الثاني :

Gal, *Supplementband* 2 Leiden 1938.

Carr (E. H.), *What is History, Pelican* Book 1961.

Chatelet (François), *la naissance de l'Histoire,* Paris 1962.

Clement (Marcel), *le sens de l'Histoire,* Paris 1958.

Dardel (Eric), *l'Histoire science du concert,* Paris 1946.

Duff, J. W. — *the writers of Rome.*

Encyclopedia Britannica.

La Grande Encyclopédie, Paris, 1885 - 1902.

بأجزائها المختلفة

Encyclopédie française permanente (Directeur Lucien febvre).

Encyclopédie Larousse.

Encyclopédie de l'Islam, 4 tomes, Paris 1913 - 1934.

Glotz, *Histoire du Moyen* Age.

باجزائه المختلفة

Glover, T. R. , — *Herodotus.*

Halphen (Louis), *Introduction à l'Histoire,* Paris 1946.

Langlois (Ch. - V.) et Ch. Seignobos, *Introduction aux Etudes historiques,* Paris, 1897.

B. Lewis et P. M. Holt *(Editors),*

Historians of the Middle East, Lodon 1962.

Marrou (H. I.), *De la connaissance historique,* Paris 1962.

Ostrogorsky, g. — *History of the Byzantine state,* Trans. by. J. Hussey. , 1956 (*Introduction and other relevant sections*).

Pauphilet (Albert), *Historiens et chroniqueurs du Moyen Age,* Bib. NRF de la Pleiade , Paris 1952.

Poland, Franz, E. Reisinger, and R. A. Wagner - *the culture of Ancient Greece and Rome.*

Polybius, Translated by Shuckburgh, 1889, 2 vols, *the ancient historian who is ourchief source for the third and second centuries B. C.*

Procopius - ed. J. Hatry, Leipzig, 1905, 1906, 1913.

E. Lévi - Provençal, *les Historiens des chorfa,* Paris 1922.

Rowse, A. L. , *the Use of History,* London 1948.

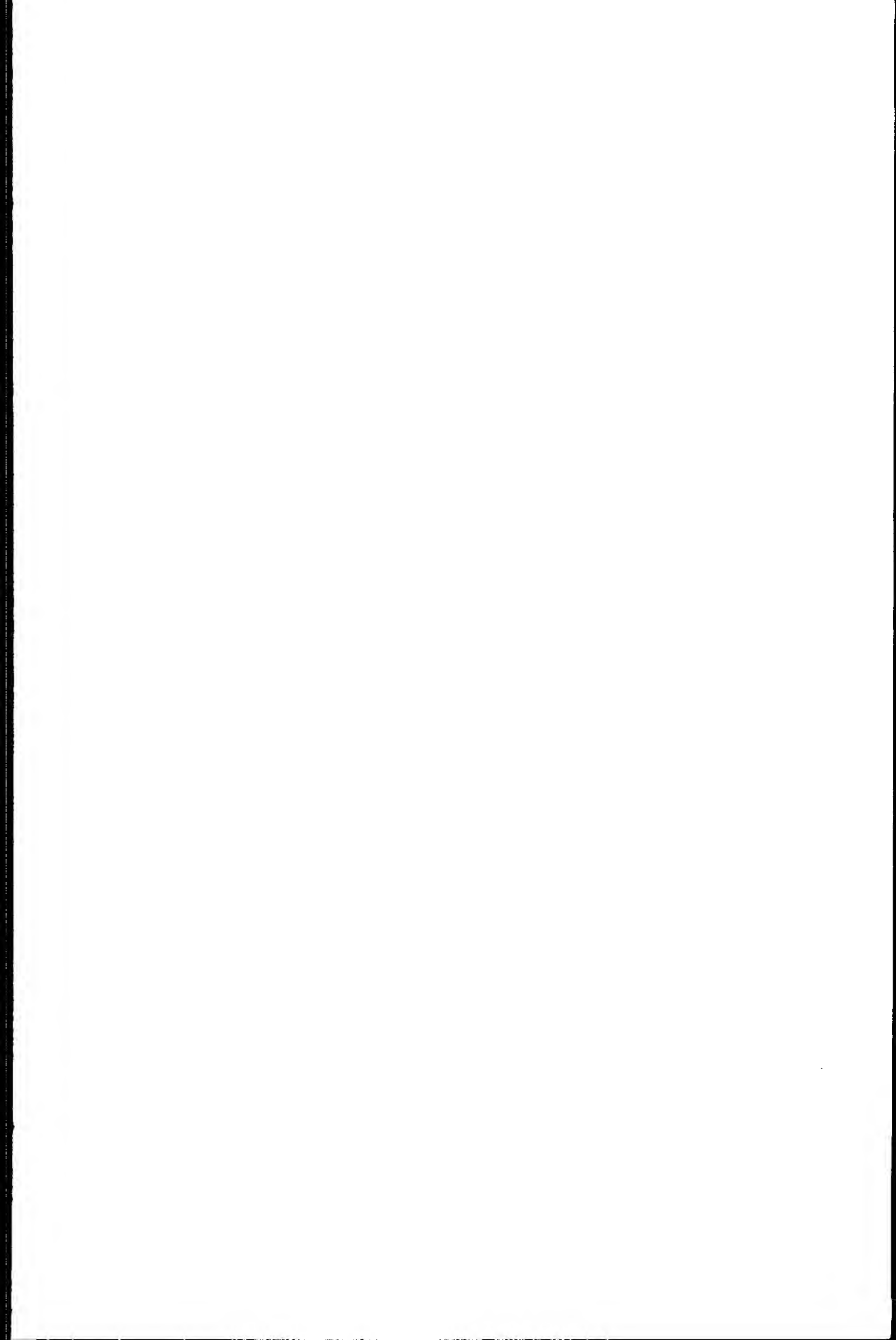
Samaran (Charles), *l'Histoire et ses Méthodes,* Paris 1961.

Sédillot (René), *l'histoire n'a pas de sens,* Paris 1965.

Toynbee, A. J. — *greek Historical thought from Homer to Heraclius.* 2 Vols. , 1924.

Vasiliev. A. A. — *history of the Byzantine Empire.* (324 - 1453), 2 Vols. 1964. (Introduction and Chap, 1).

Wright, F. A. — *History of Later greek Literature* (from 323 B. C. to 565 A. D.), 1932.



الفهرس

المدخل الى التاريخ

القسم الاول

التاريخ وما قبل التاريخ

الفصل الاول

التـــاريخ

موضوعـــه وفائدته

الفصل الثاني

ما قبـــل التـــاريخ

القسم الثاني

علم التاريخ

الفصل الاول

العصور التاريخية

الفصل الرابع

التاريخ والمؤرخون البيزنطيون

الفصل الخامس

التاريخ والمؤرخون الاوربيون

الفصل السادس

مؤرخو الحروب الصليبية في الغرب الاوربي

التاريخ في العصور الحديثة

الفصل السابع

التاريخ والمؤرخون في العصور الحديثة

الفصل العاشر

التاريخ والمؤرخون العرب في العصور الحديثة

الفصل الحادي عشر

التاريخ والمؤرخون في مصر والشام منذ القرن التاسع عشر

نعمان بن عبده القساطلي الدمشقي • عيسى اسكندر المعلوف ٥٨٤ • يوسف الدبس • جرجي زيدان ٥٨٥ • الشيخ كامل الغزي • الشيخ عبد الرزاق البيطار • الشيخ محمد راغب الطباخ • محمد كرد علي • رفيق العظم ٥٨٦ • أمين الريحاني ٥٨٧ •

الفصل الثاني عشر

التاريخ والمؤرخون في العراق والجزيرة العربية

الفصل الثالث عشر

التاريخ والمؤرخون في أقطار المغرب العربي

التاريخ والمؤرخون في الجزائر

التاريخ والمؤرخون في تونس

التاريخ والمؤرخون في ليبيا

التاريخ والمؤرخون في السودان

المصادر الاساسية

تم طبع هــذا الكتاب

في ٣١ آب ١٩٦٥